
المركز القومي للترجمة
نوبل في الأدب 1981
إلياس كانتي
الجماهير و السلطة
ترجمة : محمد أبو رحمة
مراجعة : عبدالحميد مرزوق
فكر
3107
المحروسة

الجماهير والسلطة

تأليف: إلياس كانتى

ترجمة: محمد أبو رحمة

مراجعة: عبد الحميد مرزوق



تأسس فى أكتوبر 2006
تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث



قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف : 284432157 - 02 - 002
www.mahrousaeg.com
e.mail : info@mahrousaeg.com
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران

- الجماهير والسلطة
- إلياس كانتى
- محمد أبو رحمة
- عبد الحميد مرزوق

....

- العدد: 3107
- الطبعة الأولى: 2018
- اللغة: الألمانية
- رقم الإيداع: 14536
- الترقيم الدولى: 0-725--313--977-978

هذه ترجمة كتاب:

Massw und Macht
Von: Elias Canetti

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الجماهير والسلطة

تأليف: إلياس كانـتي

ترجمة: محمد أبو رحمة

مراجعة: عبد الحميد مرزوق



فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كانتي، هنترإلياس ١٩٠٥-١٩٩٤
الجماهير والسلطة / تأليف: إلياس كانتي؛
ترجمة: محمد أبو رحمة، مراجعة: عبد الحميد مرزوق.-ط1.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، 2018.
606 ص؛ 17 × 24

تدمك 978-977-313-725-0
1 - الأنثروبولوچيا الاجتماعية
2 - السلطة الإجتماعية
أ- أبورحمة، محمد (مترجم)
ب- مرزوق، عبدالحميد (مراجع)
ج- العنوان
301.2
رقم الإيداع: ١٤٥٣٦ / ٢٠١٨

المحتويات

الكتلة



تحول رهبة الاحتكاك

إن أكثر ما يخشاه الإنسان هو الاحتكاك بشيءٍ يجهله، لذا فهو يسعى لرؤية ما يحك جلده، ويبتغي معرفته، أو تصنيفه على أقل تقدير؛ فالإنسان يتفادى ملامسة كل ما هو غريب عنه، ففي أثناء الليل أو في أي مكانٍ يسوده الظلام، قد يتحول الفزع من الاحتكاك بشيء على غير المتوقع إلى حالةٍ من الذعر؛ فما يرتديه الإنسان من ملابس لا يمكن أن يوفر له في حد ذاته الأمان بدرجة كافية، فليس هناك أسهل من تمزيق الملابس، وليس هناك أسهل من النفاذ إلى لحم المهاجَم، وتجريده حتى يكون بلا حماية، عاريا ناعما.

ما من مسافة صنعها الإنسان حول نفسه إلا وقد فرضتها عليه تلك الرهبة من الاحتكاك، فالناس يحبسون أنفسهم في منازل لا تسمح لأحدٍ بالدخول إليها، حيث يتوافر لهم- وهم بداخلها فقط - شعور بالأمان بدرجة أو بأخرى. أما الخوف من المُقتحِم فلا يقتصر على الخوف من نيته السرقة فحسب، بل هو أيضًا خوف من قبضة المقتحِم المباغتة في الظلام. فمن حينٍ إلى آخر كانت اليد، المتخذة هيئة المخلب، تُستخدَم رمزًا لمثل هذه المخاوف. وقد انطوى المعنى المزدوج لكلمة "هجوم" على كثير من هذه الحالات، فمعنى الفعل "يهاجم" يحمل دلالة الاحتكاك البريء والهجوم الخطر على حدٍّ سواء. وشيءٌ من المعنى

الأخير يتلازم مع المعنى الأول (البرئ)، إلا أن كلمة "هجوم" قد اقتصرت على المعنى السيئ فقط.

وهذا النفور من التلامس يلازمنا حتى فى أثناء وجودنا بين الناس. فقد أملت علينا هذه الرهبة أسلوب حركتنا فى الطريق بين كثيرٍ من الناس، وكذلك فى المطاعم والقطارات والحافلات. حتى إذا اقتربنا كثيراً من آخرين، وكان بوسعنا تأملهم ومعاينتهم بدقة، فإننا نتفادى أى احتكاكٍ بهم قدر الإمكان. فإذا ما فعلنا ذلك يكون هناك شىءٌ ما قد أثار إعجابنا، فنبادر بالاقتراب منهم. أما الاعتذار السريع المعبر عن احتكاكٍ غير متعمد، والقلق انتظارًا لذلك، ورد الفعل الحاد، الذى يكون جسديًا أحيانًا - حتى لو لم يحدث ذلك - والنفور والكراهية تجاه من ارتكب ذلك، حتى مع الشك أنه ارتكب ذلك، فإن هذه السلسلة الكاملة من ردود الفعل النفسية تجاه ملامسة الغريب، فى حالاتها المتقلبة المتطرفة المستفزة، تثبت أن الأمر هنا يدور حول شىءٍ عميقٍ للغاية ومتيقظٍ ومربكٍ دائمًا، إنه شىءٌ يلازم المرء أبدًا إذا ما أقام حدودًا حول نفسه. وهذا النوع من الرهبة يسبب الشعور بالاضطراب حتى فى أثناء النوم، حينما يكون المرء غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه.

إنها الكتلة وحدها، هى التى يمكن أن تُخلِّص المرء من رهبة الاحتكاك. فهى الحالة الوحيدة التى تنقلب فيها هذه الرهبة إلى نقيضها. إنها الكتلة الكثيفة التى يحتاجها المرء من أجل ذلك، التى يضغط فيها جسدٌ على آخر، وهى كثيفةٌ فى صيغتها الروحية أيضًا حتى إن المرء لا يلحظ من هو الذى يضغط على الآخر. فإذا ما سلَّم المرء أمره للكتلة فإنه لا يخشى ملامستها. وفى حالتها المثالية تسود المساواة بين الجميع، فلا يوجد هناك اختلافٌ حتى فى النوع، فمن يضغط على الآخر يكون مثله كذلك، فهو يشعر به كما يشعر بذاته. وكل ما يحدث يكون كأنه حدث داخل جسدٍ واحد. وربما كان هذا واحدًا من الأسباب التى تفضى إلى سعى الكتلة إلى هذا التماسك الشديد؛ فهى لا تبغى إلا الخلاص التام من رهبة التلامس الفردى. فكلما ازدادت قوة ضغط الناس لبعضهم البعض تنامى شعورهم بالاطمئنان، وتلاشى الخوف بينهم. ويُعَد تحول رهبة الاحتكاك هذا واحدًا من خصائص الكتلة. فالارتياح الذى يسودها يتخذ بعدًا مؤثرًا على كثافة الكتلة الكبرى، وهو ما سوف نعالجه فى سياقٍ آخر.

الكتلة المنفتحة والكتلة المنغلقة

إن الكتلة بدورها ما هى إلا ظاهرة مليئة بالأسرار لا تقل عما نعرفه عن الظواهر الكونية التى تحدث فجأة من دون توقع. فقد يتجمع نفرٌ قليلٌ من الناس، خمسة أو عشرة أو اثنا عشر، ليس أكثر، ولم يكن هناك بعد شيءٌ مُعلَن ولا شئٌ متوقَع، وفجأةً يغص المكان بالناس ويتدفق إليهم آخرون من كل ناحيةٍ، كأن الطرق قد صارت باتجاهٍ واحد. وكثيرٌ من هؤلاء لا يدرون بما حدث، ولا يملكون إجابةً على من يسألهم، إلا أنهم يكونون فى عجلةٍ من أمرهم حتى يصلوا هناك، حيث تكون الأغلبية. إنه قرار مصيرى فى حركتهم التى تختلف بحق عن التعبير عن أى فضولٍ اعتادوا عليه فى حياتهم. ويذهب البعض إلى القول بأن الحركة لأى منهم لا تتم إلا بمشاركة الآخرين، وهذا أمر لا يتم من جانب واحد؛ حيث إن أمامهم هدفًا، وهو هناك قبل أن يجدوا التعبير عنه، فالهدف هو البقعة الأكثر ازدحامًا- أى الموضع الذى يتجمع معظم الناس فيه.

لعلنا يجب علينا أن نذكر بعض الأشياء عن هذا الشكل المتطرف للكتلة العفوية، فهى هناك حيث نشأت، فى مهدها الحقيقى، وهى ليست على هذا النحو من العفوية كما تبدو للعيان، فهى توجد بالفعل فى أى مكانٍ آخر غير

هـذا الـذى يتخـذ منـه الخمسـة أو العـشرة أو الاثنـا عـشر شـخصًا منطلقًـا لهـم، وما إن تنشـأ حتـى تسـعى إلى أن يتكـون منهـا عـددٌ أكـبر. فالإلحـاح فى النمـو هـو أول وأسـمى صفـات الكتلـة، فهـى تريـد احتـواء كل مـن تسـتطيع الوصـول إليـه، فـكل مـن يبـدو عـلى هيئـةٍ إنسـانية يمكـن أن ينضـم إليهـا. إن الكتلـة الطبيعيـة هـى الكتلـة المنفتحـة، لم توضـع حـدودٌ لنموهـا عـلى الإطـلاق، ولا تعـترف بالمنـازل والأبـواب والأقفـال، وترتاب مـما يُغلَـق فى وجهها، وعلينـا أن نفهـم كلمـة "منفتحـة" فى هـذا المقـام بـكل مـا تحويه الكلمـة مـن معـانٍ، فهـى موجـودةٌ فى كل مـكانٍ وفى كل اتجـاهٍ. والكتلـة المنفتحـة تظـل موجـودةً مـا دامـت فى طـور النمـو، ويبـدأ انهيارهـا حالمـا تتوقـف عـن النمـو. إنهـا كـما نشـأت فجـأةً تتفتـت عـلى النحـو ذاتـه، وهـى فى هـذا الشـكل العفـوى تكـون كيانًـا حساسًـا، فانفتاحهـا الـذى يتيـح لهـا النمـو هـو الخطـر الـذى يتهددهـا فى الوقـت ذاتـه، ولا يفارقهـا الإحسـاس بالانهيـار، فهـو دائـم حـى بداخلهـا، وهـى تحـاول الإفـلات منـه مـن خـلال النمـو السريـع، وهـى تسـتقبل كل شىء بقـدر إمكانهـا.. ولكـن، ولأنهـا تسـتقبل كل شىء، فإنهـا لا بـد أن تنهـار.

وأمـا الكتلـة المنغلقـة فهـى عـلى النقيـض مـن الكتلـة المنفتحـة التـى تبغـى نمـوًا بـلا نهايـة والموجـودة فى كل مـكانٍ، وتسـعى للحصـول عـلى اهتـمامٍ كـونى. فالكتلـة المنغلقـة فى غنـى عـن النمـو ولا تهتـم إلا بوجودهـا. وأول مـا يلفـت الانتبـاه إليهـا هـو الحـدود. فالكتلـة المنغلقـة مسـتقرةٌ، وهـى تخلـق لنفسـها مكانهـا الـذى توجـد داخـل حـدوده، فالمـكان الـذى تشـغله يكـون خاصًـا بهـا، وهـو مـا يمكـن مقارنتـه بالوعـاء الـذى يُصـب فيـه سـائلٌ، فيكـون معروفًـا قـدر السـائل الـذى يسـتوعبه. أمـا مداخـل المـكان فهـى معـدودة فـلا يمكـن أن يصـل إليهـا المـرء كيفـما شـاء. فاحـترام الحـدود قائـمٌ. وقـد تكـون هـذه الحـدود مـن الأحجـار، أى مـن مبنـى حجـرى صلـب، وربمـا يحتـاج الأمـر إلى تصريـح قبـولٍ خـاص. وربمـا يتطلـب الأمـر دفـع رسـوم دخـول، فـإذا امتـلأ المـكان بكثافـةٍ كافيـة فإنـه لا يُسـمَح بالدخـول بعـد ذلـك، حتـى إذا طفـح المـكان بمـن فيـه فـإن بقـاء الكتلـة الكثيفـة فى المـكان المغلـق يظـل هـو القضيـة الأساسـية، ومـن يوجـد خارجهـا لا ينتمـى إليهـا بالفعـل. والحـدود تمنـع النمـو غـير المنتظـم، لكنهـا تصعـب وترجـئ التفتـت، فـما يُضحَـى بـه مـن فـرص النمـو تكسـبه الكتلـة فى اسـتمرارها. وهـى محميـةٌ مـن التأثـير الخارجـى الـذى يمكـن أن ينطـوى عـلى عـداءٍ ومخاطـر، لكنهـا، عـلى نحـوٍ خـاص تمامًـا، تضـع التكـرار فى حسـبانها، فمـن خـلال فرصـة تكـرار التجمـع تغطـى الكتلـة كل مـرةٍ عـلى تفككهـا، فمكانهـا فى انتظارهـا،

وهـو هنـاك رهـن إرادتهـا. ومـا دام هـو هنـاك فإنهـا سـوف تتجمـع عـلى النحـو نفسـه. فالمـكان خـاصٌ بهـا حتـى إن كان فى فـترة انحسـار، حتـى إن كان المـكان خاليًـا فهـو يبـشر بزمـن المـد.

التخلص من الكبت

إن التخلص من الكبت هو أهم حدثٍ يجرى فى إطار الكتلة، فقبله لا يكون هناك وجودٌ حقيقى للكتلة. فالتخلص من الكبت هو ما يجعلها حقيقةً. إنه اللحظة التى يتخلص فيها كل من ينتمون إلى الكتلة من كل الفروق بينهم ويشعرون بالمساواة. ومن بين هذه الفوارق نعرف تلك الفروق القائمة، الواضحة تمامًا، مثل فارق المكانة والمستوى والملكية. وكان الناس، كأفراد، يدركون هذه الفروق دائمًا، وهى عبءٌ ثقيل يرغمهم عنوةً على التفرق. ففى موضعٍ آمن بعينه يقيم الإنسان، باذلاً قصارى جهده على درء كل ما يدنو منه. وهو هناك مثل طاحونة هواءٍ مشرفة على سهلٍ مترامى الأطراف، هناك يقبع معبّرًا عن وجوده، قلقًا، ولا يكون هناك شىءٌ، حتى الطاحونة التالية. فكل الحياة التى يعرفها قامت على مساحةٍ فاصلة، فمنزله الذى يغلقه على نفسه وعلى ما يملكه، والمنصب الذى يتقلده، والمركز الذى يطمح إليه، كل ذلك يفضى إلى خلق مسافاتٍ فاصلة، وإلى ترسيخها وزيادة حجمها. وحرية أية حركة مؤثرة للانتقال من موقعٍ إلى آخر تكون مغلولةً، فالحركة والحركة المضادة تتلاشيان كأنهما تسربتا فى رمال الصحراء. فلا يستطيع أحدٌ الاقتراب من الآخر، ولا يستطيع أحدٌ الصعود إلى موقع الآخر. فالنظم الهرمية الراسخة فى كل مجالات الحياة لا تسمح لأحدٍ بمس الأعلى،

أو تدعه، كما يبدو، يهبط للأدنى. والتوازن بين هذه الفوارق يبدو مختلفًا فى بعض المجتمعات. ففى بعضها يرتكز الفارق على المنشأ، وفى البعض الآخر يقوم على الوظيفة أو الأملاك. والأمر هنا لا يدور حول توصيف هذا النظام الطبقى، لكن جوهر الأمر أن هذا النظام موجود فى كل مكانٍ واستقر فى وعى البشر فصار هو الأمر الحاسم فى السلوك نحو الآخرين. ورضا البعض بالوجود فى نظامٍ طبقى على درجةٍ أعلى من الآخرين لا يعد عوضًا عن فقدان حرية الحركة. فالإنسان يظل فى موقعه المنفصل جامدًا متجهمًا، مثقلاً بهذه الأعباء، فلا يغادر موقعه، ناسيًا أنه هو من وضعها، ويشتاق إلى التحرر منها. لكن كيف يستطيع التحرر وحده؟ فمهما فعل فى سبيل ذلك وأصر عليه فإنه سيكون هناك آخرون ممن يفسدون جهوده، فما دام هؤلاء متشبثين بمواقعهم المنفصلة فإنه لا يمكنه الاقتراب منهم على الإطلاق. فقط الجميع معًا يستطيعون التحرر من مواقعهم المنفصلة، وهذا بالضبط هو ما يحدث فى الكتلة. فمن خلال عملية التخلص من الكبت يتم التخلص من الفوارق ليشعر الجميع بالمساواة. وفى هذ الكثافة، حيث لا يكاد يوجد مكانٌ بين الناس لأن كل جسدٍ يضغط على الآخر، يكون اقتراب كلٍ منهم من الآخر كاقترابه من نفسه، ما يولد شعورًا هائلاً بالارتياح. ومن أجل هذه اللحظة السعيدة، إذ لم يعد يشعر أحد بأنه أفضل من الآخر، يتحول الناس إلى كتلة. وفى هذه اللحظة، لحظة التخلص من الكبت المنشودة والسعيدة، يكمن الخطر. فهى تحمل مرض الوهم الأساسى، فالناس الذين يشعرون فجأة بأنهم متساوون سيدركون أنهم لم يحققوا حقًا المساواة الدائمة. فهم يعودودن إلى مساكنهم المستقلة ليرقدوا فى فراشهم وينامون، وهم يحتفظون بما يملكون ولا يتنازلون عن مكانتهم، ولا يهجرون ذويهم، ولا يفرون من عائلاتهم. فقط فى حالة الإيمان الحقيقية يتحلل الناس من ارتباطاتهم القديمة ليعقدوا أخرى جديدة. ومثل هذه الروابط أصفها أنا ببللورات الكتلة التى لا تقبل، طبقًا لطبيعتها، سوى عددٍ محدود من الأعضاء، وتؤمِّن وجودها من خلال قواعد قاسية. وسوف نتناول وظيفتها فيما بعد بإسهابٍ. إلا أن عقد الكتلة ينفرط وهى تشعر بأنها ستنهار، وهى تخشى الانهيار، وهى لا تستطيع الاستمرار فى الوجود إلا باستمرار عملية التخلص من الكبت بأن ينضم إليها أناسٌ جدد. فنمو الكتلة فقط هو الذى يمنع المنتمين إليها من عودتهم إلى أعبائهم الشخصية.

نزعة التدمير

يدور الحديث غالبًا عن نزوع الكتلة للتدمير وهو أول ما يلفت النظر إليها. وما لا يمكن إنكاره هو حدوث ذلك فى بلادٍ وثقافاتٍ مختلفة، وقد عرفنا هذه النزعة واستهجنها البعض، لكن أحدًا لم يفسرها. الكتلة تفضل تدمير المنازل والأدوات. فلما كان الأمر يدور غالبًا حول ما هو قابل للكسر، مثل النوافذ والمرايا والأوانى والصور والأوعية، فإن الرأى يميل إلى الاعتقاد بأن هذه القابلية للكسر هو ما يغرى الكتلة بالتدمير. ومن الصحيح، يقينًا، أن صخب التدمير، كصوت تحطيم الأوانى وصلصلة النوافذ، يساهم على نحوٍ كبير فى الفرح بذلك. إنها صيحات الحياة القوية لمخلوقٍ جديد. صرخات مولودٍ جديد. ولما كان من اليسير إثارة ذلك فإن نزعتها تتصاعد، ليصرخ الكل فى وجه الجميع ويكون صخب الصلصلة هو التعبير عن استحسان الأمر. ويبدو أن الاحتياج الخاص لهذا النوع من الصخب ينشأ مع بداية الأحداث، لأنه لم يكن هناك شىءٌ قد تكون بعد من كل هذه الأمور الكثيرة للغاية، أو لأنه لم يكن قد حدث شىءٌ على الإطلاق، فيأتى الصخب كوعدٍ بالدعم الذى يأمله المرء. وهو فألٌ مبشر بأعمالٍ مقبلة. ولكن قد يكون من الخطأ أن نعتقد بأن سهولة التحطيم هو الأمر الحاسم فى ذلك. فقد كان هناك

مـن اصطـدم بتماثيـل مـن أحجـار قاسـية فلـم يهـدأ إلا بعـد أن قـام بتشـويهها ومحـو ملامحهـا. فقـد حطـم المسـيحيون رءوس وأذرع الآلهـة الأغريقيـة. كـما أنـزل المصلحـون والثائـرون تماثيـل القديسـين، وقـد أنزلوهـا أحيانًـا مـن أماكـن مرتفعـة كانـت تمثـل خطـرًا عـلى الحيـاة. وغالبًـا مـا كان الحجـر الـذى حـاول المـرء تحطيمـه صلبًـا إلى حـد أنـه اكتفـى بتحقيـق نصـف الهـدف. وقـد كان تحطيـم التماثيـل المعـبرة عـن شيء مـا هـو تحطيـمٌ لنظـامٍ هرمـى لم يعـد معترفًـا بـه. فالمـرء يتعـدى عـلى الفـوارق العامـة الراسـخة المرئيـة للجميـع والسـائدة فى كل مـكان. وكانـت صلابتهـا تعبـيرًا عن الاسـتمرار الـذى كان يُعتقَـد أنـه مـن زمـن بعيـد، أو منـذ الأزل، قائـم وغـير قابـل للزعزعـة، وكان الاقـتراب منهـا بنيـة عدوانيـة مـن المحـال، فهـا هـى الآن قـد سـقطت وصـارت حطامًـا. هكـذا يكـون التخلـص مـن الكبـت قـد اكتمـل بهـذا الحـدث، إلا أن ذلـك لا يصـل دائمًـا إلى هـذا المـدى. فهـذا النـوع مـن التدمـير المألـوف الـذى تحدثنـا عنـه منـذ البدايـة لا يُعتـبر إلا هجومًـا عـلى كل الحـدود. فالنوافـد والأبـواب مـن خصائـص المسـاكن، وهـى أكـثر أجـزاء حدودهـا الخارجيـة حساسـية، فـإذا كُـسِرَت النوافـذ والأبـواب يكـون المنـزل قـد فقـد خصوصيتـه، فيسـتطيع كل إنسـانٍ الدخـول إليـه كيفـما يشـاء، فـلا شيء ولا أحـد بالداخـل صـار آمنًـا. وكـما يعتقـد البعـض فـإن النـاس يلـوذون بهـذه المنـازل لـكى ينـأوا بأنفسـهم عـن الكتلـة، عـن أعدائهـم. ولكـن هـا قـد تحطـم مـا كان يفصـل بينهـم وصـار لا شيء بينهـم وبـين الكتلـة، فيكـون بوسـعهم الخـروج والالتحـاق بهـا. كـما يسـتطيع المـرء اسـتدعاءهم. لكـن الأمـر مـا زال ينطـوى عـلى أكـثر مـن ذلـك، فالإنسـان الفـرد يكـون لديـه إحسـاس بأنـه تجـاوز حـدود شـخصه فى الكتلـة، فيشـعر بالارتيـاح بعـد إزالـة كل الحواجـز التـى تـرده إلى شـخصه لينغلـق عـلى نفسـه. وبإلغـاء الحواجـز يشـعر بنفسـه حـرًا ويصـير اجتيـاز هـذه الحـدود بمثابـة حريتـه. فـما يجـرى عليـه يجـب أن يجـرى عـلى الآخريـن، وهـو يتوقـع منهـم الـشيء نفسـه أيضًـا. فـما يغريـه بوعـاءٍ مـن الفخـار لا شيء غـير أنـه اعتـبره حـدودًا، ومـا يجذبـه إلى منـزلٍ مـا هـو الأبـواب المغلقـة. والأعـراف والطقـوس، وكل مـا يمثـل فـوارق، يراهـا بمثابـة تهديـد لـه لا يطيقـه. ويسـعى المـرء إلى إعـادة توجيـه الكتلـة المفتتـة، إلى هذه الأشـكال الراسـخة فى كل مـكان، فهـى تمقـت سـجونها المسـتقبلية والتـى كانـت دائمًـا سـجنًا لهـا. فـكل شيء يبـدو للكتلـة المجـردة كسـجن الباسـتيل. أمـا أكـثر وسـائل التدمـير إثـارةً للانتبـاه فهـى النـار. فهـى مرئيـة مـن مسـافةٍ بعيـدة وتجـذب الآخريـن إليهـا. وهـى تدمـر عـلى نحـوٍ طـاغ. فـلا شيء يعـود إلى مـا كان عليـه بعـد حريـق النـار. فالكتلـة

التـى تشـعل النـار تعتقـد أنـه لا سـبيل لمقاومتهـا. فالجميـع سـوف ينطلـق نحوهـا بينـما هـى آخـذة فى الانتشـار، وكل أعدائهـا سـوف تقـضى عليهـم. فهـى كـما سـنرى فيـما بعـد أقـوى رمـزٍ يعـبر عـن الكتلـة، وهـو يتـلاشى مثلهـا بعـد تدمـير كل شىء.

الانطلاق

إن الكتلة المنفتحة هى الكتلة التى تترك الباب مفتوحًا أمام إلحاحها الطبيعى فى النمو. والكتلة المنفتحة لا تملك شعورًا أو تصورًا واضحًا عما سيصير إليه حجمها. فهى لا تلوذ بمبنى تعرفه ويكون عليها أن تملأه. فلم يوضع لها معيارٌ، وهى تبغى النمو إلى ما لا نهاية. أما ما تحتاجه من أجل ذلك فهو المزيد والمزيد من الناس. وفى هذه الحال المجردة تكون الكتلة أكثر لفتًا للانتباه، إلا أنها تحتفظ بشىءٍ غير مألوف، لم يُنظر له بعين الاعتبار لما كانت عليه دائما من حالة تفتتٍ وعدم اكتمال. ولعل أمر النظر إليها بالجدية التى تستحقها لم يكن مستحيلا لولا الزيادة الهائلة لعدد السكان فى كل مكانٍ، والنمو السريع للمدن الذى يعد من سمات عصرنا الحديث. أما كتلة الماضى المنغلقة، التى سنذكرها فيما بعد، فقد تحولت كلها إلى مؤسساتٍ مألوفة. والحالة الخاصة التى عاشها أعضاؤها غالبًا تبدو أمرًا طبيعيًا، فقد كان اجتماع الناس دائمًا من أجل غرضٍ معين، سواء كان دينيًا أو احتفائيًا أو حربيًا. فيبدو أن الغرض يبرر الحالة. فمن شهد عظةً ما، كان يؤمن يقينًا بأن الأمر بالنسبة له يتوقف على العظة فحسب، وكان سيدهَش، بل ربما يغضب، لو أن أحدهم أخبره بأن العدد الكبير من المستمعين هو الذى يمنحه ارتياحا نفسيا أكثر من العظة نفسها. فكل طقوس وشعائر وقواعد مثل هذه المؤسسات كانت تغفل فى الأساس فكرة

مجابهـة الكتلـة، فكنيسـةٌ آمنـة غاصـة بالمؤمنـين لهـى أفضـل مـن عـالمٍ بـأسره غـير آمـن. فالزيـارة المنتظمـة للكنيسـة، والتكـرار المعتـاد والدقيـق لطقـوس بعينهـا، توفـر للكتلـة شـيئًا يشـبه تجربتهـم فى ترويـض ذواتهـم. وأداء هـذه الفرائـض فى أوقـاتٍ محـددة يعـد عوضًـا عـن احتياجـاتٍ أكـثر إلحاحًـا. وربمـا كانـت مثـل هـذه المؤسسـات ستشـعر بالاكتفـاء لـو أن عـدد البشريـة ظـل عـلى مـا هـو عليـه تقريبًـا. لكـن عـدد النـاس بالمـدن كان يتزايـد باطـراد، وتكاثـر عـدد السـكان فى القـرون الأخـيرة بسرعـةٍ مطـردة، وبذلـك توافـرت كل المغريـات لتكويـن كتلـة جديـدة كبـيرة. ولم يكـن هنـاك شيءٌ، حتـى القيـادة الأكـثر خـبرةً ودقـةً، ليحـول دون ذلـك فى مثـل هـذه الظـروف.

كانـت كل الاحتجاجـات ضـد الشـعائرية الموروثـة التـى أخـبر عنهـا تاريـخ الديـن موجهـةً ضـد تحجيـم الكتلـة التـى أرادت أن تشـعر بعـودة نموهـا أخـيرًا. ولنتذكـر "عظـة الجبـل" بالعهـد الجديـد وقـد دارت فى الخـلاء وكان بوسـع الآلاف الاسـتماع إليها. وقـد كانـت موجهـةً بـلا شـك ضـد الممارسـة المحـدودة لطقـوس الهيـكل الرسـمى. ولنتذكـر توجـه المسـيحية بقيـادة "بولـس" للانطـلاق مـن حـدود شـعب القبيلـة اليهـودى لتصـير عقيـدةً كونيـة للبـشر كافـة. ولنتذكـر احتقـار البوذيـة لنظـام الفئـات الاجتماعيـة حينـذاك فى الهنـد. والتاريـخ الوجـدانى للديانـات العالميـة - كل عـلى حـدة- ثـرىٌ بأحـداثٍ تحمـل الدلالـة المماثلـة. فدائمًـا مـا كان الهيـكل والطوائـف الاجتماعيـة والكنيسـة فى ربـاط وترابـط إلى أبعـد الحـدود. وقـد أدت الحـروب الصليبيـة إلى تكويـن كتلـة بحجـمٍ لم يكـن مبنـى كنيسـةٍ بالعـالم حينـذاك ليتحملهـا. وقـد تحـول سـكان مـدنٍ كاملـةً فيـما بعـد إلى مشـاهدين لممارسـات الجلاديـن، ثـم صـاروا بعـد ذلـك ينتقلـون مـن مدينـةٍ لأخـرى. وقـد كـوَّن "ويسـلى" فى القـرن الثامـن عـشر حركتـه اعتـمادًا عـلى عظاتـه فى الخـلاء. وكان قـد أدرك تمامًـا أهميـة كتلـة مسـتمعيه الهائلـة، فـكان أحيانًـا يسـجل فى مذكراتـه عـدد مـن اسـتمع إليـه ذات مـرة. فالانطـلاق مـن أماكـن تأديـة الفـروض المغلقـة كان يعنـى كل مـرةٍ أن الكتلـة تنشـد اسـتعادة رغبتهـا القديمـة فى النمـو المفاجـئ السريـع وغـير المحـدود. ولهـذا فـإن مـا أصفـه بالفـوران هـو ذلـك الانتقـال المفاجـئ مـن كتلـة منغلقـة إلى كتلـة أخـرى منفتحـة. وهـذا الحـدث يتكـرر غالبًـا، إلا أنـه لا ينبغـى أن نقـصره عـلى المـكان. وغالبًـا مـا يبـدو الأمـر كأن كتلـة مـا تنثـال مـن مـكانٍ مـا، كانـت تنعـم فيـه بالحمايـة، إلى ميـدانٍ وطـرق مدينـةٍ مـا، حيـث تجـذب إليهـا كل شىء وتتعـرض لـكل شىء قـد يحـدث لهـا. إلا أن الأكـثر أهميـةً مـن هـذا الحـدث الخارجـى هـو الحـدث الداخـلى الـذى يتسـق معـه، أى

عـدم الرضـا بمحدوديـة عـدد المشـاركين، والإرادة المفاجئـة فى جـذب آخريـن، والإصرار المتلهـف لضمهـم جميعًـا. ومنـذ الثـورة الفرنسـية اتخـذت هـذه الفـورات شـكلاً مـا نعتـبره هـو الشـكل الحديـث، ربمـا لأن الكتلـة قـد تحـررت عـلى نحـوٍ كبـير مـن فحـوى الأديـان التقليديـة، حتـى إننـا صرنـا نراهـا مجـردةً مـن الناحيـة البيولوجيـة، متخليـة عـن تعاليهـا وأهـدافٍ كانـت قـد تحصنـت بهـا فى المـاضى. وقـد اتخـذ تاريـخ المئـة والخمسـين عامًـا الماضيـة منعطفًـا حـادًا نحـو التكاثـر السريـع لمثـل هـذه الفـورات، حتـى إنهـا شـملت الحـروب فصـارت كتلـة حربيـة. فلـم تعـد الكتلـة تكتفـى بالـشروط الدينيـة وبالوعـود، فهـى تنشـد أن تعيـش بنفسـها الشـعور الأعظـم بقـوة حيويتهـا ووجودهـا. وقـد اسـتغلت فى سـبيل هـذا الغـرض مـرارًا مـا أتيـح أمامهـا مـن حـالاتٍ ومطالـب اجتماعيـة. ومـن المهـم أن نعـرف أن الكتلـة لا تشـعر أبـدًا بالشـبع. فـما دام هنـاك فـردٌ واحـد لم ينضـم إليهـا فـإن شـهيتها تظـل مفتوحـةً. وإن كان احتفاظهـا بهذه الشـهية بعـد احتوائهـا لـكل البـشر أمـرًا لا يسـتطيع أحـدٌ التحقـق منـه فإنـه أمـرٌ واردٌ للغايـة، ومحاولاتهـا فى اسـتمرار وجودهـا تنطـوى عـلى شىء مـن الإحسـاس بالعجـز. أمـا السـبيل الوحيـد الـذى يتيـح أمامهـا فـرص البقـاء فهـو تكويـن كتلـة مزدوجـة. فكلـما ازدادت قـوةً وعزمًـا ظلـت فرصـة هـذه الكتلـة المتنافسـة فى البقـاء حيـةً قائمـة.

الشعور بالملاحقة

إن أكثر ملامح حياة الكتلة وضوحًا هو ما نستطيع أن نصفه بالشعور بالملاحقة. وهو إحساسٌ مُستنْفر ضد كل ما قد يكون عدوًا محتملاً يستطيع فعل ما يشاء، وقد يكون فعله فظًا أو مجاملاً، وقد يكون مشاركًا بإيجاب أو غير مبالٍ، شديدًا أو لينًا، فكأن كل شىء ينبثق من إرادةٍ شريرة مستحكمة أو فكرةٍ خبيثة ضد الكتلة، أى نيةٍ مبيتةٍ لتدميرها على نحوٍ مباشر أو مخادع. ومن أجل تفسير هذا الشعور بالملاحقة والعداء علينا أن ننطلق مرةً أخرى من الحقيقة الأساسية بأن الكتلة تنشد التكوين والنمو السريع. ومن الصعب وضع تصورٍ معقول عن القوة ووضوح الرؤية اللتين تنتشر بهما. فما دامت الكتلة شعرت أنها ما زالت فى طور النمو، فى حالات الثورة مثلاً التى تبدأ بكتلة صغيرة متأججة، فإنها ترى أن كل شىء يضعها داخل حدودٍ ضيقة ويقف فى طريق نموها. فهى يمكن تشتيتها من خلال الشرطة، إلا أن ذلك لا يكون إلا أثرًا مؤقتًا فقط، كمن وضع يده فى عشش دبابير. إلا أنه يمكن مهاجمتها كذلك من الداخل عندما تواجَه بالمطالب التى أدت إلى تكوينها، فينسحب منها من هو الأكثر ضعفًا، أما الآخرون الذين كانوا سينضمون إليها فإنهم يرجعون من منتصف الطريق. فالهجوم الخارجى على هذه الكتلة لا يزيدها إلا قوةً. فشتاتها

الجسدى يعود للالتحام على نحوٍ أقوى مما كان عليه. وأما الهجوم من الداخل فهو خطرٌ حقًا. فثمة اضراب ما حقق بعض المكاسب يتفتت بشكلٍ ملحوظ. والهجوم من الداخل تدفعه رغباتٌ فردية، وهو ما تراه الكتلة كرشوة، "كفعلٍ غير أخلاقى"، لأنه يناقض مبادئها الأساسية الواضحة والنقية. فكل من انتمى إلى مثل هذه الكتلة يحمل داخله خائنًا صغيرًا ينشد الطعام والشراب والحب وراحة البال. وما دام هذا يعتبر تحقيق هذه المتطلبات أمرًا ثانويًا ولم يبالغ فى شأنها فإن الكتلة توافق على ذلك، وما إن يصرح بذلك علنًا حتى تبدأ الكتلة فى كراهيته والخوف منه، بعد أن تكون أدركت أنه لبى إغراءات العدو. فالكتلة تكون دائمًا كأنها قلعةٌ محاصرة، لكنها محاصرةٌ على نحوٍ مزدوج، فعدوٌ لها أمام الأسوار وعدوٌ لها كامنٌ بين صفوفها. وهى تجذب دائمًا فى أثناء الصراع أنصارًا أكثر، فأمام كل الأبواب يتجمع أصدقاؤها الجدد ويقرعونها بعنفٍ للسماح لهم بالدخول، وفى لحظات مواتية يرحب بهذا الطلب. لكن هؤلاء يتسلقون الأسوار أيضًا، وتغص المدينة بمزيدٍ ومزيدٍ من المناضلين، إلا أن كلاً منهم يكون قد أتى معه بخائنٍ صغير غير مرئى يتوارى على أسرع نحوٍ بين الصفوف. أما الحصار فهو قائمٌ على محاولة القبض على المتسللين. وأهمية الأسوار لدى العدو بالخارج أعظم من أهميتها لدى المحاصرين داخلها. فالمحاصرون هم من يقومون دائمًا ببنائها والارتفاع بها، ويحاولون تقديم الرشوة للنازحين، فإن لم يستطيعوا منع هؤلاء مطلقًا فإنهم يهتمون بأن يحصد الخائن الصغير المصاحب لهؤلاء عدواة كافية وهو فى سبيله إلى المدينة. إن شعور الكتلة بالملاحقة ليس غير هذا الشعور بالتهديد المزودج. فالأسوار الخارجية تزيد من ضغطها، بينما يكون الهدم بين صفوفها على نحوٍ أشد. فأما ممارسات العدو فصريحةٌ وواضحة، فهو يزيد فى بناء الأسوار، لكن هذه الممارسات تكون مستترةً وخبيثة بين الصفوف، لكن هذه هى حال هذه الصور التى تعرض فقط جزءًا من الحقيقة، فالمتدفقون من الخارج، قاصدين دخول المدينة، لا يُعتبَرون أنصارًا جددًا ومَددًا ودعمًا فحسب، بل هم بمثابة غذاء للكتلة أيضًا. والكتلة التى لا تنمو تكون فى حالة صومٍ، وهناك وسائل لمواصلة الصوم هذا، فقد طورت الأديان فى ذلك تجربةً رائدة كبيرة. ولسوف نعرض مدى نجاح الأديان العالمية فى الحفاظ على كتلتها، من دون حتى أن تنميها على نحوٍ حادٍ وقوى.

ترويض الكتلة
فى الأديان العالمية

تغير الأديان الراسخة ذات الطابع الكونى نبرة دعايتها على نحوٍ سريع. فى بادىء الأمر تكون حريصةً على الوصول إلى الجميع وضمهم إليها، أى إلى جميع من يمكن الوصول إليهم وضمهم إليها. أما الكتلة التى تداعب خيالها فهى كتلة كونية. فالأمر يتوقف على كل نفسٍ، فعلى كل نفسٍ أن تنضم إليها. أما الصراع الذى يتحتم عليها النجاح فيه فيفضى تدريجيًا إلى نوعٍ من الاحترام الخفى نحو الخصوم الذين لديهم مؤسساتٌ قائمة بالفعل. وهى تدرك مدى صعوبة الحفاظ على كيانها. فالمؤسسات التى تمنحها التضامن والاستمرار تبدو لها أكثر أهمية. فمؤسسات الخصوم تدفعها إلى فعل كل شيءٍ حتى تؤسس مثلها، فإذا ما وفقت إلى هذا تصير هذه المؤسسات هى الشىء الرئيس. والأهمية الذاتية للمؤسسات، التى تمثل حياة خاصة فى حد ذاتها، تقوم تدريجيًا بترويض قوى الدعاية الأولى، فالكنائس تُشيد على نحوٍ يوفر لها استيعاب المؤمنين الموجودين بالفعل، ولا تشرع فى التوسع فى بنائها إلا بقدرٍ من التحفظ والتروى، بشرط أن يكون هناك احتياجٌ حقيقى لذلك. فهناك توجهٌ قوى نحو تأليف بين قلوب المؤمنين الموجودين فى

وحـدات منفصلـة، ونظـرا لازديـاد عددهـم تحديـدًا فيكـون النـزوع إلى التفتـت كبـيراً، وخطـرًا تجـب مواجتهـه دائمًـا.

هنـاك شـعور بسـوء النيـة تجـاه الكتلـة يجرى فى عـروق الأديـان الكونيـة التاريخية مجـرى الـدم عـلى نحـوٍ مـا، فـما تملكـه مـن موروثـات ومـا تنطـوى عليـه طبائعهـا مـن التـزام يجعلهـا تتعـرف عـلى كيفيـة تناميهـا فجـأةً ومـن دون توقـع. وقصـص الـتراث عـن دخـول الكتلـة الأديـان تراهـا ضربًـا مـن المعجـزات - وهـى كذلـك. وفى حـركات الارتـداد الدينـى التـى تخشـاها الكنيسـة وتلاحقهـا يتوجـه هـذا النـوع مـن المعجـزات ضدهـا، والجـراح التـى لحقـت بجسـدها أليمـةً لا تنـسى. فـكلٌ مـن نموهـا السريـع فى عصورهـا المبكـرة والارتـداد عنهـا فيـما بعـد - والـذى لا يقـل سرعـةً- يحفظـان ارتيـاب الأديـان نحـو الكتلـة عـلى قيـد الحيـاة. فـما تتمنـاه هـو النقيـض مـن أمـانى هـذا القطيـع المطيـع. فمـن المألـوف اعتبـار المؤمنـين خرافًـا يُثنَـى عـلى طاعتهـا. والأديـان تسـتغنى عـن توجـه الكتلـة الأسـاسى صـوب النمـو السريـع وتكتفـى بافـتراضٍ مؤقـت مـن مسـاواةٍ بـين المؤمنـين، المسـاواة التـى لـن تنفذهـا بحذافيرهـا، وتكتفـى كذلـك بكثافـةٍ محـددة يُحافَـظ عليها داخـل حـدودٍ معتدلـة كـما تحافـظ عـلى اتجـاهٍ قـوى. وهـى تؤثـر وضـع الهـدف عـلى مـدى بعيـد للغايـة، فى العـالم الآخـر، الـذى لا يصـل إليـه المـرء فى الحـال، مـا دام حيًـا. ولـذا يكـون عـلى المـرء بـذل جهـدٍ عظيـم وإظهـار الخضـوع حتـى يسـتحق ذلـك. وشـيئًا فشـيئًا يصـير الاتجـاه هـو الأهـم. وكلـما كان الهـدف بعيـدًا تكـون هنـاك فرصـةٌ فى الاسـتمرار. فيحـل محـل المبـدأ الـلازم للنمـو شيءٌ مختلـفٌ تمامًـا، هـو التكـرار. ففـى أماكـن بعينهـا ومواعيـد محـددةٍ يتـم جمـع المؤمنـين ليتـم وضعهـم فى حالـة كتلـة أكـثر اعتـدالاً، وهـى حالـة مؤثـرة دون خطـر، ويعتادهـا هـؤلاء. أمـا الشـعور بوحدتهـم فينالونـه عـلى جرعـات. وعـلى صحـة هـذه الجرعـات يتوقـف اسـتمرار وجـود الكنيسـة. فـإذا مـا اعتـاد النـاس هـذه التجربـة المكـررة والمحـددة بدقـةٍ صـاروا غـير قادريـن عـلى الاسـتغناء عنهـا، فيتعلقـون بذلـك تعلقهـم بالغـذاء أو غـيره مـما يحقـق وجودهـم. فـإذا حُرِّمـت عقيدتهـم فجـأةً أو تعرضـوا لاضطهـادٍ دينـى بمرسـوم مـن الدولـة فـإن ذلـك لا يمـر مـن دون تبعـات. فاضطـراب بنيـان كتلتهـم المتـوزان بدقـة لا بـد أن يـؤدى إلى إطـلاق كتلـة منفتحـة تحتـوى عـلى كل السـمات الأساسـية التـى نعرفهـا. فهـى تنتـشر بسرعـةٍ وتحقـق بديـلاً أو تراضيًـا للمسـاواة الحقيقيـة، وتحصـد لنفسـها كثافـةً جديـدة وأكـثر تكثيفًـا. وهـى تتنـازل عـن الهـدف البعيـد صعـب المنـال فى هـذه اللحظـة. وهـو الهـدف الـذى

تأسست عليه، لتضع هدفها "هنا"، أى فى محيط حياتها المباشر الواضح. فكل الأديان التى تم حظرها فجأةً تثأر لنفسها من خلال مسلك دنيوى. وتتحول ماهية عقيدتها تمامًا إلى انطلاق عنيف واسع وغير متوقع من دون وعيٍ بطبيعة هذا التغيير. وهى تعتقد أنه عقيدتها القديمة، وترى أنها لا تتمسك إلا بمعتقداتها المتجذرة للغاية، إلا أنها فى حقيقة الأمر تكون قد صارت عقيدةً مختلفة تمامًا، لها شعور الكتلة المنفتحة الحاد والفردى، وهى الكتلة التى تكوِّنها حينئذٍ ولا تريد الخروج عليها بأى ثمن.

الذعر

إذا دب ذعرٌ فى مسرحٍ ما، كما لوحظ فى الغالب، فإن ذلك يعنى تفتتًا للكتلة. فكلما ازداد ارتباط الناس ببعضهم من خلال العرض المسرحى، وكلما ازداد شكل المسرح تماسكًا، أى التماسك الظاهرى للناس، كان التفتت أكثر حدة. وقد لا يؤدى العرض المسرحى وحده إلى نشأة كتلة حقيقية. فغالبًا ما يشعر الجمهور بعدم الانبهار لكنه يظل معًا بسبب وجودى بالمكان فقط. أما هذا الذى لم ينجزه العرض المسرحى فإن اندلاع النار ينجزه على الفور. فخطرها على البشر لا يقل عن خطرها على الحيوان. فالنار أقوى وأقدم رموز الكتلة. ونشوب النار يدفع فجأةً بشعور الجمهور الجماعى، المتوافر لديه دائمًا، إلى أقصى مداه. فمن خلال خطرٍ جماعى واضح ينشأ لدى الجميع خوفٌ جماعى. ولوقتٍ قصير يتكون جمهور حقيقى. ولو لم يكن الناس بمسرحٍ ما لكان فرارهم الجماعى كفرار قطيع حيواناتٍ هدده الخطر. وكانت الحركة المتسقة ستيسر إمكانية الفرار. ومثل هذا الخوف الجماعى النشط هو تجربةٌ جماعية كبيرة لجميع الحيوانات التى تعيش فى إطار قطيع وتستطيع النجاة بأنفسها معًا مثل العدّاء الماهر. وعلى النقيض من ذلك، أى بالمسرح، فإن الكتلة تضطر إلى تفتتٍ هو الأكثر عنفًا. فالأبواب لا تسمح إلا لواحدٍ أو نفرٍ قليل بالخروج فى وقت واحد، لتتحول طاقة الهروب

تلقائيًا إلى طاقة دفعٍ للخلف. والمقاعد لا تسمح إلا بمرور فردٍ واحد فقط، وكلٌّ منفصل تمامًا عن الآخر، فكلٌّ يجلس وحده، وكلٌّ ينهض وحده، فلكلٍ مقعده. أما بعد المسافة عن أقرب الأبواب فيكون مختلفًا. وقد تأسس المسرح المألوف على ثبات مجلس الجمهور، فلم يترك له سوى حرية حركة اليد والصوت، أما حرية السيقان فقد قُيِّدت إلى أقصى حدٍّ. وهكذا يكون قرار الفرار المفاجئ الذى أصدرته النار قد وُوجِه فى الحال باستحالة الحركة الجماعية. أما الباب الذى يُضطر كل فردٍ إلى الخروج منه، وهو الباب الذى يراه ويرى نفسه فيه، فيكون منفصلاً بحدةٍ عن كل الباقين، فهو إطار الصورة الذى سرعان ما يسيطر عليه. وهكذا تضطر الكتلة، فى أقصى حالاتها، إلى التفتت بالقوة. ويتجلى الانقلاب فى أقصى صورة له فى التوجهات الفردية: فالناس يتدافعون ويضربون ويدهسون بعنفٍ فى كل اتجاه. وكلما ازداد صراع المرء فى سبيل حياته الشخصية ازداد وضوح هذا الصراع ضد الآخرين الذين يعيقون حركته فى كل اتجاه، فهم هنا يماثلون المقاعد والأسوار الفاصلة والأبواب مغلقة، مع فارق أنهم أن كلاً منهم يتوجه ضد الآخر. فهذا يدفع ذاك إلى هنا وهناك، حيثما تراءى له أو حيثما تم الدفع به، وليس هناك استثناءٌ لنساءٍ أو أطفال أو كبار السن، فلا فرق بين هؤلاء وبين الرجال. وهذه هى إحدى سمات مفهوم الكتلة التى يتساوى فيها الجميع. وبينما يفقد المرء شعوره بالكتلة فإنه يبقى محاطًا بها تمامًا. فالمرء يخرج عنها ويسعى للإفلات منها بعد تعرض الجميع للخطر. ولأنه ما زال محشورًا هناك جسديًا فإنه مضطرٌ إلى العمل ضد الكتلة. أما الاستسلام لها فى هذا الوقت فيعنى نهايته، فهى نفسها صارت مهددةً بالانهيار. وفى مثل هذه اللحظة لا يكون فى وسعه التأكيد على خصوصيته، وهو إذا ما دفع وضرب يكون قد استنُفِرَ دفعًا وضربًا. فإن زاد فى ذلك تلقى المزيد منه وازداد شعوره بنفسه وضوحًا، وازداد وضوح حدوده الشخصية التى عاد إليها ثانيةً. ومن الغريب أن نلاحظ هذا المدى الذى تتمثله الكتلة من سمات النار التى تتصارع داخلها، فهى تنشأ من جراء رؤيةٍ غير متوقعة للهبٍ ما أو من جراء صيحة: "حريق"، فتكون الكتلة بمثابة النار التى يحاول الفرد النجاة منها، ويكون هؤلاء من يحاول دفعهم عنه بمثابة المواد المشتعلة، واحتكاكهم به يكون عملاً عدائيًا ترتعد منه كل فرائصه، وكل من يقف فى الطريق يصاب بعدوى روح النار العدائية العامة، فطريقتها فى الانتشار، والتفافها التدريجى حول أحدهم حتى تحاصره تمامًا فى النهاية، تُماثل

إلى حدٍّ بعيد مسلك الكتلة التى يحدق خطرها بأحدهم من كل جانبٍ، فحركتها غير المحسوبة، واندفاع ذراعٍ ما أو قبضةٍ ما أو ساقٍ ما تكون ألسنة النار التى تستطيع الاندلاع فجأةً وفى كل مكان. فالنار، كحريق غابة أو غابات الاستبس، هى كتل عدائية تبث شعورًا جارفًا فى كل إنسان. أما النار كرمزٍ للكتلة فإنها تكون قد نفذت إلى داخل روح الفرد فتجعل من ذلك جزءًا لا يتجزأ ولا يتغير. فأما ذاك الدهس الشديد وغير المبالى فوق الناس الذى يحدث غالبًا فى أثناء حالات الذعر، ويبدو بلا معنى، فهو ليس سوى خروج لهب النار. والذعر، كحالةٍ من حالات التفتت، يمكن تجاهله بأن يعزز المرء من الحالة الأولى للخوف الجماعى الموحد. ففى كنيسةٍ ما تعرضت للتهديد يتم استدعاء ذلك، فيصلى الناس فى إطار خوفٍ جماعى إلى إلهٍ جماعى هو من بيده إخماد النار بمعجزة.

الكتلة كحلقة

إن الكتلـة المنغلقـة عـلى نفسـها انغلاقًـا ثنائيًـا هـى تلـك التـى نراهـا بالحلبـة. ولا يخلـو الأمـر مـن قيمـةٍ إن وضعناهـا عـلى هـذه الهيئـة الغريبـة موضـع البحـث. فالحلبـة منعزلـةٌ عـن الخـارج ويمكـن رؤيتهـا عـلى مـدى بعيـد عـادةً، فموقعهـا بالمدينـة والمكان الـذى تشـغله معروفـان عامـةً. فالمرء يشـعر بهـا أينـما كانـت، حتـى إذا لم تخطـر ببالـه، كـما أن الصيـاح ينطلـق منهـا إلى مـدى بعيـد. فـإن كانـت بـلا سـقفٍ فـإن بعـض مـا يجـرى فيهـا تعـرف بـه المدينـة المحيطـة بهـا. لكـن مهـما كانـت هـذه الأخبـار مثـيرةً فـإن التدفـق إلى الحلبـة لا يكـون ممكنًـا فعـدد مقاعدهـا محـدودٌ، وقـد وُضِـع حـدٌّ لكثافتهـا، كـما صُمِّمـت المقاعـد عـلى نحـوٍ يحـد مـن تزاحـم النـاس، فيشـعر هـؤلاء بالراحـة هنـاك وتتوافـر لهـم إمكانيـة مشـاهدة جيـدة، كلٌّ مـن مكانـه، فـلا يزعـج أى منهـم الآخـر. ونحـو الخـارج، أى تجـاه المدينـة، فـإن الحلبـة تظهـر جـدارًا خاليًـا مـن الحيـاة. وفى الداخـل يقـوم جـدارٌ آخـر مـن البـشر بعدمـا أعطـى كل هـؤلاء ظهرهـم للمدينـة وتحـرروا مـن نسـيج المدينـة ومـن جدرانهـا وطرقهـا. وهـم لا يبالـون بمـا يجـرى فى المدينـة طـوال وجودهـم بالحلبـة، ففيهـا يتحـررون مـن علاقاتهـم وأعرافهـم وعاداتهـم. وقـد تـم تأمـين وجودهـم بعددهـم الغفـير لوقـتٍ محـدود، كـما وُعِـدوا بالإثـارة فى إطـار شروطٍ صارمـة للغايـة. فعـلى الكتلـة أن تتخلـص مـن الكبـت

إلى الداخـل، وقـد رُتِّبـت الصفـوف أعـلى بعضهـا البعـض حتـى يُتـاح للجميـع رؤيـة مـا يجـرى. إلا أن نتيجـة ذلـك هـو جلـوس الكتلـة مواجهـةً بعضهـا البعـض. فـكل فـردٍ يواجـه ألـف فـردٍ ورأس. فـما دام هـو هنـاك يكـون الجميـع هنـاك أيضًـا، ودافعـه للإثـارة هـو دافـع الآخريـن أيضًـا، وهـذا هـو مـا يـراه. وهـؤلاء يجلسـون عـلى مسـافةٍ مـا منـه وتختفـى التفاصيـل التـى تمايـز عـادةً بينهـم وتجعلهـم فـرادى، فيغلـب شـبهٌ عـام بـين الجميـع الذيـن يتشـابه مسـلكهم كذلـك، وهـو يـرى فيهـم مـا يـراه فى نفسـه ويـزداد انفعالهـم مثـل انفعالـه. وهـذه الكتلـة التـى تعـد نفسـها عـلى هـذا النحـو للمشـاهدة لا يمكـن فصلهـا فى أى موضـعٍ. فالحلقـة التـى يكوّنونهـا تكـون مغلقـةً لا تـدع شـيئًا يفلـت منهـا. فالحلقـة المكونـة مـن وجـوه مفتتـةٍ متراصـة أعـلى بعضهـا البعـض تمتلـك شـيئًا متجانسًـا خاصًـا يشـمل ويحتـوى كل مـا يجـرى أسـفله. وليـس هنـاك مـن يبغـى التحـرر مـن الـكل، وليـس بينهـم مـن يسـعى للمغـادرة. وكل ثغـرةٍ فى هـذه الحلقـة يكـون بوسـعها التذكـير بالتفتـت الـذى يحدثـه تفـرق السـبل فيـما بعـد. إلا أن تفـرق السـبل هـذا لا يحـدث هنـا، فهـذه الكتلـة مغلقـةٌ نحـو الخـارج وفى داخلهـا، أى انغـلاق مـزدوج.

سمات الكتلة

قبـل الإقبـال عـلى محاولـة لتقسـيم الكتلـة فإنـه مـن المناسـب أن نقـدم موجـزًا قصـيرًا لصفاتهـا الأساسـية. وهنـا يمكـن ذكـر الملامـح الأربعـة التاليـة:

1. إن الكتلـة تسـعى دائمًـا إلى النمـو. والطبيعـة نفسـها لم تضـع حـدودًا لهـذا النمـو. وحيثـما يتـم اصطنـاع مثـل هـذه الحـدود - أى فى كل المؤسسـات - مـن أجـل الحفـاظ عـلى الكتلـة المنغلقـة، فـإن الخـروج منهـا يكـون متاحًـا دائمًـا، وهـو مـا يحـدث أيضًـا مـن حـينٍ لآخـر. أمـا المؤسسـة التـى تسـتطيع إعاقـة نمـو الكتلـة وهـى آمنـةٌ تمامًـا فـلا وجـود لهـا عـلى الإطـلاق.

2. سـيادة المسـاواة داخـل الكتلـة، وهـى مطلقـةٌ وغـير قابلـةٍ للجـدل، ولا تضـع الكتلـة هـذه المسـاواة موضـع الشـك، فهـى ذات أهميـة أساسـية، حتـى إنـه يمكـن للمـرء قيـاس حالـة الكتلـة تقريبًـا بحالـة المسـاواة المطلقـة. فالـرأس هـو رأسٌ والـذراع هـى ذراعٌ ولا أهميـة للفـرق بينهـما. وفى سـبيل هـذه المسـاواة يسـعى المـرء إلى الكتلـة ويغـض الطـرف عـما يحـول دون ذلـك. وكل المطالبـات بالعدالـة، وكل نظريـات المسـاواة، تسـتمد طاقتهـا فى نهايـة المطـاف مـن تجربـة المسـاواة هـذه التـى يدركهـا كل فـردٍ بالكتلـة عـلى طريقتـه الخاصـة.

3. إيثار الكتلة للكثافة، على أنها لا تبالغ فى ذلك، فلا ينبغى أن ينفذ شىءٌ إليها أو يسقط شىءٌ من بينها، بل يجب أن يكون كل شىءٍ هو الكتلة ذاتها بقدر الإمكان. أما شعورها الأعظم بالكثافة فيتملكها فى لحظة التخلص من الكبت، وسوف تتاح إمكانية تحديد وقياس هذه الكثافة على نحو أوضح.

4. احتياج الكتلة إلى اتجاه. فهى فى حركةٍ وتتحرك نحو شىءٍ ما. فالاتجاه الجامع لكل المنتمين للجمهور هو الداعم للشعور بالمساواة. أما الهدف الموجود خارج كل فردٍ، ويجمع كل الأفراد، هو الذى يقضى على الأهداف الشخصية غير المتساوية، التى تؤدى إلى موت للجمهور. ويرتبط وجود الكتلة بالاتجاه، والخوف من التفتت الذى ينشط داخلها دائمًا ييسر توجيهها إلى أى هدفٍ. والكتلة موجودةٌ ما دام هناك هدفٌ لم يتحقق. لكن هناك بداخلها يكمن اتجاه حركةٍ غامض يفضى بها إلى أشكال علوية جديدة، ولا يمكن فى الغالب التكهن بطبيعة هذه الأشكال الجديدة.

إن كلاً من هذه السمات الأربع التى عرفناها يمكن توافرها بنسبٍ مختلفة. وتقسيم الكتلة يختلف باختلاف نظرتنا إلى كل سمةٍ من هذه السمات. فقد ذكرنا الكتلة المنفتحة والكتلة المنغلقة، كما أوضحنا أيضًا أن هذا التقسيم ينسحب على نمو الكتلة. فما دام لم يُعرقَل نمو الكتلة فإنها تظل كتلة منفتحة، وما إن يوضع حدٌّ لنموها تصير كتلة منغلقة. وهناك فرقٌ آخر يمكن أن يطرأ، وهو فرقٌ بين الكتلة الإيقاعية وبين الأخرى الراكدة، وهو ينطوى على السمتين الرئيستين التاليتين، أى المساواة والكثافة، أى على كليهما معًا. أما الكتلة الراكدة فهى تحيا على عملية التخلص من الكبت. وهى تشعر به يقينًا وتؤجله، فهى تتطلع إلى فترة تكثيفٍ طويلةٍ نسبيًا من أجل التأهب للحظة التخلص من الكبت، ويمكننا القول بأنها تتدفأ بفترة تكثيفها، وتتحفظ تجاه التخلص من الكبت قدر إمكانها. كما أن عملية التكتل الجماهيرى لا تبدأ عندها بالمساواة، بل بالتكثيف. فهنا تصير المساواة هى الهدف الرئيس للكتلة التى تصب فيه فى النهاية. وكل صيحةٍ جماعية وكل تصريحٍ جماعى يعبّران عن هذه المساواة تعبيرًا فعالاً. وعلى النقيض من هذا تمامًا فإن المساواة والكثافة تجتمعان منذ البداية لدى الكتلة الإيقاعية. فكل شىء هنا يرتبط بالحركة، وكل استنفارٍ جسدى يكون محددًا مسبقًا، ويمتد كل ذلك إلى الرقص. فمن خلال التباعد والتقاربٍ ثانيةً يبدأ تكوين الكثافة عن وعيٍ.

أما المساواة فتكشف عن نفسها صراحةً. ومن خلال مقدمات الكثافة والمساواة يتم استنفار شعور الكتلة بالإبداع، فتنشأ هذه الاشكال الإيقاعية بسرعةٍ، ولا يعجل بنهايتها إلا الإرهاق الجسدى فقط. أما المصطلح المزدوج التالى، أى الخاص بالحشد السريع والبطىء فإنه ينطوى فقط على نوع هدف الكتلة. إن الكتلة اللافتة للانتباه التى يدور الحديث عنها عادةً، والتى تكون جزءًا أساسيًا من حياتنا الحديثة، هى الكتلة السياسية والرياضية والعسكرية التى نراها كل يومٍ، فتعتبر كلها كتل سريعة، وهى تختلف تمامًا عن الكتلة الدينية الغيبية أو كتلة الحجيج، فهدف هذه الكتلة يكمن فى المدى البعيد والطريق الطويل إليه، وهو ما يؤجل التكوين الحقيقى للكتلة الذى يمتد إلى بلدٍ بعيد أو إلى ملكوت السماء. ونحن لا نرى حقًا من هذه الكتلة البطيئة سوى الروافد فقط. فالأوضاع الأخيرة التى تطمح إليها غير مرئية، وليس بوسع من هم ليسوا بمؤمنين الوصول إليها. والكتلة البطيئة تتجمع ببطءٍ وترى استمرارها فى الأمد البعيد. وكل هذه الأشكال التى لمّحنا إليها فقط بحاجة إلى تأملٍ أكثر دقةً.

الإيـقــاع

إن إيقـاع الأقـدام هـو أسـاس الإيقـاع. فـكل إنسـانٍ، شـاء ذلـك أم أبى، ينتـج صوتـًا إيقاعيًا عندمـا يمـشى. ولأنـه يمـضى عـلى سـاقين فإنـه يـضرب بكلتيهـما بالتبـادل. وهـو يمـضى للأمـام فقـط عندمـا يشـق طريقـه مـن حـينٍ لآخـر. والقدمـان لا تضغطـان أبـدًا بنفـس القـدر مـن القـوة، فقـد يكـون الفـرق بينهـما كبـيرًا أو صغـيرًا حسـب وضـع الشـخص أو مزاجـه الشـخصى. فبوسـع المـرء المُضِىّ بسرعـةٍ أو ببـطءٍ، كـما يمكنـه الركـض أو القفـز أو التوقـف فجـأةً. ودائمًـا مـا سـمع الإنسـان وقـع أقـدام الآخريـن وهـو يقينًـا ينتبـه إليهـا عـلى نحـوٍ أهـم مـن خطـى نفسـه. وللحيوانـات كذلـك طريقـة سـيرٍ معهـودة. وقـد كان للكثـير منهـا إيقاعـاتٌ أكـثر ثـراءً ووقعًا مـن إيقاعـات الإنسـان. فالحيوانـات ذات الحوافـر تفـر فى قطعـان بإيقـاعٍ يمـاثـل قـرع الطبـول المدويـة. وتعتـبر أقـدم معـارف الإنسـان معرفتـه بالحيوانـات المحيطـة بـه والمهـددة لـه والتـى كان يحـاول اقتناصهـا، وقـد تعـرف إليهـا مـن خـلال إيقـاع حركتهـا. أمـا أقـدم كتابـة تعلـم قراءتهـا فكانـت نوعًـا مـن "النوتـة" الموسـيقية التـى كانـت موجـودةً دائمًـا، وهـى تطبـع نفسـها بنفسـها عـلى الأرض الرخـوة، فلـما قرأهـا الإنسـان ربـط بينهـا وبـين صـوت نشـأتها. وقـد ظهـر الكثـير مـن آثـار الأقـدام هـذه معًـا فى مجموعـاتٍ كبـيرة تجـاور بعضهـا البعـض عـلى نحـوٍ مكثـف. أمـا البـشر الذيـن عاشـوا فى البـدء

فى مجموعاتٍ صغيرة فقد استطاعوا، بالتأملِ المتروى لمثل هذه الآثار، أن يدركوا بأنفسهم التناقض بين عددهم الضئيل والعدد الهائل لبعض القطعان. فقد كانوا جوعى ويبحثون دائمًا عن فريسة، وكلما زادت الغنائم كان ذلك أفضل لهم. لكنهم شاءوا أيضًا زيادة أعدادهم نفسها. وكان شعور الإنسان نحو التكاثر قويًا، ولا مناص من فهم ذلك مما شاء الناس وصفه بتعبيرٍ قاصر، أى "بالاندفاع إلى التكاثر". فلقد شاء البشر فى هذا الموضع المحدد وفى هذه اللحظة أن يكونوا أكثر عددًا. وقد أخذ العدد الكبير للقطيع الذى يعملون على اقتناصه وعددهم الذى يأملون زيادته يُدوّى داخلهم على نحوٍ خاص، وقد بثوا فى التعبير عن هذه الحالة بعينها انفعالاً جماعيًا، وهو ما أُطلق عليه أنا وصف الكتلة الإيقاعية أو المهتزة.

أما الوسيلة الأولى فى ذلك فكانت هى الأقدام، فحيثما يمضى كثيرون كان يمضى معهم آخرون بخطى تنتظم مع خطى أخرى فى تكرارٍ سريع لتعطى انطباعًا خادعًا بعددٍ أكبر من الناس، وهم لا يغادرون مكانهم بل يتشبثون بالمكان نفسه راقصين ولا يكون لخطاهم وقع صدى، بل كانت تكرر نفسها، وتظل عبر فترةٍ طويلة على نفس القدر من ارتفاع الصوت والحيوية. فهم يعوضون من خلال التكثيف ما يفتقرون إليه من عدد. وإذا ما كان دبيبهم أكثر قوةً فإن ذلك يعطى انطباعًا بعددٍ أكبر. وهم يمارسون على كل البشر القريبين منهم قوة جذبٍ لا تتراجع ما داموا لم يتوقفوا عن الرقص. وكل كائن يقع فى مجال سمع إيقاعهم ينضم إليهم ويبقى منضمًا داخل جماعتهم. وقد كان من طبائع الأمور أن ينضم إليهم دائمًا آخرون. لكن لمّا لم يعد هناك أحدٌ من هؤلاء فإنه تعين عليهم أن يخرجوا ذلك من داخلهم، من عددهم المحدود، الذى يعطى انطباعًا خادعًا بزيادة عددهم. وهم يتحركون كأن عددهم يتزايد، فيزداد انفعالهم ليتصاعد إلى هوس. لكن كيف يعوضون ما لم يستطيعوا اكتسابه كعددٍ متزايد؟ هنا يكون مهمًا أن يفعل كل منهم الشىء نفسه، فكلٌ منهم يدب بقدمين، ويؤدى كلٌ منهم ذلك على النحو نفسه، فكلٌ منهم يؤرجح ذراعين وكلٌ منهم يحرك رأسه فيصير عدد أعضاء الجسد هو العدد المشارك. فكل ما يتحرك فى جسد الإنسان يكتسب عدده الخاص، كل ساقٍ، كل ذراعٍ قائمةٌ بذاتها، فيتم استثارة كل عضوٍ على حدة من أجل التعويض، فهذه الأعضاء قريبةٌ من بعضها البعض للغاية، وغالبًا ما يرتاح كلٌ منها على الآخر. وعلى قدر قيمة مساواتها تأتى قيمة كثافتها،

فتصير الكثافة والمساواة شيئًا واحدًا. وفى النهاية يكون الرقص، أمام فردٍ ما، بخمسين رأسًا ومئة ساقٍ ومئة ذراعٍ تعمل على نفس المنوال ولنفس الغرض. وهؤلاء يشعرون فى أوج انفعالهم بأنهم حقًا شخصٌ واحد ولا يفت فى عضدهم إلا الإرهاق البدنى. وكل الكتل الراقصة لديها شىء مشابه - بفضل الإيقاع الكامن داخلها. والتقرير الذى يستعرض هنا هذا النوع من الرقص يعود تاريخه إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر. وهو يدور حول رقصة "هاكا"[1] الماورى بجزيرة نيوزيلندا والتى ترجع جذورها إلى رقصة حربية.

ينتظم الماورى فى صفٍ طويل لأربعة رجالٍ خلف بعضهم. وهذه الرقصة المسماة "هاكا" لا بد أن تبث الفزع والخوف فى كل من شاهدها للمرة الأولى. وقد كان المجتمع كله قد اختلط ببعضه البعض، رجالاً ونساءً وأطفالاً وعبيدًا، من دون اعتبارٍ لطبقاتهم الاجتماعية. أما الرجال فكانوا جميعًا عرايا تمامًا فيما عدا حقيبة علقوها حول بطنهم. وكان الجميع مسلحين ببنادق أو حرابٍ ثبتوها على أطراف رماحهم وعصيهم. كما شاركت الفتيات وكذلك نساء الزعيم فى الرقص بصدورٍ عارية. وكان لا بد من الالتزام الصارم بإيقاع الغناء المصاحب للرقص. أما قدرتهم على الحركة فكانت تثير الدهشة. وفجأةً إذا بهم يقفزون من الأرض عاليًا بشكلٍ عمودى فى وقتٍ واحد، وبدقة، كأن إرادةً واحدة قد بُعثَت فى الراقصين جميعًا معًا. وفى لحظةٍ واحدةٍ صاروا يلوّحون بأسلحتهم ويقلصون ملامح وجوههم. وبشعورهم الطويلة التى كان يتمتع بها غالبية الرجال والنساء صاروا يشبهون جيشًا مرعبًا من الأساطير الإغريقية. فإذا ما هبطوا دبوا بأقدامهم الأرض فى وقت واحدٍ بصوت عالٍ. وكانوا غالبًا ما يكررون هذا القفز على نحوٍ أسرع وكانت ملامحهم تنقبض بقدر ما تطيقه عضلات وجه الإنسان. وكانت كل إيماءةٍ تنتقل من كل المشاركين فى موعدها الدقيق، فإذا ما قطب أحدهم الوجه على نحوٍ صارم للغاية كان الجميع يحاكونه على الفور. وكانت أعينهم تزوغ من وقتٍ لآخر، وأحيانًا لم يكن يُرى بياض العين التى تبدو كأنها ستسقط من محجرها فى أية لحظة. وكانوا يطبقون الفم حتى الأذنين ويمدون جميعًا ألسنةً طويلة تمامًا خارج الفم فى وقتٍ واحد. ولن يكون بوسع أى أوروبى مجاراتهم فى ذلك، فقد أُهِّلوا لذلك من خلال تدريبٍ مسبق طويل. هكذا تبدو وجوههم فى هيئةٍ مفزعة، وكان غض البصر عنهم يريح الأعصاب. وقد كان كل عضوٍ من أعضاء جسدهم فى حالة نشاطٍ مستقلة، الأصابع وأصابع القدمين والأعين والألسنة، كذلك

الأذرع والسيقان. وسرعان ما أخذوا يدقون بأيادٍ منبسطة على الناحية اليسرى من صدورهم ثم على أفخاذهم. أما دَوِى غنائهم فكان يصُم الآذان، فقد شارك فى الرقص ما يربو على ثلاثمئةٍ وخمسين فردًا. هكذا يستطيع المرء تصور مدى أثر هذه الرقصة فى أوقات الحرب ومدى رفعها للروح المعنوية ومدى تأجيج نفور الطرفين من بعضهما البعض. فإدارة العيون وإخراج اللسان هما بمثابة إشارات للعناد والتحدى. ورغم أن الحرب عامةً تعتبر شأنًا خاصًا بالرجال، أى الأحرار منهم، كانوا يسمحون للجميع بالمشاركة فى انفعال رقصة الـ"هاكا". فالكتلة هنا لا تعرف النوع أو العمر أو الطبقة الاجتماعية، فالجميع ينشطون على قدم المساواة. أما ما يميز هدف هذه الرقصة عن أهداف رقصات أخرى مشابهة فهو تفرع المساواة. ويكون ذلك كأن كل جسد يتفرع بكل أجزائه منفردةً وليس فقط بالأذرع والسيقان، لأن الحال تكون فى الغالب هكذا، بل إن أصابع القدم وأصابع اليد والألسنة والعيون تؤدى الشىء نفسه فى اللحظة نفسها، وسرعان ما تؤدى الأعين العمل نفسه متساويةً فى ذلك مع أصغر أعضاء جسد الناس، ودائمًا ما يُستعرَض هذا فى أداءٍ ترتفع حدته. إن مشهد ثلاثمئةٍ وخمسين فردًا وهم يقفزون كثيرًا ليخرجوا ألسنتهم معًا ويديرون أعينهم معًا لا بد أن يعطى انطباعًا بالتوحد. أما الكثافة فليست كثافة الناس فحسب بل هى كثافة أعضاء جسدهم المستقلة أيضًا. وقد نذهب إلى الرأى بأنه حتى لو لم تكن هذه الأجساد والألسنة لبشرٍ فكانت سوف تتوحد وتناضل. وإيقاع الـ"هاكا" هو الذى يُفعِّل قيم المساواة هذه، كلاً على حدة، وتصاعدها معًا أمرٌ لا يمكن مقاومته. وكل شىء يحدث شريطة أن يكون مرئيًا. فالعدو يشاهد ذلك وهو ما يؤدى بالـ"هاكا" إلى تركيز التهديد الجماعى. فبعد أن نشأ الرقص صار إلى ما هو أكثر من ذلك، فكان التدريب عليه يبدأ من الصغر متخذًا أشكالاً كثيرة مختلفة. وهو عرضٌ يتم تقديمه فى كل المناسبات الممكنة. كما تُعَد رقصة الـ"هاكا" بمثابة ترحيب بالزائرين. ويعود الفضل فى التقرير الذى عرضناه إلى واحدةٍ من هذه المناسبات. فعندما تلتقى قوةٌ صديقة بقوةٍ أخرى فإنهما يحييان بعضهما البعض برقصة الـ"هاكا"، وفى أثناء ذلك يؤخذ الأمر على محملٍ من الجدية إلى حد أن يخشى المشاهد حسن النية من نشوب معركةٍ فى أية لحظة. وفى الشعائر الجنائزية لأحد الزعماء الكبار، وبعد كل مراحل المناحة الحارة، وتشويه المرء لجسده الذى يعتبر تقليدًا لدى الماورى، وبعد وجبة طعامٍ احتفائية دسمة، إذا بالجميع يقفزون فجأة ويمسكون بأسلحتهم

ليشكلوا فرقة الـ"هاكا". ومن خلال هذه الرقصة التى يستطيع الجميع المشاركة فيها تشعر القبيلة أنها كتلة. وهم يستخدمون الرقص متى شعروا بالحاجة إلى أن يكونوا كتلاً، فيبدون أمام الآخرين هكذا. وعندما يصل الرقص إلى الكمال الإيقاعى يكون قد حقق الهدف يقينًا. وكان للـ"هاكا" الفضل فى أن وحدة الكتلة لم تُهدَد من داخلها قط.

الـركــود

إن الكتلـة الراكـدة هـى كتلـة تزاحمـت بكثافـةٍ، وكـم تمنـت حركـة حـرة بالفعـل، إلا أن ذلـك كان بالنسـبة لهـا ضربًـا مـن الخيـال. وتتسـم حالتهـا بـشىء مـن السـلبية، فالكتلـة الراكـدة تنتظـر. فهـى تنتظـر أن يُعـرَض أمامهـا رأس ضحيـةٍ مـا، أو تُلقَـى عـلى مسـامعها كلمـةٌ مـا، أو تشـاهد صراعًـا مـا. فالأمـر هنـا يرتبـط ارتباطًـا تامًـا بصفـةٍ خاصـةٍ بالكثافـة. فالضغـط الـذى يشـعر بـه النـاس مـن كل جانـبٍ قـد يصلـح معيـارًا لقيـاس قـوة الكيـان الـذى صـاروا هـم جـزءًا منـه، وكلـما ازداد تدفـق النـاس معًـا صـار الضغـط أعظـم. فالأقـدام لا تجـد موطئًـا والأذرع تصـير متشـابكةً وملتحمـةً، ولا يبقـى حـرًا سـوى الـرأس مـن أجـل الرؤيـة ومـن أجـل السـمع. وتمنـح الأجسـاد بعضهـا البعـض مزيـدًا مـن الانفعـال عـلى نحـوٍ مبـاشر. وفى كل مـكانٍ يكـون المـرء قـد شـارك بجسـده أناسًـا آخريـن فى آنٍ واحـد، وهـو يـدرك أن هـؤلاء عديـدون، إلا أن ارتباطهـم معًـا عـلى هـذا النحـو المكثـف يجعلـه يشـعر بأنهـم واحـدٌ. وهـذا النـوع مـن الكثافـة يسـتمر لوقـتٍ طويـل ويكـون تأثـيره الثابـت محـدود المـدى، وهـو غـير متبلـور، وغـير خاضـعٍ لإيقـاعٍ مألـوف تـم التدريـب عليـه. ولفـترةٍ طويلـة لا يحـدث شىء، إلا أن الرغبـة فى الفعـل تتراكـم وتتصاعـد لتنطلـق فى النهايـة عـلى نحـوٍ أكـثر حـدةً. وقـد لا تثـير مثابـرة الكتلـة الدهشـة إذا لم نـدرك بحـق أهميـة هـذا الشـعور بالكثافـة بالنسـبة

لهـا. فكلـما ازدادت كثافـة الكتلـة ازداد جذبهـا لأنـاسٍ جـدد. ويقـاس حجمهـا بقـدر كثافتهـا. فالكثافـة فى الواقـع هـى الحافـز لنمـوٍ مطـرد. والكتلـة الأكـثر كثافـةً هـى التـى تنمـو عـلى أسرع وجـه. ويـأتى الركـود قبـل التخلـص مـن الكبـت كغـرضٍ لهـذه الكثافة. فكلـما طـال أمـد الركـود شـعرت هـى بكثافتهـا وأظهرتهـا. ويعتـبر أفـراد الكتلـة فـترة الركـود فـترة تخزيـن يتخلـون فيهـا عـن الأسـلحة والغصـات التـى تجهـزوا بهـا لمواجهـة الآخريـن عـلى نحـوٍ جيـد. فـإذا مـس بعضهـم البعـض الآخـر لم يشـعر بالضيـق. فالقبضـات لم تعـد قبضـات. فالنـاس لا يخشـون بعضهـم البعـض. وقبـل أن يمـضى المـرء إلى أى اتجـاهٍ شـاء فإنـه يريـد الاطمئنـان بـأن النـاس سـيظلون معًـا. إنه النمـو الجماعى الـذى يريـد المـرء الاطمئنـان إليـه، الكتلـة الراكـدة لم تكـن قـد اطمأنـت بعـد إلى وحدتهـا ولذلـك تظـل سـاكنةً لأطـول وقـت ممكـن. إلا أن لهـذا الصـبر حـدودًا. فالتخلـص مـن الكبـت فى نهايـة المطـاف أمـرٌ لا مفـر منـه، فمـن دونـه لا يمكـن الزعـم بوجـود الكتلـة فى الواقـع، فصـوت الكتلـة هـو تلـك الصرخـة التـى كانـت مألوفـة لـدى عمليـات الإعـدام العلنيـة، أو هـى الصيحـة التـى نعرفهـا اليـوم فى المباريـات الرياضيـة. أمـا تلقائيتهـا فعـلى جانـبٍ كبـير مـن الأهميـة. والصيحـات المُدرَبـة والمكـررة فى فـتراتٍ زمنيـة منتظمـة لا تكـون إشـارةً عـن إعـلان حيويـة الكتلـة، وقـد تفـضى إلى ذلـك، لكنهـا تكـون ظاهريـةً، وهـو مـا تـؤدى إليـه تحـركات إحـدى فـرق الجيـش المدربـة. وعـلى النقيـض تكـون الصيحـة التلقائيـة غـير المقـررة مسـبقًا، الصـادرة عـن الكتلـة، صادقـةً ويكـون أثرهـا هائـلاً، كـما أنهـا تسـتطيع التعبـير عـن كل الانفعـالات مـن كل نـوع. وغالبًـا مـا يكـون نـوع الانفعـال عـلى درجـةٍ كبـيرة مـن الأهميـة. فالأمـر هنـا يرتبـط بقوتهـا واختـلاف نوعهـا وبالحريـة الناتجـة عنهـا. فهـذه هـى التـى تمنـح الكتلـة مجالهـا الروحـى، إلا أنهـا يمكـن أن تكـون مركـزةً عـلى نحـوٍ عنيـف حتـى إنهـا تمـزق الكتلـة فى الحـال. فعمليـات الإعـدام العلنيـة كان لهـا هـذا التأثـير. فبوسـع المـرء قتـل الضحيـة الواحـدة نفسـها مـرةً واحـدة فقـط. فـإذا مـا ارتبـط الأمـر بشـخصٍ كان يُعتـبَر دومًـا شـخصًا محصنًـا فإنـه يظـل هنـاك شـكٌ فى إمكانيـة إعدامـه حتـى اللحظـة الأخـيرة. والشـك الناشـئ هنـا عـن هـذه الحالـة يضخـم ركـود الكتلـة الطبيعـى. وبذلك يكـون تأثـير مشـهد الـرأس المُجتَـزّ أكـثر حسـمًا وحـدةً. أمـا الصيحـة التاليـة لذلـك فتكـون رهيبـةً، إلا أنهـا تكـون آخـر صيحـةٍ لهـذه الكتلـة المحـددة تمامًـا. وهكـذا يمكـن القـول بـأن الكتلـة، عـلى حالهـا هـذه، تتميـز بتوقـع الركـود إلى أقـصى حـد، تدفـع الثمـن مقابـل ذلـك، ويكـون الثمـن هـو موتهـا الفـورى. أمـا مبارياتنـا الرياضيـة

الحديثة فهى أكثر اتساقًا مع الغرض، فالمشاهدون يستطيعون الجلوس وتكون مثابرتهم باديةً للعيان، ولديهم حرية الدب بأقدامهم، وهم باقون مع ذلك فى البقعة نفسها، ولهم حرية التصفيق بأيديهم، كما تم تحديد وقتٍ معين مسبقًا للمباراة، ومن غير المفترض عمومًا أن يُختصَر الوقت. وطوال هذا الوقت، على الأقل، يظل الناس معًا يقينًا. وفى أثناء هذا الوقت يمكن أن يحدُث أى شىء. فالمرء لا يستطيع أن يعرف مسبقًا أنه سوف يُحرَز هدفٌ، أو متى ومن أى طرفٍ. وبجوار هذه الأحداث الرئيسة المنتظَرة تجرى هناك أحداثٌ أخرى تؤدى إلى فورة صاخبة، فغالبًا ما تُسمع أصواتٌ فى أثناء أحداثٍ مختلفة. أما التفتت النهائى، أى التفرق، فينتزع الوقت المحدد مسبقًا شيئًا من شخصيته المؤلمة، إضافةً إلى فرصة المنهزم فى الثأر. وهكذا لا تكون هذه الحال قد انتهت للأبد. وبوسع هذه الكتلة أن تتسع بالفعل، فهى تتزاحم فى البداية عند الأبواب ثم تظل راكدةً على المقاعد وتتصايح كما شاءت إذا حانت لحظةٌ مناسبة لذلك. وحتى بعد انقضاء الأمر كله فهى تأمُل فرصةً مناسبة فى المستقبل. أما الكتلة الراكدة الأكثر سلبية فتتكون فى المسارح. وأما الحالة المثالية فهى أن يؤدى المرء دوره أمام صالةٍ غاصة بالجمهور. ويكون عدد المشاهدين المنشود محددًا من البداية. وهؤلاء يتجمعون من تلقاء أنفسهم. وباستثناء التزاحم القليل أمام شباك الحجز فإن هؤلاء يشقون طريقهم إلى القاعة منفصلين ويمضون إلى مقاعدهم. فكل شىء كان قد تم تحديده، من الرواية التى سيتم عرضها، والممثلين الذين سيؤدون أدوارهم، وموعد البدء، حتى المشاهدين على مقاعدهم. أما من يأتون متأخرين فيُستقبَلون بشىءٍ من الشعور العدائى. ومثل قطيعٍ ملتزم بالنظام يجلس الناس هناك فى سكونٍ وصبر بلا حدود. إلا أن كلاً منهم يعى وجوده المنفصل على خير وجه، فقد دفع الثمن وأخذ يلاحظ مَن يجلس بجواره بدقةٍ، وقبل البدء يتأمل بهدوءٍ صفوف الرءوس المجتمعة، فهى توقظ فيه شعورًا طيبًا بالكثافة وإن لم يكن شعورًا مفرطًا فى الإلحاح. أما المساواة بين المشاهدين فلا تنشأ بالفعل إلا عند تقبلهم جميعًا الشىء نفسه الصادر إليهم من المسرح. لكن ردود فعلهم التلقائية نحو ذلك تكون محدودةً، فحتى التصفيق له وقته المحدد. وفى معظم الأحوال لا يصفق المرء بالفعل إلا عندما ينبغى عليه التصفيق. ومن خلال قوة التصفيق وحدها يمكن إدراك الحجم الذى بلغته الكتلة، فهو المعيار الوحيد لذلك، وهو ما يقوم الممثلون أنفسهم بتقييمه. وقد بلغ الركود فى المسرح شأوًا بعيدًا ليصير

عرفًا إلى حد أن المرء يشعر به ظاهرًا، أى كضغطٍ خارجى بسيط لا يمس الناس على نحوٍ عميق ولا يكاد يمنحهم الشعور بالوحدة الداخلية والانتماء. لكن لا ينبغى أن ننسى مبلغ حجم وجماعية التوقع الذى يجلسون به هناك، ومدى استمرار هذا التوقع فى أثناء العرض كله. ومن النادر أن يغادروا المسرح قبل الختام، حتى لو خاب أملهم فإنهم يصمدون. لكن هذا لا يعنى أنهم متماسكون إلى هذا الحد. أما التناقض القائم بين سكون المشاهدين وبين ارتفاع صوت آلةٍ ما فيكون أكثر لفتًا للانتباه فى أثناء حفلات الموسيقى. فهنا يدور كل شىء حول الهدوء التام، فأية حركةٍ تُقابَل بالرفض ويُمنَع أى صوتٍ. وفى أثناء عزف الموسيقى التى يقوم جزءٌ كبير منها على الإيقاع فإنه لا يجوز أن يُشعَر بأثر الإيقاع على المستمعين. أما الانفعالات الناتجة عن الموسيقى فتكون فى حالة تبدلٍ مستمرة، فهى من النوع الأكثر تنوعًا وتكثيفًا. ومن المستبعد ألا يشعر بها معظم الحاضرين وألا يشعر بها المرء فى الحال. إلا أن ردود الفعل الظاهرة نحو ذلك تبقى محظورةً، فالناس يجلسون بلا حراكٍ كأنهم قد قرروا ألا يسمعوا شيئًا. ومن الواضح أن الأمر هنا كان يستدعى تربيةً فنية طويلة فى سبيل تحقيق الركود وهو أمر اعتدنا على نتائجه. فالرؤية النزيهة، توضح قلة الظواهر الثقافية التى تدهشنا، كما يدهشنا جمهور الحفلات الموسيقية. فمن يخضع لتأثير الموسيقى بنحوٍ طبيعى يصير مسلكه مختلفًا تمامًا. أما من لم يسمع موسيقى مطلقًا فقد يقع فى أعظم حالات الإثارة إذا عايش ذلك. فعندما سمع أهالى "تسمانيا" القدماء نشيد المارسييز عندما عزفه البحارة عند وصولهم هناك إذا بهم يعربون عن رضائهم بالالتفاف بأجسادهم على نحو خاص، وبإشارات عجيبة، حتى إن البحارة لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك. وكانت النشوة قد أذهلت شابًا فشد شعره وهرش رأسه بكلتا يديه مطلقًا صيحاتٍ عالية مكررة. وقد احتفظت حفلاتنا الموسيقية بجزءٍ باقٍ بائس من التحرر الجسدى، فالتصفيق استحسانًا يُعَد بمثابة عرفانًا للعازفين، وهو صخب فوضوى قصير مقابل ذلك المنظم جيدًا طويل المدى. فإن لم يكن هناك تصفيقٌ مطلقًا فإن الناس يتفرقون بسكون كما كانوا يجلسون. فهكذا يشعر المرء باستغراقٍ تام فى جو من التبتل الدينى الذى استمد منه الحفل الموسيقى سكونه الأصيل. أما الوقوف الجماعى بين يدى الله فهو مرانٌ منتشر فى بعض الأديان. وهو يتميز بنفس ملامح الركود المعروف عن الكتلة الدنيوية. وهو ما يمكن أن يؤدى إلى عمليات فرزٍ مفاجئة وعنيفة. وربما كان

الأكثر إثارةً للإعجاب هو حالة "الوقوف على عرفات"[2] الشهيرة التى تمثل أوج فريضة الحج إلى مكة. ففى يومٍ بعينه حددته الشعائر يجتمع من ستمئة ألف إلى سبعمئة ألف حاجٍ فى وادى عرفات الواقع على بعد بضع ساعاتٍ من مكة. هناك يجتمعون فى حلقاتٍ واسعة حول "جبل الرحمة "، وهو تلٌ مقفر يرتفع وسط هذا الوادى. ونحو الساعة الثانية بعد الظهر، عندما تصل درجة حرارة الجو إلى أقصى معدلاتها، ينتظم الحجاج ليظلوا واقفين هناك حتى غروب الشمس، وقد حلقوا رءوسهم وارتدوا جميعًا نفس رداء الحج الأبيض. وفى حالةٍ من التوتر المشوّق ينصتون إلى كلمات الواعظ الذى يخاطبهم فوق التل. أما عظته فهى بمثابة تسبيح متصل لله. فيرد هؤلاء بعبارةٍ يكررونها ألف مرة: "لبيك اللهم لبيك! لبيك اللهم لبيك!" وينشج البعض انفعالاً، بينما يضرب البعض صدره كما يُغشى على البعض جراء الحرارة الشديدة. لكن جوهر الأمر يكمن فى صمودهم بالوادى المقدس طوال هذه الساعات الطويلة الحارة. أما إشارة الانطلاق فلا تصدر إلا مع غروب الشمس. وأما الأحداث الأخرى التى تعتبر أكثر غموضًا فى الشعائر الدينية فسوف نتناولها ونفسرها فى سياقٍ آخر. لكن ما يهمنا هنا ليس إلا لحظة الركود الممتدة لساعات. فهناك مئات الألوف من البشر فى حالة انفعالٍ مطرد يتم حجزهم فى وادى عرفات ولا يسمح لهم مهما حدث أن يتركوا هذا الوقوف بين يدى الله. فهم قد بدأوا معًا، ومعًا يتلقون إشارة الانطلاق. والعظة تؤجج حماسهم وهم يؤججون الحماس داخلهم بالصياح، والعبارة التى يرددونها تحتوى على لفظ المولى وهو ما يعاود التردد. أما الشمس التى تنسل من الموضع ببطءٍ فتغرق كل شىء فى النور الباهر نفسه، فى التوهج نفسه، وهو ما قد نصفه بتجسيد الركود. وكل درجات الجمود والسكون تتوافر فى الكتلة الدينية. لكن أعلى درجات السلبية التى تستطيع بلوغها على الإطلاق فهى التى تُفرَض بالقوة على الكتلة من الخارج. ففى معركةٍ ما يهاجم فريقان من الكتل بعضهما البعض وكل منهما يريد أن يكون أقوى من الآخر. وبصيحات القتال يحاول أحد الفريقين، مثل عدوها، البرهنة على أنه هو الأقوى بالفعل. أما هدف المعركة فهو إرغام العدو على التزام الصمت. فإن تم قهر جميع الخصوم يكون صوتهم، أى أصواتهم المجتمعة فى صوتٍ واحد، قد أُسكِت للأبد. وهو الصوت الذى كان يعتبر تهديدًا يخشاه الطرف الآخر عن حق. فالكتلة الأكثر سكونًا هى كتلة الموتى المعادين، فكلما كان خطر هؤلاء قد ازداد كان الطرف الآخر يأمُل، بنفس

القدر، رؤية هؤلاء بلا حراك فى كومٍ واحد معًا. إنه نزوعٌ شخصى لمعايشة هؤلاء على هذا النحو من العجز فوق كومٍ من الموتى. فهم من كانوا كـ"كوم" قد هاجموا طرفًا آخر، وكـ"كوم" كانوا قد صرخوا فى وجه طرفٍ آخر. وهذه الكتلة المرغمة على الصمت لم يتصور البعض فى عصورٍ مبكرة أنها فقدت حياتها على الإطلاق. فقد افترض المرء أن هؤلاء سوف يواصلون الحياة بطريقتهم بموضعٍ آخر، وهى فى جوهرها يجب أن تكون حياةً مشابهة لتلك التى عرفها المرء نفسه عنهم. وهؤلاء الأعداء الراقدون جثثًا هنا يمثلون للمراقب حالةً قصوى لكتلة راكدة. إلا أن هذا التصور قد أدركه الاطّراد أيضًا، فبدلاً من الأعداء القتلى صار الأمر يشمل كل الموتى الراقدين فى أراضٍ مشتركة ويصرون هناك على العودة إلى الحياة. وكل من يموت ويدفن يصير بمثابة زيادة لأعدادهم. فكل من عاش ذات يومٍ سوف ينضم إليهم ليتكاثر عددهم إلا ما لا نهاية. أما الأرض التى تربط بينهم فهى كثافتهم، ما يولد شعورًا بأنهم قريبون من بعضهم البعض للغاية، حتى لو رقد كل منهم وحده على حدة. ولزمنٍ طويل لا نهاية له يظلون راقدين على هذا النحو حتى يوم القيامة. أما حياتهم فتظل راكدةً حتى لحظة البعث، وهى اللحظة التى توافق لحظة مثولهم أمام الله الذى سيحاسبهم. وبين هذه وتلك لا يوجد شىء، فهم يرقدون هناك ككتلة ليبعثوا ككتلة، وليس هناك دليلٌ على واقعية وأهمية الكتلة أروع من تطور هذا التصور عن البعث ويوم الحساب.

تباطؤ أو بُعد الهدف

من خصائص الكتلة البطيئة هو بُعد الهدف. فالمرء يتحرك بإصرارٍ عظيم نحو هدفٍ ما. وهو هدفٌ لا يمكن زحزحته. وفى أثناء المسير يظل الناس معًا على أية حال. أما السبيل فطويل وأما العوائق فغير معروفة والمخاطر تنذر بالتهديد من كل جانب. وحتى الوصول إلى الهدف يكون "التخلص من الكبت" غير مسموحٍ به. وتتخذ الكتلة البطيئة شكل القطار، وقد تكون، منذ البداية، قد تكونت من جميع المنتمين إليها، مثل حالة خروج بنى إسرائيل من مصر، وكان هدفهم هو أرض الميعاد. وقد ظلوا كتلةً جماهيرية ما داموا آمنوا بهذا الهدف. أما قصة رحلتهم فهى قصة هذا الإيمان. وكانت الصعاب غالبًا كبيرةً إلى حد أنهم بدأوا فى التشكك، فهم يجوعون ويعطشون، وما إن تذمروا حتى كان التفتت يتهددهم. ومرارًا وتكرارًا كان الرجل الذى يقودهم حريصًا على ترسيخ إيمانهم، وكان يفلح فى ذلك من حينٍ لآخر. ولو لم يحدث ذلك كان سيفوز الأعداء، الذين كانوا يشعرون بتهديدهم. إن قصة الارتحال الممتدة لأربعين عامًا تتضمن أشكالاً فردية من كتلة ذات طبيعة سريعة وحادة. وسوف نتناول شيئًا عنها فى الموضع المناسب. إلا أنها جميعًا تنضوى تحت التصور الشامل عن كتلةٍ جماهيرية واحدة بطيئة تتحرك صوب هدفها المنشود، أى الأرض التى وُعدوا بها. وقد تقدم العمر

بكبارهـم وماتـوا ليولـد صغـارٌ ويصبحـوا كبـارًا. لكـن حتـى بعـد تبـدل الأفـراد كلهـم فـإن القطـار ككل يظـل هـو نفسـه ولم تنضـم إليـه أيـة مجموعـاتٍ جديـدة. فمنـذ البدايـة كان مقـررًا مـن هـو الـذى ينتمـى إلى هـؤلاء ولـه الحـق فى أرض الميعـاد. ولمـا لم يكـن بوسـع هـذه الكتلـة أن تنمـو طفـرةً فقـد ظـل لديهـا سـؤال أسـاسى: مـاذا تفعـل حتـى لا تتفتـت؟ أمـا الشـكل الثـانى للكتلـة فيمكـن مقارنتـه بالأحـرى بنظـام النهـر. وهـو يبـدأ بجـداول صغـيرة تنضـم شـيئًا فشـيئًا إلى بعضهـا البعـض متدفقـةً إلى النهـر الـذى نشـأ وتصـب فيـه أنهـارٌ أخـرى مـن كل جانـب. فـإذا توافـرت أرضٌ كافيـة فـإن هـذا كلـه يصـير تيـارًا هدفـه هـو البحـر. وربمـا تكـون رحلـة الحـج السـنوية إلى مكـة هـى المثـل الأكـثر تعبـيرًا عـن هـذا الشـكل مـن الكتلـة البطيئـة. فمـن أقـاصى أرجـاء العـالم الإسـلامى ترتحـل قوافـل الحجيـج جميعهـا نحـو مكـة. وربمـا يبـدأ بعضهـا قوافـل صغـيرةً، وهنـاك غيرهـا يمنحهـا أمـراءُ هالـةً عظيمـة مـن البريـق، فتصـير مـن البدايـة فخـورةً بالبـلاد التـى تنتسـب إليهـا. لكنهـا جميعًـا تلتقـى فى أثنـاء رحلتهـا بقوافـل أخـرى لهـا الهـدف نفسـه. وبهـذا تتنامـى أكـثر فأكـثر وتصـير قـرب هدفهـا تيـاراتٍ قويـةً. ومـن خصائـص أحـوال مثـل هـذا الحجيـج هـو بقـاء مجـالٍ فسـيح لتجـارب حياتيـة معتـادة ليـس لهـا أدنى علاقـة بمعنـى رحلـة الحـج عـلى الإطـلاق. فغالبًـا مـا يعيـش المـرء يومـه المكـرر مصارعًـا الكثـير مـن المخاطـر. وأغلبيـة هـؤلاء فقـراء يسـعون لتوفـير الغـذاء والمـاء. وحيـاة هـؤلاء النـاس التـى تـدور أحداثهـا فى الغربـة هـى حيـاة غربـةٍ تتبـدل أحوالهـا دائمًـا وتواجـه مخاطـر أكـثر بكثـير مـن تلـك فى وطنهـا، وهـى ليسـت عـلى الإطـلاق مخاطـر ترتبـط بأسـلوب الحـج. وهكـذا يظـل هـؤلاء الحجيـج إلى مـدى بعيـد فـرادى يعيشـون حياتهـم منفصلـين عـن الآخريـن مثـل البـشر فى كل مـكانٍ. ولكنهـم مـا دامـوا ظلـوا متمسـكين بهدفهـم، وهـى حـال الغالبيـة منهـم، فإنهـم يظلـون كذلـك دومًـا أجـزاء مـن كتلـة بطيئـة. ومهـما كان مَسـلك هـؤلاء نحوهـا فإنهـا تظـل باقيـةً، وسـوف تظـل باقيـةً حتـى تبلـغ هدفهـا. أمـا ثالـث أشـكال الكتلـة البطيئـة فـإن المـرء يجدهـا أمامـه فى تلـك الأشـكال المرتبـة بهـدفٍ غـير مـرئى ولا يمكـن بلوغـه فى هـذه الحيـاة. إنهـا الحيـاة الآخـرة التـى يتطلـع إليهـا الأبـرار الذيـن اسـتحقوا مكانًـا فيهـا. إنـه هـدف صريـح مـن حـق المؤمنـين وحدهـم. وهـم يرونـه واضحًـا جليًـا، ولا يضطـرون إلى الاكتفـاء مقابـل ذلـك برمـزٍ زائـف. فالحيـاة تشـبه سـبيل الحجـاج إلى هنـاك. ويقـف المـوت بينهـم وبـين الحيـاة الأخـرى. والسـبيل ليـس واضـح التفاصيـل ومـن الصعـب تحديـد معالمـه العامـة. فالكثـيرون يضلـون ويضيعـون فيـه. لكـن الأمـل

فى الحياة الآخرة يصبح حياة المؤمن إلى حد أن يكون لنا الحق فى الحديث عن كتلةٍ بطيئة ينتمى إليها جميع أنصار عقيدةٍ ما. ولما كانوا لا يعرفون بعضهم البعض، ويعيشون متناثرين بمدنٍ كثيرة، يكون غموض هذه الكتلة هو المثير للانتباه على نحوٍ خاص. ولكنها كيف تبدو من الداخل؟ وما الذى يميزها غالبًا عن أشكال الكتلة السريعة؟

وقد أخفقت الكتلة البطيئة فى تحقيق التخلص من الكبت، ويمكننا القول بأن هذا أهم ميزاتها، وبذلك يمكن الحديث أيضا عن كتلةٍ مكبوتة بدلاً من كتلةٍ جماهيرية بطيئة. إلا أنه يُفضَّل الصفة الأولى لأنه لا يمكن الاستغناء تمامًا عن التخلص من الكبت. ففى التصور عن الحالة النهائية يظل التخلص من الكبت ضمن ما تحتويه الكتلة، إلا أنه قد تم إرجاؤه إلى نقطةٍ بعيدة. فحيث يكون الهدف يكون التخلص من الكبت أيضًا. وتظل هناك دائمًا رؤيةٌ قوية عنه، ويقينه يكون فى النهاية. ففى الكتلة البطيئة يهدف المرء إلى تأجيل الحدث الذى يؤدى على مدى بعيد إلى التخلص من الكبت. وقد قامت الأديان الكبيرة بتطوير مقدرةٍ فريدة فى مسألة الإرجاء هذه. فاهتمامها ينصب على الاحتفاظ بأنصارها الذين اكتسبتهم. ومن أجل الاحتفاظ بهم واكتساب آخرين جدد كان عليها أن تجمع هؤلاء من حينٍ لآخر. وعندما كان الأمر يصل إلى حالة شديدة من تفريغ شحنات كان يتحتم عليها تكرار ذلك لكى تتفوق على شدة التخلص من الكبت هنا على سابقتها. وكان لا بد من التكرار المنتظم إذا ما خشى فقدان وحدة المؤمنين. أما ما يحدث فى مثل هذا الاجتماع الدينى الذى يدور فى كتلة إيقاعية فإنه لا يمكن السيطرة على مسافاتٍ شاسعة. فمشكلة الأديان الكونية الأساسية هى السيطرة على المؤمنين بها فى قطاعاتٍ شاسعة من الأرض. ولا تتحقق هذه السيطرة إلا من خلال إبطاءٍ متعمَّد لأحداث الكتلة. فالأهداف بعيدة المدى تكتسب الأهمية. أما الأهداف قصيرة المدى فأهميتها تتناقص على نحوٍ مطرد لتبدو فى النهاية بلا قيمة. فالتخلص من الكبت الدنيوى قصير الأجل. أما ما أُرجئ إلى الآخرة فله الدوام.

والهدف والتخلص من الكبت يلتقيان على هذا النحو، إلا أن الهدف يكون محصنًا لأن أرض الميعاد هنا على الأرض يمكن أن يحتلها الأعداء ويدمروها، ويمكن أن يُطرد الشعب الذى وُعِد بها. فقد احتل القرامطة مكة ونهبوها وأخذوا معهم

الحجـر الأسـود الموجـود بالكعبـة. فلـم يعـد بوسـع النـاس الحـج إلى هنـاك لسـنواتٍ طـوال. لكـن الحيـاة الآخـرة بأبرارهـا بعيـدةٌ عـن كل أعـمال التدمـير مـن هـذا النـوع، فهـى تحيـا عـلى الإيمـان وحـده، ولا يمكـن تهديدهـا إلا مـن خـلال ذلـك. وقـد بـدأ تفتـت كتلـة المسـيحية البطيئـة فى تلـك اللحظـة التـى بـدأ فيهـا الإيمـان ينحـل مـن فكـرة الحيـاة الآخـرة.

الكتلة غير المرئية

حيثما يوجد بشرٌ فى كل أرجاء الأرض ينشأ تصورٌ عن موتى غير مرئيين. وهو ما يمكن اعتباره أقدم تصور لدى البشرية. فلا توجد يقينًا جماعةٌ أو قبيلةٌ أو شعبٌ لم يكن لديه أفكار غزيرة عن موتاه. فقد بلغ الإنسان حد الجنون الفكرى فى هؤلاء الموتى وكانوا على أهميةٍ خاصة بالنسبة له، كما كان تأثيرهم على الأحياء جزءًا جوهريًا من هذه الحياة نفسها.

فالمرء يتذكرهم جميعًا كأنهم ما زالوا معه، ويميل إلى افتراض أمورٍ كثيرة فى عالمهم. فأهالى "بيشوانا"[3] القدامى، مثلهم مثل غيرهم من جميع سكان جنوب إفريقيا الأصليين، يؤمنون بأن الفضاء كله مسكونٌ تمامًا بأرواح أسلافهم، فقد غصت الأرض والسماء والجو بالأرواح التى تستطيع، كما تشاء، ممارسة أعمال خبيثة ضد الأحياء. أما قبائل "البولوكى" على نهر الكونغو[4] فيعتقدون أنهم محاطون بالأرواح التى تلحق بهم الأذى فى أى وقتٍ، فتحاول إيذاءهم فى كل ساعةٍ من ساعات النهار والليل. والأنهار والجداول مملوءةٌ بأرواح أسلافهم، وكذلك غصت الغابة والأدغال تمامًا بالأرواح. أما المرتحلون برًا أو عبر الماء إذا ما داهمهم الليل فإنهم قد يواجهون خطرها. وليس هناك من لديه ما يكفى من الشجاعة حتى يعبرُ ليلاً الغابة التى تفصل بين قريةٍ وأخرى. ولا تستطيع

إمكانيـة الحصول عـلى مكافـأةٍ عظيمـة أن تُغـرى أحـدًا بذلـك. أمـا الإجابـة عـلى ذلـك فكانـت: "هنـاك بالغابـة أرواحٌ أكـثر مـما ينبغـى". ومـن المألـوف أن يعتقـد المـرء أن الأمـوات يسـكنون معًـا بلـدًا بعيـدًا تحـت الأرض أو عـلى جزيـرةٍ أو فى دارٍ سـماوية. وتقـول أغنيـة لقبائـل "بيجمايـن" بالجابـون[5]: "أُوصِـدَت بوابـات جهنـم. أرواح المـوتى تتزاحـم إلى هنـاك أفواجًـا مثـل سرب الذبـاب الـذى يرقـص مسـاءً. سرب ذبـاب يرقـص مسـاءً فى دجـى الليـل عندمـا تختفـى الشـمس. سرب مـن ذبـاب: تنـشر خشخشـة أوراقٍ ميتـة فى عاصفـة تعـوى".

إلا أنـه ليـس كافيًـا أن يـزداد عـدد المـوتى حتـى يسـود شـعورٌ بكثافتهـا. وهـم أيضًـا يتحركـون ويقصـدون الإتيـان بأفعـالٍ جماعيـة وهـم يظلـون غـير مرئيـين للبـشر العاديـين. لكـن هنـاك أناسًـا بقـدراتٍ خاصـة، وهـم الأطبـاء السـحرة[6]، يسـتطيعون التفاهـم مـع الأرواح مـن خـلال السـحر وإخضاعهـم فيصـيرون خدمًـا لهـم، ويعتقـد الـ"تشـوكتش" بسـيبريا[7] بأنـه: "لـدى الطبيـب السـاحر الماهـر كتائـب كاملـة مـن الأرواح المعاونـة. فـإذا مـا اسـتدعاها جميعًـا فإنهـا تـأتى فى جماعـاتٍ كبـيرة، حتـى إنهـا تكـون كجـدارٍ أحـاط مـن كل جانـب بخيمـة النـوم التـى تسـتخدم بهـا تعويـذة السـحر". ويقـوم الأطبـاء السـحرة بنقـل مـا يرونـه. وبصـوتٍ يرتعـش مـن الحركـة ينـادى الطبيـب السـاحر خـلال كـوخ الجليـد: "قـد غـص فضـاء السـماء بكائنـاتٍ عاريـة ترحـل خـلال الهـواء، بـشر، رجـالٌ عـراة، نسـاءٌ عاريـات يرحلـون إلى هنـاك وينفثـون عاصفـةً وموجـات جليـد، ألا تسـمعونها تئـز؟ إنهـا تهـدر مثـل خفـق جنـاح طائـرٍ كبـير فـوق فى الهـواء. إنـه خـوف الرجـال العـراة. إنـه فـرار البـشر العـراة. إن أرواح الهـواء تنفـث عواصـف. إن أرواح الهـواء تدفـع الجليـد الغائـر إلى الأرض".

إن هـذا الرؤيـة الرائعـة لـلأرواح العاريـة قـد نشـأت بـين أهـل الإسـكيمو. وبعـض الشـعوب تتصـور موتاهـا أو عـددًا معينًـا منهـم عـلى أنهـم جيـشٌ مقاتـل. ولـدى الـ"كلـتن" بالمرتفعـات الإسـكتلندية يعـرف جيـش المـوتى[8] باسـمٍ خـاص هـو "سـلواف" وتعنـى هـذه الكلمـة بالإنجليزيـة "spirit multitude" أى "أرواح - بأعـداد كبـيرة". ويطـير جيـش الأرواح فى السـحب الكبـيرة - مثـل غيـمٍ أبيـض عـلى وجـه الأرض - صعـودًا وهبوطًـا. ودائمًـا مـا تعـود إلى مواضـع خطاياهـا الأرضيـة، وهـى تقتـل بنبالهـا المسـمومة، التـى لا تخطـئ الهـدف، قططًـا وكلابًـا ونعـاج وأبقـار البـشر. وهـى تخـوض حروبًـا فى الهـواء مثـل التـى يخوضهـا النـاس عـلى الأرض. وفى ليـالٍ صحـوة يغمرهـا

الصقيع يستطيع المرء رؤيتها وسماعها وكيف تتقدم جيوشها تجاه بعضها البعض وتنسحب، لتتقدم ثانيةً. وبعد معركةٍ ما يصبغ دمها الصخور والأحجار باللون الأحمر. أما كلمة "giram" فتعنى "صرخة" أو نداء، وكلمة "سلواف - جيرام" كانت هى صرخة معركة الموتى. وقد اشتق منها فيما بعد كلمة "slogan": فالدلالة على صيحات القتال لجماهيرنا الحديثة نشأت عن جيوش موتى الجبال. وهناك شعبان من الشمال يسكنان بعيدًا عن بعضهما البعض، الـ"لابن" فى أوروبا، وهنود "ألاسكا الحمر" المعروفون بالـ "تلينكيت" لديهما التصور نفسه عن "نور الشمال" كمعركة[9]. فأما الـ"كولتا لابن" فيعتقدون أنهم رأوا فى نور الشمال من سقطوا فى الحروب، وهم ما زالوا يقاتلون بعضهم البعض فى الهواء كأرواح[10]. أما الـ"لابن" الروس فيرون فى نور الشمال أرواح القتلى، فهم يسكنون فى بيتٍ حيث يجتمعون أحيانًا وهناك يتطاعنون حتى الموت حتى تمتلئ الأرض بالدماء، ويُبلِّغ نور الشمال بأن أرواح القتلى قد بدأت معركتها. ويعتقد الـ"تلينكى" فى ألاسكا بأن كل من ماتوا ببلادهم ولم يسقطوا فى الحروب يذهبون فقط إلى العالم السفلى. إنهم فقط المحاربون البواسل، الذين قتلوا فى الحروب، الذين يكونون فى السماء التى تنفتح من حينٍ لآخر لتستقبل أرواحًا جديدة. أما الكهان فيظهرون دائمًا كمحاربين مدججين بالسلاح. وتبدو أرواح القتلى هذه غالبًا كنور الشمال، تحديدًا مثل شعلات نور الشمال التى تبدو للعيان كسهامٍ أو حزمٍ تتحرك هنا وهناك، ويمر بعضها ببعض أحيانًا أو تتبادل مواقعها وهو ما يذكِّر بأسلوب الـ"تلينكيت" فى الحرب. ويعتقد المرء أن نور شمالٍ قويًا يعلن عن إهراق دمٍ عظيم لأن المحاربين الموتى يأملون رفاقًا جددًا. وطبقًا لمعتقدات الـ"جرمان " فإنه يوجد عددٌ هائل من المحاربين معًا فى "فالهال"، فكل الرجال القتلى منذ نشأة العالم يصلون إلى "فالهال" ويستمر عددهم فى التزايد لأن الحرب لم تضع أوزارها. ولما كانوا يسرفون فى الطعام والشراب فإن الغذاء والشراب يتجدد على نحوٍ أبدى. وكل صباحٍ يمسكون بأسلحتهم ويخرجون للقتال. وهم يتظاهرون بقتل بعضهم البعض، لكن القتلى يعودون للحياة ثانيةً لأن الموت لم يكن موتًا حقيقيًا. ومن خلال 640 بوابةً يدخلون إلى "فالهال" ثانيةً فى طوابير يضم كل منها 800 رجلٍ. إلا أنها لا يوجد هناك فقط أرواح الموتى التى يتصورها المرء فى تلك المجموعات غير المرئية على أنها من الأحياء المألوفين، ففى نصٍ قديم لليهود يُذكر: "على المرء أن يدرك وأن يلاحظ أنه لا يوجد فضاءٌ شاغر بين السماء والأرض بل إن كل

شيء ممتلئ بالأسراب والجماعات، بعضها طاهرٌ ومترع بالغفران والمسالمة. لكن هناك جزءًا من المخلوقات غير الطاهرة وهى ضارةٌ ومعذِّبة وجميعها يطير فى الهواء، بعضها يبغى السلام وبعضها يبحث عن الحرب وبعضها يسبب الخير وبعضها يسبب الشر وبعضها يجلب الحياة وبعضها يجلب الموت". وفى دين الفرس القدامى تُكوّن الأشباح جيشًا خاصًا يكون تحت إمرتها[11]. وعن عدد هذه الأشباح الذى لا حصر له يوجد فى كتابهم المقدس "زند - افستا" العبارة التالية: "آلافٌ وآلافٌ مؤلفة من الأشباح وعشرات الألوف وعشراتٌ من الألوف المؤلفة لراهبات بلا حصر".

وقد كان لمسيحية القرون الوسطى أفكارٌ جادة عن عدد الشياطين. ففى "الحوار عن عجائب قيصر فون هايستر باخ" ذُكِر كيف أنهم طغوا ذات مرة على جوقة إحدى الكنائس بكثافة إلى حد التشويش على إنشاد القسس[12]. وكان هؤلاء قد بدأوا المزمور الثالث "أيها السيد كم كثيرون هم أعدائى". فكان أن طار الشياطين من طرفٍ للجوقة إلى طرفها الآخر، واختلطوا بالقسس الذين لم يعودوا يدركون إطلاقًا ماذا يغنون فارتبكوا، وصار كل طرفٍ يحاول مغالبة الطرف الآخر. فإذا ما اجتمع هذا العدد الكبير من الشياطين بمكانٍ واحد ليفسد صلاةً واحدة للرب، فكم يكون عددهم إذن فى الأرض كلها! وكان من رأى قيصر أن الإنجيل يشهد أن كتيبةً منهم تلبس إنسانًا واحدًا. وقد قال كاهنٌ ممتعض لإحدى قريباته الجالسة إليه وهو على فراش الاحتضار: "أترين تلك الشونة الكبيرة المواجهة لنا؟ فأسفل سطحها يوجد كثيرٌ من عيدان القش اجتمعت الآن حولى كشياطين". فهناك كانوا يتربصون بروحه لإنزال العقاب بها. إلا أنهم كانوا يبحثون كذلك عن حظهم على سرير موت الورعين. وفى أثناء جنازة راهبةٍ خيّرة كان اجتمع حولها شياطين أكثر من الأوراق على الشجر بغابةٍ كبيرة. وحول قسٍ محتضر كانوا أكثر من رمال شواطئ البحر. ويعود فضل الحصول على هذه المعلومات إلى شيطانٍ كان حاضرًا هناك بشخصه وتجاذب أحد الفرسان معه أطراف الحديث، فكان أن نشأ بينهما سؤالٌ وجواب، ولم يكشف الشيطان عن خيبة أمله فى المجهودات الفاشلة، واعترف بأنه كان جالسًا على أحد أضلاع الصليب عند موت المسيح.

وقد رأى البعض أن اقتحام هذه الشياطين كان رهيبًا بقدر عددهم الرهيب، وعندما أغمض الأب ريشلام، رئيس دير سيسترن، عينيه رآهم حوله فى كثافة

الغبار. وقد ذكر تقديرات أكثر دقةً عن عددهم ومن بينها تقديران معروفان لديَّ لكن بينهما فرقًا شاسعًا، فالأول يبلغ 44.635.569. أما الثانى فيبلغ أحد عشر بليونًا. وعلى نقيضٍ حاد وطبيعى من ذلك نشأ التصور عن الملائكة والأبرار. فهناك يخيم الهدوء التام. فلم يعد هناك من يسعى إلى شىء بعد أن حقق هدفه. لكنهم أيضًا تجمعوا، أسراب جيش السماء، "عددٌ لا حصر له من الملائكة والبطارقة والأنبياء والرسل والشهداء ومؤمنين وبررة آخرين"[13]. وهم يقفون فى دوائر واسعةٍ حول عرش سيدهم، كما يتوجه رعايا البلاط إلى مليكهم، كتفًا إلى كتف، ففى قربه تنشأ سعادتهم، وهم فى حضرته دومًا ولا يغادرونه إلا بالقدر القليل نفسه الذى يفارق أحدهم الآخر. وقد انصهروا فى مشهده وأخذوا يسبحونه. إنه الأمر الوحيد الذى يؤدونه وهم يؤدون ذلك معًا.

إن روح المؤمنين مفعمةٌ بمثل هذه التصورات عن الكتلة غير المرئية سواء كان هؤلاء موتى أو شياطين أو قديسين فإن المرء يتصورهم فى أسرابٍ كبيرة كثيفة. ويمكن القول إن الدين يبدأ بهذه الكتلة غير المرئية. التى ربما تشكلت من مجموعات مختلفة. وقد حرص كل دين على وضع توازن خاص فيما بين هذه المجموعات. إن تقسيم الأديان حسب أسلوبها فى استغلال كتلتها غير المرئية يكون ممكنًا ومأمولاً للغاية. والأديان الكبرى التى ندرك أنها قد صار لها اعتبار عام تثبت من خلال ذلك اطمئنانا ووضوح مستقلين. فمخاوف وآمال البشر ترتبط بالكتلة غير المرئية التى تحفظها الأديان على قيد الحياة من خلال المواعظ. فهؤلاء غير المرئيين هم بمثابة الدم للعقيدة فما إن يتراجع هؤلاء حتى تصاب العقيدة بالوهن. وبينما هذه تموت تدريجيًا فإن جماعاتٍ أخرى تحل محل المتراجعين.

ورغم أننا لم نتناول مثل هذه النوعية من الكتلة بعد، فإننا نعتقد أنها قد تكون أهم أصناف الكتل. فهى الوحيدة التى يعتبرها الإنسان المعاصر طبيعيةً رغم عدم رؤيتها: فهى الجيل التالى. وقد يتجاهل أى إنسان رؤيتها لجيلين وربما لثلاثة، إلا أن وجودها برمته ملك المستقبل. فعدد نسلها غير المحدود لا يتاح لأحد رؤيته. وهناك يقين من حتمية تكاثرها فى البداية شيئًا فشيئًا، ثم تتزايد بسرعةٍ مطردة. وقبائل وشعوب بأكملها ترجع أصلها إلى جد أعلى، وطبقًا لما وُعِدَ به هذا الجد يبدو للعيان كما كان نسله الذى تمناه رائعًا، بل كثيرًا،

كثيرون مثل نجوم السماء ومثل الرمل على شاطئ البحر. وفى "شى - كينج"، كتاب الأناشيد التراثى عند الصينيين، توجد قصيدة شعرٍ يُقارَن فيها النسل بأسراب الجراد: "تقول أجنحة الجراد ذات الأزيز: (اندفع، اندفع! فليكن أبناؤك وأحفادك جيشًا لا حصر له!) تقول أجنحة الجراد ذات الأزيز: (اربط، اربط! حيث ابناؤك وأحفادك يتعاقبون فى سلسةٍ بلا نهاية!) يقول الجراد، ضاربًا بجناحيه: (فليكن أبناؤك وأحفادك فى وحدة واحدة دائمًا!)"[14].

إنه العدد الغفير إذن، والتعاقب المتواصل، أى هذا النوع من الكثافة العابر للزمن - إضافة إلى الوحدة، هى الأمنيات الثلاثة للنسل، كما ذكرناها هنا. أما سرب الجراد، كرمزٍ لجمهور من النسل، فيسترعى الانتباه على نحوٍ خاص، فالجراد هنا لا يُعتبَر حشراتٍ ضارة، وإنما هو نموذجٌ مثالى لقوة رغبتها فى التكاثر. وأما الشعور نحو النسل فما زال قائمًا حتى اليوم كما كان دائمًا. لكن التصور الشخصى عن كثافة النسل يتبدل لينتقل إلى البشرية فى المستقبل. ورغم أن معظمنا اعتبر جيوش الموتى خرافةً بلا معنى، فإنه يعتبر سعيا نبيلاً ومفيدًا عندما نشعر مسبقًا بكتلة جماهيرية لجيلٍ لم يولد بعد، والرغبة الأكيدة فى ذلك، وإعداد حياةٍ أفضل وأكثر عدلاً من أجلهم. كما أن الشعور بالخوف العام نحو مستقبل الأرض هو شعورٌ بالغ الأهمية تجاه من لم يولد بعد. وقد يكون شعورنا بالنفور من تشوههم ومن فكرة ما سيبدون عليه عندما نخوض حروبنا بأسلوبها الجديد، لهو شعورٌ أعظم من كل مخاوفنا الخاصة بنا نحو القضاء على مثل هذه الحروب أو القضاء على فكرة خوض الحرب نفسها.

فإذا ما فكرنا فى مصير الكتلة غير المرئية التى تناولناها بالحديث، فإنه يمكننا القول بأن بعضًا منها قد اختفى إلى حدٍّ كبير، وبعضها اختفى تمامًا، وإلى تلك الأخيرة ينتمى الشياطين الذين لم يعودوا يظهرون فى هيئتهم المعهودة، رغم كثرة عددهم فى الماضى، إلا أنهم تركوا آثارًا خلفهم. وقد دلت بعض الشهادات العجيبة على صغر حجمهم، وهى شهادات من عصر قيصر فون هايستر باخ، الذى كان عصر ازدهارهم. ومنذ ذاك الحين تنازلوا عن كل الملامح التى تُذكِّر بالهيئة الإنسانية بعد أن صاروا أصغر حجمًا بكثير، إلا أنهم ظهروا على هيئتهم المتغيرة هذه فى مجموعاتٍ كبيرة مرةً أخرى فى القرن التاسع عشر كجراثيم. لكن هجومهم لم يعد موجهًا ضد الروح بل ضد جسد الإنسان، الذى كان يمكن أن

يتهددوه بخطرٍ عظيم. وكان هناك نفرٌ قليل للغاية من الناس الذين رأوا هؤلاء بالفعل من خلال الميكروسكوب. أما كل من سمعوا بهم فكانوا على وعيٍ دائم بوجودهم، فبذلوا ما فى وسعهم حتى لا يحتكوا بهم، أو يأتوا أى فعلٍ غريب رغم عدم رؤيتهم لهم. فقد نقلوا بلا ريب عن الشياطين خطورتهم وكثافة عددهم الهائل فى مكانٍ ضيق للغاية. فهناك كتلة غير مرئية كانت موجودةً دائمًا إلا أننا لم نتعرف عليها إلا بعد توافر الميكروسكوب- وهى الحيوان المنوى. مئتا مليون من هذه الحيوانات المنوية الصغيرة تسلك طريقها معًا، وهى فيما بينها متساوية، وهى معًا تكون الكثافة الأكبر، وأمامها جميعًا هدفٌ، ويُقضى عليها جميعًا فى الطريق فيما عدا واحدٍ منها، وحيدٍ من بينها. وقد يقال إنها ليست بشرًا فلا يجوز ذكرها هنا ككتلة جماهيرية بالمعنى المحدد، إلا أن هذا الاعتراض لا يصيب جوهر الأمر، فكل واحدٍ من هذه الحيوانات المنوية الصغيرة يحمل معه كل ما سوف يبقى من الأسلاف، أى أنه هو السلف. وهو ما يعتبر مفاجأةً هائلة، أى وجودهم هنا ثانيةً فيما بين وجودٍ إنسانى وآخر فى هيئةٍ مختلفة تمامًا، فوُجِدَ كلٌ منهما فى مخلوق صغير غير مرئى، مخلوق فى عددٍ بلا حصر.

التقسيم وفقا للانفعالات

إن الكتلة التى تعرفنا عليها مترعة بالانفعالات الأكثر اختلافًا، إلا أن نوع هذه الانفعالات لم يذكر تقريبًا. فالهدف الأول لهذه الدراسة كان مكرسًا لتقسيم الكتل طبقًا لمبادئ الشكل. وعما إذا كانت الكتلة منفتحةً أو منغلقةً، سريعةً أم بطيئةً، غير مرئيةٍ أو مرئية، فإن ذلك لا يصرح إلا بالقليل عن فحواها وعما تشعر به. أما الآن فإنه لا يمكن على أية حال فهم هذا المحتوى فهمًا خالصًا، فقد تعرفنا بالفعل على الأحوال التى تتكون فيها الكتلة المخترقة بسلسلةٍ كاملة من المؤثرات المتتابعة بسرعة. فالناس يستطيعون قضاء الساعة تلو الأخرى فى المسرح وتكون التجارب التى تجمعهم هناك مختلفةً فى أنواعها أشد الاختلاف. أما فى الحفل الموسيقى فيكون شعورهم أكثر تحررًا منه فى المسرح. وما نود أن نقوله هنا هو أن هذه الحالات تصل إلى أقصى درجاتها فى التنوع. إلا أن هذه الأحوال مفتعلةٌ، فثراؤها هو منتجٌ نهائى لثقافاتٍ أعلى وأكثر تعقيدًا. وتأثيرها تأثيرٌ معقول، فالأطراف ترتفع ببعضها البعض، فهذه المؤسسات تهدف فى العموم إلى الحد من حالة الشغف التى يشعر الناس أنهم أسرى لها. أما الأشكال الانفعالية الرئيسة فإنها تواصل زحفها الكبير للخلف. فقد ظهرت فى زمنٍ باكر للغاية، وتاريخها قديمٌ قدم البشرية نفسها، بل إن شكلين من هذه الأشكال هما الأكثر قدمًا. وكل

واحـدٍ منهـا يتميـز بصبغـة متفـردة واحـدة، ويسـيطر عليهـا شـغفٌ رئيـس وحيـد. فـإذا مـا ظفـر المـرء بنظـرةٍ واضحـة عنهـا فيكـون مـن المحـال أن يخلـط بينهـا مـرةً أخـرى. وفيـما يـلى سـنعرض التمييـز بـين خمسـة أنـواعٍ مـن الكتـل طبقًـا لفحواهـا الانفعـالى. فكتلـة التحريـض والفـرار هـما الأقـدم مـن بـين هـذه الكتـل، وهـما تظهـران بـين الحيـوان بنفـس قـدر ظهورهـما بـين البـشر. وربمـا كانتـا تقتربـان مـن حـينٍ لآخـر مـن مثالهـما الحيـوانى فى أثنـاء تكوينهـما بـين البـشر فـرادى. أمـا كتلـة الحظـر والارتداد والاحتفـال فهـى كتلـة خاصـة بالبـشر. ولم يكـن هنـاك مفـرٌ مـن وصـف هـذه الأنـواع الخمسـة الرئيسـة وقـد يفـضى شرحهـا إلى معـارف ذات أبعـاد هائلـة.

كتلة التحريض

إن الدافع لتكوين كتلة التحريض هو هدفٌ يمكن الوصول إليه بسرعة. وهو هدفٌ معروف ومحددٌ بدقة لدى الكتل. كما أنه أيضًا قريب. إنها تهدف إلى القتل. وهى على علمٍ بمن تبغى قتله. وتمضى بإصرارٍ لا مثيل له نحو هدفها. ومن المحال أن يتم خداعها فى هذا الشأن فيكفى الإعلان عن هذا الهدف ويكفى ذكر المقصود قتله لتتكون الكتلة. إن التركيز على القتل هو نوعٌ خاص لا يفوق كثافته أى نوع آخر. فالكل يريد المشاركة فى ذلك والكل يريد أن يسدد ضربته. وحتى يتمكن من تسديد هذه الضربة يزاحم الجميع للوصول إلى أقرب نقطةٍ من الضحية، فإن لم يصب هو، رأى ما أصاب الآخرون. فكل الأذرع تمتد كأنها لمخلوقٍ واحد فقط. لكن الذراع التى تصيب هى التى تحصد أهميةً وثقلاً أعظم.

إن الهدف هو كل شىء. والضحية هى الهدف، إلا أنها أيضًا هى نقطة الكثافة العظمى، فعمل الكل يتوحد فيها. وهكذا يجتمع كلٌ من الهدف والكثافة معًا. وهناك سببٌ مهمٌ لنمو كتلة التحريض السريع وهو عدم خطورة ما تقوم به. إنه عملٌ بلا مخاطر. فالتفوق العظيم فى جانب الكتلة. أما الضحية فلا تستطيع فعل شىء ضد الكتلة، فليس بوسعها إلا الفرار، إن لم تكن مقيدةً، ولا يمكنها المقاومة فهى ليست سوى ضحيةٍ مستسلمة، دمها مهدرٌ، وبعد أن تقرر مصيرها

فإن أحدًا لا يخشى عقابًا من جراء قتلها. فالقتل المباح يحل محل كل عمليات القتل المحظورة والتى يخشى من عقابٍ شديد على تنفيذها. إن قتلاً مباحًا ومنشودًا يشارك فيه آخرون كثيرون لهو أمرٌ لا تستطيع غالبية الناس مقاومته. وعلينا أن نضيف إلى ذلك أن التهديد بالقتل الذى يواجه الناس جميعًا، والذى يمارس دائمًا بأساليب غير مباشرة، حتى لو لم يظهر باستمرار للعيان، هو تهديدٌ يجعل من قتل الآخرين احتياجًا، ليصير هذا الاحتياج هو الدافع لتكوين كتلة التحريض. إنه عملٌ يسيرٌ للغاية ويجرى بسرعةٍ إلى حد أن المرء يتعجل تنفيذه. وتعجُّل وترفُّع واطمئنان هذه الكتلة هو أمرٌ ينطوى على شيءٍ رهيب. إنه انفعال العميان الذين اعتقدوا أنهم يبصرون فصاروا أكثر عمىً. فالكتلة لن تقبل على الضحية والإعدام من أجل الخلاص فجأةً وللأبد من كل هؤلاء الذين تكونت هى منهم، لكن ما يحدث لها فى الواقع هو النقيض من ذلك، فمن خلال الإعدام، أى بعد تنفيذه، تشعر هى بالموت أكثر مما سبق. فهى تتفتت وتتبعثر فى نوعٍ من أنواع الفرار. فإن كانت قيمة الضحية أعظم كان خوف الكتلة أكبر، وهى لا تستطيع البقاء معًا إلا إذا تعاقبت بسرعةٍ سلسلةٌ من نفس الأحداث. وكتلة التحريض كتلة قديمة للغاية. وهى تعود إلى الوحدة الديناميكية الأكثر قدمًا التى عرفها الإنسان، أى حشد الصيد. ولسوف نتناول فيما بعد على نحوٍ أدق تلك الحزم الصغيرة التى تختلف عن الكتلة كثيرًا. لكننا نتناول هنا بعض الحالات العامة فقط التى تمثل دافعًا لتكوين كتلة التحريض. فمن بين أنواع القتل التى تحكم بها جماعةٌ أو شعبٌ على أفرادٍ يمكننا تمييز شكلين أساسيين، الأول هو النبذ، فيتم إقصاء الفرد ليُسلَّم دون حمايةٍ لحيواناتٍ مفترسة، أو يترك ليموت جوعًا، فتنقطع كل علاقةٍ له بهؤلاء الذين كان ينتمى إليهم سابقًا، فلا يجوز لهم استضافته أو تقديم الطعام له، فهذا أمرٌ يدنس كل من تعامل معه، كما يكون قد حكم على نفسه بالإدانة. والعزلة التامة هى أقسى عقاب. فانفصال الفرد عن جماعته هو عذابٌ لا ينجو منه سوى القليل خاصةً بين الجماعات البدائية. وهناك نوعٌ غريب من الاقصاء وهو تسليم الفرد إلى الأعداء، فيكون ذلك شعورًا مروعًا ومهينًا للغاية، كأنه موتٌ مضاعفٌ، خاصةً إذا ارتبط ذلك برجلٍ لم يقع فى الأسر فى أثناء القتال. أما الشكل الآخر فهو القتل الجماعى. وهنا يقاد المُدان إلى ساحةٍ ما ليتم رجمه، فيشارك الجميع فى القتل، فإذا أصابت أحجار الجميع المذنب انهار، فلم يكن هناك جلاد كُلِّف بذلك، بل كانت الجماعة كلها تقتل

وكانـت الأحجـار متوافـرةً أمـام الجماعـة، فهـى وجبـة غـذاء قرارهـم وفعلهـم. وحتـى بعـد اندثـار عمليـة الرجـم ظلـت هـذه النزعـة إلى القتـل الجماعـى باقيـةً. ويمكـن مقارنـة ذلـك بالقتـل حرقًـا، فهنـا تكـون النـار فى خدمـة الجماعـة التـى كانـت تتشـوق لقتـل المُـدان، فتُحيـط النـار بالضحيـة مـن كل جانـبٍ، مـن كل مـكان. وهنـا يمكـن القـول بأنـه قـد قبـض عليـه وتـم قتلـه.

والأديـان المؤمنـة بالجحيـم تضيـف إلى ذلـك أمـرًا آخـر، فالقتـل الجماعـى بالنـار - التـى ترمـز للكتلـة - يربـط بـين فكـرة الإقصـاء بالنـار وبـين فكـرة التسـليم لأعـداء النار. فلهـب نـار جهنـم يتصاعـد مـن الأرض ليحـرق الكافريـن جـزاءً وفاقًـا، وهـو مـا يتـم أيضًـا مـن خـلال رمـى الضحيـة بالنبـال أو قتـل المُـدان رميًـا بالرصـاص مـن خـلال فرقـة الإعـدام. فـكل أشـكال الإعـدام العلنـى مرتبطـةٌ بالممارسـة القديمـة للقتـل الجماعـى. أمـا الجـلاد الحقيقـى فهـو الكتـل التـى تتجمـع حـول شـعور التعطـش للـدم. وهـى تستحسـن العـرض العلنـى ويدفعهـا التشـوق إلى التدفـق معًـا مـن مسـافاتٍ بعيـدة حتـى تشـارك فى المشـاهدة مـن البدايـة للنهايـة. وهـى تسـعى لتحقيـق ذلـك وتكـره أن تفلـت الضحيـة. وقـد أصـاب خـبر إدانـة المسـيح قلـب الحـدث: "اصلبـوه!". هكـذا كانـت صيحـة. فقـد كانـت هـى المؤثـرة بالفعـل. وهـى التـى كانـت فى عصـورٍ أخـرى عـلى اسـتعداد لفعـل كل شيء، بـل ورجـم المسـيح كذلـك، وهـى تؤيـد المحاكمـة التـى تـدور عـادةً أمـام مجموعـةٍ محـدودة مـن النـاس، كممثلـة للجماعـة الكبـيرة، التـى تحـضر بعـد ذلـك عمليـة الإعـدام. أمـا الحكـم الصـادر بِاسـم القانـون فيبـدو مجـردًا وغـير حقيقـى لكنـه يصـير حقيقيًـا عندمـا يتـم تنفيـذه أمـام الجماعـة. فمـن أجلهـا صـدر الحكـم حقًـا. والمقصـود بعلانيـة الحكـم هـو التكتـل. وكانـت عمليـات الإعـدام بالعصـور الوسـطى تنفـذ عـلى نحـو مـا مـن الفخامـة، فتمـضى ببـطءٍ قـدر الإمـكان، ويتوجـه الضحيـة إلى المشـاهدين بحديـثٍ تحذيـرى مؤثـر، فهـو مهمـومٌ بمصيرهـم، فيحذرهـم مـن أن يفعلـوا مـا فعلـه هـو. فيسـتعرض أمامهـم مـا جرّتـه عليـه مثـل هـذه الحيـاة. أمـا هـم فيستشـعرون مـن اهتمامـه بأنـه ينافقهـم نفاقًـا غـير قليـل، وقـد يُمنَـح الرضـا الأخـير بـأن يوجـد بينهـم كواحـدٍ متسـاوٍ معهـم، خـيِّر مثلهـم قـضى حياتـه السـابقة بينهـم وتـبرأ منهـا. إن نـدم الآثمـين أو الكافريـن فى مواجهـة المـوت الـذى بـذل مـن أجلـه رجـال الديـن قصـارى جهدهـم ينطـوى عـلى معنـى آخـر، إلى جانـب هـذه النيـة المعلنـة لإنقـاذ الـروح، وهـو أن يجعـل كتلـة التحريـض تـدرك أنهـا

كتلة احتفال بمستقبلها ليشعر كل فردٍ بصحة عقيدته، فيؤمن بما ينتظره من ثوابٍ فى العالم الآخر.

أما فى عصور الثورة فكان يتم التعجيل بعمليات الإعدام. وقد تباهى سامسون، قاطع الرءوس بباريس، بأن مساعديه لم يحتاجوا لأكثر من دقيقةٍ لكل شخص. فروح الكتلة المحمومة الغالبة على مثل هذه المراحل ترجع إلى عمليات الإعدام السريعة المتعاقبة بلا حصر. كما تهتم الكتلة بأن يعرض قاطع الرءوس رأس القتيل أمامها. وهذه، وليست غيرها، هى لحظة التخلص من الكبت. ومهما كان شأن صاحب هذه الرأس فإنه صار حينئذٍ مجردًا من منصبه. وفى اللحظة القصيرة عندما يحملق فى الكتلة فإنه يكون رأسًا مثل رءوس الآخرين جميعًا. ذلك الرأس الذى كان لملكٍ، يكون قد تساوى مع غيره من خلال عملية التجريد التى تتم بسرعة البرق أمام أعين الجميع. أما الكتلة التى تتكون هنا من رءوسٍ محملقة فإنها تحصل على شعورها بالمساواة فى تلك اللحظة، لأن هذا الرأس يحملق أيضًا تجاهها. وكلما كان من تم إعدامه أعظم مكانةً، وكلما كانت المسافة التى فصلت بينه وبين الكتلة أكثر اتساعًا، كان انفعال الكتلة بتحررها من الكبت أشد قوةً. فإن كان ملكًا، أو من أصحاب سلطةٍ كسلطة الملك، فإن الرضا بالارتداد يلعب أيضًا دورًا مؤثرًا فى ذلك. فالحق فى عدالةٍ دامية، الذى كان هذا قد تمتع به طويلاً، تمت ممارسته ضده حينئذٍ. فمن كان يأمر سابقًا بقتلهم، قاموا بقتله. ولا تنبغى المبالغة فى تقييم هذا الارتداد، فهناك نوعٌ من الكتل يتكون من الارتداد وحده فقط.

أما أثر الرأس المرفوع أمام الجميع فلم يبلغ مضناه مطلقا فى لحظة التخلص من الكبت. ففى لحظة تعرف الكتلة على الرأس صاحب القوة الهائلة كأحد أفرادها، وفى لحظة سقوط صاحب هذا الرأس أمامهم، ولم يعد مثلهم، فقد رأى كل واحد منهم فيه نفسه، وصار الجميع على هذا النحو متساوين. فالرأس المجتز صار بمثابة التهديد، وهم قد نظروا بمثل هذا الاشتهاء فى عينه الميتة، حتى إنهم لم يستطيعوا التحرر منه، حتى جاءت هذه اللحظة. ولما كان الرأس منتميًا إلى الكتلة فإن بموته صارت هى الأخرى فى عداد الموتى، فتبدأ فى التلاشى على نحوٍ مُرضٍ مروع محفوف بالغموض والأسرار. إنه نوع من الفرار منه، تتشتت فيه حينئذٍ الكتلة.

إن تفتت كتلة التحريض التى نالت ضحيتها، يكون سريعًا للغاية، وهى حقيقةٌ يدركها أصحاب السلطة المهددون بالخطر، فهم يلقون إلى الكتلة بضحيةٍ ما لكى يوقفوا نموها. وقد أمروا بكثيرٍ من عمليات الإعدام السياسية من أجل هذا الغرض فقط. وعلى الجانب الآخر لا يكون الطرف المؤيد، المتشدد غالبًا، على وعيٍ كافٍ بأن تحقيق هدف الكتلة بالإعدام العلنى لعدوٍ هو خطرٌ يُسبب لهذا الطرف ضررًا أعظم مما يسببه الطرف المعادى. فقد يحدث لهذا (الطرف) أن تضل كتلة أنصاره الطريق بعد إحدى عمليات الإعدام هذه، فلا تستعيد قوتها السابقة لفترةٍ طويلة أو لا تستعيدها على الإطلاق. وسوف نتناول أسبابًا أخرى لهذا التحول عندما يتطرق الحديث إلى الحشد، وخاصةً حشد المناحة.

إن التأفف من المشاركة الجماعية فى القتل هو أمرٌ حديث العهد للغاية، كما أنه لم يؤخذ على محمل الجد. فحتى فى أيامنا هذه يشارك كل فردٍ فى عمليات الإعدام العلنية- من خلال مطالعة الصحيفة. إنه أمر ينطوى على كثير من الراحة، مثل كل شىء. فالمرء يجلس على راحته ليتوقف عندها من بين مئات التفاصيل التى تثير اهتمامه، ولا يستحسن المرء ذلك إلا عندما يكون الأمر كله قد انقضى، فلا يعكر متعته أدنى إحساسٍ بالذنب، فهو ليس مسئولاً عن شىء، ليس مسئولاً عن الحكم وليس مسئولاً عن الشاهد أو أقواله، أو حتى الصحيفة التى نشرت التقرير. لكن معرفتنا بذلك الآن قد زادت عما كانت عليه فى العصور السابقة، حينما كان المرء يضطر للسير والوقوف لساعاتٍ طويلة وفى النهاية لا يرى سوى القليل. أما جمهور الصحف فقد تم الحفاظ على وجودهم كجمهور تحريض أكثر اعتدالاً، بل أقل إحساسًا بالمسئولية لابتعادها عن مجرى الأحداث. وقد نقول إنه قد تم الحفاظ عليها كشكل أكثر احتقارًا وأكثر رسوخًا فى الوقت نفسه. ونظرا لأنها ليست بحاجة مطلقا إلى التجمع فإن مآلها التلاشى والانهيار، وكنوع من التغيير يتكرر الحدث بالجريدة كل يوم.

كتلة الفرار

تتكـون كتلـة الفـرار مـن خـلال التهديـد. ومـن خصائصهـا أن كل شىء يفـر وأن كل شىء يمـضى معهـا. والخطـر الـذى يتهـدد الفـرد هـو ذاتـه الخطـر الـذى يتهـدد الجميع. وهـذا الخطـر ينصب عـلى موضـعٍ معـين ولا يفـرق بـين هـذا وذاك، فقـد يهـدد سـكان مدينـةٍ مـا أو يهـدد الجميـع أو المنتمـين لعقيـدةٍ مـا أو جميـع مـن يتحدثـون لغـةً واحـدة، فيفـر النـاس معًـا. وعـلى هـذا النحـو يكـون الهـروب الجماعـى أفضـل. أمـا الدافـع فهـو واحـدٌ، فطاقـة هـذا تدعـم طاقـة ذاك، والنـاس يدفعـون بعضهـم البعـض فى الاتجـاه نفسـه. ومـا دام النـاس معًـا فإنهـم يشـعرون بتقاسـم الخطـر. وهنـاك تصورٌ موغـل فى القـدم بـأن الخطـر سـوف يـضرب موضعًـا مـا بعينـه. فـإذا انقـض العـدو عـلى أحدهـم فـإن جميـع الآخريـن يسـتطيعون الفـرار فى أثنـاء ذلـك. وسـبل الفـرار مفتوحـة، ولأنهـا ممتـدةٌ بطبيعتهـا فيكـون مـن المسـتبعد أن الخطـر سـيهاجم الجميـع فى آنٍ واحـد، وبـين هـذه الكـثرة لا يخطـر ببـال أحـدٍ أنـه سـيكون هـو الضحيـة. ولمـا كان تحـرك الجمـع واحـدًا يسـعى للنجـاة فـإن بلوغهـا يسـيطر عـلى الحـواس كافـةً.

إن قـوة الاتجـاه (هـو) هـى أكـثر مـا يلفـت الانتبـاه فى فـرار الكتلـة حتـى إنـه يمكـن القـول بـأن الكتلـة قـد صـارت نحـو اتجـاه واحـد فحسـب، وهـو الفـرار مـن الخطـر. ولمـا كان الأمـر لا يتعلـق إلا بهـدفٍ واحـدٍ هـو النجـاة فى هـذا الاتجـاه لا

غيره فإن المسافات التى كانت تباعد بين الناس قد تتلاشى، لتتلاقى هناك فجأةً مخلوقاتٌ متمايزة ومتناقضة لم تكن تقترب من بعضها البعض قط. فالفرار لا يذيب كل الفروق بينهم فحسب بل يلغى المسافات أيضًا. وهكذا تكون كتلة الفرار هى الأكثر شمولاً من بين كل أشكال الكتل. أما الصورة الفريدة التى تظهر عليها فلا تتأثر بمشاركة الجميع المطلقة فحسب بل إنها تضطرب لتفاوت السرعة بين الناس فى أثناء فرارهم، فمن بينهم الشباب والشيوخ والأقوياء والضعفاء. وفسيفساء هذه الصورة قد تضلل المتأمل الواقف خارجها. فجأةً - وقياسًا على قوة التوجه - تفقد الصورة أهميتها تمامًا، وتتضاعف طاقة الفرار ما دام اعترف كل مشاركٍ فيه بالآخرين، فهو بوسعه أن يدفعهم إلى الأمام، إلا أنه فى لحظةٍ ما تتبدل ماهية الكتلة تمامًا، فتتحول إلى النقيض حينما لا يفكر كلٌ إلا فى ذاته، فلا يرى فيمن حوله سوى عائقٍ، فينتج عن ذلك ذعرٌ، هو صراع الفرد وحده مع الجميع الذين يعترضون سبيله. وغالبًا ما يصل الأمر إلى انقلابٍ حينما يضطرب اتجاه الفرار، فيكفى قطع الطريق أمام الكتلة لتنطلق إلى وجهةٍ أخرى، فإن تكرر قطع الطريق أمامها، فإنها سرعان ما تحتار إلى أى ناحيةٍ تتجه، فتضل الاتجاه، وعلى هذا النحو تتبدل كثافتها. أما الخطر الذى كان له أثرٌ سارٌ وموحدٌ فإنه يجعل من البعض عدوًا للآخر، ليحاول كلٌ النجاة بنفسه. إن "فرار الكتلة" هو على النقيض من "الذعر"، فهو يستنفر قوة الكتلة من تماسكها، ما دامت لم تدع مجالاً لشيءٍ يفرقها وما دامت تمسكت بثباتها تيارًا قويًا لا يتفتت، وما دام الخوف الملاحِق لها فى إطار الاحتمال. وفرار الكتلة يتميز بحالةٍ من الشعور المتسامى عندما تبلغ حد الحركة. إنه الشعور المتسامى بالحركة الجماعية، فليس هناك من يتهدده الخطر بقدرٍ أقل من الآخر. ورغم أن كل فرد يفر راجلاً أو راكبًا ليلوذ بمكانٍ آمن فإنه يكون له فى النهاية مكانه المعترف به والذى يتمسك به وسط اضطرابٍ شامل. وفى أثناء الهروب الذى قد يستمر أيامًا أو أسابيع فإن البعض يتراجع سواء كانت قوته قد خذلته أو أن العدو قد أصابه. وكل من يسقط يصير حافزًا للآخر للتقدم إلى الأمام. فالمصير الذى لقيه هذا كان قد استثنى ذاك. أما المصاب فهو ضحيةٌ كان قد داهمه الخطر. ومهما كانت أهمية هذا المشارك فى الفرار لأحدهم شخصيًا فقد ازدادت أهميته مع سقوطه، حيث إن حالته تمنح من شعر بالتعب قوةً جديدة، فقد كان ذاك أضعف منهم وقد استهدفه الخطر. أما العزلة التى صار إليها ورأوها فيه لوقتٍ قصير فإنها تعزز

مـن قيمـة تماسـكهم. وليـس بوسـعنا التأكيـد بمـا فيـه الكفايـة عـلى أهميـة مـن سـقط بالنسـبة لاسـتمرار الفـرار. والنهايـة الطبيعيـة للفـرار هـى الوصـول إلى الهـدف، وفى حالـة الأمـان تتفـكك الكتلـة ثانيـةً، كـما يمكـن أن يكـون مصـدر الخطـر قـد تـلاشى لتُعلَـن الهدنـة بعـد تـلاشى تهديـد الخطـر للمدينـة التـى فـر النـاس منهـا، فيعـود كلٌّ عـلى حـدة مثلـما فـروا معًـا وينفصـل كل شيء ثانيـةً كـما كان فيـما قبـل. إلا أن هنـاك حالـةٌ أخـرى يمكـن وصفهـا بتـسرب الفـرار فى الرمـال، فالهـدف تجـاوز قـدرة الوصـول إليـه والمحيـط كان معاديًـا وقـد جـاع النـاس وأصابهـم الضعـف والذبـول، وبـدلاً مـن نفـرٍ قليـل سـقط المئـات والآلاف، فيترسـخ هـذا الانهيـار الفيزيقـى، وتسـعى الحركـة الأولى إلى مـا لا نهايـة، ويظـل النـاس يزحفـون إلى الأمـام حتـى لـو تلاشـت كل فرصـةٍ للنجـاة. فكتلـة الفـرار هـى الأكـثر صلابـةً مـن بـين أشـكال الكتـل كافـةً، فحتـى آخـر لحظـةٍ يظـل معًـا آخـر مـن تبقـى مـن الفاريـن. ولا يعوزنـا ضرب الأمثلـة عـلى فـرار الكتلـة فقـد صـار عصرنـا غنيًـا بهـا مـرةً أخـرى، فـإلى مـا قبـل تجربـة الحـرب العالميـة الأخـيرة كان علينـا تذكـر مصـير جيـش نابليـون العظيـم فى أثنـاء انسـحابه مـن روسـيا، وهـى الحالـة الأكـثر وضوحًـا، فـكان تكويـن هـذا الجيـش مـن أنـاسٍ مختلفـى الألسـن والأعـراق، وكان الشـتاء الرهيـب، وتلـك المسـافة الهائلـة التـى كان عـلى الغالبيـة قطعها عـلى الأقـدام. هـذا الانسـحاب الـذى تحتـم عليـه أن يتخـذ شـكل فـرارٍ جماعـى هـو معـروفٌ بـكل تفاصيلـه. أمـا هـروب مدينـةٍ عالميـة بمثـل هـذه الأبعـاد فقـد عايشـناها للمـرة الأولى عندمـا اقـترب الألمـان مـن باريـس عـام 1940، فلـم يسـتغرق "الخـروج" الشـهير وقتـا طويـلاً، إلا أن كثافـة وحجـم هـذه الحركـة كانـا قـد جعـلا الفرنسـيين يعتبرونهـا الذكـرى الجماعيـة المركزيـة للحـرب الأخـيرة. ولسـنا بصـدد تكديـس أمثلـةٍ مـن التاريـخ الحديـث، فهـى مـا زالـت ماثلـةً فى ذاكـرة الجميـع. وقـد يكـون مهـمًا أن نؤكـد عـلى أن فـرار الكتلـة كان دائمًـا أمـرًا معروفًـا للبـشر حتـى عندمـا كانـوا يعيشـون فى جماعـاتٍ صغـيرة. وقبـل أن يتحقـق ذلـك، ونظـرًا لقلـة عددهـم، فـإن فـرار الكتلـة كان قـد لعـب دورًا مهـمًا فى تصوراتهـم. ولنتذكّـر تلـك الروايـة لأحـد الكهـان بالإسـكيمو: "لقـد غـص الفضـاء بكائنـاتٍ عاريـة كانـت تـسرى عـبر الأثـير، أُنـاسٌ، رجـال عرايـا، نسـاءٌ عاريـات، يصعـدون إلى هنـاك وينفثـون عاصفـةً وأمـواج جليـدٍ فهـلا سـمعتم أزيزهـم. إنهـا تخبـط كـضرب أجنحـة الطيـور الكـبرى هنـاك فى الهـواء، إنـه خـوف أُنـاسٍ عرايـا. إنـه فـرار أُنـاسٍ عرايـا".

كتلة الحظر

هنـاك نـوعٌ خـاص مـن الكتلـة يتكـون مـن جـراء فـرض الحظـر. فهنـاك كثـيرون مـا عـادوا يرغبـون مـع تجمعهـم معًـا فعـل مـا كانـوا يفعلونـه وهـم فـرادى حتـى تلك اللحظـة. فالحظـر يقـع فجـأةً، وهـم يفرضونـه عـلى أنفسـهم فجـأةً. وقـد يكـون حظـرًا قديمًـا كان قـد طـواه النسـيان أو هـو حظـرٌ يُسـتدعى مـن حـينٍ لآخـر، وقـد يكـون جديـدًا تمامًـا. وفى كل الأحـوال يبـدو أنـه قـد رسـخ بأعظـم قوتـه وصـار لـه قـوة نفـاذ القانـون. إلا أن الأمـر الحاسـم فيـه هـو ماهيتـه السـلبية. وهـو لا يصـدر عـن الخـارج وإن بـدا عـلى النقيـض مـن ذلـك. فهـو دائمًـا مـا ينشـأ عـن حاجـة مـن يـسرى عليهـم هـم بالفعـل. ومـا أن يُعلَـن الحظـر حتـى تـشرع الكتـل فى تكويـن نفسـها، فيمتنـع الجميـع عـن فعـل مـا كان العـالم الخارجـى يتوقعـه منهـم، فـما كانـوا يفعلونـه حتـى تلـك اللحظـة دون حـرجٍ كبـير كأنـه طبيعـىٌّ ميسـور فإنهـم فجـأةً لا يفعلونـه عـلى أى وجـه. ويتبـدى انتماؤهـم لبعضهـم البعـض مـن خـلال تحديـد امتناعهـم. أمـا سـلبية الحظـر فهـو أمـرٌ تشـارك فيـه الكتلـة منـذ لحظـة مولدهـا، ويظـل هـذا هـو ملمحهـا الأسـاسى طالمـا كانـت موجـودة. وهنـا يمكننـا الحديـث عـن كتلـة سـلبية. أمـا الصلابـة، فتصنعهـا الكتلـة بنفسـها، فالحظـر هـو "حـدٌّ" و"سـدٌّ" لا يسـتطيع شىء تجـاوزه، ولا يسـتطيع أى شىء اختراقـه، فـكلٌ يراقـب الآخـر لـيرى إن كان سـيظل جـزءًا مـن السـد. ومـن يتراجـع فيتجـاوز الحظـر فـإن الآخريـن يكرهونـه. أمـا أفضـل مثـال عـن الكتلـة

السلبية وكتلة الحظر فى عصرنا فهو الإضراب. فقد اعتاد العمال على أداء عملهم بانتظامٍ فى مواعيد بعينها. فهناك أعمالٌ مختلفة تمامًا ينبغى إنجازها. فأحدهم يقوم بعمل هذا ليعمل الآخر شيئًا مختلفًا تمامًا. ولكنهم يجيئون فى موعدٍ واحد، وفى وقتٍ واحد يغادرون مكان عملهم، وفى لحظة الدخول والخروج المشتركة هذه فإنهم يُعتبرون متساوين. وتؤدى الأغلبية عملها بأيدها، وهم متقاربون فى مسألةٍ أخرى فيما يخص حقيقة أجورهم، إلا أن الأجر يختلف حسب ما ينجزونه. وهكذا لا تكون مساواتهم ذات بعدٍ كبير. وهذه وحدها لا تكفى لتكوين جمهور، إلا أنه عندما يتحول الأمر إلى الاضراب فإن العمال يلتزمون بالمساواة، أى الامتناع عن مواصلة العمل. وهذا الامتناع يمتلك على الإنسان كيانه. فحظر العمل يخلق روحًا حادةً وعنيدة، ولحظة التوقف هى لحظةٌ عظيمة تمجدها أهازيج العمال. وكثيرٌ من الأمور تساهم فى الشعور بالارتياح الذى يبدأ به العمال إضرابهم. أما حالة مساواتهم الوهمية التى يحدثهم المرء عنها والتى لن تستمر فى الواقع عند عودتهم لعملهم فإنها تصير فجأةً مساواةً حقيقية. ففى أثناء العمل يلتزمون بأداء كل الأعمال المختلفة اختلافًا تامًا، وهم خاضعون لكل ما يملى عليهم، فإذا امتنعوا عن العمل يكون الأمر كأنهم جميعًا نفضوا أيديهم من ذلك فى اللحظة نفسها، كأنهم يستخدمون كل قوتهم لعدم العودة للعمل ثانيةً، غير مبالين بما قد يعانيه ذووهم من جوعٍ. فالامتناع عن العمل يساوى بين العمال. وقياسًا بتأثير هذه اللحظة يكون مطلبهم الواضح أقل أثرًا. وقد يكون هدف الإضراب هو رفع الأجور وهو يقينًا ما يشعرهم بتوحدهم فى هذا الهدف، لكن ذلك وحده لا يكفى لتكوين جمهور. وامتناعهم عن العمل يكون له أثر العدوى على الآخرين فما يمتنعون عنه يتقاسمه المجتمع كله. والإضراب الذى ينتشر من خلال التعاطف يمثل عائقًا لآخرين لم يفكروا فى الإضراب وأرادوا مواصلة مهامهم المعتادة. ومعنى الإضراب هو ألا يفعل أحدٌ شيئًا. وكلما نجحوا فى مقصدهم هذا كانت فرصة نجاح الإضراب أكبر. ومن المهم أن يتمسك الكل بشعار الحظر فى أثناء الإضراب الحقيقى. ثم يتطور الأمر تلقائيًا إلى تكوين منظومة من الكتل نفسها تمارس مهمة الدولة بوعيٍ تام بمدى وجودها القصير ولا تعمل إلا بقوانين قليلة فقط، لكن هذه القوانين يتم الالتزام بها بصرامةٍ شديدة. فتقوم نقاط حراسةٍ بمراقبة مداخل المكان الذى يتخذ منه الحدث منطلقًا له، فمكان العمل نفسه هو بقعةٌ محظورة. والحظر الذى يمثل عبئًا عليهم، يخرجهم عن رتابة حياتهم

اليومية ويمنحهم شرفًا خاصًا. أما المسئولية التى يتحملونها تجاه هذا فإنها تجعل منه شرفًا جماعيًا، فيعملون من هذا المنطلق على حمايته بعد أن صار معناه أكثر سموًا. أما سكون حركته فينطوى على قدسيةٍ ما، فمن يدنو منه يتم اختبار نواياه، فمن يأتى بنوايا معادية، من يريد العمل، فإنه يعتبر عدوًا أو خائنًا. أما المنظومة فتهتم بتوزيعٍ عادلٍ للمواد الغذائية أو الأموال. فالمواد المتوافرة لا بد أن تكفى لفترةٍ طويلة، ومن المهم أن يحصل كلٌ بالتساوى على القدر القليل فلا يخطر ببال من هو أقوى أن يحصل على قدرٍ أكبر، حتى الشره منهم سيلتزم بالقناعة. ولما كان عادةً ألا يتوافر سوى القليل للغاية فإن عمل المنظومة تحديدًا يدور فى العلن ملتزمًا الشفافية. فهذا السلوك فى التوزيع يساهم فى تباهى الكتل بمساواتها. وهو أمرٌ جاد للغاية وجديرٌ بالاحترام لمثل هذه المنظومة. ولا مناص من التفكير فى الوعى بالمسئولية وشرف مثل هذا الشكل الناشئ تلقائيًا من قلبها إذا ما تذكرنا وحشية ونزعة التدمير لدى الكتلة. ولذا كان علينا تأمل كتلة الحظر لأنها تظهر ملامح مختلفةً تمامًا، بل تحديدًا متعارضة مع تلك. فإذا ما اتخذت الأمور مسارًا سيئًا وصار للنقص أبعادٌ يصعب تحملها، أى عندما تشعر الكتلة بالهجوم عليها أو محاصرتها فإن الكتلة السلبية تنزع إلى التحول إلى كتلةٍ إيجابية نشطة. أما المضربون، الذين حظروا على أنفسهم نشاطهم المعتاد فجأةً، فما إن يشعروا أن توحدهم فى المقاومة صار مهددًا حتى ينزعوا إلى التدمير، وبالأحرى يكون التدمير فى المجال الخاص لنشاطهم المعتاد. وهنا يأتى تفعيل أهم واجبات المنظومة فعليها الحفاظ على نقاء ماهية جمهور الحظر والحيلولة دون أى عملٍ فردى نشط، وعليها أن تقر فى اللحظة المناسبة بتعليق الحظر الذى تدين له الكتلة بوجودها. فإذا ما اتفقت رؤيتها مع مشاعر الكتلة فإنه يكون عليها اتخاذ قرار بحل نفسها أى بتراجعها عن الحظر.

كتلة الاتجاه المعاكس

"عزيـزى، صديقـى الطيـب، كانـت الذئـاب تلتهـم دائمًـا الحُمـلان، فهـل سـتلتهم الحمُـلان الذئـاب هـذه المـرة؟"

دُوِّنـت هـذه العبـارة فى خطـابٍ أرسـلته مـدام "جوليـان" إلى ابنهـا فى أثنـاء الثـورة الفرنسـية[15]. والرسـالة تنطـوى عـلى صياغـةٍ موجـزة لجوهـر التحـول إلى الاتجـاه المعاكـس. فقـد عـاش القليـل مـن الذئـاب حتـى تلـك اللحظـة عـلى الكثـير مـن الحُمـلان، وآن الآوان حينئـذٍ كى تجابـه الحُمـلان الكثـيرة الذئـاب القليلـة. ونحـن نعـرف أن الحُمـلان لا تـأكل اللحـم. لكـن أهميـة العبـارة تتبـدى تحديـدًا فى عـدم منطقيتهـا الظاهريـة. فالثـورات هـى الوقـت المناسـب للتحـول إلى الاتجـاه المعاكـس. فمـن ظلـوا مضطهَديـن لأمـدٍ طويـل للغايـة ظهـرت لهـم فجـأةً أسـنانٌ. وعليهـم تجـاوز مـا مـروا بهـا مـن تجـارب مريـرة. والتحـول إلى الاتجـاه المعاكـس يشـترط مجتمعًـا طبقيًـا، فالفـروق بـين طبقـاتٍ بعينهـا، حيـث يكـون للبعـض حقـوقٌ أكـثر مـن البعـض الآخـر، لا بـد أن تظـل موجـودةً لفـترةٍ مـا، ولابـد أن تضطـر النـاس للشـعور بهـا فى حياتهـم اليوميـة لأمـدٍ طويـل قبـل أن تنشـأ الحاجـة للتحـول إلى الاتجـاه المعاكـس. فالجماعـة الأعـلى يكـون لهـا الحـق فى إصـدار الأوامـر إلى الجماعـة الأدنى، سـواء جـاءت هـذه الجماعـة عـن طريـق الاحتـلال، فصـارت متحكمـةً فى شـئون أهـل البـلاد، أو أنهـا نشـأت مـن تراكـم الأحـداث فى الداخـل.

ويـترك كل أمـرٍ خلفـه غصـةً محرجـةً فى نفـس المرغـم عـلى تنفيـذ هـذا الأمـر. ولسـوف نتعـرف عـلى نحـوٍ أكـثر دقـةً عـلى طبيعـة هـذه الغصـات غـير القابلـة للفنـاء. فمـن تصـدر إليهـم أوامـر كثـيرة ويصـيرون مترعـين بمثـل هـذه الغصـات فإنهم يشـعرون بإلحـاحٍ قـوى للخـلاص منهـا ويصلـون إلى التحـرر منهـا عـن طريقـين، فبوسـعهم نقـل الأوامـر الصـادرة إليهـم مـن أعـلى إلى مـن هـم أسـفل، ومـن أجـل ذلـك فـلا بـد مـن وجـود مـن هـم أدنى ويكـون لـدى أولئـك اسـتعدادٌ لتلقـى ذلـك مـن هـؤلاء، لكنهـم يسـتطيعون أيضًـا الانتقـام مـن أولئـك بنفـس مـا عانـوه ممـن هـم أعـلى واختزنـوه. فأمـا الشـخص الفـرد، ضعيفًـا وعاجـزًا كـما هـو حالـه، فمـن النـادر أن تتوافـر لـه هـذه الفرصـة. أمـا إذا التقـى كثـيرون فى كتلـة جماهيريـة فإنهـم قـد يفلحـون فيـما فشـلوا فيـه فـرادى. فهـم معًـا يسـتطيعون مجابهـة هـؤلاء مـن كانـوا يأمرونهـم إلى ذلـك الحـين. وتتجـلى الحالـة الثوريـة كموقـفٍ لمثـل هـذا التحـول إلى الاتجـاه المعاكـس، لكـن الكتلـة التـى تخلصـت فى الأسـاس مـن كبتهـا النفسـى عـلى نحـو تحـرر جماعـى مـن غُصـات الأوامـر فيمكـن وصفهـا بكتلـة التحـول إلى الاتجـاه المعاكـس.

ولنـا أن ننظـر إلى الهجـوم عـلى "الباسـتيل" عـلى أنـه هـو بـدء الثـورة الفرنسـية التـى كانـت قـد بـدأت مبكـرة بحـمام دمٍ للأرانـب. ففـى مايـو 1789 كان قـد اجتمـع مجلـس القيـادة فى فرسـاى وتشـاور حـول إلغـاء قوانـين الاقطـاع التـى تضمنـت أيضًـا حـق النبـلاء فى القنـص. وفى العـاشر مـن يونيـو أى قبـل شـهرٍ مـن الهجوم على الباسـتيل كان "كامـى دمولـين"، النائـب المشـارك فى المشـاورات، قـد كتـب تقريـرًا فى رسـالة إلى أبيـه: "إن البريتونيـين قامـوا بتنفيـذ بعـض بنـود احتجاجاتهـم - مؤقتًـا- فهـم يقتلـون الحمائـم وحيوانـات القنـص. وقـد قـام خمسـون شـابًا للتـو هنـا فى محيطنـا بعمـلٍ لا مثيـل لـه بالقضـاء عـلى الأرانـب والأرانـب الصغـيرة. أى أنهـم قامـوا أمـام أعـين الحـراس بقتـل مـن أربعـة إلى خمسـة آلاف حيـوانٍ بـرى فى سـهل سـان جيرمـان"[16].

إن الحُمـلان تتجـه أولاً إلى الأرانـب قبـل أن تتجـاسر عـلى الذئـاب. فقبـل الارتـداد الموجـه ضـد مـن هـم أعـلى فـإن المـرء يتوجـه صـوب مـن هـو أقـل أذى، أى الحيوانـات التـى يمكـن صيدهـا. أمـا الحـدث الحقيقـى فـكان هـو يـوم الباسـتيل، فقـد قامـت المدينـة كلهـا بتسـليح نفسـها. وكان التمـرد موجهًـا ضـد قانـون العدالـة الملكيـة. وقـد تجسـد ذلـك فى الهجـوم عـلى المبـانى واكتسـاحها وتـم تحريـر السـجناء الذيـن يسـتطيعون الانضـمام إلى الكتلـة. أمـا المحافـظ الـذى كان مسـئولاً عـن الدفـاع

عن الباستيل ومعاونوه فقد تم إعدامهم، كما عُلِّق اللصوص كذلك على أعمدة الإضاءة وتمت تسوية الباستيل بالأرض، فقد هُدِم حجرًا حجرًا. فالعدالة بكلا عنصريها، أى الحكم بالموت والإعفاء، قد انتقلت إلى أيدى الشعب. وبهذا كان التحول المعاكس إلى هذا الحين قد اكتمل. فثمة كتلة من هذا النوع تتكون فى ظل ظروفٍ متمايزة للغاية، فقد تكون بمثابة تمرد العبيد على الأسياد أو جنودٍ على ضباط أو الملونين ضد البيض الذين استوطنوا بينهم، فدائمًا ما عاش هؤلاء زمنًا مريعًا تحت أمر الآخرين، ودائمًا ما يكون أعمال المتمردين ناتجةً عن غصاتهم. ويستغرق الأمر دائمًا مدةً طويلة حتى يستطيعوا الإقدام على هذا العمل. وكثير مما نراه من مظاهر الثورات يدور بالفعل فى كتلة التحريض. فيتم ملاحقة أناسٍ فرادى، فإذا ما أُلقى القبض عليهم يقوم الجميع بقتلهم فيما يشبه المحاكمة أو أيضًا من دون إدانة. إلا أنه لا مفر من نشوء الثورات على هذا النحو. وهو ما لم يحدث قط مع كتلة التحريض التى تصل إلى نهايتها على أسرع وجه. فإذا ما بدأت عملية التحول إلى الاتجاه المعاكس فإنها تواصل طريقها، فكلٌ يحاول الوصول إلى موضعٍ يتيح له التخلص من غصته وكلٌ يحمل الكثير منها. إن كتلة التحول إلى الاتجاه المعاكس هى عمليةٌ تشمل المجتمع كله، وربما يصادفها النجاح فى البداية. وعلى هذا النحو تمضى ببطءٍ وصعوبةٍ إلى نهايتها. وبقدر السرعة التى تنتهى بها كتلة التحريض الموجودة على السطح فى كثيرٍ من الحركات القصيرة المتتابعة، فإنه يكون قدر البطء الذى يحدث التحول إلى الاتجاه المعاكس من العمق. ولكن قد يصير التحول إلى الاتجاه المعاكس أكثر بطئا بسبب الوعد فى العالم الآخر "فالآخرون يصبحون الأولين". وبين هذه الصيغة وتلك يكون الموت. ففى العالم الآخر سوف يحيا المرء مرةً أخرى، فمن كان أكثر فقرًا ولم يقترف إثمًا هو من سينتقل فى الأغلب إلى الجانب الآخر ليواصل حياته إنسانًا جديدًا فى حالةٍ أفضل، ويوعَد المؤمن بالتحرر من غصاته. لكن لم يُذكَر شىء أكثر دقةً عن هذا التحرر. وعندما يلتقى الجميع فيما بعد، فى اليوم الآخر، فإنه لا يشار إلى الكتلة كأساس للارتداد. وتعتبر فكرة البعث مركزًا لهذا النوع من الوعود. وقد ذكرت الأناجيل حالاتٍ من إعادة الحياة على يد المسيح. أما حجيج البعث الشهير بال"ريفيفال" فى بلاد الأنجلوساكسون فقد استغل أثر الموت وإعادة الحياة بسبل شتى[17]. فكانت جموع المذنبين قد هُدِدَت بعقوبة الجحيم الأكثر ترويعًا ليقع هؤلاء أسرى لحالةٍ من الخوف لا نظير لها. فهم قد رأوا بحيرةً

من النار والكبريت مفتوحةً أمامهم، ورأوا يد الله المهيمن الذى يعمل على إلقائهم فى قاع الجحيم المروع. وكما جاء على لسان واحدٍ من أولئك الوعاظ أن الأثر القوى للسعير سوف يزداد من خلال التمزيق البشع للوجه ورعد الصوت. ومن أجل سماع مثل هذه العظة كان يتدفق إلى هناك أناسٌ من كل الأرجاء من مسافات تبلغ 40 و50 و100 ميل. فيسافر رجالٌ بعائلاتهم فى عرباتٍ مغطاة وقد جهزوا أنفسهم بفراشٍ وغذاءٍ لعدة أيام. ونحو العام 1800 كانت الحالة المحمومة لمثل هذه التجمعات قد سادت جزءا من ولاية كنتاكى.

فكانت هذه اللقاءات تنعقد فى الخلاء، فلم يكن هناك فى تلك الولايات مبنى يستوعب مثل هذه الكتل الهائلة. ففى أغسطس عام 1801 تجمع 20.000 إنسان فى لقاء بكان ريدج وبعد مئة عام لم تكن ذكرى ما حدث فى كنتاكى قد محيت[18]. فقد أثار الوعاظ فزع المستمعين إلى حد أن هؤلاء تساقطوا وظلوا راقدين كالموتى. وقد كانت هى أوامر الرب التى هُددوا بها ففروا من هذه الأوامر محاولين النجاة عبر هذا النوع من التظاهر بالموت. وقد كان ذلك هى عين نية الواعظ المعلنة والمتعمدة فى أن يسقط هؤلاء. وقد بدا الأمر كأنه فى ساحة وغى، فعلى اليمين واليسار تساقطت صفوفٌ كاملة على الأرض. أما مقارنة ذلك بساحة وغى فكان الوعاظ أنفسهم هم من قالوا بذلك. وقد بدا لهم أنه لا مناص من هذا الفزع الأخير والأقصى من أجل عودة الأخلاق. وكان نجاح العظة يقاس بعدد من سقطوا. وقد جاء فى تقريرٍ بكتابٍ لشاهد عيانٍ عما جرى بدقة بأنه فى أثناء هذا اللقاء، الذى استمر عدة أيامٍ، قد تساقط على الأرض ثلاثة آلاف إنسانٍ بلا حول، أى ما يعادل سدس الحاضرين تقريبًا. وقد تم نقل كل المتساقطين إلى قاعاتٍ جانبية مفتوحة، ولم يمر أى وقت إلا وكانت الأرض مغطاةً بالراقدين من البشر. فكثيرون، كثيرون رقدوا بلا حراك لساعاتٍ طويلة فاقدين القدرة على الحركة والنطق، وكانوا أحيانًا ما يستردون وعيهم للحظاتٍ قليلة ليطلقوا صرخةً نافذة بتنهيدةٍ عميقة، أو ليقروا فى دعاءٍ حماسى بالرحمة بأنهم على قيد الحياة. وكان بعضهم يدق بكعبيه على الأرض بينما يصرخ آخرون فى عذابٍ مميت ويطيحون بأنفسهم مثل السمك الذى خرج من الماء حيًا. وكان البعض يتدحرج فوق الأرض لساعاتٍ طويلة. وكان هناك البعض الذى قفز فجأةً إلى منصة الوعاظ أو على الأرائك ليلقوا بأنفسهم إلى الغابة صائحين: "لقد ضعنا! ضعنا!" وحين يفيق المتساقطون يكونون قد صاروا أناسًا آخرين، فكانوا ينهضون

وهـم يصيحـون: "الخـلاص!"، إنهـم قـد "ولـدوا مـن جديـد" وصـار بوسـعهم بـدء حيـاةٍ طيبـة طاهـرة بعـد أن ودعـوا حياتهـم الآثمـة السـابقة. إلا أن العـودة للإيمـان لم تكـن صادقـةً إلا إذا سـبقها نـوعٌ مـن المـوت[19].

وقـد كان لظواهـر أقـل تطرفًـا نفـس التأثـير. فقـد انفجـر تجمـعٌ كامـل في البـكاء. و(قـد) أصيـب كثـيرون بحالـة حالـة تشـنج لا تقـاوم. وبـدأت مجموعـةٌ، مكونـةٌ غالبًـا مـن أربعـة أو خمسـة أفـراد، في النبـاح مثـل الـكلاب. وبعـد بضـع سـنواتٍ عندمـا اتخـذ الانفعـال شـكلاً أقـل وطـأةً غلـب "الضحـك المقـدس"[20] في البدايـة عـلى بعـض الأفـراد ثـم عـلى جماعـةٍ كاملـة. لكـن كل مـا حـدث كان قـد حـدث في الكتـل، ولا نـكاد نعـرف صـورًا مـن الانفعـال أكـثر منهـا حـدةً. والتحـول إلى الاتجـاه المعاكـس الـذي نقصـده هنـا مختلـفٌ عـن هـذا الـذي يحـدث في الثـورات. فالأمـر يـدور حـول علاقـة النـاس بالتعاليـم الإلهيـة التـي كانـوا يخالفونهـا حتـى ذلـك الحـين فصـاروا الآن يواجهـون الخـوف مـن عقابهـا. إن هـذا الخـوف الـذي صعَّـده الواعـظ بسـبل شـتى دفعهـم إلى حالـةٍ مـن فقـدان الوعـي فتظاهـروا بالمـوت مثلـما يفعـل الحيـوان في أثنـاء الفـرار. إلا أن خوفهـم كان عظيـمًا إلى أن أفقدهـم وعيهـم، فـإذا مـا اسـتردوا وعيهـم أعلنـوا اسـتعدادهم للتسـليم بأوامـر ونواهـي الـرب. ولهـذا كان الخـوف المتنامـي لأقـصى درجـة يسـبق العقـاب مبـاشرة. والأمـر هنـا كان بمثابـة عمليـة ترويـض، فالمـرء يـدع نفسـه للترويـض عـلى يـد الواعـظ ليصـير خادمًـا مطيعًـا للـرب. وكـما أشرنـا آنفًـا، فـإن الحـدث يكـون عـلى النقيـض التـام مـن ذلـك بالنسـبة للبعـض في أثنـاء ثـورةٍ مـا. فهنـاك يـدور الأمـر حـول التحـرر مـن الغصـات التـي شُـحِن بهـا المـرء تدريجيًـا في أثنـاء خضـوعٍ طويـل المـدى للسـلطة، بينـما يرتبـط الأمـر هنـا بخضـوعٍ حـي لتعاليـم الـرب مـن أجـل الاسـتعداد - طواعيـةً - لقبـول كل الغصـات التـي يمكـن أن تغـرس في البعـض. ويشـترك كلا الحدثـين فقـط في حقيقـة ارتـدادٍ مـا. والمشـهد الروحـاني لهـذا الحـدث يماثـل حـال الكتلـة.

كتلة الاحتفال

هنـاك نـوعٌ خامـس مـن الكتـل أطلـق عليـه تعريـف كتلـة "الاحتفـال". ففـى احتفـال مـا يوجـد الكثـيرون بمـكانٍ محـدود. وهـؤلاء الكثـيرون الذيـن يتحركـون فى هـذا الموضـع بعينـه يمكـن أن يشـاركوا جميعًـا فى ذلـك. فثـمار إنتـاج أى مجتمـعٍ يتـم عرضهـا فى أكـوامٍ كبـيرة، فيرقـد هنـاك صفٌّ مـن مئـة خنزيـرٍ موثقـة القيـد. وقـد أُعـد الـشراب المفضـل فى أوانٍ ضخمـة فى انتظـار الشـاربين، وهـو مـا يتوافـر بمـا يتجـاوز الاسـتهلاك. وفى سـبيل ذلـك يتدفـق النـاس عليـه دائمًـا. ومـا دام هنـاك شىء فإنهـم ينهلـون منـه. ويتوافـد إلى المـكان فيـض مـن النسـاء، جئن مـن أجـل الرجـال، وفيـض مـن الرجـالٌ مـن أجـل النسـاء. فليـس هنـاك مـا أو مـن يُنـذر بخطـرٍ، وليـس هنـاك مـا يدفـع إلى الفـرار. إنهـا حيـاةٌ ومتعـةٌ مضمونـةٌ فى أثنـاء الحفـل. وقـد تـم إلغـاء المحظـورات والتمييـز، وصـار التقـارب غـير المألـوف مسـموحًا بـه ومتاحًـا. والأجـواء هنـاك مريحـةٌ للفـرد وليسـت مـن أجـل التخلـص مـن الكبـت، وليـس هنـاك هدفًـا واحـدًا يسـعى الجميـع للوصـول إليـه. فالحفـل هـو الهـدف، وهـو مـا تحقـق. أمـا الكثافـة فكبـيرةٌ، وأمـا المسـاواة فهـى فى معظمهـا مسـاواةٌ خاضعـة لـلإرادة وللمتعـة. والنـاس يتحركـون فيـما بينهـم وليـس مـع بعضهـم البعـض. وأما الأشـياء المكدسـة هناك فهـى جـزءٌ أسـاسى مـن الكثافـة، أى بذرتهـا، التـى تـم جمعهـا، فـإذا اجتمعـت كلهـا فإن النـاس يجتمعـون حولهـا. وقـد يسـتغرق الأمـر سـنواتٍ حتـى يتوافـر كل شىء، فقـد

يعانى المرء من حرمانٍ طويل من أجل هذه الوفرة قصيرة المدى، لكنه يعيش فى انتظار هذه اللحظة ويستدعيها واعيًا بالهدف. ومن لا يرون بعضهم البعض إلا نادرًا فيتم استقبالهم بحفاوة فى جماعات، ومن ثم فإن وصول المجموعات الفردية يكون ملحوظًا بقوةٍ، وتعم الفرحة أرجاء المكان. ومما يساهم فى هذه الحالة هو الشعور بأن هذه المتعة الجماعية ستكون دافعًا لإقامة الكثير من مثل هذا الحفل فى المستقبل. والرقصات الشعائرية والعروض المثيرة تُذكِّر بمناسباتٍ من نفس النوع كانت تقام فى العصور المبكرة. وهذه الاحتفالات تنطوى على تلك التقاليد القديمة، فهل يتذكر المرء فى أثناء ذلك مؤسسى هذه الحفلات الأوائل، أى أول من ابتدعوا كل هذه المتع التى يسعد بها (المرء) الإنسان، أى هؤلاء الأجداد الذين صاروا، فى مجتمعاتٍ جامدة لاحقة، بمثابة الرعاة لهذه الحفلات. وعلى كلٍ فإن تكرار مثل هذه المناسبات فى المستقبل تبدو للبعض مضمونةً. فالحفلات تستدعى بعضها البعض، ومن خلال كثافة الأشياء والبشر تتنامى الحياة[21].

الكتلة المزدوجة
رجالٌ ونساء.. الأحياء والأموات

إن الفرصة الأكثر ضمانًا - وغالبًا ما تكون الوحيدة- لحفاظ كتلة جماهيرية على نفسها تشترط وجود كتلة جماهيرية أخرى مرتبطةً بها. وسواء كان لقاء الكتلتين فى مباراةٍ مشتركة وتنافسية، أو أنهما يهددان بعضهما البعض على نحوٍ خطير، فإن ثمة رؤية أو تصور قوى لكتلة ثانية لا يسمح للكتلة الأولى بالتفتت. فبينما تجتمع السيقان بكثافةٍ على ناحية، تكون الأعين قد وُجِّهَت نحو الأعين المواجهة لها، وبينما تتحرك الأذرع هنا بإيقاعٍ جماعى فإن الآذان تنتظر سماع الصرخة من الجانب الآخر. إن الإنسان يلتحم بذويه فى تقارب فيزيقى ويتفاعل معهم فى حميمية وانسيابية طبيعيةً كأنهم وحدة واحدة. وكل لون من ألوان الفضول والتوقع فى هذه اللحظات، أو كل مشاعر الخوف تكون موجهة إلى حشدٍ آخر من البشر تم فصله عن الحشد الآخر بمسافة واضحة. إن من يراهم من الناحية المواجهة له فإن المشهد يسحره ومن لم يرهم فإنه يستطيع سماع أصواتهم، وكل ما يفعله هذا الجمع يرتبط بفعل أو نية الجمع الآخر. فالمواجهة تؤثر على الاصطفاف، والمواجهة التى تستدعى انتباه الطرفين هى التى تغير نوع التركيز داخل كل جماعة. فما لم يكن الآخرون قد تفرقوا فإن هؤلاء يضطرون

للبقاء معًا. فعلاقة الشد والجذب بين كلا الجمعين يتبدى تأثيرها على أفراد المجموعة ذاتها. فإذا ما دار الأمر حول علاقة شدٍ وجذب فى مباراةٍ شعائرية فإن الضغط يتبدى ليظهر كشيءٍ مثل العورة، فيجمع المرء كل قواه حتى لا يتعرى فريقه بفعل الفريق الآخر. أما إذا أنذر الخصم بتهديدٍ خطر فإن الضغط يتحول إلى درعٍ لدفاعٍ صلبٍ موحد.

وعلى كل حال فإن ثمة كتلةً بشرية ما تحفظ الأخرى على قيد الحياة شريطة تساوى الاثنتين تقريبًا فى الحجم والتركيز. وفى سبيل البقاء ككتلة واحدة يتحتم عدم الشعور بأن تفوق الخصم قد جاوز الحد، أو على الأقل عدم الظن بأن تفوقه قد تجاوز الحد. وحيثما ينتشر الشعور بعدم الثبات فى المواجهة فإن أفراد الكتلة يلوذون بالفرار الجماعى من أجل النجاة. فإذا بدا ذلك أمرًا ميئوسًا منه فإن الكتلة تتفتت فى ذعرٍ، فيلتمس كلٌ لنفسه سبيل الفرار. لكن هذه الحالة ليست هى موضع اهتمامنا هنا. وفى سبيل تكوين "نظام- كتلتين"، إن جاز لنا هذا التعبير، فلا بد من توافر الشعور بمساواةٍ نسبية للقوة على كلا الجانبين.

فإذا شئنا فهم نشأة هذا النظام يتحتم علينا الانطلاق من ثلاثة تناقضاتٍ رئيسة وهى موجودةٌ فى كل مكانٍ يوجد فيه بشرٌ، وكل مجتمعٍ معروف لدينا كان واعيًا بوجودها. أما التناقض الأول، وهو الأكثر إثارةً للانتباه، فهو التناقض بين الرجال والنساء. وأما الثانى فهو القائم بين الأحياء والموتى. وثالث تلك التناقضات هو ما يقتصر عليه تقريبًا حديث الناس اليوم إذا ما ذكر مواجهة مجموعتين بين بعضهما البعض وهو التناقض بين الصديق والعدو. فإذا ما نظرنا إلى التناقض الأول بين الرجال والنساء فإننا ندرك مباشرةً علاقة هذا التناقض بتكوين كتلٍ خاصة، فالرجال والنساء يعيشون معًا فى إطار أسرة، وقد ينزعون إلى نشاطاتٍ مختلفة، ولكنا لا نستطيع التصور بأنهم يقفون فى مواجهة كل منهما للآخر فى كتلتين منفصلتين مستنفرتين. فلنرجع إلى تقارير عن علاقاتٍ حياتية مبكرة كى نحصل على صورةٍ أخرى عن شكل هذا التناقض. فقد كان الشاب الفرنسى البروتستانتى الهوجونوتى "جان دى لرى" شاهد عيانٍ لحفلٍ كبير لقبيلة "توبينامبو"[22] فى البرازيل فى العام 1557: "صدر إلينا الأمر بالبقاء بالبيت حيث كان النساء. ولم نكن قد عرفنا على الإطلاق ما سوف يفعلونه. وهنا ارتفعت همهمةٌ خفيفةٌ للغاية بالبيت حيث كان الرجال. وهذا البيت يقع على بعد أقل

مـن ثلاثـين خطـوةً عنـا وعـن بيـت النسـاء، فسُـمِع ذلـك كغمغمـة صلـواتٍ. فـما كادت النسـاء الـلائى كان عددهـن نحـو المئتـين يسـمعن ذلـك حتـى وثـبن جميعًـا لأعـلى وقـد شـحذن آذانهـن وتلاحمـن فى كـومٍ معًـا. وبعـد ذلـك بقليـل رفـع الرجـال أصواتهـم، فسـمعنا بوضـوحٍ مـا ينشـدونه جميعًـا معًـا، كـما كان يتكـرر مـن حـينٍ لآخـر هتـافٌ لبـث حماسـهم: (هيـه، هيـه، هيـه!) فاعترتنـا دهشـةٌ تامـة عندمـا قامـت النسـاء بالـرد عليهـم ليطلقـن نفـس الهتـاف: (هيـه، هيـه، هيـه!) ولأكـثر مـن ربـع السـاعة كـن ينتحـبن ويصرخـن بصـوتٍ عـالٍ عـلى نحـوٍ لم نعـرف معـه كيـف نتجـاوب معهـم. وفى أثنـاء النحيـب كـن يقفـزن بعنـفٍ شـديد فى الهـواء لترتجـف صدورهـن ويحيـط الزَبَـد بأفواههـن كـما سـقط بعضهـن عـلى الأرض فاقـدات الوعـى كأنهـن يعانـين صرع السـقوط. فبـدا لى كأن الشـيطان تلبسـهن فتملكهـن السـحر تمامًـا. وعـلى مقربـةٍ منـا سـمعنا حركـة وصخـب الأطفـال الذيـن كانـوا بمـكانٍ خـاصٍ بهـم. ورغـم أننـى عايشـت لنصـف عـامٍ حيوانـاتٍ متوحشـةً وصـارت لى خـبرةٌ بهـا فـإنى لا أنكـر أن الفـزع مـن ذلـك قـد تملكنـى تمامًـا، وقـد سـألت نفـسى عـن نهايـة هـذا الأمـر وتمنيـت العـودة إلى قلعتنـا".

انتهـى "سـبت السـاحرات" أخـيرًا ليلـوذ الأطفـال بالصمـت، ليسـمع "جـان دى لـرى" الرجـال فى ترنيـمٍ جماعـى رائـع إلى حـد أنـه لم يتمالـك نفسـه لمطالعـة منظرهـم، فحاولـت النسـاء منعـه مـن ذلـك فهـن يعرفـن الحظـر الـذى يمنعهـن مـن الذهـاب إلى الرجـال، إلا أنـه أفلـح فى التسـلل إلى هنـاك ولم يحـدث شىء لـه، وحـضر الحفـل مـع اثنـين آخريـن مـن الفرنسـيين. كان إذن الرجـال منفصلـين تمامًـا عـن النسـاء عـلى نحـوٍ صـارم فى بيتـين مختلفـين، ولم يسـتطيعوا رؤيـة بعضهـم البعـض. إلا أن مجموعـةً كانـت تصيـخ السـمع لصخـب المجموعـة الأخـرى لتطلـق الهتافـات نفسـها، وقـد تفاقمـت فيـما بينهـا حالـة انفعـالٍ جماعـى فى كلا المجموعتـين. أمـا الأحـداث الحقيقيـة فكانـت تـدور لـدى جماعـة الرجـال، إلا أن النسـاء شـاركن فى تأجيـج الجمهـور. ومـن الجديـر بالملاحظـة أنـه بعـد سـماعهن لأول صـوتٍ صـادرٍ عـن الرجـال تلاحمـن فى كـومٍ مكثـف، وصرن يـرددن مـن حـينٍ لآخـر وعـلى نحـوٍ أكـثر عنفًـا تلـك الهتافـات العنيفـة التـى سـمعنها مـن هنـاك. وكان الخـوف قـد مـلأ قلوبهـن لأنهـن كـن حبيسـات فلـم يسـمح لهـن بالخـروج عـلى أيـة حـال. ولأنهـن كـن يجهلـن مـا يـدور عنـد الرجـال فقـد اكتسـب انفعالهـن صبغـةً مـن لـونٍ خـاص، إذ أخـذن يقفـزن إلى أعـلى كأنهـن يرتمـين إلى الخـارج. وكانـت ملامحهـن الهسـتيرية، التـى لحظهـا الزائـر، هـى مـا عـبرت

عـن إعاقـة الفـرار الجماعـى. فلقـد كان التوجـه الطبيعـى للنسـاء هـو أن يهربـن إلى الرجـال، لكـن لمـا كان هنـاك حظـرٌ صـارم عـلى ذلـك فإنهـن قـد هربـن فى مكانهـن عـلى نحـو أو آخـر. وكانـت مشـاعر "جـان در لـرى" نفسـه جديـرةً بالملاحظـة، فقـد شـارك النسـاء مشـاعر الانفعـال إلا أنـه لم يكـن بوسـعه الانضـمام إلى كتلتهـن، فهـو غريـبٌ، وهـو رجـلٌ، وهـو موجـودٌ بينهـن إلا أنـه منفصـلٌ عنهـن، فخـشى أن يصبـح ضحيـةً لهـذه الكتلـة. أمـا مشـاركة النسـاء عـلى طريقتهـن فكانـت عـلى قـدرٍ مـا مـن الأهميـة، وهـو مـا يظهـره موضـعٌ آخـر بالتقريـر، فسـحرة القبيلـة أو كـما يسـميهم "جـان دى لـرى": "كاريابـن" قـد حظـروا عـلى النسـاء بأقـصى حـدٍّ مـن الصرامـة أن يغـادرن بيتهـن، إلا أنهـم أمروهـن بالانتبـاه لغنـاء الرجـال، فتأثـير النسـاء المجتمعـات عـلى جماعـة الرجـال يمكـن أن يكـون ذا أهميـة حتـى وإن كانـت مسـافةٌ بعيـدة تفصـل بينهـم. وفى سـبيل نجـاح حمـلاتٍ حربيـة يكـون عـلى النسـاء أحيانًـا المسـاهمة بنصيبهـن فى ذلـك. وسـوف يـلى ثلاثـة أمثلـةٍ، أحدهـا مـن آسـيا والثـانى مـن أمريـكا والأخـير مـن إفريقيـا، أى مـن شـعوبٍ لم يكـن بينهـا أيـة علاقـةٍ أو أى تأثـيرٍ عـلى بعضهـا البعـض عـلى وجـه اليقـين. فلـدى قبيلـة الـ"كافـير" الهندوسـية[23] تـؤدى النسـاء رقصـة الحـرب فى أثنـاء غيـاب الرجـال فى حملـةٍ، وعـلى هـذا النحـو يقمـن ببـث القـوة والشـجاعة فى المحاربـين، وبذلـك يصعِّـدن مـن حرصهـم حتـى لا يفاجئهـم عـدوٌ لئيـم. ولـدى الـ"جيفـارو" بجنـوب أمريـكا تتجمـع نسـاؤهم ليلـةً بليلـة فى بيـتٍ بعينـه ليؤديـن رقصـةً خاصـة وهـن يحملـن شـخاليل مـن المحـار حـول أجسـادهن وينشـدن أغـانٍ سـحرية[24]. ولهـذا الرقـص الجـرىء قوتـه الخاصـة، فهـو يحمـى آباءهـن وأزواجهـن وأبناءهـن مـن حـراب ورصـاص العـدو. والرقـص يدفـع العـدو إلى الاطمئنان فـلا يلحـظ الخطـر إلا بعـد فـوات الآوان وهـو يحـول بينـه وبـين الثـأر لهزيمتـه. أمـا الـ"مـيرارى" فهـى رقصـةٌ قديمـة بمدغشـقر[25] لا يجـوز أداؤهـا إلا فى لحظـة النـزال. فـإذا مـا أُعلِـن عـن معركـةٍ مـا فإنـه يتـم إخبـار النسـاء بواسـطة الرسـل فيحللـن شـعورهن ويبـدأن الرقـص، فيتصلـن عـلى هـذا النحـو بالرجـال. وعندمـا توجـه الألمـان عـام 1914 إلى باريـس قامـت النسـاء فى "تاناناريـف" بـأداء رقصـة الـ"مـيرارى" مـن أجـل حمايـة الجنـود الفرنسـيين. وقـد بـدا تأثـير ذلـك رغـم بعـد المسـافة. وفى جميـع أرجـاء الأرض تقـام حفـلاتٌ يـؤدى فيهـا الرجـال والنسـاء الرقـص فى مجموعـاتٍ منفصلـة، إلا أنهـم يـرون بعضهـم البعـض. وهـم يرقصـون عـادةً فى مواجهـة بعضهـم البعـض. وليـس هنـاك ضرورة لوصـف ذلـك، فهـو معـروفٌ للعامـة. وقـد اقتـصرت عمـدًا عـلى بعـض

الحالات المتطرفة، كان ما لفت الانتباه إليها هو الفصل بين المجموعتين وبعد المسافة بينهما وكذلك قدر انفعال المشاركين فيها. ونحن نتحدث هنا بالفعل عن الكتلة المزدوجة ذات الجذور العميقة. حيث تكون روح كلا فريقى الكتلة فى حالة توافقٍ. فانفعال هذه يشجع رضا ونمو تلك الأخرى. فالرجال والنساء ينتمون إلى شعبٍ واحد ويرتبط كل منهما بالآخر. ففى أساطير الأمازون، التى لم تقتصر مطلقًا على العصر الإغريقى القديم، ظهرت أمثلةٌ منها لدن السكان الأوائل بأمريكا الجنوبية. حيث كانت النساء قد انفصلت للأبد عن الرجال وكن يقمن بشن حروب ضدهم مثلما يفعل شعبٌ ضد شعبٍ آخر.

لكن قبل تناول الحرب التى كمن فيها الجوهر الخطر الذى لا مفر منه وهو ما يتجلى فى الكتلة المزدوجة فى أقوى صورة لها، فإنه يكون من المناسب أن نلقى نظرةً على التناقض الموغل فى القدم بين الأحياء والأموات. فرغم كل ما يجرى حول المحتضرين والموتى كان هناك تصورٌ مهم بوجود عددٍ كبير من الأرواح النشطة على الجانب الآخر، وهم من سوف يلتحق بهم المحتضر فى نهاية المطاف. أما الطرف الحى فإنه لا يشاء التنازل عن قريبه المحتضر، فخسارته تؤدى إلى ضعفهم. فإن حدث ذلك لرجلٍ فى عنفوان سنوات عمره فإن ذلك يسبب ألمًا شديدًا لذويه فيدفعون ذلك عن أنفسهم قدر إمكانهم، لكنهم يدركون أن مقاومتهم لن تجدى كثيرًا، فكتلة الجانب الآخر أكبر وأقوى، وهو سوف ينضم إليها، وكل ما يفعلونه تدركه القوة المتفوقة على الجانب الآخر. وهكذا كان لا بد من تجنب أى فعلٍ يستفز هؤلاء الذين بوسعهم التأثير على الأحياء ويمكنهم إيذاؤهم فى كل مكان. وتعتبر بعض الشعوب كتلة الأموات احتياطيًا يُنتزع منه أرواح المواليد الجدد، فهؤلاء يحددون إن كانت النساء سيرزقن بأبناءٍ. وأحيانًا ما تمر الأرواح سحابًا تجلب الأمطار، فهى التى تستطيع منع هذا المطر عن النبات والحيوان أى ما يتغذى عليه الإنسان. وبوسعهم انتزاع ضحايا جدد من بين الأحياء. فأما الميت الذى لا يتنازل عنه ذووه إلا بعد مقاومةٍ عنيدة فإنه يهدأ روعه بعد انتمائه لذاك الجيش الهائل على الجانب الآخر. هكذا يكون الموت صراعًا بين عدوين مختلفين فى القوة. وأما الصراخ الذى يطلقه المرء، والجراح التى يلحقها بنفسه أسفًا ويأسًا فقد تكون تعبيرًا متعمدًا عن هذا الصراع، فلا يظن الميت أنه قد تم الاستغناء عنه بسهولة، لكن كان هناك صراع حوله وهو صراعٌ شخصى تمامًا دار حوله هذا الميت. وهو صراعٌ ينتهى دائمًا بالهزيمة مهما بُذِل فى

أثنائه من بسالةٍ. فمنذ البداية يحاول المرء الفرار من العدو الذى لا يواجهه فى الحقيقة أملاً فى الخلاص منه من خلال صراعٍ يعرف بصراع التقهقر، حيث يكون الصراع خداعًا وتملقًا للمحتضر الذى سرعان ما يتأهب لزيادة صفوف العدو. وعلى الميت الذى ينتقل إلى الجانب الآخر أن يتمتع بروحٍ طيبة نحو ذويه أو يكون غير ضارٍ بهم على الأقل.

فإذا ما حل هناك ناقمًا فإنه يكون قد مد العدو القوى بغنيمةٍ جديدة وخطيرة. إن الأمر الجوهرى فى هذا النوع من الصراع بين الأموات والأحياء حول شخصٍ حى لا تحكمه قاعدةٌ ثابتة، فالمرء لا يدرى موعد وقوع حدثٍ ما مرةً أخرى، فربما لا يقع شىء لفترةٍ طويلة، ولكن لا يمكن الركون إلى ذلك، فكل هجوم جديد يحدث فجأةً من خصم غير متوقع ومن دون إعلان للحرب، فقد تؤدى حالة وفاةٍ واحدة إلى نهاية كل شىء. إلا أن هذه الحال قد تستمر لفترةٍ طويلة فى حالات الوباء وتفشى الأمراض على سبيل المثال. فالمرء يكون فى حالة انتظار لا تنتهى. ولسوف نتناول فيما بعد العلاقة بين الأحياء والأموات، فما يهمنا هنا فقط هو تأمل كليهما ككتلةٍ مزدوجة يرتبط كل من طرفيها بالآخر على نحوٍ دائم. أما الشكل الثالث للكتلة المزدوجة فهو كتلة الحرب المزدوجة وهى تلك التى تعتبر الأهم لنا اليوم. وقد اجتهد البعض كثيراً بعد التجارب التى مررنا بها فى هذا القرن من أجل فهمها وسبر أغوارها.

الكتلة المزدوجة: الحرب

يدور الأمر فى الحروب حول القتل، "صفوف الأعداء تم محوها". فالأمر يدور حول القتل أكوامًا، فيجب قتل كثيرٍ من الأعداء قدر الإمكان، فينبغى تحويل الكتلة الخطرة من خصوم الأحياء إلى كومٍ من الموتى. فالمنتصر هو من قتل عددًا أكبر من الأعداء. إنها كتلة الجيران المتنامية التى يواجهها المرء فى الحرب، فنموها بحد ذاته هو ما يثير الخوف. أما التهديد الذى ينطوى عليه نموها فهو ما ينتج الكتلة المعادية الأخرى التى تلح على الحرب. وفى أثناء خوض الحرب يسعى المرء إلى التفوق، أى يكون الطرف الأكثر عددًا فى الساحة وأن يستغل كل نقاط ضعف الخصم قبل أن يرتفع عدده. وتفاصيل خوض الحرب هو الصورة العاكسة لكل ما يجرى. فالمرء يسعى إلى أن يكون الجمهور الأكبر من الأحياء، وأن يكون الكوم الأكبر من الموتى على جانب الخصوم. وفى هذا السباق للكتل النامية يكمن السبب الجوهرى، بل السبب الأعمق للحروب. وبوسع البعض أن يتخذ من البعض عبيدًا بدلاً من الموتى، نساءً وأطفالاً، أى هؤلاء الذين يخدمون زيادة عدد الكتلة الشخصية. إلا أن الحرب لا تكون حربًا إلا إذا استهدفت - بالمقام الأول- كومًا من الموتى المعادين. وكل الألفاظ ذات الصلة الوثيقة بالأحداث الحربية فى اللغات القديمة والحديثة تعبر عن هذه العلاقة بدقة. فيذكر الناس "المعارك الدموية" و"المذابح" و"الهزيمة" و"تصبغ شلالات الدم النهر باللون الأحمر" و"تم

القضاء على العدو حتى آخر رجل"، وليس هناك دافعٌ للاعتذار عن ذلك. إلا أنه من المهم أن نشير إلى الإقرار بكوم الموتى كوحدةٍ، وقد عرف فى بعض اللغات من خلال كلمات بعينها: فالكلمة الألمانية "Walstatt" أى ساحة المعركة تحتوى على اسم القبيلة القديمة "وال wal" وهو ما يعنى "من بقوا فى ساحة المعركة"، أما "فالر valr" فى لغة الشمال القديمة فتعنى "الجثث فى ساحة المعركة"، و"فالهال valhall" لا تعنى سوى "سكن المحاربين القتلى"، ومن اللفظ الألمانى القديم "wal" جاءت كلمة "woul" وهى تعنى الهزيمة. وفى الأنجلوسكسونية تعنى كلمة "wol" الطاعون والوباء، فإن دارت هذه الكلمات حول "الذين بقوا فى ساحة المعركة" أو "الهزيمة" أو "الطاعون والوباء" فهى كلها معًا بمثابة تصورٍ عن كومٍ من الأموات، وهو ليس تصورًا "جرمانيًا" فحسب، بل هو منتشرٌ فى كل مكانٍ. وفى رؤيةٍ للنبى إرميا ظهرت الأرض كلها كساحةٍ من جثث متحللة، وسوف يصير قتلى الرب فى الوقت نفسه راقدين من طرف الأرض حتى طرفها الآخر، ولن يبكيهم أحدٌ ولن يرتفعوا ولن يُدفَنوا، بل كُتِب عليهم البقاء راقدين فى الساحة لا قيمة لهم[26].

وكان النبى "محمد" يهتم اهتمامًا عظيمًا بكوم القتلى إلى حد أنه وجه إليهم نوعًا من عظة الانتصار فبعد موقعة "بدر"، وهى أول نصرٍ كبير على أعدائه من أهل مكة، قام بإلقاء قتلى أعدائه فى جبٍ ما، ولم يكن من بينهم سوى رجلٍ واحد دفن تحت الأرض والأحجار، لأنه كان انتفخ داخل درعه إلى حد أنه لم يستطع أحد انتزاع درعه عنه، فبقى هو وحيدًا فتُرك راقدًا. فلما صار الآخرون فى الجب وقف محمد هناك وصاح: "أى يا رجال القليب ألم تروا ربكم أتم وعده؟ ها قد رأيت وعد ربى حقًا" فقال أصحابه: "أى يا رسول الله! إنهم حقًا جثث!" فرد محمد: "إنكم تعرفون حقًا أن وعد الله حق"[27]. وهكذا جُمع هؤلاء الذين أبوا فيما قبل سماع دعوته، وفى الجب كانوا قد حُفِظوا جيدًا بجوار بعضهم البعض بكثافة. وإنى لا أجد مثالاً أكثر وضوحًا من هذا المثال على البقاء على قيد الحياة والماهية المكثفة التى ينسبها أحدهم إلى كوم أعدائه الموتى. فهم لم يعد بوسعهم تهديد أحد ولكن بوسع البعض تهديدهم. فكل إهانةٍ يمكن ارتكابها ضدهم دون عقابٍ، فإن كانوا سيشعرون بذلك أم لا فإن البعض يفترض وجود هذا الشعور ليعزز من انتصاره. وقد وضعوا معًا فى الجب على نحوٍ لا يستطيع معه أحدٌ الحراك، فإن نهض أحدهم فلن يجد حوله سوى موتى، ولسوف يفزع من رفاقه. أما العالم الذى قد يعود إليه فسيكون عالمًا من الموتى، وهو يتكون

ممن كانوا الأقرب إليه. ومن بين شعوب العصور القديمة كان المصريون شعبًا غير محاربٍ، فقد وجهوا طاقة إمبراطوريتهم لبناء الأهرامات على نحوٍ أفضل من شن الحروب، لكنهم في أثناء ذلك كانوا أحيانًا يقومون بحملاتٍ حربية. فكان الملك "بيبى" قد عين "أونى"، القاضى الكبير، قائدًا لحملةٍ ضد البدو. وقد قام أونى نفسه بتدوين النص التالى على جدران مقبرته:

"مضى هذا الجيش المظفر محطمًا بلاد البدو

مضى هذا الجيش المظفر مدمرًا بلاد البدو

مضى هذا الجيش المظفر فأسقط قلاعهم

مضى هذا الجيش المظفر مخربًا ثمار أشجار

مضى هذا الجيش المظفر ملقيًا النار على قراهم

مضى هذا الجيش المظفر فذبح أكثر من عشرات الآلاف من جنودهم

مضى هذا الجيش المظفر وعاد بأعدادٍ غفيرة من أسراهم"[28]

وكان التعبير عن الدمار قد بلغ أقصى مدى له فى الفقرة التى تسجل قتل عشرات الآلاف من الأعداء. وقد تطور هذا الأمر إبان حكم الدولة الحديثة، وإن لم يستمر طويلاً، ليصير سياسةً هجومية منظمة للمصريين. فقد قاد رمسيس الثانى حروبًا طويلة ضد الحيثيين. وفى قصيدة مديح له ذُكِر التالى: "من يدهم أرض الحيثيين فيجعلها كومًا من الجثث فإنه يماثل (سخمت) عندما تتعطش إلى الطاعون"[29]. فتروى الأسطورة عن الربة سخمت، التى لها رأس لبؤة، أنها دبرت حمام دم رهيبًا للبشرية المتمردة. وقد ظلت سخمت ربةً للحروب والمذابح.أما شاعر قصيدة المديح فقد ربط تصوره عن كوم جثث الحيثيين بصورة ضحايا الوباء، وهى علاقةٌ لم تعد جديدةً علينا. وفى روايته الشهيرة عن معركة قادش التى شنها ضد الحيثيين يحكى رمسيس الثانى كيف تم عزله عن جنوده وكيف كسب وحده المعركة بقوةٍ وبسالة تفوقان قوة البشر. أما رجاله "فقد وجدوا كل الشعوب التى اختُرِقت صفوفها مذبوحين غارقين فى دمائهم، وكذلك كانت حال أفضل مقاتلى الحيثيين وأبناء أخوة أميرهم. وقد تركت ساحة قادش بيضاء ولم يستطع أحدٌ وطء أرضها لكثرة قتلاهم"[30].

لقد كانت "كثرة" الجثث وثيابهم البيضاء التى كسى لونها أرض الساحة هى العبارة الأكثر تعبيراً عن بشاعة ووضوح نتيجة معركة. لكن هذه النتيجة لم يرها سوى المحاربين. فلما كانت رحى المعركة قد دارت فى موضع بعيد كان الشعب فى أرض الوطن ينشد كذلك الحصول على شىء من كوم قتلى الأعداء. ولما كان الملك يتمتع بالخيال ويعرف السبيل إلى إرضاء شعبه فإن مرنبتاح، ابن رمسيس الثانى، روى كيف أنه كسب معركةً عظيمة ضد الليبيين، فقد استولى المصريون على معسكراتهم كاملةً بكل كنوزها وأسروا أهل أمير الليبيين. وبعد سلب المعسكرات تم إحراقها وأضافوا إلى ما غنموه 9376 أسيراً. إلا أن ذلك لم يكن كافيًا لكى يبرهن الملك لشعبه فى أرض الوطن على عدد القتلى، فقام الجنود ببتر أعضاء القتلى التناسلية فإذا ما كان هؤلاء مختونين[1] كان الجنود (المصريون) يكتفون بقطع الأيدى ليحملوا هذه الغنيمة فوق ظهور الحمير[31]. وكان على رمسيس الثالث أن يحارب هؤلاء الليبيين مرةً أخرى فيما بعد. وكان عدد رموز الغنائم فى هذه الموقعة يدور حول 12535 قطعة ومن الواضح أن هذه "الحمولة" المروعة لم تكن سوى الكوم المختزل لقتلى الأعداء الذى يمكن نقله ليراه الشعب كله. فكان كل قتيلٍ قد ساهم بجزءٍ من جسده من أجل الكوم. ومن المهم أن يتساوى جميعهم كرموز غنائم[32]. وهناك شعوبٌ أخرى كانت تستهدف الرأس. فقد حدد الأشوريون مكافأةً مقابل كل رأس من رءوس الأعداء، فكان على الجندى أن يحاول الحصول على أكبر قدرٍ منها. ويروى فى نقش من عهد الملك أشور بانيبال كيف يقف الكتبة فى خيامهم الكبيرة وهم يحصون عدد الرءوس المجتزة ليحمل كل جنديٍ ما حصده من رءوسٍ إلى هناك ويلقى بها فوق كومٍ جماعى ويعطى بيانًا باسمه وفرقته ثم يقفل عائدًا. وكان لملوك أشور شغفٌ بأكوام الرءوس هذه، فإن كانوا بين جنودهم فإنهم يستعرضون توريد رموز الغنائم ويقومون بأنفسهم بتوزيع المكافآت على الجنود، فإن غابوا عن ذلك المشهد كانوا يأمرون بإرسال كوم الرءوس كله إليهم، فإن استحال ذلك كانوا يكتفون برءوس قادة الأعداء[33]. هكذا يكون الهدف المباشر للحرب قد اتضح تمامًا لذا كانت إضافة أمثلةٍ أخرى عن ذلك أمرًا غير ضرورى. فالتاريخ زاخرٌ بذلك بالفعل. ويتولد الانطباع لدينا بأن أحداث التاريخ لا تدور تقريبًا إلا حول ذلك. وهو لا يذكر أحداثًا أخرى إلا نادرًا.

---

1 كان الختان عادة مصرية قديمة انتقلت إلى بعض الشعوب الأخرى لذا حرص الجنود هنا على تأكيد هوية الخصم (المترجم)

فـإذا مـا تأملنـا الطرفـين المتحاربـين رأينـا أن الحـرب تقـدم صـورة كتلتـين مزدوجتـين مشـتابكتين. فجيـشٌ كبـير إلى حـدٍّ مـا يضـع نصـب عينيـه هـدف تحقيـق كـومٍ كبـير مـن قتـلى الأعـداء قـدر الإمـكان وهـو مـا يـسرى عـلى الطـرف الآخـر بالقـدر نفسـه. أمـا التشـابك فينتـج عـن انتـماء كل مشـاركٍ فى الحـرب إلى كتلتـين فى آنٍ واحـد. ففـى إطـار معسـكره هـو يكـون منتميًـا إلى المقاتلـين الأحيـاء، ومـن وجهـة نظـر خصمـه يكـون منتميًـا إلى عـدد المـوتى المنشـود والكبـير. ومـن أجـل الحفـاظ عـلى أجـواء الحـرب فـلا بـد مـن التأكيـد مـن حـينٍ لآخـر عـلى مـدى قوتـه هـو نفسـه، أى عـدد أفـراد جيشـه هـو مـن ناحيـةٍ وعـدد قتـلى الأعـداء مـن ناحيـةٍ أخـرى. وقـد تميـزت التقاريـر الحربيـة منـذ أقـدم العصـور بهـذه الإحصائيـة المزدوجـة، أى إحصـاء عـدد مقاتـلى هـذا الطـرف وعـدد قتـلى العـدو. وكثـيرًا مـا يميـل المـرء إلى المبالغـة، خاصـةً بالنسـبة لعـدد قتـلى الأعـداء. أمـا فى أثنـاء الحـرب فـإن المـرء لا يعـترف بكـثرة عـدد الأحيـاء مـن الأعـداء، حتـى لـو عـرف ذلـك فإنـه يسـكت عنـه، ويحـاول الخـروج مـن هـذا الموقـف السيئ مـن خـلال إعـادة توزيـع القـوات المقاتلـة. وكـما لاحظنـا سـابقًا فـإن المـرء يفعـل كل شىء فى سـبيل التفـوق فى الحـال مـن خـلال إعـادة توزيـع بسـيط لفـرق الجيـش. أمـا الخسـارة الذاتيـة لعـدد الرجـال فـلا تُذكَـر إلا بعـد الحـرب. ودافـع الكتلـة لحمايـة حالهـا مـن التفتـت، هـو الـذى يمـد أجـل الحـرب واسـتمرارها حتـى لـو كانـت قـد خُـسِرت منـذ أمـدٍ بعيـد. وأحيانًـا مـا يتأجـج هـذا الشـعور إلى حـد إغفـال الفنـاء الجماعـى البـادى للعيـان حتـى لا يتـم الاعـتراف بالهزيمـة ويكـون بذلـك قـد سـعى إلى انهيـار الكتلـة المنتمـى إليهـا. لكـن كيـف تتكـون الكتلـة الحربيـة؟ ومـا هـذا الـذى يفـضى مـن لحظـةٍ لأخـرى إلى هـذا التماسـك العجيـب؟ ومـا هـذا الـذى يـؤدى بالنـاس فجـأةً إلى المغامـرة بـكل هـذا القـدر أو بـكل شىء؟ إن هـذا الحـدث مـا زال غامضًـا مـا يضطرنـا إلى الاقـتراب منـه بـشىءٍ مـن الحـذر. إنـه حـدثٌ عجيـب تمامًـا حينـما يقـرر المـرء أنـه مهـددٌ بخطـر الفنـاء الفيزيقـى، وهـو يعلـن عـن الخطـر صراحـةً أمـام الجميـع: "إننـى مسـتعدٌ للمـوت". هكـذا يـصرح المـرء وهـو يخفـى رغبتـه فى أثنـاء ذلـك: "لأننـى أسـعى إلى قتـل هـذا أو ذاك". وفى الواقـع يكـون التشـديد عـلى العبـارة الثانيـة: "إننـى أسـعى لقتـل هـذا أو ذاك وبذلـك يمكـن أن أمـوت قتيـلاً" إلا أن العبـارة الأولى وحدهـا التـى يقـر بهـا المـرء لنفسـه تكـون مـن أجـل بـدء الحـرب، مـن أجـل خـوض الحـرب، مـن أجـل غـرس فكـرة القتـال فى نفـوس رجـال معسـكره هـو. فـإذا مـا كان هـذا هـو البـادئ بالهجـوم فعـلاً أم لا فإنـه يكـون هـو الـذى يسـعى

دائمًا لخلق الافتراض أنه مهددٌ. ويكمن التهديد فى منح المرء نفسه رخصة قتل أحدٍ ما، وكل شخصٍ بحد ذاته يكون واقعًا تحت التهديد ذاته. فالتهديد هو الذى يساوى بين الجميع لأنه يستهدف الجميع. ومن هذه اللحظة تحديدًا، وهى لحظةٌ يتقاسمها الجميع، أى لحظة إعلان الحرب، يمكن أن يحدث الشىء نفسه للجميع. وإذا ما حاول الفرد النجاة من التدمير الفيزيقى فأسرع بالاحتماء بالمجتمع فإنه يكون كمن استغاث من الرمضاء بالنار. فالتهديد الرهيب يحيق بكل من ينتمى إلى مجتمع بعينه. فيقال لألف نفسٍ، كلٍ على حدة: "لسوف تموت"، على أن يكون ذلك فى اللحظة نفسها. فيتجمع هؤلاء معًا لمواجهة خطر الموت، ويسعون بسرعة إلى جذب من يتعرض للتهديد نفسه ليلتقوا فى جمعٍ كثيف، ويضطرون للدفاع فى اتجاهٍ مشترك. وسرعان ما يلتقى المستهدفون على كل الجانبين عادةً سواء كان ذلك على أرض الواقع أو فى التصور والشعور. ونشوب الحرب هو فى المقام الأول عبارة عن نشأة كتلتين. فحالما تتكون هذه الكتل يكون هدفها هو الحفاظ على نفسها كروحٍ وفعل. والاستغناء عن ذلك يكون بمثابة الاستغناء عن الحياة نفسها. ودائمًا ما تتعامل الكتلة الحربية مع كل ما هو خارجها على أنه "الموت". فالفرد الذى ظل حيًا بعد حروبٍ كثيرة يسلم قياده للوهم ذاته إذا ما خاض حربًا جديدة. والموت الذى يهدد فى الواقع كل فرد يُنظَر إليه على أنه حكمٌ على الجميع حتى ينشط الجميع لمواجهته، وهناك على نحوٍ أو آخر فتراتٌ معلنة للموت يهدد فى أثنائها جماعةً بعينها على نحوٍ متعسف "إنه يهدد الآن جميع الفرنسيين" أو "إنه يهدد الآن جميع الألمان". أما النشوة التى يستقبل بها الناس مثل هذا الإعلان فلها جذورها فى إحساس الفرد بالخوف من الموت الذى لا يرغب أحدٌ مواجهته منفردًا، لكن أمره يكون أسهل إذا ما واجهه اثنان، أى إذا ما حاول اثنان من الأعداء قتل كل منهما الآخر. لكنه لا يكون هو الموت نفسه إذا ما واجهه ألف شخص معًا. فأسوأ ما يمكن أن يحدث للناس فى حربٍ ما، وهو أن يقضى عليهم جميعًا، يكون هو ما ينقذهم من الموت فرادى وهو أخشى ما يخشونه. إلا أن أنهم لا يظنون مطلقًا أن هذا الأسوء سوف يحدث لهم، فهم يعتقدون فى إمكانية تحويل هذا الخطر الجماعى الموجه إليهم ليصدروه إلى العدو، وما عليهم إلا أن يسبقوه فى تنفيذه ولا يترددون لحظةً فى عملية القتل. فالعدو يأتى كأنه يسعى لمصيره، فهو من أصدر الحكم أولاً فقال: "سوف تموتون!" فحق عليه ما تمناه لغيره. ودائمًا ما يكون العدو هو

البادئ بذلك، فإن لم يكن هو المبادر إلى ذلك يكون هو من خطط له، فإن لم يكن قد فكر فى ذلك فإنه سرعان ما يتبادر ذلك إلى ذهنه. وتمنى الموت أمرٌ يتوافر بالفعل فى كل مكان ولا يضطر المرء إلى سبر أغوار الناس ليعرف ذلك. أما التوتر الشديد العجيب والذى لا يمكن إغفاله والذى يوحد كل العمليات الحربية فله سببان، فالمرء يريد أن يكون له السبق وأن ينشط داخل الكتلة. ومن دون هذا الأخير لا تكون لدى المرء أية فرصةٍ مطلقًا فى النجاح فى السبق. وما دامت الحرب مستمرة يكون على الناس البقاء كجمهور. وتنتهى الحرب عندما تنتهى الكتلة. وفرصة البقاء على قيد الحياة لفترةٍ ما توفرها الحرب للكتلة، ككتلة تساهم فى الحرب - كما يهوى الناس- مساهمةً كبيرةً للغاية. ومن الواضح أن كثافتها واستمرارها فى العصور الحديثة يرتبطان بالكتل المزدوجة الأكبر حجمًا، وهو ما توفره روح الحرب.

بللوارات الكتلة

إن ما أعنيه ببلورات الكتلة هو عبارة عن مجموعاتٍ بشرية صغيرة وصلبة، لها حدود ثابتة وتتسم بالاستمرارية بدرجة كبيرة، وهذا من شأنه أن يعمل على تفكيك الكتلة. ومن المهم أن تكون هذه المجموعات مرئيةً بحيث يمكن احتواؤها بنظرةٍ واحدة. وهى تعتمد على "وحدتها" على نحوٍ أعظم من حجمها، كما يجب الوثوق بأدائها وإدراك الهدف من وجودها. فالشك فى مهمتها يفرغها من كل معانيها، لهذا من الأفضل أن تظل دائمًا على ما هى عليه ولا ينبغى استبدالها بشىء آخر، إذ إن تماثل شكل ملبسها ومكان أدائها المحدد يعودان بالنفع عليها.

إن بلّورة الكتلة تتسم بالثبات والاستمرارية، حيث إنها لا تغير حجمها أبدًا. أما المنتمون إليها فلا بد أن يكونوا مدربين على أدائها أو فكرتها، ويمكنهم تقسيم المهام فيما بينهم على نحو يشبه أفراد الفرقة الموسيقية، ولكن من المهم أن يظهروا كوحدةٍ كلية مترابطة الأجزاء. فمن يراهم أو يعايشهم لا بد أن يشعر أولاً بأنهم لن يتفرقوا أبدًا، إذ لا يُعتد بحياتهم خارج نطاق البلورة، وحتى إذا ارتبط الأمر بأداء وظيفةٍ ما، فلا ينبغى التفكير مطلقا فى وجودهم الشخصى، تماما مثل وظيفة العازفين فى الفرقة الموسيقية، إنهم الأوركسترا. وفى حالاتٍ أخرى نراهم مرتدين زيًا موحدًا معًا، فهم على هذا النحو الجمعى دائما. إنهم أناس آخرون

تماما إذا ما خلعوا ملبسهم الموحد. ويمكن اعتبار الرهبان والجنود أهم أشكال هذا النوع، فهنا يعبر الزى عن ارتباط المنتمين للبلورة، حتى وإن ظهروا فرادى فإن علينا أن نفكر دائمًا فى تلك الوحدة الوثيقة التى ينتمون إليها، أى الدير أو الفرقة العسكرية.

إن وضوح البلورة وعزلتها وثباتها تبرز على نحوٍ هائل فى خضم الأحداث المثيرة داخل الكتلة ذاتها. أما النمو السريع الذى يستحيل التحكم فيه وخطر التفتت -وكلاهما يضفى على الكتلة ما تتسم به من قلقلة وتوتر - فإن أثرهما يتلاشى داخل إطار البلورة. فالبلورة تترفع عنهما حتى فى أقصى درجات الانفعال. ومهما كانت نوعية الكتلة التى منحتها البلورة الحافز، ومهما كان مدى انصهارها الظاهرى معها، فإن البلورة لا تفقد سماتها المميزة، فهى تتجمع بعد تفتتها على الفور.

إن الكتلة المنغلقة لا تختلف عن البلورة فى محيطها الأكبر فحسب، بل إنها تمتلك أيضا إحساسا بنفسها بأنها أكثر تلقائيةً، ولا يمكن أن تسمح لنفسها بأى تقسيمٍ خطر يتهددها فى أداء وظائفها، وهى لا تكاد تشارك البلورة فى الواقع إلا فى محدوديتها وتكرارها المنتظم، إذ إن كل ما فى البلورة له حد، فكل فردٍ ينتمى إليها ينشأ فى إطار حدى. وعلى الجانب الآخر فإن للكتلة المنغلقة حدودًا تتخذ شكل وحجم بنيان تتجمع فيه. وداخل هذه الحدود، حيث يصطدم كل من انتمى إليها بالآخرين، تبقى هذه الكتلة فى حالة مرنة. وهكذا يمكن حدوث مفاجآتٍ وسلوكٍ متغير غير متوقع طوال الوقت. وتستطيع هى كذلك فى صيغتها المحدودة أن تبلغ درجةً من الكثافة والتركيز تؤدى إلى انفجارها. وعلى الناحية الأخرى تكون بلورة الكتلة ساكنةً تمامًا، فهى ملتزمةٌ بنشاطها وواعيةٌ تمامًا بكل قولٍ أو فعلٍ.

إن استمرار بلورة الكتلة التاريخى أمرٌ يثير الدهشة. ورغم تكوين أشكالٍ جديدة باستمرار فإن الأشكال القديمة تظل موجودةً بإصرار إلى جانب الأشكال الجديدة، وقد تتوارى مؤقتًا فى الخلف وتفقد بعض حدتها ورسوخها، وتكون الكتل التى انتمت إلى هذه الأشكال قد انقرضت أو تم قهرها تمامًا وتستمر البللورات فى الحياة وحدها كمجموعاتٍ محايدة دون أن يكون لها تأثيرٌ خارجى. فهناك مجموعاتٌ صغيرة من الجماعات الدينية تظل موجودةً فى البلاد التى

تكـون قـد بدلـت عقيدتهـا تمامًـا. ويقينًـا تحـين اللحظـة التـى تنشـأ الحاجـة إليهـا فيهـا، مثلـما توجـد كتـلٌ مـن نـوعٍ جديـد قـد تتوافـق مـع انفعالهـا وإثارتهـا. فـكل المجموعـات المتجمـدة مـن هـذا النـوع ممكـن، فيمكـن إحياؤهـا مـن جديـد وتنشـيطها مـرةً أخـرى بـشىء مـن التغيـير الطفيـف فى شـكلها كبلـورة كتلـة. فـلا يـكاد يوجـد انقـلابٌ سـياسى قـوى إلا وتذكـر مثـل هـذه المجموعـات القديمـة القويـة المهجـورة، فيعـود إليهـا ويصقلهـا ويسـتخدمها عـلى نحـوٍ مـن القـوة يجعلهـا تبـدو كمجموعـاتٍ جديـدة تمامًـا ذات نشـاطٍ خطـر. وسـوف نـرى فيـما بعـد كيـف تعمـل بللـورات الكتلـة، كلٌ منهـا عـلى حـدة، وأثرهـا فى حشـد الكتلـة، وهـو أمـر لا يتبـدى إلا فى الحـالات الواضحـة. فالبلـورات تتنـوع أشـكالها وهـو مـا يفـضى إلى كتـل مختلفـة تمامًـا. ولسـوف يتعـرف القـارئ، مـن دون أن يشـعر بذلـك تقريبًـا، عـلى سلسـلةٍ منهـا خـلال هـذه الدراسـة.

رموز الكتلة

إن كل الوحدات الجماعية التى لا تتكون من بشرٍ وتظهر ككتلة أطلقُ عليها وصف "رموز الكتلة". ومن هذه الوحدات: البذرة والغابة والمطر والريح والرمل والبحر والنار. وكل من هذه الظواهر تنطوى على سماتٍ جوهرية للكتل. ورغم أنها لا تتكون من بشر فإنها تُذكِّر بالكتلة. وهى تبدو للناس فى الأسطورة والحلم والحديث والأغنية. ولا بد من أن نشير هنا إلى وجوب عزل هذه الرموز عن البللورات على نحوٍ حاد لا لبس فيه. فبلوارت الكتلة تقدم نفسها كجماعةٍ من البشر تلفت الانتباه من خلال تماسكها ووحدتها وتعاش كوحدةٍ، لكنها تتكون من أناسٍ نشطين بالفعل، جنود أو رهبان أو فرقة موسيقية كاملة. أما رموز الكتلة فهى على النقيض من ذلك، فهى لا تكون بشرًا ونشعر بها ككتلة جماهيرية. وقد تبدو معالجتها للوهلة الأولى غير متسقةٍ مع المادة، ولكننا سوف نرى أنه من الممكن تقريب الكتلة الجماهيرية نفسها على نحوٍ جديد ومثمر. إنه ضوءٌ طبيعى يُسلَّط على الكتلة من خلال تأمل رموزها. ولن يكون من الذكاء إن أغلقنا الباب أمام هذا الضوء.

النــار

ليس هناك بدٌّ من أن نقول مبدئيًا عن النار إنها تتساوى فى كل مكانٍ، سواء كانت واسعة الانتشار أم محدودةً أو نشبت هنا أو هناك أو أنها استمرت لوقتٍ طويل أو قصير، فنحن نتصور أن لديها دائمًا شيئًا متساويًا مستقلاً عن حالاتها. فصورة النار تمثل لدينا حريقًا قويًا ومحددًا وغير قابلٍ للإطفاء، فالنار تمتد إلى ما حولها كأنها حاملةٌ للعدوى. وهى لا تعرف الشبع، وعنفها الذى تنشب به فى الغابات وغابات الاستبس ومدنٍ كاملة هو من ضمن خصائصها الأكثر إثارةً للعجب. وقبل أن تنشب تكون الشجرة واقفةً بجوار الشجرة والمنزل بجوار المنزل، كل شىء منفصلٌ عن الآخر، كلٌّ مفردٌ قائم بذاته، لكن النار تربط بين كل ما هو منفصلٍ عن الآخر فى أقصر وقت. فالمواد المنعزلة والمختلفة تنصهر كلها فى اللهب نفسه، وهى تتساوى إلى حد أنها تختفى تمامًا، منازل ومخلوقات، كلٌّ تمسك به النار فهى حاملةٌ عدوى. والاستسلام أمام لسع النار يصيبنا كل مرةٍ بالدهشة. وكلما انطوى شىء ما على حياةٍ داخله تكون قدرته على الدفاع ضعيفةً. فالمواد الخالية من الحياة فقط هى التى تواجه النار التى لا يعرف نهمها المستعر أية حدود، فهى تريد احتواء كل شىء، فهى لا تشبع أبدًا. وتستطيع النار أن تنشب فى كل مكانٍ، فهى مفاجئةٌ. ولا أحد يدهش لنشوب نارٍ هنا أو هناك، فالمرء يتوقع النار فى أى مكانٍ. إلا أن فجائيتها تكون مثيرةً للعجب دائمًا، وهو ما يحثنا على البحث عن الأسباب. ولأن ذلك لا يمكن الاستدلال عليه غالبًا فإنه يساهم فى بث شعورٍ بالرهبة يكون مرتبطًا بالتصور عن النار، فهى لها حضورٌ قوى غامض ويمكن رؤيتها فى أى وقتٍ وأى مكان. والنار متعددة الوجوه، ولذلك فالإنسان يدرك أن النار تتواجد بأماكن كثيرةٍ بلا حصر، وهى أيضا فى حالاتها الفردية متعددة الوجوهإ إذ إننا نتحدث عن اللهب أو السعير، وعن ألسنة النار. ففى كتاب الهندوسى المقدس تُعرَّف النار بأنها "Agni" أى الملتهبة[34]. إن النار مدمرةٌ ويمكن مكافحتها والسيطرة عليها وإطفاؤها. وهى لها خصمٌ أساسى، هو الماء الذى يواجهها فى هيئة أنهارٍ وأمطار. وهذا الخصم كان موجودا دائمًا، وبكل خصائصه المتنوعة يكون ندًا للنار، حتى إنه يُضرَب المثل بعدائهما: "كالنار والماء"، وهو تعبيرٌ عن عداءٍ هو الأكثر تطرفًا والأكثر رفضًا للتصالح. وفى التصورات القديمة عن نهاية العالم يكون هذا أو تلك هو المنتصر. فـ"الطوفان " يقضى على كل مظاهر الحياة فى الماء، و"حريق الدنيا" يدمر العالم من خلال النار. وأحيانًا

مـا يظهـر كلاهــما متصالحـًا فى الأسـطورة نفسـها. إلا أن الإنسـان قـد تعلـم فى حياتـه الدنيويـة كيـف يسـيطر عـلى النـار، فـإن لم يكـن بوسـعه إلقـاء الماء عـلى النـار مـن حـين لآخـر، فإنـه قـد اسـتطاع الاحتفـاظ بالنـار منقسـمة. فهـو يحتجزهـا فى الأفـران والمدافـئ، وهـو يقـترب منهـا كـما يقـترب مـن الحيـوان حـين يكـون فى قدرتـه أن يدعـه يمـوت جوعـًا أو يخنقـه. ولعلنـا بذلـك نكـون قـد لمحنـا إلى آخـر الخصائـص الهامـة للنـار، فالتعامـل معهـا يكـون عـلى أنهـا كائـنٌ حـيٌّ نشـط يمكـن أن ينطفـئ. وإذا قمنـا بخنقهـا هنـا كليـةً فإنهـا تواصـل حياتهـا فى مواضـع أخـرى.

وإذ كنـا قـد أوجزنـا هـذه الملامـح المنفـردة للنـار، تظهـر أمامنـا عـلى أثـر ذلـك صـورةٌ مفاجئـة لهـا، فهـى الـشىء نفسـه فى كل مـكانٍ، وهـى تنتـشر بسرعـةٍ، وهـى حاملـةٌ للعـدوى، وهـى لا تشـبع، وهـى تسـتطيع النشـوب فى كل مـكان، وهـى مفاجئـةٌ للغايـة، وهـى متنوعـةٌ، وهـى مدمـرة، ولهـا عـدوٌ، وهـى تنطفـئ، وهـى تبـدو كأنهـا تحيـا وتُعامَـل عـلى هـذا النحـو. كل هـذه السـمات هـى صفـات الكتلـة، ويصعـب وضـع موجـزٍ أدق لخصائصهـا، لـذا كان علينـا اقتفـاء أثرهـا للنهايـة. إن الكتلـة تشـبه بعضهـا البعـض فى كل مـكان، وهـى فى جوهرهـا هـى عـين ذاتهـا فى أكـثر العصـور التاريخيـة والحضـارات اختلافـًا، وبـين البـشر مـن كل الأعـراق واللغـة والتربيـة. فـإذا نشـأت الكتلـة انتـشرت بأقـصى قـوة. وقليلـون هـم مـن يسـتطيعون التصـدى لعدواهـا، فهـى تسـعى لمواصلـة النـماء، ولا تعـرف أيـة حـدود مـن داخلهـا. إنهـا تسـتطيع أن تنشـأ فى أى مـكانٍ حيـث يجتمـع النـاس معـًا، (وتعتـبر) كـما تُعـد تلقائيتهـا وفجائيتهـا أمـرًا مخيفـًا. وهـى مختلفـة الوجـوه إلا أنهـا ترتبـط ببعضهـا البعـض، وهـى تتألـف مـن أنـاس لا حـصر لهـم، (وهـؤلاء لـن) ولا يُعـرَف عددهـم عـلى وجـه الدقـة. كـما أن الكتلـة يمكـن أن تكـون مدمـرةً، وهـى تُخمَـد وتـروَّض، وهـى تبحـث عـن عـدوٍ، وهـى تتـلاشى فجـأةً مثلـما نشـأت فجـأة، وغالبـًا عـلى نحـوٍ غـير واضـح. وهـى بطبيعـة الحـال لهـا حياتهـا الخاصـة القلقـة العنيفـة. وقـد أدى هـذا التشـابه بـين النـار والكتلـة إلى الربـط فيـما بينهـما بدرجـة حميمـة، إذ ينغمـر كل منهـما فى الآخـر وخُلـق كل منهـما فى خدمـة الآخـر. ومـن بـين رمـوز الكتلـة التـى أثـرت دائمـًا فى تاريـخ الإنسـانية كانـت النـار واحـدةً مـن أهـم الرمـوز وأكثرهـا تقلبـًا. ومـن الـضرورى أن نتنـاول شـيئًا عـن هـذه العلاقـات بـين النـار والكتلـة.

إن مـن بـين الملامـح الخطـيرة للكتلـة الجماهيرية التـى تـبرز مـرارًا وتكـرارًا وأكـثر مـا يسـترعى الانتبـاه هـو نزوعهـا لإشـعال النـار. ولهـذه النزعـة جـذورٌ مهمـة فى حريـق الغابـات. فالغابـة، التـى هـى مـن أقـدم رمـوز الكتلـة، يُشـعل نارهـا غالبـا بنـو البـشر مـن أجـل تشـييد مسـتوطنات لهـم. وهنـاك سـببٌ كافٍ لأن نفـترض أن البـشر قـد تعلمـوا التعامـل مـع النـار مـن خـلال إحـراق الغابـات. وهنـاك ارتبـاطٌ كاشـف بـين الغابـة والنـار منـذ فجـر التاريـخ، فقـد حلـت الحقـول فيـما بعـد محـل المواضـع المحترقـة بالغابـة، وحـين أراد الإنسـان التوسـع فى الحقـول اضطـر إلى تجريـف الغابـة مـن حـينٍ لآخـر.

أمـا الحيوانـات فكانـت تهـرب مـن الغابـة المحترقـة فقـد كان الخـوف الجماعـى أمـرًا طبيعيًـا. ويمكننـا القـول بـأن ذلـك كان رد الفعـل الأزلى للحيوانـات تجـاه الحرائـق الكبـيرة. وكان ذلـك ذات يـومٍ هـو رد فعـل الإنسـان كذلـك. إلا أن الإنسـان سيطر عـلى النـار حتـى حملهـا فى يـده ولم يعـد يخشـاها. وقـد طغـت سـطوته الجديدة عـلى خوفه القديـم بعـد أن دخـل كلاهـما فى تحالـفٍ مدهـش. إن الكتلـة التـى فـرت مـن النـار فى المـاضى تشـعر بانجذابهـا إليهـا الآن عـلى أشـد نحـو. فنحـن نعـرف الأثـر السـحرى للنـار عـلى الإنسـان بـكل أجناسـه. فالبـشر لم يكتفـوا بالأفـران والمدافـئ التـى تحتفـظ بهـا كل جماعـة سـكنية لنفسـها عـلى نحـوٍ خـاص، لكنهـم أرادوا نـارًا مرئيـة يتحلقـون حولهـا ويسـتطيعون كلهـم التجمـع حولهـا. فهنـاك تجـارب عجيبـة لخـوف الكتلـة القديـم يدفعهـا لـلإسراع إلى مـسرح الحريـق إذا كان فقـط كبـيرًا بمـا فيـه الكفايـة. فهنـاك يشـعرون بـشىءٍ مـن الحـرارة المضيئـة التـى وحـدت بينهـم فيـما مـضى. وفى أوقـات السـلم كان عليهـم الاسـتغناء عـن هـذه التجربـة غالبًـا. ومـن بـين أقـوى غرائـز الكتلـة إثـر تكونهـا هـو وجـود النـار بنفسـها وامتلاكهـا لجاذبيتهـا مـن أجـل نموهـا الشـخصى. ومـا زال هنـاك بعـض الآثـار الباقيـة الصغـيرة لهـذه العلاقـة القديمـة المهمـة يحملهـا المـرء معـه فى حقيبتـه أينـما ذهـب: علبـة أعـواد الثقـاب، وهـى تمثـل، بتسـاوٍ بديـع، غابـةً مـن سـيقان منفـردة زُوِّد كلٌ منهـا بـرأسٍ مشـتعل. ويسـتطيع المـرء إشـعال العديـد منهـا أو كلهـا معًـا. وهكـذا يشـعل حريقًـا مصطنعًـا بالغابـة لكنـه لا يفعـل ذلـك عـادةً لأن هـذا الشـكل المُختَـزل لمثـل هـذا الحـدث سـوف يخصـم منـه كل شىء مـن مجـده القديـم. إلا أن جاذبيـة النـار تسـتطيع أن تذهـب إلى مـدى أبعـد لا يقتـصر عـلى ركـض النـاس نحوهـا ليتحلقـوا حولهـا، فهنـاك عـاداتٌ قديمـة سـاوى فيهـا النـاس أنفسـهم بالنـار. ومـن أروع الأمثلـة عـلى ذلـك هـو رقصـة النـار لـدى قبيلـة الـ"نافايـو"

فى "نيو مكسيكو"[35] التى تقوم بإشعال نارٍ عظيمة ليرقصوا حولها طوال الليل، وفيما بين غروب الشمس وشروقها يقدم هؤلاء أحد عشر فصلاً تمثيليًا محددة. فما إن يغيب قرص الشمس حتى يأخذ منظمو الحفل فى الرقص العنيف فى بقعة جرداء، وهم شبه عرايا، ملطخين بالألوان، تاركين شعورهم الطويلة حرةً تتطاير حولهم، حاملين عيدانًا للرقص مزدانةً أطرافها بريش. وفى وثباتٍ عنيفة يقتربون من ألسنة اللهيب العالية. وهؤلاء الهنود الحمر يرقصون بتحفظٍ عشوائى، فهم يتكورون بعض الشىء ويحبون بعض الشىء. وفى الواقع تكون النار حاميةً إلى حد أن يضطر الملثون إلى الانحناء على الأرض حتى يقتربوا بما يكفى من النار، وهم يهدفون إلى وضع ريش أطراف عيدان رقصهم فى النار رافعين قرصًا يصور الشمس. وحول هذا القرص يواصلون رقصهم العنيف. وفى كل مرةٍ ينخفض القرص ويرتفع ثانيةً تبدأ رقصةٌ جديدة. وعند شروق الشمس تكون الطقوس المقدسة قد شارفت على نهايتها ليمضى رجالٌ طلوا أنفسهم باللون الأبيض أولاً ويشعلون أجزاءً من لحاء الشجر فوق الجذوة المحتضرة، ثم يتقافزون ثانيةً بعنف حول النار ويقذفون على جسدهم كله بالشعلات والدخان واللهب وهم يرقصون بالفعل وسط الجمار. واعتمادهم الطلاء الأبيض يعود لاعتقادهم أنه يحميهم من الإصابة بحروق. إنهم يرقصون النار نفسها. إنهم يتحولون إلى نارٍ وحركاتهم هى من لهبٍ. أما ما يحملونه فى أيديهم ويشعلونه فإنه يجعلهم يبدون كأنهم يشتعلون. وفى الختام ينثرون من الرماد المتوهج ومضات الشعلات الأخيرة حتى تشرق الشمس التى تتسلم النار منهم، فهى الشمس التى تسلموا منها النار عند غروبها. هكذا تكون النار هنا كتلة حية. ومثل أولئك الهنود الحمر هناك آخرون يصيرون فى أثناء الرقص "جاموسًا". أما هؤلاء فيؤدون دور النار فى أثناء الرقص، وتصير النار الحية بالنسبة للأجيال التالية هى النار التى تحول إليها أفراد الـ"نافايو" وقد صارت رمز كتلةٍ مجردًا. ومن الممكن التوصل إلى كتلة بعينها تغذى "رمز كتلة" معروف لدينا. والمرء هنا لا يتوجه فقط إلى التكاثر، فنزعة البشر إلى أن يصيروا نارًا كانت أيضًا نزعةً قوية فى الثقافات المتأخرة الأكثر تعقيدًا. فالمدن المحاصرة التى لم يعد لديها أمل فى النجاة كانت تقوم فى الغالب بإحراق نفسها. كما كان الملوك وبلاطهم الملكى المحاصَر يشعلون النار فى أنفسهم بعد يأسهم من فى النجاة. وهناك أمثلةٌ على ذلك من حضارات البحر المتوسط القديمة، وهو ما عرفه الهنود والصينيون بالقدر نفسه. أما العصور الوسطى التى انتشر فى أثنائها

الإيمان بنار الجحيم فإنها اكتفت بإحراق أفراد من المهرطقين بدلاً من إحراق كل الجمهور المجتمع. فهى ترسل على نحوٍ ما ممثلين عنها إلى الجحيم وترى أنهم بالفعل يحترقون. إن تحليل الأهمية التى اكتسبتها النار فى ديانات مختلفة سوف سيكون أمرًا عظيم الأهمية. إلا أن التحليل لن يكون مفيدًا لو لم يكن شاملاً ولذلك وجب إرجاؤه لما بعد. لكن يجدر بنا أن نتناول هنا أهمية إشعال النار الوجدانى بالنسبة للفرد الذى يقوم هو بذلك ويكون منعزلاً بالفعل ولا ينتمى إلى أية دائرةٍ لعقائد دينية أو سياسية. ويستعرض "كرابلين"[36] حالة امرأةٍ وحيدة متقدمة فى العمر قامت بإشعال عشرين حريقًا فى أثناء حياتها. كان أولها وهى ما زالت طفلةً. وقد وُجِّه إليها الاتهام ست مراتٍ بإشعال النيران وقضت ما يربو على أربعة وعشرين عامًا من حياتها فى السجون. "فلو أن هذا أو ذاك احترق" هكذا كانت تفكر فقد كانت فكرةً راسخة لديها تحديدًا عندما يكون فى حقيبتها أعواد ثقاب، فإن ذلك كان يدفعها، كقوة غير مرئية، فما كان ما يهمها هو مشاهدة النار. لكنها كانت تعترف بسعادةٍ بل وإسهابٍ. ولا بد أن تكون قد عايشت النار فى وقتٍ باكر كمادة إغراءٍ للبشر. وربما كان الالتفاف حول النار هو أول انطباعٍ لديها عن الكتلة. فالنار بوسعها أن تكون مماثلةً للكتلة نفسها. فادعاؤها واتهام نفسها يغذى شعورها بأنها صارت محط نظر الجميع وهذا هو ما تريده. فهى نفسها تصير نارًا ينظر الناس إليها. وهكذا تكون علاقتها بإشعال الحريق شخصيةً مزدوجة خرجت من النار. فهى فى كل الأعين فى وقتٍ واحد وهى توحد بين هذه الأعين قسرًا، فماضيها الذى سبق ذلك والذى عزلها مبكرًا حرمها من أية فرصةٍ للانضمام إلى كتلةٍ ما، بل حتى فى أثناء فترة سجنها الأبدى. فإذا ما انتهى حدث الحريق وهددتها الكتلة بأن تنفض عنها فإنها تبقى على قيد الحياة بأن تتحول هى نفسها فجأةً إلى نار. وهو ما يحدث بطريقةٍ بسيطة للغاية بأن تعترف بإشعال النار. وكلما كانت روايتها أكثر إسهابًا وكان لديها ما هو أكثر لتقوله طال النظر إليها، وطالت المدة فى بقائها هى نفسها نارًا. إن مثل هذه الحالات ليست نادرةً كما نظن حتى عندما لا تكون على هذا الحد من التطرف، وهى تقدم من منظور الفرد المنعزل دليلاً دامغًا على العلاقة بين الكتلة والنار.

البحر

إن البحر متعددٌ، فهو فى حركةٍ، ومرتبط ارتباطًا مكثفًا. أما تعدده فهو موجاته، فهى التى تفعل ذلك وهذه لا يمكن إحصاؤها، ومن يوجد فى البحر يكون محاطًا بها من كل جانب. وتساوى حركتها لا يستبعد اختلاف الحجم فيما بينها. وهى لا تعرف الهدوء أبدًا والرياح التى تأتيها من خارجها هى التى تحدد اتجاهها. فهى تندفع هنا وهناك طبقًا لأوامرها. واضطراب الأمواج الشديد يعبر كذلك عن شىء يشعر به الإنسان بالفعل فى كتلة أية جماهير، ففى علاقة الفرد المرنة بالآخرين يشعر كأنه هم، وكأن المرء لم يعد له حدودٌ خاصة به. إنها تبعيةٌ لا يمكن الفكاك منها، وشعورٌ بالقوة والعنفوان يمنحه الجميع معًا للفرد. أما هذا النوع الخاص من الارتباط فلا يعرفه البشر، كما أن البحر لا يفصح عنه وإنما يعبر عنه. وبخلاف الأمواج فهناك الكثير من سمات البحر، هى القطرات، إلا أنها منعزلة، فهى ليست سوى قطرات. وعندما لا ترتبط فيما بينها فإن صغر حجمها وفرديتها يدلان على انعدام أثرها، فهى تكاد تكون لا شىء. وهى توقظ شعورًا بالتعاطف لدى المتأمل لها. فالإنسان يغوص بيده فى الماء ثم يرفعها متأملاً القطرات التى تنساب فرادى ضعيفةً. إن التعاطف الذى يشعر به الإنسان نحوها يجعلها كأنها بشرٌ قانطون منبوذون. ولا يعتد بالقطرات مرةً أخرى إلا إذا فقد الإنسان قدرته على إحصاء عددها عندما تكون قد اندمجت جميعها تمامًا. وللبحر صوتٌ متغير للغاية يسمعه الإنسان، بل هو يعزف آلاف الأصوات. والإنسان يؤمن بكثيرٍ من قدرات الصوت. وأما أكثر ما يثير الإعجاب فى هذا الصوت فهو صلابته. فالبحر لا ينام أبدًا. فالإنسان يسمعه دائمًا ليل نهار عبر أعوامٍ وعقود من السنين. والإنسان يعرف أنه يُسمَع من قرونٍ. فى عنفوانه، وفى تمرده يذكّر بمخلوقٍ واحد يقتسم معه هذه السمات فى مثل شموليتها، وهى الكتلة. ولكنه أيضًا يمتلك الاستمرارية التى تفتقدها هى. فهو لا يتسرب ولا يختفى بين الحين والآخر، فهو هنا دائمًا، فأمنية البقاء فى الوجود، التى تعد أكبر أمانى الكتلة والتى تتبدد دائمًا، يقدمها هو كأمنيةٍ تم تحقيقها بالفعل. فالبحر هو الشامل الجامع غير القابل للامتلاء. فكل الأنهار والتيارات يمكن أن تصب فى البحر فيزداد حجمه من خلال ذلك بالفعل. وهو لا يتغير فالإنسان يشعر دائمًا بأنه هو البحر نفسه. وهو كبيرٌ على النحو الذى يستطيع أن يكون به مثالاً للكتلة التى تريد دائمًا أن تصير أكبر حجمًا. فعلى هذا القدر من الحجم تريد

أن تصبح الكتلة مثل البحر، ومن أجل الوصول إلى ذلك فإنها تجذب مزيدًا من الناس. وفى كلمة "المحيط" يكون البحر قد وصل إلى شىء كالسمو. فالمحيط كونىٌ، إنه هو الذى يمتد إلى كل مكانٍ والذى يمتد إلى كل بلد، وهو الذى تسبح عليه الأرض طبقًا للتصور القديم. فإن لم يكن البحر غير قابل للامتلاء فإن الكتلة لن يكون لديها تصور عن عدم شبعها هى. وقد لا تستطيع أن تكون واعيةً للغاية بداخلها، بدافعها العميق والغامض إلى جذب البشر أكثر فأكثر. أما المحيط الذى تراه بالطبع فإنه يعطيها حقًا أسطوريًا فى إلحاحها الذى لا يقهر فى الكونية. ورغم أن البحر متقلبٌ فى انفعالاته فهو يستطيع أن يهدأ ويهدد ويمكن أن ينطلق فى عواصف، لكنه هو دائمًا هنا. والإنسان يعرف أين يكون، فموقعه صريح لا يمكن حجبه، وليس لديه ما ينشأ دفعةً واحدة من فراغ، فهو يفتقر إلى سرية وفجائية النار وهى تقفز فى وجوهنا كأنها نشأت من عدمٍ، كحيوانٍ كاسر. وعلى هذا يتوقع ظهورها بأى مكان. أما البحر فالإنسان يتوقع وجوده هناك حيث عرف ذلك على وجه اليقين، ورغم ذلك لا يمكننا القول بأنه خالٍ من الأسرار، فسره لا يكمن فى فجائيته، وإنما فى فحواه. إنها حياة الكتلة الجماهيرية المكثفة المفعم هو بها، وهى من خصائص البحر. وهكذا تزداد روعة هذا الكيان سموًا من خلال التفكير فى فحواه. إنها كل النباتات وكل الحيوانات التى يحتويها بكمياتٍ هائلة. وليس للبحر حدودٌ داخلية، وهو غير مُقَسَّمٍ شعوبًا ومناطق، وهو يمتلك لغةً واحدة فى كل مكان، وليس هناك على نحوٍ أو آخر إنسانٌ يستطيع الامتناع عنه. إنه شامل إلى حد أنه لا يتناسب مع واحدةٍ من الكتل المعروفة لدينا. لكنه هو مثال الإنسانية المكتفية بذاتها التى يصب فيها كل شىء والتى تحتوى كل شىء.

المطر

فى كل مكانٍ يشعر الإنسان بالمطر قبل هطوله كوحدةٍ، خاصةً هناك، حيث يكون نادرًا. فهو يجىء كسحابةٍ فيغطى السماء أولاً ليظلم الجو قبل أن تمطر السماء ليغطى اللون الرمادى كل شىء. ومن تلك اللحظة، بعد التيقن من قدوم المطر، قد يتولد لدى الإنسان وعىٌ متوحد أكثر من الحدث نفسه. فالإنسان يعلق آمالاً كثيرة على انهماره، وقد تتعلق حياته بسقوط المطر. فلما كانت

تلبيـةَ النـداء ليسـت ممكنـةً دائمًـا فقـد اسـتعان الإنسـان بالسـحر. فهنـاك وسـائط عديـدة ومختلفـة لإغرائـه. ويسـقط المطـر فى قطـراتٍ كثيرة يراهـا النـاس، كـما يـرون، عـلى نحـوٍ خـاص، اتجاهها. وفى كل اللغـات يقـال: "إنـه يسـقط"، والإنسـان يـرى فى المطـر خطوطًـا كثـيرة متوازيـة. ومـن خـلال عـدد القطـرات المنهمـرة تـبرز وحـدة اتجاهها. ولا يوجـد اتجـاهٌ يـترك لـدى الإنسـان انطباعًـا أعظـم مـن اتجـاه السـقوط. فـكل الاتجاهـات الأخـرى، مقارنـةً بالسـقوط، تعتـبر ثانويـةً ومشـتقة منـه. فالسـقوط هـو أكـثر مـا يخشـاه الإنسـان منـذ القـدم. وهـو أول شىءٍ تسـلح الإنسـان لمواجهتـه، كـما عـرف كيـف يحمـى نفسـه مـن ذلـك، والفشـل فى ذلـك بعـد بلـوغ سـنٍ بعينهـا يُعتـبَر خطـرًا أو باعثًـا عـلى السـخرية. أمـا المطـر فهـو عـلى نقيـض الإنسـان، فهـو يجـب أن يسـقط. وليـس هنـاك مـا يسـقط عـلى هـذا النحـو مـن التكـرار والتنـوع مثـل المطـر. وقـد يقلـل عـدد القطـرات شـيئًا مـا مـن ثقـل وقسـوة السـقوط. فالنـاس يسـمعونها ترتطـم، وهـو مـا يمثـل صخبًـا لطيفًـا، ويشـعرون بهـا عـلى جلودهـم وهـو أيضًـا شـعورٌ لطيـف. وقـد لا يكـون مـن المهـم أن تتشـارك عـلى الأقـل ثـلاث حـواسّ فى معايشـة المطـر: البـصر والسـمع والشـعور. وكل هـذه الحـواس تتلقـاه كـشىءٍ متنـوع. أمـا الحمايـة منـه فهـى أمـرٌ يسـير، فهـو نـادرًا مـا يمثـل تهديـدًا خطـرًا عـلى الإنسـان. والإنسـان يشـعر بارتطـام القطـرات عـلى أنهـا نـوعٌ واحـد. وتـوازى الخطـوط وتشـابه الصخـب ونفـس الشـعور بالبلـل، الـذى تسـتدعيه كل قطـرةٍ عـلى الجلـد، كل ذلـك مـن شـأنه التأكيـد عـلى تسـاوى القطـرات. ويمكـن للمطـر أن يكـون أكـثر أو أقـل عنفًـا، فكثافتـه تتبـدل، وعـدد قطراتـه يخضـع لتقلبـاتٍ كبـيرة. ولا منـاص مـن توقـع زيادتـه المسـتمرة، بـل إن الإنسـان يـدرك أن لـه نهايـة. وهـذه النهايـة تعنـى أن قطراتـه سـوف تتسـرب فى الأرض دون أثـر. ومهـما صـار المطـر رمـزًا للكتلـة فإنـه لا يمثـل حالـة أوضـح وأكـثر اطـرادًا مـن الحالـة التـى تمثلهـا النـار. فالـدوام ليـس مـن سـماته. ولا يملـك شـيئًا مـن عـدم نضـوب البحـر إلا أحيانًـا فقـط. إن المطـر هـو الكتلـة فى لحظـة تخلصهـا مـن الكبـت، وهـو يـدل عـلى تفتتهـا أيضًـا. فالسـحب التـى ينشـأ عنهـا قـد اسـتحالت مطـرًا. ولعـدم قدرتهـا عـلى البقـاء معًـا فـإن القطـرات تتسـاقط، ويظـل الأمـر غـير واضـحٍ إن كانـت سـتتجمع ثانيـةً وكيـف.

النهر

إن أكثر ما يثير الانتباه فى النهر هو اتجاهه. فهو يتحرك بين ضفافٍ هادئة، يظل مروره بينها مرئيًا دائمًا. وعدم سكون كتلة مائه المتتابعة بلا توقف، ما دام النهر نهرًا، على الإطلاق وحسم الاتجاه كله حتى لو تبدلت بعض التفاصيل، والإصرار على الاتجاه نحو البحر والتغذى على أنهارٍ أخرى أصغر حجمًا - كل هذا له طبيعة كتلةٍ جماهيرية لا سبيل لإنكارها- وقد أصبح النهر كذلك رمزًا لها ولكنه لا يصل إلى حد الكتلة المطلق. فالحدود الملزمة لا تساع عرضه لا تمكنه من الازدياد على نحوٍ متصل أو غير متوقع، وهذا ما يجعل النهر كرمز للكتلة يحتفظ بشىءٍ مؤقت. فهو هنا من أجل المواكب. أما الناس الذين يشاهدون تلك المواكب على جانبى الطرقات فيكونون مثل الأشجار على الضفة، فالثابت يحتوى السائل. والتظاهر فى المدن الكبيرة يتخذ شخصيةً مشابهة للنهر. فمن أحياءٍ مختلفة تنثال الروافد حتى يتكون التيار الرئيسى بالفعل. فالأنهار على نحوٍ خاص هى رمزٌ للزمن الذى تتكون فى أثنائه الكتل، أى أنه الزمن الذى لم تكن حققت فيه بعد ما كانت تسعى للوصول إليه. والنهر يفتقر إلى انتشار النار وكونية البحر، لكنه يصل إلى الذروة فى اتجاهه. ولما كان الاتجاه فى اندفاع مطرد فإن هذا يعنى أنه كان موجودًا منذ البدء على نحوٍ ما. ويبدو اتجاه النهر كأنه معينٌ لا ينضب. وهو ما قد نعتبره أكثر أهميةً من هدفه. إن النهر هو الكتلة فى زهوها، هو الكتلة التى تمثل نفسها. كما يمثل وجوب رؤيته أساسًا لا يقل أهميةً عن الاتجاه. ومن دون ضفافٍ لا يكون هناك نهر، واصطفاف النباتات على ضفافه يماثل اصطفاف الإنسان. وقد نقول بأن للنهر وجهًا يسعى للظهور. فكل الأشكال الشبيهة بالنهر كالمواكب والتظاهرات تُظهر وجهها بأقصى قدرٍ ممكن. فهى تمتد قدر ما تستطيع، وهى تستعرض ذلك أمام من يشاهدونها بأقصى قدر. وهى تريد اكتساب الإعجاب أو الرهبة. أما هدفها المباشر فليس مهمًا بالفعل، وإنما المهم هو قدر بعد المسافة الذى يفصلها عن الهدف، أى طول الطرقات التى على امتدادها. وليس من الضرورة أن تكون كثافة المشاركين عالية، فكثافة المشاهدين أعظم. كما ينشأ نوعٌ خاص من الكثافة بين المشاركين والمشاهدين، فهى تشبه ما يسمى بـ"تقارب المحبين"، بين مخلوقين طويلين يحتضن أحدهما الآخر بروية ورفق. أما النمو فينتج عن المنبع من خلال روافد محددة بدقة. وتِساوى قطرات الماء فى النهر أمرٌ بديهى إلا أنه يحمل كل ما

هـو مختلـف. ومـا يحملـه مقارنـةً بمكانتـه يكـون أهـم وأكـثر تحديـدًا مـن بعـض مـا يحملـه البحـر والـذى يختفـى عـلى سـطحه الهائـل. فـإن لخصنا كل هـذا فإننا نسـتطيع القـول بـأن النهـر يعتـبر رمـزًا للكتلـة فى إطـار حـدود بعينهـا، وهـو مختلـفٌ عـن النـار والبحـر والغابـة والبـذرة، فهـو رمـزٌ لحالـةٍ مـا زالـت تحـت السـيطرة تسـبق مرحلتـى الانطـلاق والتخلـص مـن الكبـت اللتـين يكـون تهديدهـما أكـبر مـن حقيقتهـما، فالنهـر رمـزٌ للكتلـة البطيئـة.

الـغـابـة

الغابـة فـوق الإنسـان. فقـد تكـون منغلقـةً، وبمـا فيهـا كل أنـواع العشـب. وقـد يبـذل المـرء جهـدًا للدخـول إليهـا ومجهـودًا أكـبر للتقـدم داخلهـا. أمـا كثافتهـا الحقيقيـة التـى تميزهـا حقًـا فهـى أوراقهـا التـى هـى أعـلى. إنهـا أوراق جـذوعٍ مفـردة تتشـابك مـع بعضهـا البعـض مشـيدةً سـقفًا مرتبطًـا ببعضـه البعـض. إنـه هـو الـورق الـذى يمنـع الضـوء والـذى يلقـى بظـل الغابـة الكبـير الجماعـى.

والإنسـان بانتصـاب قامتـه يكـون مثـل الشـجرة فى اصطفافـه مـع غيرهـا مـن الأشـجار، لكنهـا أكـبر منـه كثـيرًا، ويكـون عليـه التطلـع إليهـا. ولا يوجـد بمحيط الإنسـان ظاهـرةٌ طبيعيـة أخـرى تكـون دائمًـا فوقـه وقريبـةً منـه وعـلى مثـل هـذا التنـوع. فالسـحب تنقشـع، والمطـر يتـسرب فى الأرض، والنجـوم بعيـدة. فليـس هنـاك مـن كل هـذه الظواهـر المتنوعـة المؤثـرة مـن علٍ مـا يقـارن بقـرب الغابـة الدائـم. ففيهـا يمكن الوصـول إلى قمـة الأشـجار، ويتسـلقها الإنسـان، ويجنـى ثمارهـا، وقـد عـاش الإنسـان أعلاهـا. أمـا الاتجـاه الـذى يجـذب نظـر الإنسـان، هـو اتجـاه خـاص بتغيرهـا، فالغابـة تنمـو دائمًـا إلى أعـلى. ومسـاواة جذوعهـا هـى فى حقيقـة الأمـر مسـاواةٌ للاتجـاه، فمـن يوجـد مـرةً بالغابـة يشـعر بالألفـة. فهـو ليـس عـلى قمتهـا حيثـما تواصـل نموهـا وهـو ليـس بالموضـع الـذى تصـل فيـه كثافتهـا أقـصى درجاتهـا. وهـذه الكثافـة تحديـدًا تمثـل حمايتـه، والحمايـة تـأتى مـن علٍ.

هكـذا صـارت الغابـة مثـالاً للتبتـل، فهـى ترغـم الإنسـان عـلى التطلـع ممتنًـا لحمايتـه العلويـة. إن التطلـع إلى كثـيرٍ مـن الجـذوع يصبـح هـو "التطلـع" عـلى إطلاقـه. والغابـة هـى التـى أسسـت للشـعور الكنـسى، أى المثـول بـين يـدى اللـه فى ظـل أسـاطين وأعمـدة. وتجليهـا الأكـثر مسـاواةً والأكـثر كـمالاً هـو مـا تبـدى فى قبـاب الكاتدرائيـة،

أى تضافر كل الجذوع فى وحدةٍ أعلى غير قابلة للانفصام. وهناك عنصرٌ آخر من عناصر الغابة لا يقل أهميةً، وهو عدم قابليتها للتحرك عن مكانها، فكل جذع بحد ذاته يضرب بجذوره فى ثبات فى باطن الأرض ولا يتراجع أمام أى تهديد من الخارج. أما صلابتها فمطلقةٌ، فهى لا تنحرف عن مكانها، حيث من الممكن قطع أشجارها، ولكن لا يمكن تحريكها. وعلى هذا صارت رمزًا للجيش المنتظم، جيش لا يولى الأدبار تحت أى ظرفٍ، جيش يتهاوى حتى آخر رجلٍ قبل أن يتنازل عن موطئ قدم من الأرض.

البذرة

إن البذرة، على نحوٍ أو آخر، هى غابةٌ مصغرة. فهى تنمو حيث كانت الغابة فى الماضى، لكنها لن تصل إلى ارتفاعها، وهى خاضعةٌ لسلطة الإنسان وعمله فهو من يبذر ويحصد، وهى مرنةٌ مثل العشب المعرض لكل آثار الرياح. وفى إطار قواعد عتيقةٍ يقوم الإنسان بعمله حتى تنمو البذور، وكل السنابل تنحنى معًا أمام حركة الرياح، فينحنى الحقل كله فجأةً، وفى أثناء العواصف يسقط تمامًا ليظل راقدًا طويلاً على هذه الحال، إلا أنه يمتلك قدرةً غامضة على الانتصاب مرةً أخرى، فإذا لم يتعرض لدمارٍ شامل فإن الحقل كله ينتصب فجأةً مرةً أخرى. أما السنابل فهى مثل الرءوس المثقلة فهى تنحنى لأحدهم أو تتحول عنه حسبما يهب الريح. والبذرة عادةً تكون أقل ارتفاعًا من الإنسان إلا أنه يظل دائمًا هو سيد البذور حتى لو صارت هذه أعلى من رأسه فهو يحصدها معًا، كما نمت معًا، وكما تم بذرها معًا، وحتى العشب الذى لا يفيد الإ نسان يظل معًا. ولكن إلى أى مدى يجمع المصير المشترك بين البذور التى تم بذرها وحصادها وحملها ودرسها وتخزينها، فما دامت تنمو فإنها تظل بجذورٍ ثابتة وهى لا تستطيع الابتعاد عن العيدان الأخرى، فكل ما يحدث دائمًا يحدث لكل العيدان. فهى موجودةٌ هنا بكثافة، وارتفاعها لا يختلف ارتفاع عن البشر، فهى فى مجموعها تعطى انطباعًا بالمساواة فى الارتفاع. أما إيقاعها، إذا ما حركتها الريح، فيبدو مثل الرقص البسيط. إن تساوى البشر فى مواجهة الموت تجسده صورة سقوط الحبوب، إلا فى حالة سقوطها فى وقتٍ واحد، ليذكّر ذلك بموتٍ محدد، أى الموت الجماعى

فى المعركة، حيث يتم "حصد" أرواح صفوفٍ كاملة. فالحقل يماثل ميدان[1] المعركة. إن مرونة الانحناء تصير خضوعًا، فهى مثل جمعٍ من رعايا مخلصين لا تخطر المقاومة ببالهم، فهم يقفون هناك فى طاعةٍ تنطوى على شىء من خوفٍ ما، على استعداد لتلقى كل الأوامر، حتى إذا جاءهم العدو دُهِسوا بلا رحمة.

إن أصل البذرة التى تخرج من كوم، أى من البذور، لهو أمرٌ مهم ذو دلالةٍ، مثله مثل أكوام الحبوب التى تُجمَع فيها فى النهاية، سواء كانت تحمل سبع سنابل أو مئة سنبلة، فإن الأكوام التى تُجمَع فيها تكون قد تكاثرت على نحوٍ أكبر من تلك التى جاءت هى منها. فإذا ما نمت وظلت معًا تكون قد تكاثرت. وفى هذا التكاثر تكمن بركتها.

الريح

مع تبدل قوة الريح يتبدل صوتها، إذ يمكنها أن تنشج أو تعوى بصوتٍ خافت أو مرتفع. ويصدر عن الريح كل أنواع الأصوات إلا قليلا. وعليه فإن أثرها كشىءٍ حى، بعد وقتٍ طويل من فقدان ظواهر طبيعية أخرى حيويتها بالنسبة للإنسان. وبخلاف صوتها فإن اتجاهها هو الأكثر لفتًا للانتباه. ومن المهم معرفة من أين أتت، كى تُسمى به. فإذا حاصرت الريح الإنسان من كل مكان فإن الضربات التى يتلقاها منها تترك آثارها فى جسده، فيشعر أنه مستسلم لها كليةً، وأحيط به، فهو فى مهب الريح، يتقلب فى عاصفتها ويطيح بكل شىءٍ يمسه.

إننا لا نرى الريح، لكن الحركة التى تدفع بها إلى السحاب وأوراق الشجر والأعشاب تجعلها ظاهرة، وتلك الظاهرة متعددة الوجوه. ففى أناشيد الـ"فيدا"[(37)] تظهر آلهة العواصف الـ"ماروتس" دائمًا فى شكلٍ جماعى، فهناك منها ثلاثة أضعاف السبعة أو ثلاثة أضعاف الستين، وهم إخوة فى العمر نفسه، يسكنون المكان نفسه، كما ولدوا بالمكان نفسه. وأما ما يصدر عنهم من صخب فهو الرعد أو أزيز الريح، وكل منهما يزلزل الجبال ويسقط الأشجار ويلتهم الغابات مثل أفيالٍ وحشية. وغالبا ما يُطلق عليهما لقب المغنين، أو غناء الريح. إنهما قويان

1 فى الأصل: حقل المعركة (المترجم)

غاضبان مروعان مثل الأُسود، لكنهما يتسمان باليقظة والحيوية ولهو الأطفال أو صغار الأبقار.

إن المساواة الموغلة فى القدم بين النفس والريح تبرهن على مدى تركيز الإنسان فى استشعاره الريح، لأن لها كثافة التنفس، لكن عدم رؤيتها تحديدًا هى التى تجعلها تتماثل مع الكتل غير المرئية، وبهذا تتساوى مع الأرواح التى تأتى عاتيةً مثل العاصفة والجيش الكاسر، فهى أرواحٌ فى سبيلها إلى الفرار التى عبر عنها كاهن الإسكيمو. فالرايات ما هى إلا ريح مرئية صنعناها بأيدينا، فهى مثل قطع جذاذ اقتطعت من السحاب، لكنها أكثر منها قربًا واختلافًا، وهى ثابتة لا يتغير شكلها، وهى تلفت الانتباه بالفعل من خلال حركتها. والشعوب تستغل الريح لرفع راياتها لتعلن امتلاكها للهواء فوق أراضيها.

الرمل

من بين صفات الرمل المهمة فى هذا السياق يمكن هنا إبراز صفتين هامتين للغاية وهما صغر الحجم، وتساوى أجزائه. وهذه هى الصفة الوحيدة لأننا نشعر بحبات الرمل بأنها متساوية من خلال صغر حجمها فقط. أما الصفة الثانية فهى لانهائية الرمل، وهى ما لا يمكن أن تدركها الأبصار، فهو هناك دائمًا أكثر مما تستطيع العين احتواءه، فإن ظهر فى أكوامٍ صغيرة فإننا لا ننتبه إليه، وهو يسترعى الانتباه حيثما يصعب حصر كميته، مثل الرمال على شاطئ البحر أو فى الصحراء. أما الحركة غير المنقطعة للرمل فينتج عنها أنه يوجد تقريبًا فى الوسط بين رموز الكتلة السائلة ورموزها الصلبة. وهو يكون أمواجًا مثل البحر ويمكن أن يتبخر ليتحول إلى سحب. أما الغبار فهو رملٌ أكثر دقةً. والتهديد هو أحد ملامحه المهمة، أى تهديد الرمل للإنسان الفرد كشىءٍ عدوانى هجومى. والصحراء متسقة الشكل ذات الحجم الهائل والخالية من الحياة تواجه الإنسان بقوةٍ لا يكاد يصمد أمامها. فهى تتكون من جزيئاتٍ متساوية لا تحصى. وهى تخنقه مثل البحر، لكن على نحوٍ أكثر خبثًا لأن ذلك يستغرق وقتًا أطول.

وقد اكتسب الإنسان خبرةً من خلال علاقته برمل الصحراء فاستخدم بعض أساليبه فى القضاء على أسراب كبيرة من أعداءٍ صغيرة الحجم، وذلك بعد أن رأى تماثل قضاء الرمل على كل شىء مع الخراب الذى يسببه الجراد. فالإنسان الذى

يـزرع النبـات يخـشى الجـراد مثـل خشـيته للرمـل، فـما يتركـه خلفـه لا يكـون سـوى صحـراء. ومـما يثـير العجـب هـو إمكانيـة الرمـل أن يكـون رمـزًا للنسـل. وهنـاك حقيقة شـهيرة بالكتـاب المقـدس تبرهـن عـلى مـدى أهميـة أمنيـة التكاثـر الهائـل. والمعنـى هنـا لا يقتـصر عـلى الكفـاءة وحدهـا، بـل يعنـى أن المـرء يمنـى نفسـه بمجموعـةٍ كبـيرة مـن أبنـاء أقويـاء مسـتقيمين، لكـن مـن أجـل مسـتقبلٍ مسـتمر عـبر الأجيـال، فـإن الأمـر يـدور هنـا حـول عـددٍ أكـبر وليـس حـول مجموعـات أو أسراب. وهنـا تكـون الأمنيـة (المرء هـى كتلـة) كـثرة النسـل. ومـن بـين الكتـل التـى عرفهـا الإنسـان كانـت كتلـة الرمـل هــى أكـبر كتلـة غـير محصـورة العـدد ولا يمكـن إحصاؤهـا. أمـا مـدى ضآلـة قيمـة مـا يتمنـاه الفـرد مـن النسـل فإننـا نـراه فى رمزٍ مشـابه لـدن الصينيـين، فهـم يسـاوون بـين النسـل وبـين أسراب الجـراد. وتكـون نوعيـة عدوهـا وتماسـكها واسـتمرارها أمـرًا ملزمًـا للنسـل. وهنـاك رمـزٌ آخـر يسـتخدمه الكتـاب المقـدس للنسـل وهـو النجـوم. وهنـا يتعلـق الأمـر بعددهـا الـذى لا يحـصى ولا يرتبـط بنوعيـة فـرادى النجـوم الرائعـة. وإنمـا المهـم هنـا هـو بقاؤهـا وأنهـا لا تذبـل وأنهـا دائمـة.

الـكـومـــة

لقـد قـام الإنسـان بجمـع كل الأكـوام التـى ألقـى بهـا شـيئا مـا. فوحـدة الكومـة التـى تتألـف مـن ثمـارٍ أو حبـوب مـا هـى إلا نتـاج نشـاطٍ مـا. فقـد عملـت أيـاد كثـيرة عـلى الحصـاد أو القطـف، وهـذان مرتبطـان بزمـنٍ محـدد مـن العـام لـه أهميـةٌ قاطعـة، وهومـا اسـتنبط منـه أقـدم تقويـم للسـنة. كـماً نظمـت الأعيـاد التـى يحتفـل فيهـا النـاس بفرحتهـم بالأكـوام التـى أنجـزوا جمعهـا. وهـم يعرضونهـا فخوريـن بهـا. وغالبًـا مـا تقـام هـذه الأعيـاد حـول هـذه الأكـوام. أمـا مـا تـم جمعـه فهـو ذو طبيعـةٍ مـن نـوع واحـد، أى نـوعٍ محـددٍ مـن الثـمار أو نـوعٍ محـددٍ مـن الحبـوب، وهـو مكـدس عـلى نحـو مكثـف بقـدر الإمـكان مـع بعضـه البعـض. وكلـما كان تكثيفـه أكـثر كان ذلـك أفضـل، لأن الكثـير منـه يكـون فى متنـاول اليـد فـلا يضطـر المـرء لجلبـه مـن مكانٍ آخـر بعيـد. وحجـم الكـوم أمـرٌ مهـم، فهـو مـن دواعـى فخـر النـاس. فعندمـا يـزداد الحجـم بمـا فيـه الكفايـة فإنـه سـيكفى الجميـع أو يكفـى لفـترةٍ طويلـة. ومـا إن يعتـاد الإنسـان عـلى الأخـذ مـن الأكـوام فـإن حجمهـا يتناقـص. وأحـب شىء هـو تذكـر السـنوات التـى جلبـت أكـثر الـبركات ثـراءً. ومـا إن عـرف الإنسـان الحوليـات حتـى قـام

بتدوينها. على أن أسعد السنوات والمحاصيل تتنافس مع بعضها البعض من سنةٍ لأخرى ومن مكانٍ لآخر، سواء كانت خاصةً بجماعةٍ أو أفراد فإن هذه الأكوام تكون نموذجية وتضمن الأمان لهم. وفى واقع الأمر فإنه يتم استهلاكها مرةً أخرى على نحوٍ مفاجئ تمامًا فى حالاتٍ معينة فى بعض الأماكن، أو تستهلك على نحوٍ بطيء أحيانًا حسب الحاجة. فاستمرارها محدودٌ ونقصانها، كما تصوره الإنسان، يكمن فيها من البداية. أما جمعها مرةً أخرى فيخضع لإيقاع الفصل السنوى أو فصل المطر. وكل أنواع الحصاد هو تكديسٌ إيقاعى، وهذا الإيقاع هو الذى يحدد إقامة الأعياد.

كومة الأحجار

ورغم ما سبق ذكره فإن هناك أكوامٌ أخرى مختلفة تمامًا، وهى لا تنطوى على لذة أو متعة تذكر. فالأحجار يتم تكديسها لأنه من الصعب تفكيكها ثانيةً من بعضها البعض. ويقوم الإنسان بوضع قواعد بنائها لتستمر لأمد بعيد كنوعٍ من التخليد. وهى لا ينبغى أن تتناقص أبدًا، فعليها أن تبقى على ما هى عليه. والأحجار لا مكان لنزهة لها فى أية معدة بشرية، وليس على الدوام يقيم بداخلها الإنسان. وفى أقدم شكل من أشكالها كان كل حجر على حدة مخصص لكل واحد من بنى البشر ساهم به فى تكديس أكوام منه، ثم تنامى فيما بعد حجم ووزن مكوناته، وصار لا يقدر عليه إلا جمع من البشر مع بعضهم البعض، ومهما كان تصورنا عن مثل هذه الأكوام فإنها تنطوى على جهدٍ جهيد لسبلٍ وعرة لا حصر لها. وغالبًا ما يمثل إنجازها لغزًا، فكلما قل فهمُنا لسر وجودها، وكلما تباعدت المسافات بيننا وبين أصول وجودها وطالت المسالك للوصول إليها، زاد تصورنا لعدد البشر المشاركين فى التشييد بالأحجار، وتفاقم الانطباع الذى تركته فى نفوس كل البشر الذين جاءوا بعد ذلك. فأولئك يهيمون بخيالهم فى مدى الجهد الإيقاعى الذى بُذل لكثير منها، ولم يتبق منه سوى هذا التذكار غير القابل للتدمير.

الـكـنـز

والكنـز كذلـك مثـل كل الأكـوام التـى تـم جمعهـا، إلا أنـه -عـلى النقيـض مـن الثـمار والمحاصيـل- يتكـون مـن وحـداتٍ لا سـبيل للتمتـع بهـا وغـير قابلـة للفنـاء. أمـا الأمـر المهـم فى ذلـك فهـو القيمـة الخاصـة بهـذه الوحـدات، وليـس أكـثر مـن ثقـة مـا تبقـى عـلى دوام هـذه القيمـة كفيلـة بالإغـراء لتكويـن الكنـز. إن الكنـز مـا هـو إلا كومـة ينبغـى أن تبقـى عـلى حالهـا وتنمـو دون إزعـاج. فـإن كان ملـكًا لأحـد الأقويـاء فـإن ذلـك يغـرى أقويـاءً آخريـن عـلى سرقتـه. فالمكانـة التـى يوفرهـا لمالكـه تجعلـه فى خطـر. وقـد نشـبت حـروبٌ ونزاعـات مسـلحة حـول الكنـوز، وكان فى مقـدور البعـض أن يعيـش حيـاة أطـول بأصغـر كنـز لديـه. ولذلـك نشـأت ضرورة الاحتفـاظ بـه سرًا. وعـلى هـذا نجـد أن مـا ينطـوى عليـه الكنـز مـن خصوصيـة يكمـن فى التوتـر القائـم بـين البريـق الـذى ينـشره والسريـة التـى تحميـه. وفى الكنـز تجلـت الرغبـة فى طفـرة العـدد فى أوضـح صورهـا. فـكل عمليـات رصـد العـدد التـى اسـتهدفت نتائـج مطـردةً عـن الماشـية أو البـشر، عـلى سـبيل المثـال، لا تسـتطيع أن تصـل إلى نفـس قيمـة وحـدات المعـدود مـن الكنـز. فصـورة المالـك الـذى يُحـصِى مـا بكنـزه سرًا قـد ترسـخت فى وعـى الإنسـان بعمـق لا يقـل عـن الأمـل فى اكتشـاف الكنـز فجـأةً، حيـث إنـه مخبـأ عـلى نحـو جيـد بحيـث لا يكـون ملـكًا لأحـدٍ ويظـل منسـيًا فى مخبئـه. وقـد اسـتبد هـذا الطمـع المفاجـئ فى الكنـوز بجيـوشٍ غايـة فى التنظيـم، فتقطعـت أوصالهـا، وبسـببها أيضًـا انقلبـت انتصـاراتٌ كثـيرة إلى النقيـض. وقـد وصـف لنـا بلوتـارخ فى حيـاة "بومبـاى"[38] تحـول جيـشٍ إلى كومـة مـن مقابـر الكنـوز قبـل خـوض كل معركـةٍ: "مـا إن رسـا بومبـاى بأسـطوله عنـد كارتاجـو حتـى انضـم إليـه مـن صفـوف الأعـداد سـبعة آلاف رجـلٍ. وكان هـو نفسـه قـد جـاء بسـت فـرقٍ كاملـة إلى إفريقيـا. وهنـا وقـع لـه حـادثٌ مضحـك، فقـد عـثر بعـض الجنـود عـلى مـا يقـارب الكنـز. فحصلـوا عـلى مبالـغ ضخمـةٍ مـن المـال. فلـما (اشـتهر) ذاع الأمـر، ظـن كل الجنـود الآخريـن أن هـذه الناحيـة لا بـد أن تكـون مليئـةً بكنـوزٍ كان أهـالى كارتاجـو قـد دفنوهـا آنـذاك بعـد نكبتهـم. فلـم يعـد بومبـاى قـادرًا أن يحسـم أمـرًا لأيـامٍ طويلـة مـع جنـوده الذيـن لم يكـن همهـم سـوى التنقيـب عـن الكنـز. فصـار يتجـول ضاحـكًا وهـو يشـاهد آلافًـا (كثـيرة) مـن البـشر وهـى تنقـب وتحـرث الأرض. وفى نهايـة المطـاف يئسـوا مـن الأمـر ودعـوا بومبـاى لقيادتهـم أينـما شـاء بعدمـا عوقبـوا بمـا فيـه الكفايـة عـلى حماقتهـم".

إلا أنـه إضافـة إلى تلـك الأكـوام الخفيـة السـاحرة توجـد أكـوامٌ أخرى يتم تكديسـها علنًـا، مثـل الضريبـة الطوعيـة عـلى أمـل أنهـا سـتكون بعـد ذلـك مـن نصيـب واحـدٍ فقـط أو قلـةٍ مـن النـاس، وإلى هـذه تنتمـى كل أنـواع "الرهـان" فهـو تكديـسٌ سريـعٌ للكنـوز. فالمـرء يعـرف أنـه بعـد الإعـلان عـن "الرهـان" سـوف يتـم تسـليمها لسـعيد الحـظ. وكلـما قـل عـدد هـؤلاء الذيـن سـيؤول إليهـم ذلـك فى النهايـة كان تعاظـم الكنـز وكانـت جاذبيتـه أقـوى. إن الطمـع الـذى يربـط النـاس بمثـل هـذه الحـالات يشـترط ثقـةً مطلقـة فى "وحـدة" الكنـز. ويصعـب عـلى المـرء وضـع تصـورٍ مبالغًـا فيـه عـن قـوة هـذه الثقـة. فالإنسـان يضـع نفسـه عـلى قـدم المسـاواة مـع وحـدة مالـه. والارتيـاب فى ذلـك يكـون بمثابـة الإهانـة لـه، واهتـزازه يصيبـه باهتـزاز ثقتـه فى نفسـه، وخفـض قيمـة وحـدة مالـه يصيـب الإنسـان نفسـه، فتخفـض قيمتـه هـو أيضًـا. فـإذا مـا زادت وتـيرة هـذه العمليـة، وبلـغ الأمـر حـد التضخـم، اجتمـع البـشر ممـن خُفِّضَـت قيمتهـم فى شـكلٍ يكـون علينـا مسـاواته برمتـه بكتـل الفـرار. فكلـما زادت خسـارة النـاس ازداد توحـد مصيرهـم. وإذا اسـتحوذ الذعـر عـلى فـرادى كثيريـن كانـوا قادريـن عـلى إنقـاذ شىء مـا لأنفسـهم، فـإن الأمـر يتحـول إلى فـرارٍ جماعـى لـدى كل الآخريـن الذيـن تسـاووا فى حرمانهـم مـن أموالهـم. وتبعـات هـذه الظاهـرة التـى كان لهـا مـدى غـير محـدد تاريخيـة فى هـذا القـرن (العشريـن) وسـيتم معالجتهـا فى فصـل خـاص بهـا.

الحشــد والحشــود

كانـت كلٌ مـن بلـورات الكتلـة والجماهـير، بالمعنـى الحديـث للكلمـة، قـد نشـأت عـن وحـدةٍ أكـثر قدمًـا واجتمعتـا فيهـا. وهـذه الوحـدة الأقـدم هـى مـا نسـميه بالحشـد أو التجمهـر. ففـى جماعـاتٍ صغـيرة متنقلـة وضيئلـة العـدد، تتكـون مـن عـشرةٍ إلى عشريـن رجـلاً، كان الحشـد هـو الصـورة المعبرة عـن الانفعـال الجماعـى التـى نراهـا فى كل مـكان. وممـا يميـز طبيعـة الحشـد هـو أنـه ليـس بمقـدوره التنامـى. فـلا يوجـد فى أى مـكان بـشرٌ بإمكانهـم الانضـمام إلى هـذه الجماعـة المتجمهـرة. فالحشـد أو التجمهـر يتكـون مـن مجموعـة رجـالٍ غاضبـين تكـون أعظـم أمانيهـم هـو ازديـاد عددهـم. وكل مـا يقومـون بـه يكـون فعـلاً جماعيًـا، سـواء فى خروجهـم للصيـد أو الحـرب، وهـم يـرون أنـه كان مـن الأفضـل لهـم أن يكـون عددهـم أكـبر. والمجموعـة المكونـة مـن أعضـاءٍ قليلـين إلى هـذا الحـد تعتـبر كل فـردٍ ينضـم إليهـا هـو نمـوٌ لهـا، واضـحٌ ومهـم ولا غنـى عنـه. فالقـوة التـى يضيفهـا هـذا إليهـا تماثـل 10/1 أو 20/1 لمجمـوع قوتهـا. والمكانـة التـى يحتلهـا يحترمهـا الجميـع، حيـث إنـه يمثـل بالفعـل إضافـةً إلى إجمـالى أسرة المجموعـة، وهـذه مكانـةٌ (مـا لـن يسـتطيع بلوغهـا) يصعـب أن يبلغهـا أحـدٌ منـا اليـوم.

وفى الحشـد الـذى يتشـكل مـن حـينٍ لآخـر مـن الجماعـة وتظهـر شـعورها بأنهـا "وحـدة" عـلى أقـوى وجـه، لا يشـعر الفـرد مطلقـا فى إطارهـا بالضيـاع كليـةً، مثلـما

يشعر الإنسان الحديث اليوم فى أية كتلةٍ جماهيرية أيًا كانت. ودائما ما يقف على حافة الحشد من حينٍ لآخر فى أحوالها المتبدلة وفى رقصاتها وحملاتها، ثم ينتقل إلى داخلها ليعود إلى الحافة على الفور، ثم إلى داخلها فى الحال. فإذا كونت مجموعة الحشد حلقةً حول نارٍ لها يكون لكل فردٍ جارٌ عن يمينه أو عن يساره، إلا أن ظهره يكون عاريًا، أى أنه يكون قد سُلِّم للوحوش. فالكثافة داخل الحشد تنطوى على خداعٍ ما، فقد يتلاحم أفرادها ويؤدون حركاتٍ إيقاعية موروثة على أنهم كثيرون، لكنهم ليسوا هكذا، فهم قليلون، وما ينقصهم من كثافةٍ حقيقية يعوضونها من خلال المبالغة.

ومن السمات الأربع الجوهرية للكتلة، كما عرفناها، هناك اثنتان منها فى الحشد يكون وجودهما تخيليا وعلى غير الحقيقة، وهذا يعنى أن هناك تمنيًا لاستدعائهما وتمثيلهما بإصرار شديد، وفى المقابل تكون الصفتان الأخريان حاضرتين فى الواقع على نحوٍ أكثر قوة. فالنمو والكثافة يتم تمثيلهما. أما المساواة وتحديد الهدف فحاضرتان. وأول ما يلفت الانتباه فى الحشد هو وضوح اتجاهه. إلا أن المساواة تتجلى فى هوس الجميع بالهدف نفسه، فهم مهووسون مثلاً بمشهد حيوانٍ ما يريدون قتله.

والحشد محدود على أكثر من وجهٍ، ليس فقط بقلة عدد المنتمين إليه نسبيًا، أى عشرة أفراد أو ربما عشرين أو أكثر من ذلك فى النادر، فهم يعرفون بعضهم البعض جيدًا لأنهم عاشوا معًا دائمًا، وتعلم كل منهم تقدير الآخر على أفضل وجهٍ فى أثناء أنشطةٍ مشتركة كثيرة. والحشد لا يتنامى على نحوٍ غير متوقعٍ إلا نادرا، إذ إنه يتكون من أعدادٍ قليلة من البشر يعيشون فى مثل هذه الظروف، مبعثرين للغاية. ورغم أنه يتكون من معارف فقط فإنه متفوق فى إحدى النقاط الخاصة بالكتلة التى تتسم بالقدرة على التنامى إلى ما لا نهاية. لو حدث أيضا أن تفرق الحشد جراء ظروفٍ معاكسة فإن أعضاءه يتلاقون من جديد، حيث إنه يحافظ دائما على استمرارية كيانه، وهذه الاستمرارية مكفولة ما دام المنتمون لهذا الحشد على قيد الحياة. ولعل الحشد يشرع فى تطوير قواعد وطقوس محددةً يجب عليه تنفيذها، فالأمر يقوم على وجود ثقة فيما بين أعضائه، فهم يعرفون هدفهم ولا يسمحون بإغوائهم نحو وجهة أخرى. ومثل هذه الإغراءات (نادرةٌ) لا قيمة ولا وزن لها بحيث يمكن أن تثنيهم عن عادةٍ لهم.

ومهما تضخم حجم الحشد فإن نموه الكمى يحدث بتفاهمٍ متبادل بين المشاركين. فثمة حشد يتكون من مجموعةٍ ثانية يمكن أن يصطدم بالأولى، وإن لم يتطور الأمر إلى صراع فيما بينهما، فمن المحتمل أن يجتمعا على أنشطةٍ عابرة. إلا أن كلاً منهما يحتفظ دائما بوعيه المستقل الذى قد يختفى فى حمية الفعل المشترك لفترةٍ ليست طويلة. لكنه يظهر مرةً أخرى عند توزيع المناصب الرفيعة أو فى طقوسٍ أخرى على كل حال. والشعور بالكتلة (بالجماهير) نفسها يظل أقوى من شعور الفرد عندما لا يشارك مجموعة حشده. إن شعور الكمى للحشد يكون حاسمًا فى إطار مستوى معين من الحياة الإنسانية الجماعية، ولا يمكن لأى شىء أن يزعزعه.

إن مفهوم الوحدة فى الحشد هنا يتناقض عن كل ما تتصف به أى وحدات أخرى مثل القبيلة والعشيرة والعائلة. فتلك المفاهيم السوسيولوجية المعروفة، مهما كانت مهمة، إلا أنها ساكنة لا حراك بها. وفى المقابل نجد الحشد وحدة لحركة ومظهرها يتجلى واضحًا فى فعل ملموس. ويتحتم على كل من شاء البحث فى أصول سلوك الكتل الجماهيرية أن ينطلق من هذا المفهوم. فالحشد هو أقدم أشكال الكتل الجماهيرية وأكثرها تحديدًا بين البشر. وقد كانت هناك بالفعل قبل أن توجد الكتل البشرية بمعناها الحديث. وهى تتبدى فى أنواعٍ مختلفة يمكن التعرف عليها جميعًا بسهولة. فقد كان نشاطها منذ عشرات الألوف من السنين على نحوٍ من كثافةٍ جعلها تؤثر فى كل مكان. وكذلك فى عصرنا، المختلف تمامًا فى شكله عما سبقه، ما زال هناك بعض الأشكال حيةً ترجع جذورها إليها مباشرةً.

وقد ظهر الحشد منذ الأزل فى أربعة أشكالٍ أو وظائف مختلفة كانت تتمتع بالمرونة، وهى تتداخل مع بعضها البعض بسهولة. لكنه من الواجب تحديد الاختلاف فيما بينها قبل كل شىء، فأكثر أنواع الحشد طبيعيةً وأصالةً كان حشد الصيد، إذ يُشتق منه مفهومنا عن الحشد. فهو يتشكل فى كل مكانٍ يرتبط فيه الأمر بحيوانٍ خطر أو قوى لا يستطيع الفرد وحده اقتناصه إلا بمشقة. وهو ينشأ أيضًا حينما تلوح غنيمة على نحوٍ جماعى، ولا يرغب مغتنميها فى ترك فرصة الفوز بها بقدر ما يمكن. فحجم الحيوان القتيل، سواء كان حوتًا أو فيلاً، وإن ظفر به أشخاص فرادى، فإن الأمر ينتهى إلى أن الفوز بالغنيمة يصير حقًا مشتركًا

لكثيرين يقتسمونها معًا. هنا تنتقل حشد الصيد إلى حالة التقسيم التى تحتل الصورة وحدها أحيانًا. إلا أن الحالتين ترتبطان ببعضهما البعض على نحوٍ وثيق ويجب دراستهما معًا، فمادة كليهما هى الغنيمة، وهى وحدها من دون غيرها، ومسلكها ونوعها، سواء كانت حيةً أو ميتة، التى تحدد بدقة سلوك الحشد الذى تكون على أثر وجوده.

أما الشكل الثانى الذى يشارك حشد الصيد بعض سماته ويرتبط به من خلال جسورٍ كثيرة فهو حشد الحرب، إذ إنه يتطلب حشدًا آخر من بشر يوجه إليهم الصراع ويشعرون بمعنى الحشد، وإن لم يتشكل بعد حتى هذه اللحظة. إن فى أقدم صور الحشد نجده ينتهى به الأمر إلى ضحيةً واحدة كان لا بد الثأر منها. وتكون على صلة قريبة بحشد الصيد فى مسألة تحديد هوية القتيل. أما الشكل الثالث فهو حشد المناحة وهو يتكون إثر اختطاف الموت لعضوٍ من الجماعة. فالمجموعة الصغيرة التى تعتبر أى خسارة أمرًا لا يمكن تعويضه نجد أن مثل هذه الظروف توحدها فى شكل حشد. وقد يكون الأمر بالنسبة لها بمثابة استعادة المحتضر والحصول على الكثير من قوته الحيوية قدر استطاعتها قبل أن يفارقها للأبد. وقد تسعى إلى تهدئة روع روحه حتى لا تناصب الأحياء العداء. وعلى أية حال فإن هذا الفعل يعد بمثابة الضرورة، فلا يكون هناك من بين هؤلاء من يستغنى عن ذلك على الإطلاق. أما الشكل الرابع فهو ما ألخصه من ظواهر عديدة يجمعها، رغم كل اختلافاتها، شىءٌ مشترك هو: نية التكاثر. فحشود التكاثر تتكون لأن المجموعة نفسها تسعى إلى زيادة عددها أو زيادة المخلوقات المرتبطة بها، حيواناتٍ كانت أم نباتات. وهى غالبًا ما تقدم نفسها على هيئة راقصين يعلقون أهميةً على معنى أسطورى محدد. وهؤلاء معروفون فى كل مكان يعيش فيه الناس معًا. ودائمًا ما يشعرون أنهم غير قانعين بحجم جمهورهم. وهى بذلك تكون إحدى السمات الجوهرية للكتلة الحديثة، أى إلحاحها فى زيادة حجمها قد ظهرت إذن فى عصر باكر للغاية فى تلك الحشود التى لا تستطيع النمو نموًا ذاتيًا على الإطلاق، فتضطر إلى اللجوء إلى شعائر وطقوس محددة. ومهما كان رأينا فى فاعلية ذلك فإنه علينا تذكر أنها قد أفضت بالفعل على مدار الزمان إلى تكوين كتل أكبر.

إن دراسة هذه الأشكال الأربعة المختلفة، كلٍ على حدة، من شأنه أن يؤدى إلى نتائج مفاجئة. فهذه الأشكال تميل إلى التداخل فيما بينها. وليس هناك ما هو أسرع تعاقبًا من تحول نوعٍ من الحشود إلى نوعٍ آخر. والنزوع إلى كتلة جماهيرية أكبر حجمًا يكمن بالفعل فى هذه الأشكال الصغيرة التى تبدو أكثر تماسكًا. أما تحولها فيكون غالبًا دافعًا لظواهر دينية من نوعٍ خاص. ولسوف نعرض مدى إمكان تحول حشود الصيد إلى حشود مناحة، وكيف كوَّنت أساطيرها وثقافاتها من أجل الحدث. فالنائحون ينكرون أنهم كانوا صيادين، والضحية التى يبكونها هى هنا من أجل أن يتبرأوا من إثم إراقة دمها بالصيد. أما اختيار تعبير "حشد" لهذا الشكل الأكثر قدمًا وتحديدًا للكتلة فلأنه يذكِّر بأنها تدين فى نشأتها لدى الإنسان بالفضل إلى النموذج الحيوانى، أى قطيع الحيوانات فى أثناء قنصها الجماعى. فالذئاب التى يعرفها الإنسان جيدًا وقام بتربيتها لتصير كلابًا على مدار آلاف السنين كانت قد أثرت فيه بالفعل فى زمنٍ باكر، وقد ظهرت كحيوانٍ أسطورى لدى شعوبٍ كثيرة كانت تتنكر فى شكل ذئاب لتسطو على آخرين وتمزقهم. وتلك الأساطير الأولى عن أطفال قامت الذئاب بتربيتهم. كل هذا وبعض أمورٍ أخرى تبرهن على مدى قرب الذئب من الإنسان. وحشد (حزمة) الصيد الذى نفهمه الآن على أنه قطيع من الكلاب تم ترويضها على الصيد الجماعى هو الأثر الباقى من تلك الصلة القديمة. ولقد تعلم البشر من الذئاب، فمن أجل أداء بعض الرقصات كان يتم تدريب البعض على أن يكون ذئبًا. ومن طبائع الأمور أنه كانت هناك حيواناتٌ أخرى ساهمت فى تكوين قدرات مماثلة لدى شعوب الصيد. وأنا أستخدم تعبير "حشد" للبشر بدلاً من الحيوانات لأنه يصف على خير وجه جماعية الحركة السريعة والهدف الواضح أمام العيون. فـ"الحشد" يبتغى غنيمة، يبتغى دمها وقتلها، فيسعى خلفها بسرعة دون أن تلوى على شيء من أجل الوصول إليها بالحيلة والمثابرة. وهى تجدد نشاطها من خلال نباحٍ جماعى. ولا ينبغى التقليل من أهمية هذا الصخب الذى يجمع أصوات الحيوانات المفردة، فهو يمكن أن يتراجع ثم يرتفع مرةً أخرى، لكنه لا ينبغى إساءة فهمه، فهو ينطوى على نية الهجوم. أما الضحية التى تم الفوز بها وقتلها فيقوم الجميع بافتراسها. فقد استقرت العادة على حصول كل مشاركٍ على نصيبٍ من القتيل. فهناك مبادئ حتى لدى "حشود" التقسيم الحيوانية، وهذا التعبير ينطبق أيضًا على بقية الأشكال الثلاثة الأساسية المذكورة رغم عدم توافر النموذج

الحيـوانى لـدى هـذه الأشـكال، كـما أننـى لم أعـثر عـلى كلمـة أفضـل مـن وضـوح وتوجه وكثافـة هـذه الأحـداث. وتاريخهـا كذلـك يـبرر اسـتخدام هـذا المعنـى فقـد اشـتقت مـن اللاتينيـة الوسـطى "Movia" وهـى تعنـى "الحركـة" أمـا الكلمـة الفرنسـية القديمـة "Meute" التـى نشـأت عنهـا فلهـا معنـى مـزودج، فقـد تعنـى "العصيـان والتمـرد" أو "حملـة صيـد" كذلـك. ومـا زال المعنـى الإنسـانى يحتـل المكانـة الأولى. والكلمـة القديمـة تحـدد بدقـة مـا يجـب فهمـه مـن ذلـك. وهـذا المعنـى المـزدوج هـو مـا يهمنـا كذلـك. فالاسـتخدام المحـدود للكلمـة بمعنـى "حشـد الصيـد" فإنـه لم يطـرأ إلا فى زمـنٍ متأخـر للغايـة، ولم يعـرف فى الألمانيـة إلا فى منتصـف القـرن الثامـن عـشر، بينـما كلـماتٍ مثـل "متمـرد" و"منشـق" و"تمـرد"، المشـتقة مـن الكلمـة الفرنسـية القديمـة، فإنهـا لم تظهـر إلا نحـو عـام 1500.

حشد الصيد

يتحرك حشد الصيد بكل السبل نحو شىء حى يسعى لقتله ليلتهمه بعد ذلك. وهكذا يكون هدفه الأقرب هو القتل. أما أهم وسائله فهى الملاحقة والحصار. وقد وضع نصب أعينه حيوانًا وحيدًا كبيرًا بعد أن لاذ الكثير من هذه الحيوانات بالفرار الجماعى. إن الفريسة تكون دائمًا فى حركةٍ فيقوم الصياد بملاحقتها ليتوقف الأمر على سرعة حركة الحشد، فعليه أن يركض أفضل من الوحش لكى يرهقه، فإن ارتبط الأمر بحيواناتٍ كثيرة تم النجاح فى حصارها، فالهروب الجماعى ينقلب إلى ذعر، فيحاول كلٌ من الحيوانات المطاردة على حدة أن ينجو من حلقة أعدائه معتمدًا على نفسه. وتمتد عملية القنص إلى مدى واسعٍ متبدل. وفى حالة قنص حيوان بمفرده يكون الحشد موجودا ما دام الحيوان دافع عن جلده. ويتصاعد الانفعال فى أثناء القنص متمثلا فى نداءات قناصٍ على قناص آخر، مستنفرةً التعطش إلى الدم. أما التركيز على هدفٍ واحد فيكون تركيزًا جماعيًا، إذا كان الهدف فى حركةٍ دائمة فيختفى عن الأنظار ليعاود الظهور ثانيةً وغالبًا ما يفقده الصياد فيبحث عنه ولا يدعه يفلت من نيته القاتلة ويحفظه فى حالة خوفٍ مميت. فكلٌ وضع الهدف نفسه نصب عينيه، وكلٌ يتوجه إلى الهدف نفسه. أما المسافة بين الحشد وهدفه فضيق تدريجيًا، وبالتالى تضيق على الجميع. والقنص ينطوى على خفقان قلب قاتلٍ مشترك، وهو يستمر طويلاً

فـوق أرضٍ متبدلـة، ويـزداد عنفًـا كلـما دنـا المرء مـن الحيـوان، فـإذا مـا لحـق بـه وحانـت لحظـة إصابتـه تسـنح فرصـة القتـل لـكل منهـم ليحـاول كل منهـم ذلـك، فيمكـن لـكل الحـراب والنبـال أن تتركـز عـلى مخلـوقٍ واحـد، فهـى بمثابـة اسـتمرار لنظـرات الاشـتهاء فى أثنـاء القنـص.

هكـذا تكـون لـكل حالـةٍ مـن هـذا النـوع نهايتـه الطبيعيـة. وبقـدر حـدة ووضـوح الهـدف المحـدد يكـون قـدر حـدة وفجائيـة تغـير الحشـد كذلـك حـال لحاقـه بـه، فيتراجـع الحـماس فى لحظـة القتـل ويقـف الجميـع فجـأةً بـلا حـراك حـول الضحيـة القتيلـة وتتكـون حلقـةٌ مـن الحاضريـن لينالـوا شـيئًا مـن الفريسـة، وقـد ينشـبون أسـنانهم مثـل الذئـاب فى الوحـش. إلا أن التهـام حشـد الذئـاب للحـم الحـى يرجئـه الإنسـان للحظـةٍ فيـما بعـد، ليجـرى التقسـيم دون نـزاع وطبقًـا لقواعـد محـددة. فـإذا مـا كانـت الغنيمـة كبـيرةً أو متعـددة وإذا كان حشـد كامـل قـام بالقنـص فـإن تقسـيم الغنيمـة بـين أفـراده يُعتـبَر أمـرًا لا مفـر منـه. أمـا عمليـة التقسـيم[39] التـى تبـدأ حينئذٍ فتكـون عـلى نقيـضٍ تـام مـن عمليـة تكويـن الحشـد، فحينئـذٍ يطلـب كل فـردٍ شـيئًا لنفسـه ويطمـح إلى نيـل الكثـير قـدر الإمـكان. فـإن لم يكـن التقسـيم منظـمًا بدقـةٍ متبعًـا قانونًـا ساريًا منـذ القـدم يقـوم عـلى تنفيـذه رجـال محنكـون فإنـه قـد ينتهـى بـلا شـك إلى القتـل أو العـراك القاتـل. ويعتـبر قانـون التقسـيم أقـدم القوانـين. وهنـاك صيغتـان لذلـك فطبقًـا لـلأولى يقتـصر التقسـيم عـلى دائـرة الصياديـن وحدهـم، وطبقًـا للأخـرى ينضـم إلى هـؤلاء أيضًـا النسـاء وأولئـك الرجـال مـن غـير المشـاركين فى حشـد القنـص. أمـا القائـم عـلى التقسـيم الـذى يكـون عليـه مراعـاة تنفيـذه بدقـة فـلا يجنـى أيـة منفعـة مـن وراء مهمتـه، وقـد يتنـازل هـذا عـن كل شىء لدواعـى التعفـف، كـما يحـدث لـدى بعـض أهـل الإسـكيمو بعـد عمليـات صيـد الحيتـان. وقـد يتطـرق الشـعور بجماعيـة الغنيمـة إلى مـدى بعيـد للغايـة، فقـد اعتـادت قبيلـة الـ"كورياكـن" بسـيبريا أن يقـوم القنـاص المثـالى بدعـوة الجميـع لنيـل نصيبهـم مـن غنيمتـه ليكتفـى هـو بمـا تبقـى منهـم.

وقانـون التقسـيم معقـدٌ ومتنـوع بالفعـل، فالجـزء الأفضـل مـن الفريسـة لا يكـون دائمًـا مـن نصيـب مـن وجـه إليهـا الضربـة القاتلـة، فأحيانًـا مـا يكـون صاحـب الحـق فى هـذا هـو أول مـن رأى الحيـوان الـكاسر، إلا أن مـن شـاهد عمليـة القتـل عـن بعـد فقـط يكـون لـه الحـق كذلـك فى جـزءٍ مـن الفريسـة. وفى هـذه الحالـة يعتـبر

المشاهدون شركاء فى عملية القنص، فهم شاركوا فى المسئولية عنها فيتمتعون بثمارها. وإنى أذكر هذه الأمثلة المتطرفة، وليس تلك القوانين المألوفة، من أجل توضيح مدى قوة شعور الوحدة الذى يبثه حشد القنص. ومهما كان انتظام عملية التقسيم فإن كلا الحدثين الحاسمين يُعتبر ضمانًا لقتل الفريسة.

حشد الحرب

إن الفــرق الجوهــرى بــين حشــد الحــرب وحشــد القنــص قائــمٌ فى الطبيعــة المزدوجــة لحشــد الحــرب. فــما دامــت قــوةٌ منفعلــة قامــت بملاحقــة رجــلٍ واحــد مــن أجــل عقابــه فــإن الأمــر إذ ذاك يــدور حــول شــكلٍ ونــوعٍ مــا مــن حشــد القنــص. فــإذا مــا كان هــذا الرجــل عضــوًا بجماعــةٍ أخــرى تــأبى تســليمه فإنــه سرعــان مــا يقــف حشــد فى مواجهــة حشــدٍ. ولا يكــون الفــارق بــين الأعــداء كبــيرًا، فهــم بــشرٌ، رجــالٌ، محاربــون. والصــورة المبكــرة عــن خــوض الحــرب هــى أن يكــون هــذان الفريقــان قريبــين إلى حــد يتطلــب جهــدًا للتمييــز بينهــما، فهــما يملــكان الأســلوب نفســه لمهاجمــة بعضهــما البعــض، وتســليحمها يكــون واحــدًا تقريبًــا. وعــلى الجانبــين تنطلــق هتافــاتٌ عنيفــة منــذرة بالخطــر. ولــدى كل طــرفٍ النيــة نفســها ضــد الآخــر. أمــا حشــد القنــص -عــلى نقيــض ذلــك- فلــه جانــبٌ واحــد، فالحيوانــات التــى تُهاجَــم لا تحــاول محــاصرة البــشر أو اقتناصهــم، فهــى تلــوذ بالفــرار، حتــى إن قامــت بالدفــاع أحيانًــا عــن نفســها فإنهــا تفعــل ذلــك فى اللحظــة التــى يريــد فيهــا المــرء قتلهــا. وفى الغالــب لا يكــون لديهــا القــدرة للدفــاع عــن نفســها ضــد البــشر.

أمــا الأمــر الحاســم، ذو الســمة المميــزة لحشــد الحــرب، فهــو وجــود حشــدين تتوافــر لــدى كل منهــما النيــة نفســها ضــد الأخــرى. فالقســمة عــلى اثنــين تكــون ضرورةً،

والحد الفاصل بينهما يكون مطلقًا ما دام الأمر يتعلق بحالة الحرب. ومن أجل إدراك حقيقة ذلك، أى ما ينويه كل طرفٍ ضد الآخر فإنه يكفى قراءة التقرير التالى، وهو عن قصة حملةٍ حربية لقبيلة من أمريكا الجنوبية تدعى "تاوليبانج" ضد أعدائها من قبيلة "بيشاوكو"[40]، والتقرير منقول حرفيًا عن رجلٍ من قبيلة "تاوليبانج" ويتضمن كل ما يجب معرفته عن أقدم حشد للحرب. أما الراوى فكان مقتنعًا وسعيدًا تمامًا بالمعركة وهو يصفها من داخلها من وجهة نظره وفى نوع من التجرد الذى هو حقيقىٌّ ومرعب، ومن الصعب العثور على مثيلٍ له.

"فى البدء كانت هناك صداقةٌ بين التاوليبانج والبيشاوكو. ثم حدث بينهما نزاعٌ بسبب النساء، فقتل فى البداية البيشاوكو بعض أفراد التاوليبانج كانوا هاجموهم فى الغابة، ثم قتلوا شابًا وفتاة من التاوليبانج وامرأةً، ثم ثلاثةً فى الغابة. وهكذا كانت البيشاوكو قد شاءت الخلاص من كل قبيلة التاوليبانج شيئًا فشيئًا. وهنا جمع مانيكوزا قائد التاوليبانج الحربى كل أفراد قبيلته. وكان للتاوليبانج ثلاثة زعماء: مانيكوزا زعيم القبيلة واثنان من مساعديه، كان أحدهما قصير القامة بدينًا، لكنه كان رجلاً شجاعًا للغاية، وكان الآخر أخاه. ثم كان هناك أيضًا الزعيم العجوز والد مانيكوزا. ومن بين رجاله كان هناك رجلٌ قصير وشجاع للغاية من قبيلة أريكونا المجاورة. وكان أن أمر مانيكوزا بتجهيز كتلةٍ مخمرة من الكاشيرى، خمس قصعاتٍ من القرع ملآنة. ثم أمر بصناعة ستة زوارق. وكان البيشاوكو يسكنون الجبال. وقد أخذ التاوليبانج امرأتين معهم، وكان عليهما إضرام النار فى المنازل. ثم أبحروا إلى هناك. ولست أدرى فى أى نهر. ولم يأكلوا شيئًا، لا فلفلاً ولا أسماكًا كبيرة ولا حيوانات صيدٍ، فلم يتناولوا سوى أسماك صغيرة حتى نهاية الحرب. وقد أخذوا معهم شيئًا من ألوان وجيرًا أبيض ليطلوا أنفسهم بها. فلما وصلوا إلى مشارف سكن البيشاوكو أرسل مانيكوزا خمسة رجالٍ إلى مسكن البيشاوكو للاستطلاع إن كانوا جميعًا هناك. وقد كانوا جميعًا هناك، وكان بيتًا كبيرًا به أناس كثيرون محاطًا بسورٍ من الشجر الشائك، فعاد المستطلعون وأخبروا الزعيم بذلك، وهنا نفخ العجوز والزعماء الثلاثة سحرًا فى كتلة الكاشيرى المخمرة وألقوا سحرهم أيضًا على الألوان والجير الأبيض والمقامع الحربية، ولم يكن لدى الكبار سوى الأقواس والنبال بنصالها الحديدية، ولم يكن معهم أسحلة نارية. أما الآخرون فكان لديهم بنادق وعيدان من الصفيح، وكان مع كل منهم جوال من الصفيح وست صناديق من المسحوق. وقد ألقى السحر على كل هذه الأشياء

أيضًا ثم طلوا أنفسهم بخطوطٍ حمراء وبيضاء: بدءًا من الجبهة خطٌ أحمر أعلى، وخطٌ أبيض أسفل بطول الوجه كله. ورسموا على الصدر ثلاثة خطوطٍ بالتبادل من الأعلى باللون الأحمر ومن أسفل باللون الأبيض. وفعلوا الشيء نفسه على الزندين حتى يستطيع المحاربون التعرف على بعضهم البعض. وقامت النساء بطلاء أنفسهن على نفس النحو. ثم أمر مانيكوزا بسكب ماءٍ على الكاشيرى. وكان المستطلِعون قد أخبروا عن وجود أناسٍ كثيرين فى البيوت. وقد كان هناك بيتٌ كبير وثلاثةٌ أخرى قائمةً على جانبيه. أما البيشاوكو فكانوا أكثر عددًا بكثير من التاوليبانج الذين كانوا خمسة عشر رجلاً فقط إضافة إلى الرجل من قبيلة الماريكونا. ثم كان أن احتسوا كاشيرى، كلٌ منهم قصعة ملآنة، شربوا كثيرًا من الكاشيرى ليمدهم بالشجاعة. وعقب ذلك قال مانيكوزا: (على هذا الرجل إطلاق النار أولا! وعندما يقوم بشحن بندقيته ثانيةً يقوم الآخر بإطلاق النار واحدًا تلو الآخر!) ثم قام بتوزيع رجاله على ثلاثة أقسام، كلٌ منها يضم خمسة رجالٍ فى حلقةٍ واسعة حول المنزل، وقال: (لا تطلقوا طلقةً واحدة بلا فائدة! فإذا سقط رجلٌ دعوه راقدًا وأطلقوا النار على الذى ما زال واقفًا). ثم تقدموا فى ثلاثة أقسامٍ منفصلة والنساء خلفهم بقصعات القرع مليئة بالشراب. فلما بلغوا حدود السافانا قال مانيكوزا: (ماذا علينا فعله الآن؟ إنهم أناسٌ كثيرون للغاية فعسى يكون من الأفضل أن نعود لجلب رجال أكثر!) وهنا قال رجل الأريكونا: (كلا، إلى الأمام، فإنى عندما أندفع بين كثير من الناس لا أجد من أقتله!) -وقد يعنى هذا: هؤلاء الناس الكثيرون لا يكفون طلقاتى لأننى أقتل بسرعةٍ شديدة- فرد مانيكوزا: (إلى الأمام! إلى الأمام!) مطالبًا الجميع بذلك. فكان أن اقتربوا من البيت وكان الوقت ليلاً وكان بالبيت فى هذه الأثناء طبيبٌ ساحر، كان يلقى بتعاويذه على مريضٍ، فقال هذا: (هناك أناسٌ قادمون) محذرًا ساكنى البيت. وهنا قال رب الدار، زعيم البيشاوكو: (دعهم يأتون! فإنى أعلم من هم! إنه مانيكوزا! إلا أنه لن يعود من هنا!) فحذر الطبيب الساحر ثانيةً وقال: (إن الناس صاروا بالفعل هنا!) فقال الزعيم: (إنه هو ماينكوزا. إنه لن يعود، ولسوف ينهى حياته هنا!) هنا كان مانيكوزا قد قطع النبات المتسلق الذى يربط سور الشجر الشائك لتندفع كلتا المرأتين، فقامت إحداهما بإضرام النار بالبيت الأول عند المدخل والأخرى عند المخرج. وقد كان بالبيت أناسٌ كثيرون للغاية. ثم انسحبت كلتا المرأتين ثانيةً خارج سياج الشجر الشائك، فنشبت النار بالمنزل. وتسلق

رجلٌ عجوز إلى أعلى ليطفى النيران، وهنا خرج أناسٌ كثيرون من البيت وأخذوا يطلقون نيرانًا كثيفة من بنادقهم لكن من دون هدف لأنهم لم يروا أحدًا، وقد فعلوا ذلك من أجل بث الذعر فى نفوس الأعداء. وأراد زعيم التاوليبانج إصابة أحد أفراد البيشاوكو بالسهم إلا أنه أخطأه، وكان رجل البيشاوكو فى حفرة بالأرض، وعندما وضع العجوز السهم الثانى أصابه البيشاوكو ببندقيته فأرداه قتيلاً، ورأى مانيكوزا أن أباه قد مات. وهنا أطلق المحاربون نارًا كثيفة وقاموا بحصار البيت حصارًا تامًا، فلم يعد للبيشاوكو أى منفذ يهربون منه. وهنا اقتحم المكان أحد محاربى التاوليبانج ويدعى (إوانا) وتبعه أحد مساعدى الزعيم وخلفه أخوه ثم مانيكوزا، وخلفه رجل الأريكونا، وظل الباقون بالخارج ليقتلوا البيشاوكو الذين يلجأون للفرار، واندفع الخمسة الآخرون إلى وسط الأعداء وقتلوهم بمقامعهم، وأطلق البيشاوكو النار عليهم إلا أنهم لم يصيبوا أحدًا منهم. وهنا قتل مانيكوزا زعيم البيشاوكو وقتل مساعد الزعيم مساعد زعيم البيشاوكو، كما قام أخوه ورجل الأريكونا بقتل الآخرين بسرعةٍ ولم يفر سوى فتاتين كانتا ما زالتا تعيشان عند مجرى النهر الأعلى وكانتا متزوجتين من قبيلة التاوليبانج. أما الآخرون فقد قُتلوا جميعًا. وبكى الأطفال فألقوا بكل الأطفال إثر ذلك فى النار. وكان واحد من البيشاوكو قد بقى بين الأموات على قيد الحياة وقد لطخ جسده تمامًا بالدم ورقد بين الموتى ليوحى إلى الأعداء أنه ميت. وهنا أمسك التاوليبانج بمن سقط من البيشاوكو الواحد تلو الآخر وشطروهم بمدينة الغابة إلى قسمين، فلما وجدوا الرجل حيًا أمسكوا به وقتلوه ثم أخذوا زعيم البيشاوكو القتيل وربطوه بذراعيه المشدودتين إلى أعلى فى شجرة وأخذوا يطلقون عليه ما تبقى لديهم من ذخيرة إلى أن مزقوه إربًا. وفى أعقاب ذلك أمسكوا بامرأةٍ ميتة ليقوم مانيكوزا بفتح عضوها التناسلى بأصابعه على اتساعه وخاطب إوانا: (انظر هنا، إنه مناسب لك للنفاذ فيه).

أما باقى أفراد البيشاوكو الذين كانوا لا يزالون فى البيوت الصغيرة الأخرى فإنهم فروا متفرقين وتوزعوا على جبال المنطقة. وهم يعيشون هناك إلى اليوم كأعداءٍ ألدّاء للقبائل الأخرى وقتلى مختبئين يترصدون التاوليبانج تحديدًا. أما زعيمهم القتيل فقد قام التاوليبانج بدفنه فى المكان. وكان هناك اثنان من بينهم قد جرحوا بعيدان الصفائح جرحًا بسيطًا فعادوا إلى البيت وهتفا: "هيى-هيى-هيى-هيى-!" وفى البيت وجدا الأرائك الصغيرة جاهزة من أجلهما."

يبـدأ النـزاع حـول نسـاء، فيُقتَـل فـرادى مـن النـاس، ولم يلحـظ ذلـك إلا بعـد أن قـام الآخـرون بالقتـل. ومنـذ تلـك اللحظـة يسـود اعتقـادٌ راسـخ بـأن الأعـداء يريـدون القضـاء عـلى قبيلـة التاوليبانـج كلهـا. أمـا الزعيـم فـكان يعـرف رجالـه فاسـتدعاهم حينـذاك، ولتحـرى الدقـة لم يكـن هـؤلاء كثيريـن، كانـوا سـتة عـشر رجـلاً مـن بينهـم رجـلٌ مـن قبيلـةٍ مجـاورة. وكان كلٌ منهـم يعـرف دور رفيقـه فى أثنـاء الحـرب وقـد فُـرِض عليهـم صـومٌ قـاس، فلـم يُسـمح لأحـدٍ إلا بتنـاول أسـماكٍ صغـيرة بائسـة. وقـد أُعِـد مـن الكتلـة الـمخمرة شرابًـا قويًـا لينهلـوا منـه قبـل النـزال فيمنحهـم الشـجاعة، كـما طلـوا أنفسـهم بألـوان كنـوعٍ مـن الـزى الجماعـى حتـى يتعـرف المحاربـون عـلى بعضهـم البعـض. وقـد اعتُـبِر كل شيء عتـادًا حربيًـا، وتحديـدًا الأسـلحة التـى أُلقِـى عليهـا السـحر، وهكـذا يكـون قـد أُضفـى عليهـا قـوةٌ سـحرية لتحـل عليهـا البركـة. فـما إن وصلـوا إلى مقربـة مـن مسـتوطنة الأعـداء حتـى أرسـلوا فريـق اسـتطلاع ليتأكـدوا مـن أن الجميـع هنـاك. وقـد كان الجميـع هنـاك. وكان الأمـل أن يكـون جميـع هـؤلاء هنـاك ليقـضى عليهـم جميعًـا فى آنٍ واحـد. وهنـاك كان بيـت كبـير غاصًـا بأنـاسٍ كثيريـن للغايـة، مـا مثـل قـوة خطـرة لتفوقهـم فى العـدد. وهـو مـا دفـع السـتة عـشر لتنـاول الـشراب ليمدهـم بالشـجاعة. وكان أن أعطـى الزعيـم تعليماتـه، تمامًـا كـما يفعـل الضابـط، إلا أنـه عندمـا وصـل إلى قـرب منـزل الأعـداء استشـعر مسـئوليته عـن ذلـك فقـال: (إنهـم أنـاس كثـيرون للغايـة) وسـاوره الـتردد: فهـل يعـودون لجلـب المـدد؟ إلا أنـه كان مـن بـين محاربيـه رجـلٌ لا يجـد مـا يكفيـه مـن الأعـداء ليقتلهـم، فبثـت عزيمتـه الثقـة فى الزعيـم الـذى أصـدر الأمـر: (إلى الأمـام!).

كان الليـل قـد حـل، لكـن النـاس بالبيـت كانـوا يقظـين، فهنـاك كان سـاحرٌ يقـوم عـلى عـلاج أحـد المـرضى. وكان الجميـع قـد التفـوا حـول الاثنـين. أمـا السـاحر الـذى كان يشـعر بريبـةٍ أكـثر مـن الآخريـن وكان مسـيطرًا عـلى كل حواسـه، فقـد استشـعر الخطـر فقـال: (هنـاك أنـاسٌ قادمـون) وسرعـان مـا أعقـب ذلـك بقولـه: (هـا قـد صـار النـاس هنـا) إلا أن الزعيـم بالبيـت كان يـدرك سر الأمـر عـلى نحـوٍ دقيـق، فهـو لديـه عـدوٌ عـلى يقـينٍ مـن عدائـه، لكنـه موقـن أيضًـا أن عـدوه لم يـأتِ إلا ليلقـى حتفـه هنـا، إنـه لـن يعـود مـن هنـا، إن ختـام حياتـه سـيكون هنـا. ولقـد كان عمـى هـذا الـذى سيُقضى عليـه جديـرًا بالملاحظـة، بقـدر تـردد ذاك الـذى سيشـن الهجـوم. فأمـا المتهـدد فلـم يفعـل شيئا لتحـل بـه النكبـة. وسرعـان مـا يحـترق البيـت الـذى أضرمـت النسـاء النـار فيـه ليندفـع مَـن بداخلـه إلى الخـارج، فلـم يسـتطيعوا رؤيـة مـن أطلـق

النـار عليهـم مـن جـوف الظـلام. وقـد صـاروا أهدافًـا مرئيـة ليندفـع الأعـداء مقتحمـين، وأخـذوا يضربونهـم بالمقامـع. وقـد انتهـت قصـة انهيارهـم بعبـاراتٍ قليلـة. ولم يكـن الهـدف هنـا هـو النـزال بـل الدمـار. فأمـا الأطفـال الباكـون فقـد أُلقِـى بهـم فى النـار. وأمـا القتـلى فقـد مُزقـوا إربًـا الواحـد تلـو الآخـر. وقـد شـاطرهم المصـير نفسـه رجـلٌ بقـى عـلى قيـد الحيـاة فلطـخ نفسـه بالدمـاء ورقـد بـين المـوتى أمـلاً فى النجـاة. وأمـا الزعيـم القتيـل فقـد شـدوا وثاقـه إلى شـجرة وأخـذوا يطلقـون عليـه النـار حتـى سـقط ممزقًـا. وكان تدنيـس امـرأة هـو أوج الفـزع. وقـد أتـت النـار عـلى كل شىء. وأمـا النفـر القليـل مـن سـاكنى المنـازل الصغـيرة المجـاورة الذيـن نجـوا بالفـرار إلى الجبـال فإنهـم مـا زالـوا يعيشـون هنـاك كقتلـة متربصـين".

إن اسـتعراض (حزمـة) حشـد الحـرب هـذا لا يـكاد يتسـع لإضافـة شىء. فمـن بـين تقاريـر بـلا حـصر تتشـابه معـه كان هـو التقريـر الأكـثر واقعيـةً فى تجـرده. فهـو لا ينطـوى عـلى شىء مقحـم، ولم يقـم الـراوى بتصحيـح أو تجميـل أى شىء. فأمـا السـتة عـشر الذيـن شـنوا الهجـوم فلـم يعـودوا بأيـة غنائـم ولم يفـوزوا بـشىءٍ مـا بانتصارهـم. فهـم لم يتركـوا امـرأةً أو طفـلاً عـلى قيـد الحيـاة، فقـد كان هدفهـم هـو تدمـير الحشـد المعـادى فـلا يبقـى هنـاك أى شىء يُذكـر، أى شىء منهـم، بـكل معنـى الكلمـة. وقـد تـم اسـتعراض شـهوة مـا فعلـه هـؤلاء أنفسـهم، أمـا الآخـرون فكانـوا ومـا زالـوا القتلـة.

حشد المناحة

إن أروع استعراض عرفته عن (حزمة) حشد المناحة يرجع إلى قبيلة "وارامونجا" بوسط أستراليا.[41]

"فقبل أن يلفظ الرجل المعذب آخر أنفاسه كان قد بدأ النواح وإلحاق الجروح المتعمد. فما إن أُعلِن عن دنو الأجل حتى ركض رجالٌ بأقصى سرعتهم إلى المكان. أما بعض النساء اللائى تجمعن من كل الأرجاء فقد ألقين بأنفسهن ليرقدن فوق جسد الرجل المحتضر. بينما كانت أخريات يقفن على مقربةٍ أو يركعن ويضربن رءوسهن بقمم العيدان الحادة فيسيل الدم على وجوههن، وهن يطلقن فى الوقت نفسه عويل نواحٍ لا ينقطع. وقام كثيرٌ من الرجال الذين اقتحموا المكان بإلقاء أنفسهم بعشوائية وحشية فوق الرجل الراقد. فما كان من النساء إلا أن نهضن ليفسحن المكان لهم، فلم يظهر فى نهاية الأمر سوى كتلةٍ متحلقة من أجسادٍ عارية. وفجأةً اقتحم المكان رجلٌ وهو يصيح صياحًا مدويًا ملوحًا بمدية من حجر ليحدث قطعًا بالمدية فى فخذيه، وسط عضلاته، حتى إنه لم يعد يقوى على الوقوف ليسقط على كتلة الأجساد المتحلقة، فقامت أمه ونساؤه وأخواته بسحبه من الكوم المكدس ووضعن أفواههن على جروحه المفتوحة، بينما كان يرقد هو منهكًا بلا حولٍ أو قوة. وشيئًا فشيئًا انسلت الأجساد الداكنة

لتتيح رؤية المريض الشقى الذى كان مادةً، أو بالأحرى ضحيةً لهذا الاستعراض حسن الطوية المفعم بمشاعر الود والحزن. فإن كان قد أصيب بمرضٍ قبل ذلك فإن حالته الآن صارت أكثر سوءًا، وبعدما تركه أصدقاؤه صار واضحًا أنه لن يبقى طويلاً على قيد الحياة. وتواصل البكاء والنواح. وغربت الشمس ليغمر الظلام المخيم ويموت الرجل فى المساء نفسه. وهنا يدوى عويل النواح على نحوٍ أعظم مما سبق. رجالٌ ونساء رُوِّعوا من الحزن وأخذوا يتساقطون هنا وهناك وهم يلحقون بأنفسهم جروحًا بالمُدى والعِصىّ المدببة بينما كانت النساء يضربن رءوسهن بالمقامع. ولم ينأَ أحدٌ بنفسه عن الجروح أو الضربات. وبعد ساعةٍ كان موكب الجنازة يشق طريقه فى الظلام على نور شعلات. وقد حُمِلت الجثة إلى أحد الأدغال على بعد ميلٍ تقريبًا لتوضع هناك على محفةٍ من فروع الأشجار فوق شجرة مطاطٍ صغيرة. وعندما أشرق صباح اليوم التالى لم يكن بالمخيم، حيث مات الرجل، أى أثرٍ يُلْحَظ من مستوطَنَةٍ سكنَها بشرٌ بعد أن قام جميع الناس بنقل أكواخهم البائسة إلى مكانٍ على بُعدٍ ما. أما موضع واقعة الموت فقد هُجِر تمامًا، فلم يكن هناك من يتمنى لقاء روح المتوفى التى تحوم يقينًا بالقرب من المكان ولا مواجهة روح الرجل الحى الذى تسبب فى هذا الموت من خلال السحر الخبيث، فهو سوف يأتى يقينًا فى هيئة حيوانٍ إلى موقع جريمته ليتمتع بالنصر. وفى المخيم الجديد كان رجالٌ قد تمددوا، حسب طول قامتهم، على الأرض بجراحٍ مفتوحة كانوا قد ألحقوها بأيديهم فى أفخاذهم، وقد أقروا بذنبهم نحو المتوفى وسوف يحملون إلى آخر أيامهم الندوب العميقة فى أفخاذهم كرمزٍ للكرامة. وقد أُحْصِى عدد جراح أحدهم فكان لا يقل عن ثلاثة وعشرين جرحًا، كان أحدثها بنفسه بمرور الوقت. فى أثناء ذلك كانت النساء قد استأنفت ثانيةً مناحتها التى كان منوطًا بهن أداؤها. فكان أربعون أو خمسون منهن موزعاتٍ على مجموعاتٍ من خمس أو ست نساء، كن قد عقدن أذرعهن وأخذن يبكين ويولولن على نحوٍ من الهوس، بينما كان بعضهن اللائى يعتبرن أكثر قربًا من المتوفى يضربن رءوسهن بعيدانٍ مدببة. أما الأرامل فكن يذهبن إلى أبعد من ذلك، فكن ينكأن جراح رءوسهن بعِصىٍّ متوهجة حمراء من النار.

من هذا الوصف الذى ينضم إلى الكثير مثله، يتضح أن الأمر يدور حول الانفعال نفسه. وهناك بعض النوايا تلعب دورًا فى هذا الحدث. وهو ما سوف نتعرض له. إلا أن جوهر الأمر كان الانفعال الذى هو بمثابة حالةٍ يؤدى فيها

الجميع المناحة معًا. إن عنف المناحة واستمرارها، واستئنافها فى اليوم التالى بالمخيم الجديد، والإيقاع المدهش الذى تتنامى فيه وتبدأ من جديد حتى بعد الإعياء التام، كل هذه كانت أدلةً كافيةً على أن الأمر يدور أولاً حول انفعال المناحة الجماعية. وبعد تعرفنا على هذه الحالة الوحيدة التى تميز مواطنى أستراليا سوف نلمس سبب الإشارة إلى هذه المناحة على أنه (حزمة) حشد مناحةٍ، ولماذا يبدو وصفها بكتلة مناحةٍ شيئًا غير مألوف.

يبدأ كل شىء بخبر دنو الأجل ليفزع الرجال بأقصى سرعةٍ إلى هناك ليجدوا النساء قد سبقنهم. أما أقرب الأقرباء فيرقدون معًا فى جمعٍ فوق المريض. ومن الأمور الهامة أن المناحة لا تبدأ بعد حدوث الموت وإنما فور ظهور اليأس من المريض. فما إن يظن أولئك أن المريض سيموت فإنهم لا يستطيعون منع أنفسهم عن المناحة. فتبدأ الحزمة، وقد تربصت بفرصتها، فلا تدع ضحيتها تفلت منها. والقوة الرهيبة التى تلقى بها بنفسها على هدفها هى التى تحدد مصير هذا الهدف. فلا نكاد نقبل افتراض أن صاحب مرضٍ عضال يخضع لهذه المعاملة فيتعافى من خلالها، بل إنه يكاد يختنق من عويل البشر الصاخب. ونستطيع افتراض أنه يختنق فى بعض الأحوال حقًا، وبذا يتم التعجيل بوفاته على أية حال.

إن دعوتنا المألوفة بأن ندع إنسانًا يموت فى هدوءٍ قد لا يفهمها أولئك الناس مطلقًا فى أثناء انفعالهم. فماذا يعنى هذا الجمع الذى يتكدس فوقه هذا الزحام المضطرب من الأجساد التى تصارع صراحةً للاقتراب منه قدر الإمكان؟ فيقال إن هؤلاء النساء اللائى كن يرقدن هناك فى البداية قد نهضن ليفسحن مكانًا للرجال كأن لهؤلاء أو بعضهم على أية حال الحق فى الوجود على أقرب موضعٍ منه. ومهما كانت التفسيرات التى يقول بها مواطنو هذه المنطقة لتبرير تكوين هذا الجمع المتداخل، فإن ما يحدث بالفعل هو أن كوم الأجساد يستوعب المحتضر داخله على نحوٍ تام. والاقتراب الفيزيقى للمنتمين للحشد، أى كثافته، لا يمكن دفعه بعيدًا عن المحتضر. فهم يكونون معه كومًا واحدًا، فهو ما زال ينتمى إليهم وهم يحتفظون به بينهم، ولما كان لا يستطيع النهوض ليقف بينهم فإنهم يرقدون إليه. وكل من يعتقد أن له الحق فيه فإنه يصارع من أجل الانضمام إلى الجمع الذى يكون هو مركزه، ويكون الأمر كأنهم يريدون الموت معه، فالجروح

التـى يلحقونهـا بأنفسـهم، وإلقاؤهـم بأنفسـهم عـلى الجمـع أو فى أى مـكانٍ آخـر، وانهيـار مـن جرحـوا أنفسـهم، كل ذلـك يوضـح مـدى جديتهـم فى هـذا الشـأن. وربمـا يكـون صحيحًـا أيضًـا أن نقـول بأنهـم يبغـون أن يتسـاووا معـه، ولكنهـم فى واقـع الأمـر لا يشـاءون الانتحـار. أمـا الـذى ينبغـى أن يظـل موجـودا فهـو الجمـع الـذى ينتمـى هـو إليـه، وهـم يسـاهمون فى ذلـك مـن خـلال مسـلكهم. وفى هـذا التسـاوى بالمحتـضر ينشـأ جوهـر حشـد المناحـة، مـا لم يكـن المـوت قـد حـدث. لكـن بنفـس القـدر يكـون إبعـاد الميـت، حالمـا يمـوت، هـو إحـدى سـماتها. فالتحـول مـن هـوس الاحتفـاظ بالمحتـضر والتشـبث بـه إلى إبعـاد الميـت وعزلـه هـو مـا يسـبب الانفعـال. ففـى الليلـة نفسـها يتـم الخـلاص منـه بسرعـة ويتـم محـو كل أثـرٍ لوجـوده: أدواتـه وكوخـه وأى شىء كان يخصـه، حتـى المخيـم الـذى عـاش فيـه مـع آخريـن يتـم اقتلاعـه وإحراقـه. وهكـذا فجـأةً يكـون التوجـه ضـده قـد بلـغ أقـصى حـدٍّ لـه، فهـو قـد صـار خطـرًا عندمـا هجرهـم، فقـد يشـعر بالحسـد تجـاه الأحيـاء فيثـأر منهـم لموتـه، فـكل إشـارات ميـل مشـاعرهم نحـوه، وكذلـك تلاحمهـم الجسـدى لم تسـتطع الاحتفـاظ بـه فيحـول السـخط الميـت إلى عـدوٍ، بوسـعه بمئـة حيلـةٍ وخديعـة أن ينسـل بينهـم. وعـلى نفـس القـدر يحتاجـون هـم وسـائل حمايـة لأنفسـهم ضـده. وفى المخيـم الجديـد تتواصـل المناحـة، فالانفعـال الـذى يمنـح الجماعـة الشـعور القـوى بوحدتهـا، لا يتـم الاسـتغناء عنـه فى الحـال، فهـم يحتاجـون هـذا الشـعور حينـذاك أكـثر مـن أى وقـتٍ مـضى بعـد أن صـاروا فى خطـرٍ. فالمـرء يسـتعرض الألم بـأن يواصـل جـرح نفسـه ويبـدو الأمـر كأنـه حـربٌ، لكـن مـا قـد يلحقـه العـدو بشـخصٍ مـا فـإن هـذا يفعلـه بنفسـه، فالرجـل الـذى يحمـل فى جسـده ثلاثًـا وعشريـن ندبـةً مـن هـذه الجـروح يعتـبر ذلـك مـن آيـات الـشرف، كأنهـا لحِقـت بـه فى الحـرب. ولا بـد أن نتسـاءل عـما إذا كان هـذا هـو السـبب الوحيـد للجـروح الخطـرة التـى يلحقهـا النـاس بأنفسـهم فى مثـل هـذه المناسـبات. ويبـدو أن النسـاء يمضـين إلى مـدى أبعـد مـن الرجـال وهـن يظهـرن عـلى أيـة حـال مثابـرةً أعظـم فى أثنـاء المناحـة. وفى تشـويه الجسـد يكمـن غضـبٌ كبـير، غضـبٌ لقلـة الحيلـة أمـام المـوت، وهـو مـا يبـدو كأن المـرء يبغـى عقـاب نفسـه عـلى المـوت. وقـد نذهـب إلى أن الفـرد يشـاء اسـتعراض خسـارة الجماعـة كلهـا عـلى جسـده هـو. إلا أن التدمـير يشـمل أيضًـا الموطـن مهـما كان بائسًـا وهـو مـا يذكرنـا بنـزوع الكتلـة للتدمـير، كـما عرفنـاه وأوضحنـاه وفى موضـعٍ آخـر. ومـن خـلال تدمـير كل المفـردات، الـذى تنتهـى إليـه الحزمـة، فإنهـا تظـل كذلـك باقيـةً لوقـتٍ أطـول. أمـا

مـا يـزداد حـدةً فهـو انفصـال الحشـد عـن الزمـن الـذى عرفـت فيـه النكبـة الخطـرة وعانـت منهـا ليبـدأ كل شىء مـن جديـد، بـل إنـه يبـدأ بحالـة انفعـالٍ جماعـى قويـة. ومـن المهـم فى النهايـة أن نحـدد كلا التوجهـين اللذيـن يُعتـبَران أساسًـا لمسـار لحشـد المناحـة. أمـا الأول فهـو الحركـة العنيفـة تجـاه المحتـضر وتكويـن كـوم مـزدوج المعنـى حـول الرجـل الـذى يقـف فى منتصـف الطريـق بـين الحيـاة والمـوت. أمـا الحركـة الثانية فهـى الفـرار الخائـف مـن الميـت، منـه هـو، ومـن كل مـا يكـون قـد لامسـه.

حشد التكاثر

مهما كانت متابعتنا لحياة شعبٍ من شعوب الطبيعة، فإننا نصطدم فى كل مكانٍ فى الحال بكثافة أحداث حياة هذا الشعب، وهى أحداث حشود الصيد والحرب والمناحة. أما مسار أنواع الحشود الثلاثة هذه فواضح، فهى تمتلك كل ما هو أساسى. فما إن يتراجع هذا أو ذاك من الأشكال إلى الخلف فإن بقايا منه تظل عادةً هناك لتبرهن على وجوده وأهميته فى الماضى. أما الشكل الأكثر تعقيدًا فنراه فى حشد التكاثر، لأنها هى قوة الدفع الحقيقية لانتشار الإنسان. فهى التى جعلته يسود الأرض وأفضت إلى تطوراتٍ حضارية تزداد ثراءً دائمًا. ولم يدرك أثرها الفعال قط كاملاً لأن مفهوم "التناسل" كان قد شوه الحدث الخاص بـ"التكاثر" وجعله غامضًا، وهو من البداية الأولى لا يُفهَم إلا فى إطار التأثير المشترك مع أحداث التحول. ففى العصور المبكرة حينما كان البشر يتحركون بأعدادٍ قليلة فى مناطق تكون غالبًا مهجورةً كانوا يواجهون حيواناتٍ تفوقهم عددًا، وهذه قد لا تكون كلها عدائيةً، فأغلبها لا يمثل خطرًا على الإنسان على الإطلاق، لكن الكثير منها يظهر فى أعدادٍ هائلة، سواء كانت هذه قطعانًا من الوعول أو الجاموس أو الأسماك أو الجرادِ أو النحل أو النمل، فإن عدد البشر مقارنةً بعددها يبدو عددًا ضئيلاً. فمواليد الإنسان قليلةٌ، وتأتى فرادى، وتستغرق وقتًا طويلاً حتى تصل. إن الطموح إلى الأكثر، إلى عددٍ أكبر من الناس الذين ينتمى المرء إليهم،

كان يقينا طموحًا عميقًا وملحًا، وظل هذا الطموح يتنامى بلا انقطاع. وفى كل مناسبةٍ يتكون فيها حشد ما كان لا بد من أن يقوى الدافع لزيادة عددٍ أكبر من البشر. (فحزمة) فحشد الصيد الأكثر عددًا يستطيع حصار حيواناتٍ برية أكثر. ولم يكن بوسع الإنسان الاطمئنان دائمًا إلى الحيوانات البرية، ففجأةً كان الكثير منها هناك، فكلما كان عدد الصيادين أكثر كانت الغنيمة أكبر. وفى حالة الحرب يبتغى المرء أن يكون أكثر قوةً من الجماعة المعادية. فقد كان الناس على وعيٍ دائم بخطر ضآلة عددهم. وكان كل موت يتكبدونه بمثابة خسارة فادحة تمامًا، خاصةً إذا ارتبط ذلك برجلٍ محنك أو نشط، فقد كان ذلك يمثل إحدى نقاط الضعف، إلا أن الحيوانات كذلك، التى تمثل خطرًا عليهم، كانت تعيش أيضًا فرادى أو فى مجموعاتٍ صغيرة، وقد كان الإنسان مثل هذه حيوانًا مفترسًا لم يشأ قط أن يعيش وحيدًا. فقد ابتغى العيش فى الجماعات التى كانت كبيرةً مثل تلك التى يعيش فيها الذئاب القانعة بذلك، أما هو فلا- وذلك لأنه فى الحقبة الزمنية الهائلة، فى أثناء ما كان يعيش فى جماعاتٍ صغيرة، ومن خلال التحول فإنه التهم كل الحيوانات التى عرفها على نحوٍ ما، ولم يصبح إنسانًا حقًا إلا بعد تأهله لهذا التحول، فقد كان ذلك هو موهبته المتفردة ورغبته. ففى تحولاته المبكرة إلى حيواناتٍ أخرى كان يمثل ويرقص بعض الأنواع التى تظهر فى عددٍ أكبر، وكلما ازداد تمثيله لهذه المخلوقات كمالاً ازداد إحساسه كثافةً بعظم عددها. فقد أدرك أهمية كثرة العدد، كما ظل على وعيه المتجدد بتشرذمه كإنسانٍ فى جماعاتٍ صغيرة. ولا يمكن أن يرقى شكٌ إلى أن الإنسان حالَما صار "هو" ذات مرةٍ، صار ينشد ازدياد عدده. وكانت كل ألوان عقيدته وأساطيره وتقاليده وشعائره مفعمةً بهذه الأمنية، والأمثلة على ذلك كثيرة، وسوف نتعرف على بعضٍ منها فى إطار هذا البحث. فلما كان هدف التكاثر مرتكزًا على القوة الأساسية كان علينا إبراز التكوين المركب لحشد التكاثر فى بداية هذا الفصل. وبشيءٍ من التدبر سوف يتضح سبب ظهور هذا الحشد فى أشكالٍ كثيرة مختلفة للغاية، وعلينا البحث عنها فى أى مكانٍ فهى تظهر حيثما نتوقعها بالطبع، لكن لديها أيضًا أوكارها السرية فتكون فجأةً هناك فى آخر موضع يحتمل ظهورها فيه. ولأن الإنسان كان بدايةً يفكر فى تكاثره المرتبط بتكاثر المخلوقات الأخرى فقد كان طموحه إلى التكاثر يُحمّله على كل ما يحيط به، وبقدر ما كان يُدفَع إلى زيادة حجم جماعته من خلال عددٍ كافٍ من الأبناء كان ينشد أكثر من الحيوان البرى والثمار، أى

قطعانًا أكثر وغلالاً أكثر، وكل ما كان يتغذى عليه. وحتى ينمو ويتكاثر عدده كان لا بد من توافر كل ما يحتاجه لحياته. وحينما كان المطر نادرًا كان يركز على استدعاء المطر. فالماء هو أكثر ما تحتاجه كل المخلوقات مثله هو نفسه. وهكذا اجتمعت شعائر المطر والتكاثر معًا فى أرجاء كثيرة من الأرض، فسواء رقص الناس بأنفسهم من أجل المطر مثلما يفعل هنود الـ"بوبلو" الحمر، أو تحلقوا عطاشى حول ساحرهم الذى ينزل عليهم المطر، كان صيغة الحشد فى كل مثل هذه الحالات هى الصيغة الخاصة بحشد التكاثر. ومن أجل إدراك العلاقة الوثيقة القائمة بين التكاثر والتحول كان لا بد من الاطلاع على طقوس الأستراليين[42] وهى طقوسٌ تناولها العديد من الباحثين على مدار ما يربو على نصف قرنٍ على نحو هو الأكثر دقةً. فالأجداد الذين تدور حولهم أساطير الأستراليين الأولى كانوا كائناتٍ ذات قيمةٍ نفيسة. وهم مخلوقاتٌ مزدوجة، جزءٌ منها حيوان وجزءٌ منها إنسان، أو على الأصح كانوا كليهما. وهم من وضعوا الطقوس التى يقوم الناس بأدائها تلبيةً لأمر الأجداد. ومما يسترعى الانتباه أن كلاً منهم قد ربط الإنسان بنوعٍ معين من الحيوان أو النبات. وعلى هذا كان الجد الكَنغرو، كنغرو وإنسانًا فى آنٍ واحد، والجد "أَمو" هو إنسان و"أَمو". ولم يحدث قط أن قُدِّمَ اثنان من الحيوانات المختلفة فى "واحدٍ" من الأجداد. فالإنسان موجود دائمًا، أى أنه كان النصف على نحوٍ ما. أما النصف الآخر فهو حيوانٌ محدد. ولكن ليس بوسعنا الإصرار على نحوٍ أو آخر بأن كليهما كان موجودًا فى وقتٍ واحد، أى فى هيئةٍ واحدة، فسمات كل منهما نشعر بها سماتٍ مختلطة على أكثر الوجوه بساطةً. فمن الواضح أن هؤلاء الأجداد لا يمثلون شيئًا آخر غير نتائج التحولات. والإنسان الذى نجح مرارًا بالشعور أنه كَنغرو وأن يتخذ هيئته يصير إلى طوطم- كَنغرو. وكان هذا التحول المحدد، الذى مورس كثيرًا واستُخدِم كثيرًا، قد حصل على ماهية الإنجاز الذى دونته الأساطير التى مُثلت دراميًا، وصار ينتقل من جيلٍ إلى جيل.

إن جد حيوانات الكنغرو التى عاشت حول الناس هناك، قد صار فى الوقت نفسه جد تلك الجماعة البشرية الذين يسمون أنفسهم كنغرو. أما التحول الذى ساهم فى البداية فى هذا النسل المزدوج فكان يتم تمثيله فى المناسبات الجماعية. فيقوم رجلٌ أو اثنان بتمثيل الكنغرو. أما الآخرون فكانوا - كمشاهدين- يشاركون فى التحول الموروث. وفى عروضٍ لاحقة استطاعوا أن يرقصوا الكنغرو الذى كان جدهم.

إن السعى إلى هذا التحول، والأهمية التى اكتسبها بمرور الزمن، وقيمته النفيسة بالنسبة لأجيالٍ جديدة من البشر، قد تبدى فى قداسة الطقوس التى كان يتم ممارستها. وقد صار التحول الموفق والراسخ نوعًا من الهبة تتم رعايتها مثل الثروة اللغوية التى تتكون منها لغةٌ ما، أو الثروة الأخرى من المواد التى نعتبرها ماديةً ونشعر بها هكذا مثل الأسلحة والحلى وبعض أجهزةٍ مقدسة بعينها. إن هذا التحول الذى حرص الناس على الحفاظ عليه كتراثٍ وكطوطم، والذى يرمز إلى صلة قربى بشر بعينهم بحيوانات الكنغرو، كان يعنى أيضًا ارتباطًا بعددها وهو عددٌ كان يفوق دائمًا عدد البشر، وكان ازديادها مأمولاً وارتبط بنمو عدد الإنسان. فإن تكاثر عددها كان يتكاثر هو أيضًا. فقد تماهى تكاثر حيوان الطوطم مع تكاثره.

إن قوة هذه العلاقة بين التحول والتكاثر لا يمكن إذن تقديرها، فهما يمضيان معًا كتفًا إلى كتف.

فما إن يترسخ تحولٌ ما، وصار بشكله المحدد تقليدًا معترفًا به، فإنه يضمن تكاثر كلا المخلوقين اللذين صارا غير قابلين للانفصال، فصارا واحدًا. وقد كان الإنسان دائمًا أحد هذين المخلوقين. ففى كل طوطم يضمن لنفسه التكاثر الذى لحيوانٍ آخر، والقبيلة التى تتكون من طوطمات كثيرة تكون قد حازت تكاثر هذه جميعًا. أما العدد الأكبر من الطوطمات الأسترالية فكان من الحيوانات وإن وُجِد بينها نباتٌ أيضًا. ولما كان الأمر يرتبط بالنباتات التى يتغذى عليها الإنسان فإننا لم نُدهَش كثيرًا للطقوس الخاصة بتكاثرها. فقد بدا طبيعيًا أن يتوجه الإنسان إلى ثمار البرقوق والجوز، فصار ينشد الكثير منها، وكذلك بعض المخلوقات التى نعتبرها نحن حشراتٍ ويعتبرها الأستراليون طعامًا شهيًا، مثل بعض اليرقات والنمل الأبيض وجراد أبى النطاط التى ظهرت كطوطم. فماذا سنقول إن التقينا أناسًا يعتبرون العقارب والقمل والذباب أو البعوض طوطمات لهم، فإنه من الأفضل ألا نتحدث عن ذلك بمعنى الكلمة الفج، فهذه المخلوقات يعتبرها الأستراليون ابتلاءً لهم كما نعتبرها نحن أيضًا كذلك، ولم يجذبهم إليها سوى العدد الهائل لهذه الكائنات. فإذا ما وثَّق صلة قرابة معها لم يكن هدفه من وراء ذلك سوى حرصه على ضمان هذا العدد لنفسه، فالرجل الذى ينتسب إلى "طوطم - بعوضة" يريد أن يكون أهله بكثرة عدد البعوض. وإنى لا أبغى ختام هذه الإشارة العابرة والموجزة إلى الشخصيات المزدوجة الأسترالية دون ذكر

نـوعٍ آخـر مـن طوطـمات لديهـم. ولسـوف ندهـش للقائمـة التاليـة وهـى معروفـةٌ للقـارئ بالفعـل، فمـن بـين طوطماتهـم هنـاك السـحب والمطـر والريـح والعشـب والحطـب والنـار والبحـر والرمـل والنجـوم. إنهـا قائمـة رمـوز الكتـل الطبيعيـة التـى شرحناهـا بإسـهابٍ، وليـس هنـاك دليـل عـلى قدمهـا وأهميتهـا أفضـل مـن وجودهـا بـين طوطـمات الأسـتراليين. وقـد نخطـئ إن افترضنـا أن حـزم التكاثـر فى كل مـكانٍ مرتبطـةٌ بالطوطـمات وأنهـا تمنـح نفسـها دائمًـا كثـيراً مـن الوقـت بقـدر مـا كان لـدى الأسـتراليين. فقـد كان هنـاك ممارسـات مـن نـوع أكـثر بسـاطةً وأكـثر كثافـةً ترتبـط بالجاذبيـة الفوريـة المباشرة للحيوانـات المنشـودة، وهـى تشـترط توافـر قطعـان كبـيرة. فهنـاك تقريـرٌ يعـود إلى النصـف الأول مـن القـرن التاسـع عـشر عـن "رقـص الجامـوس" الشـهير لـدى الـ"مانـدا"[43] إحـدى قبائـل الهنـود الحمـر بأمريـكا الشـمالية: "يتجمـع الجامـوس أحيانًـا فى كتـلٍ هائلـة ليهيـم فى كل الاتجاهـات خـلال البـلاد، مـن الـشرق للغـرب ومـن الشـمال للجنـوب، إلى مسـافاتٍ بعيـدة حسـب هواهـا. فجـأةً لا يجـد أفـراد المانـدا شـيئًا يأكلونـه عـلى الإطـلاق. ولمـا كانـت القبيلـة صغـيرةً مقارنـةً بالأعـداد الأكـثر قـوةً، التـى يلاحقونهـا لقتلهـا، فـإن القبيلـة لم تجـرؤ عـلى الإفـراط فى الابتعـاد عن موطنهـا. وهكـذا قـد تصـل بهـا الحـال إلى حـد المجاعـة. وفى مثـل هـذه الأزمـات يقـوم كل رجـلٍ منهـم بإحضـار قناعـه مـن الخيمـة، وهـو قنـاعٌ احتفـظ بـه تأهبًـا لمثـل هـذه الحالـة، وهـو جلـد رأس جامـوسٍ بقرونـه. ويبـدأ رقـص الجامـوس بعبـارة (الجامـوس قـادمٌ)، وهـو مـا ينبغـى أى يغـوى القطيـع، فيغـير اتجاهـه ليقبـل عـلى قريـة المانـدا. ويُنْظِّـم الرقـص فى مـكانٍ عـام بوسـط القريـة ويشـارك فيـه عـشرة أو خمسـة عـشر فـردًا مـن المانـدا، وكلٌ منهـم يضـع عـلى رأسـه رأس جامـوس بالقـرون ممسـكًا بالقـوس بيـده أو بالرمـح وهـو مـا يفضلـه فى قتـل الجامـوس. وينتـج عـن الرقـص دائمًـا الأثـر المنشـود، والرقـص لا يتوقـف بـل يتواصـل ليـل نهـار حتـى "يـأتى الجامـوس" فتُقـرَع الطبـول وتُهَـز الشـخاليل وتُنشَـد الأغـانى وتنطلـق الصيحـات بـلا انقطـاع. وعـلى جانـبٍ يقـف المشـاهدون بأقنعـةٍ عـلى الـرءوس وأسـلحةٍ باليـد مسـتعدين لأن يحـل أحدهـم محـل مـن يتعـب ويغـادر الحلقـة. وفى أثنـاء هـذا الانفعـال العـام يقـف مسـتطلعون عـلى التـلال فى محيـط القريـة، فـإن هـم لحظـوا اقـتراب الجامـوس أعطـوا إشـارةً متفقًـا عليهـا، فتظهـر فى الحـال بالقريـة وتفهمهـا القبيلـة كلهـا. ومثـل هـذه الرقصـات تسـتمر لأسـبوعين أو ثلاثـةٍ حتـى حلـول اللحظـة السـعيدة حينـما يظهـر الجامـوس، وهـى لا تبـوء بالفشـل أبـدًا، ويُنسـب إليهـا مجـىء الجامـوس. وعـادةً مـا يتعلـق بالقنـاع

شريطٌ مـن الجلـد بطـول الحيـوان كلـه وبـه الذيـل متدليًـا عـلى ظهـر الراقـص ويجـره عـلى الأرض. ومـن يتعـب يبلـغ عـن ذلـك بـأن ينحنـى تمامًـا إلى الأمـام مقتربًـا بجسـده مـن الأرض ثـم يصـوب واحـدٌ آخـر القـوس نحـوه ليصيبـه بسـهمٍ ثلـم، فيسـقط أرضًـا مثـل الجامـوس، فيمسـك بـه المحيطـون ويسـحبونه مـن كعبيـه خـارج الحلقـة وهـم يولوحـون بمداهـم فوقـه. وبعـد أن يقومـوا بـأداء حـركات السـلخ والتمزيـق يدعونـه يمـضى ليحتـل آخَـر مكانـه فى الحـال ليرقـص هـذا فى الحلقـة بالقنـاع فـوق الـرأس. وهكـذا يمكـن بسـهولةٍ الحفـاظ عـلى مواصلـة الرقـص ليـل نهـار حتـى يتحقـق الأثـر المنشـود ويـأتى الجامـوس. ويقـوم الراقصـون بـأداء دور الجامـوس والصياديـن فى آنٍ واحـد، ففـى تنكرهـم يكونـون جاموسًـا لكـن القـوس والرمـح يميزهـم بأنهـم صيـادون. ومـا دام أحدهـم يرقـص فإنـه يعتـبر جاموسًـا ويسـلك مسـلك الجامـوس، فـإذا مـا حـل بـه التعـب صـار جاموسًـا مُتْعَبًـا فلا يُسـمح لـه بمغـادرة القطيع قبـل أن يُقْتَل، فيسـقط مـن سـهمٍ أصابـه وليـس مـن التعـب. فيقـوم الصيـادون بحملـه بعيـدًا أو يقطعونـه وهـو الـذى كان فى البدايـة "قطيعًـا" فانتهـى بـه الأمـر إلى فريسـة. إن فكـرة أن حزمـةً مـا تسـتطيع بالرقـص العنيـف المتصـل أن تجـذب قطيـع الجامـوس الحقيقـى تشـترط بعـض الأمـور. فأفـراد المانـدا يدركـون بالخـبرة أن الكتلـة تنمـو وتجـذب إلى دائرتهـا كل مـا يوجـد بالقـرب منهـا مـن نفـس نوعهـا. فمهـما كانـت كـثرة الجامـوس فإنـه ينضـم إليـه عـددٌ اكـبر. لكنهـم يعرفـون أيضًـا أن الاسـتنفار يزيـد مـن كثافـة الحزمـة. وترتبـط قوتهـا بعنـف حركتهـا الإيقاعيـة ومـا ينقصهـا عـددًا تسـتطيع الحزمـة تعويضـه مـن خـلال العنـف. أمـا الجامـوس، الـذى يعرفـون مظهـره وحركتـه حـق المعرفـة، فهـو مثـل الإنسـان كذلـك، فهـو يحـب الرقـص وينجـذب إلى الاحتفاليـة مـن خـلال أعدائـه المتنكريـن. فأمـا الرقـص فهـو متصـل لأنـه ينبغـى أن يؤثـر عـن بعـدٍ، فالجامـوس الـذى يشـعر عـن بعـد بالرقـص كقـوة جـذب الحزمـة يستسـلم لذلـك مـا دام رقصًـا جـادًا. فـإذا تراجـع الرقـص فإنـه يكـون قـد صـار حزمـةً غـير صحيحـة. فيمكـن للجامـوس، الـذى ربمـا يكـون مـا زال بعيـدًا، أن يتوجـه إلى مـكانٍ آخـر، فهنـاك بمواضـع أخـرى قطعـانٌ تسـتطيع تغيـير وجهـة الجامـوس، فيكـون عـلى الراقصـين أن يصـيروا أقـوى جاذبيـةً. فهـم، كحشـد تكاثـر لا يتهـاون فى انفعالـه لحظـةً واحـدة، يكونـون أقـوى مـن أى قطيـع غـير متماسـك، فيجذبـون هـذا بـلا مقاومـة.

التناول[1]

يُعتبَر التناول المشترك للطعام حدثَ تكاثرٍ من نوعٍ خاص. فطبقًا لنظامٍ ما يُسلَّم لكل مشاركٍ قطعةٌ من الحيوان الذبيح، فيأكل هؤلاء معًا ما كانوا حصلوا عليه معًا، فتحل أجزاءٌ من الحيوان نفسه في جسد الحشد كله. فشيءٌ من هذا الجسد يحل فيهم جميعًا. فهم يمسكون ويقضمون ويلوكون ويبتلعون الشيء نفسه، وكل من أكل من ذلك صار مرتبطًا بالآخرين من خلال هذا الحيوان بعد أن حل بهم جميعًا. وشعيرة الالتهام الجماعى هذه هى ما تُعرَف بـ"التناول"، وهو يتخذ معنى خاصًا به، فهو يجب أن يجرى على نحو يُشعِر الحيوان المأكول بالتكريم، فهذا سيعود ويجىء بكثيرٍ من إخوته، لذا لا تُحْطَم عظامه بل يُحْتفَظ بها بعناية. فإذا ما أدى المرء كل شىء على وجهه الصحيح، كما ينبغى، فإن العظام تكتسى مرةً أخرى باللحم، فينهض الحيوان ليتم اصطياده ثانيةً. فإذا ما أخطأ المرء وشعر الحيوان بالإهانة فإنه ينسحب، ويهرب مع كل إخوته، فلا يرى المرء أحدًا منها بعد ذلك، ليجوع الناس. وفى أثناء أعيادٍ معينة يتخيل المرء

---

1 التناول: يعرف بسر الشكر وهو شعيرة كنسية يتناول خلالها المسيحى شيئاً من خبز وشيئاً من خمر، على أن يؤمن المتناول أن ما أكله وما شربه ليس سوى جسد المسيح ودمه. ومن خلال هذا السر يمنح المرء الحياة الأبدية. (المترجم).

أن الحيوان الذى يأكل منه موجود بشخصه، وعلى هذا النحو كانت تتعامل بعض شعوب سيبيريا مع الدب كضيفٍ فى أثناء التهام هذا الدب، فهم يُكرِّمون هذا الضيف بأن يضعوا أمامه أفضل قطعة من جسده، وهم يجيدون مخاطبته بعباراتٍ احتفائية مُقنِعة ويرجونه التوسط لهم لدى إخوته، فإن أدركوا كسب وده فإنهم يقبلون فرحين على الصيد. ومثل هذه التناولات يمكن أن تفضى إلى زيادة حجم (حزمة) حشد الصيد، فالنساء وكل الرجال الآخرين، ممن لم يشاركوا فى القنص، يشاركون فى ذلك، ويمكن أن يقتصروا على مجموعةٍ صغيرة تتناسب مع مجموعة الصيادين نفسها. وما دام الحدث الداخلى مرتبطًا بماهية الحزمة فإنه يظل هو نفسه، فينتقل حشد الصيد إلى حشد التكاثر. وقد نجحت عملية صيدٍ ما وأكل المرء من غنيمتها إلا أنه يظل فى لحظة التناول الاحتفالية هذا مترعًا بتصور كل أعمال الصيد القادمة. فالصورة غير المرئية لكتلة هذه الحيوانات، التى ينشدها المرء، تداعب خيال كل من يشارك فى الوجبة ويكون حريصًا على أن يجعلها حقيقةً جلية.

وقد تم الحفاظ على هذا التناول المبكر للصيادين حيثما كان الأمر يدور حول آمال تكاثرٍ لنوع آخر تمامًا. وقد يكون هؤلاء فلاحين، اعتمدوا على تكاثر حبوبهم أو غذائهم اليومى، فهم يحتفلون ويطعمون معًا من جسد حيوانٍ، مثلما كان يحدث فى العصور القديمة حينما كانوا صيادين فقط. وفى الأديان الكبرى كان للتناول دورٌ جديد، وهو فكرة تكاثر المؤمنين. فإذا استمر التناول قائمًا، وظل يؤدَّى على النحو الصحيح، فإن العقيدة سوف تنتشر على نحوٍ أوسع وسوف يزداد عدد المؤمنين بها باطراد. أما الأهمية الكبرى، كما نعرف، فكانت للوعد بالبعث والقيامة. والحيوان الذى يأكل منه الصيادون سوف يبعث ليتم اقتناصه ثانيةً. وهذا الاستدعاء للبعث يصير هدفًا أساسيًا فى التناولات العليا، لكن بدلاً من الحيوان فإن جسدِ الإله هو الذى يؤكل ويتخذ المؤمنون من بعثه بعثًا لهم. وسوف نتحدث عن عنصر التناول هذا عند معالجة أديان المناحة. أما ما يهمنا هنا فهو انتقال حشد الصيد إلى حشد تكاثر، فنوعٌ محدد من تناول الطعام يضمن تكاثر الغذاء، وهو ما قُدِّم فى البداية جسدًا حيًا. وهنا يتجلى التوجه للحفاظ على المادة الروحية الثمينة للحشد بأن يبدلها المرء إلى شىء جديد. ومهما كانت "المادة" - وإن كان هذا التعبير هنا محل تساؤل- فإنه يتم بذل كل جهدٍ حتى لا تتحلل وتفنى. والصلة بين تناول الطعام وبين تكاثر

الغـذاء يمكـن أن تكـون صلـةً مبـاشرة حتـى مـن دون عنـصر البعـث والقيامـة. ولنتأمـل معجـزة تنـاول الطعـام فى العهـد الجديـد حينـما أشـبعت خمسـة أرغفـة وسـمكتان آلافًـا كثـيرة مـن الجيـاع.

الحشد الداخلى والحشد الساكن

يمكن للأشكال الأربعة الرئيسية للحشود أن تتجمع على عدة وجوه. كما يمكننا أن نميز بين الحشد الداخلى والحشد الخارجى. أما الحشد الخارجى فهو الأكثر لفتًا للانتباه، وبذلك يمكننا معرفة ملامح طبيعته على نحوٍ أسهل، حيث إنه يتجه صوب هدفٍ يقع فى الخارج، وهو يمتد على طريقٍ طويل، وحركته مقارنةً بحركات الحياة العادية تكون حركةً مطردة. وكلٌّ من حشد الصيد وحشد الحرب هما من الحشود الخارجية. فالحيوان البرى الذى يتم قنصه لا بد من العثور عليه ثم مداهمته، والعدو الذى لا بد من محاربته يجب البحث عنه. فالنشاط الحقيقى للحشد الخارجى يستمر مهما كان الانفعال الذى يتحقق من خلال رقص القنص أو الحرب فى الحال. أما الحشد الداخلى فينطوى على عنصر التركيز، فهو يتكون حول ميتٍ ينبغى دفنه. أما توجهه فهو الاحتفاظ بالشىء وليس الحصول عليه. فالمناحة على الميت تشدد بكل السبل على مدى انتماء هذا الشخص إلى هؤلاء الذين التفوا حول جثته. أما هو فعليه أن يشق طريقه الطويل وحيدًا، وهو طريقٌ خطرٌ مروع، حتى يلحق بالموتى الآخرين الذين ينتظرونه ويقبلونه بينهم. ولما كان الميت لا يدعهم يحتفظون به فإنهم يحاولون

على نحوٍ ما إدماجه فيهم. أما الذين ينوحون عليه فإنهم، بوصفهم حشدا، يمثلون ما يشبه الجسد الخاص الذى لا يغادره ولا يبتعد عنه إلا بشق الأنفس. ويعتبر حشد التكاثر أيضا حشد داخلى، فهو مجموعةٌ من الراقصين يجب أن تتشكل متحلقةً من الخارج حول بذرةٍ لم يكن قد ظهر منها شىء، على أن ينضم إلى أفرادها أناسٌ آخرون، أو حيواناتٌ أخرى إلى تلك التى يسعى المرء لقنصها أو تربيتها، أو تنضم ثمار أكثر إلى تلك التى يتم حصدها. ويكون الشعور السائد هو الإيمان بانضمام كل شىء إلى ما هو موجود بالفعل، أى إلى تلك الوحدات المرئية التى يقدرها المرء على نحوٍ عظيم. فهذا الآخر موجودٌ بموضعٍ ما، وعلى المرء فقط أن يجذبه إليه. وينزع الإنسان إلى إقامة الطقوس هناك حيث يظن بوجود عددٍ كبير من تلك الكائنات غير المرئية. وقد رأينا فى طقس "التناول" هذا الانتقال المهم من حشد خارجى إلى حشد داخلى. فالحشد يتحول إلى داخلها من خلال التهام حيوانٍ ما قُتِل فى أثناء القنص ومن خلال الوعى الاحتفالى بأن شيئًا منه سوف ينتقل إلى داخل كل المشاركين حالما أكلوا منه، فيكون بوسعها فى هذه الحال توقع بعثه وكذلك تكاثره بالمقام الأول.

والنوع الآخر للتقسيم يقوم على التمييز بين الحشد الساكن وحشد الصخب، ويكفى ذكر مدى صخب المناحة، فهى تفقد معناها إن لم تلفت النظر بشدة. وما إن يصل الصخب إلى منتهاه، فلا يُسمع أو يخبو على نحوٍ آخر يكون شمْلُ حشد المناحة قد تفرق ومضى كلٌ إلى حال سبيله. فالصخب ملازمٌ لطبيعة الصيد والحرب. فإذا تطلبت الخديعة السكون للحظةٍ يصل الحدث ذروته فى المقابل على نحوٍ أكثر صخبًا. فمن سمات اللحظات الحاسمة فى حدث الصيد هو نباح الكلاب وصيحات الصيادين التى تؤجج الانفعال والتعطش للدم. ولكن فى الحرب كانت الوحشية وتهديد العدو أمرًا لا غنى عنه منذ القدم. فقد استمرت صيحات القتال وصخب المعارك عبر التاريخ. ومن دون دوىّ الانفجارات لا تنتهى الحرب اليوم كذلك.

أما الحشد الساكن فهو من حشود التوقع والانتظار، إذ إنه يتحلى بالصبر، صبرًا لافتًا لانتباه الجموع، وهو ما يتجلى فى كل مكانٍ حيثما يكون هدف الحشد الذى لا يتحقق من خلال الانقضاض السريع والمستنفر. وربما تكون كلمة "ساكنة" هنا وصفًا مراوغًا بعض الشىء، أما دلالة "حشد الانتظار" فوصفٌ أكثر وضوحًا

لأن كل الممارسـات الممكنـة مثـل الأغـانى والتعاويـذ والضحيـة يمكـن أن تعـرف هـذا النـوع مـن الحشـود. ويضـاف إليهـا اسـتهداف شىء بعيـد لا يمكـن أن يكـون قريبًـا فى هـذه الحـال.

إنـه هـذا النـوع مـن التوقـع والسـكون فهـو الـذى ورد ذكـره بالأديـان الأخرويـة. وعـلى هـذا النحـو نـرى بـشرًا يقضـون حياتهـم آملـين فى حيـاةٍ أفضـل فى العـالم الأخـر. لكـن "التنـاول" يظـل هـو المثـل الأكـثر وضوحًـا عـن الحشـد السـاكن. فحـدث الإندمـاج يتطلـب سـكونًا مركـزًا وصـبرًا، فالرهبـة مـن كل معـانى التقديـس التـى تسـكن نفـس الإنسـان تتطلـب مسـلكًا هادئًـا وكريمًـا لفـترةٍ مـن الزمـن.

خصوصية الحشد وثباته عبر التاريخ

إننا نعرف المتوفى الذى نبكيه. أما من له الحق فى الانضمام إلى حشد المناحة فهم من كانوا على صلةٍ قريبةٍ به أو يعرفون قدره. فالألم يزداد بقدر صلة القربى. فمن هو أكثر قربًا من المتوفى يكون نواحه أكثر صخبًا. وتحتل الأم قمة المناحة، فهى التى خرج المتوفى من رحمها. أما الغرباء فلا يحزن أحدٌ عليهم. فحشد المناحة لا يتكون أصلاً إلا من أجل أحدٍ بعينه.

لكن هذه "الخصوصية" - ارتباطا بموضوعها- هى التى تميز كل ألوان الحشد، فلا يعرف كل من ينضم إلى حشدٍ ما بعضهم البعض معرفةً جيدة فحسب، بل إنهم يعرفون أيضا هدفهم منه. فإن هم خاضوا حربًا ما فلا بد أن يكونوا على معرفةٍ جيدة بعدوهم. وحزن أعضاء حشد المناحة ينصب على ميتٍ يعرفونه جيدًا، وهم فى طقوس التكاثر يعرفون بدقةٍ ما ينبغى عليه التكاثر.

وللحشد خصوصية مخيفة غير قابلة للتغيير، إلا أن هذه الخصوصية تنطوى كذلك على عنصر الحميمية والألفة، إذ لا يمكن إغفال وجود شعورٍ ما من حنان ومحبة مميزة فى نفوس الصيادين البدائيين تجاه غنيمتهم. كما أن تلك الألفة

الرقيقة هو شعورٌ طبيعي فى حالتى حشد المناحة والتكاثر، بل أحيانًا ما يحرص العدو نفسه على اكتسابه لهذا الشعور بالثقة بمجرد فقدان الشعور بالخوف منه.

إن الأهداف التى ينطوى عليها الحشد فى حد ذاته تظل دائمًا كما هى. وأما إمكانية التكرار التى تفضى إلى اللانهاية، من حيث تلاؤمها مع كل مجريات حياة الإنسان، فهى أيضا سمةٌ تميز حشود الإنسان. فثمة خصوصية وتكرار يقودان فى هذا الإطار إلى نشأة أشكال هائلة للثبات والاستمرارية. إن هذه الاستمرارية هى الحقيقة التى تكون طوع الإنسان وتحت تصرفه دوما، وهى ما تيسر إمكانية استخدامها فى المجتمعات المدنية الأكثر تعقيدا، فكان يتم استخدامها مرارًا وتكرارًا كبلورة كتلة، إذا ما تطلب الأمر استدعاء كتلة على وجه السرعة.

لكن هناك أيضا الكثير من الموروثات البالية فى حياة مجتمعاتنا الحديثة تتجلى فى هيئة حشود. فالحنين إلى وجودٍ بسيط أو طبيعى، وإلى التخلص من الضغوط القهرية والالتزامات المتزايدة لعصرنا هذا، ينطوى أيضًا على هذا المضمون: إنها الرغبة نحو حياة فى حشود "منعزلة". فرحلةٌ لصيد الثعالب فى إنجلترا أو رحلةٌ بحرية بالمحيط فى زوارق صغيرةٍ وطاقم قليل العدد أو بياتٌ جماعى فى ديرٍ ما أو رحلةٌ استكشافية لبلادٍ مجهولة، بل والحلم بحياةٍ مع عددٍ قليل من الناس فى طبيعةٍ رومانسية حيثما يتكاثر كل شىء، على نحوٍ ما، ذاتيًا من دون أدنى جهد من جانب الإنسان - كل هذه الحالات الموروثة مجتمعة هى تصور لعددٍ قليلٍ من الناس فى إقامة علاقةٍ من الثقة والحميمية بين بعضهم البعض، ويتشاركون فى إطار مشروع واضح وصريح لخصوصية كبرى، أو تخطيط محدد نظامٍ كبير أو انعزالى.

وحتى اليوم لا نزال نرى أمام أعيننا شكلاً سافرًا من أشكال الحشود، وهو يتجلى فى كل تطبيق فعلِىّ لقانون الإعدام من دون محاكمة عادلة. والكلمة مثل الأمر نفسه، فالآمر مرتبطٌ بإلغاء العدالة التى لا تعتبر المدان شيئًا ذا قيمة، فينبغى عليه أن يموت كحيوان من دون الأخذ بأية اعتبارات من تلك المألوفة لدى البشر، فاختلافه فى المظهر والمسلك والفجوة بينه وبينهم الناشئة عن شعور القتلة هو ما ييسر لهم معاملته كحيوان. وكلما طال ابتعاده عنهم بالهروب تأججت شهوتهم فى التحول إلى حشد، فرجلٌ بكامل قوته، رجلٌ يستطيع الركض

بقـوة، يمنحهـم الفرصـة للقنـص الـذى تتملكهـم الرغبـة فيـه، والـذى هـو طبقًـا لطبيعتـه لا يمكـن أن يتكـرر كثـيرًا. ونـدرة فرصـة هـذا الصيـد هـى مـا تؤجـج مشـاعر الإثـارة لديهـم. أمـا الغلطـة التـى يسـتبيحونها فى أثنـاء هـذا العمـل فيمكـن تفسـيرها بأنـه ليـس فى مقدورهـم التهامـه. فربمـا تصـوروا أنهـم بـشر لأنهـم لم ينشـبوا أسـنانهم فى لحمـه.

إن الإدانـة ذات الطبيعـة الجنسـية التـى ينشـأ عنهـا غالبًـا هـذا النـوع مـن الحشـد تجعـل مـن الضحيـة كائنًـا خطـرًا. فالمـرء يتخيـل جريمتـه الحقيقيـة أو المزعومـة. فارتبـاط الرجـل الأسـود بامـرأةٍ بيضـاء، أى تصـور تقاربهـما الجسـدى، هـو الأمـر الـذى يؤكـد عـلى اختلافهـما فى أعـين المنتقمـين، فالمـرأة تصـير أكـثر بياضًـا، مثلـما يصبـح لـون الرجـل دائمـا أكـثر سـوادًا، وهـى فى نظرهـم بريئـةٌ لأنـه بوصفـه رجـلا أقـوى منهـا. فـإن كانـت قـد ارتضـت ذلـك فـلا بـد أن قوتـه الفائقـة هـى التـى خدعتهـا. وفكـرة التفـوق هـذه هـى مـا تتجـاوز طاقـة تحملهـم، وهـى مـا ترغمهـم عـلى التوحـد ضدهـا. فالرجـل، كحيـوانٍ كاسر، كان قـد انقـض عـلى امـرأةٍ، فـكان لا بـد مـن التحريـض ضـده وقتلـه بيـد الجماعـة، وهـم يـرون فى قتلـه أمـرًا مباحًـا يملأهـم بالرضـا.

الحشود فى أساطير أجداد قبائل الـ"أراندا"

ترى ما هو تصور سكان أستراليا الأصليين عن شكل الحشد؟ هناك أسطورتان لأجداد قبيلة الـ"أراندا" تعطيان صورةً واضحة عن ذلك. فتدور الأولى حول "أونجوتنيكا" وهو كنغرو شهير من الزمن الباكر الأسطورى.[44] أما الرواية التالية فتحكى عن تجاربه مع الكلاب البرية:

"لم يكن قد أتم نموه حيوانًا صغيرًا ليتجه إلى الهجرة. وبعد أن ارتحل لثلاثة أميالٍ تقريبًا كان قد وصل سهلاً مفتوحًا، حيث رأى هناك حزمةً من كلابٍ برية كانت ترقد ملتصقةً بأمها، فأخذ يقفز حولها ليرى الكلاب البرية. وهنا لاحظته هى وشرعت فى مطاردته، فقفز بأسرع ما أمكنه مبتعدًا، إلا أنها أمسكت به فى سهلٍ آخر فمزقت جسده وأكلت كبده أولاً، ثم سلخت جلده وألقت به جانبًا ونزعت كل لحمه عن عظمه. وما إن انتهت من ذلك حتى رقدت مرةً أخرى. إلا أن أونجونتيكا لم يكن قد قُضى عليه تمامًا فقد تبقى جلده وعظمه. وأمام أعين مطارديه جاء جلده ووضع نفسه على عظامه، فنهض مرةً أخرى وركض مبتعدًا، فتعقبته الكلاب وأمسكت به هذه المرة عند تل أوليما. و(أوليما) يعنى (الكبد)، وقد سمى كذلك لأن الكلاب هذه المرة لم تأكل الكبد وإنما ألقت به

ليصير تلاً معتمًا، وهو ما صار اسمًا لهذا المكان. وما حدث قبل ذلك حدث الآن مرةً أخرى. فقد ركض حتى وصل بولبونيا، وهى كلمةٌ تطلق على صخبٍ خاص تصدره الخفافيش الصغيرة. وقد دار أونجونتيكا حول هذا الموضع وأصدر هذا الصوت الصخب لكى يسخر من الكلاب التى أمسكت به مرةً أخرى ومزقته. إلا أنه صار كاملاً ثانيةً ما أثار دهشةً كبيرة لمطارديه، وركض حتى أونديارا والكلاب وراءه. وما إن وصل إلى ثقب ماءٍ حتى أمسكت به والتهمته وقطعت ذيله، ودفنوه هناك حيث يوجد إلى اليوم فى هيئة حجرٍ، وهو يدعى شورينجا، أى ذيل الكنغرو. وفى أثناء طقوس التكاثر يتم إخراجه من مدفنه وعرضه وحكه بعناية.

لقد قام حشد الكلاب باصطياد الكنغرو أربع مراتٍ، فيُقتَل ويُمَزَّق ويتم التهامه. أما فى المرات الثلاث الأولى فلم يُمَس جلده وعظمه، وما دامت هذه سليمةً كان بوسعه القيام ثانيةً. وقد نما جسده بعد ذلك لتصطاده الكلاب ثانيةً. وهكذا يكون قد تم التهام الحيوان نفسه أربع مراتٍ. فأما اللحم الذى أُكِل فإنه يعود للظهور فجأةً، فصار من كنغرو واحدٍ أربعة حيواناتٍ، إلا أنها كانت دائمًا الحيوان نفسه، كما كان الصيد هو نفسه أيضًا، فلم يتغير سوى مواضعه. وقد صارت مواضع هذه الأحداث الرائعة علمًا خالدًا على الطبيعة. وأما المقتول فلم يستسلم ليعاود الحياة ثانيةً ويسخر من الحشد الذى وقع أسير الدهشة. لكنه هو أيضًا لم يتراجع فكان عليه قتل فريسته حتى لو كان قد أكلها. إن إصرار الحشد وتكراره لفعلها لا يمكن أن يُدرَك على نحوٍ أوضح وأبسط من ذلك. أما تحقيق التكاثر فقد حدث هنا من خلال نوعٍ من البعث، فالحيوان لم يكن بالغًا ولم ينجب أبناءً، لكنه فى مقابل ذلك ضاعف نفسه أربع مرات. فالتكاثر والتناسل كما نرى ليس شيئًا واحدًا. فقد تم البعث من الجلد والعظم أمام أعين المطاردين فأغراهم بالصيد. أما الذيل، الذى دُفِن، فقد ظل باقيًا كحجرٍ، كعلمٍ على هذه المعجزة وشاهدٍ عليها. وانتقلت قوة ذلك البعث بأربعة أضعافٍ إلى هذا الحجر. فإذا ما تعامل معه المرء على نحوٍ سليم، مثلما يحدث فى الطقوس، فإنه يساعد دائمًا على التكاثر.

أما الأسطورة الثانية فتبدأ بمحاولة اقتناص رجلٍ لكنغرو كبير وقوى[45]. فبعد أن رآه شاء قتله والتهامه، فاقتفى أثره لمسافاتٍ بعيدة. فكانت عملية صيدٍ طويلة المدى. وقد أقام كلٌ منهما فى أماكن كثيرة على بعدٍ محدد بين بعضهما البعض.

وفى كل مكانٍ كان يمكث فيه الحيوان كان يترك أثرًا فى طبيعة هذا المكان. ففى موضعٍ ما سُمِع صوت صخبٍ فنهض على ساقيه الخلفيتين، وما زال هناك حجرٌ بارتفاع ثمانية أمتارٍ يمثل هذا الوضع إلى اليوم. وفيما بعد قام بحفر ثقبٍ فى الأرض ليبحث عن الماء وما زال ثقب الأرض هذا موجودًا كذلك. لكن فى نهاية الأمر حل إرهاقٌ مضنٍ بالحيوان فرقد. وقد التقى الصياد بعددٍ من الرجال ينتمون مثله إلى الطوطم نفسه. لكنهم كانوا من جماعةٍ أخرى أقل شأنًا. فكان أن سأل هؤلاء الصياد: هل لديك رماحٌ كبيرة؟ فأجاب: كلا، بل صغيرةٌ فقط، فهل لديكم رماحٌ كبيرة؟ فقالوا: كلا، بل صغيرة فقط. وهنا قال الصياد: فلتلقوا برماحكم إلى الأرض. فقالوا: حسنًا ولتلق أنت برماحك إلى الأرض. فأُلقى بالرماح إلى الأرض ليهاجم الرجال الحيوان متوحدين. ولم يكن الصياد الأول يحتفظ إلا بدرعٍ وحجره المقدس شورينجا بيده.

كان الكنغرو قويًا للغاية فدفع الرجال بعيدًا عنه. وهنا قفزوا جميعًا على الحيوان ليقع الصياد بين (كوم) رهط الآخرين ليموت دهسًا بالأقدام. وبدا أن الكنغرو كذلك قد مات. فقام هؤلاء بدفن الصياد مع درعه والشورينجا وأخذوا معهم جسد الحيوان إلى أونديارا. إلا أنه لم يكن قد مات بالفعل، لكنه مات بعد ذلك ليوضع فى كهفٍ ولم يؤكل. وهناك حيث كان جسد الحيوان نشأت قاعدة حجر فى الكهف. وبعد موته حلت روحه فى هذا الحجر. وسرعان ما مات الرجال بعد ذلك أيضًا وحلت روحهم فى بركةٍ بجوار ذلك مباشرةً. وتذكر المراجع أن جماعاتٍ غفيرة من الكنغرو جاءت فى أزمانٍ لاحقة إلى الكهف ونزلوا هناك إلى باطن الأرض، فحلت أرواحها أيضًا فى الحجر".

لقد انتقل الصيد الفردى هنا إلى صيدٍ لجماعةٍ كاملة تهاجم الحيوان من دون سلاح. تشاء دفنه تحت (كوم) رهط من الرجال، ليخنقه ثقل الصيادين المتوحدين، إلا أنه كان قويًا للغاية فدافع عن نفسه، ما صعّب الأمر على الرجال. وفى حمى الصراع وقع الصياد الأول نفسه تحت (الكوم) الرهط، وبدلاً من الكنغرو مات هو دهسًا بالأقدام. فقام الآخرون بدفنه مع الدرع وحجره المقدس شورينجا.

إن قصة (حزمة) حشد الصيد التى استهدفت حيوانًا بعينه، ومن خلال الخطأ قتلت الصياد الأسمى بدلاً من الحيوان هى قصةٌ منتشرة فى أرجاء الأرض، وقد انتهت إلى مناحةٍ على الميت. وهكذا تحول (حزمة) حشد الصيد إلى حشد

مناحة. إن هذا التحول هو أساس كثيرٍ من الأديان المهمة ذات الانتشار الواسع. وهنا كذلك فى أسطورة الـ"أراندا" هذه يُذكّر دفن الضحية، وقد دفن معها الدرع وحجر شورينجا. أما ذكر شورينجا، الذى يعتبر مقدسًا، فإنه يمنح الحدث صفة الاحتفالية. أما الحيوان نفسه الذى مات لاحقًا فقد دُفِن فى مكانٍ آخر وصار كهفه مركزًا لحيوانات الكنغرو. فقد أتى الكثير منها فى أثناء مراحل أخرى إلى الصخرة نفسها ليحلوا داخلها. أما الـ"أونديارا" وهو اسم المكان فقد صار موضعًا مقدسًا يحتفل فيه المنتمون لطوطم الكنغرو بطقوسهم. وهم يخدمون تكاثر هذا الحيوان. وما داموا يتقدمون على الطريق الصحيح فإنه سوف يتوافر بالموضع المجاور ما يكفى من حيوانات الكنغرو.

ومن غرائب الأمور أن يتلازم فى هذه الأسطورة حدثان أساسيان متخذين السمة الدينية. أما الأول فينطوى، كما ذُكِر، على تحول حشد الصيد إلى حشد مناحة. أما الثانى الذى يُصعِّد من حدة وتيرة الأحداث فهو يصور تحول حشد الصيد إلى حشد تكاثر. ويعتبر الأستراليون الحدث الثانى أكثر أهميةً بكثير، فهو يعتبر عن حقٍ بمثابة القلب لعقيدتهم. أما تلازم الحدثين فإنه يؤيد النظرية الرئيسة لهذه المحاولة. فكلٌ من الأنواع الأربعة الأساسية موجودةٌ منذ البداية وفى كل موضعٍ يوجد به الإنسان. وهكذا تتوافر دائمًا إمكانية كل تحول من حشد إلى آخر. وحسب النبرة المؤكدة لهذا التحول أو ذاك تنشأ الأشكال الأساسية الدينية المختلفة. وأنا أميز ديانات المناحة عن ديانات التكاثر بوصفهما المجموعتين الأكثر أهميةً. لكن هناك، كما سيتضح، ديانات الصيد وديانات الحرب. وآثار الأحداث الحربية متوافرةٌ حتى فى الأساطير السابقة. فحديث الرماح الذى دار بين الصياد الأول وبين مجموعة الرجال التى التقاها، يُظهِر إمكان حدوث قتال. إلا أنهم تراجعوا عن النزال عندما ألقوا كل حرابهم إلى الأرض فى الحال. وبعد ذلك هاجموا الكنغرو متوحدين. وهنا نجد أنفسنا فى مواجهة النقطة الثانية والتى تتبدى فى هذه الأسطورة على نحوٍ يسترعى الانتباه، أى رهط الرجال الذى ألقى بنفسه على الكنغرو، وهم كتلةٌ مترابطة من أجسادٍ بشرية تخنق الحيوان. وغالبًا ما يذكر الأستراليون هذا الكوم من الأجساد البشرية، وهو ما يتراءى للمرء فى أثناء شعائرهم. ففى لحظةٍ بعينها فى أثناء طقوس ختان الصبية الصغار فإن الشخص المرشح يرقد على الأرض ليرقد فوقه عددٌ من الرجال فيكون عليه تحمل ثقلهم جميعًا[46]. وفى طقوس بعض القبائل يقوم كومٌ من الرجال بإلقاء

نفسـهم فـوق المحتـضر ويضغطـون عليـه بشـدة مـن كل جانـبٍ. وهـذه الحـال التـى تعرفنـا عليهـا بالفعـل هـى حالـةٌ مهمـة للغايـة، فهـى تسـتعرض حـدث الانتقـال إلى كـوم المحتضريـن والمـوتى، الـذى يُذكَـر كثـيرًا فى هـذا الكتـاب. وفى الفصـل التـالى سـوف نعالـج بعـض حـالات التكتـلات البشريـة الأسـترالية المكثفـة. وقـد نكتفـى هنـا بإبـداء ملاحظـة أن رهـط الأحيـاء المكثـف عـلى نحـوٍ متعمـد وعنيـف لا يقـل أهميـةً عـن رهـط المـوتى. فـإن بـدا لنـا رهـط المـوتى أكـثر قربًـا فـإن ذلـك يرجـع إلى أنـه قـد اتخـذ ابعـادًا هائلـة عـلى مـر التاريـخ. وهكـذا كان لا بـد مـن أن تبـدو لنـا أعـداد المـوتى الغفـيرة هـى الأقـرب لنـا. لكـن رهـط الأحيـاء معـروفٌ كذلـك بالقـدر نفسـه: فليـس هنـاك شىء آخـر فى نـواة الكتلـة الجماهيريـة.

التشكيلات البشرية
عند قبيلة الـ"أراندا"

لقد أخذنا أسطورتى الأجداد اللتين تعرفنا عليهما من كتاب "سبنسر وجلين" عن قبيلة أراندا (المعروفة بالـ"أرونتا") وقد خُصِّص الجزء الأعظم من هذا المؤلَف الشهير لوصف احتفالاتها وطقوسها التى يصعب علينا وضع مفهومٍ معقول عن تنوعها[47]. وما يسترعى الانتباه هنا بشدة هو ثراء التشكيلات الفيزيقية التى يكوِّنها المشاركون فى أثناء أداء الطقوس. وهناك بعضٌ من هذه التشكيلات معروفةٌ لدينا تمامًا لأنها احتفظت بأهميتها حتى يومنا هذا، وبعضٌ منها طريف لغرابته الشديدة. وسوف نذكر عددًا محدودًا منها. فـ"مارش الإوزة" يظهر غالبًا فى كل الفرائض السرية التى يتم أداؤها فى صمتٍ، فيتطلب مارش الإوزة أن يخرج الرجال لإحضار أحجارهم المقدسة "الشورينجا" التى يُحتفَظ بها مخبوءةً فى كهوف أو مواضع أخرى. وربما يمضون نحو الساعة حتى يصلوا إلى هدفهم هذا. أما الشبان الصغار الذين يصطحبون هذه الحملات فلا يسمح لهم بطرح الأسئلة. وأما الرجل العجوز الذى يخضع هؤلاء لقيادته فإنه يستخدم لغة الإشارة إذا شاء شرح بعض أشكال الموضع ذى الصلة بأساطير الأجداد. وفى طقوسهم الخاصة يظهر عددٌ قليل من الممثلين الذين تجهزوا فى هيئة أجداد طوطم ويؤدون دورهم. وفى

أحـوال كثيرة يكـون هـؤلاء اثنـين أو ثلاثـةً، وغالبًـا مـا يكـون واحـدًا فقـط. أمـا الشـباب فيشـكلون دائـرةً ليرقصـوا حولهـا مطلقـين فى أثنـاء ذلـك بعـض الصيحات. وهـذا السـعى فى حلقـةٍ هـو أحـد التشـكيلات الغالبـة التـى يتـم ذكرهـا مـرارًا. وفى مناسـبةٍ أخـرى فى أثنـاء طقـوس "أنجـورا"، وهـى الحـدث الأهـم والأكـثر احتفـاءً فى حيـاة القبيلـة فـإن الشـباب يصطفـون طابـورًا عنـد تـلٍ ويتمـددون عـلى الأرض، ويظلـون هكـذا صامتـين لسـاعاتٍ طويلـة. وهـذا الرقـود المصطـف يتكـرر غالبًـا، وقـد يسـتمر فى المـرة الواحـدة لثمانى سـاعاتٍ، مـن التاسـعة مسـاءً حتـى الخامسـة فجـرًا. وهنـاك تشـكيلٌ أكـثر روعـةً، حيـث يتقـارب الرجـال فى جمـع غفـير عـلى نحـوٍ مكثـف تمامًـا، ويقـف الكبـار فى الوسـط ويلتـف الشـباب حولهـم. إن هـذا التشـكيل الأسـطوانى الشـكل الـذى يضغـط فيـه كل المشـاركين أنفسـهم إلى بعضهـم البعـض عـلى نحـوٍ مكثـف يقـوم بالـدوران حـول نفسـه سـاعتين كاملتـين وهـم يرقصـون بينـما لا يتوقـف الغنـاء فى أثنـاء ذلـك، ثـم يجلسـون جميعًـا بنفـس الترتيـب بينـما يظـل الكـوم متماسـكًا عـلى مـا كان عليـه فى أثنـاء وقوفـه ليواصـل الرجـال الغنـاء ربمـا لسـاعتين أخريـين مـرةً أخـرى. وأحيانًـا مـا يقـف الرجـال فى صفـين متواجهـين وهـم يغنـون. ومـن أجـل الطقـس الحاسـم الـذى يختتـم فصـل الـ"أنجـورا" الشـعائرى يتشـكل الشـباب عـلى شـكل مربـع ويذهبـون بصحبـة الكبـار إلى الجانـب الآخـر مـن حـوض النهـر حيـث ينتظرهـم النسـاء والأطفـال. وهـذا الطقـس ثـرىٌّ بالتفاصيـل للغايـة. وتبعًـا للترتيـب الـذى وضعنـاه الـذى يهتـم بالتشـكيلات فقـط فإننـا نذكـر هـذا الرهـط عـلى الأرض الـذى يتكـون مـن كل الرجـال معًـا. أمـا الأجـداد الثلاثـة والذيـن يحملـون شـكلاً مقدسًـا للغايـة يمثـل جرابًـا يحتـوى عـلى أطفـال الزمـن المبكـر، فإنهـم يقعـون أولاً ويغطـون بأجسـادهم هـذا الشـكل الـذى لا يسـمح فى الواقـع للنسـاء والأطفـال برؤيتـه. ثـم ينـدفـع كل الرجـال الآخريـن وأغلبهـم مـن الشـباب، والـذى أقيـم هـذا الطقـس تكريمًـا لهـم، إلى الرجـال الثلاثـة ليرقـد الجميـع معًـا مـن دون حـراكٍ عـلى الأرض، فـلا يمكـن التعـرف مطلقًـا إلا عـلى رءوس الكبـار الثلاثـة التـى ترتفـع مـن بـين الرهـط ويظلـوا راقديـن هكـذا لبضـع دقائـق، ثـم يحاولـون جميعًـا النهـوض والإفـلات. ويظهـر هـذا التشـكيل فى مناسـباتٍ أخـرى، إلا أن هـذه المناسـبة هـى أعظـم وأهـم مناسـبةً ذكرهـا المراقبـون. أمـا فى أثنـاء "تجـارب النـار" فيرقـد الشـباب أعـلى فـروع أوراق حـارة، لكنهـا بالطبـع ليـس فـوق بعضهـا البعـض. وتتخـذ أحـداث "تجـارب النـار" أشـكالاً مختلفـة وتجـرى إحداهـا غالبًـا عـلى هـذا النحـو، فيمـضى الشـباب إلى بقعـةٍ عـلى الجانـب الآخـر مـن

حـوض النهـر حيـث تنتظرهـم النسـاء فى مجموعتـين لتندفـع النسـاء نحوهـم وهـن يمطـرن الشـباب بوابـلٍ مـن الفـروع المتقـدة. وفى مناسـبةٍ أخـرى يقـف الصـف الطويـل مـن الشـباب فى مواجهـة صـفٍ مـن النسـاء والأطفـال وترقـص النسـاء، ويطيـح الرجـال بـكل قوتهـم بفـروعٍ متوهجـة فـوق رءوسـهم.

وفى طقسـة الختـان تتكـون طاولـةٌ مـن سـتة رجـالٍ يرقـدون عـلى الأرض، ويرقـد الصبـى المرشـح فوقهـم لتُجـرى لـه الجراحـة عـلى هـذا الوضـع. وقـد ذُكِـر فى فصـلٍ سـابق الرقـود فـوق الصبـى المنتمـى إلى الطقـس نفسـه. فـإن بحثنـا عـن مغـزى فى هـذه التشـكيلات فقـد نقـول التـالى: يعـبر "مـارش الإوزة" عـن الترحـال، وهـو مـا لا يمكـن إغفـال قيمتـه فى تقاليـد القبيلـة عـلى الإطـلاق، ففـى الغالـب يكـون الأجـداد قـد رحلـوا إلى باطـن الأرض، فيبـدو الأمـر كأنـه ينبغـى عـلى واحـدٍ مـن الشـباب أن يقتفـى أثـر الأجـداد بنفـس الأداء. أمـا صمتهـم فينطـوى عـلى توفـير السـبل والأهـداف المقدسـة. والسـعى فى دائـرةٍ أو الرقـص فى حلقـةٍ يبـدوان ترسـيخًا لماهيـة العـروض التـى تقـوم فى وسـطها. فالمـرء يقـوم بحمايـة هـؤلاء مـن كل الغربـاء خـارج الدائـرة وتكـون مكافآتهـم هـى التشـجيع والتكريـم والإشـادة بهـم. أمـا الرقـود فى صـفٍ فيمكـن أن يكـون تمثيـلاً للمـوت، ويظـل الـصبى عـلى هـذا الوضـع صامتـين تمامًـا، فـلا يحركـون سـاكنًا لسـاعاتٍ طويلـة ثـم يقفـزون فجـأةً ليعـودوا مـرةً أخـرى إلى الحيـاة. وأمـا الصفـان اللـذان وقفـا متواجهـين ليهاجـم بعضهـما البعـض فإنهـما يعـبران عن الانقسـام إلى حشـدين معاديـن، بينـما يسـتطيع الجنـس الآخـر أن يحـل محـل الحشـد المُعـادى.

أمـا الشـكل المربـع فيبـدو هنـا بالفعـل كشـكلٍ للحمايـة مـن كل جانـب ويشـترط أن يتحـرك المـرء فى محيـطٍ معـادٍ، وهـو مـا عُـرف جيـدًا بمـا يكفـى فى التاريـخ المتأخـر. ويتبقـى الآن الشـكلان الأكـثر كثافـةً بالفعـل، وأولهـما الأسـطوانة الراقصـة التـى تغـص بالنـاس تمامًـا، ويكـون (الكـوم) الرهـط المضطـرب راقـدًا عـلى الأرض. أمـا ثانيهـما الأسـطوانة التـى تظـل ترقـص فتعتـبر الحالـة الحـادة لإيقـاع الكتلـة الجماهيريـة، وهـى التـى تكـون مكثفـةً ومنغلقـة للغايـة قـدر الإمـكان، حتـى لا يبقـى بالمـكان أحـدٌ آخـر غـير هـؤلاء المنتمـين لهـا. أمـا رهـط الأرض فإنـه يقـوم عـلى حمايـة سرٍ نفيـس، وهـو يعـبر عـن رغبـة المـرء فى بـذل قصـارى جهـده لإخفـاء شىء مـا والاحتفـاظ بـه. ومثـل هـذا الرهـط يحتـوى شـخصًا محتـضرًا ويمنحـه بذلـك تكريمًـا أخـيرًا قبـل موتـه مبـاشرةً، فعـلى هـذا النحـو يكـون قـدره البالـغ لذويـه، وفى إحاطتهـم بـه تذكِـرة واعظـة برهـط المـوتى هـذا.



الحشد والدين



تحول الحشد

إن كل أشكال الحشد التى تم عرضها تمتلك نزعة الانتقال من إحداها إلى الأخرى, وبقدر استمرار تكرارها يكون قدر تماثلها فى تجليها ثانية. فهى فى مسارها المتفرد المستقل تمتلك دائمًا شيئًا من المرونة. وينتج عن وصولها لهدفها، الساعية إليه، تغييرٌ حتمى فى صيغتها. فالصيد الجماعى، العائد عليها بفائدةٍ ما، يفضى إلى التقسيم. وباستثناء بعض الحالاتٍ لانتصارات "خالصة"، حيث يدور الأمر بشأنها حول ذبح الأعداء فى عمليات النهب فحسب - فإن المناحة تنتهى بإقصاء الميت، فحالما يحل هناك، حيث يشاء له، وحالما يشعر المرء بالأمان من ناحيته، فإن الانفعال يتراجع ليتفرق الشمل. إلا أن العلاقة بالميت لا تنتهى عند هذا الحد. فالمفترض أنه يواصل حياته بمكانٍ ما، ويود المرء استعادته إلى عالم الأحياء من أجل الحصول على عونه ونصحه. فحشد المناحة يتألف مرةً أخرى على نحوٍ ما من خلال استدعاء لموتاهم، إلا أن الهدف من مسلكها هنا يكون على نقيض الهدف الأصلى. فعلى نحوٍ ما يتم استدعاء الميت، الذى استُبعِد سابقًا، إلى ذويه مرة أخرى، فـ"رقص الجاموس" لقبيلة الماندا ينتهى بوصول الجاموس. أما حشد التكاثر الذى أحرز النجاح فإنه يتحول إلى حفلٍ للتقسيم.

وكل شكل من أشكال الحشد، كما نرى، له سلبيةٌ يتحول إليها. ولكن إلى جانب التغيير إلى السلبية، الذى يبدو طبيعيًا، توجد حركةٌ من نوعٍ مختلف تمامًا: تحول حشود مختلفة إلى بعضها البعض. ومثل هذه الحالة نراها فى أسطورة السلف لدى قبائل الأراندا، حيث يقوم رجالٌ كثيرون بدهس كنغرو قوى حتى الموت. وفى أثناء ذلك يسقط أول الصيادين ضحيةً لرفاقه ليتم دفنه فى حفاوة. هنا تنقلب (حزمة) حشد الصيد إلى حشد مناحة - وقد تناولنا بالفعل بإسهابٍ معنى التناول، حيث تتحول حشد الصيد إلى حشد تكاثرٍ - وهناك تحول آخر يقف على مشارف الحرب: حين يُقتَل رجلٌ فينوح عليه أفراد قبيلته ثم يكوِّنون من أنفسهم فرقةً تخرج من أجل الثأر من العدو، فتتحول من حشد مناحةٍ إلى حشد حرب.

إن تحول الحشد هو عمليةٌ لافتة للانتباه، وهى منتشرة فى كل مكانٍ ويمكن دراستها فى مجالات الأنشطة الإنسانية المختلفة، فمن دون المعرفة الدقيقة يكون من المحال فهم بعض الأحداث الاجتماعية مهما كان نوعها. فبعض هذه التحولات تنشأ عن علاقاتٍ أوسع تم تحديدها ووصلت إلى المعنى الخاص بها وصارت طقسًا دينيا. ويقوم المرء بتمثيلها بدقةٍ على نفس المنوال، فهى المحتوى الحقيقى، هى جوهر كل عقيدةٍ مهمة. ومن خلال ديناميكية الحشد وأسلوبه الخاص فى انتقاله من لون إلى آخر سيتضح لنا صعود نجم الأديان العالمية.

سوف نستعرض فيما بعد قليلاً من أشكالٍ اجتماعية أو دينية على صلةٍ بالحشود. وسوف نرى أن هناك ديانات صيد وديانات حروب وديانات تكاثر وديانات مناحة. فلدى قبائل "ليله" بالكونغو البلجيكية يتخذ الصيد - رغم فرصه الضئيلة - موقع القلب من الحياة الاجتماعية. أما قبائل الـ"جيفارو" بالإكوادور، فتعيش من أجل الحرب فحسب. وأما قبائل "بوبلو" بجنوب الولايات المتحدة فتتميز بإهمال الصيد والحرب وإغفال عجيب للمناحة، فهى تعيش فى سبيل التكاثر السلمى. وفى سبيل فهم ديانات المناحة التى غطت وجه الأرض وسيطرت عليها، فإننا نتوجه إلى المسيحية وواحدٍ من فروع الإسلام. فاستعراض الاحتفال بشهر "المحرم" الشيعى ينبغى أن يؤكد موضع المناحة المركزى فى هذا النوع من الإيمان. أما الفصل الأخير فقد خصصناه لحلول نار "الفصح" المقدسة على كنيسة القيامة على مشارف القدس. إنه حفل القيامة الذى تجتمع فيه المناحة المسيحية بمبررها ومعناها.

الغابة والصيد
عند قبيلة "ليله" بـ"كاساى"

من خلال دراسةٍ جديدة عميقة نجحت مارى دوجلاس الباحثة فى علم الشعوب فى العثور بالفعل على "وحدة" الحياة والدين لأحد الشعوب الإفريقية وهى قبائل " ليله" بكاساى[48]. وكلما طالعنا قسمًا من أبحاث هذه الدراسة كان إعجابنا يتزايد بمتابعتها وصراحة فكرها. ولعلنا نقدم لها جزيل الشكر إذ تتبعنا ما قالته حرفيًا. إن قبيلة "ليله" شعبٌ من 20.000 نسمة يعيش فى الكونغو البلجيكية بالقرب من نهر كاساى. وقد أقام قراه على أرضٍ عشبية على شكل مجمعٍ متماسك من عشرين إلى مئة كوخٍ على مسافة غير بعيدة من الغابة. أما غذاؤه الرئيسى فكان الذرة التى يزرعها بالغابة، فكان يجرد من أجلها منطقةً هناك كل عام. وفى المنطقة المجردة نفسها ينمو بعد ذلك نخيل "الرافيا" الذى يُسْتغَل كل شىء فيه، فمن أوراقه الجديدة تُكْتَسب مادةٌ يقوم الرجال بنسجها عمائم تعرف بعمائم الـ"رافيا". وكل رجال قبيلة "ليله" يتقنون النسج على النقيض من جيرانهم. كما تُسْتَخدم قطعٌ مربعة من نسيج - رافيا - كنوعٍ من النقود. ومن هذا النخيل يُكْتَسب نبيذٌ فاخر غير مخمر. ورغم النمو الوافر للموز والنخيل على خير وجهٍ فى الغابة فإنهم يقومون بزراعتهما حول القرية،

كـما يزرعـون كذلـك الفـول السـودانى. وفيـما عـدا ذلـك فـإن كل شيء طيـب يـأتى مـن الغابـة: الماء وأخشـاب الوقـود والملـح والـذرة ونبـات المنيهـوت والزيـت والسـمك واللحـم. ويكـون عـلى كلا الجنسـين رجـالاً ونسـاءً، القيـام أحيانًـا ببعـض الأعـمال فى الغابـة، إلا أنـه يتـم اسـتبعاد النسـاء عـن الغابـة كل ثالـث يـوم، عـلى أن يقمـن فى يـوم سـابق بإعـداد كل المخـزون مـن مـواد غذائيـةٍ وأخشـاب الوقـود والمـاء. فالغابـة تعتـبر لـدى الـ"ليلـه" منطقـة رجـال.

تحتـل الغابـة مكانـةً فريـدة، حيـث إن قبيلـة "ليلـه" تذكرهـا بحـماسٍ يـكاد يكـون رومانسـيًا، وغالبًـا مـا يؤكـدون عـلى التناقـض بـين الغابـة والقريـة، ففـى الأيـام الحـارة حينـما تكـون القريـة مغـبرةً حـارة فإنهـم يسـعدون باللجـوء إلى ظـل الغابـة الرطـب. وهـم يسـعدون بالعمـل الـذى يربطهـم بالغابـة. أمـا العمـل فى مـكانٍ آخـر فهـو بمثابـة وبـالٍ، وهـم يقولـون "الوقـت يمـر فى القريـة بطيئًـا ويمـر سريعًـا بالغابـة". وهـم يتباهـون بقدرتهـم عـلى العمـل طـوال اليـوم بالغابـة مـن دون الشـعور بالجـوع، أمـا بالقريـة فهـم مضطـرون إلى التفكـير دائمًـا فى الطعـام. إلا أن الغابـة تمثـل كذلـك منطقـة خطـرٍ. فـكان دخـول الغابـة محرمًـا عـلى مـن يكـون فى حالـة حـدادٍ أو مـن رأى حلـمًا سـيئًا. ومثـل هـذه الأحـلام تُفـسَر عـلى أنهـا بمثابـة الإنـذار، فمـن لا يأخـذ حـذره مـن الغابـة فى اليـوم التـالى فإنـه يصـاب هنـاك بسـوء، فقـد تسـقط شـجرةٌ فـوق رأسـه أو يجـرح نفسـه بسـكينٍ أو يقـع مـن أعـلى نخلـة، ومـن لا يبـالى بالتحذيـر فـإن الخطـر يهـدد شـخصه هـو فقـط. أمـا المـرأة التـى تغـشى الغابـة فى الوقـت المحظـور فإنهـا تهـدد القريـة كافـةً بالخطـر.

تتجـلى ثلاثـة أسـبابٍ محـددة لعظـم مكانـة الغابـة[49]، فهـى مصـدر كل شيء طيـب وضرورى مـن غـذاءٍ وشراب وسـكن وكسـاء. وهـى مصـدرٌ للطـب المقـدس. وثالثًـا، هـى مـكان القنـص الـذى يُعتـبر فى رأيهـم أهـم نشـاطٍ عـلى الإطـلاق. وأهـل قبيلـة "ليلـه" يشـعرون بنهـمٍ حقيقـى نحـو اللحـم. وهـم يعتـبرون تقديـم وجبـة طعـامٍ مـن خضـار للضيـف بمثابـة الإهانـة. وفى حواراتهـم عـن المناسـبات يسـعدون بالتوقـف عنـد كميـة ونـوع اللحـم. ورغـم ذلـك فإنهـم لا يقومـون بتربيـة الأغنـام أو الخنازيـر مثـل جيرانهـم فى الجنـوب. فهـم ينفـرون مـن تصـور تنـاول لحـم حيـوانٍ تمـت تربيتـه بالقريـة. فالغـذاء الطيـب كـما يقولـون يـأتى مـن الغابـة حيـث يكـون نقيًـا وصحيًـا، مثـل الخنزيـر الـبرى أو الظبـاء. أمـا الفـئران والـكلاب فهـى "هامـا"، أى

نجسـة، وهـم يسـتخدمون الصفـة نفسـها فى التعبـير عـن الصديـد والبـول والـبراز، كـما يعُـدون أيضـا الأغنـام والخنازيـر غـير طاهـرةٍ (كذلـك)، لأنهـا تمـت تربيتهـا فى القريـة، ولا يغريهـم نهمهـم للحـم أبـدًا بـأكل مـا لم يكتسـبوه فى الغابـة أو عـن طريـق القنـص. وهـم يتقنـون حقًـا فـن تربيـة الـكلاب ولا يجـدون غضاضـةً فى الاحتفـاظ بالأغنـام إن شـاءوا ذلـك.

"إن فصـل النسـاء عـن الرجـال، والغابـة عـن القريـة، وتبعيـة القرية للغابـة وإبعاد النسـاء عـن الغابـة، هـى عنـاصر طقوسـهم الأهـم والمكـررة". أمـا الأرض العشـبية الجافـة الجدبـاء فـلا تتمتـع بأيـة مكانـةٍ، وتـُتْرك دائمًـا للنسـاء، وتعتـبر منطقـةً محايـدة بـين الغابـة والقريـة. ويؤمـن أهـل "ليلـه" بإلـهٍ خلـق النـاس والحيـوان والأزهـار وكل شيء. كـما يؤمنـون بـالأرواح التـى يتحدثـون عنهـا بحـذر والتـى يرهبـون جانبهـا، إذ لم يحـدث أن تكلمـت الأرواح مـع بـشرٍ قـط، ولم يرهـا البـشر قـط، فمـن رأى روحًـا فـلا بـد أن يصـاب بالعمـى ويمـوت مـن جـراء إصابتـه بـالأورام. والأرواح تسـكن فى عمـق الغابـة، خاصـةً فى منابـع المجـارى المائيـة وهـى تنـام نهـارًا لتعـس ليـلاً، وهـى لا تمـوت ولا تمـرض أبـدًا وعليهـا يتوقـف حـظ الرجـال فى القنـص وخصوبـة النسـاء، وبوسـعها ابتـلاء قريـة بالمـرض. وتعتـبر خنازيـر المـاء هـى أقـوى الحيوانـات المشـحونة بقـوةٍ تفـوق الإدراك الحـسى، وهـى ترعـى دائمًـا فى بـرك الينابيـع التـى تعـد أفضـل مرتعًـا لـلأرواح. ويعتـبر خنزيـر المـاء بالنسـبة لـلأرواح مثـل الكلـب، فهـو يعيـش معهـا ويطيعهـا مثـل طاعـة الكلـب للصيـاد. فـإذا لم يطـع خنزيـر المـاء الأرواح فإنهـا تعاقبـه فتدعـه يُقْتَـل عـلى يـد إنسـانٍ، وهـو مـا يعتـبر مكافـأةً مُنِحَـت فى الوقـت نفسـه. والأرواح تطلـب كل شيء مـن النـاس، أمـا مـا تطلبـه عـلى وجـه الخصـوص هـو أن يسـود السـلام القريـة، فتكـون رحلـةُ صيـدٍ موفقـةٌ هـى أوضـح الإشـارات على اسـتتباب كل الأمـور بالقريـة. إن القـدر الضئيـل مـن اللحـم الـذى يتناولـه كل فـرد، رجـلاً كان أو امـرأة أو طفـلاً، بعـد ذبـح خنزيـر بـرى، لا يمكـن أن يفسـر عـلى أيـة حـال مـدى السـعادة التـى يعـبرون عنهـا فى أحاديثهـم لأسـابيع طويلـة بعـد ذلـك. فالقنـص هـو نـوعٌ مـن البارومـتر الروحـانى الـذى تراقـب القريـة كلهـا صعـوده وهبوطـه بحـذر شـديد. ومـن اللافـت للانتبـاه مقارنـة وصفهـم لمولـد الأطفـال والصيـد معًـا كأن كلاً منهـما هـو الوظيفـة الملائمـة لـكلٍ مـن المـرأة والرجـل، فقـد يقـول الرجـل "فسـدت حـال القريـة" أو "فشـل الصيـد، عقمـت النسـاء، كل شيء يمـوت" فـإذا مـا كان راضيًـا عـن الأحـوال فقـد يعنـى ذلـك: "قريتنـا الآن بخـيرٍ وغنيـة فقـد قتلنـا ثلاثـة خنازيـر

برية وحملت أربع نساءٍ ونحن جميعًا بعافية وأقوياء". أما النشاط الذى يحتل المكانة العليا فهو الصيد الجماعى[50]. فأهمية هذا الأمر هنا ترتبط بالجماعية وليس بعملية الصيد الفردى الشخصية. فالرجال المسلحون بالقوس والنبال يقفون فى حلقةٍ حول جزءٍ من الغابة. أما المطارِدون ومعهم كلابهم فيقومون باقتفاء أثر الحيوانات البرية. وأما الصبية والرجال المتقدمون فى العمر الذين يقدرون بالكاد على السير فإنهم يحاولون الانضمام إلى قافلة الصيد. أما التقدير الأعلى فيحصل عليه أصحاب الكلاب الذين يواصلون عملهم بلا كللٍ فى الأدغال بينما يحثون بندائهم كلابهم على اليقظة، ويقودونها حتى تقع الحيوانات البرية والمطاردة فى مرمى نبال القناصين المثابرين. وهذه هى بالحق أكثر وسائل القنص فاعليةً فى الغابة الكثيفة، فهى تعتمد على مفاجأة الحيوان البرى وإطلاق النبال بسرعةٍ من مسافةٍ قريبة. أما المدهش فى حال شعبٍ ما يظهر مثل هذا التباهى بالقنص فهو الافتقار العام للمهارة الفردية، فالرجل الذى يقصد الغابة لا بد من أن يحمل معه على كل حال قوسًا وبعض النبال، إلا أنه يستعملها فقط ضد الطيور والسنجاب ولا يفكر فى اصطياد حيوانٍ برى ما دام وحيدًا، فهم يجهلون المهارات الخاصة بالقناص الفرد، فهم لا يتقنون الصيد أو محاكاة نداءات الحيوانات، والطُعم والمناورة من الأمور الغريبة عليهم. ومن النادر أن يتوغل أحدهم بمفرده فى أعماق الغابة فاهتمامهم كله ينصب على القنص الجماعى، فقد يعثر رجلٌ ما فى الغابة على قطيعٍ من الخنازير البرية ترعى فى مستنقعٍ ما، وقد يتسلل إلى مقربةٍ منها حتى إنه يسمع تردد أنفاسها، لكنه لا يغامر بإطلاق سهمٍ واحد بل ينسحب من هناك على أطراف أصابعه ليستدعى أهل القرية. أما فى الأرض العشبية فيكون الصيد مرةً واحدة فى العام. وفى أوقات الجفاف، حينما يشتعل العشب، فإن عدة قرى تتحالف من أجل حصار الأرض المشتعلة. فأما الصبية فإنهم يتحسبون لحصولهم على غنيمتهم الأولى، وهناك تنشأ مذبحة رهيبة، وهذه هى المناسبة الوحيدة التى تتكون فيها وحدة صيدٍ من رجال أكثر من قريةٍ، فقنص حيواناتٍ برية لا يقوم به إلا رجال قريةٍ واحدة. وفى النهاية فإن القرية تكون وحدةً سياسية وشعائرية لأنها وحدة صيدٍ، ولذا فإننا لا ندهش إذا اعتبر أهل "ليله" ثقافتهم بالمقام الأول هى ثقافة صيد. فأما تقسيم الحيوان البرى فهو ذو أهميةٍ خاصة. وقد تم تنظيم ذلك على نحوٍ صارم بل على نحوٍ يلتزم بروح الدين. وأهل "ليله" ينتظمون فى ثلاث مجتمعات ثقافية، يكون لكل

منها الحق فى وجبة غذاء بينها تُحرَّم على غير المنتمين لها. أما الجماعة الأولى فهى جماعة المنتجين وهى تتكون من كل الرجال الذين أنجبوا طفلاً، فيكون من نصيبهم صدر كل حيوانٍ وكذلك لحم كل صغار الحيوانات، ومن بين هؤلاء المنتجين يوجد من أنجبوا طفلاً ذكرًا أو طفلةً أنثى، ومن هؤلاء يُنتَخب أعضاء الجماعة الثانية المستبعدون أى الرجال "البانجوليين" وهم يسمون هكذا لأنهم لهم الحق وحدهم فى لحم "البانجولين" أى الحيوان طيب اللحم. أما الجماعة الثالثة فهى جماعة العرَّافين وهؤلاء يحصلون على رأس وأمعاء الخنزير البرى. ولا يمكن ذبح حيوانٍ كبير من دون أن يكون - فى تقسيمه - مادة عملٍ دينى. أما أهم الحيوانات كافةً فهو الخنزير البرى الذى يتم تقسيمه كالتالى: بعد حصول العرافين على الرأس والأمعاء يذهب الصدر إلى المنتجين والأكتاف للرجال الذين حملوه إلى المنزل والرقبة لأصحاب الكلاب، والظهر والفخذ وساقٌ أمامية للرجل الذى أصابه بالسهم، والمعدة لمجموعة حدادى القرية الذين صنعوا السهام. إن تشكيل مجتمع الـ"ليله" يقوى نفسه على نحوٍ ما بعد كل صيد، إلا أن انفعال كتلة الصيد يمتد كشعورٍ يُنقَل إلى المجتمع كله. ونستطيع القول من دون المساس بحقوق المؤلفة بأن ذلك يعتبر "ديانة صيد" بالمعنى الحقيقى للكلمة، فلم يتم تناول ديانة الصيد على هذا النحو المقنع الموقن. لكننا نكتسب من خلال ذلك أيضًا نظرةً عميقة عن تطور الغابة إلى رمز جماعى، فكل شيء ذى قيمة تشمله هذه الغابة، وهم يجمعون منها الأشياء الأكثر قيمةً، فالحيوانات التى هى مادة الصيد تسكن فيها، ولكن هناك أيضًا الأرواح مرهوبة الجانب التى تمنح الناس حيواناتهم.

غنيمة حرب الجيفارو

يعتبر الـ"جيفارو" بالإكوادور اليوم أكثر شعوب جنوب أمريكا كافة ميلاً للحرب[51]. ويعتبر استقراء عاداتهم واستعدادتهم للحرب وغنائمهم من الأمور ذات الدلالة الهامة. كما لا يمكننا اعتبارهم قومًا يعانون من زيادة السكان فهم لا يشنون حروبًا من أجل كسب أرض جديدة. أما الرقعة التى يعيشون فوقها فهى على الأحرى أكبر مما يحتاجون. فعلى مسافة أكثر من 60.000 كم2 يعيش نحو 20.000 نسمة، وهم لا يعرفون المستوطنات الشاسعة ولا يفضلون الإقامة حتى فى القرى، فكل أسرةٍ تعيش بدارٍ خاصة بها وحدها وفيها الأكبر سنًا كزعيمٍ لها. وقد توجد الأسرة التالية على بعد عدة كيلومترات، ولا تربط بينهما أية منظومة سياسية. وفى أوقات السلم يكون لرب الأسرة منفردًا السلطة العليا ولا يأتمر بأمر أحد. وإن لم يجابه الجيفارو بعضهم البعض فى مواجهةٍ عدوانية فإنه قد لا تضطر جماعة منهم إلى مصادفة جماعةٍ أخرى منهم فى المناطق الشاسعة لغابتهم البكر.

أما الصلة التى تربط بينهم فهى ثأر الدم أو الموت بالفعل. فهم لا يقرون بالموت الطبيعى، فموت إنسانٍ ما يكون من جراء سحر أحد الأعداء عن بعد، ويصير لزامًا على أهله معرفة الجانى ليثأروا من الساحر. هكذا يكون كل موت قتلاً وكل قتلٍ لا بد من الثأر له بقتلٍ مضاد، فإذا ما كان سحر العدو المهدد للحياة قد أتى أثره من مسافة بعيدة لا يكون الثأر الفيزيقى أو الدموى الملزم

ممكنًا إلا إذا سعى المرء إليه. فالجيفارو لا يلتقون إلا ليثأر بعضهم من بعض. وإلى حدٍّ ما يعتبر الثأر هو رابطتهم الاجتماعية.

أما الأسرة التى يعيش أفرادها معًا فى بيتٍ واحد فهى تمثل وحدةً متقاربة للغاية، فما يقوم به رجلٌ لا يقوم به وحده، بل بمشاركة رجال أسرته الآخرين. وفى سبيل حملاتٍ أكبر تنطوى على خطرٍ أعظم فإنه يتجمع رجال من عدة منازل تكون الأكثر قربًا نسبيًا، ومن أجل هذا الغرض فقط، أى من أجل تكوين حملة جادة للثأر، فإنهم ينتخبون رئيسًا لهم ذا خبرةٍ، يكون فى الغالب الأكبر سنًا، فيخضعون له طوعًا فى أثناء مجريات الحملة. وهكذا يكون حشد الحرب هو الوحدة الحقيقية الديناميكية للجيفارو. وإلى جانب الحملة الساكنة تكون الأهمية للأسرة وحدها. ومن أجل حشد الحرب تقام كل الاحتفالات. فهم يجتمعون معًا قبل أسبوعٍ من الخروج للحرب، ثم يجتمعون فيما بعد فى سلسلة احتفالات ضخمة بعد عودتهم المظفرة من الحملة. وفى نهاية الأمر فإن الحملات الحربية تفضى إلى الدمار، فيُقتَل الأعداء كافةً فيما عدا بعض النساء وربما بعض الأطفال الذين يضمهم المرء إلى أسرته نفسها، كما يتم تدمير ما يملكه العدو الذى هو بطبيعة الحال ضئيل، من حيواناتٍ أليفة ومزروعات وبيوت. أما المادة الوحيدة التى يضعونها نصب أعينهم حقًا فهى رأس العدو المجتز الذى يشعرون نحوه بولعٍ خاص، فالهدف الأسمى لكل مقاتل هو العودة إلى داره برأس كهذا على الأقل.

فالرأس يتم إعداده على نحو خاص حتى ينكمش إلى حجم ثمرة البرتقال، ويطلق عليه حينئذ اسم "تسنتسا". أما مالك مثل هذا الرأس فيحصل من خلاله على مكانةٍ خاصة. وبعد مرور بعض الوقت، ربما سنةً أو سنتين، يقام حفلٌ كبير يتخذ محوره المركزى الرأس المعالَج بطريقةٍ سليمة ويتم دعوة كل الاصدقاء إلى هذا الحفل حيث يأكلون ويرقصون كثيراً، وكل شىء، أى كل ما يجرى هناك، يحدث طبقًا للشعائر. فهو على وجه اليقين حفلٌ ذو صبغة دينية. فإذا ما دققنا تأمله اتضح أن جوهره الحقيقى هو الطموح الى التكاثر والوسائل المحققة لذلك. إلا أنه لا يمكننا هنا تناول تفاصيل استعرضها "كارستن" - بإسهابٍ ما - فى كتابه عن "ثأر الدم، الحرب، احتفالات النصر لدى الجيفارو"، وقد تكفى الإشارة إلى واحدةٍ من أهم رقصاتهم التى يتم فى أثنائها استدعاء كل الحيوانات التى

يصيدونها، كل قطيع على حدة، ليلى ذلك تمثيل العملية الجنسية للإنسان نفسه، التى تخدم تكاثر أهل القبيلة.

وتعد هذه الرقصة التمهيد الواقعى للحفل الكبير. فالرجال والنساء ينتظمون فى حلقةٍ حول عمود الدار الرئيسى. ويمد كل منهم يده للآخر ليبدأوا حركةً دائرية بطيئة، بينما تعلن تعاويذ السحر أسماء كل الحيوانات التى يحب هؤلاء أكل لحمها، وينضم إلى ذلك بعض الأدوات التى يستعملها الهندى الأحمر بمنزله والتى صنعها بنفسه. وبعد ذكر كل اسم من تلك الأسماء يرددون بصوت عالٍ هادر "هيى!" ويبدأ الرقص بصفيرٍ مدوٍ. أما التعويذة نفسها فتقول: "هيى، هيى، هيى!/ القرد المنتحب، هيى!/ الأحمر هيى!/ القرد البنى، هيى!/ القرد الأسود، هيى!/ قرد الكبوشى، هيى!/ القرد الرمادى، هيى !/ الخنزير البرى، هيى!/ الببغاء الأخضر، هيى!/ ذو الذيل الطويل هيى!/ الخنزير الأليف هيى!/ السمين هيى!/ ثياب النساء هيى!/ الحزام هيى!/ السلة هيى!"

وتستغرق هذه التعويذة ساعةً يتمايل الراقصون في أثنائها قليلاً نحو اليمين وقليلاً نحو اليسار، وفى كل مرةٍ يتوقفون فيها من أجل تغيير اتجاههم يطلقون صفيراً وصياحًا "تشى، تشى، تشى، تشى" كأنهم يسعون بهذا النداء للحفاظ على استمرارية التعويذة. وهناك تعويذةٌ أخرى خاصة بالنساء وخصوبتهن:

"هيى!، هيى!، هيى/ امرأة، هيى!/ امرأة، هيى/ مضاجعة هيى! فلتوفر التسنتسا المضاجعة/ تزاوج هيى!/ تزاوج هيى!/ امرأة، هيى! امرأة، هيى!/ فيلكن ذلك حقيقيًا هيى!/ هكذا نفعله هيى!/ فليكن جميلاً هيى!/ كافيًا هيى!". أما محور هذه التعويذة وكل أنشطة الحفل فهو "تسنتسا"، أى رأس العدو المغتنَم المعالَج. فروح صاحب الرأس تكون بجواره وهى تمثل أعلى درجات الخطر الذى يحاولون درءه بكل السبل، وما إن يفلحّوا فى تسخيرها لخدمتهم فإن ذلك يعود عليهم بفائدةٍ جمة، فهى التى تجعل الخنازير والدجاج التى بحوزتهم تتكاثر ومن خلالها يتكاثر نبات المنيهوت، وهى تمنح الجميع البركة التى ينشدونها، أى التناسل. إلا أن تسخيرها لا يكون أمرًا هينًا فهى فى البدء تكون مترعةً بروح الثأر، فلا يمكن التنبؤ بما قد تلحقه بإنسانٍ ما، إلا أن عدد الطقوس وتوابعها المستخدمة فى السيطرة عليها هو أمرٌ يثير العجب التام. وأما الحفل الذى يستمر عدة أيامٍ فإنه ينتهى إلى السيطرة التامة على الرأس وروحه. فإذا ما تأملنا الـ"تسنتسا"، من

منظورنا لتقاليد الحرب المألوفة لدينا، فلا بد من القول بأن هذا الرأس يقوم مقام ما نسميه بالغنيمة. فهؤلاء يخوضون الحرب فى سبيل الحصول على الرأس، وهو الغنيمة الوحيدة. لكن رغم ضآلة هذه الغنيمة - خاصةً عندما تنكمش فى نهاية الأمر إلى حجم ثمرة البرتقال - فإنها تنطوى على كل ما ينشده المرء منها. فهذا الرأس يوفر لهم ما يأملونه من كل أوجه التكاثر: تكاثر الحيوان، ونمو النباتات التى يعيشون عليها، ومضاعفة الأدوات التى ينتجونها بأنفسهم، وأخيراً تناسل الأهل أنفسهم. إنها غنيمةٌ على نحوٍ عجيب من الكثافة، ولا يكفى إحرازها بل يتحتم العمل من خلال ممارساتٍ طويلة لجعلها على النحو المراد. وتبلغ هذه الممارسات أوجها فى الانفعال الجماعى للحفل خاصةً فى تعاويذه ورقصاته الوفيرة. ويقوم حفل الـ"تسنتسا" فى مجمله على نقل أثر غنيمة التكاثر. فغنيمة الحرب، إن أسعدها الحظ، تنقلب فى نهاية المطاف إلى غنيمة "تكاثر الحفل". وانقلاب هذا إلى تلك يعتبر الدينامكية الحقيقية لديانة الجيفارو.

رقصات المطر
عند هنود "بوبلو" الحمر

إنها رقصات تكاثر ينبغى أن تفضى إلى هطول المطر، فهى تستدعى المطر من الأرض. فدبيب الأقدام يماثل سقوط قطرات المطر. فإذا ما بدأ المطر فى الهطول فى أثناء الاستعراض فإنهم يواصلون الرقص فيه. فالرقص الذى يمثل المطر ينتقل فى النهاية إليه، فتتحول مجموعةٌ من أربعين فردًا تقريبًا فى حركاتها الإيقاعية إلى مطر .

يعتبر المطر أهم رمز كُتلِي (جماهيرى) عند شعوب البوبلو[52]. كان الرمز مهمًا كذلك عند أجدادهم الذين يُحتمل أنهم سكنوا مكانًا آخر، لكن منذ سكنهم بهضبتهم الجافة زادت أهمية المطر على نحوٍ أعظم حتى إنه صبغ طبيعة عقيدتهم كلها. فالذرة التى يعيشون عليها والمطر الذى لولاه ما نمت الذرة كانا بمثابة جوهر كل طقوسهم. أما الوسائل السحرية الكثيرة التى يستخدمونها فى استدرار المطر فإنها تتبلور وتتنامى فى رقصات المطر. وهم يؤكدون على أن هذا الرقصات خاليةٌ من العنف، وهو ما يتفق مع طبيعة المطر نفسه. وهو فى تلك السحابة التى يقترن بها بمثابة وحدةٍ، وهى سحابة سامقةٌ، نائية، بضة، بيضاء،

فـإذا مـا اقتربـت بثـت فى النـاس شـعورًا رقيقًـا، وإذا أفرغـت مـا فيهـا وتفتـت فـإن المطـر يصـل إلى النـاس قطـراتٍ متفرقـة منعزلـة ويصـل الأرض، فيتـسرب داخلهـا.

أمـا الرقـص الـذى يجـذب المطـر مـن خـلال التحـول إليـه فإنـه يمثـل فـرارًا وانهيـارًا لكتلـة، وعـلى نحـوٍ أعظـم مـن تمثيلـه لتكوينهـا. فالراقصـون ينشـدون سـقوط السـحابة عـلى ألا تبقـى مجتمعـةً فى السـماء بـل عليهـا أن تنهمـر. فالسـحابة تكـون كتلـةً رقيقـة بقـدر مـا يـرى فيهـا المـرء تماثـلاً للأجـداد. فالأمـوات يرجعـون فى سـحاب المطـر حاملـين معهـم البركـة. فـإذا مـا ظهـر غـمام المطـر فى السـماء فإنهـم يقولـون لأبنائهـم: "انظـروا هاهـم أجدادكـم قادمـون". وهـم لا يعنـون بهـذا مـوتى هـذه العائلـة وإنمـا الأسـلاف بشـكل عـام. وأمـا الكهنـة الموجـودون فى اعتـكافٍ شـعائرى، فيجلسـون لثمانيـة أيـام بـلا حـراك منطويـن عـلى أنفسـهم أمـام هياكلهـم وهـم يناشـدون المطـر: "أينـما كانـت مواضعكـم بعيـدةً فإنكـم ستشـقون طريقكـم وتمـلأون بالميـاه الحيـة سـحابكم الصغـيرة التـى يدفعهـا الريـح وجـذاذ سـحاباتكم الرقيقـة، سـتبعثون لنـا بمـا يمكـث لدينـا، غيثكـم البهـى العاشـق لـلأرض هنـا فى إيتياوانـا مقـر أبنائنـا وأمهاتنـا، مقرهـم الـذى يحمـل لنـا الحيـاة، بكميـاتٍ وفـيرة مـن الميـاه سـوف تجيئوننـا جميعكـم".[53]

فـما يتمنـاه المـرء هـو كميـات الميـاه الوفـيرة. لكـن هـذه الكميـات المتجمعـة فى الغـمام تتفتـت إلى قطـرات. والمعنـى الحـرفى لرقصـات المطـر ينطـوى على التفتـت. إنها كتلـةٌ رقيقـة تلـك التـى يتمنونهـا، وهـى ليسـت حيوانًـا خطـرًا يجـب قتلـه، وليسـت عـدوًا مقيتًـا يجـب قتالـه، بـل هـى تتسـاوى مـع كتلـة الأجـداد المسـالمة الخـيرة. إن البركـة التـى تحملهـا قطـرات المطـر إلى الأرض تفـضى إلى تلـك الكتلـة الأخـرى التـى يحيـا المـرء عليهـا، أى الـذرة. فهـى، كبقيـة المحاصيـل، تعنـى التجمـع فى أكـوام. والأمـر هنـا هـو عـلى وجـه الدقـة بمثابـة عمليـة عكسـية، فغـمام المطـر يتفتـت قطـراتٍ، لكـن كـوم المحصـول يتجمـع معًـا، سـواء فى الكيـزان أو حبوبًـا. ومـن خـلال هـذا الغـذاء يشـتد عـود النـاس وتخصـب النسـاء. وتـتردد فى الصلـوات غالبًـا كلمـة "الأبنـاء" فـإذا مـا تحـدث الكاهـن عـن الأحيـاء مـن أهـل القبيلـة ذكـر أيضًـا كل الصبيـة والفتيـات، أى كل مـن كان لا يـزال طريـق الحيـاة مفتوحًـا أمامـه. فهـؤلاء هـم مـن يمثلـون مسـتقبل القبيلـة، والكاهـن يراهـم عـلى نحـوٍ غائـم ككل مـن سيشـق طريقـه إلى الحيـاة.

وعـلى هـذا النحـو فـإن الكتـل الأساسـية فى حيـاة البوبلـو هـى الأجـداد والمطـر والـذرة والأبنـاء. وعـلى نحـوٍ مـا يسـقط مـن حسـاباتهم كل مـن (حزمتـى) حشـدى

القنص والحرب من أنواع الحشود الأربعة، كما توجد بقايا عمليات صيد الأرانب، فقد ظل هناك مجموعةٌ من المحاربين، منوطٌ بهم مهمة الشرطة فحسب، وهي لا تتفق إلا قليلاً مع مفهومنا لدور الشرطة. ودور حشد المناحة لديهم دورٌ محدود إلى حدٍّ يثير الدهشة التامة. فهم لا يهتمون كثيراً بحالات الموت. وهم يحاولون بقدر الإمكان نسيان الموتى كشخصيات فردية، فبعد أربعة أيامٍ من حدوث الوفاة يحذر الكاهن الأعلى المحزونين بالتوقف عن التفكير في الموتى، فمن مات "قد مات بالفعل من أربع سنواتٍ"، وهو بذلك يدفع بالموت إلى الماضي، ما يؤدى إلى تهدئة الألم. (فحزم) فحشود المناحة إذن لا تمثل للبوبلو شيئًا، لأنهم "يتجنبون" الألم.

أما ما يتبقى لديهم كنوعٍ من أنواع الحشد النشط والثرى فهو حشد التكاثر، وهو ما تقوم عليه المعنى الحرفى الكامل لحياتهم الاجتماعية. ولنا أن نقول إنهم يعيشون من أجل هذا التكاثر فحسب، الذى هو فى نهاية الأمر موجهٌ وجهة إيجابية. أما "رأس جانوس" المعروف لدى شعوبٍ كثيرة أخرى: الذى يعنى التكاثر الذاتى من ناحيةٍ، وتحجيم تكاثر العدو من ناحية أخرى، فهو أمرٌ غير معروف لديهم. وأما المطر والذرة فقد وضعوا كليهما فى إطار الاعتدال، ولا تدور حياتهم إلا حول أجدادهم وأبنائهم.

عن ديناميكية الحرب:
القتيل الأول - النصر

إن ديناميكية الحشود أو الديناميكية الداخلية للحرب تتجلى فى جوهرها على هذا النحو: من حشد المناحة على الميت يتكون حشد الحرب الملتزم بالثأر له. ومن حشد الحرب الظافر يتكون حشد تكاثر النصر. فيكون القتيل الأول هو من أصاب الجميع بعدوى الشعور بالخطر. وأهمية هذا القتيل الأول لا يمكن تقديرها بالنسبة للحروب، فأصحاب السلطة ممن ينوون شن حربٍ ما، يدركون على وجه اليقين حتمية إيجاد قتيلٍ أول أو اختراعه. ولا يرتبط الأمر إلى حدٍّ كبير بأهمية هذا داخل جماعته، إذ إن من الممكن أن يدور حول شخصٍ غير مؤثرٍ على الإطلاق. فأحيانًا يتعلق الأمر بشخص مجهول. فالمسألة تتعلق بموته ولا شىء سواه. وعلى المرء أن يؤمن بتحمل العدو مسئولية ذلك، كما يمكن إغفال كل الأسباب التى أدت إلى موته فيما عدا واحدًا، هو أنه تم قتل عضوٍ بالجماعة محسوبًا عليها لينشط حشد المناحة الذى ينشأ بسرعة كبلورة كُتلية (جماهيرية)، وهى منفتحةٌ إلى حدٍّ ما، فينضم إليها كل من أدى السبب نفسه إلى شعوره بالخطر. وتنقلب عقيدة هذه الكتلة إلى حشد حربٍ. أما الحرب التى تنشب بسبب سقوط قتيلٍ أو نفرٍ قليل من القتلى فإنها تنتهى إلى قتل عددٍ عظيم. إلا أن المناحة على هؤلاء

بعد إحراز النصر فإنها تقف على النقيض من سابقتها الأولى، أى باهتة للغاية، فالنصر كعامل حاسم فى تحجيم أعداد العدو، إن لم يكن قضى عليه، يقلل من أهمية المناحة على قتلى المنتصرين. فهؤلاء تم الدفع بهم كصفوفٍ أمامية إلى ساحة الموت، فاندفع خلفهم عدد أكبر منهم بكثير من الأعداء، ما حرر الآخرين من الخوف، ومن دون الخوف لما خاض هؤلاء الحرب. لقد انكسر العدو وتلاشى التهديد الذى وحد شمل المنتصرين، وعاد كلٌ ليهتم بشئونه الشخصية. ويوشك حشد الحرب أن يتفتت فى أثناء عمليات النهب، وهو ما يماثل ما يحدث لحشد القنص فى أثناء عملية التقسيم. فإذا لم يكن هناك شعورٌ عام حقيقى بالخطر تكون فرصة النهب وحدها هى دافع الناس إلى الحرب. وهنا تجب دائمًا إتاحة الفرصة لهم، فثمة قائدٌ ميدانى محنك يجد مشقةً فى الإقدام على منع رجاله من ذلك. إلا أن خطر التفتت التام للقوات جراء عمليات النهب يكون عظيمًا إلى حد تفكير الإنسان على الدوام فى ايجاد وسيلة لإعادة صياغة العقيدة الحربية والقتالية.

أما الوسيلة الأكثر نجاحًا فكانت هى احتفالات النصر. فمواجهة تحجيم عدد العدو بزيادة التكاثر هى فى الواقع بمثابة الدافع إلى احتفالات النصر. فيتم جمع أفراد الشعب، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ليظهر المنتصرون على نفس هيئتهم التى خاضوا بها الحرب. واستعراضهم هذا أمام الشعب هو ما ينقل إليهم عدوى أجواء الانتصار. ويتواصل ازدياد عدد الناس المندفعين إلى هناك حتى يحضر كل من استطاع مغادرة بيته على نحوٍ أو آخر. ولا يقتصر الاستعراض على المنتصرين أنفسهم فحسب، يشرعون فى جلب الكثير معهم، فقد جاءوا متكاثرين، فها هى الغنائم تُعرَض أمام أعين الشعب، وهو ما يمثل طفرةً فى كل ما يحتاجه هؤلاء ويعرفون قيمته، فكلٌ منهم سوف يصيب شيئًا من هذا، سواء كان من يتولى عملية التقسيم الكبرى على الشعب هو القائد الميدانى أو الملك، وسواء اتخذ ذلك صورة إسراف فى المنح أو صورة الوعد بمنافع أخرى. ولا تقتصر الغنائم على الذهب والبضائع فحسب، بل أيضا ها هم أسرى يقادون إلى هناك ليُظهِر عددهم الكبير مدى تحجيم عدد العدو. فأما المجتمعات التى تحافظ إلى حدٍّ ما على رقيها الحضارى فإن الأمر يتوقف عند حد استعراض الأسرى، وأما تلك الأخرى التى نعتبرها بربرية فإنها تطلب المزيد، فهم يريدون مجتمعين معايشة تحجيم عدد العدو بعد تلاشى الشعور بالخطر المباشر. وهكذا يتطور الأمر إلى

عمليات إعدامٍ جماعية للأسرى كما جاء بنصوص تقارير عن احتفالات انتصار كثيرٍ من الشعوب المحاربة. وقريبٌ من هذا كانت قد اتخذت عمليات الإعدام هذه في عاصمة مملكة "داهومي"(54) أبعادًا خيالية. فهناك كان يقام حفلٌ سنوى يستغرق عدة أيام، يقدم الملك في أثنائه عرضًا مسرحيًا دمويًا أمام شعبه فيتم اجتزاز رءوس مئات الأسرى أمام الحاضرين كافةً. فها هو الملك قد تصدر منصة وسط علية قومه، وها هو الشعب في تجمعٍ حاشد أسفل المنصة وبإشارةٍ من الملك يقوم السيافون بعملهم ثم يُلقَى برءوس القتلى في كومٍ على أن تتاح رؤية هذه الأكوام للجميع، ثم تجوب المواكب شوارع عُلِّق على جانبيها جثث الأعداء عرايا في المشانق. وحتى لا يُجرَح شعور حياء نساء الملك العديدات كانوا يقومون بتشويه الجثث، أى إخصائها. وفي اليوم الأخير للحفل كان البلاط الملكى قد اجتمع ثانيةً على المنصة ليسرف في منح العطايا للشعب، فيلقى بالمحار المستخدم كنقودٍ على أفراد الشعب الذى يعانى المشقة في سبيل الحصول عليها، ثم يلقى بأعداءٍ مقيدين اجتُزَّت رءوسهم كذلك ليتصارع الشعب على هذه الأجساد، ويسبب لهم التهام هذه الأجساد شيئًا من النشوة، وكلٌ يريد انتزاع جزءٍ من العدو القتيل. وهنا يمكن الحديث عن تناول النصر. وبعد البشر يجىء دور توزيع الحيوانات، على أن يبقى الأمر الحاسم في ذلك هو العدو.

وقد وصلتنا تقارير شهود عيان لأوروبيين عن هذه الاحتفالات، وهى تعود إلى القرن الثامن عشر. في هذا الزمن كان هناك ممثلون لأممٍ بيضاء، كان لها محطاتٌ تجارية على السواحل، وكانت مادة تجارتهم هى العبيد. وقد جاءوا إلى العاصمة "أبومى" من أجل ابتياع هؤلاء من الملك. وقد باع الملك جزءًا من أسراه إلى الأوروبيين حينذاك، فقد كان يشن الحملات الحربية لهذا الغرض، وهو ما كان يروق للأوروبيين حينذاك، ولم يكن يروقهم بنفس القدر أن يكونوا شهودًا على المذابح الجماعية، إلا أن حضورهم كان يعتبر لفتةً طيبة نحو البلاط، كما كانوا يحاولون إقناع الملك بأن يبيع لهم الضحايا المقرر إعدامهم - كعبيد- معتبرين أنفسهم أكثر إنسانيةً، إلا أن ذلك كان يفيد صفقاتهم. لكنهم كانوا يعجبون لرؤيتهم الملك وهو يرفض التنازل لهم عن ضحاياه رغم جشعه، وكانوا يغضبون من عناده في أوقاتٍ تتراجع فيها تجارتهم من جراء نقص عددٍ من العبيد، فهم لم يستوعبوا أن الملك مهتمٌ بسلطته أكثر من اهتمامه بما يملك. أما الشعب فقد كان معتادًا على استعراض الضحايا. فمن خلال استعراض تحجيم

الأعداء على هذا النحو يستمد إيمانه بزيادة تكاثره هو. ومن هذا التكاثر تنبع سلطة الملك على نحوٍ مباشر. وكان للمشهد المسرحى أثرٌ ذو طبيعة مزدوجة. فقد كان أكثر الوسائل نجاحًا فى إقناع الشعب بتكاثر عدده فى عهد الملك والحفاظ عليه فى حالة كتلةٍ جماهيرية مستسلمة دينيًا، إلا أنه يحفظ أيضًا استمرار حالة الفزع من أوامره لأنه هو شخصيًا من يصدر الأمر بالإعدام. وكان احتفال النصر هو أكبر المناسبات الرومانية العلنية ففيه يجتمع أهل المدينة كافةً. ومع بلوغ الإمبراطورية أوج قوتها، لم تعد بحاجة إلى غزواتٍ متواصلة، وصار من النصر نفسه مناسبةً رسمية تتكرر بتاريخٍ ثابت فى التقويم السنوى. فصار النزال يدور فى حلبة المصارعة أمام أعين المجتمعين دون تبعاتٍ سياسية، لكن لم يكن من دون مغزى (ليس معنى هو)، إذ إنه يحفظ تحديدًا بحيوية الشعور بالنصر. والرومان، مثلهم مثل المشاهدين، كانوا لا يصارعون بعضهم البعض، لكنهم كانوا يحددون فى إطار الكتلة من هو المنتصر ويحتفلون به كاحتفالهم فى الأيام الخوالى. فلم يكن يهمهم غير هذا الشعور بالنصر. أما الحروب غير الضرورية فقد فقدت أهميتها فى مقابل ذلك.

وهذه الشعوب التاريخية كانت تعتبر الحرب وسيلة للتكاثر من خلال الفوز بغنائم كانت تعيش عليها، أو أسر العبيد الذين كانوا يعملون فى خدمتها. وأما أشكال التكاثر الأخرى التى تتطلب المثابرة فكانت غير مقبولةٍ وتُعتبَر زائفةً، ليتكون بذلك نوعٌ من الجهاد الدينى الرسمى هدفه هو التكاثر على أسرع وجه.

الإسلام كدين جهاد

هناك أربع صورٍ لتجمع المسلمين:

1. هـم يجتمعـون عـدة مـراتٍ يوميًـا لأداء الصـلاة التـى ينـادى عليهـا مـن موضـع عـالٍ، وهنـا يـدور الأمـر حـول مجموعـاتٍ صغـيرة إيقاعيـة يمكـن اعتبارهـا حشـد صـلاة. وقـد فُـرِض عليهـا أداء حـركات بدقـة تتجـه نحـو مكـة. وينمـو حجـم هـذه الحشـود مـرةً فى الأسـبوع عنـد صـلاة الجمعـة فتصـير كتلـة.

2. يتجمعون للجهاد ضد الكافرين.

3. يتجمعون فى مكة عند الحج الكبير.

4. يتجمعون فى الآخرة.

فى الإسـلام، ككل الديانـات، توجـد كتلـة غـير مرئيـة عـلى جانـبٍ عظيـم مـن الأهميـة. لكـن هنـا توجـد كتلـة مزدوجـة غـير مرئيـةٍ تقـف فى مواجهـة بعضهـا البعض، تكـون صبغتهـا أكـثر حـدةً مـن تلـك التـى بالديانـات العالميـة الأخـرى. فعندمـا يُنفَـخ فى الصـور، يـوم القيامـة، ينهـض المـوتى كافـةً مـن قبورهـم مسرعـين إلى سـاحة الحسـاب كمـن صـدر لـه أمـرٌ عسـكرى. وهنـاك يقفـون بـين يـدى اللـه فى مجموعتـين كبيرتـين

منفصلتين. فعلى جانب يكون المؤمنون وعلى جانبٍ آخر يقف الكافرون ليحاسب الله كل فردٍ منهم على حدة.

على هذا النحو تتجمع أجيال البشر كافةً، ويظن كلُ امرئ أنه دُفِن قبل ذلك بيومٍ واحد، غير مدركٍ بمدى الزمن الذى أمضاه بالقبر. فموته لم يكن سوى طيف حلم بلا ذاكرة. إلا أن الجميع يسمعون نفخ الصور "فيأتى الناس أفواجًا". ويذكر القرآن أفواج تلك اللحظة العظيمة وهو التصور الأكثر شمولاً عن الكتلة، وهو تصورٌ لدى كل مسلمٍ مؤمن، فليس بوسع أى إنسانٍ تصور عدد كائنات بشريةٍ أعظم من عدد هؤلاء الذين كانوا ذات يومٍ على قيد الحياة، وقد تزاحموا جميعًا فوق بقعةٍ واحدة. إنها هى الكتلة التى لا يتسنى لها النمو بعد ذلك وهى ذات الكثافة الأعظم، فكلُ امرئ من هؤلاء يقف بالموضع نفسه أمام وجه قاضيه. لكن رغم الحجم والكثافة يظل الجمع من البداية إلى النهاية منقسمًا دائمًا إلى جماعتين، وكل منهما تعرف يقينًا ما ينتظرها، فهنا الرجاء، وهناك الخوف، كما جاء بالقرآن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾[1].

ولما كان الأمر يتعلق بحكمٍ عادل عدلاً مطلقًا - فكل الأعمال دونت ويمكن إثباتها كتابةً – فلا يكون بوسع أى فردٍ الإفلات من جماعة كان هو أحد أفرادها طبقًا للقانون الحق. إن انقسام الكتلة فى الإسلام إلى مجموعتين هو أمرٌ لا مناص منه. فالتقسيم هنا يفرق بين مجموعة المؤمنين وبين مجموعة الكافرين. وقد كُتِب عليهما الانقسام الدائم بأن تحارب كلٌ منها الأخرى. ويعتبر الجهاد الدينى فريضةً مقدسة، وعلى هذا النحو يتم تكوين كتلة الآخرة المزدوجة، كذلك فى الحياة الدنيا فى كل معركة، وإن كانت أقل شمولاً.

وهناك صورةٌ أخرى مغايرة تمامًا يضعها المسلم نصب عينيه وهى لا تقل قداسةً، إنها فريضة الحج إلى مكة. والأمر يتعلق هنا بكتلةٍ جماهيرية بطيئة تتكون من خلال تدفقٍ تدريجى من كل البلاد. وقد يمتد هذا لأسابيع أو شهور، بل ولسنوات حسب بعد المسافة من الوطن إلى مكة. ولأداء فريضة الحج لمرةٍ واحدة على الأقل طوال الحياة أثرٌ على حياة الإنسان الدينية كلها، فمن لم يؤد فريضة الحج هذه كأنه لم يعش حقًا. وعلى نحوٍ ما فإن تجربة الحج تشمل كل

---

1 [عبس: 38 - 42]

المناطـق التـى سـادتها هـذه العقيـدة، وتجمعهـا فى المـكان الـذى خرجـت منـه. وكتلـة الحجيـج هـذه هـى كتلـة مسـالمة، وهـى متفـردةٌ، ووجهتهـا الوحيـدة هـى الوصـول لهدفهـا. فلـم يفـرض عليهـا إخضـاع كافريـن، ومـا عليهـا إلا الوصـول إلى موضعهـا المنشـود والوجـود هنـاك. وأن تسـتوعب مدينـة بحجـم مكـة أفـواج الحجيـج هـذه التـى لا حـصر لهـا، لهـو أمـرٌ يعتـبر مـن المعجـزات النـادرة تمامًـا.

أمـا الحـاج الإسـبانى (الأندلـسي) "ابـن جبـير"[55] الـذى أقـام بمكـة فى نهايـة القـرن الثـانى عـشر وتـرك لنـا وصفًـا مسـهبًا عـن ذلـك، فإنـه يـرى أن أكـبر مدينـة بالعـالم لا تتسـع لهـذا العـدد الغفـير مـن النـاس، إلا أن مكـة حلـت بهـا بركـة التمـدد الخـاص بالكتلـة، فـلا بـد هنـا مـن مقارنتهـا بالرحـم التـى يكـبر حجمهـا أو يصغـر وفقًـا لحجـم الجنـين. وأهـم لحظـات الحـج هـى لحظـة الوقـوف بـوادى عرفـات، حيـث يتجمـع هنـاك 700.000 نسـمة معًـا ومـا ينقـص مـن هـذا العـدد تكملـه الملائكـة الذيـن يوجـدون غـير مرئيـين بـين النـاس. فـإذا مـا انقضـت الأيـام الحـرم يـؤذن بالجهـاد مـرةً أخـرى. ويقـول أحـد أفضـل العارفـين بالإسـلام "إن محمـدًا هـو نبـى الجهـاد والحـرب"[56]... وكان مـا أتـاه فى إطـار مجتمعـه العـربي بمثابـة وصيـةٍ لمسـتقبل أمتـه: إن الجهـاد ضـد الكافريـن ليـس بالمقـام الأول هـو نـشر الدعـوة خـارج حـدود منطقـة سـلطانها لأنهـا تحـت سـلطان اللـه، فعـلى مجاهـدى الإسـلام أولاً إخضـاع الكافريـن وليـس دعوتهـم للإيمـان. والقـرآن، الكتـاب الـذى أوحـى اللـه بـه إلى النبـى، لا يـدع مجـالاً للشـك فى هـذا: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾[1]

1 [التوبة:5]

ديانات المناحة

لقد صارت ديانات المناحة أحد ملامح وجه الأرض. وقد وصلت فى المسيحية إلى نوعٍ من الإقرار العام. ولم يستمر الحشد الذى انتقلت منه هذه الأديان طويلاً. فما الذى منح الأشكال العقائدية المنبثقة عن المناحة رسوخها وتماسكها، وما هو الذى وفر لها هذا الصمود الذى اتسمت به عبر آلاف السنين؟ إن الأسطورة التى تتمحور هذه الأديان حولها هى أن إنسانًا ما أو إلهًا ما كان قد قُتل ظلمًا. إنها دائمًا قصة الملاحقة، سواء كان ذلك فى أثناء القنص أو المطاردة. كما يمكن ربط ذلك بعملٍ ظالم، فإن كان ذلك قنصًا فإن المصاب لم يكن الهدف المنشود، بل كان أكثر القناصين نبلاً هو من أصيب بدلاً من الحيوان المنشود. وقد يكون على النقيض من ذلك، أى أن الحيوان المطارَد هو الذى هاجم القناص وأصابه بجروحٍ قاتلة كما جاء فى تراث "أدونيس" و"إيبر" حيث لم يكن من الواجب أن تحدث هذه الوفاة تحديدًا، وقد فاق الحزن عليه كل الحدود. وقد يحدث أن تقع ربةٌ ما فى غرام ضحيتها وتنوح عليها، كما فعلت "أفروديت" مع "أدونيس"، وفى صيغتها البابلية تسمى هذه الربة "عشتار". أما تمّوز فهو الفتى الجميل الذى مات مبكرًا. ولدى "الفريجيين" كانت الربة الأم "كيبله" هى التى حزنت على عشيقها الشاب "أطيس"[57].

"لقد أسرعت بحق، فشدت أسودًا إلى عربتها، واصطحبت رهبانًا جعلتهم أيضًا يسرعون مثلها، فصارت تحوم حول جبل إيدا كله وتنوح على رفيقها أطيس، وكان أن أحدثت إحدى الراهبات جروحًا بذراعيها، وكان هناك آخَر يجوس راكضًا فى الجبل بشعرٍ متطاير، وثالثٌ ينفخ فى البوق، وآخرٌ يقرع الطبول أو يثير صخبًا بضرب صفائح بعضها ببعض. لقد صار جبل إيدا كله فى اضطراب وغضب خيالى". وفى مصر كانت هى إيزيس التى فقدت أوزيريس زوجها، فصارت تبحث عنه بلا كللٍ وجابت أرجاء الأرض مهمومةً، فلم تعرف سبيلاً للراحة قبل أن تعثر عليه. وقد أخذت تنوح: "تعال إلى دارك... إنى لا أراك، إلا أن قلبى يخاف عليك وعينىّ تعشقانك، فلتأت إلى من تحبك أيها المبرور. تعال إلى أختك، تعال إلى زوجتك، إلى امرأتك، يا من قد سكن قلبه, تعال إلى ربة دارك. إنى أنا أختك، من الأم نفسها، فلا تبتعد عنى، فها هم الأرباب والبشر قد يمموا وجوههم نحوك وصاروا يبكونك معًا... إنى أناديك باكيةً لقد سُمِع بكائى حتى فى السماء، فهلا سمعت صوتى رغم أننى أختك التى أحببتها على الأرض وأنت لم تحب غيرى، يا أخى!"[58].

إلا أنه قد يكون ممكنًا – وهذه حالةٌ متأخرة لم تتحول لأسطورة – أن جماعةً من الأهل والتلاميذ يبكونه مثلما حدث مع المسيح أو الحسين، حفيد النبى، أى الشهيد لدى الشيعة. وقد تصوروا حالة القنص والملاحقة بكل تفاصيلها. إنها القصة الدقيقة التى يعتبرونها قصةً شخصية تمامًا يسيل في أثنائها دائمًا الدم حتى فى أكثر الأناشيد إنسانيةً. حتى فى حالة المسيح لم يمر الأمر من دون دمٍ وجراح، فكل ما يرويه نشيد العديد من تفاصيل ينم عن الظلم. وكلما ابتعد المرء عن زمن الأساطير كان الأمر يميل إلى إطالة نشيد العديد ويضاف إليها ملامح إنسانية بلا حصر. فالقنص والملاحقة تشعر بهما الضحية دائمًا وعند موت الضحية يتكون حشد المناحة، لكنه يكون على درجةٍ خاصة، فالمتوفى مات فى سبيل هؤلاء الذين ينوحون عليه. لقد كان هو منقذهم، سواء كان قناصهم العظيم، أو أنه صنع بهم معروفًا أعظم قيمة. فها هم يبرزون صنيعه النفيس بكل السبل. وهو تحديدًا الذى ما كان يجب أن يموت. والنائحون عليه لا يقرون بموته، بل هم يريدون استعادته إلى الحياة. ففى استعراض حشد المناحة القديمة - مثل تلك الحالة الأسترالية التى تناولناها - فقد تم التأكيد على أن المناحة تبدأ بالفعل على الميت، فيحاول الأحياء الاحتفاظ به، فيغطونه بأجسادهم ويأخذونه إلى رهطهم

ويضغطـون بشـدةٍ عليـه مـن كل ناحيـةٍ محاولـين منعـه مـن فراقهـم. وفى الغالـب يسـتدعونه أيضًـا بعـد ظهـور بـوادر المـوت. ولا تبـدأ المرحلـة التاليـة إلا بعـد أن يوقنـوا تمامًـا أنـه لـن يعـود ثانيـةً فيطلقونـه إلى عـالم المـوتى. وفى حالـة حشـد المناحـة الـذى نتناولـه هنـا والـذى يُقـام مـن أجـل ميـتٍ عزيـز، فإنـه تتـم إطالـة أمـد احتضـاره بـكل السـبل، حتـى يرجـع عـن هجـران ذويـه أو المؤمنـين بـه، وهـم هنـا نفـس الأشـخاص.

إن المرحلـة الأولى، أى الرغبـة فى الاحتفـاظ بالميـت، هـى المرحلـة الحاسـمة والتـى ينصـب عليهـا الاهتـمام بـأسره، وهـو الوقـت الـذى يجتمـع فيـه الـكل مـن كل مـكانٍ ويُرحَـب بـكل مـن يشـاء النـواح عـلى الميـت.

وفى هـذا الثقافـات الدينيـة ينفتـح حشـد المناحـة ويتمـدد إلى جمهـور ينمـو بـلا حـدود.

وهـذا يحـدث فى أثنـاء حفـل الميـت نفسـه، فهنـا تنشـد أغـانى العديـد الخاصـة بـه. وتنضـم مـدنٌ بكاملهـا إلى هـذه الاحتفـالات، وغالبًـا مـا يـأتى كذلـك أفـواج حجيـجٍ مـن أماكـن بعيـدة. ويحـدث انفتـاح حشـد المناحـة أيضًـا عـبر فـتراتٍ زمنيـة طويلـة، ليتكاثـر عـدد المؤمنـين الـذى يبـدأ بقليـلٍ مـن المقربـين الـذى يقفـون عنـد المصلـوب، الـذى يمثـل لـب المناحـة. وفى أول أعيـاد "العنـصرة" كان عـدد هـؤلاء سـتمئة مسـيحى تقريبًـا. وقـد صـاروا فى عهـد الإمبراطـور قنسـطنطين عـشرة ملايـين. وقـد ظـل جوهـر الديـن عـلى مـا كان عليـه، فقـد ظلـت المناحـة هـى مركـزه. فـما هـو سر انضـمام هـذا العـدد الغفـير إلى المناحـة؟ ومـا هـو وجـه إفـادة النـاس منهـا؟ فالأمـر نفسـه يحـدث لـكل مـن ينضـم إليهـا، فحشـود الصيـد أو التحريـض تكفـر عـن ذنبهـا لتصـير حشـد مناحـة. وهـؤلاء النـاس عاشـوا حياتهـم مطارديـن ويواصلـون حياتهـم عـلى طريقتهـم مطارديـن. فهـم يبحثـون عـن لحـم غريـبٍ يمزقونـه ويتغـذون عـلى آلام المخلوقـات الضعيفـة. وتنعكـس فى أعينهـم نظـرة الضحيـة المنكـسرة. أمـا ضحيتهـم الأخـيرة فإنهـا تحفـر نفسـها فى أنفسـهم عـلى نحـوٍ لا يمحـى.

وقـد لا يـدرك هـؤلاء أن الظـلام داخلهـم يتغـذى عـلى لحـم الضحيـة. إلا أن اطّـراد نمـو الذنـب والخـوف داخلهـم لا يتوقـف، وبـذا يتحرقـون بـلا وعـيٍ إلى الخـلاص، وهـو مـا يجعلهـم ينضمـون إلى مـن مـات فى سـبيلهم. وفى أثنـاء نواحهـم عليـه يشـعرون أنهـم أنفسـهم ملاحَقـون. ومهـما كان فعلهـم ومهـما كان غضبهـم فإنهـم يكونـون فى هـذه اللحظـة قـد انتقلـوا إلى منطقـة الألم. وهـو تبـدلٌ مفاجـئ ومتنـامٍ يحررهـم مـن

الذنـب، وهـو أن المـوت يصيبهـم هـم أنفسـهم، فإثـم مـا فعلـوه دائمًـا بآخريـن دفـع آخـرٌ ثمنـه. أمـا إخلاصهـم لـه وتعلقهـم بـه فيجعلهـم يغفلـون عـن الثـأر لـه، عـلى حـد مـا يعتقـدون. ومـن الواضـح أن ديانـات المناحـة لا غنـى عنهـا بالنسـبة لغـذاء روح البـشر مـا لم يكـن بوسـعهم التنـازل عـن القتـل فى حشـود. ومـن بـين الديانـات التـى وصلـت إلينـا والتـى يمكـن وضعهـا موضـع تأمـل أكـثر دقـة، المذهـب الشـيعى المسـلم الـذى هـو الأكـثر دلالـةً.

وقـد يكـون مـن المفيـد أن نتنـاول عقيـدة تمـوز أو أدونيـس وعقيـدة أوزيريـس وعقيـدة أطيـس، إلا أن كل هـذه تنتمـى إلى المـاضى، ولم نعرفهـا إلا مـن خـلال الكتابـة المسـمارية أو الهيروغليفيـة أو روايـات الكتـاب الكلاسـيكيين، ورغـم قيمـة هـذه الروايـات الفائقـة فإنـه يبـدو أكـثر إقناعًـا أن نتنـاول عقيـدةً مـا زالـت قائمـةً حتـى الآن باديـةً للعيـان عـلى نحـوٍ واضـح. أمـا المسـيحية فهـى أهـم ديانـات المناحـة كافـةً. ومـا زال لدينـا مـا سـوف نتناولـه عـن الصيغـة الكاثوليكيـة لذلـك. وهنـاك لحظـاتٌ فارقـة فى المسـيحية، وهـى لحظـات انفعـالٍ جماعـى واقعـى. فبـدلاً مـن اسـتعراض مناحـةٍ حقيقيـة صـارت نـادرةً فإنـه ينبغـى تنـاول لحظـاتٍ أخـرى مثـل "نـار البعـث" بكنيسـة القيامـة الواقعـة عـلى مشـارف القـدس. أمـا المناحـة نفسـها كحشـد حـماس ومنفتـح عـلى كتلـةٍ جماهيريـة حقيقيـة، فمنهـا حفـل "المحـرم" الشـيعى الـذى يمثـل أهميـةً لا مثيـل لهـا.

احتفال الشيعة بشهر"المحرم"

هناك عقيدة مناحة لا يمكن العثور على مثيلٍ لها فى التركيز والتطرف، وهى فرقة نشأت بعد انشقاقها عن الإسلام - صاحب عقيدة الجهاد الواضحة الملامح-: إنها عقيدة الشيعة، وهى الدين الرسمى فى إيران واليمن والمنتشر على نحوٍ واسع بالهند والعراق. والشيعة يؤمنون بزعيمٍ روحى ودنيوى لجماعتهم يطلقون عليه "الإمام" الذى تعتبر مكانته أعظم أهميةً من مكانة البابا، فهو حامل النور الإلهى وهو معصوم. والمؤمن التابع للإمام هو الوحيد الناجى "من مات دون معرفة إمام عصره الحقيقى مات ميتةً جاهلية"[59].

يرجع نسب الإمام إلى نسل النبى مباشرة، ويعتبر "عَلِيٌّ"، صهر محمد وزوج ابنته فاطمة، هو الإمام الأول. وقد عهد النبى إلى "علِىّ" بمعارف خاصةٍ حرم منها أتباعه الآخرين. ويتوارث أفراد أسرته تلك المعرفة كما ولّى "عليًا" صراحةً خليفة له فى الدعوة والإمارة، وهو من خلال وصية النبى صار المختار المستحق للقب "أمير المؤمنين". وقد ورث هذا المنصب ابنا علىٍّ -الحسن والحسين- وهما حفيدا النبى. فصار الحسن الإمام الثانى والحسين الثالث. وكل من كان غيرهما ممن تقلدوا إمارة المؤمنين كان مغتصبًا للمنصب.

وبعد وفاة محمد كان على تاريخ الإسلام السياسى أن ينشئ أسطورةً حول علىٍّ وأبنائه. فعَلىٌّ لم ينتخَب خليفةً بعد وفاة النبى مباشرةً. فقد تقلد هذا المنصب خلال أربعة وعشرين عامًا بعد وفاة محمد ثلاثةٌ من رفاق كفاحه تباعًا. أما "علىٌّ" فلم يتول الحكم إلا بعد وفاة ثالث هؤلاء، ولم يحكم إلا لفترةٍ وجيزة، فقد اغتيل على يد خصمٍ متطرف بسيفٍ مسموم فى أثناء صلاة الجمعة بالجامع الكبير بالكوفة. وقد ارتضى ابنه البكر الحسن التنازل عن حقوقه مقابل عدة ملايين من الدراهم، لينسحب عائدًا إلى مكة حيث مات بعد عدة سنوات.

وقد صارت الآلام حول أخيه الأصغر الحسين هى النواة الحقيقية لعقيدة الشيعة[60]. فقد كان الحسين هو الصورة المناقضة لمسلك الحسن، فعاش بالمدينة، ورغم أنه صار زعيمًا للشيعة بعد وفاة أخيه ظل لمدةٍ طويلة لا يشارك فى القلاقل السياسية. لكن بعد وفاة الخليفة الحاكم بدمشق ورغبة ابنه فى تولى الخلافة رفض الحسين البيعة له، فأرسل أهل مدينة الكوفة المتمردون بالعراق إلى الحسين مطالبين إياه بالقدوم إليهم لكى يبايعوه خليفةً. فإذا جاءهم فلسوف يحصل على كل شىء هو جديرٌ به. فاتخذ الحسين سبيله إليهم مع أسرته نساءً وأطفالاً وجماعة قليلة من أنصاره. وكان طريقًا طويلاً بالصحراء، وعندما اقترب من الكوفة التى كانت خارج نفوذه بالفعل كان حاكمها قد أرسل جيشًا يفوق عدده أنصار الحسين بكثير، ليلتقى به ويطالبه بالاستسلام. فلما أبى قطعوا عليه السبيل إلى الماء وحوصر هو وجماعته فى وادى كربلاء. وفى اليوم العاشر من شهر المحرم فى العام 680 ميلادية شُنَّ الهجوم على الحسين وآله الذين استبسلوا فى الدفاع عن أنفسهم قبل أن ينهزموا، فُقتل معه سبعة وثمانون فردًا من بينهم كل أفراد أسرته وأسرة أخيه. وقد عثر بجثمانه على ثلاثٍ وثلاثين طعنة رمحٍ وأربع وثلاثين طعنة سيفٍ، وأمر قائد القوة المعادية رجاله بالركض فوق جثة الحسين بجيادهم فدُهِسَ حفيد النبى فى الأرض بسنابك الخيول، وجُزَّ رأسه وأُرسل إلى الخليفة بدمشق لينكت هذا فم الحسين بعصاه، إلا أن عجوزًا من أصحاب محمد كان حاضرًا فنهره قائلاً: "ارفع عصاك فقد رأيت فم النبى يقبل هذا الفم".

وقد صارت النكبات التى حلت بنسل محمد الموضوع الأصيل لأدبيات العقيدة الشيعية[61]، "أنصار هذه الفرقة الحقيقيون يعرفهم المرء بأجسادهم الضامرة زهدًا وشفاههم الجافة ظمأً وأعينهم الزائغة من بكاءٍ متصل". فالشيعى

الحقيقـي ملاحـقٌ وبائـس كالأسرة التـي يدافـع عـن حقهـا ويعـانى فى سـبيل ذلـك. وسرعـان مـا اعتقـد أن ذلـك ابتـلاء لأسرة النبـى وملاحقـة يعـانى مـن أجلهـا.

ومنـذ اليـوم الحزيـن بكربـلاء بـدأ تاريـخ هـذا النسـل كحلقـةٍ متصلـة مـن الآلام والـكروب. وقـد اعتنـى مؤرخـو الشـهداء بتدويـن قصتهـم شـعرًا ونـثرًا فى أدبٍ ثـرى، وهـو مـا يمثـل مـادة تجمـع الشـيعة فى الثلـث الأول مـن شـهر المحـرم الـذى يعـد اليـوم العـاشر منـه (عاشـوراء) الذكـرى السـنوية لمأسـاة كربـلاء. "إن أيـام ذكرانـا هـى أيـام الحـزن لتجمعاتنـا" هكـذا يختتـم أمـير شـيعى نبيـل قصيـدةً ذكـر فيهـا الكثـير عـن ابتـلاء آل النبـى. إن البـكاء والنـواح والحـزن عـلى المصـير البائـس وملاحقـة أسرة "عـلىٍّ" واستشـهادها هـو بمثابـة الهـم الحقيقـى للمخلصـين الحقيقيـين. وقـد جـاء فى قـولٍ عـربي مأثـور: "إن هـذا لأكـثر أثـرًا مـن دمـوع الشـيعة". وقـد قـال هنـدىٌّ معـاصر مـن أتبـاع هـذه العقيـدة: "البـكاء عـلى الحسـين هـو ثـواب حياتنـا وروحنـا فلـولاه لكنَّـا أكـثر خلـق اللـه جحـودًا، ولسـوف نواصـل حزننـا عـلى الحسـين فى الجنـة[62]... إن الحـزن عـلى الحسـين هـو شـعار الإسـلام ويسـتحيل عـلى الشـيعى ألا يبـكى، فقلبـه قـبرٌ حـى، هـو القـبر الحقيقـى لـرأس الشـهيد المجتـز"[63].

إن مـن يتأمـل شـخصية ومصـير الحسـين يجدهـما يقعـان مـن ناحيـة الشـعور موقـع القلـب مـن العقيـدة، فهـما النبـع الرئيـس الـذى تصـدر عنـه المعرفـة الدينيـة. وقـد كان موتـه بمثابـة تضحيـةٍ طواعيـة بالنفـس. ومـن خـلال آلامـه يصـل الأبـرار إلى الجنـة. ورغـم أن تصـور وجـود وسـيطٍ هـو أمـرٌ غريـبٌ عـلى الإسـلام، فـإن ذلـك قـد سـاد بـين الشـيعة منـذ وفـاة الحسـين. كـما صـار ضريـح الحسـين بكربـلاء أهـم مقصـد لحـج الشـيعة منـذ زمـن باكـر، فهنـاك أربعـة آلاف مـن الملائكـة يحيطـون بقبر الحسـين يبكونـه ليـل نهـار، وهـم يسـتقبلون كل حـاج - مـن أى مـكان جـاء - عـلى الحـدود. ومـن يـزور هـذه المقصـورة يحصـل عـلى مـا يـلى: فلـن يسـقط سـقف داره فوقـه أبـدًا. وهـو لـن يغـرق أبـدًا، ولـن يمـوت حريقًـا، ولـن تهاجمـه حيوانـاتٌ مفترسـة. ومـن يـؤدى الصـلاة فى هـذه المقصـورة عـن إيمـانٍ حقيقـى فإنـه يطـول عمـره، ويثـاب بأجـر ألـف حجـةٍ إلى مكـة وألـف شـهادة وألـف يـوم صـومٍ وألـف رقبـةٍ محـررة، وفى العـام التـالى يعجـز الشـيطان أو الأرواح الشريـرة عـن إيذائـه، فـإن مـات دفنتـه الملائكـة، وفى يـوم البعـث يقـوم مـع أتبـاع الحسـين الـذى يُعـرف برايـة بيـده، ليقـود الإمـام حجيجـه عـلى صراطٍ مسـتقيم إلى الجنـة. وطبقًـا لنصـوص قديمـةٍ أخـرى فـإن كل مـن

دُفـن بضريـح أحـد الأئمـة لـن يُسـأل يـوم البعـث مهـما كان ذنبـه، بـل سـوف يهـرع إلى الجنـة كأنـه يغـادر فراشـه وتصافحـه الملائكـة مهنئـةً. ولـذا أقـام الشـيعة المتقدمـون فى العمـر بكربـلاء كى يدركهـم المـوت هنـاك. فأمـا الآخـرون ممـن سـكنوا عـلى مسـافةٍ بعيـدة مـن المدينـة المقدسـة فإنهـم أوصـوا بدفنهـم هنـاك. وعـلى مـدار مئـاتٍ مـن السـنين لم تنقطـع قوافـل المـوتى إلى كربـلاء قادمـةً مـن فـارس والهنـد حتـى لم تعـد المدينـة سـوى جبانـة ضخمـة.

والعيـد الكبـير للشيعة، أينـما كانـوا، هـو أيـام شـهر المحرم التـى عانى فيها الحسـين آلامـه[64]. وفى أثنـاء هـذه الأيـام العـشرة تعيـش الأمـة الإيرانيـة كلهـا فى حـزنٍ، فيلبـس كلٌ مـن الملـك والـوزراء والموظفـون السـواد أو ملابـس رماديـة اللـون، ويطـوف رعـاة البغـال والجنـود بقمصـانٍ مسـدلة وصـدورٍ عاريـة، وهـو مـا يعتـبر إشـارةً واضحـة عـن الحـزن. ففـى غـرة المحـرم الـذى يوافـق بدايـة العـام يبـدأ العيـد حيـث تـروى قصـة ابتـلاء الحسـين مـن فـوق منصـاتٍ خشـبية، فتصـور كل تفاصيلهـا ولا تغفـل أيـة مرحلـةٍ ليتأثـر المسـتمعون تأثـرًا عميقًـا، وترتفـع صياحاتهـم "يـا حسـين"، "يـا حسـين" مصحوبـةً بأنـينٍ ودمـوع. ومثـل هـذا النـوع مـن التراتيـل تتواصـل فى أثنـاء اليـوم كلـه، ويتـوالى الوعـاظ عـلى منصـاتٍ مختلفـة. وفى الأيـام التسـعة الأولى مـن المحـرم تجـوب الشـوارع مجموعـاتٌ مـن الرجـال بصـدورٍ عاريـة أو مطليـة باللـون الأحمـر أو الأسـود، وهـم يشـدون شـعورهم ويجرحـون أنفسـهم بالسـيوف ويجـرون خلفهـم سلاسـل ثقيلـة، أو يـؤدون رقصـاتٍ عنيفـةً حتـى يصـل الأمـر إلى صراعـاتٍ دمويـة مـع أتبـاع العقائـد الأخـرى.

ويصـل الاحتفـال أوجَـهُ فى العـاشر مـن المحـرم فى موكـبٍ عظيـم يعبر فى جوهـره عـن موكـب دفـن الحسـين. أمـا مركـزه فهـو تابـوت الحسـين الـذى يحملـه ثمانيـة رجـالٍ ويمـضى خلـف التابـوت نحـو سـتين رجـلاً ملطخـين بالـدم وهـم ينشـدون أناشـيد متتاليـةً ويتبعهـم جـوادٌ هـو حصـان جهـاد الحسـين. وعـادةً مـا يوجـد فى النهايـة مجموعـةٌ مـن خمسـين رجـلاً تقريبًـا وهـم يضربـون زوجًـا مـن العيـدان الخشـبية بعضهـا ببعـض عـلى نحـوٍ إيقاعـى. إن الهـوس الـذى يتملـك كتلـة المناحـة فى أثنـاء مثـل هـذه الاحتفـالات لا يمكـن تصـوره تقريبًـا. ولسـوف نتعـرف عـلى ذلـك فيـما يـلى مـن خـلال اسـتعراض مـن طهـران.

إن مشاهد الاحتفال الحقيقية التى صورت آلام الحسين على نحو درامى عاطفى قد تحولت من بدايات القرن التاسع عشر إلى تأسيس وقف ثابت لها. وكان "جوبينيه" الذى أقام بإيران فى الخمسينات لفترةٍ طويلة قد قدم وصفًا مثيرًا لهذه المهرجانات. وقد تبرع الأثرياء لإقامة المسارح الخاصة بها، حيث إن ما يُبذل لهذا الغرض من نفقات تعتبر أعظم ما يمكن تقديمه من أعمال الخير: "فبها يُشيد للمتبرع قصرٌ فى الجنة". وتتسع أكبر المسارح المشيدة لألفى أو ثلاثة آلاف مُشاهدٍ. وقد قُدِّمت فى أصفهان عروضٌ أمام ما يربو على عشرين ألف مشاهدٍ. وكانت الدعوة عامةً، وبوسع الجميع الحضور، من الشحاذ فى أسماله حتى أغنى الرجال. وقد بدأت العروض فى الخامسة صباحًا، وقبل استعراض الآلام تكون ساعاتٌ عديدة قد انقضت فى المواكب والرقصات والعظات والأهازيج، كما قُدِّمت المشروبات المنعشة فى كل مكان. ويعتبر الموسرون والرجال المرموقون أنه شرفٌ لهم أن يقوموا بأنفسهم على خدمة أفقر المشاهدين. وقد رصد جوبينيه نوعين من هذا التآخى[65]. "رجالٌ وأطفال يمسكون بمشاعل خلف راياتٍ سوداء ضخمة، يدخلون المسرح فى موكبٍ ويطوفون به وهم ينشدون". والمرء يستطيع متابعة هذه الفرق ليلاً مسرعةً من مسرحٍ إلى آخر، بينما يعدو أطفالٌ أمامها وهم يطلقون بصوتٍ مدوٍ صيحات: "يا حسين! يا أكبر!". ويصطف الإخوة أمام منصات الوعاظ وهم ينشدون على نحوٍ عنيف ووحشى فيجعلون من يدهم اليمنى هيئة المحار ليضربوها بعنفٍ وانتظام أسفل كتفهم الأيسر، فيصدر صوتٌ مكتوم ناتجًا عن ضرب أيادٍ كثيرة فى آنٍ واحد، ليُسمَع لمسافةٍ بعيدة، ليصل إلي الحشد أثره، وسرعان ما تصير الضربات ثقيلةً وبطيئة مصدرةً إيقاعًا، وسرعان ما تتحول سريعةً متعجلة لتدب الإثارة فى الحاضرين. ومن النادر ألا يشارك المشاهدون كلهم هؤلاء الإخوة منذ البداية. ويبدأ الإخوة فى الغناء بعد إشارةٍ من قائدهم وهم يضربون أنفسهم متواثبين بأماكنهم مكررين بصوتٍ مقتضب مختنق "حسين! حسين!". وهناك نوعٌ آخر مختلف من الإخوة هم الإخوة الجلادون، وهم يصحبون معهم الدفوف مختلفة الأحجام، وهم عراة الصدور، حفاة، حاسرو الرءوس، وهم فى بعض الأحيان رجالٌ مسنون، وأحيانًا أخرى أطفالٌ تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، وقد أمسكوا بسلاسل حديدية وإبرٍ مشحوذة، بينما يحمل البعض منهم عيدانًا من خشبٍ وهم يدخلون المسرح فى موكبٍ وينشدون على وتيرةٍ واحدة، تبدأ بطيئةً للغاية ولا يزيدون على

كلمتين: "حسين! حسين!"، وتصحبهم الدفوف بضرباتٍ تزداد سرعتها على نحو دائم. أما حاملو العيدان الخشبية فإنهم يقرعون بعضها ببعض بإيقاعٍ منتظم ليشرع الجميع فى الرقص ليرافقهم المستمعون بالدق على صدورهم. وبعد حينٍ يأخذ الجلادون فى تعذيب أنفسهم بالسلاسل فيبدأون ذلك ببطءٍ وحرص واضح ثم ينفعلون فيشتد الضرب. أما كل من يحملون الإبر فإنهم يخزون أنفسهم فى الأذرع والوجنات ليسيل الدم، فتتأوه الجموع مذهولةً، ويتصاعد الانفعال، فيقوم قائد الفرقة بالركض روحةً وجيئةً بين الصفوف مثيرًا حماس الضعفاء ممسكًا بأذرع هولاء الذين يبالغون فى حركتهم. فإذا ما طغى الحماس سكتت الموسيقى وتوقف كل شىء. وهكذا يكون من الصعوبة بمكان ألا يتأثر المرء بمثل هذا المشهد، فالمرء يشعر بالمشاركة، بالتعاطف والفزع فى الوقت نفسه. وأحيانًا ما يُرى جلادون فى لحظة توقف الرقص وهم يرفعون أذرعهم بالسلاسل نحو السماء هاتفين بصوتٍ عميق ونظرة قوية مؤمنة للغاية: "يا الله! يا رب!" إلى حد أن تتملك الدهشة الكيان على هذا النحو، ويحل بهم الرضا التام وهو ما نستطيع وصفه بجوقة الكرب. وأثره هو أثر بلورة الكتلة. أما الألم الذى يلحقونه بأنفسهم فهو ألم الحسين. فإذا ما قاموا بتمثيل ذلك صار ذلك ألمًا للجماعة كلها. ومن خلال الدق على الصدور الذى يستأنفه الجميع تنشأ كتلةٌ إيقاعية من الجماهير بعد أن انتقل إليها أثر المناحة، فقد انتُزع الحسين منهم جميعًا وهو لهم جميعًا. لكن ليست بلورة جماعات الإخوة فحسب هى التى تخلق كتلة مناحةٍ من بين الموجودين، فالأثر نفسه يكون لفرادى الوعاظ وغيرهم. ولنستمع فقط إلى ما عايشه جوبينيه كشاهد عيانٍ لمثل هذه المناسبات[66]: "لقد امتلأ المسرح تمامًا فى نهاية شهر يونيو حتى شعرنا بالاختناق فى المخيم الضخم، فتناولت الجموع المرطبات وصعد الدرويش إلى المسرح ليصدح بنشيد مديح، ليصحبه آخرون بالدق على الصدور. لم يكن صوته أخاذًا، وقد بدا الرجل مرهقًا، فلم يترك أى انطباع، وبدت الأغانى خابية، وفيما يبدو أنه أحس ذلك فتوقف ونزل عن المسرح ليختفى عن الأنظار ليسود الهدوء مرةً أخرى. وهنا أخذ الكلمة فجأةً جندىٌ تركى قوى البنيان فارع القامة متحدثًا بصوتٍ كالرعد، وهو يضرب بيديه فوق صدره بضرباتٍ عنيفة بصوت مدوٍ عالٍ. وكان أن قام جندىٌ تركى آخر بالإنشاد لكن مع فرقة أخرى، وإن كان مرهقًا مثل الأول، وأخذ صوت الدق على صدره يرتفع بانتظام، وخلال خمس وعشرين دقيقةً كانت الكتلة

اللاهثة قد فُتِنت بهذين الرجلين لتضرب نفسها ضربًا مبرحًا بعد أن أدار رءوسهم الغناء الرتيب بإيقاعه القوى، وهكذا صاروا يضربون أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة. لقد كان صخبًا مكتومًا عميقًا منتظمًا متواصلاً. إلا أن الجميع لم يكتفوا بذلك، فإذا بزنجيٍّ شاب، بدا كأنه حمّالٌ، ينهض من بين الجموع القابعة ملقيًا بقبعته، ليبدأ الغناء بأعلى صوت فى أثناء ما كان فى الوقت نفسه يضرب رأسه الحليق بكلتا قبضتيه. ولما كان يقف على بعد عشر خطوات منى فإنى استطعت متابعة حركاته كافةً، وقد بهت لون شفتيه، وكلما ازداد تغير لونهما ازدادت شدة انفعاله فصرخ وضرب كأنه يطرق على سندان، وواصل ذلك لعشر دقائق تقريبًا. إلا أن الجنديين لم يستطيعا مواصلة ذلك بعد أن غرقا فى عرقهما ولم يعد الكورال ينصاع لصوتهما القوى المنضبط، ولم يعد مأخوذًا بهما، فبدأ الاضطراب والتردد فسكتت بعض الأصوات. أما الزنجى الذى بدا فاقدًا لأى دعم مادى، فقد أغمض عينيه وتهاوى على جاره منهارًا، ليبدى الجميع شعورًا بالتعاطف معه واحترامًا له، فقام بعضهم بوضع الثلج على رأسه مبللاً شفتيه بالماء، إلا أنه كان قد غُشِىَ عليه، فاستمر ذلك حينًا حتى أفاق، فلما نجح ذلك أخذ هو يشكر كل من ساعده برقةٍ وأدب. وما إن حل الهدوء ثانيةً لفترةٍ وجيزة حتى صعد إلى المنصة رجلٌ بثيابٍ خضراء، ولم تخرج هيئته عن المألوف البتة، فقد بدا كتُجار العطارة بالبازار. وكان أن ألقى هذا الرجل عظةً عن الفردوس، واصفًا رحابته ببلاغة جزلة، فقراءة القرآن فحسب لا تفى ببلوغه، ولا يكفى أداء كل ما أمر به هذا الكتاب الكريم، كما لا يكفى أن تأتوا المسرح للبكاء كما تفعلون كل يومٍ، بل عليكم فعل كل أمرٍ طيب باسم الحسين، بدافع الحب له، إنه الحسين، وهو أبواب الفردوس، إنه الحسين حامل الدنيا على كاهله، إنه الحسين الذى يكتب لكم النجاة فلتهتفوا: "الحسين! الحسين!"

"حسنًا، والآن مرة أخرى"

"يا حسين! يا حسين!"

"ابتهلوا إلى الله أن يديم عليكم حب الحسين، هيا تضرعوا إلى الله" فترفع الكتلة كلها الأذرع دفعةً واحدة إلى أعلى صائحةً بصوتٍ كظيم "يا الله، يا رب!"

أما مهرجان الآلام التالى لهذا التمهيد الطويل المثير فإنه يتكون من مسلسلٍ غير متصل من أربعين إلى خمسين مشهدًا، وكل أحداثه يوحى بها الملاك جبريل

إلى النبى أو يراها مسبقًا بمنامه قبل أن تُعرَض على المسرح. وكل ما يجرى يشارك فيه المشاهدون إلى حدٍّ ما، فالأمر لا يرتبط بالإثارة الدرامية طبقًا لمفهومنا بل إنه يهدف إلى الجماعية الكاملة. فكل آلام الحسين تم تصويرها بواقعية متناهية، من عذاب عطشه بعد أن قُطِع عليه السبيل إلى الماء حتى فترات المعركة، حتى موته. ولم يكن ينشد سوى الأئمة والقديسين والأنبياء والملائكة، أما الآخرون الممقتون مثل الخليفة "يزيد" الذى أمر بقتل الحسين و"شمر" القاتل الذى وجه إليه الطعنة القاتلة فإنهم محرومون من الغناء، فهم يترنمون فقط وقد يحدث أن تغلبهم بشاعة أفعالهم فينفجرون فى البكاء فى أثناء ترديد كلامهم الخبيث. ولا يقابل ذلك أى تشجيعٍ بل بكاءٍ وأنين وضرب على الرءوس. ويبلغ انفعال المشاهدين أوجه، فيصل إلى محاولة إعدام الأوغاد، قتلة الحسين. وقرب النهاية يُصوَّر مجيء رأس الشهيد المجتز إلى بلاط الخليفة. وفى أثناء الطريق تحدث معجزةٌ تلو الأخرى، فيقوم أسدٌ بانحناءٍ عميق أمام رأس الحسين، ويتوقف الموكب أمام ديرٍ مسيحى، وعندما يرى القس رأس الحسين يصبأ عن دينه ويعلن إسلامه.

إن موت الحسين لم يذهب هباءً، ففى يوم البعث سوف يتسلم هو مفاتيح الفردوس ليقول الله نفسه: إن حق الشفاعة هو للحسين صريحًا، فهو شفيع الجميع برحمتى. أما النبى محمد فيسلم الحسين مفتاح الفردوس قائلاً: "امضِ وأخرج من النار كل من سفح فى حياته دمعةً واحدة من أجلك، كل من ناصرك على أى نحوٍ، كل من شدَّ الرحال مرةً إلى ضريحك أو بكاك، كل من قال فيك بيت شعرٍ حزين، فاحمل الكل وامضِ بالجميع إلى الفردوس"[67].

إنه لا توجد عقيدةٌ أخرى منحت المناحة كل هذا الزخم، فهى تحصل على أعظم جزاء دينى وتفوق كل الأعمال الطيبة عدة أضعاف. وهكذا يكون بوسعنا هنا الحديث عن عقيدة مناحة. إلا أن هذا النوع من الكتلة لا يصل إلى ذروة التطرف فى المسارح فى أثناء عرض مشاهد الآلام. أما "يوم الدم" بشوارع طهران الذى يشارك فيه نصف مليون إنسانٍ فقد وصفه شاهد عيانٍ على النحو التالى، ولسوف يكون من الصعوبة بمكانٍ أن يُعثر على شهادة أعجب ولا أقوى من هذه[68]:

"كانوا خمسمئة ألف إنسان تملّكهم الجنون وهم يهيلون التراب على رءوسهم ويضربونها بالأرض فى سبيل الخضوع طواعيةً للشهيد، فينتحرون جماعاتٍ

ويشوهون أنفسهم على نحوٍ دقيق. أما مواكب الطوائف فكانت تتابع واحدًا تلو الآخر، وكانت تتكون من أناسٍ تمسكوا بالقليل من العقل، أى غريزة الإنسان فى السيطرة على نفسه، فكان المشاركون فيها يرتدون ثيابًا مألوفة، وقد خيم سكونٌ عميق لدى مرور مئاتٍ من رجال بقمصان بيضاء رافعين وجوههم زاهدين نحو السماء.

وفى المساء كان قد توفى أو شُوِّه العديد من هؤلاء الرجال. أما القمصان البيضاء والملطخة باللون الأحمر فصارت أكفانًا، ولم تعد هذه الكائنات تنتمى إلى الأرض. وقد تمت حياكة القمصان على نحوٍ بسيط لا يتيح الحركة إلا للعنق والأيدى، فكانت الوجوه وجوه شهداءٍ والأيدى أيدى القتلة. وفى جوٍ تسوده صيحاتٌ مثيرةٌ للحماس وانتشار عدوى الجنون، يُسلِّم البعضُ لهؤلاء سيوفًا ليصل انفعالهم إلى حد القتل، فيدورون حول أنفسهم ملوحين فوق الرءوس بالأسلحة التى سُلمت لهم، وقد طغى صراخهم على صياح الكتلة. وحتى يتحملوا آلامهم فإنهم ينزلقون إلى حالةٍ من التنشج، فيمضون بخطى آليةٍ إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الجانب من دون نظامٍ واضح، ومع كل خطوة -على الإيقاع- يضربون رءوسهم بالسيوف المثلمة ليسيل الدم وتصطبغ القمصان باللون الأحمر القرمزى. ويدفع مشهد الدم اضطراب عقولهم إلى قمته. فيتصادم بعض هؤلاء الشهداء المتطوعين ببعضهم بعضًا، فيضربون ما حولهم بالسيوف ويسيل الدم من أفواههم المطبقة. وفى أثناء الهوس يكونون قد قطعوا أوردتهم وشرايينهم ليموتوا فى الحال قبل أن يتاح الوقت للشرطة لحملهم إلى الإسعاف التى أُعِدت خلف ستار أحد المحال. أما الكتلة التى لا تبالى بضربات الشرطة فإنها تلتف حول هؤلاء، وتستدرجهم إلى موضعٍ آخر بالمدينة حيث يستأنفون هناك حمَّام الدم، ولا يكون هناك من يمتلكُ وعيه. وأما الذين لا يرون فى أنفسهم الشجاعة لسفح الدماء فإنهم يقدمون للآخرين مشروب الكولا لتقويتهم. وهم يؤنبونهم بهذه الوسيلة مصحوبةً باللعنات. ويخلع الشهداء قمصانهم التى يعتبرونها مباركةً ليعطوها لهؤلاء الذين يمضون معهم. أما الآخرون الذين لم ينضموا فى البداية إلى الضحايا المتطوعين فإذا بهم فجأة، فى أثناء الانفعال الجماعى، يشعرون بالتعطش للدم فيطلبون أسلحة ويخلعون ملابسهم ويلحقون بأنفسهم جراحًا حيثما اتفق. وأحيانًا تنشأ ثغرةٌ فى الموكب بعد سقوط أحد المشاركين على الأرض منهكًا، وفى الحال تُسد الثغرة وتلتحم الكتلة (الجماهير) فوق هذا التعس لتركله بالأقدام وتدهسه.

ليس هناك سباق للموت أفضل من يوم حفل عاشوراء، حيث تنفتح أبواب الفردوس الثمانية أمام الصدِّيقين، فيحاول كلٌّ الوصول إليه. أما جنود الخدمة المكلفين باستقبال الجرحى والذين يحفظون النظام فيتأثرون بانفعال الكتلة، فيقومون بخلع زيهم الرسمى ويلقون بأنفسهم فى حمام الدم. كما يتملك الجنون الأطفال حتى الصغار منهم، فهناك بجوار نافورة وقفت إحدى الأمهات ثملةً بالفخار محتضنةً بصدرها طفلها الذى كان قد شوه نفسه، بينما أتت أخرى راكضةً وهى تصيح:"لقد خرق ابنى عينه". وفى لحظاتٍ قليلة كان هذا قد خرق عينه الأخرى، لينظر الوالدان إلى ذلك بفخر.

الكاثوليكية والكتلة

عند تأملنا للكاثوليكية بنظرةٍ موضوعية فإن ما سيلفت انتباهنا هو البطء والهدوء بعينهما، وهو أمرٌ يرتبط بانتشار واسع. أما شعارها الأساسى بأنها تتسع للجميع فإنه يتجلى فى اسمها، فهى تسعى لضم كل فردٍ إليها، فتقبل الجميع بشروطٍ لا تُعتبَر قاسية. وفى ذلك ما جعلها تحتفظ بآخر ما يدلل على وجود مساواة من حيث مبدأ اعتناقها، وليس فى حدث القبول نفسه، كما تميزت هذه المساواة عما سواها من أسس النظام الهرمى للكاثوليكية.

وبجانب انتشار الكاثوليكية فإن هدوءها، وهو أعظم قوة جذبٍ للكثيرين، يعود الفضل فيه إلى عمق امتداد الكاثوليكية التاريخى ونفورها من كل الأعمال الجماعية العنيفة. أما عدم ثقتها فى سواد جمهورها فقد ظل سمةً ملازمةً للكاثوليكية من زمنٍ سحيق قد يعود إلى الزمن المبكر لحركات الهرطقة أو أنصار مونتانوس الذين أفصحوا عن احتقارهم للأساقفة. فخطورة الفورات المفاجئة والسهولة التى تندفع بها الكتلة وسرعتها وتهورها، وإلغاؤها لأعباء الفوارق تحديدًا، وهو ما يعتبره نظام الكنيسة الهرمى مهمًا للغاية، كل هذا أدى بالكنيسة فى عصرٍ باكر إلى أن ترى فى الكتلة المنفتحة عدوًا رئيسًا يجب مواجهته بكل السبل. وبهذا الإدراك الراسخ اصطبغت كل عناصر عقيدتها، وكذلك كل أشكال منظومتها العملية. ولم توجد دولةٌ حتى الآن على وجه الأرض عرفت

كيف تدافع عن نفسها ضد الكتلة بمثل هذه الأساليب المختلفة. أما كل أصحاب السلطة فيبدون بائسين غير أكفاء مقارنةً بالكنيسة، وهذا يرجع إلى تأثير عقيدة الكنيسة المباشر على جموع المؤمنين، فهى تتسم ببطءٍ ورتابة لا يمكن إغفالهما. فحركة الكهنة بزيهم الثقيل الجاسى، وخطواتهم المحسوبة، وألفاظهم الممطوطة، تُذكِّر على نحوٍ ما بكل سمات مناحة الموتى الواهنة بلا نهاية، والتى شرعت فى نشرها بانتظام عبر قرون من الزمان، حتى إنه لم يكد يبقى شىءٌ من فجائية الموت أو عنف الألم. لقد توقفت عندها الحركة الزمنية للمناحة. كما مارست الكنيسة وسائل عديدة لإعاقة الارتباط بين المؤمنين أنفسهم، فهم لا يعظون بعضهم البعض، فعظة المؤمن البسيط ليس لها أية قدسية، فكل ما يأمله دومًا، وأيا ما وقع على عاتقه من ضغوط يرغب فى الخلاص منها، فهو أمرٌ يأتيه من جهة أعلى من دون تقديم أى تفسير أو توضيح له، بل ليس فى استطاعته مطلقا فهمه. فالعظة المقدسة يتم صوغها أولاً ليتناولها كالجرعة، وهى أمرٌ مقدس لصالحه، حتى إن الذنوب شأنٌ من شئون القساوسة يتحتم على المؤمن الاعتراف بها أمامهم. لم يكن الأمر مبعث راحة بالنسبة له حين يبوح بذنوبه لآخرين من عامة المؤمنين، كما لا يحق له أيضا الاحتفاظ بذلك لنفسه. وفى جميع مشكلاته الأخلاقية الأكثر تعقيدا لا يلجأ المؤمن إلا إلى طبقة الكهنة، مسلمًا أمره لهم فى سبيل حياةٍ يرضى هو عنها ويسمحون هم له بها.

إن أسلوب تقديم التناول ذاته يفرق بين المؤمنين بدلاً من أن يجمع بينهم. فالمتناول وحده يحصل على كنزٍ ثمين، وهو ينتظره وحده، وينبغى عليه هو وحده أن يكون حريصًا عليه. ومن يتأمل طابور المتناولين سيلحظ يقينًا مدى إنشغال كلٍ منهم بذاته فقط. ومن يأت قبله أو بعده لا يعبأ به، إذ إنه ليس أكثر من شريك له فى الحياة العادية، والرابطة بينهما واهية للغاية. فالتناول يربط المتناول بالكنيسة، وهى غير مرئية وذات تأثير واسع المدى، وهى تقصيه عن الحاضرين. والمتناولون لا يشعرون فيما بينهم بأنهم جسدٌ واحد إلا بقدرٍ ضئيل، كأنهم مجموعةٌ من بشر عثرت على كنزٍ وشرعوا فى اقتسامه. وفى مثل هذا الحدث، الذى يمثل للعقيدة أهميةً مركزية، فإن الكنيسة تفصح عن حذرها فيما يمكن أن يذكِّر بالكتلة الجماهيرية. فتقوم بإضعاف الجماعية والتهوين من شأنهم بين الحاضرين، وتحل محل ذلك جماعيةٌ غامضة غير ملموسة، جماعيةٌ مهيمنة لا يحتاجها المؤمن بالضرورة، وهى التى لا ترفع الحدود بينها وبين المؤمن ما

دام على قيد الحياة. أما الكتلة المسموح بها والتى تشير إليها الكاثوليكية دائما، أى كتلة الملائكة والأبرار، فإنها لا توجد فى العالم الآخر فقط، وصارت من خلال "بعدها" مسالمةً وبعيدة عن نشر العدوى، بل إنها تنطوى أيضًا على الدعة والهدوء النموذجيين. فالمرء لا يتصور أنه بوسع الأبرار فعل الكثير، فوداعتهم تذكّر بمسالمة المشاركين بالموكب الدينى. فهم يمضون ببطءٍ ويغنون ويسبّحون وقد غمرتهم الغبطة. وهم يمارسون ذلك على نحو متشابه، كما لا يمكن إنكار المصير المشترك الذى يجمعهم. ولم تكن هناك محاولة قط لإخفاء أو التشكيك فى المساواة الكبيرة التى يتسم بها مسلك حياتهم. فهم كثيرون وقريبون من بعضهم البعض ومفعمون بنفس السكينة، لكن ذلك أيضًا يكشف عن ملامح كتلتهم الوحيدة، وهى كتلة تتنامى ببطء إلى حد أنه لا يمكن ملاحظته. ولم يذكر عددها المتنامى قط. وهى لا تملك أيضًا اتجاهًا ما، وحالتها هى حالة نهائية. فمجمع أعضائها غير قابلٍ للتغيير. وهى لا تسعى إلى أى شىء، فليس هناك ما تنتظره. ويقينًا إنها شكل أكثر هدوءًا ومسالمة من أشكال الكتل التى يمكن تصورها. وقد نتصورها من هذا المنطلق كجوقة تشدو بأغانٍ عذبة رتيبة تخدم الاصطفاء، بعد أداء كل الفروض، فى إطار زمنٍ لا ينتهى. فإن لم تكن الأبدية هى أصعب أهداف الساعين للخلاص، فإنه من الصعب إدراك ما تمثله عملية الجذب من أهمية لكتلة الأبرار. وهو ما يسعى إليه الأبرار على الأرض، إلا أن ما تريد الكنيسة الكشف عنه فإنه يتم عرضه ببطء. وتعد المواكب الدينية تعبيرًا مناسبًا عن ذلك. فينبغى أن يراها أكبر قدر ممكن من الناس، ويقتفون أثرها فى حركة كأنها تدافع بطىء. وهى تختزل داخلها المؤمنين عندما تمر بهم ببطءٍ تام من دون أن تحثهم على حركةٍ أسرع، ولا يسمح إلا بالركوع المبتهل أو الانضمام إلى صفوفٍ خاصة بنهاية الموكب، من دون أن يفكروا أو يتمنوا الاندماج فى الموكب، فالموكب يقدم دائمًا نموذجًا لنظام الكنيسة الهرمى. فكلٌ يرفل فى عباءته فى كرامةٍ تامة متصورًا أن الجميع يرونه ويعتبرونه فى كل مرة على هذه الحال. وهو ينتظر مباركة من له حق الغفران له. والحق أن أسلوب الانضمام هذا يمنع المتفرجين من الاقتراب من حالةٍ مشابهة لحالة التكتل. لتظل حالة اختلاف المستويات مهيمنة. وهو ما يستبعد أى مساواة أو توحد بينهم. فالمتفرج البالغ لن يرى نفسه راهبًا أو أُسقفًا أبدا. فهما يظلان منفصلين عنه للأبد ويراهما هو أعلى درجة منه. لكن كلما ازداد إيمانه زاد ميله إلى إثبات تقديس هؤلاء الذين هم

أكثر سموًا وتقديسًا منه. وهذا هو ما يهدف إليه الموكب بالضبط وليس أكثر، فهو يهدف إلى تقديس جماعى من قبل المؤمنين. ولا ينشد أكثر من جماعية يمكن أن تفضى إلى هبّات أو أعمالٍ انفعالية لا يمكن السيطرة عليها. لكن حتى التقديس نفسه مقسمٌ إلى درجاتٍ، فعلى امتداد الموكب يرتفع من درجةٍ لدرجة، وهى درجاتٌ معروفة ومتوقعة، درجاتٌ مستقرة لا تعرف أى وازع للفجائية، فهى ترتفع بهدوء وإصرار مثل الفيضان لتصل مستواها الأعلى لتعاود التراجع ثانيةً.

أما أهمية كل أشكال التنظيم للكنيسة فإنها لا تدهشنا بما تملكه من عدد وفير من بلورات الكتل الجماهيرية. وربما لا يمكننا دراسة وظيفتها على هذا النحو الجيد مثل هنا، على ألا ننسى أنها هى أيضًا تخدم التوجه العام للكنيسة الذى يمنع من وجود تشكيلات جماهيرية أو بالأحرى يبطئ من سرعتها. وتنتسب إلى هذه البلورات الأديرة والجمعيات الدينية. وهى تشمل المسيحيين الخلصاء الذين يعيشون فى طاعة وفقر وطهارة. وهم المنوط بهم خدمة الآخرين الكثيرين الذين ينتمون إلى المسيحية لكنهم لا يعيشون كمسيحيين، والذين يجب أن يروا أمامهم هؤلاء المسيحيين الحقيقيين. وكان زيهم هو الوسيلة الأهم لذلك. فهو يعنى هجر الأسرة والخلاص من الارتباط بها. فالكنيسة لا تسمح لنفسها بالتحفظ المتسامى ونفورها من الكتل المنفتحة وتحريم تكوينها. فهناك أوقات كان الأعداء يهاجمون من الخارج أو يتخذ الانهيار معدلاً سريعًا حتى لا يمكن مكافحته إلا بوسائل التصدى للأوبئة. فى مثل هذه الأوقات ترى الكنيسة نفسها مضطرة إلى أن تواجه الكتل الجماهيرية المعادية بكتل تابعة لها. فيصير الرهبان نشطاء يسيحون فى البلاد ليدعوا الناس إلى التفاعل الإيجابى، هؤلاء الناس الذين كانوا يتجنبونهم عادةً. وقد كانت الحروب الصليبية أفضل مثالٍ على تكوين الكنيسة لكتلة جمهور خاص بها.

النار المقدسة فى القدس

إن الاحتفال اليونانى بأسبوع الفصح بالقدس يبلغ أوجه فى حدثٍ من نوعٍ غير مألوف على الإطلاق. ففى سبت الفصح تنزل على كنيسة القيامة النار المقدسة من السماء إلى الأرض. وهناك يكون قد اجتمع آلاف الحجيج من سائر العالم ليشعلوا شموعهم من لهب النار بعد انطلاقها مباشرةً من قبل المُخلِّص. والنار فى حد ذاتها لا تمثل خطرًا ما، فالمؤمنون يعتقدون أنها لن تمسهم بسوء، إلا أن الوصول إلى هذه النار يكلف بعض الحجيج حياتهم. وكان "ستانلى" الذى صار فيما بعد عميد وستمينستر قد عايش احتفال الفصح بكنيسة القيامة، فى أثناء رحلته إلى هناك عام 1853، وكتب عنه وصفًا مسهبًا[69]:

"تقع المقصورة الموجودة بالقبر المقدس فى قلب الكنيسة. وحول القبر كان قد تجمع المؤمنون بكثافةٍ متلاحمين فى حلقتين كبيرتين، وفُصِل بينهما بصفين من الجنود. وقد حافظ جنودٌ أتراك على هذا الشريط الفاصل بين هاتين الحلقتين. أما الزائرون فقد جلسوا فى الشرفات العلوية. كان ذلك صباح سبت الفصح، وقد بدا كل شىء هادئًا حتى هذه اللحظة، فلم يكن هناك ما يشى بالأحداث القادمة. وكان هناك اثنان أو ثلاثةٌ من الحجاج يتشبثون بقوةٍ بحائط مقصورة القبر. وفى وقت الظهيرة اقتحم جمعٌ مضطرب من المسيحيين العرب الممر الخالى، وقد ألقوا بأنفسهم فى حلقةٍ تدور بعنف حتى أمسك بهم الجنود. وقد بدا

أن هـؤلاء العـرب يعتقـدون أن النـار لـن تـأتى إذا لم يقومـوا قبـل ذلـك بالطـواف حـول القـبر عـدة مـراتٍ. وخـلال سـاعتين كاملتـين اسـتمرت هـذه القفـزات الفرحـة حـول القـبر، وفجـأةً يجـرى عـشرون أو ثلاثـون أو خمسـون رجـلاً ممسـكين ببعضهـم البعـض ليرفعـوا أحدهـم إلى أعـلى عـلى أكتافهـم أو رءوسـهم، ثـم يندفعـون إلى الأمـام حتـى يقفـز هـذا إلى أسـفل ليتبعـه واحـدٌ آخـر، وكان بعضهـم يرتـدى عبـاءةً صوفيـة وبعضهـم شـبه عـارٍ. وكان عـادةً مـا يتقـدم أحدهـم كمرشـدٍ ليصفـق بيديـه فيصفقـون هـم أيضًـا ويطلقـون صيحـات ولولـةٍ عنيفـة: (هـا هـو قـبر عيـسى المسـيح، فليحفـظ اللـه السـلطان، لقـد خلَّصَنـا عيـسى المسـيح). ومـا بـدأ بمجموعـةٍ صغـيرة سرعـان مـا يتنامـى حتـى يمتلـئ الشريـط الدائـرى بـين الجنـود بهـؤلاء الأشـخاص الجامحـين وهـم يتسـابقون كدوامـةٍ، كسـيلٍ جـارف. وشـيئًا فشـيئًا يتراجـع الهـوس أو يتـلاشى. ثـم يتـم إفسـاح الطريـق ليدنـو مـن الكنيسـة اليونانيـة موكـبٌ طويـل برايـات مطـرَّزة ليطـوف حـول القـبر. ومـن هـذه اللحظـة يسـود الاضطـراب الـذى كان قـد اقتـصر قبـل ذلـك عـلى الراكضـين والراقصـين. أمـا المجموعتـان الكبيرتـان مـن الحجيـج فقـد ظلتـا مكانهـما، يفصـل بينهـما الجنـود، إلا أن الجميـع ينفكـون معًـا فى سلسـلةٍ عنيفـة مـن هتافـاتٍ تتخللهـا مـن حـينٍ لآخـر أناشـيد الموكـب التـى تبـدو غريبـة للغايـة. ويطـوف الموكـب حـول القـبر ثـلاث مـراتٍ. وفى المـرة الثالثـة يتوحـد كلا صفـى الجنـود فى المؤخـرة. وبحركـةٍ واسـعة تأخـذ الكتلـة الجماهيريـة فى التأرجـح هنـا وهنـاك إيذانًـا بدنـو قمـة الإثـارة فى هـذا اليـوم. وكان وجـود الأتـراك الكفـار - حسـبما يعتقـد البعـض - يعيـق نـزول النـار، وقـد حانـت لحظـة طردهـم مـن الكنيسـة. أمـا هـم فقـد استسـلموا للطـرد لتعـم الكنيسـة فـوضى هـى مـن سـمات المعـارك ونشـوة الانتصـار. ومـن كل الأنحـاء يهجـم الجمهـور عـلى القـوات التـى تندفـع إلى الركـن الجنـوب الشرقـى مـن الكنيسـة ليتعطـل الموكـب، بينـما الرايـات تخفـق ملوحـةً. وفى فـوج صغـير لكـن متماسـك يظهـر "أسـقف بـترا" وهـو أسـقف النـار لهـذه المـرة ونائـب البطريـرك، والنـاس يدفعونـه بسرعـة إلى مقصـورة القـبر، لتغلـق الأبـواب خلفـه، وتسـبح الكنيسـة فى هـذه اللحظـة فى بحـرٍ مـن الـرءوس هـادرةً صاخبـةً، فيـما عـدا بقعـة وحيـدة بقيـت شـاغرةً، فعـلى شـمال المقصـورة، باتجـاه جـدار الكنيسـة الـذى كان يفـضى إلى ممـر ضيـق، كانـت هنـاك كـوةٌ، وعنـد الكـوة نفسـها كان يقـف كاهـنٌ ليتلقـف النـار. وعـلى جانبـى الممـر، عـلى مرمـى البـصر، كانـت مئـات الأذرع الحـاسرة قـد امتـدت كفـروع غابـةٍ زلزلتهـا عاصفـةٌ هوجـاء. وفى العصـور الأولى الأكـثر جـرأةً كانـت تظهـر فى هـذه اللحظـة

حمامةٌ فوق قبة المقصورة لتجعل نزول الروح القدس مرئيًا. لكننا الآن لم نعد نراها. إلا أن الإيمان بنزول الروح ما زال موجودًا. فإذا ما عرفنا ذلك فإننا نتفهم تمامًا هذا الانفعال المتفاقم للحظات التالية. فقد بدت داخل الفتحة شعلة لهبٍ متألقة كأنها انبعثت من أخشابٍ تحترق. ورغم إقرار كل يونانى واعٍ بأن الأسقف قد أشعلها داخل المقصورة فإن الحجاج كافةً يؤمنون بأنها نور حلول الله على القبر المقدس. وفى هذه اللحظة يغيم كل شىء فى الانفعال الشامل الذى ساد الكنيسة، فيستحيل رؤية الملامح والأحداث. وشيئًا فشيئًا وببطءٍ تتمدد النار من يد ليد، ومن شمعةٍ لشمعة بين الجمع الرهيب، لتنتشر بالمبنى فى النهاية نار آلاف الشموع الموقدة من صالةٍ لأخرى وفى كل مكان أسفل ذلك. وتكون هذه هى اللحظة التى يُحمَل فيها الأسقف أو البطريرك على الأكتاف فاقدًا الوعى تقريبًا، ليعطى الانطباع بأنه واقعٌ فى مجد الله المهيمن، وها هو قد عاد للتو من حضرته المباشرة. وفى هذه الأثناء ينتفض تيارٌ كبير محاولاً الإفلات من دخان الحرارة الخانقة وأيضًا من أجل نقل الشموع الموقدة إلى شوارع ومنازل القدس، فيندفع الناس للخروج من باب الكنيسة الوحيد، ويكون التدافع أحيانًا حادًا إلى حد وقوع حوادث، كما جرى عام 1834 عندما دفع المئات من الناس حياتهم ثمنًا لذلك. ولفترةٍ وجيزة يظل الحجاج يركضون هنا وهناك وهم يعرضون وجوههم وصدورهم للنار ليبرهنوا على أنها لا تصيبهم بسوء كما يعتقدون. إلا أن هذه السعادة الغامرة تنتهى بتقسيم هذه النار. لكن تراجع الهوس السريع والتام ليس هو أقل فصول هذا العرض إثارةً. فالانفعال الغاضب صباحًا يناقض على نحوٍ غريب هدوء المساء العميق حينما تكون الكنيسة قد غصت بالحجاج ثانيةً وسادها هذه المرة سباتٌ عميق، فهم يتمسكون على هذا النحو بصلاة منتصف الليل".

كان هناك شاهد عيانٍ على الكارثة الكبيرة لعام 1834، هو الإنجليزى "روبرت كورزون"[70]. أما تقريره عن الكارثة فكان بمثابة المشهد المروع، وهو ما نعرض نقاطه الأساسية فيما يلى. كان كورزون قد ذهب مع أصدقاءٍ له إلى كنيسة القيامة لمشاهدة موكب اليونانيين. وقد بدت كل نافذةٍ وكل ركنٍ وكل أصغر مكان حيث تجد قدم أى كائن حى موضعًا لها، بدا كل ذلك مسدودًا تمامًا بالناس فيما عدا الشرفة التى حُجزت من أجل إبراهيم باشا، حاكم القدس

الـتركى، وضيوفـه مـن الإنجليـز وفيـما يبـدو كان بالقـدس سـبعة عـشر ألـف حـاج جـاءوا جميعًـا تقريبًـا لرؤيـة النـار المقدسـة.

وفى الصبـاح التـالى قـام بعـض الجنـود بإفسـاح طريـقٍ وسـط الجمـع مـن أجـل إبراهيـم باشـا الـذى استُقبل بموكـب مـا مـن ذلـك الجمهـور المجنـون ليأخـذ مكانـه بالشرفـة، وبـدأ انفعـال النـاس العنيـف يـزداد شـيئًا فشـيئًا بعـد أن ظلـوا ليلـةً كاملـةً واقفـين بـين مثـل هـذه الكتلـة، مـا أصابهـم بالإجهـاد. فلـما دنـا وقـت عـرض النـار لم يتمالكـوا أنفسـهم مـن الفرحـة فـازداد انفعالهـم. وفى السـاعة الواحـدة تقريبًـا خـرج موكـبٌ بديـع مـن مقصـورة اليونانيـين وهـم يطوفـون بالبطريـرك لثـلاث مـرات حـول القـبر، ليخلـع قميصـه المطـرز بالفضـة ويدخـل القـبر وتغلـق الأبـواب خلفـه. وهنـا بلـغ انفعـال الحجيـج أوجـه، فعـلا صراخهـم، وترنحـت كتلـة النـاس الكثيفـة كحقـل غـلالٍ فى مهـب الريـح. ومـن كـوة صغـيرة مسـتديرة بموضـعٍ بالقـبر تـم تسـليم النـار المقدسـة.

أمـا الرجـل الـذى دفـع المبلـغ الأعـلى لينـال هـذا الـشرف فقـد قادتـه قـوةٌ مـن الجنـود إلى هـذا المـكان. وللحظـةٍ سـاد الصمـت، ثـم ظهـر ضـوءٌ مـن القـبر ليسـتلم الحـاج المحظـوظ النـار المقدسـة مـن البطريـرك الموجـود بالداخـل، وهـى عبـارة عـن حزمـة شـموع دقيقـة تـم إشـعالها ووضعـت داخـل إطـار حديـدى حتـى لا تتخاطفهـا الجمـوع فتنطفـئ. ففـى اللحظـة نفسـها تكـون معركـةٌ صاخبـة قـد نشـبت وسـادت بعـد أن يغمـر الحـماس الجميـع للوصـول إلى النـور المقـدس. فمنهـم مـن يحـاول إشـعال شـمعته فيطفـئ فى أثنـاء ذلـك شـمعة جـاره. وقـد كان ذلـك هـو الطقـس كامـلاً، فلـم تكـن هنـاك عظـةٌ ولا صـلاة، اللهـم إلا قليـلاً مـن الإنشـاد فى أثنـاء الموكـب. وسرعـان مـا رأينـا تنامـى الأنـوار فى كل اتجـاه بعـد أن أشـعل كل فـردٍ شـمعته مـن الشـعلة المقدسـة، بالمقاصير والشرفـات وبـكل ركـن وأينـما كان ذلـك ممكنًا لاسـتعراض شـمعته، فبـدا كل شيء غارقًـا مـن بحـرٍ مـن نـور. وفى أثنـاء الهـوس كان النـاس يقومـون بتعريـض وجوههـم وأياديهـم وصدورهـم لحزمـة الشـمع المشـتعل ليتطهـروا مـن ذنوبهـم. وسرعـان مـا غطـت غمامـةٌ داكنـة مـن دخـان الشـموع المـكان كافـةً، وقـد رأيتـه يتصاعـد فى سـحبٍ كبـيرة مـن كـوةٍ علويـة بوسـط الكاتدرائيـة نـاشرًا رائحـةً بشـعة. وقـد غُـشى عـلى ثلاثـة أشـخاصٍ بائسـين مـن جـراء الحـرارة والهـواء الـردىء ليسـقطوا مـن الشرفـة العلويـة فـوق رءوس النـاس أسـفلها ممزقـين. كـما توفيـت

امـرأة أرمينيـة شـقية تبلـغ مـن العمـر سـبعة عـشر عامًـا وهـى جالسـة عـلى مقعدهـا، متأثـرة بالحـرارة والعطـش والإعيـاء. وفى النهايـة وبعـد أن رأينـا كل شيء يمكـن رؤيتـه نهـض إبراهيـم باشـا ليمـضى، فقـام حراسـه الكثـيرون بإفسـاح الطريـق أمامـه عنـوةً وسـط كتلـةٍ كثيفـة مـن البـشر غصـت بهـم الكنيسـة. ولمـا كانـت الكتلـة هـذه هائلـة فقـد آثرنـا الانتظـار بعـض الـشيء لنسـلك معًـا جميعًـا بعـد ذلـك طريـق عودتنـا إلى ديرنـا. فمضيـت أنـا أولاً وخلفـى رفاقـى بعدمـا أفسـح لنـا الجنـود طريقًـا عـبر الكنيسـة. وهنـاك، حيـث وقـف تمثـال العـذراء المقدسـة فى أثنـاء صلـب المسـيح، رأيـت عديـدًا مـن النـاس راقديـن فـوق بعضهـم البعـض فى كل مـكان حـول هـذا القسـم مـن الكنيسـة. وحاولـت قـدر إمـكانى المـرور بينهـم متجهًـا نحـو البـاب، إلا أننـى وجدتهـم قـد التحمـوا عـلى نحـوٍ كثيـف حتـى إننـى وطئـت بالفعـل كومًـا كبـيرًا مـن الأجسـاد. وهنـا قفـز إلى ذهنـى أن كل هـؤلاء أمـوات، فلـم ألحـظ ذلـك فى البدايـة بعـد اعتقـادى أنهـم قـد أرهقـوا فقـط مـن شـدة الطقـوس فرقـدوا هنـا ليلتقطـوا أنفاسـهم. لكننـى عندمـا وصلـت إلى الجمـع الغفـير نظـرت إليهـم فلحظـت ذاك التعبـير الحـاد القـاسى الـذى لا يمكـن إسـاءة فهمـه، وقـد تغـير لـون بعضهـم إلى اللـون الأسـود القاتـم مـن جـراء الاختنـاق. وفى موضـعٍ آخـر كان آخـرون غارقـين فى الـدم وقـد غطتهـم بقايـا مـخ وأمعـاء مـن مزقهـم دهـس الكتلـة الجماهيريـة، فلـم يعـد بهـذا الموضـع مـن الكنيسـة جمـوعٌ حيـة. ولكـن عـلى مسـافةٍ قريبـة عنـد الركـن المواجـه للمدخـل الرئيـسى كان النـاس مـا زالـوا يتدافعـون مذعوريـن إلى الأمـام. وكان كلٌ يبـذل قصـارى جهـده كى ينجـو بنفسـه. أمـا الحـراس بالخـارج فقـد راعهـم اندفـاع النـاس، فظنـوا أن المسـيحيين يبغـون الهجـوم عليهـم، وسرعـان مـا اسـتحالت هـذه الفـوضى إلى معركـةٍ، فقتـل الجنـود ببنادقهـم كثـيرًا مـن مسـاكين أشـقياء كانـوا عـلى وشـك الانهيـار، كـما لطخـت الجـدران بالـدم وأجـزاء مـن مـخ الرجـال الذيـن سـقطوا كالثـيران بعدمـا أُطلـق عليهـم رصـاص بنـادق الجنـود، فقـد كان كلٌ يحـاول الدفـاع عـن نفسـه أو النجـاة بنفسـه، وكل مـن سـقط جـراء اللكـمات كان الآخـرون يدهسـونه حتـى المـوت. عـلى هـذا النحـو مـن العنـف واليـأس نشـب صراعٌ بعـد أن بـدأ الحجـاج المذعـورون والمروَّعـون يتجهـون فى نهايـة الأمـر للقضـاء عـلى الآخريـن بـدلاً مـن النجـاة بأنفسـهم. ومـا إن أدركـت الخطـر حتـى هتفـت بأصحـابى للعـودة، وهـو مـا فعلـوه أيضًـا. أمـا أنـا فـكان التزاحـم قـد دفعنـى إلى مقربـةٍ مـن البـاب حيـث كان الجميـع يصارعـون فى سـبيل البقـاء عـلى قيـد الحيـاة. وهنـاك رأيـت المـوت المحقـق بـأم عينـىَّ، فبذلـت قصـارى جهـدى مـن أجـل

العـودة، إلا أن أحـد ضبـاط الباشـا، عرفـت مـن نجـوم عـلى كتفـه أنـه عقيـدٌ، كان قـد أخـذ حـذره مثـلى، فحـاول أيضًـا العـودة، فأمسـك بـردائى وسـحبنى فـوق جسـد رجـلٍ عجـوز كان يلفـظ آخـر أنفاسـه، وقـد احتضننـى الضابـط، وبشـجاعة اليائـس صارعنـا معًـا بـين محتضريـن وأمـوات. وظللـت أصـارع مـع الرجـل هـذا حتـى أسـقطته، ثـم نجحـت فى الوقـوف عـلى قدمـى ثانيـةً. بعـد ذلـك عرفـت أنـه لم ينهـض مـرةً أخـرى، وقـد نهضـت للحظـةٍ بـين اللكـمات لأقـف فـوق سـطح غـير مريـح مـن أجسـاد ميتـة مـن الجمـوع الكثيفـة التـى تزاحمـت فى هـذا الموضـع الضيـق مـن الكنيسـة. وقـد وقفنـا جميعًـا للحظـةٍ بـلا حـراك وفجـأةً اهتـز الجمـع ودوت صرخـة لتنفتـح الكتلـة الجماهيريـة لأجـد نفسـى وسـط صـفٍ مـن رجـال واقفـين بينـما وقـف صـفٌ آخـر أمامـى. وكان الجميـع ممتقعـين شـاحبين بثيـابٍ ممزقـة ملطخـةً بالـدم. هنـاك وقفـت وأخذنـا نحـدق ببعضنـا البعـض، وفجـأة داهمنـا شـعور انفعـالى مفاجـئ بعـد صرخـةٍ تـردد صداهـا فى قاعـات كنيسـة القيامـة الممتـدة ليصطـدم كلا الصفـين الخصمـين ببعضهـما البعـض، وسرعـان مـا وجدتنـى أجـذب وأجـر رجـلاً شـبه عـارٍ كانـت سـاقاه ملطختـين بالدمـاء، فتراجعـت الكتلـة مـرةً أخـرى. وفى أثنـاء الـصراع اليائـس والقتـال المريـر أخـذت أشـق طريقـى مـرةً أخـرى إلى داخـل الكنيسـة، حيـث عـثرت هنـاك عـلى رفاقـى ونجحنـا فى الوصـول إلى مقصـورة الكاثوليـك، ومـن هنـاك إلى الغرفـة التـى خصصهـا الرهبـان مـن أجـل إقامتنـا. وعنـد مدخـل المقصـورة كان علينـا الانتصـار فى صراعٍ محتـدم مـع مجموعـةٍ أكـبر مـن الحجـاج حاولـت الدخـول معنـا. وقـد حمـدت اللـه عـلى نجـاتى التـى وُفقـت إليهـا بالـكاد. أمـا المـوتى فكانـوا يرقـدون فى كل مـكان أكوامًـا، وقـد رأيـت أربعمئـة مـن هـؤلاء البائسـين مـوتى وأحيـاء، مكدسـين متداخلـين. وفى بعـض المواضـع ارتفعـت هـذه الأكـوام إلى مـا يربـو عـلى خمسـة أقـدام. وكان إبراهيـم باشـا قـد غـادر الكنيسـة قبلنـا بدقائـق قليلـة بعـد أن أفلـت بحياتـه بشـق الأنفـس. وكانـت الجمـوع قـد حاصرتـه مـن كل جانـب وقـد هاجمـه البعـض ولم يصـل إلى الفنـاء الخارجـى إلا بعدمـا بـذل أتباعـه قصـارى جهدهـم، حتـى إن العديـد منهـم قُتِـل فى أثنـاء ذلـك. وقـد غُـشى عليـه أكـثر مـن مـرةٍ فى أثنـاء هـذا الـصراع، فـكان عـلى رجالـه أن يشـقوا لـه طريقًـا بـين كتلـة الحجيـج بسـيوفهم المشـهرة. ولمـا وصـل إلى الخـارج أصـدر أمـره بإبعـاد الجثـث وحـث رجالـه عـلى حمـل جسـد مـن يبـدو عـلى قيـد الحيـاة مـن بـين أكـوام المـوتى. وبعـد الكارثـة الرهيبـة بكنيسـة القيامـة المقدسـة بـدا جيـش الحجيـج كأن الذعـر تملكـه، فحـاول الجميـع الفـرار مـن المدينـة

على أسرع وجهٍ وقد ذاعت شائعةٌ بانتشار الطاعون، فقمنا مع آخرين بتنظيم رحلة لرحيلنا".

من أجل إدراك ما حدث لا بد لنا من أن نفرق بين مسارٍ منتظم لعيد الفصح وبين هذا الذعر لعام 1834 الذى كان "كورزون" شاهدًا عليه. إنه عيد القيامة وقد تحول حشد المناحة الذى تكون حول موت المسيح وحول قبره إلى حشد انتصار. فالقيامة هى الانتصار، وهو ما يحتفل به. أما النار فقد لعبت هنا دور الرمز لكتلة الانتصار، وهو رمز يجب أن يصل إلى كل فرد حتى تشارك روحه فى هذا البعث. فيجب أن يصير كل فردٍ، على نحوٍ أو آخر، هذه النار نفسها الناشئة عن الروح القدس. وهكذا يفهم معنى أن كلا منهم يشعل شمعته منها. ومن الكنيسة يحمل كل منهم النار الغالية إلى داره. أما طريقة الخداع التى أشعلت بها النار فهى محيرة. والأمر الجوهرى هنا يتمثل فى تحول حشد المناحة إلى حشد انتصار. فالناس يشاركون فى موت المخلص بأن يجتمعوا حول قبره، إلا أنهم بإشعالهم شمعة من نار الفصح المنطلقة من قبره فإنهم يكونون قد شاركوا أيضًا فى البعث. ومن الجميل والمهم أيضًا تضاعف الأنوار، كما لو أن الآلاف من الأنوار نشأت عن "نورٍ واحد" فجأةً. وكتلة هذه الأنوار هى كتلة هؤلاء الجماهير الذين سوف يحيون، وهى كتلة تنشأ بسرعةٍ رهيبة على النحو السريع الذى تنتشر به النار. إن النار هى أفضل رمزٍ لفجائية وسرعة تكوين كتلة، لكن قبل أن يصل الأمر إلى هذا الحد، قبل أن تظهر النار بالفعل، يكون لا بد من النضال فى سبيل ذلك، فكان لا بد من طرد جنود الأتراك الكافرين الموجودين بالكنيسة، فما داموا موجودين هناك فلن تستطيع النار الظهور، وانسحاب هؤلاء يعتبر من طقوس الاحتفال. أما لحظة ذلك فتحين بعد موكب الأشراف اليونانيين. وقد تحرك الأتراك صوب باب الخروج، إلا أن المؤمنين اندفعوا خلفهم كأنهم يطردونهم، ليسود الاضطراب فى الكنيسة فجأةً كأنه معركة ونشوة انتصار.

أما الطقس فيبدأ بكتلتين جماهيريتين متعطلتين يفصل الجنود بينهما، وتتحرك حشود إيقاعية من عرب مسيحيين بين الكتلتين لتبث فيهما الحماس. ويكون لهذه الحشود المتطرفة العنيفة أثر بلورات الكتلة، فتنتشر عدوى انفعالهم بين هؤلاء المتمسكين بانتظار النار. ثم ينشط موكب الأشراف، وهو كتلة بطيئة

إلا أنها فى هذه الحالة تصل إلى هدفها على نحوٍ أسرع لم تعهده من قبل. ويكون الشاهد الحى على ذلك هو البطريرك شبه فاقد الوعى الذى يُحمَل ويُطاف به بعد إشعال النار.

أما ذعر عام 1834 بتبعاته الرهيبة فقد نشأ عن عنصر النضال الذى هو أحد عناصر الطقس. ومخاطر ذعرٍ ناشئ عن نار بمكانٍ مغلق تكون دائمًا كبيرة، لكن قوته ازدادت هنا من جراء التناقض بين الكافرين الموجودين من البداية بالكنيسة وبين المؤمنين الذين أرادوا طردهم. وقد جاء وصف "كورزون" ثريًا بملامح تفسر سبب هذا الذعر، ففى لحظةٍ من لحظاته الكثيرة الفارغة من المعنى والمتناقضة يجد نفسه فجأةً فى صفٍ من رجال يواجهه صف آخر معادٍ، ومن دون تحديد للتابعين لهذا الصف أو الآخر إذا بهما يتصارعان معًا صراع حياة أو موت. كما ذكر (كورزون) أكوامًا من الجثث تُدهَس ويحاول البعض العبور فوقها للنجاة بنفسه، وها قد صارت كنيسة القيامة ساحة قتال بعد أن صار أمواتٌ وأحياء مكدسين معًا فى جموع غفيرة ليتحول البعث إلى نقيضه، إلى اندحارٍ شامل. وكان تصورٌ لجمعٍ آخر أكبر من موتى، أى إشاعة الطاعون، قد سيطر على الحجاج ليهرب الجميع من مدينة القبر المقدس.



الكتلة والتاريخ



رموز كتلة القوميات

لقد وقعت معظم المحاولات الرامية إلى دحر القوميات فى خطأ جوهرى. إذ إن كل ما كان يبتغيه المرء لا يزيد على تحديد ماهية ودلالة "القومية" فى حد ذاتها. قالوا: إن الأمة هى هذه، أو إن الأمة هى تلك. وقد ساد اعتقادٌ أن الأمر يرتبط بالعثور على المفهوم السليم، فإذا ما عُثِر عليه أمكن تطبيقه على الأمم كافةً على حدٍّ سواء. فكان الاستدلال يعتمد على اللغة أو الإقليم الجغرافى أو الأدب المكتوب والتاريخ ونظام الحكم، وعلى ما يسمى بالشعور الوطنى. إلا أن الاستثناءات كانت دائمًا أهم من القاعدة، ودائمًا ما كان يتضح لهم أنهم قد أمسكوا مصادفةً بخيطٍ حقيقى من نسيج ثوبٍ مهلهل، وسرعان ما يفلت منهم بسهولة، ليعودوا كما بدأوا.

وبجانب هذه الوسيلة التى تبدو موضوعيةً كانت هناك وسيلةٌ أخرى بسيطةٌ اهتمت بأمةٍ واحدةٍ فقط، أى تلك التى اهتمت تحديدًا بالأمة التى تنتمى إليها ولم تهتم بغيرها. وهذه كانت تتكون من زعم راسخ فى التفوق، ومن رؤى متنبئة بالحجم الشخصى، ومن مزيج خاص من ادعاءات أخلاقية وحيوانية. وفى هذا لا نعتقد أن هذه الأيديولوجيات الوطنية فى الواقع تتساوى جميعًا أيضًا، ولا يساوى بينها سوى شهيتها الملحة ومزاعمها. وقد تنشد جميعها الهدف نفسه، إلا أنها

تظل مختلفةً، فهى تنشد زيادة الحجم فتؤسس لذلك بالتكاثر. وكما يبدو فإن كلاً منها على حدة قد وُعِدت بالأرض كلها، وسوف تؤول الأرض بالطبع إلى كلٍ منها على حدة. أما كل الآخرين الذين علموا بذلك فقد شعروا بالتهديد، وهم فى خوفهم لا يرون سوى التهديد، ولذلك لم ينتبه أحد إلى أن المضمون الواقعى، أى الأيديولوجيات الحقيقية لهذه الأشكال الوطنية، يختلف اختلافًا كبيرًا، ولا بد من بذل الجهد لتحديد خصوصية كل أمةٍ بصرف النظر عن مطامحها، ولا بد من رؤيةٍ موضوعية صادقة تنبذ المزاعم، ولا بد من أن يندمج المرء فى كل منها، كأن قسمًا كبيرًا من حياته ينتمى إليها، على ألا ينتمى إليها إلى حد الوقوع فى أسر إحداها على حساب كل الأخريات.

إن من العبث والغرور أن نتحدث عن الأمم قبل تحديد الفروق بينها. فهى تخوض حروبًا طويلة ضد بعضها البعض، فيشارك عددٌ كبير من المنتمين لكل أمةٍ بفاعلية فى هذه الحروب. وغالبًا ما دار الحديث بما يكفى عن سبب حروبها هذه. لكن لأى هدفٍ حاربت بعضها البعض؟ لا أحد يعرف. وهى تحمل اسمًا لها، فتقول نحن الفرنسيين، الألمان، الإنجليز، اليابانيين. لكن ما معنى هذه الكلمة داخل الإنسان الذى يعبر بها عن نفسه؟ فما هو اعتقاده، وفيم اختلافه عندما يخوض الحرب كفرنسى أو ألمانى أو إنجليزى أو يابانى؟ فالأمر هنا لا يرتبط كثيرًا بوجه الاختلاف حقًا. فالبحث فى عاداته وتقاليده ونظام حكمه وآدابه يمكن أن يبدو عميقًا إلا أنه يمر مرور الكرام بهذه الوطنية التى هى عقيدته فى أثناء خوضه للحرب. هنا ينبغى النظر إلى الأمم على أنها ديانات، فهى لديها التوجه من حينٍ لآخر للوقوع فى هذه الحالة. فهناك دافعٌ لذلك على الدوام. ففى الحروب تظهر أهمية الأديان القومية. ومن المتوقع من البداية ألا يرى المنتمى لأمةٍ نفسه "وحيدًا"، فما إن يوصف أو يصف هو نفسه بهذا الانتماء حتى يطرأ على تصوره شىءٌ أكثر شموليةً، أى تلك الوحدة الأكبر التى يشعر هو نفسه بالارتباط بها. وهذا النوع من الوحدة ليس بلا قيمة، مهما كان ارتباطه بها. فالوحدة الجغرافية لبلده ليست على هذا النحو من البساطة كما تُرَى على الخريطة، فهذا ما لا يكترث له الإنسان العادى، فهو يرى أن الحدود يمكن أن تمتد على ألا تتجاوز المنطقة الفعلية أو الكاملة لبلدٍ ما. وهو لا يفكر كذلك فى لغته كما تم تحديدها وجعلها معروفةً فى مواجهة لغات الآخرين. ويقينًا توجد هناك كلماتٌ يعرفها جيدًا ذات تأثيرٍ عظيم عليه، خاصةً فى أزمنة الاضطراب، لكن

ذلك ليس قاموسًا يقف بجانبه مستعدًا لمعاونته فى بلوغ الهدف الذى يحارب هو فى سبيله. أما تاريخ أمته فيكون على درجةٍ أقل من الأهمية للإنسان العادى، فهو لا يعرف مجرياته الحقيقية، ولا فحوى استمراره، ولا ما كانت عليه الحياة فى الماضى. فهو لا يعرف إلا قليلاً من أسماء هؤلاء الذين عاشوا قبل ذلك. أما الشخصيات واللحظات التى غُرِست فى وعيه فهى شىءٌ مختلف تمامًا عما يفهمه المؤرخ المحترف من التاريخ. وأما الوحدة الكبرى التى يشعر بالارتباط بها فهى دائمًا الكتلة أو رمز الكتلة. فهذه الوحدة تمتلك دائمًا بعض الملامح المحددة لما يميز الكتل أو رموزها، وقد عالجنا كثيرًا من مثل هذه الرموز مثل الكثافة والنمو والانفتاح بلا حدودٍ والارتباط المفاجئ أو اللافت للانتباه، كما تناولنا بالحديث كلاً من البحر والغابة والبذرة، ومن نافلة القول أن نكرر هنا صفاتها ووظائفها، وهو ما سوف نراه ثانيةً فى تصور ومشاعر الأمم نفسها. إلا أن هذه الرموز لا تظهر أبدًا مجردةً وحدها، فالمنتمى لأمةٍ ما يرى نفسه دائمًا - متنكرًا على طريقته- فى ارتباطٍ جامد برمز كتلةٍ بعينه، صار أهم شىء لأمته. ففى عودة الرمز المنتظمة، وفى ظهوره عندما تتطلب الحاجة إليه، تكمن استمرارية شعور الأمة فيه، وبه فقط يتغير الوعى الذاتى للأمة، وهو أكثر تغيرًا عما يظن ويستطيع المرء أن ينهل منه أملاً ما فى استمرار بقاء البشرية. وفيما يلى سنحاول إلقاء نظرة على قليلٍ من الأمم فيما يخص رموزها. وحتى نكون منصفين فلا بد من أن نعود إلى عشرين عامًا سابقة. فالأمر الذى لا يمكننا التأكيد عليه بما يكفى هو أمرٌ يدور هنا بالطبع حول اختزال ملامح بسيطةٍ وعامةٍ للغاية، لا تكاد تذكر شيئًا عن الإنسان الفرد.

الإنجليز

قد يكون من الحكمة أن نبدأ بتأمل إحدى الأمم التى تعلن عن نفسها بكلماتٍ هادئة، إلا أنها تفصح دائمًا بلا ريبٍ عن شعورٍ قومى راسخ، وهى هذه التى نعرفها جميعًا اليوم باسم "إنجلترا". فالجميع يعرفون أهمية البحر للإنجليزى، ولكن ليس من المعروف تقريبًا هذه الصلة الصحيحة التى تربط بين فرديته الشهيرة وبين البحر. فالإنجليزى يرى نفسه قبطانًا مع مجموعةٍ صغيرة على متن سفينةٍ يحيط به البحر من كل جانبٍ ومن أسفل، فهو تقريبًا

وحيـد حتـى كقبطـان لطاقـمٍ، فهـو منعـزلٌ فى كثـيرٍ مـن الأمـور. إلا أنـه لا بـد لـه مـن السـيطرة عـلى البحـر، وهـذه الفكـرة هـى أمـرٌ حاسـم. فالسـفن وحيـدة عـلى سـطح البحـر الهائـل مثـل الأفـراد ممثلـين فى شـخص القبطـان، الـذى لا تخضـع سـلطة أوامـره المطلقـة للنقـاش. فالاتجـاه الـذى يتخـده هـو القـرار الـذى يصـدره إلى البحـر، وتنفيـذه عـلى نحـوٍ غـير مبـاشر مـن خـلال الطاقـم يغطـى عـلى هـذا الخـداع بـأن البحـر هـو فى الواقـع الـذى عليـه إطاعتـه، فهـو يحـدد الهـدف، والبحـر عـلى طريقتـه الحيـة يحملـه إلى هنـاك وسـط عواصـف ومؤثـرات مضـادة. ويتوقـف الأمـر عـلى حجـم المحيـط وعـلى مـن يطـاع أكـثر، وتكـون طاعـة الاتجـاه أكـثر يـسرًا إذا كان الهـدف هـو مسـتعمرة إنجليزيـة. وهنـا يكـون البحـر مثـل الحصـان الـذى يعـرف طريقـه وتكـون السـفن الأخـرى أشـبه بفرسـان أعـير لهـم البحـر لكـن لتبحـر فقـط عـلى نحـو أفضـل بكثـير تحـت إمـرة سـيدها. والبحـر واسـعٌ إلى حـد عـدم المبـالاة بعـدد السـفن التـى يقودهـا المـرء. أمـا فيـما يخـص شـخصيته، فعلينـا أن نأخـذ فى الاعتبـار كـمّ المتغـيرات الطاغيـة الخاضـع هـو لهـا. وهـو فى تحولاتـه يقـدم متغـيرات أعظـم مـن كل تلـك الكتـل الحيوانيـة التـى يرتبـط بهـا الإنسـان عـادةً، ومـدى مسـالمة واسـتقرار الغابـات بالنسـبة للصيـاد والحقـول بالنسـبة للمـزارع مقارنـةً بالبحـر.

فالإنجليـزى يعـانى كوارثـه فى البحـر، وقتـلاه يتصورهـم غالبًـا بقـاع البحـر، عـلى هـذا النحـو يقـدم لـه البحـر التحـولات والمخاطـر. أمـا حياتـه فهـى تشـبه البحـر تمامًـا، فالرتابـة والأمـان هـما ملامحـه الأساسـية، فلـكلٍ مكانـه لا يغـادره، مهـما كان التحـول. وهكـذا ينتهـى الأمـر بـأن يمـضى المـرء إلى البحـر وهـو مطمـئن عـلى موروثـه وأملاكـه.

الهولنديون

تتبـدى أهميـة رمـوز الكتلـة الوطنيـة بوضـوحٍ شـديد فى التناقـض القائـم بـين الإنجليـز والهولنديـين. فالشـعبان عـلى صلـة قرابـةٍ. وتشـابه لغتهـما وتطـور أحـوال دينهـما كان تقريبًـا واحـدًا. وكلاهـما يسـافر بالبحـر. وقـام كل منهـما بتأسـيس إمبراطوريـةً بحريـة عالميـة، كـما لا يختلـف مصـير القبطـان الهولنـدى المبحـر فى سـبيل اكتشـافات تجاريـة عـن مصـير القبطـان الإنجليـزى بأيـة حـال. أمـا الحـروب التـى خاضوهـا ضـد بعضهـم البعـض فكانـت حروبًـا بـين أقـارب متنافسـين. إلا أن هنـاك فرقًـا بينهـما، وهـو فـارقٌ ارتبـط برمـوز كتلهـم القوميـة. فالإنجليـز احتلـوا جزرهـم إلا

أنهم لم ينتزعوا البحر، فالبحر خضع للإنجليزى من خلال سفنه فقط، فالقبطان هو صاحب الأمر على البحر. أما الهولندى فكان لديه الأرض التى سكنها من أجل استغلال البحر فيما بعد. وكانت أرض الهولندى منخفضةً إلى حد أنه اضطر إلى حمايتها من خلال السدود. فالسد يمثل بداية ونهاية حياته القومية. وقد وضعت كتلة الرجال نفسها على قدم المساواة مع السد، فهما يواجهان البحر باتحادهما معًا. فإذا كان بالسد خللٌ ما، فإن البلاد تتعرض للخطر. وفى وقت الخطر يتم فتح السدود ليعيشوا هم آمنين من العدو على جزر اصطناعية. والشعور بوجود جدارٍ إنسانى يصد البحر لا يوجد مثيلٌ له بأى مكانٍ على هذا النحو الكبير مثلما يوجد هنا. فالناس هناك يعيشون آمنين باعتمادهم على السدود. فإذا ما اضطروا إلى تدميرها لصد العدو فإن قوتها تنتقل إلى الرجال الذين يعيدون بناءها مرةً أخرى بعد الحرب. وقد ظل السد ماثلاً فى وجدانهم حتى يمكن أن يصبح حقيقةً واقعة مرةً أخرى. وعلى نحوٍ غريب وواضح يحمل الهولنديون داخلهم حدودهم ضد البحر فى أثناء أوقات المخاطر المهددة لهم. أما إذا هوجم الإنجليز فى جزرهم فإنهم يلوذون بالبحر، فالرياح تقف معهم ضد أعدائهم. وقد كانوا آمنين فى جزرهم، وهو الأمان نفسه الذى يشعر به كل منهم على سفينته. أما الهولندى فيأتيه الخطر دائمًا من خلفه وهو الذى لم يخضع البحر لسلطانه قط، ورغم أنه طاف بأرجاء العالم بسفنه الشراعية، فإن البحر يمكن أن ينقلب عليه فى وطنه. أجل، ففى سبيل صد هجوم العدو فإنه، فى أقسى الحالات، يضطر إلى أن يفعل بنفسه كل شىء ليدفع ذلك عن نفسه.

الألمان

كان الجيش هو رمز جمهور الألمان الذين اعتبروا الجيش شيئًا أعظم من مجرد جيش، فقد كان الجيش هو الغابة المتحركة. فشعور الألمان الحى بالغابة لا مثيل له فى أى بلدٍ بالعالم الحديث. فجمود وتوازى الأشجار المستقيمة وكثافتها وعددها تغمر صدر الألمانى بفرحٍ عميق غامض، وهو يسعى حتى اليوم إلى الغابة التى عاش فيها أسلافه، ليشعر بتوحده مع الأشجار، فنقاؤها وحدودها الواضحة فيما بينها وتفوق وضعها العمودى تميز هذه الغابة عن الغابات الاستوائية حيث تنمو النباتات المتسلقة متداخلة فى كل اتجاه. ففى الغابة الاستوائية تغيب

الرؤية فى الزحام، فهى كتلةٌ غير منتظمةٍ تعمها الفوضى، وتختلف وجوه نموها أشد الاختلاف، ولذا فهى تقصى كل شعورٍ برسوخ القاعدة والتكرار المنتظم.

أما غابة المنطقة المعتدلة فلديها إيقاعها الواضح. فتمتد الرؤية بحذاء الجذوع المرئية، إلى بعدٍ متساوٍ دائمًا. أما الشجرة فى حد ذاتها فهى أضخم من أى إنسان فى حد ذاته، وهى تنمو دائمًا مرفوعة الهامة. وصلابتها لديها الكثير مما يتحلى به المحارب من فضيلةٍ، أما لحاؤها الذى يبدو لنا للوهلة الأولى كدروعٍ لأشجار مجتمعة من النوع نفسه، فهو يماثل فى الغابة زى الفرقة العسكرية فى الجيش، فالجيش والغابة كانا بالنسبة للألمانى، من دون أن يتبين هو ذلك، قد التحما معًا على كل الوجوه. فما يراه الآخرون فى الجيش قفرًا وجدبًا يراه الألمانى حياة وتألق الغابة، فهو لا يخشى هناك شيئًا، ويشعر بالأمان كواحدٍ من هؤلاء جميعًا. فهو يتخذ من خشونة واستقامة الأشجار قاعدةً له. فالصبى الذى يترك دار أهله الضيقة كى يحلم ويخلو إلى نفسه كما يظن، فإنه يكون قد عايش هناك انضمامه للجيش مسبقًا. ففى الغابة تقف (الأشجار) بالفعل مستعدة ومخلصة وحقيقية ومستقيمة كما يريد الصبى أن يكون، فهناك تكون الواحدة منها مثل الأخرى، فكل منها تنمو مستقيمةً، إلا أنها تختلف تمامًا فى ارتفاعها وقوتها. وعلينا ألا نقلل من قيمة أثر هذه الرومانسية المبكرة للغابة على الألمانى، فقد عبر عن ذلك فى عشراتٍ من الأغانى والقصائد. أما الغابة الواردة بها فكانت تُسمَّى غالبًا بالألمانى. فالإنجليزى يحب أن يرى نفسه على سطح البحر بينما يحب الألمانى الإقامة بالغابة. وموجز القول، فإن ما يفصل بين شعورهما القومى يصعب التعبير عنه.

الفرنسيون

أما رمز جمهور الفرنسيين فيعود إلى تاريخٍ حديث، أى إلى ثورتهم. فعيد الحرية يُحتَفل به كل عام. وقد صار عيد الفرح القومى الحقيقى. ففى الرابع عشر من يوليو يستطيع كلٌّ أن يراقص الكل بالطرقات. فمن كان يفتقد عادةً قدرًا ما من الحرية والمساواة والإخاء يستطيع أن يبدو فى مسلكه ولو لمرةٍ كأنه يتمتع بذلك. فها هى الطرقات مزدحمةٌ مثلما حدث فى الماضى عندما اقتُحِم الباستيل لتمارس الكتلة العدالة بنفسها، بعد أن ظلت لقرنٍ من الزمن ضحية

قانون الملك. ومما يعد من سمات الشعور الاحتفالى على نحو أعظم هو التذكير بعمليات إعدام هذا العهد، وهى سلسلةٌ متصلة من الانفعال الجماعى فى أقصى مداه. فمن يعترض طريق الكتلة فإنه يسلمها رأسه المدين به للجماهير، وهو ما يفضى إلى الحفاظ على الشعور السامى وتناميه. ولا يملك أى شعبٍ، مهما كان، هذه الحيوية التى لـ"المارسييز"، أى "سلام فرنسا الوطنى" الذى نشأ عن هذا العهد. فانطلاق الحرية كحدثٍ تاريخى يعاود كل سنةٍ وينتظره الناس كل سنةٍ. ويثمر فوائد جمة كرمز جمهور لأمةٍ ما، وهو ما استنفر فيما بعد قوى الدفاع، كسابق عهده. فالجيوش الفرنسية التى احتلت أوروبا هى التى فجرت الثورة بعد أن عثرت على "نابوليونها" ومجدها العسكرى الأعظم. فأما الانتصارات فصارت من حق الثورة، أما قائدها الإمبراطور فقد احتفظ بالهزيمة وحده. إلا أن هناك اعتراضًا ما على هذا المفهوم للثورة كرمزٍ قومى لجمهور الفرنسيين، فهذه الكلمة تبدو غير محددة، فهى لا تمتلك وضوح القبطان الإنجليزى على متن سفينته ذات الحدود الثابتة، ولا تملك النظام الصارم للجيش الألمانى المحارب، لكن علينا ألا نغفل أن البحر المتحرك لازمٌ لسفينة الإنجليز، وأن الغابة المائجة ملازمةٌ للجيش الألمانى وهذا هو المادة المغذية الجزلة لشعوره، وكذلك فإن الشعور الجماعى للثورة يتجلى فى حركةٍ واضحة ومادةٍ واضحة فى اقتحام الباستيل. ولجيل أو جيلين سابقين كان كل فرنسى يضيف إلى كلمة الثورة صفة "الفرنسية"، وذكراها الأكثر جماهيريةً هى ما تميز كذلك الفرنسيين أمام العالم، فقد كان ذلك من أخص ما تفردوا وظهروا به. ومن هذا المنطلق تكون الثورة الروسية قد أحدثت شرخًا مؤلمًا فى شعور الفرنسيين القومى.

السويسريون

هناك دولة لا يستطيع أحد التشكيك فى تماسكها القومى، هى سويسرا. وشعور السويسريين الوطنى هو أقوى من شعور شعوبٍ تتكلم لغةً واحدة. فتعدد اللغات وتنوع "الكانتونات" وبنيانها الاجتماعى المختلف وتناقض الديانات التى ما زالت حروبها ماثلةً فى ذاكرة التاريخ، كل هذا لا يستطيع أن يفضى إلى شرخٍ فى وعى السويسريين القومى، فهم يملكون رمز جمهور جماعى، يضعونه نصب

أعينهـم طـوال الوقـت، ولا يمكـن زعزعتـه، ولا يشـبه أيًـا مـن رمـوز تلـك الشـعوب الأخـرى: إنهـا الجبـال.

إن السـويسرى يـرى مـن كل مـكانٍ قمـم جبالـه، ولكـن مـن بعـض المواقـع تبـدو سلسـلتها أكـثر كـمالاً، فشـعور السـويسرى بأنـه يـرى كل جبالـه معًـا يسـبغ عـلى هـذه المواقـع شـيئًا مـن القدسـية. وأحيانًـا فى ليـالٍ، لا يكـون للمـرء أى تأثـير عليهـا، تأخـذ الجبـال فى التألـق فتصـل بذلـك إلى أعـلى قدسـيتها. أمـا وعـورة مسـالكها وصلابتهـا فيبعثـان فى السـويسرى الشـعور بالأمـان. ففـى قممهـا المنفصلـة عاليًـا يرتبـط السـويسريون بأسـفلها كجسـدٍ واحـدٍ عمـلاق فهـم الجسـد، والجسـد هـو البلـد نفسـها. وقـد عـبَّرت خطـط الدفـاع فى أثنـاء الحربـين السـابقتين عـن هـذا التماثـل بـين الأمـة السـويسرية وبـين سلسـلة الألـب نفسـها عـلى نحـوٍ مدهـش، فـكل المـزارع والمـدن ومواقـع الإنتـاج كانـت سـيتم اجتياحهـا فى حالـة اعتـداء عـلى البـلاد، حتـى الجيـش كان سـيبدأ النضـال مـن الجبـال. وكانـت سـوف تتـم التضحيـة بـالأرض والشـعب، لكـن الجيـش عـلى الجبـال كان سـيواصل تمثيلـه لسـويسرا. وكان رمـز جمهـور الأمـة سـيصير للبلـد نفسـه، فهـو سـدهم الخـاص بهـم الـذى يملكـه السـويسريون، ولم يجـب عليهـم بنـاؤه أو هدمـه كـما فعـل الهولنديـون، ولم يغمـره البحـر، بـل هـى جبالهـم تقـف هنـاك، ومـا عليهـم سـوى إدراك معناهـا. وهـم يرتقونهـا ويجوبـون كل أرجائهـا. فهـى تملـك قـوة المغناطيـس فتجـذب مـن سـائر البلـدان أناسًـا يقلـدون السـويسريين فى الإعجـاب بجبالهـم واستكشـافها. أمـا متسـلقو الجبـال المنتمـون لأمـم مـن أقـصى أطـراف العـالم فهـم مثـل السـويسريين المؤمنـين، فجيوشـهم المنتـشرة فى أرجـاء العـالم، بعـد أداء واجبهـا المحـدد وقصـير المـدى فى الجبـال سـوف تحصـل عـلى المكانـة الحيويـة لسـويسرا. ودراسـة مـدى مسـاهمة الجبـال عمليًـا فى الحفـاظ عـلى اسـتقلال سـويسرا قـد يسـتحق بـذل مجهـود أكـبر.

الإسبان

مثـل الإنجليـزى كقبطـان، فـإن الإسـبانى يـرى فى نفسـه مصـارع ثـيران. لكـن بـدلاً مـن البحـر الخاضـع للقبطـان فـإن مصـارع الثـيران يمتلـك الجمـوع المنبهـرة بـه، فالحيـوان، الـذى ينبغـى عليـه قتلـه طبقًـا لقواعـد فنونـه النبيلـة، هـو هـذا الغـول الغـادر القديـم فى الأسـطورة. ولا يجـوز للمصـارع إبـداء رهبـة مـا. فثباتـه الانفعـالى هـو كل شىء، فـكل حركـة يبديهـا، مهـما صغـر شـأنها، يراهـا الآلاف ويحكمـون عليهـا.

إنها هى الحلبة الرومانية التى حافظت على وجودها هنا. إلا أن مصارع الثيران بها صار فارسًا نبيلاً، فهو يظهر كالمحارب الوحيد الذى غيرت العصور الوسطى معناه وتقاليده كما غيرت على نحوٍ خاص مكانته. أما الحيوان الخانع، عبد الإنسان، فإنه يقاوم مرةً أخرى. إلا أن بطل العصور المبكرة الذى خرج ليحارب، ليسيطر على الحيوان فقد صار متأهبًا باديًا أمام البشرية جمعاء، وهو مؤمنٌ بمهمته، حتى إنه بمقدوره تنفيذ مهمته بكل تفاصيلها فى قتل الغول أمام أعين مشاهديه، وهو يعرف قدره بدقةٍ، فخطاه محسوبةٌ وحركاته تعرف ثوابت الرقص، إلا أنه يقتل بالفعل، والآلاف يرون ذلك، ويكررون هذا القتل بانفعالهم. إن إعدام هذا الحيوان البرى الذى لم يعد بريًا، فجُعل بريًا من أجل تبرير قتله، إن هذا الإعدام والدم والفارس الذى لا تشوبه شائبة هى صورٌ تنعكس على نحوٍ مزدوج فى أعين المعجبين. فتارةً يكون هؤلاء هم الفارس الذى قتل الثور، وتارةً يكونون هم أيضًا الجماهير التى تحتفل به. والناس يرتبطون ببعضهم البعض مثل الحلبة، فيكونون مخلوقًا منغلقًا على نفسه، وفى كل مكان يصادف أعينًا وفى كل مكان يسمع صوتًا واحدًا هو صوت نفسه. هكذا كان الإسبانى، الذى يلهث خلف مصارعه، قد اعتاد منذ زمنٍ باكر على مشهد كتلةٍ محددة تمامًا. وهو يعرف ملامحها حق المعرفة. وهى ما زالت حية إلى حد ابتعادها عن كثير من التطورات والأشكال الجديدة التى لا يمكن لبلادٍ ذات لغةٍ مختلفة تفاديها. إن مصارع الثيران فى الحلبة، التى تمثل له الكثير، يصير أيضًا رمزًا لكتلته القومية. وإذا ما راودت خياله صورةٌ عن جموع من الإسبان فإنها ستكون غالبًا صورة هذا الموضع الذى يجمعهم. فإذا قارنًا فرح الكتلة العارم هذا، يكون فرح الكنيسة بسيطًا ومسالمًا، لكنه لم يكن فرحًا دائمًا، فالكنيسة لم تستح من إشعال نار الجحيم على الأرض للمهرطقين، بينما كان بنيان الكتلة بالنسبة للإسبانى قد اتخذ توجهًا مختلفًا.

الإيطاليون

إن شعور أمةٍ حديثة بذاتها، وكذلك مسلكها فى حربٍ ما، هو أمرٌ يرتبط إلى حدٍّ كبير بإمكانية إقرار رمز (كتلتها) جمهورها القومى. وفى هذا يمثل التاريخ لبعض الشعوب ضربةً موجعة متأخرة بعدما كانت قد انتزعت وحدتها بالقوة. وقد تصلح إيطاليا هنا مثالاً على مدى الصعوبة التى تعترض أمةً ما وهى ترى

مدنهـا ذات الـتراث العميـق ومـدى نكبتهـا، وحاضرهـا الـذى شـاع فيـه الاضطـراب المتعمـد. وقبـل أن تحقـق إيطاليـا وحدتهـا كانـت كل القضايـا داخـل البـشر أكـثر وضوحًـا، فالجسـد الممـزق قـد يعـود للتلاحـم ثانيـةً ويشـعر أنـه منظومـةٌ واحـدة وسـليمة، حالما يطـرد هـذا العـدو الحـشرة عـن نفسـه بالقهـر الشـديد.

فعندمـا يحتـل العـدو البـلاد لفـترةٍ طويلـة للغايـة تتكـون لدى الشـعوب تصـوراتٌ متشـابهة، فالعـدو يبـدو كـسرب جـرادٍ كثيـف العـدد، قميئًـا كريهًـا، يعيـش عـلى الأرض الخـيرة الطيبـة لأبنـاء الوطـن، فـإن كانـت لديـه نيـةٌ جـادة للبقـاء فإنـه يظهـر نزعـة تقسـيم هـذه الأرض، وإضعـاف أهـل البـلاد بـأن يوهـن ارتباطهـم ببعضهـم البعـض بـكل السـبل، وهنـا تكـون الحركـة المضـادة عبـارة عـن ارتبـاط سرى لتطـرد الحـشرة فى سلسـلة مـن اللحظـات الموفقـة. وهـذا هـو مـا حـدث فى نهايـة المطـاف، لتعـود إيطاليـا إلى وحدتهـا التـى كان غالبًـا مـا يشـتاق إليهـا الكثـيرون مـن أفضـل مفكريهـا بلا جـدوى، ولكـن اتضـح منـذ هـذه اللحظـة أنـه لا يجـوز السـماح لمدينـة مثـل رومـا بـأن تحيـا آمنـةً، فمبـانى الكتلـة مـن العصـور القديمـة ظلـت هنـاك "شـاغرة". أمـا المـسرح الرومـانى المـدرج فـكان أطـلالاً مصونـة، يشـعر عندهـا المـرء بأنـه بـلا حقـوق، منبـوذ. وعـلى النقيـض مـن ذلـك كانـت رومـا الثانيـة، رومـا "سـانت بيـتر" قـد احتفظـت بمـا يكفـى مـن قـوة جاذبيتهـا. فكانـت كاتدرائيـة سـانت بيـتر تغـص بالحجيـج مـن سـائر أنحـاء العـالم، إلا أن رومـا الثانيـة هـذه لم تكـن مهيئـة لتكـون قطبًـا للتمييـز القومـى عـلى أيـة حـال. فقـد ظـل توجههـا نحـو كل البـشر بـلا تمييـز، فمنظومتهـا كانـت قـد قامـت فى عـصرٍ لم يكـن قـد وجـد فيـه بعـد مـا يعـرف بـ"القوميـات" بمعناهـا الحديـث. وهكـذا ظـل الشـعور القومـى لإيطاليـا الحديثـة بـين رومـا الأولى والثانيـة مصابًـا بالشـلل. ولم يكـن هنـاك مفـرٌ مـن ذلـك، فقـد كانـت رومـا موجـودةً، فصـار الرومـان هـم إيطاليـا. وقـد جربـت الفاشـية حـلاً، بـدا هـو الأبسـط، بـأن ارتـدت الثوب القديـم، وهـو مـا لم يناسـبها عـلى الإطـلاق، فقـد بـدا فضفاضًـا إلى حـد الإفـراط. أمـا الحـركات التـى نشـأت داخلهـا فكانـت عنيفـةً إلى حـد أنهـا قطعـت كل أوصالهـا. فأمـا حـركات الـ"فـورا" فقـد أرادت الخـروج مـن قبورهـا ثانيـةً الواحـدة تلو الأخـرى، لكنهـا لم تنسـجم مـع الرومـان. وأمـا "رابطـة العِصِىّ" فقـد أثـارت كراهيـة هـؤلاء الذيـن ضُرِبـوا بالعـصى. ولم يكـن هنـاك مـن يتفاخـر بالتهديـد أو التأديـب. ولحسـن الحـظ أن بـاءت بالفشـل كل محاولـة لفـرض رمـز جماهـيرى قومـى مزيـفٍ عـلى إيطاليـا.

اليهود

ليس هناك شعبٌ يصعب فهمه مثل اليهود. فقد انتشروا على وجه الأرض المسكونة كلها بعد فقدانهم لبلدهم الذى نشأوا فيه. وقد اشتهروا بقدرتهم المريبة على التكيف. إلا أن تباين درجة تكيفهم كان عظيمًا، فكان منهم الإسبان والهنود والصينيون. وقد حملوا معهم لغاتٍ وثقافاتٍ من بلدٍ لآخر، وحرصوا على الحفاظ عليها كأنهم يمتلكونها. وهناك بعض المخدوعين ممن يبالغون فى زعم المساواة فيما بينهم فى كل مكان. أما من يعرفهم فإنه سيميل إلى الرأى القائل بأنه يوجد بينهم نماذج مختلفة أكثر بكثير من أى شعبٍ آخر. فقد اتسع الاختلاف الكبير لليهود فى المظهر والجوهر، وهو من أكثر الأمور التى يمكن أن نصادفها عجبًا. أما الأسطورة الشائعة بأنه يوجد بينهم أفضل وأسوأ البشر فهى تعبر عن الحقيقة على نحوٍ ساذج. فهم مختلفون عن الآخرين، لكنهم فى الحقيقة - إذا ما وسعنا قول ذلك – أكثر اختلافًا فيما بينهم. ومن المثير للعجب أنهم ما زالوا على الإطلاق موجودين. وهم ليسوا الوحيدين الذين تصادفهم فى كل مكانٍ، فيقينًا ينتشر الأرمن بنفس القدر. وهم كذلك ليسوا أقدم الشعوب، فتاريخ الصينيين يرجع إلى زمنٍ أكثر قدمًا. ولكنهم هم وحدهم من بين الشعوب القديمة الذين استمروا فى الترحال لفترةٍ طويلة، وكانوا هم أكثر من قدر لهم الزمن ليختفوا بلا أثر، إلا أنهم صاروا اليوم أكثر عددًا من أى وقتٍ مضى. وحتى قبل سنوات قليلة لم تكن تجمعهم وحدةٌ إقليمية أو لغوية، فأغلبهم لم يعد يفهم العبرية، فتكلموا بمئة لسان. وقد اعتبر الملايين منهم أن دينهم القديم ليس سوى وعاءٍ فارغ. كما ازداد عدد اليهود المسيحيين شيئًا فشيئًا خاصةً بين أفراد الطبقة المثقفة منهم، وزاد عن ذلك بكثير عدد اللادينيين. وبنظرةٍ عابرة، انطلاقا من مفهوم الحفاظ على النفس، تكشف عن أنهم فعلوا ما بوسعهم حتى ينسى الناس أنهم يهود وينسون هم ذلك أيضًا. لكن ما حدث هو أنهم لم يستطيعوا نسيان ذلك. وفى الغالب أنهم لم يسعوا إلى ذلك أيضًا. وعلى المرء أن يسأل نفسه فى أى سياق بقى هؤلاء يهودًا، ما الذى يجعلهم يهودًا وما هو آخر شىء جمع بينهم وبين الآخرين على الإطلاق إذا ما قالوا لأنفسهم: نحن يهود. وهذا الأمر الأخير كان قد حدث فى بداية تاريخهم وتكرر على نفس القدر من التماثل الهائل فى مسار هذا التاريخ: لقد كان ذلك هو الخروج من مصر. فإذا ما استحضرنا فحوى هذا المشهد القديم لرأيناه شعبًا بأكمله، أُحصى عدده، إلا

أنـه ظـل يرتحـل أربعـين عامًـا فى الرمـل. وكان أبوهـم الأول الأسـطورى قـد بُـشر بنسـله "فيتكاثـرون كالرمـل عـلى سـاحل البحـر". فهـا هـم جـاءوا إلى هنـاك مرتحلـين رمـلاً آخـر بـين الرمـال. وسـمح لهـم البحـر بالعبـور، لكنـه أطبـق عـلى العـدو. أمـا هدفهـم فـكان أرض الميعـاد التـى سـينتزعونها بحـد السـيف.

إن صـورة هـذا الكـم الـذى ارتحـل لسـنواتٍ وسـنوات خـلال الصحـراء صـارت رمـزًا لكتلـة اليهـود، وقـد ظلـت واضحـةً ملموسـةً للغايـة كـما كانـت فى عهدهـا المـاضى. فالشـعب يـرى نفسـه معًـا قبـل أن يسـتقر ويتشـتت، إنـه يرى نفسـه فى الترحـال. وعلى هـذه الحـال المكثفـة تلقّـى الشـعب نواميسـه. فقـد كان أمامـه هـدفٌ لم يكـن لكتلـة أخـرى ذات يـوم. وتنتظـره المغامـرة تلـو المغامـرة، إنـه المصير المشـترك دائمًـا. إنهـا كتلـة مجـردة لم يتوافـر لهـا فى هـذه المنطقـة إلا بالـكاد شىءٌ مـن هـذا التنـوع الـذى عـادةً مـا يجمـع البـشر فـرادى فى حيـاة مشـتركة. فلـم يكـن حولهـم سـوى الرمـل الـذى هـو أكـثر الكتـل تجـردًا. فليـس هنـاك شىءٌ منـح هـذه القافلـة الرحالـة شـعورًا بالعزلـة إلى أقـصى حـد، أكـثر مـن صـورة الرمـال. وغالبًـا مـا كان الهـدف يتـلاشى، ويهـدد الانهيـار للكتلـة، لكـن بضربـات قويـة مختلفـة إلى أقـصى حـد انتبهـت وتماسـكت وترابطـت. أمـا عـدد (النـاس) البـشر بالقافلـة - مـن سـتمئة إلى سـبعمئة ألـفٍ - فإنـه لم يكـن هـو الأكـثر غرابـةً بالنسـبة لمطامـح متواضعـة فى العصـور الباكـرة، فزمـن الارتحـال هـو عـلى أهميـةٍ خاصـة، فالـذى يتمـدد فى الكتلـة لأربعـين عامًـا يمكـن أن يتمـدد فيـما بعـد لأى فـترة زمنيـة، كقـدرٍ محتـوم لهـذه الفـترة الزمنيـة، كعقـابٍ، هـو مثـل كل عـذاب ترحـال يجـىء فيـما بعـد.

ألمانيا ومعاهدة فرساى

من أجل تحديد المفاهيم التى سيقت هنا لتوضيحها بقدر الإمكان فإنه يجب علينا أن نضيف شيئًا عن بنيان جمهور ألمانيا. ألمانيا التى فاجأت العالم فى الثلث الأول من القرن العشرين بمكوناتٍ وتوجهاتٍ من نوعٍ جديد لم يستوعب أحد حدود خطورتها القاتلة، والتى لم يبدأ المرء فى حل لغزها على استحياء إلا الآن. فقد كان الجيش، وظل، هو رمز جمهور ألمانيا الموحدة كما تكونت عامى 1870-1871 بعد الحرب الفرنسية، وكان كل ألمانى فخورًا بذلك، ولم يكن هناك سوى بضع أفراد ممن استطاعوا النأى بأنفسهم عن الأثر البالغ لهذا الرمز. وكان مفكرٌ من أنصار ثقافة "نيتشه" الكونية قد دفعته هذه الحرب إلى وضع كتابه الرئيس "الإرادة نحو القوة". فقد كان مشهد كتيبة الفرسان هو المشهد الذى لم ينسه. لم تكن هذه الإشارة بلا جدوى، فهى توضح مدى أهمية الجيش للألمان على نحوٍ عام، ومدى تأثير رمز الكتلة فى هؤلاء المتغطرسين الذين صنعوا حدودًا تجاه ما يذكر بالجموع. فعامة المواطنين والفلاحين والعمال والمثقفين والكاثوليك والبروتستانت وأهل بافاريا وبروسيا، كل هؤلاء رأوا فى الجيش الصورة المعبرة عن الأمة. وقد تناولنا الجذور العميقة لهذا الرمز ونشأته من الغابة بموضعٍ سابق. فالغابة والجيش يرتبطان بالنسبة للألمانى على أوثق نحوٍ، ويعتبر كل منهما رمزًا لجمهور الأمة. وفى هذا السياق يكون كلاهما واحدًا والشىء نفسه

تقريبًا. أما وجود الجيش وجودًا واضحًا بجانب تأثيره الرمزى، فكان أمرًا مهمًا للغاية، فالرمز يعيش فى تصور البشر ومشاعرهم. وفى حالتنا هذه كان هو المُكَوِن للشكل العجيب للغابة - الجيش. أما الجيش على أرض الواقع، أى الذى يؤدى فيه كل شابٍ ألمانى الخدمة العسكرية فإنه يتخذ سمات الكتلة المنغلقة. فالإيمان بالخدمة العسكرية العامة، والإيمان بمعناها العميق، والرهبة منها، يصل إلى مدى أبعد من الأديان التقليدية، فهو يضم الكاثوليك مثل البروتستانت على حدٍّ سواء. ومن يخرج عن ذلك لا يكون ألمانيًا. وقد قيل إنه لا يجوز اعتبار الجيوش إلا بالمعنى المحدد للكتلة. إلا أن ذلك كان أمرًا مختلفًا فى حالة الألمانى، فهو يعايش الجيش على أنه كتلته المنغلقة الأهم. وقد كانت منغلقة لأن من أدى خدمته العسكرية فيها كان من الشباب من مرحلة عمرية بعينها، أما الباقون فكان ذلك بمثابة الوظيفة لهم، أى لم تكن خدمةً عامة بالنسبة لهؤلاء. وكان على كل رجلٍ أن يمر بهذه التجربة لتظل حياته على ارتباطٍ وجدانى بها. وقد استفادت طبقة النبلاء من الجيش كبلورة كتلة، وكانت تمثل أفضل أقسام سلاح الضباط المستديم، فكانت مثل الأوسمة تمنح بقوانين صارمة، وإن كانت غير مكتوبة، أو مثل فرقة موسيقية متوارثة تعزف بدقة الموسيقى المدربة عليها لتنقل عدوى الموسيقى إلى الجمهور. فلما نشبت الحرب العالمية الأولى صار الشعب الألمانى كافةً كتلةً جماهيرية واحدة منفتحة، وغالبًا ما كان يُستعرَض حماس تلك الأيام. وكان كثيرون بالخارج قد راهنوا على فكرة النازية، وتعجبوا لفشلها الذريع فهم لم يعتقدوا أن هذه النازية تحمل أيضًا بداخلها "الغابة - الجيش" رمزًا لأمتهم، وأنهم أنفسهم قد انتموا إلى كتلة الجيش المنغلقة، وبانتمائهم لهذه الكتلة يكونون قد خضعوا لأمر وأثر بلورة دقيقة وفعالة على نحوٍ نادر، أى بلورة جمهور النبلاء وفئة الضباط. أما انتماؤهم لحزبٍ سياسى فلم يشكل مقابل ذلك إلا أهميةً ضئيلة. إلا أن تلك الأيام الأولى من شهر أغسطس لعام 1914 كانت كذلك لحظة مولدٍ للنازية. وهناك مقولةٌ لا ريب فيها قالها هتلر عن ذلك، فقد رُوِى أنه ركع بعد نشوب الحرب على ركبتيه شكرًا لله. فقد كانت هذه هى تجربته الحاسمة، إنها اللحظة الوحيدة التى كان فيها هو نفسه (كتلة) جمهورًا. وهو لم ينس هذه اللحظة، وقصر مسيرته كلها على إعادة إحياء هذه اللحظة، لكن من الخارج. فكان على ألمانيا أن تصبح على وعيٍ بحافزها الحربى، متفقةً عليه ومتوحدةً فيه، إلا أن هتلر لم يكن ليحقق هدفه قط لو لم تحل معاهدة فرساى جيش الألمان.

فقد أدى إلغاء الخدمة العسكرية العامة الى التفاف الألمان حول كتلتهم الأساسية المنغلقة، فالتدريبات التى حرموا منها وتلقى الأوامر وإبلاغها صارت أمرًا عليهم إنجازه ثانيةً بكل السبل. هكذا كان إلغاء الخدمة العسكرية العامة بمثابة ميلاد النازية. فكل كتلة منغلقة تُحَل قسرًا تستحيل إلى كتلة منفتحة، يتقاسم الجميع ملامحها، فانتقل الحزب إلى الجيش، وهو (حزبٌ) لم توضع له حدود فى إطار الأمة، فكل ألمانى رجل، امرأة، طفل، جندى، مدنى، كان بوسعه أن يصبح نازيًا، وهو أمرٌ كان غالبًا ما يمثل لهؤلاء أهميةً أعظم إن لم يكونوا جنودًا فى السابق، لأنهم يساهمون على هذا النحو فى مسلك كانوا عادةً محرومين منه.

وبعزيمة لا مثيل لها اتخذ هتلر من "إملاء- فرساى" شعارًا، كما أن تكراره لم يوهن تأثيره، بل على النقيض فقد تنامى ذلك عبر السنين. فما هو محتمل مضمون هذا الشعار حقًا؟ وما هو الذى أوصله هتلر من خلاله إلى مستمعيه؟

لقد كانت كلمة "فرساى" لا تعنى للألمانى إلى حدٍّ ما الهزيمة التى لم يقرها قط، بل كانت تعنى تحريم الجيش وتحريم تدريب مقدس بعينه. فتصور الحياة من دونه يكون أمرًا شاقًا، فقد كان تحريم الجيش مثل تحريم دينٍ ما، هكذا صارت عقيدة الآباء ممنوعةً، فصار إعادة إحيائها فرضًا مقدسًا على كل رجل، كما كانت كلمة "فرساى" تنكأ الجرح فى كل مرة تُستخدَم فيها، وتحافظ عليه داميًا ليواصل النزيف فلا يندمل أبدًا. أما بوادر الشفاء من هذا الجرح فكانت تُستبعد كلما قيلت كلمة "فرساى" بقوة أمام الجموع. وفى هذا السياق لم تكن تُذكَر كلمة معاهدة قط، بل كان يقال دائمًا "الإملاء". فالإملاء يذكِّر بأجواء "الأمر". إنه "أمرٌ" وحيد أصدره أجنبى. إنه أمر العدو ولذا سُمِّى "إملاءً"، فكان هو الدافع الأساسى لتحريم الأمر العسكرى من ألمانيٍ إلى ألمانى. فمن كان يسمع أو يقرأ كلمة "إملاء فرساى" كان يشعر فى أعمق أعماقه بما انتُزع منه، أى الجيش الألمانى، فبدا إحياؤه هو الهدف الوحيد المنطوى على أهميةٍ حقيقية. فبالجيش يعود كل شيءٍ إلى سابق عهده، فأهمية الجيش كرمز جمهور قومى لم تتزعزع مطلقًا لأن جزءه الأعمق والأقدم كان لا يزال موجودًا لم يُمَس، أى الغابة. واختيار كلمة "فرساى" كشعارٍ مركزى كان اختيارًا موفقًا للغاية من منظور هتلر للموقف. فهذه الكلمة لم تكن تذكِّر فقط بالحدث الأخير الأليم فى حياة الألمان القومية - من تحريم الخدمة العسكرية العامة، وإلغاء حق تشكيل الجيش الذى كان يخدم فيه كل

شخصٍ لعدة سنوات، بل إنها كانت تنطوى أيضًا على لحظاتٍ أخرى مهمةٍ وشهيرة فى التاريخ الألمانى.

ففى فرساى كان "بيسمارك" قد أسس الرايخ الثانى، وبذلك كان إعلان وحدة ألمانيا بعد نصرٍ ساحق فى لحظة شعورٍ متأجج وقوةٍ لا تقهر، وقد كان ذلك نصرًا أحرزه الألمان على نابليون الثالث الذى اعتبر نفسه خليفة لنابليون الأكبر معتمدًا على العظمة الأسطورية لهذا الاسم، فارتفع نجمة كوريث معنوى له. كما كانت فرساى هى أيضًا المقر الذى شيده لويس الرابع عشر الذى كان من بين كل حكام فرنسا قبل نابليون، هو من أذاق الألمان المذلة الأشد قسوةً. وكان هو الذى ابتلع شتراسبورج، كما دمرت قواته قلعة هايدلبرج، فجاء إعلان القيصر فى فرساى بمثابة نصرٍ متأخر مزدوج على لويس الرابع عشر ونابليون فى آنٍ واحد، وقد أحرزه وحده من دون حليف. وقد كان لذلك أثره على الألمان الذين عاشوا هذه الفترة. وهناك شهاداتٌ كافية لإثبات صحة ذلك، فاسم هذا القصر (فرساى) كان قد ارتبط بأعظم نصرٍ فى التاريخ الألمانى الحديث. وكل مرة كان يذكر فيها هتلر "الإملاء" اللعين كانت تلوح ذكرى ذلك النصر مع هذه الكلمة، لتنتقل إلى المستمعين كوعدٍ، وكان على الأعداء سماع ذلك كتهديدٍ بالحرب والهزيمة إن كانت لهم آذان يسمعون بها.

ومن دون مبالغةٍ فإن بوسعنا القول إن كل الشعارات المهمة للنازية - باستثناء ما كان يقصد بها اليهود - كانت قد اشتقت من كلمة "إملاء فرساى" مثل: "الرايخ الثالث" و"النصر- الخلاص" وغيرهما. وقد كان جوهر الحركة المكثفة قد تضمنته هذه الكلمة: أى الهزيمة التى لا بد من أن تتحول نصرًا، والجيش المحروم الذى لا بد من إعادة إحيائه أولاً لتحقيق هذا الهدف. وقد ينبغى علينا هنا الانتباه إلى فكرة رمز الحركة، أى: الصليب المعقوف، فقد كان تأثيراه مزدوجين، أى تأثير الشكل وتأثير الكلمة، فكلاهما يمثل أملاً هائلاً. فالصليب نفسه اتخذ شكل اثنتين من المشانق الملتوية ليهدد من يراه على نحوٍ ماكر، كأنه يشاء القول: انتظر فسوف تعجب لِمَن سيُعلَّق هنا. وبنفس القدر الذى كان عليه شكل الصليب المعقوف من حركة دائرية كان أسلوب التهديد، فهو يُذكِّر بأعضاء جسد المصلوب الممزقة التى علقت به، فقد استعارت هذه الكلمة من الصليب المسيحى ملامحه الرهيبة الدموية كما لو كان الصلب أمرًا طيبًا. وهذا الصليب

المنتهِى كل ضلعٍ منه بخطاف يذكِّر بما عرف "بتعليق الصِبية" ما يعنى أن كثيراً من الأعداء سيتم أسرهم وقتلهم. وقد يفتح الباب أمام الجندية ويتيح الفرصة مرة أخرى لـ"ضرب الكعبين". وعلى كل حال فإنه يربط بين تهديدٍ بعقوبةٍ مروعة وبين مزالق الخطر وتهديد غامض بنظام عسكرى.

التضخم والكتلة

إن التضخم هو "حدث - جماهيرى" بكل ما تحمله الكلمة من معنى أكثر قربا للواقع ولمفهوم دلالته المباشر، فالأثر المثير للارتباك الذى يمارسه التضخم على شعوب بلادٍ بكاملها لا يقتصر بأية حالٍ على لحظة التضخم نفسها. وبوسعنا القول إنه لا يوجد فى مجتمعاتنا المدنية الحديثة شىء يمكن مقارنته فى جسامته بحالات التضخم وآثارها على البشر سوى الحروب والثورات، فالقلاقل التى تسببها ذات طبيعةٍ عميقة إلى حد أن المرء يفضل إخفاءها ونسيانها، بل قد يكون من المخزى أن يُنسَب للمال - الذى حدد الإنسان قيمته على نحو مصطنع وغير حقيقى - آثاره فى بناء كتلة، وهى آثار تتجاوز ماهية وظيفته الحقيقية بكثير، وتنطوى على شىء مُنافٍ للمنطق ومخزٍ بلا حدود. لكن من الضرورى التطرق إلى ذلك لنقول شيئًا عن الصفات السيكولوجية للمال نفسه، فالمال يمكن أن يصير رمزًا للكتلة، لكنه -على النقيض من رموز عالجناها هنا - رمز تتأكد عنده على نحو أكثر إلحاحًا الوحدات التى تعمل من خلال تكدسها على تكوين جمهور فى ظل ظروفٍ ما. فكل قطعة نقود لها حدودٌ فاصلة بدرجة قاطعة ولها وزن خاص بها، ويمكن التعرف عليها من أول نظرةٍ، وهى تتنقل بحرية من يدٍ إلى يد، وتبدل باستمرارٍ جيرانها، وغالبًا ما يتم سك رأس حاكمٍ ما عليها، وهى تحمل

اسـمه أحيانًـا، خاصـةً إذا كانـت قيمتهـا كبـيرةً، فقـد كان هنـاك فرنـكات „لويـس" وريـالات „ماريـا تريـزا". إننـا نتحسـس قطعـة النقـود كأنهـا شـخصٍ محسـوس، فاليـد التـى تقبـض عليهـا تشـعر بهـا فى كل مـكانٍ بـكل حروفهـا وسـطحها، والشـعور المعـين المرهـف نحـو قطعـة نقـود يمكـن منحهـا لهـذا أو ذاك هـو شـعورٌ إنسـانى عام ويسـاهم فى ملامحهـا الشـخصية. وفى حالـةٍ مّـا فـإن قطعـة النقـود تتفـوق عـلى المخلـوق الحـى، فمادتهـا المعدنيـة وصلابتهـا يضمنـان لهـا وجـودًا أبديًـا فهـى لا يمكـن تدميرهـا إلا بالنـار. وقطعـة النقـود لا ينمـو حجمهـا، فهـى تخـرج فى شـكلها النهـائى مـن دار سـك النقـود لتظـل عـلى مـا هـى عليـه، فـلا يجـوز لهـا أن تتغـير. وربمـا كانـت مصداقيـة قطعـة النقـود هـى أهـم سـماتها، فالأمـر يتوقـف عـلى مالكهـا وحـده أن يحافـظ عليهـا جيـدًا فهـى لا تفـر مـن تلقـاء نفسـها مثـل حيـوان مـا، فحمايتهـا تكـون فقـط مـن الآخريـن، ولا يجـب أن نرتـاب فيهـا، فبوسـعنا دائمًـا اسـتخدامها، وهـى ليـس لديهـا رغبـات جامحـة يحـترز المـرء منهـا. كـما تـدرك كل قطعـة نقـود حصانتهـا الذاتيـة مـن خـلال علاقتهـا بأخـرى لا تسـاويها فى القيمـة. والنظـام الهرمـى الصـارم لقيمـة قطـع النقـود يجعلهـا أكـثر قربًـا لحالـة الأشـخاص، فيمكننـا الحديـث عـن نظـامٍ اجتماعـى فئـوى لقطـع النقـد، وتكـون الفئـة فى هـذه الحـال هـى القيمـة، فمقابـل النقـود ذات القيمـة المرتفعـة (يسـتطيع المـرء) يُمكـن الحصـول عـلى مـا هـو أقـل منهـا قيمـة، ولكـن مقابـل تلـك ذات القيمـة الأقـل لا يمكـن أبـدًا الحصـول عـلى الأكـثر قيمـة. إن كـوم قطـع النقـود موجـودٌ منـذ القـدم، ومعـروفٌ لـدى أغلـب الشـعوب بأنـه الـ"كنز".

فالكنـز فى حـد ذاتـه يملـك بعـض سـمات الكتلـة، وذلـك مـن خـلال الإحسـاس بـه كوحـدةٍ وكيفيـة العثـور عليـه مـن دون معرفـةٍ بالكـم الـذى يحتويـه بالفعـل، ويمكـن النبـش للبحـث عـن الكنـز وفصـل كل قطعـة نقـد عـن أخـرى، كـما هـو متوقـع عـلى نحـوٍ أكـبر مـما هـو عليـه. وهـو فى الغالـب مخبـوء ويمكـن أن يظهـر للنـور فجـأة. لكـن مـن قـضى حياتـه أمـلاً فى العثـور عـلى كنـزٍ، أو مـن كدسـه، لم يتصـور أن الكنـز سـينمو ليفعـل مـا يمكـن أن يـؤدى إلى ذلـك، وليـس هنـاك شـك مطلقًـا فى أن بعـض مـن يعيشـون مـن أجـل المـال فقـط ينظـرون إلى الكنـز عـلى أنـه بديـلٌ للكتلـة الإنسـانية. فهنـاك روايـاتٌ كثـيرة عـن بعـض البخـلاء يتضمنهـا هـذا الإطـار، فهـؤلاء هـم الاسـتمرار الخـرافى للأسـاطير، واسـتمرار لأولئـك الذيـن كانـوا فى حراسـة وتأمـل ورعايـة كنـزٍ مـا هـو محـور حياتهـم الوحيـد. وينبغـى الإشـارة إلى أن هـذه العلاقـة بقطعـة النقـد والكنـز قـد تقادمـت بالنسـبة للإنسـان الحديـث بعـد اسـتخدام النقـود الورقيـة بـكل

مكان، وبعد أن صار الأغنياء يودعون كنزهم بالبنوك على نحوٍ غير مرئى ومجرد. أما أهمية تغطية عملة جيدة بالذهب، أى حقيقة استمرار التمسك بعملةٍ ذهبية لهو برهانٌ على أن الكنز لم يفقد معناه القديم. إن القسم الأعظم من الناس، فى البلاد المتقدمة تقنيًا كذلك، ينالون أجرًا طبقًا لساعات عملهم. وهو أمرٌ يرتكزعلى نظامٍ نقدى كما هو معروف بكل مكان. وما زال الشعور القديم الملازم للحصول على قطعٍ نقدية، فى هيئة أوراق، شعورًا حميمًا لدى كل شخص. واستبدال النقود، كعملية يومية، يعتبر أوسع وأبسط عمليةً آلية فى حياتنا. وهو ما يتعلمه كل طفلٍ مبكرًا قدر الإمكان. لكنه من الصحيح أيضًا أنه، بجانب هذه الآلية القديمة، قد نشأت علاقةٌ حديثة مع المال، فقد نالت وحدة قطع النقد فى كل بلد قيمةً أكثر تجردًا، وإن لم تعد من خلال ذلك كوحدة. فإذا ما كان لدى قطع النقد، فى حد ذاتها، فى الماضى شىء من المنظومة الهرمية الصارمة لمجتمعٍ مغلق فإن ما يجرى على النقد الورقى لهو أكثر مما يجرى على سكان مدينة كبيرة. أما الكنز فقد تحول معناه اليوم إلى "المليون" صاحب الشهرة الكونية. وقد عم معنى هذه الكلمة العالم الحديث بأسره، ويمكن أن يشمل أية عملة. والأمر المثير فى المليون أنه يمكن الحصول عليه فجأةً من خلال براعة المضاربة، وهو أمرٌ يداعب خيال كل من كان طموحه يستهدف المال. فالمليونير يمتلك بعض السمات الأكثر بريقًا، أى تلك التى كانت لملوك الأساطير القديمة. ووصف "المليون" ينسحب على المال والبشر بالقدر نفسه. وهذه الطبيعة المزدوجة للكلمة يمكن متابعتها على نحوٍ جيد فى الخطب السياسية. فالرغبة الجامحة فى "العدد الطفرة" كان سمةً مميزة لخطب هتلر الذى كان يقصد بذلك الملايين الذين يعيشون خارج الرايخ ويجب تحريرهم. وبعد الانتصارات الأولى غير الدموية، السابقة على خوضه للحرب، كان لهتلر ولعٌ خاص بالعدد المتنامى لسكان الرايخ، فبهؤلاء سيواجه الألمانُ كل من على وجه الأرض، وقد كان هدفه المعلن هو وضعهم جميعًا داخل محيط تأثيره، وكان دائمًا ما يستخدم فى إعلان تهديده ورضاه ومطالبه كلمة "المليون". وهناك سياسيون آخرون يستخدمونها فى مجال المال. إلا أن استعمال الكلمة قد صار له صدى مدوٍّ بلا ريب، فالعدد المجرد لإحصاء سكان البلاد، خاصةً المدن العالمية، صار ينطوى على فحوى الكتلة بما لا ينطوى عليه أى عددٍ آخر اليوم. ولما كان المال ملازمًا لـ"المليون" نفسه فإن الكتلة والمال صارا أكثر تقاربًا مما سبق.

لكـن مـا الـذى يحـدث فى التضخـم حقًا؟ إن وحـدة المال تفقـد شـخصيتها فى لحظةٍ مفاجئـة تمامًـا، فتتحـول إلى كتلـة مطـردة مـن الوحـدات، تقـل قيمتهـا باسـتمرار كلـما تضخـم حجـم الكتلـة. فالملايـين التـى كان المـرء يسـعى للحصـول عليهـا أصبحـت فجـأةً بـين يديـه لكنهـا لم تعـد "ملايـين"، وإنمـا هـى "تدعـى" هكـذا فقـط، فيكـون الحـال كأن عمليـة الطفـرة المفاجئـة قـد سـحبت كل قيمـةٍ مـن صاحـب الطفـرة المفاجئـة. فـإذا مـا انزلقـت العملـة مـرةً إلى مـا يعـرف بحركـة الفـرار فلـن يحكمهـا حـدٌّ أقـصى. وبقـدر مـا يُمكـن الارتفـاع بالعـدد بقـدر مـا يمكـن توقـع انحـدار المـال إلى أى قـاعٍ. وفى هـذا الحـدث تكمـن الرغبـة فى نمـوٍ سريـع بـلا حـدود، وهـو مـا وصفتـه بأهـم وأوضـح السـمات النفسـية للكتلـة. إلا أن هـذا النمـو السريـع يصبـح هنـا سـلبيًا، فالمتنامـى ينتقـل مـن حالـة ضعـفٍ إلى حالـةٍ أضعـف، فـإذا كان فى المـاضى "مـارك" فقـد صـار الآن 10.000 ثـم 100.000، ثـم مليونًـا. ومسـاواة الإنسـان الفـرد بالمـارك الـذى يملكـه تكـون مـن خـلال ذلـك قـد انتهـت، بعـد أن فقـد المـارك صلابتـه وحـدوده، وصـار ينقلـب فى كل لحظـةٍ إلى شىء آخـر. أمـا الإنسـان الـذى كان قـد وضـع ثقتـه فيـه فى المـاضى فإنـه لا يسـتطيع عـلى أيـة حـالٍ أن يشـعر بانخفـاض قيمـة العملـة كانخفـاض قيمتـه هـو. وهـو الـذى ظـل لزمـن طويـل متسـاويًا معهـا وكانـت ثقتـه بهـا كثقتـه بنفسـه. ولا ينزلـق إلى التضخـم كل مـا هـو ظاهـرىٌّ فحسـب، فلـم يعـد هنـاك شىء مضمـون ولم يعـد شىء مسـتقرًا عـلى حالـه لسـاعةٍ واحـدة، فمـن خـلال التضخـم يصـير هـو نفسـه، أى الرجـل، أقـل قيمـةً، فهـو نفسـه مهـما كان شـأنه يصـير لا شىء، والمليـون الـذى مـا تمنـاه دائمًـا يصـير لا شىء، بعـد أن أصبـح فى يـد الجميـع، لكـن كل هـذا صـار لا شىء بعـد أن انقلبـت عمليـة تكويـن المليـون إلى نقيضهـا، فقـد ضاعـت كل مصداقيـة المـال هبـاءً. ولا شىء يمكـن إضافتـه إلى ذلـك بعـد أن انخفضـت قيمـة كل شىء، وبعـد أن اختفـى كل كنـز. ويمكننـا أن نصـف التضخـم بـ"سـبت السـاحرات" أى يـوم إلغـاء القيمـة، ففيـه يمتـزج الإنسـان بوحـدة المـال عـلى نحـوٍ هـو الأكـثر عجبًـا، فـكلٌّ منهـما مرتبـطٌ بالآخـر، فتكـون حـال المـرء سـيئةً كحـال المـال التـى تـزداد سـوءًا عـلى نحـوٍ دائـم، وقـد صـار كلاهـما معًـا تحـت رحمـة هـذا المـال المـتردى ليشـعرا معًـا كذلـك أنهـما بـلا قيمـة. هكـذا ينتـج التضخـم حالـةً لم تكـن مسـتهدفة عـلى الإطـلاق، حالـةً خطـرة تسـبب الفـزع لـكل مـن يتصـدى للمسـئولية ويسـتطيع رؤيـة ذلـك، أى فقـدان القيمـة المـزدوج الناشـئ عـن مسـاواة مزدوجـة. فالفـرد يشـعر بفقـدان قيمتـه لأن الوحـدة التـى كان يثـق بهـا ويحترمهـا انزلقـت إلى الهاويـة.

والكتلة الجماهيرية تشعر بفقدان قيمتها لأن "المليون" فقد قيمته. وقد تناولنا استخدام كلمة المليون بمعنى مزدوج ليشمل كلاً من مبلغ المال الضخم وجمع الناس الغفير من سكان المدن الكبيرة الحديثة. كما رأينا تداخل كلا المعنيين، وأن أحدهما يقترب حثيثًا من الآخر. وكل الكتل التى تتكون فى أوقات التضخم - وهو ما يحدث فى الغالب كثيراً - تقع تحت ضغوط المليون الفاقد للقيمة. وبقدر انخفاض قيمة الفرد يكون انخفاض الجمع. فإذا صعدت أرقام الملايين إلى القمة فإن شعبًا كاملاً يتكون من ملايين يصير إلى لا شىء. إن هذا الحدث يجمع أناسًا معًا تختلف عادةً مصالحهم المادية، فما يصيب العاملين بالأجر يصيب أصحاب المعاشات. وبين عشية وضحاها قد يفقد أحدهم الكثير أو كل ما أودعه آمنًا بالبنك. ويلغى التضخم فروقًا بين الناس بدت أبديةً، كما يجمع أناسًا لم يُلق أحدهم للآخر التحية ليضع الجميع فى كتلة تضخمٍ واحدة وحيدة. ولا يمكن لشخصٍ ما أن ينسى هذه الخسارة المفاجئة للقيمة، فهو أمرٌ مؤلم يفوق الوصف، لا يفارقه طوال حياته أينما ذهب. وقد يحدث أن يلقى البعض اللوم فى هذا على البعض الآخر. والكتلة الجماهيرية لا تنسى فقدانها لقيمتها لأن التوجه الطبيعى حينئذٍ يكون نحو العثور على شىءٍ يعتبره المرء أقل منه، شىءٍ يمكن للمرء أن يحتقره كما تم احتقاره هو شخصيًا. ولا يكفى أن يقبل المرء هذا الاحتقار على النحو الذى وجده عليه، ويحتفظ به على المستوى نفسه الذى كان عليه قبل أن يعثر عليه. أما ما يحتاجه المرء فهو عمليةٌ ديناميكية لخفض القيمة فلا بد من معالجة شىءٍ يزداد انخفاض قيمته حتى يصل بهدف ما إلى اللاقيمة التامة، وهنا يكون بوسع المرء أن يلقى به جانبًا كأية ورقة، أو يسحقه. وكان هدف هذا التوجه الذى عثر عليه هتلر فى أثناء التضخم فى ألمانيا هو اليهود، فكانوا كأنهم خلقوا من أجل ذلك، فقد كانت صلتهم العريقة بالمال وفهمهم التقليدى لحركته وتغير قيمته وتدفقهم الجماعى على البورصة حيث تفوق مسلكهم على مثالية المسلك العسكرى للألمان، كل هذا وضعهم موضع الشك وأعداءً فى وقتٍ طفح بالشكوك والأهواء والروح العدائية ضد المال. فصار اليهودى فردًا سيئًا لأنه فى حالةٍ مالية جيدة بينما كانت أحوال الآخرين غامضة، ولم يعد أحدٌ يريد أن يكون على علاقةٍ بالمال، ولو أن الأمر كان قد ارتبط فى أثناء التضخم بعملية تدهور القيمة بالنسبة للألمان كأفراد فكانوا سيكتفون بكراهية بعض اليهود بعينهم، لكن الحال لم يكن هكذا، فالألمان شعروا فى انهيار ملايينهم

بالإذلال كذلك. أما هتلر الذى كان لديه رؤيةٌ واضحة عن ذلك فإنه استهدف اليهود ككل. وفى مسلكه نحو اليهود قام النازى بتكرار عملية التضخم على نحوٍ دقيق، فهوجموا فى البداية كجماعة أشرار خطرين، وكأعداء، ثم تعرضوا لعملية مطردة من الإهانة. ولما لم يكن لديه ما يكفى من مواطنيه اليهود فإنه قام بجمعهم من البلاد التى استولى عليها. وفى نهاية المطاف كان اليهود قد اعتبروا حشراتٍ بالمعنى الحرفى للكلمة ومسموح (يجوز للمرء) القضاء عليهم بالملايين من دون التعرض للمساءلة. وما زلنا حتى يومنا هذا نعجب من تطرف الألمان إلى هذا الحد ليرتكبوا هذه الجريمة بهذا الحجم، سواء من شارك فيها أو من تواطأ على تنفيذها أو من غض الطرف عنها. ولم يكن ممكنًا أن يبلغوا هذا المدى لو أنهم لم يتعرضوا قبل ذلك ببضع سنوات لتضخمٍ انخفض خلاله المارك إلى واحدٍ من المليار من قيمته. لقد كان هو التضخم، محنة الكتلة (الجماهير) التى جرّع الألمان مرارتها لليهود.

جوهر النظام البرلمانى

لقد استفاد نظام الحزبين بالبرلمان الحديث من البنيان النفسى للجيوش المقاتلة. وهو ما حدث بالفعل فى أثناء الحرب الأهلية، وإن كان أمرًا مكروهًا. فالمرء لا يحبذ قتل مواطنيه. فهناك شعورٌ قبلى يتحرك دائمًا ضد الحروب الأهلية الدموية، وعادةً ما يؤدى إلى نهايتها فى أعوامٍ قليلة أو أقل من ذلك. إلا أن الحزبين الموجودين هنا كان عليهما الاستمرار فى التنافس، فهما يتقاتلان من دون إراقة دماء. ولما كان من المفترض أن يكتب النصر فى المواجهات الدموية لصاحب العدد الأكبر فقد كان حرص كل قادة الميدان الأعظم ينصب على القوة فى ساحة نزال حقيقى، أى أن يكون بين أيديهم عددٌ من الأفراد أكبر مما لدى خصومهم. والقائد الناجح هو من يوفَّق إلى فرض سيادته على مواقع مهمةٍ كثيرة قدر الإمكان، حتى لو كان هو الأضعف بشكل عام. وهدف الاقتراع البرلمانى هو الكشف عن قوة كلتا المجموعتين فى وقت ومكان محددين، فلا يكفى أن يكون المرء على معرفةٍ بها من البداية. وقد يكون لأحد الأحزاب 360 نائبًا وللآخر 240 نائبًا، ويظل التصويت هو الأمر الحاسم حتى اللحظة التى يشتبك فيها المتنافسون بالفعل، وهذا هو ما تبقى من الصدام الدامى الذى يمارسه الخصوم بأساليب متعددة من خلال التهديد والسباب والانفعال الجسدى، وقد يصل الأمر إلى الضرب أو الطرح أرضًا. إلا أن إحصاء الأصوات يكون هو نهاية المعركة ليتم قبول أن 360 رجلاً فازوا

على 240 آخرين. أما كتلة الموتى فتظل خارج مسرح الأحداث تمامًا. فالبرلمان لا يسمح بوجود قتلى، وهو ما يتجلى فى حصانة العضو بوضوح شديد. والحصانة هى حصانة مزدوجة: خارجيًا فى مواجهة الحكومة وأجهزتها، وداخليًا بين الزملاء الأعضاء. والتوجه الأخير لا يعول على أهميته كثيرًا. فليس هناك من يصدق فى الواقع أنّ رأى العدد الأكبر هو الأكثر حصافةً بفضل أكثرية عدده، فما ذلك سوى إرادةٍ فى مواجهة إرادةٍ، مثلما يحدث فى حربٍ ما، ويلازم كلاً من هاتين الإرادتين إيمانٌ بالحق الشخصى الأكبر وإيمان بالعقلانية الشخصية، وهو ما يمكن توافره بسهولة، بل إنه أمرٌ موجود بحد ذاته.

إن معنى حزبٍ ما يكمن فى الحفاظ على يقظة هذه الإرادة وهذا الإيمان. أما الخصم الحاصل على أصواتٍ أقل فلا يستسلم على أية حال، ليس لأنه لم يعد يؤمن فجأةً بحقه وإنما لأنه يقر ببساطة بخسارته، وهو يقر خسارته لأنه لن يضيره شىءٌ، فهو لن يُعاقَب بأية صورةٍ على موقفٍ عدائى سابق، أما خوفه من فقدان حياته ثمنًا لذلك، فكان سيجعل رد فعله مختلفًا. إلا أنه يتحسب لمعارك أخرى، وهى معارك تتكرر بلا حصر، لأنه لن يُقتَل فى إحداها. إن المساواة بين الأعضاء، أى هذا الذى يجعلهم كتلةً، يكمن فى حصانتهم، وبذلك لا يكون هناك فرقٌ بين الحزبين، فالنظام البرلمانى يظل قائمًا ما دامت هذه الحصانة متوافرةً، ويزول هذا النظام حالما يجلس أحدهم هناك ويسمح لنفسه بتوقع موت عضوٍ ما فى هيئة حزبية، فليس هناك ما هو أخطر من رؤية موتى بين هؤلاء الأحياء. أما الحرب فهى الحرب لأن حسمها يشترط سقوط قتلى. أما البرلمان فهو برلمان ما دام يستبعد سقوط قتلى. أما الأسلوب الطبيعى الذى يتبعه، على سبيل المثال، البرلمان الإنجليزى، لينأى بنفسه عن الموت وموت أعضائه، حتى من ماتوا خارج البرلمان على نحو سلمى، فقد تجلى فى إعادة الانتخابات. ولا يتم تحديد خليفة المتوفى مسبقًا، فلا أحد يحل محله آليًا، لتُستأنَف المعركة الانتخابية من جديد بكل تفاصيلها المنتظمة. أما المتوفى فلم يعد له مكانٌ بالبرلمان فليس من حقه التصرف فى ميراثه هناك، فلا يوجد أى عضوٍ على فراش الاحتضار يعرف على وجه اليقين من سيخلفه. فالموت بكل آثاره الخطرة مستبعدٌ بالفعل من البرلمان الإنجليزى. وعلى الجانب الآخر من هذا المفهوم للنظام البرلمانى يمكن أن يسوق البعض اعتراضًا بأن كل البرلمانات القارية تتكون من أحزابٍ كثيرة كبيرة على أقصى درجة من الاختلاف، وأن هذه الأحزاب لا تشكل إلا فى بعض الأحيان كتلتين

كبيرتـين متصارعتـين، وهـذه الحقيقـة لا تغـير شـيئًا فى معنـى التصويـت، فهـو بمثابـة اللحظـة الأساسـية دائمًـا فى أى مـكان، فهـو الـذى يحـدد مـا سـوف يحـدث، وهـو لا يهتـم إلا برقمـين يلـزم الأكـبر فيهـما جميـع الذيـن شـاركوا فى التصويـت. أمـا حصانـة العضـو فتكـون سـبب نهضـة أو سـقوط البرلمـان فى أى مـكان، وأمـا "انتخـاب" الأعضـاء فيكـون مبدئيًـا عـلى صلـة قرابـةٍ بمجريـات الأحـداث بالبرلمـان. فـإذا مـا اعتـبر المنتـصر هـو الأفضـل مـن بـين المرشـحين فإنـه يكـون هـو مـن أثبـت أنـه الأقـوى، فالأقـوى هـو مـن حصـد أغلبيـة الأصـوات، فـإن كان أنصـاره البالـغ عددهـم 17.562 سـيواجهون كجيـش موحـد 13.204 مـن أنصـار خصمـه، فينبغـى ألا يسـفر هـذا الأمـر عـن قتـلى، وعـلى نحـوٍ مـا لا تكـون حصانـة المقترعـين بقـدر أهميـة حصانـة بطاقـة الاقـتراع التـى يسـلمها الناخبـون باسـم مـن انتخبـوه. والتأثـير عـلى الناخبـين حتـى لحظـة تحديدهـم لاسـم مرشـحهم بشـكلٍ نهـائى، وكتابتـه أو وضـع علامـة أمامـه، هـو أمـرٌ مسـموحٌ بـه لحـدٍّ كبـير وبـكل الوسـائل، فيتعـرض المرشـح الخصـم للسـخرية وإظهـار الكراهيـة العامـة ضـده. وبوسـع الناخـب أن يصـول ويجـول فى كثـيرٍ مـن المعـارك الانتخابيـة، فمصائرهـا المتغـيرة تمثـل لـه الإثـارة العظمـى إذا كان صاحـب اتجـاهٍ سـياسى. إلا أن اللحظـة التـى يُنتَخـب فيهـا بالفعـل تـكاد تكـون لحظـةً مقدسـة كـما تكـون صناديـق الاقـتراع المختومـة بالشـمع مقدسـةً، فهـى تلـك التـى تحتـوى عـلى بطاقـات الاقـتراع وتكـون كذلـك عمليـة فـرز الأصـوات هـى أيضًـا مقدسـة. أم الفـرح الاحتفـالى فى كل هـذه الطقـوس فينشـأ فى اسـتبعاد المـوت كعامـل حسـم، فمـع كل بطاقـة بحـد ذاتهـا يتـم إقصـاء المـوت فى اللحظـة ذاتهـا، إلا أن أثـر ذلـك يتجـلى فى تسـجيل قـوة الخصـم برقـمٍ تسـجيلاً أمينًـا. فأمـا مـن يتلاعـب بهـذه الأرقـام أو يقـوم بطمسـها أو تزييفهـا يكـون قـد سـمح بعـودة المـوت مـن دون أن يـدرى. أمـا عشـاق الحـروب الفرحـون بهـا الذيـن يسـخرون مـن بطاقـة الاقـتراع فهـم يقـرون بذلـك بنياتهـم الحقيقيـة الدمويـة، فبطاقـات الاقـتراع هـى كالعقـود، لا تمثـل لهـم سـوى مجـرد ورقـة لا قيمـة لهـا. ولأنهـا لم تغـرق فى الـدم فإنهـا تكـون زائفـةً. فهـؤلاء لا يعتمـدون سـوى الـدم عنـصرًا حاسـمًا. وتصويـت عضـو البرلمـان يكـون أكثر تركيـزًا من تصويـت الناخـب. واللحظـات المتناقضة التـى يكـون فيهـا النائـب مصوتًـا، تقـرب المسـافة بينـه وبـين الناخـب، لأنـه هنـا غالبًـا مـن أجـل التصويـت. لكـن عـدد النـاس الذيـن يشـاركهم النائـب فى التصويـت، يكـون أقـل بكثـير. فالكثافـة والخـبرة يعوضـان بالإثـارة مـا اكتسـبه الناخبـون بعددهـم الكبير.

التوزيع والتكاثر
الاشتراكية والإنتاج

إن إشكالية العدالة قديمة قدم مسألة التوزيع. فحيثما كان البشر يخرجون دائمًا معًا للصيد كانت مسألة التوزيع تأتى على أعقابها. فهؤلاء كانوا متوحدين فى الحشد، لكنهم اضطروا إلى الانفصال فى أثناء التوزيع، فالبشر لم يعرفوا قط المعدة المشتركة التى تمكّن عددًا كبيرًا منهم من تناول الطعام كمخلوقٍ واحد. فقاموا بوضع قاعدة "للتناول"، إذ إنه أقرب تصورٍ لوجود معدةٍ مشتركة، وإذا كان ذلك تقاربًا قاصرًا فإنه كان على أية حال اقترابًا من حالةٍ مثالية بعد أن شعروا هم بالحاجة إلى ذلك. فانعزالية هضم الطعام تعتبر بمثابة الجذر المروع لنبات السُلطة. فمن يريد أن يأكل وحده كُتِبَ عليه أن يَقتُل وحده منفردًا. أما من يقتل مع الآخرين فعليه اقتسام الغنيمة معهم أيضًا. وأما الإقرار بهذا التقسيم فهو بمثابة بدء العدالة، وتنظيم هذه المسألة كان أول القوانين. وما زال ذلك هو أهم قانون إلى يومنا هذا، وبقى على حالته هذه غاية كل الحركات لارتباطه بالنشاط الإنسانى الجماعى والوجود الإنسانى كله.

والعدالة تتطلب أن يكون لدى كل فرد ما يأكله، لكنها تتوقع أيضًا أن يساهم كل فردٍ بنصيبه فى اكتساب هذا الغذاء. والأغلبية العظمى من البشر منشغلةٌ

بإنتاج بضاعةٍ من كافة الأنواع، إلا أنها انحرفت فى عملية التوزيع فيما بينها. وهذا هو فحوى الاشتراكية فى أبسط صيغةٍ لها. ومهما كان تصور الناس عن أسلوب توزيع المنتجات فى عالمنا الحديث إلا أن أنصار وخصوم الاشتراكية يتفقون على أسباب هذه المشكلة. وعلى كلا جانبى الخلاف الأيديولوجى - الذى قسم العالم اليوم إلى نصفين كادا يكونان على نفس القدر من القوة - فإنه يتم تشجيع وتحفيز الإنتاج بكل السبل. وسواء أنتج المرء من أجل "البيع" أو أنتج من أجل "التوزيع" فإن عملية "الإنتاج" تلك فى حد ذاتها لم تُمس من أى طرف منهما فحسب، فالإنتاج مطلبٌ الجميع. ولا نبالغ إن قلنا إن الإنتاج فى أعين الأغلبية اليوم شىءٌ مقدس "لحد العبادة". وقد نتساءل عن نشأة هذا التقديس، وربما كانت هناك لحظة فى تاريخ البشرية نعرف من خلالها متى بدأ فرض عقوبة على الإنتاج، وبقليل من التدبر يتضح لنا أنه لا وجود لهذه اللحظة. ففرض عقوبة على الإنتاج يرجع إلى ماضٍ سحيق، إلى حد أن كل محاولة لتحديدها تاريخيًا تبدو غير كافية.

إن غرور الإنتاج يرجع إلى حشد التكاثر، وهناك رغبة لتجاهل هذه العلاقة لأنه لم يعد هناك حشود تكرس نفسها فى الواقع لمواجهة التكاثر، بعد أن صارت هناك كتلٌ بشرية هائلة تنمو كل يوم فى كل مراكز المدنية. إلا أننا لو تدبرنا أمر أنه لا نهاية متوقعة لوقف هذا التنامى، وانطلاقا من قاعدة: كلما تزايد عدد البشر تزايد إنتاج البضائع، وأن هناك من بين هذه البضائع أيضًا حيواناتٌ حية ونباتات، وأن وسائل الإنتاج لا تكاد تفرق بين بضاعة حية أو غير حية، فإن علينا أن نعترف بأن حشد التكاثر كان هو الشكل الذى ابتدعته البشرية وكان الأكثر نجاحًا والأكثر فائدة فى تبعاته. أما الطقوس التى كانت تستهدف التكاثر فصارت ماكيناتٍ وعملياتٍ تكنولوجية، فكل مصنعٍ صار هو الوحدة التى تخدم نفس المبدأ. أما الجديد فيكمن فى الإسراع بالأحداث، فما كان فى الماضى يعتبر إنتاجًا ونموًا من خلال توقع هطول المطر وزيادة البذور واقتراب قطعان حيوانات القنص ونمو الحيوانات المروضة، قد صار اليوم إنتاجًا مباشرًا بحد ذاته. فها هو المرء يضغط على بعض الأزرار ويدير بعض الروافع ليحصل على منتجٍ نهائى كما شاء فى ساعاتٍ قليلة، أو أسرع من ذلك.

ومـن الجديـر بالملاحظـة أن العلاقـة الصارمـة والمتلازمـة بـين البروليتاريـا والإنتـاج، التـى اكتسـبت منـذ مئـة عـام تقريبًـا هـذه المكانـة، قـد أعـادت بشـكل واضـح إنتـاج التصـور القديـم المؤَسَـس عـلى حشـد التكاثـر. فالعـمال هـم مـن يتكاثـرون عـلى نحـوٍ أسرع ويـزداد تكاثرهـم عـن طريقـين، مـن جهـة ينجـب هـؤلاء أطفـالاً أكـثر مـن الآخريـن، فهـم مـن خـلال نسـلهم فقـط يصـير لديهـم شئٌ كالكتلـة، ومـن جهـةٍ أخـرى هـم يتكاثـرون مـن خـلال ازديـاد تدفـق أهـل الريـف عـلى مواقـع الإنتـاج. إلا أن المعنـى المـزدوج الدقيـق لزيـادة العـدد كـما نعلـم يمكـن تصنيفـه عـلى أنـه (حزمـة) حشـد التكاثـر البـدائى، وفى مناسـبات أعيادهـم وشـعائرهم يلتقـى النـاس معًـا، وعـلى هـذا النحـو مـن الوفـرة يعكفـون عـلى أداء ممارسـاتٍ تعـود عليهـم بالنسـل الوفـير.

وبعـد أن تـم وضـع مصطلـح البروليتاريـا وصـار فعـالاً، سـادت روح التفـاؤل التـام للنمـو، ولم يخطـر ببـال أحـدٍ للحظـةٍ أن عددهـم سـينخفض وأن حالهـم سـتتردى، فقـد اعتمـد النـاس عـلى الإنتـاج الـذى مـن خـلال نمـوه سـوف يـزداد عـدد البروليتاريـا، والإنتـاج الـذى يصنعونـه ينبغـى أن يعـود عليهـم بالفائـدة، ولسـوف يتنامـى الإنتـاج والبروليتاريـا معًـا، إلا أن هـذا هـو بالضبـط الارتبـاط الوثيـق نفسـه الـذى تجـلى فى نشـاط حشـد التكاثـر البـدائى. فالنـاس أنفسـهم يطمحـون إلى ازديـاد عددهـم، ولـذا كان ينبغـى كذلـك أن يـزداد عـدد كل مـا يعيشـون عليـه، وهكـذا لا يمكـن فصـل هـذا عـن ذاك، فهـما مرتبطـان ببعضهـما بقـوة إلى حـد أنـه لا يتضـح أى الطرفـين يـزداد عـدده.

ولقـد رأينـا أن البـشر اكتسـبوا شـعورًا غامـرًا نحـو التكاثـر، مـن خـلال تحولهـم إلى تلـك الحيوانـات التـى عاشـت دائمًـا فى أعـداد أكـبر مـع بعضهـم البعـض. وكأننـا نرغـب فى القـول إن البـشر تعلمـوا ذلـك بدايـةً مـن هـذه الحيوانـات، فقـد كانـوا يـرون أمامهـم أسرابًـا مـن الأسـماك والحـشرات وقطعانًـا كثيفـة مـن الحيوانـات ذات الحوافـر، فـإذا مـا قامـوا بتمثيـل هـذه الحيوانـات فى رقصاتهـم عـلى نحـوٍ متقـن فإنهـم سـيصيرون مثلهـا ويشـعرون بنفـس مشـاعرها. وإذا مـا وفقـوا فى ترسـيخ طوطـم مـن خـلال هـذه التحـولات المحـددة بدقـة، وأورثوهـا لنسـلهم كشـعائر مقدسـة، فإنهـم (يكونـون) عـلى هـذا النحـو قـد توافـرت لديهـم أيضـا النيـة فى هـذا التكاثـر الـذى يفـوق التكاثـر البـشرى الطبيعـى بكثـير.

وهـذه العلاقـة بالضبـط هـى القائمـة اليـوم بـين الإنسـان والإنتـاج، فالماكينـات تسـتطيع أن تنتـج أكـثر مـما كانـت تحلـم بـه البشريـة فى الماضى، ومـن خلالها تنافسـت كل أنـواع التكاثـر عـلى نحـوٍ هائـل، ولمـا كان ذلـك عامـةً يرتبـط بالمـواد أكـثر مـن ارتباطـه بالمخلـوق فقـد ازداد اهتـمام الإنسـان بعددهـا بـأن نمَّـا احتياجاتـه عـلى نحـوٍ دائـم، فقـد زادت هـذه الأشـياء التـى يعلـم المـرء كيـف يسـتخدمها بـأن يتـدرب عليهـا لتنشـأ احتياجـات جديـدة. إن هـذا هـو عنـصر مـن عنـاصر الإنتـاج، أى تكاثـر الأنـواع بـلا حـدود فى كل اتجـاه، وهـو مـا يلفـت الانتبـاه فى أغلـب البـلاد الرأسـمالية، أمـا فى البلـدان التـى تهتـم عـلى نحـو خـاص بقيمـة البروليتاريـا - حيـث يمنـع تكـدس رأس المـال فى أيـدى الأفـراد - فتقـف هنـاك مشـكلات "التوزيـع" العـام نظريًـا عـلى قـدم المسـاواة بجـوار مشـكلات التكاثـر.

تدمير قبائل الـ"أكسوساس" لنفسها

ذات صباح من شهر مايو عام 1856 مضت فتاةٌ من قبائل الأكسوساس لتجلب ماءً من نهرٍ صغير على مقربة من دارها، وروت أنها عند عودتها رأت عند النهر رجالاً غريبي الأطوار كانوا مختلفين تمامًا عمن تقابلهم عادةً. فمضى إلى هناك عمها الذى يُدعى "أومهلاكزا" ليرى الغرباء فعثر عليهم بالموضع الذى وصفته الفتاة، وكان أن قال له هؤلاء بأن عليه العودة إلى البيت لتأدية طقوس بعينها، وبعد ذلك عليه أن يذبح ثورًا قربانًا لأرواح الموتى، ثم يعود إليهم فى اليوم الرابع، وكان شىء ما بدا فى مظهرهم أجبره على إطاعتهم، وقد فعل الرجل ما أمروه به. وفى اليوم الرابع عاد ثانيةً إلى النهر وقد تعجب لرؤية أخيه بينهم وهو الذى كان قد مات قبل عدة سنوات. وهناك عرف للمرة الأولى من وماذا كان هؤلاء، أما هم فقد قالوا إنهم كأعداء أبديين للرجل الأبيض جاءوا من الساحل الآخر للبحر من أجل مساعدة الـ"أكسوساس"، فمن خلال قوتهم التى لا تقهر سيطردون الإنجليز من البلاد. وكان على "أومهلاكزا" أن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين زعماء القبيلة، فهو سوف يتلقى منهم تعليمات ليبلغها لهؤلاء، لأنه سوف تقع أمور عجيبة بل أكثر عجبًا من كل ما جرى قبل ذلك إذا قُبلت المساعدة المقترحة، وقبل كل شىء عليه أن يبلغ الناس بالامتناع عن فنون السحر الذى يمارسونه ضد بعضهم البعض، وعليهم ذبح ماشية سمينة وأكلها. وقد ذاع

نبأ هذا الاتصال بعالم الأرواح بين أفراد الـ"أكسوساس" فكان أن استبشر "كرلى" خيراً وهو زعيم القبيلة الأعظم حتى قيل، من دون دليل على ذلك، إنه هو المدبر الأصلى للخطة كلها. كما شاع استخدام عبارة "يجب إطاعة أوامر الأرواح" فتذبح أفضل الماشية وتؤكل. ولما كان قسمٌ من القبيلة يعيش تحت الحماية البريطانية فإن "كرفى" بعث برُسله إلى زعماء هذا القسم ليخبرهم بما حدث ويطلب عونهم. وبدأت القبيلة كلها فى الحركة على الفور، وبدأ معظم زعمائها بذبح الماشية، إلا واحدًا فقط يُدعى "سانديلا" كان رجلاً حريصًا. وقد أرسل المندوب السامى البريطانى إلى "كرلى" يخبره بأنه بوسعه فعل ما يشاء بمنطقته، أما إذا لم ينته عن تحريض الرعايا البريطانيين على تدمير ممتلكاتهم فإنه سيضطر إلى فرض العقوبة عليه. إلا أن "كرلى" لم يهتم كثيراً بالتهديد فقد كان مقتنعًا بأن أوان العقاب قد حان. أما الوحى الذى جاء به (النبى) فقد ازداد انتشاره، وأما الفتاة التى وقفت فى قلب النهر بين جموع الناس المؤمنين فقد تلقت أصواتًا غير أرضية غريبة عند قدميها، وهو ما فسره عمها (النبى) بأن هذه أصوات الأرواح تسدى نصائح عن شئون البشر. وكان أن صدر الأمر الأول بذبح الماشية، إلا أن الأرواح لم تشبع، فذبحت ماشية أكثر، إلا أنها لم تكن كافيةً على أية حال. ومن شهرٍ لشهر كان الجنون يزداد ليصيب أضحياتٍ جديدة. وبعد فترة استسلم سانديلا، الزعيم الحريص، بعد تعرضه لضغطٍ شديد من أخيه، وبعد أن رأى بعينيه روح اثنين من مستشارى أبيه الموتى وتحدث بنفسه معهما، وقد أصدرا أمرًا لسانديلا بقتل ماشيته إذا لم يشأ أن يلقى حتفه مع الرجل الأبيض. وكان أن صدر أمر النبى الأكبر الذى سيعتبر تنفيذه هو آخر ما تقوم به الـ"أكسوساس" من استعدادات وبعدها سوف يستحقون مساعدة جيش الأرواح، فلا يجب أن يبقى من كل قطعانهم حيوانٌ واحدٌ على قيد الحياة ولا بد من تدمير كل الغلال التى فى المخازن، ولسوف ينعم المطيعون بمستقبلٍ باهر. ففى يومٍ محدد سوف تصعد من الأرض قطعان من آلاف وآلاف من الماشية أجمل من كل تلك التى اضطروا إلى ذبحها، وسوف تغطى المراعى طولاً وعرضًا، كما سوف تنشق أرض الحقول الشاسعة فى لحظةٍ عن الذرة البيضاء ناضجةً جاهزةً للأكل، وفى ذاك اليوم سوف يُبعث أبطال القبيلة القدامى وعظماء وحكماء الماضى فيشاطرون المؤمنين أفراحهم، وسوف يزول الهم والمرض وكذلك مظاهر الشيخوخة، فلسوف يُمنَح الشباب والجمال للموتى المبعوثين من موتهم وللأحياء الضعفاء، ولسوف يلقى

هـؤلاء الذيـن ناهضـوا إرادة الأرواح مصيرًا مروعًـا مثلهـم مثـل مـن أهملـوا تنفيـذ أوامرهـم، أمـا اليـوم نفسـه الـذى سـيجلب الكثـير مـن السـعادة للمؤمنـين فسـوف يصير وبـالاً وهـلاكًا للآخريـن، وسـوف تقـع السـماء لتدهـس المخلّطـين والبيـض. وبلا جـدوى بـذل مبعوثـو ووكلاء الحكومـة جهودهـم مـن أجـل وقـف الأحـداث الجنونيـة، فقـد تملـك الهـوس بالـ"أكسوسـاس" ولم يتقبلـوا أى اعـتراضٍ أو مقاومة. أمـا البيض الذين لم يعـدوا آمنـين عـلى حياتهـم فقـد هـددوا بالتدخـل فى هـذا الشـأن. وكانـت العقيـدة المتطرفـة قـد سـيطرت عـلى كل أفـراد الـ"أكسوسـاس"، فـرأى بعـض قوادهـم فى ذلـك فرصـةً جيـدة لشـن الحـرب، وكانـوا قـد وضعـوا نصـب أعينهـم خطـةً محـددة، وهـى تسـليح كل أفـراد الـ"أكسوسـاس" ثـم الدفـع بهـم فى حالـةٍ مـن الجوع إلى المسـتعمرات، وقـد بلغـت بهـم شـدة الانفعـال إلى حـد أنهـم لم يـروا خطـورة هـذا الفعـل الـذى كان كل شىء يحـول دون نجاحـه. وكان هنـاك بعـض ممـن لم يؤمنـوا بنبـوءات النبـى أو نجـاح مثـل هـذه الحـرب إلا أنهـم قامـوا بتدمـير كل مخزونهـم مـن الغـذاء حتـى لم يبـق منهـا شىء، وكان مـن بـين هـؤلاء عـم الزعيـم "كرلى" الـذى قـال: "إنه أمـر الزعيم". وعندمـا لم يبـق شىء للغـذاء جلـس الرجـل العجـوز وامرأتـه المفضلـة فى موضـعٍ شـاغر بالقريـة وأسـلما الـروح. حتـى كبـير مستشـارى "كـرلى" المعـارض للخطـة رأى عـدم جـدوى الجـدال، ومـع إعـلان أن كل مـا يملكـه صـار تحـت تـصرف الزعيـم أعطـى أمـره بالذبـح والتدمـير وفـر كالمجنـون. وقـد أراد آلاف الوقـوف فى وجـه عقيدتهـم، فلـما أمرهـم الزعيـم انصاعـوا لـه، وفى الشـهور الأولى مـن عـام 1857 سـادت حركـة غـير مألوفـة أرجـاء البـلاد فجهـز عـددًا كبـيرًا مـن الحظائـر الكبـيرة لاسـتقبال الماشـية التـى سرعـان مـا جـاءت بأعـداد غفـيرة، كـما صُنعـت أوان مـن الجلـد لتخزيـن الألبـان التـى سرعـان مـا سـوف تسـيل كالمـاء. وقـد جـاع البعـض فى أثنـاء هـذا العمـل. وفى الـشرق مـن ميـناء النهـر كان قـد تـم تنفيـذ أوامـر الزعيـم حرفيًـا. إلا أن يـوم البعـث كان قـد أُرجـئ رغـم ذلـك. وفى منطقـة الزعيـم حيـث بـدأ التدمـير متأخـرًا لم يكـن النـاس قـد انتهـوا بعـد مـن الذبـح، وقـد داهـم الجـوع بعـض أفـراد القبيلـة بالفعـل بينـما كان الآخـرون يجـدّون فى تدمـير غذائهـم. وقـد فعلـت الحكومـة كل شىء مـن أجـل حمايـة الحـدود، فقامـت بتقويـة كل حاميـة هنـاك، كـما أُرسِـل كل جنـدى قـادر عـلى الخدمـة إلى هنـاك واسـتعد سـكان المسـتعمرات لتلقـى الصدمـة، وبعدمـا اسـتعد النـاس للدفـاع قامـوا بجمـع المخـزون مـن المـواد الغذائيـة مـن أجـل إنقـاذ حيـاة الجائعـين. وأخـيرًا كان اليـوم الموعـود قـد حـل فظـل أفـراد قبيلـة الـ"أكسوسـاس" متيقظـين طـوال الليـل

وقـد استبد بهـم القلـق الشـديد منتظريـن رؤيـة بـزوغ الشـمس شمسـين بلـون أحمـر كالـدم عـلى التـلال لتسـقط بعدهـا السـموات وتسـحق أعدائهـم، وقضـوا ليلتهـم فى فرحـة غامـرة وقـد شـارفوا عـلى المـوت جوعًـا، وفى النهايـة أشرقـت الشـمس كعادتهـا لتنفطـر قلوبهـم. إلا أنهـم لم يفقـدوا الأمـل، فربمـا كان المقصـود هـو ظهـيرة هـذا اليـوم حـين تبلـغ الشـمس أوجهـا، فلـما لم يحـدث شىءٌ أملـوا فى وقـت غروبهـا، إلا أن الشـمس غربـت وانتهـى الأمـر كلـه. فأمـا المحاربـون الذيـن كان عليهـم جميعًـا "الهجـوم معًـا" عـلى المسـتعمرات فإنهـم لم يلتقـوا بسـبب خطـأ غـير مفهـوم، لكـن أوان ذلـك قـد فـات حينئـذٍ ولم تلـق محاولـة إرجـاء يـوم البعـث أى صـدى، لينقلـب انفعـال الفـرح لـدى الـ"أكسوسـاس" إلى يـأسٍ عميـق. وكان عليهـم حينئـذٍ أن يشـقوا طريقهـم إلى المسـتعمرات ليـس كمقاتلـين وإنمـا كشـحاذين فى حالـة مـن الجـوع المضنـى، وقـد أخـذ الأخ يقاتـل أخـاه والأب ابنـه مـن أجـل خرقـةٍ صغـيرة أو قطعـةٍ صغـيرة مـن الأوانى الجلديـة لحفـظ اللـبن التـى كانـوا عكفـوا عـلى صنعهـا ذاك اليـوم بآمـالٍ كبـيرة، كـما صـار مصـير كبـار السـن والضعفـاء بيـد الشـباب، وقـد أخـذوا يفتشـون عـن أى نـوع مـن النبـات حتـى عـن جـذور الشـجر ليأكلوهـا، أمـا الذيـن كانـوا عـلى مقربـة مـن سـاحل البحـر فقـد حاولـوا أن يقيمـوا أودهـم بالحيوانـات القشريـة، ولأنهـم لم يعتـادوا هـذا النـوع مـن الغـذاء فقـد أصيبـوا بالدوسـنتاريا، وسرعـان مـا لقـوا حتفهـم. وفى بعـض الأماكـن جلسـت عائـلات كاملـة معًـا لتحتـضر. وفيـما بعـد تـم العثـور تحـت شـجرة واحـدة عـلى خمسـة عـشر أو عشريـن هيـكلاً عظيـمًا معًـا وقـد كانـوا آبـاء وأمهـات ماتـوا مـع أبنائهـم، وتدفـق سـيل لا ينتهـى مـن مخلوقـات جائعـة عـلى المسـتعمرات كان أغلبهـم شـباب وفتيـات وآبـاء وأمهـات أحيـاء، عـلى ظهورهـم أبنـاء شـبه مـوتى، وقـد قبعـوا أمـام منـازل المزارعـين يطلبـون الطعـام بأصـوات يقطـر منهـا الأنـين.

فى أثنـاء العـام 1875 كان عـدد سـكان القسـم البريطـانى مـن بـلاد الـ"أكسوسـاس" قـد تراجـع مـن 105.000 إلى 37.000 نسـمة بعـد أن مـات هنـاك 68.000 إنسـان بينـما أُنقِـذت حيـاة الآلاف مـن خـلال مخـزون الغـلال التـى كانـت الحكومـة قـد خزنتهـا هنـاك. أمـا فى القسـم المسـتقل حيـث لم يتوافـر مخـزونٌ مـن الغـلال فقـد لقـى عـددٌ أكـبر نسـبيًا حتفهـم. وهكـذا كانـت قبيلـة الـ"أكسوسـاس" قـد انكسرت تمامًـا.

لم يكـن اسـتعراض هـذا الحـدث بهـذا الإسـهاب مـن دون قصـد. وقـد يسـاور البعـض شـكٌ أن هنـاك مـن اخـترع ذلـك، ابتغـاء إلقـاء الضـوء عـلى تعاقـب أحـداثٍ فى الكتلـة (الجماهـير) ومـدى دقتهـا ومطابقتهـا للقانـون، إلا أن ذلـك يرجـع بالفعـل إلى خمسـينات القـرن التاسـع عـشر، أى ليـس فى مـاضٍ بعيـد عـلى أيـة حـال، وتقاريـر شـهود العيـان عـن ذلـك متوافـرة وبوسـع الـكل الاطـلاع عليها. فـإذا مـا حاولنا اسـتقراء بعـض النقـاط الجوهريـة مـن التقريـر فـإن أول مـا يلفـت نظرنـا هـو مـدى حيويـة مـوتى الـ"أكسوسـاس" فهـم يشـاركون فى مصائـر الأحيـاء بالفعـل ويجـدون الوسـائط والسـبل للتواصـل معهـم، ويعدونهـم بمـدد مـن الجيـش، وهـم كجيـشٍ، أى ككتلـةٍ مـن المقاتلـين المـوتى، ينطلقـون كجيـش للـ"أكسوسـاس" الأحيـاء وسـوف يصـل هـذا المـدد كأنـه مـدد مـن قبيلـة أخـرى حليفـة، لكـن فى هـذه الحـال سـيكون تحالفًـا مـع مـوتى القبيلـة نفسـها. وعندمـا يحـل اليـوم الموعـود يصبـح الجميـع فجـأةً عـلى حـدٍّ سـواء، فكبـار السـن يعـودون شـبابًا والمـرضى يصبحـون أصحـاء والمهمومـون سـعداء ويختلـط الأمـوات بالأحيـاء. وبدايـة هـذا التوجـه للمسـاواة العامـة تنشـأ بالفعـل مـع أول أمـرٍ، فعـلى النـاس التخـلى عـن فنـون السـحر التـى اسـتخدمها بعضهـم ضـد بعـض، ففـوضى نواياهـم العدوانيـة هـو أكـثر مـا يهـدد الوحـدة والمسـاواة بـين أفـراد القبيلـة. وفى ذاك اليـوم العظيـم فـإن كتلـة القبيلـة التـى تعـانى -وحيـدةً- مـن عجزهـا عـن قهـر الأعـداء سـوف تتكاثـر فى لمـح البـصر بكتلـة أمواتهـا الكاملـة، وكذلـك كان قـد تـم تحديـد الجهـة التـى سـتتدفق الكتلـة نحوهـا مسـبقًا فإنهـا سـوف تهاجـم مسـتعمرة البيـض الذيـن يقـع قسـمٌ مـن البـلاد تحـت سـيادتهم، وبفضـل دعـم الأرواح سـتكون قوتهـم لا تقهـر. ولـلأرواح عامـةً الأمـانى نفسـها التـى للأحيـاء، فهـم يشـتهون أكل اللحـم ولذلـك فهـم يطالبـون بـأن يُضحَّـى بالماشـية مـن أجلهـم، ومـن المفـترض أنهـم أيضًـا يتغـذون عـلى الحبـوب التـى سـيتم تدميرهـا. وقـد بـدأت الأضحيـات عـلى نحـوٍ فـردى وهـو مـا يمكـن فهمـه كعلامـة للـبر والخشـوع. لكـن هـذا الأمـر يتفاقـم لأن المـوتى يريـدون كل شىء. واتجاهـات التكاثـر التـى تكـون وجهتهـا نحـو مـا يملكـه المـرء مـن ماشـية وغـلال تنقلـب لصالـح المـوتى. إن هـذه هـى الماشـية الذبيحـة وهـى الحبـوب المدمـرة هـذه هـى التـى سـتتكاثر متحولـة إلى ماشـية وحبـوب للمـوتى.

إن نـزوع الكتلـة الديناميـكى إلى تكاثـرٍ مطـرد، دفعـةً واحـدة وبـلا تـروٍ للتضحيـة بـكل شىءٍ مـن أجـل الكتلـة، هـو نـزوعٌ موجـود دائمًـا حيثـما تتكـون كتلـةٌ مـن بـشرٍ أحيـاء، وهـذه النزعـة يمكـن نقلهـا، فالصيـادون ينقلونهـا إلى حيواناتهـم البريـة تلـك

التـى لا يمكـن أن يكتفـوا بـأى عـدد منهـا، وهـم يفعلـون كل شيء مـن أجـل نمـو قطعانهـم. ومـن خـلال مهارتهـم العمليـة فى تربيـة الحيـوان تنشـأ تدريجيًـا بالفعـل قطعـان كبـيرة يتزايـد عددهـا. أمـا المزارعـون فإنهـم ينقلـون النزعـة نفسـها إلى منتجات أرضهـم الخصبـة. فالحبـة تصـير ثلاثـين أو مئـة ضعـف، والمخـزن الـذى يجمعونهـا فيـه، وهـو مـرئىٌ ومثـيرٌ للإعجـاب، هـو التعبـير الواضـح لنجـاح عمليـة التكاثـر الطفـرة. وقـد اجتهـد هـؤلاء كثـيراً حتـى يصـير شـعور الكتلـة المنقـول تجـاه القطعـان والبـذور كأنـه شـعورٌ ذاتى غـير منقـول فغالبـا مـا كانـوا يشـعرون كأنهـم هـم وحدهـم مـن فعلـوا ذلـك. وفى أثنـاء هـذا التدمـير الـذاتى لـ"أكسوسـاس" كان كل مـا لهـم مـن "توجهـات تكاثـرٍ" نحـو البـشر والماشـية والغـلال قـد ارتبـط بتصورهـم عـن المـوتى، وفى سـبيل ثأرهـم مـن البيـض الذيـن اعتـادوا نهـب بلادهـم وكذلـك مـن أجـل الفرصـة السـانحة للخـلاص بعـد كل الحـروب الخـاسرة ضدهـم كانـت القبيلـة بحاجـةٍ إلى أمـرٍ محـدد، هـو بعـث موتاهـم. فـإذا مـا اطمئنـوا إلى ذلـك، وإذا بُعـث هـؤلاء فى أفـواجٍ غـير مرئيـة، فسـوف يكـون بمقدورهـم خـوض الحـرب، وسـتعود إليهـم ذرة وماشـية المـوتى أكـثر بكثـير ممـا ضحـى بـه مـن أجلهـم، أى كل مـا اجتمـع لـدى المـوتى منـذ الأزل مـن ماشـية وذرة، فالماشـية الذبيحـة والحبـوب المدمـرة صـارت بلـورة الكتلـة التـى سـيعلق بهـا كل الماشـية وكل الحبـوب هنـاك. وفى أزمنـة أخـرى كان المـرء سـيضحى كذلـك بالبـشر فى سـبيل الغـرض نفسـه. وفى ذاك اليـوم الموعـود سـوف تغـص المراعـى بقطعان كبـيرة جديـدة وفى المـزارع سـتكون الـذرة ناضجـةً جاهـزةً لـلأكل. وبهـذا الفعـل كانـت كل الآمـال قـد عُلِّقـت عـلى عـودة المـوتى للحيـاة ومعهـم كل أسـباب الحيـاة. وفى سـبيل هـذا الهـدف العظيـم ضحـى النـاس بـكل شيءٍ وهـو مـا سـوف يسـتردونه مـن ذويهـم بالعـالم الآخـر الذيـن عرفـوا قدرهـم. وكان شـقيق النبـى ومستشـارو الزعيـم العجـوز الراحـل هـم مـن ضمنـوا تنفيـذ الاتفاقيـة التـى عقـدت مـع المـوتى، أمـا مـن عارضهـا أو تـردد فى قبولهـا فقـد قامـت الكتلـة بنـزع كل مـا يملكـه وهـو مـا هـدد وحدتهـا لـذا كان مـن الأفضـل اعتبـار هـؤلاء مـن الأعـداء فيقـضى عليهـم معهـم.

فـإذا مـا تأملنـا النهايـة الكارثيـة للحـدث أى حقيقـة عـدم حـدوث شيء فى اليـوم الموعـود، أى لا حقـول ذرة ولا قطعـان ماشـية ولا ظهـور لجيـوش مـوتى، فإنـه يمكـن القـول انطلاقـا مـن المنظـور العقائـدى لـ"أكسوسـاس" إن ذلـك كان بمثابـة خديعـة مـن تدبـير المـوتى الذيـن لم يأخـذوا الاتفاقيـة عـلى محمـل الجـد، ولم يبالـوا مطلقًـا بالانتصـار عـلى البيـض، بـل كان كل همهـم أن يتكاثـروا هـم، ومـن خـلال خدعـة زائفـة

بـادر أفـراد القبيلـة بنقـل ماشـيتهم ومـا يملكـون مـن غـلال إلى المـوتى، مـا نتـج عنـه جـوع الجمـوع. إذن كان المـوتى هـم مـن أحـرزوا النـصر حتـى وإن تـم بذلـك بأسـلوب آخـر وفى حـرب أخـرى، ففـى نهايـة المطـاف كانـوا هـم قـد صـاروا الكتلـة الأكـبر. ومـن العنـاصر المهمـة فى مسـلك الأكسوسـاس كان "الأمـر"، الـذى انطـوى عـلى شىءٍ منعـزل للغايـة وظـل هنـاك وحـده فعـلاً قائمًـا بذاتـه. أمـا المـوتى الذيـن أصـدروه فكانـوا بحاجـةٍ إلى وسـيطٍ لإبـلاغ الأمـر، فهـم يقـرون بنظـام الدنيـا الهرمـى، فعـلى النبـى التوجـه إلى الزعـماء، فيحركهـم لتلقـى أوامـر الأرواح. ومـا إن أعلـن "كـرلى" الزعيـم الأكـبر قبـول خطـة الأرواح حتـى مـضى كل شىءٍ فى المسـار المعتـاد "للأمـر"، فتـم إرسـال المبعوثـين إلى كل عائـلات الـ"أكسوسـاس" وإلى مـن يعيشـون تحـت الحمايـة البريطانيـة "المزعومـة"، وحتـى غـير المؤمنـين الذيـن رفضـوا طويـلاً تنفيـذ الخطـة، وكان مـن بينهـم عـم كـرلى ومستشـاره الأول فإنهـم انصاعـوا لـ"أمـر" الزعيـم وأعلنـوا ذلـك صراحـة مبررًا وحيـدًا لخضوعهـم. فـإذا مـا نظرنـا إلى ذلـك مـن منظـور فحـوى الأمـر فسـوف نـرى كل شىء أكـثر غرابـةً. فقـد كان جوهـر الحـدث هـو ذبـح الماشـية، أى قتلهـا، وكلـما زاد التأكيـد بتكـرار هـذا الفعـل وكلـما اتسـع تطبيقـه عـلى نحـوٍ أشـمل وأعظـم تكتـلاً زاد دفـع "الأمـر" بالحـرب قدمًـا. أمـا الماشـية فكانـت ترمـز - إن جـاز التعبـير- طبقًـا للأمـر للأعـداء. فهـى ترمـز لهـم ولماشـيتهم، والغـلال كذلـك التـى سـتدمر كانـت ترمـز لغـلال الأعـداء، فالحـرب سـتبدأ فى الوطـن نفسـه كأنهـا سـتدور فى بـلاد الأعـداء. إلا أن "الأمـر" يتطـور ثانيـةً ليعـود إلى أصلـه لأنـه كان أيضًـا حكـمًا بالمـوت، وهـو حكـم غريـزى بالمـوت أصـدره فصيـلٌ ضـد فصيـل آخـر، فـكل الحيوانـات التـى تحـت تـصرف الإنسـان صـدر ضدهـا حكـم بالمـوت، ورغـم إرجـاء تنفيـذه غالبًـا لوقـت طويـل فـإن أحـدًا لم يكـن ليُعفـى منـه. وعـلى هـذا النحـو فـإن الإنسـان يقـوم بنقـل "موتـه" الـذى يعرفـه تمامًـا إلى حيواناتـه مـن دون رادع لذلـك. أمـا فـترة الحيـاة التـى يحددهـا للحيـوان فهـى تشـبه لحـد مـا فـترة حياتـه هـو فيـما عـدا أنـه يعـرف موعـد أجـل الحيـوان، وهـو يـرى مـوت الحيـوان أمـرًا هينًـا خاصـةً أنـه كان يمتلـك الكثـير منـه، وأخـذ الفـرادى مـن قطيعـه ليذبحهـا، ويصـير كلا هدفيـه، أى تكاثـر قطعانـه وقتـل الفـرادى منهـا التـى يحتاجهـا، هدفًـا واحـدًا بالفعـل، ليصـير هـو هنـا كـ"راعٍ" أقـوى مـن أى صيـاد، فحيواناتـه مجتمعـة بـين يديـه ولا تفـر منـه وهـو مـن يحـدد فـترة حياتهـا، وهـو ليـس مرتبطًـا بفرصـة تجمعـه بهـا وليـس مضطـرًا إلى قتلهـا فى الحـال. فمـن قـوة الصيـاد يسـتمد الراعـى نفـوذه. أمـا الأمـر الصـادر إلى الـ"أكسوسـاس" فهـو

أمرٌ فى حد ذاته ، فتنفيذ أمر قتل ماشيتهم لا بد من أن يسبق قتل أعدائهم، كأن كليهما فى الأساس واحدٌ: إنهم هم. ولنضع فى اعتبارنا أن هذا الأمر بالقتل قد صدر عن الموتى أنفسهم وكأن السُلطة العليا لذلك هى بأيديهم. وفى نهاية المطاف فإنهم قاموا بإرسال كل شىء إليهم بالجانب الآخر. ومن هؤلاء الموتى كان هناك من يصدرون الأوامر فى الماضى، أى أجيال من الزعماء الذين كانت مكانتهم المتحدة عظيمة، وكانت ستصبح أيضًا عظيمة يقينًا لو أنهم بعثوا فجأة بين الأحياء. لكننا لا نستطيع درء الانطباع بأن نفوذهم زاد من خلال الموت، وإن كانوا لفتوا الانتباه إلى وجودهم من خلال النبى، بل ظهروا له وحادثوه، فقد منحهم ذلك مكانة غير طبيعية إضافةً إلى مكانتهم السابقة، وبذلك تحايلوا على الموت ودبت فيهم الحياة على نحو مثير للدهشة. إن التحايل على الموت، أى الأمل فى الإفلات منه أمر ينتمى إلى أقدم توجهات كل أصحاب السلطة وأكثرها صلابة وفى هذا السياق تبرز أهمية تناقل خبر أن الزعيم كرلى عاش سنين كثيرة بعد موت شعبه من الجوع.

أحشــاء السُلطة



الالتهام والهضم

لم تخضع سيكولوجية الالتهام والهضم - وكذلك سيكولوجية تناول الطعام على العموم- للدراسة والبحث على نحوٍ وافٍ مكتمل الأبعاد، وهو الأمر الذى نعتبر فيه كل شىء بديهيًا إلى درجة التطرف. إذ إن هناك كثيراً من الأحداث تنطوى على أسرار وعجائب قد حدثت فى هذا الشأن ولم نُعمل التفكير فيها قط. وليس لدينا ما هو أكثر قدمًا من تلك الأشياء التى نتقاسمها مع الحيوانات، وهو أمرٌ لم يعد يلفت نظرنا. فاقتراب مخلوقٍ من آخر، بنيةٍ عدوانية، يمر بمراحل مختلفة، لكلٍ منها أهمية تراثية خاصة. ولنأخذ على سبيل المثال مسألة "التربص" بالفريسة، تلك الفريسة التى وُضِعت فى حالة ملاحقةٍ لفترة طويلة قبل أن تنتبه لنوايانا. وقد قمنا بتأملها ومراقبتها وحراستها بشعورٍ مفعم بالرضا والإعجاب، وأخذنا ننظر إليها كـ"لحمٍ" ما زال على قيد الحياة، وكان النظر إليها، كلحمٍ، على نحوٍ من التركيز والإصرار حتى إنه لم يكن هناك ما يمنعنا من الفوز بها كذلك. وطوال هذا الوقت الذى يحوم فيه المرء حول الفريسة يشعر هو بامتلاكه لها إلى حدٍّ كبير، أى منذ تلك اللحظة التى حددها هو كفريسة وتصور أنه قد التهمها.

ويُعَد التربص حالة قلقٍ خاصة تستطيع بعدها أن تتجدد تلقائيا، فتكتسب أهميةً خاصة بها وبطول مدتها، وفيما بعد يسلك المرء سلوكًا مستقلاً عن

الفريسة التى كان قد انجذب إليها فى النهاية. ويظل المرء فى حالة تربص غير بريئة عاكفًا على الملاحقة. وكل ما يمارسه من أفعال فى هذا الاتجاه على نحوٍ إيجابى يعايشه سلبًا بنفس القدر فى ذاته، لكن على نحوٍ يدعمه ذكاؤه الأكثر حدةً، وهو ما يعرضه لمخاطر أكبر، ما يجعل من الملاحقة عذابًا أعظم. والإنسان لا يمتلك دائمًا القدرة الكافية للوصول إلى فريسته مباشرةً. فكانت الملاحقة، وما اكتسبته من ثراءٍ فى المعرفة والدقة، هى التى قادته إلى فكرة الشراك الأكثر تعقيدًا. وكان دائما ما يلجأ إلى التحول، وهو موهبةٌ خاصة به، فيتخذ هيئة الحيوان الذى يستهدفه. وقد أوتى من القدرة على ذلك حتى كان الحيوان يصدقه. وهذا النوع من التربص نستطيع اعتباره نوعًا من المداهنة، فهو يقول للحيوان: "إننى مثلك، إننى أنت، فهل تأذن لى بأن أكون بجوارك؟". وبعد هذا التقرب والتملق - الذى سنتناوله فى موضعٍ آخر - تجىء اللمسة الأولى، وهى ربما أكثر ما يخشاه المرء، فالأصابع تتحسس ما سوف ينتقل إلى الجسد بسرعة وعلى نحو تام. أما الالتهام بالحواس الأخرى كالسمع والنظر والشم فلا يكون على هذا القدر الكبير من الخطورة، فمثل هذه الحواس تجعل مساحةً بينها وبين الضحية، وما دامت هذه المساحة قائمةً تكون هناك فرصةٌ للإفلات، ويظل الأمر كله غير محسوم، إلا أن التحسس كملامسة يكون مقدمةً للتذوق، فالساحرة فى الأساطير تمد أصابعها لتتحسس إذا ما كانت الضحية سمينةً بما يكفى.

إن استهداف جسدٍ ما لجسدٍ آخر يصبح واضحًا منذ لحظة اللمس. وفى أعمق تجارب الحياة كانت هذه اللحظة على درجةٍ ما من حسم الأمر. فهى تنطوى على أقدم حالات الفزع، فكانت تداهمنا كثيرًا فى أحلامنا، ولم تكن تجارب حياتنا المدنية سوى اجتهادٍ وحيد فى سبيل تفادى هذه اللحظة. وعلاقة القوى بين من يلمِس ومن يُلمَس هى التى تحدد إذا ما كانت هناك مقاومةٌ ستستمر منذ هذه اللحظة أم أنه سيكون هناك استسلامٌ تام. لكن الأقوى من علاقة القوى هى الصورة التى يتخيلها الملموس عن ذلك، فغالبًا ما يحاول الدفاع عن جلده وهو لا يفعل ما هو أكثر من ذلك ضد قوةٍ تبدو غالبة. وقد تحولت هذه اللمسة النهائية فى حياتنا الاجتماعية إلى ما يعرف بالاعتقال، وهى تلك اللمسة التى يفاجأ بها الإنسان، لأن أية مقاومة تبدو مستحيلةً، خاصةً تلك المقاومة فى المستقبل. فيكفى أن تشعر على كتفك بيد هذا المنوط به عملية الاعتقال حتى تستسلم عادةً قبل أن تتم عملية الانقضاض، فيخضع المرء ويسلم قياده ويسلك

مسلك المعتقَل. إلا أن الأمر لا يجرى فى كل الأحوال على هذا النحو بأن يواجه المرء المراحل التالية بهدوءٍ وثقة.

أما المرحلة التالية بعد الاقتراب فهى الانقضاض، فتصير أصابع اليد مجالاً مجوفًا تحاول به اليد أن تنبش فى جزءٍ من المخلوق الملموس، وهى تؤدى ذلك دون اهتمام بأعضاء الجسد، أى بالعلاقة العضوية للفريسة، فهى لا تبالى فى هذه المرحلة إن كانت ستصيب الفريسة بجرحٍ أم لا. لكن لا بد من أن يكون جزءٌ ما من جسد الفريسة قد صار فى هذه القبضة كرهنٍ لباقى الجسد. ومجال قبضة اليد هو المجال السابق على مجال الفم والمعدة الذى ستكون فيه الفريسة قد تم التهامها بشكلٍ نهائى. والفم المسلح الذى يقوم بعملية الانقضاض يحل لدى الكثير من الحيوانات محل المخلب أو اليد مباشرة، أما الإنسان فتكون يده التى لا تسمح بالإفلات، هى الصورة الحقيقية المعبرة عن السُلطة: "وقع بين يديه"، "صار فى قبضته"، "بين يدى الله"، فمثل هذه التعبيرات متوافرةٌ غالبًا فى كل اللغات على نحوٍ واسع ومألوف. أما المهم فى عملية الانقضاض نفسها فهو الضغط الذى تمارسه اليد، فالأصابع تركز على المعتقل، والمجال الذى أُلقى فيه يضيق. فالهدف هو أن يشعر المعتقل بقبضة اليد كلها وعلى نحوٍ أكثر قوةً، فتنتشر أولاً خفة ونعومة اللمسة ثم تشتد وتتكثف فى النهاية لتقبض تمامًا على هذا الجزء من الفريسة. وهذا الضغط قد تجاوز مرحلة التمزيق بالمخالب، فقد كان هذا التمزيق يُمارَس فى مجتمعات العصور القديمة، إلا أنه اعتبر أمرًا حيوانيًا، أى أداءٍ حيوانى، وهو ما صار منذ أمدٍ بعيد مهمة الأسنان فى حالات الخطر. ويمكن أن يزداد الضغط ليصل إلى حالة الهرس. ومدى خطورة الفريسة هو ما يحدد استمرار الضغط، وإذا ما كان سيصل إلى مرحلة الهرس، فإذا شاء المرء الخروج من الصراع فائزًا، وإذا ما هددته هى أو أثارت غضبه أو أصابته بجرح، هنا يجب أن يشعرها هو بذلك فيضغط على نحوٍ أقوى كأن ذلك كان ضروريًا للتأكيد عليها.

إلا أن هناك ما هو أكثر من الخطورة والغضب وهو "الاحتقار" الذى يدفع المرء نحو السحق، فشيءٌ صغير للغاية لا يكاد يُذكر، كحشرة ما يتم سحقها، لأن المرء لم يعرف ماذا يفعل عادةً بذلك. فاليد الإنسانية لا تستطيع تكوين فراغًا كافيًا لذلك. لكن بصرف النظر عن سعى المرء للتخلص من مخلوقٍ مزعج

وإدراك أنـه تخلـص منـه بالفعـل، فـإن هـذا هـو السـلوك الـذى يسـلكه تجـاه ذبابـةٍ أو برغـوث، فهـو احتقـار نحـو مخلـوق أعـزل تمامًـا يعيـش فى منظومـة حجـمٍ وقـوة مختلفـة عـما نحـن عليـه، ولا يجمـع بيننـا أى شىءٍ مشـترك، وهـو مـا لا نتحـول إليـه أبـدًا، والـذى لا نخشـاه حتـى لـو ظهـر عـلى هيئـة تكتـلات. إن تدمـير هـذه المخلوقـات الصغـيرة هـى أفعـال العنـف الوحيـدة التـى ظلـت أيضًـا داخلنـا ولا تصـل دماؤهـا أبـدًا إلى رءوسـنا، وهـو لا يذكرنـا بدمنـا ولا ننظـر إلى أعينهـا المنكسـرة ولا نأكلهـا وهـى - عـلى الأقـل عندنـا فى الغـرب - لم تندمـج قـط فى مملكـة البشريـة المتناميـة وإن كانـت مؤثـرةً، وهــى عـلى نحـوٍ أو آخـر مهـدرة الـدم، سـواء كانـت برغوثًـا أو ذبابـةً، فـإذا مـا قلـتُ لشـخصٍ مـا "سـوف أسـحقك بيـدى المجردتـين" أكـونُ قـد عـبرت بذلـك عـن أسـوأ أنـواع الازدراء مـما يخطـر ببـال إنسـان. إننـى أقـول تقريبًـا: "أنـت حـشرة"، "أنـت لا تسـاوى شـيئًا، وبوسـعى أن أفعـل بـك مـا أشـاء، ولـن تسـاوى بعـد ذلـك شـيئًا، ولا تعنـى لأحـدٍ أى شىء، فبوسـع أى أحـد أن يقـضى عليـك دون رادعٍ، ولـن يلحـظ ذلـك أحـدٌ، فلـن ينتبـه هـو لذلـك ولا أنـا".

إن أعـلى درجـات الهـرس مـن خـلال الضغـط هـو السـحق الـذى لا تقـوى عليـه اليـد، فليونتهـا لا تمكنهـا مـن ذلـك، فالسـحق يتطلـب ثقـلاً كبـيرًا لآلـة ضخمـة للغايـة، شـيئًا صلبًـا مـن أسـفل ومـن أعـلى يتـم السـحق بينهـما، وهنـا تقـوم الأسـنان بمـا لا تسـتطيع اليـد إنجـازه. والإنسـان عمومًـا لا يفكـر فى شىءٍ حـى إذا كان الأمـر سـيتعلق بالسـحق، فمثـل هـذه العمليـة تتعلـق بفريسـةٍ غـير عضويـة. وسـوف تسـتخدم هـذه الكلمـة - بالأحـرى - إذا ارتبطـت بالكـوارث الطبيعيـة عنـد سـقوط صخـورٍ ضخمـة يمكـن أن تسـحق مخلوقـات أقـل حجـمًا. ورغـم اسـتخدام هـذه الكلمـة كتعبـيرٍ مجازى فإنهـا لا تؤخـذ عـلى محمـل الجديـة التامـة، فهـى تعـبر عـن تصـور لقـوةٍ مدمـرة لآلـة مـا، لا يمتلكهـا الإنسـان. وهنـاك شىءٌ عمـلى فى عمليـة السـحق، فالجسـد وحـده - كظاهـر- لـن يكـون قـادرًا عليهـا، ويتنـازل عـن ذلـك عـن طيـب خاطـرٍ، أمـا الأقـوى القـادر عـلى ذلـك فهـو القبضـة الفولاذيـة.

ومـن العجيـب أن تتمتـع القبضـة بهـذه المهابـة البالغـة. ومهـام اليـد متعـددة إلى حـد أننـا لا ندهـش مـن التعبـيرات اللغويـة المرتبطـة بهـا، إلا أن قدسـيتها ترجـع إلى القبضـة ذاتهـا، وهـو الفعـل المركـزى والأكـثر احتفائيـةً للسُـلطة. فالقبـض كلمـةٌ يمكـن أن يمتـد معناهـا لأقـصى درجـةٍ ممكنـة، وقـد تكـون هـى الدلالـة الأكـثر تعبـيرًا

عـن ذلـك، فهـى تعـبر عـن الحالـة الكاملـة والمنغلقـة المرتبطـة بالقـوة التـى لا يكـون للمـرء أى تأثـيرٍ عليهـا، فمـن "قُبـض عليـه" يكـون مقبوضًـا عليـه بيـدٍ عملاقـة، وهـى قابضـةٌ عليـه تمامًـا، فـلا يكـون بوسـعه الدفـاع عـن نفسـه ضدهـا، حيـث إنـه لا يسـتطيع إدراك نواياهـا، وهـو أمـر ليـس بعيـد المنـال. ويمكـن العثـور عـلى الفعـل الحاسـم للسُـلطة حيثـما كان هـذا الفعـل منـذ القـدم هـو الأكـثر إثـارةً للانتبـاه بـين الحيوانـات والبـشر، أى: "قبـض عـلى". فإليـه ترجـع المكانـة الخرافيـة التـى تتمتـع بهـا فصيلـة القطـط المفترسـة مـن نمـورٍ وأسـود بـين البـشر، فهـذه الحيوانـات هـى أصحـاب القبضـة الكـبرى، وهـى وحدهـا صاحبـة الإبـداع فى هـذا الشـأن، وهـى التـى احتكـرت التربـص والقفـز وضربـة الكـف وتمزيـق اللحـم. كـما سـاهم فى ترسـيخ مكانتهـا الفـذة قـوة هـذا الفعـل وصلابتـه واليقـين الـذى يُنفَّـذ بـه والتفـوق الأكيـد للمنفِّـذ، واعتبـار كل المخلوقـات فريسـةً لهـا. ومهـما كان المنظـور الـذى نتأملهـا مـن خلالـه فـإن أعـلى تركيـز للقـوة كان لـدى تلـك الحيوانـات، وهـى فى صورتهـا هـذه تركـت لـدى الإنسـان انطباعًـا لا يمحـى، فـكل الملـوك آثـروا أن يكونـوا أسـودًا، وقـد كان فعـل الانقضـاض هـو نجاحـه الـذى أثـار إعجـاب الإنسـان ومدحـه. كـما اسـتندت البسـالة والعظمـة فى كل مـكان عـلى قـوةٍ متفوقـة إلى حـدٍّ بعيـد، فالأسـد لا يضطـر إلى التحـول للحصـول عـلى فريسـته، فهـو يحصـل عليهـا بوصفـه هـو ذاتـه، وهـو يعلـن عـن نفسـه قبـل أن يُقـدم عـلى القنـص، فهـو يـزأر ليعـرِّف نفسـه، وهـو الوحيـد الـذى يفصـح عـن نوايـاه فيبلغهـا بصـوتٍ عـالٍ ليسـمعها أى مخلـوق، وهـذا ينطـوى عـلى كبريـاءٍ غـير قابلـة للتحـول إلى شيءٍ آخـر، إلا أنـه يبـث فزعًـا أعظـم مـن خـلال ذلـك. فالقـوة فى جوهرهـا وفى أوجهـا تحتقـر التحـول، فهـى تكتفـى بنفسـها ولا تبغـى شـيئًا سـوى نفسـها. وفى هـذه الهيئـة رآهـا الإنسـان جديـرةً بالملاحظـة، ومطلقـة، وغـير مسـئولة، وهـى ليسـت مـن أجـل شيءٍ أو أحـدٍ هنـا، وهـى تبلـغ أقـصى درجـات تألقهـا إذا مـا تبـدت فقـط عـلى هـذه الهيئـة، وهـو أمـرٌ ظـل قائمًـا حتـى اليـوم، فليـس هنـاك مـا يقـوى عـلى الحيلولـة بينهـا وبـين ظهورهـا هكـذا مِـرارًا وتكـرارًا.

إلا أن هنـاك عمـلاً ثانيًـا مـن أعـمال السُـلطة وإن لم يكـن لـه هـذا البريـق، لكنـه يقينًـا لا يقـل مـن حيـث جوهـره. فأحيانـا مـا ننـسى الانطبـاع الرائـع عـن الانقضـاض والالتهـام، إلا أن هنـاك شـيئًا مهـمًا يواكـب ذلـك. فالأمـر يتوقـف عـلى ألا نكـون فى موضـع المنقـض عليـه. فـكل المجـالات الشـاغرة التـى يصنعهـا صاحـب السُـلطة حـول نفسـه تخـدم هـذا التوجـه الثـانى، حتـى أقـل هـؤلاء شـأنًا يحـاول إعاقتهـم عـن

الاقـتراب منـه. وحيثـما ترسـخ شـكلٌ مـن أشـكال حيـاة البـشر الجماعيـة كان هـذا الشـكل يتجـلى فى مسـافاتٍ فاصلـة تؤمـن البـشر مـن خوفهـم الدائـم مـن القبـض والانقضـاض عليهـم. إن التماثـل الواضـح للغايـة بـين بعـض المجتمعـات الحضاريـة القديمـة قـد انبثـق كذلـك عـن أبعـاد المسـافة المستوية التـى جعلهـا الإنسـان حـول نفسـه فى كل اتجـاه، كـما تبـدى أمـان هـذه المجتمعـات فى هـذه المسـافة، وهـو مـا يتضـح أيضًـا كصـورة مجازيـة. إن صاحـب السـلطة الـذى يرتبـط وجـود الآخريـن بوجـوده يسـعد بأكـبر وأوضـح مسـافة، وهـو فى ذلـك لا يكـون فى بهـاء الشـمس فقـط أو مـا هـو أعظـم منهـا، أى السـماء، كالحـال لـدى الصينيـين، فالوصـول إليـه يكـون صعبًـا بعـد أن شُـيِّدَت حولـه قصـورٌ بقاعـات تـزداد اتسـاعًا. وكل بوابـةٍ وكل بـابٍ يتـم حراسـتها حراسـةً مشـددة لأقـصى حـد، فيكـون مـن المحـال النفـاذ إليـه رغـمًا عنـه. أمـا هـو، مـن موضعـه الآمـن البعيـد، يسـتطيع الانقضـاض عـلى كل مـن يريـد أينـما كان. لكـن كيـف يسـتطيع الآخـرون الانقضـاض عـلى هـذا المحصـن المنعـزل، المنفـرد؟

إن الالتهـام الحقيقـى للفريسـة يبـدأ بالفـم الـذى ينتهـى إليـه الطريـق الأصـلى لـكل مـا هـو قابـل لـلأكل، أى مـن اليـد إلى الفـم. إلا أن الالتهـام يكـون بالفـم لـدى بعـض المخلوقـات التـى لا يكـون لهـا أيـدٍ تسـتخدمها فى الانقضـاض، أى بأسـنانها أو بمنقارهـا. والأسـنان هـى أوضـح أدوات السـلطة التـى زودت بهـا بعـض الحيوانـات والإنسـان. فاصطفافهـا المنتظـم وصقلهـا اللامـع لا يمكـن مقارنتهـما بـأى عضـوٍ بالجسـد يمكـن رؤيتـه فى أثنـاء عملـه. وهـى مـا يمكـن وصفهـا بالنظـام الأول عـلى الإطـلاق، وهـو الـذى يتجـلى شـكله بوضـوح وعـلى نحـوٍ عـام، وهـو نظـامٌ، يكـون لـه تأثـير التهديـد نحـو الخـارج، وإن لم يكـن مرئيًـا دائمًـا، لكنـه يظهـر عندمـا ينفتـح الفـم، وهـو مـا يحـدث غالبًـا. ومـادة الأسـنان مختلفـةٌ عـن بقيـة مـادة أعضـاء الجسـد الظاهـرة، ولسـوف تثـير الإعجـاب حتـى لـو لم يكـن بالفـم سـوى اثنتـين منهـا. فهـى مصقولـةٌ وصلبـة ويمكـن ضغـط بعضهـا ببعـض مـن دون أن تتأثـر قوتهـا، وهـى تبـدو كأحجـارٍ مركبـة ومصقولـة تمامًـا. وفى زمـن باكـرٍ للغايـة اتخـذ الإنسـان مـن كل أنـواع الأحجـار سـلاحًا وأدواتٍ، لكـن الأمـر اسـتمر طويـلاً حتـى عـرف كيـف يصقلهـا عـلى نحـوٍ جيـد وحتـى صـارت مصقولـةً كالأسـنان. وربمـا كانـت الأسـنان هـى النمـوذج الـذى قـاد الإنسـان إلى تطويـر قـوة أدواتـه. فقـد اسـتفاد مـن كثـير مـن أنيـاب الحيوانـات الضخمـة منـذ القـدم. وعـرض حياتـه للخطـر مـن أجـل الحصـول عليهـا، كـما كمـن فى ذلـك شيء مـن سـلطة الحيـوان الـذى كان يهـدده. وقـد علقهـا عـلى جسـده كرمـوز

انتصار وطلاسم كانت تبث فى نفوس الآخرين الفزع الذى كان يشعر به أيضًا تجاههم. أما الندوب التى ألحقتها به فكان يستعرضها على جسده متباهيًا، فقد كانت تعتبر علامات فخر، وقام بتقليدها فيما بعد. وكان أثر أسنان الحيوانات البرية القوية على البشر، ثريًا ومتنوعًا. وطبقًا لماهية الأسنان فقد جاء موقعها بين أداة وبين عضو جسد قابل للكسر، فكان احتمال سقوطها أو كسرها قد جعلها شبيهة بالأداة. وقد انتقلت صلابة الصقل والانتظام، كصفتين ظاهرتين إلى جوهر السلطة، ولا يمكن فصلهما عنها. وهما أول ما يظهر من كل أشكال السلطة. وبدأ ظهورها فى أدوات العمل البدائية، لكن مع نمو السلطة تنامت معها صفاتها المبكرة هذه. والانتقال السريع من الحجر إلى المعدن كان الطفرة الكبرى فى هذا الاتجاه المتنامى لعملية لصقل. ورغم أن صقل الحجر كان أمرًا جيدًا فإن السيف كان أكثر صقلاً، بدايةً من البرونز، ثم الحديد. وما يجذب ويلفت الانتباه فى المعدن حقًا هو أن صقله لا يقارَن بمادة أخرى. وقد ازداد هذا الصقل فى ماكينات وسيارات عالمنا الحديث فصار صقلاً للمهمة نفسها. واللغة تعبر عن هذا المعنى على أبسط نحو، فنقول: المرء يصقل العمل أو الأداء. وهو يعنى بذلك أنه يسيطر سيطرةً تامة على حدثٍ ما مهما كان شأنه. وقد ازداد التعلق بالصلابة المصقولة فى مجالات الحياة الحديثة التى حاول المرء تجنبها فى الماضى. وقد كانت معظم المنازل والمرافق يتم تجميلها لتمثال جسد الإنسان وأعضائه. وقد تبدل التجميل لكنه ظل دائمًا موجودًا، فقد أصر المرء على التشبث به حتى بعد أن فقد معناه الرمزى. كما سادت صلابة الصقل اليوم كذلك المنازل وجدرانها وأسوارها والأثاث والأدوات المنزلية، لتتراجع قيمة الزخرفة والحلى، واعتبرا دلالة على فساد الذوق. فإن تكلمنا عن الوضوح والفائدة فإننا فى الحقيقة نتباهى بصلابة الصقل والمكانة الغامضة للسلطة التى تكمن فيه. من خلال هذا المثل عن العمارة الحديثة تتجلى صعوبة فصل صلابة الصقل عن النظام، فتاريخهما المشترك قديمٌ قدم الأسنان. وتاريخ صفٍ كامل من الأسنان الأمامية ومساحاتها التى غُرزت فيها كانت نموذجًا لأنظمة كثيرة. وهناك مجموعات منتظمة مختلفة، تبدو لنا اليوم بديهيةً، يمكن أن تكون قد انبثقت عن ذلك. فنظام فرق القتال، كما ابتدعها الإنسان، ترتبط بأسطورة الأسنان، فجنود "كادمو" الذين خرجوا من الأرض كانوا قد تم بذرهم كأسنان تنين. وهناك يقينًا الآن أنظمةٌ أخرى تماثل العشب أو الأشجار الصلبة، إلا أنها لم تكن مثل الأسنان، فلم تكن مباشرةً مثلها ولم ترتبط

مثلها باستقبال الطعام المستمر ولم تكن سهلة الاستخدام مثلها، حيث إن فعالية الأسنان كجهاز للقضم هو الذى دل الإنسان على نظامها القوى. وكان تساقط بعضها والآلام الناتجة عن ذلك هو ما جعله يدرك أهمية هذا النظام. والأسنان هى حرس الفم المسلح.

وهذا المكان الضيق بالفعل صار النموذج الأول لكل السجون، فما يزج به هناك يُعتبَر مفقودًا، وقد زُجَّ بأحياءٍ كثيرين فيها. فعددٌ كبير من الحيوانات يقتل فرائسه فى الفم، بل إن بعضها يموت قبل ذلك. أما ما يذكِّر بسمات السجن الأساسية المريعة فهو هذا الاستعداد الذى يُفتَح به فم الإنسان أو الحيوان، إن لم يكن مفتوحًا بالفعل من أجل التربص، وكذلك إغلاق الفم إغلاقًا مطبقًا. ولن يجانبنا الصواب إذا افترضنا أن هذا النموذج المتمثل فى فم الحيوان كان له تأثيرٌ غامض على فكرة السجن. فيقينًا لم تكن الحيتان فقط هى التى وجد الإنسان البدائى فى أفواهها مكانًا كافيًا. ففى هذا المكان المروع لا يمكن لشيءٍ أن ينمو حتى لو كان لدى المرء فسحةٌ من الوقت للسكن داخله. إنه مكان أجدب لا تنبت فيه البذور. وعندما استبعد الإنسان الفم والحلقوم فإنه عثر على بديل رمزى لذلك، كان هو السجون.

وفى الماضى، عندما كانت هذه أماكن للتعذيب، فإنها كانت تماثل الفم العدائى فى تفاصيل كثيرة. وما زالت الجحيم تبدو حتى اليوم على هذه الصورة. أما السجون الحقيقية فقد صارت أكثر تزمُّتًا مقارنةً بذلك. فالصلابة المصقولة للأسنان قد سادت العالم، فجدران الزنازين ليست سوى صلابة مصقولة، أما كوة الضوء فصغيرةٌ للغاية. وكانت حرية السجين هى كل مكان خارج نطاق الأسنان المضغوطة التى استبدلت بها الآن جدران زنزانة مقفرة. وأقسى كل الفظائع رآها البعض، ممن عاشوا طويلاً، فى الحلقوم الضيق الذى كان على كل فريسة اجتيازه. وقد انشغل خيال الإنسان بهذه المراحل من الالتهام، فأفواه الوحوش الفاغرة على نحوٍ جامد قد لاحقته فى أحلامه وأساطيره. ورحلاته الاستكشافية داخل حلاقيم الوحوش لم تكن تقل أهميةً عن رحلاته فى البحر، وكانت يقينًا على نفس القدر من الخطورة. وبعضٌ من هؤلاء، ممن لم يكن لديهم أى أمل، تم سحبهم أحياءً من أفواه هذه الوحوش، وحملوا ندوبًا من أسنانها طوال حياتهم. إنه طريقٌ طويل هذا الذى تشقه الفريسة داخل الجسد. وفى هذا الطريق كان

يتـم امتصاصهـا ببـطء، فـكل مـا يمكـن الانتفـاع بـه منهـا يتـم انتزاعـه منهـا. ومـا تبقـى يكـون فضـلاتٌ ورائحـةٌ كريهـة.

إن هـذا الحـدث الـذى يمثـل نهايـة أيـة سـيطرة حيوانيـة هـو ذو دلالة عـلى جوهر السُـلطة عـلى الإطـلاق. فمـن يريـد حكـم بـشر فإنـه يحـاول إذلالهـم والاحتيـال عليهـم والاسـتيلاء عـلى قدراتهـم وحقوقهـم، حتـى يصـيروا أمامـه بـلا حـول ولا قـوة، مثـل الحيوانـات. وهـو يسـتخدمهم مثـل الحيوانـات، حتـى لـو لم يفصـح لهـم عـن ذلـك، لكنـه يـدرك فى أعماقـه تـدنى أهميتهـم بالنسـبة لـه، بـل إنـه يصـف مـن يثـق بهـم - مقارنـةً بأولئـك - بالنعـاج أو الماشـية. وهدفـه النهـائى هـو التِهامهـم وامتصاصهـم غـير مبـالٍ بمـا يتبقـى منهـم. وكلـما زاد احتقـاره لهـم كان مسـلكه معهـم أكـثر قسـوةً. فـإن فقـدوا كل قيمتهـم تخلـص منهـم كـما يتخلـص مـن فضلاتـه، ويحـرص فى أثنـاء ذلـك عـلى ألا يلوثـوا هـواء منزلـه. وهـو لا يجـرؤ أن يشـخص هـذا الحـدث أمـام نفسـه بـكل مراحلـه التفصيليـة. فـإن نـزع للتصريحـات الجريئـة أقـر أمـام ثقاتـه بـإذلال النـاس الذيـن اصطنعهـم لنفسـه. ولمـا كان لا يذبـح رعايـاه بالسـلخانات ولا يسـتخدمهم كغـذاءٍ حقيقـى لجسـده فإنـه ينكـر أنـه امتصهـم وهضمهـم. فهـو عـلى النقيـض مـن ذلـك، إذ إنـه هـو مـن يمنحهـم مـا يأكلونـه.

وهكـذا يكـون مـن السـهل التغـاضى عـن جوهـر هـذا الحـدث وهـو مـا يحـدث منـذ أن رعـى الإنسـان حيوانـاتٍ لم يقتلهـا لأنهـا كانـت تفيـده فى مجـالات أخـرى. لكـن بـصرف النظـر عـن صاحـب السـلطة، الـذى اسـتطاع تركيـز كل شىء فى يـده، فـإن صلـة كل إنسـان بفضلاتـه الشـخصية تنتمـى إلى مجـال السـلطة. فليـس هنـاك صلـةٌ أقـوى مـن صلـة المـرء بفضلاتـه. فالضغـط المتواصـل الـذى يمـارس عـلى الفريسـة، كطعـامٍ، داخـل الجسـد، وتحللهـا الـذى يبـدأ مـع الهضـم، والتـلاشى التـام والنهـائى لـكل الوظائـف حينـذاك، ثـم كل الأشـكال التـى صنعـت وجودهـا الطبيعـى والتقريـب أو الدمـج مـع ذلـك، الـذى هـو موجـود بالفعـل كجسـد للهاضـم، كل ذلـك يُـرى يقينًـا عـلى أنـه الحـدث الأكـثر مركزيـةً وكمونًـا للسـلطة. وهـو مـن الأمـور البديهيـة التلقائيـة والبعيـدة عـن الإدراك حتـى إننـا نغفـل عـن أهميتـه.

والإنسـان ينـزع إلى رؤيـة ألاعيـب السـلطة المختلفـة التـى تمارسـها فى عالمنـا، وإن كانـت هـذه هـى آخـر مراحلهـا. ومـن بينهـا مرحلـة الهضـم التـى تسـتمر ليـل نهـار. فيتـم الإمسـاك بـشىءٍ غريـب وتمزيقـه إلى أجـزاء صغـيرة والتهامـه ليتمثـل فى الجسـد،

ومـن خـلال هـذا الحـدث فقـط يحيـا الإنسـان. فـإن هـو امتنـع عـن ذلـك يكـون قـد شـارف عـلى نهايتـه، وهـو مـا يدركـه كل منـا تمامًـا. ولكـن مـن الواضـح أن كل مراحـل هـذا الحـدث، ليـس فقـط الظاهـرة منهـا وشـبه المعروفـة، لا بـد أن تـترك أثرهـا فى النفـس. والعثـور عـلى مـا يماثلهـا هنـا ليـس سـهلاً، فبعـض الآثـار المهمـة سـوف يمكـن تتبعهـا خـلال هـذه الدراسـة. ولسـوف يتضـح أن تلـك الآثـار هـى مـن أعـراض مـرض الملانخوليـا. إن الفضـلات التـى تتبقـى مـن كل شيء تكـون مشـحونةً تمامًـا بجرائـم القتـل. فيمكـن التعـرف مـن خلالهـا عـلى مـا قتلنـاه. إنـه مجمـوع القرائـن ضدنـا التـى تـم التهامهـا وهضمهـا. إن ذنبنـا اليومـى المتواصـل يصـدر رائحـةً كريهـة ويـصرخ إلى السـماء. ومـن اللافـت للانتبـاه اختـلاء الإنسـان بـه بعيـدًا عـن الأعـين. ففـى مـكان خـاص يفـرغ مـا فى بطنـه. وأكـثر اللحظـات خصوصيـة للإنسـان هـى تلـك الخاصـة بالإفـراز، حيـث يكـون وحيـدًا بالفعـل مـع فضلاتـه. ومـن الواضـح أن المـرء يسـتحى مـن ذلـك، إذ إنهـا نهايـة السلسـلة الأقـدم لحـدث السُـلطة والهضـم، الـذى يجـرى فى الخفـاء، ولـولا هـذه النهايـة لظـل الحـدث خفيًـا.

اليد

يعود الفضل فى بدء استخدام الأيدى إلى الحياة على الأشجار. وكان أول ما ميز ذلك هو تفوق إصبع الإبهام، فتكوين الإبهام القوى، والفراغ الأوسع بينه وبين بقية الأصابع، يسمحان باستخدام ما كان للمخالب ذات يوم، أى الإمساك بفروعٍ كاملة. فمواصلة الحركة على الأشجار فى كل اتجاهٍ يصير من خلال ذلك أمرًا أكثر سهولةً وطبيعية.

أما أهمية ما تمثله الأيدى من قيمة فنراه لدى القردة. فهذه الحاسة الأقدم لليد معروفةٌ عامةً ولا يتطرق إليها الشك. أما الأهمية التى لم ندركها على نحوٍ كافٍ فهى الوظائف المختلفة لليد فى أثناء التسلق. فاليد لا تفعل مطلقًا الشىء نفسه فى الوقت نفسه، فإذا ما امتدت يدٌ إلى فرعٍ جديد تكون الأخرى ما زالت متشبثةً بالفرع القديم. ولهذا التشبث أهميةٌ رئيسة، فهو يحول دون السقوط فى أثناء مواصلة الحركة السريعة. ولا ينبغى، بأية حالٍ، لليد التى يتعلق بها الجسد كله أن تترك ما تتعلق به. وهى تكتسب من خلال ذلك صلابةً كبيرة. تلك الصلابة الى يجب تمييزها عن الإمساك بالفريسة. فما إن تصل الذراع إلى الفرع الجديد فإنه يجب إفلات اليد الممسكة بالفرع القديم. فإذا لم يحدث هذا بسرعةٍ شديدة فإن الكائن المتسلق لن يتحرك من مكانه. فكأن الإفلات السريع

إذن بمثابة إضافة جديدة إلى قدراتٍ جديدة لليد. ففى الماضى لم تكن الفريسة لتفلت إلا تحت أقصى ضغط وضد كل ما هو مألوف ومنشود. إن إنجاز فعل التسلق يتكون إذن من مرحلتين متعاقبتين لكل يدٍ على حدة: إمساكٌ، فإفلاتٌ، وإمساكٌ، فإفلات. وذلك رغم أن اليد الأخرى تفعل الشىء نفسه لكن فى مرحلةٍ لاحقة. فكلٌ منهما تفعل نقيض ما تفعله الأخرى فى اللحظة نفسها. أما الذى يميز القردة عن الحيوانات الأخرى فهو التعاقب السريع لكلتا الحركتين. فيتلاحق الإمساك والإفلات ليمنحا القردة شيئًا من خفة الحركة تُحسَد عليها. حتى القردة العليا التى نزلت من الأشجار إلى الأرض فقد حافظت دائمًا على امتلاك تلك القدرة الأساسية على تحريك الأيدى معًا. وهناك تجربةٌ إنسانية واسعة الانتشار تذكّر - فى بداية ظهورها - بمثل هذا النوع على نحوٍ شديد الوضوح، وهى المقايضة. وهو أمرٌ يحدث عندما يعطى المرء شيئًا بعينه مقابل ما أخذه. فتقبض إحدى يديه بإصرارٍ على المادة التى تغرى بها الطرف الآخر على المقايضة، بينما تنبسط اليد الأخرى طلبًا للمادة الأخرى التى يسعى لتملكها. فما إن تلمس ذلك فإن اليد الأولى تترك ما امتلكته، وليس قبل ذلك، وإلا فإنها سوف تخسر كل شىء. إن هذا اللون الواضح من الغش، أى فقدان شىء ما من دون مقابل، يتساوى مع السقوط من الشجرة، إن قارنّا ذلك بحدث التسلق. ومن أجل الحيلولة دون حدوث ذلك يظل المرء حريصًا على مراقبة كل حركات الطرف الآخر طوال عملية المقايضة. وشهرة وعمق سعادة الإنسان بعملية المقايضة أمرٌ يمكن تفسيره جزئيًا كذلك بمواصلة الإنسان لممارسة قدرة أقدم حركاته كمسلك نفسى. ولا يماثل الإنسان القرد فى أمرٍ ما إلى اليوم كما يماثله فى حدث المقايضة.

لكن لنعد من هذه الرحلة القصيرة إلى زمنٍ أكثر قربًا، أى إلى اليد نفسها وبداياتها. فمن تعلق اليد بفروع الشجر كانت اليد قد تعلمت نوعًا من سلوك الإمساك لم يعد يسرى على تناول الغذاء الأكثر قربًا. فالطريق القصير المفتقر إلى الحركة التبادلية، أى الطريق من اليد إلى الفم، كان قد عفا عليه الزمن من خلال ذلك. فعندما انكسر الفرع نشأت العصا. وبها استطاع المرء دفع أعدائه عن جسده. فخلقت العصا بذلك مساحةً حول الكائن المبكر الذى رآه ربما لا يشبه الإنسان. فمن خلال الشجرة جاءت العصا كسلاحٍ قريب. وقد منحها الإنسان ثقته، فلم يستغن عن العصا قط. فكان المرء يضرب بها، وقام بشحذها ليصنع منها رمحًا، وثناها وربطها، وصنع منها سهامًا. لكن وراء كل هذه التحولات ظلت

العصا دائمًا هي ما كانت في البدء، أي أداة لخلق مسافةٍ تبعد اللمس والقبضة التي يخافها الإنسان. فمثلما لم يفقد الوقوف على قدمي كبريائه تمامًا فإن العصا لم تتنكر لدورها في أثناء كل أشكال تحولها، فقد احتفظت بصفتها ممثلةً في شكلين مهمين للسُلطة، كعصا سحرية وكصولجان.

عن مثابرة الأيدي

ترجع كل ممارسات اليد العنيفة إلى العصر القديم. ولم يكن الانقضاض العدواني وحده الذي يفاجئ المرء ويروعه. لكن كثيرًا من الأحداث المنبثقة عن ذلك تعاقبت فيما بعد مثل الضرب والوخز والدفع والطرح أرضًا وإطلاق النار، التي لم يكن هناك بد من إضافتها إلى ما سبق مهما تنوعت أشكالها المستحدثة وازدادت تقنيتها تعقيدًا. وقد تكون سرعتها ودقتها قد نمت على نحوٍ أكبر إلا أن معناها وهدفها ظَلا على عهدهما القديم، وهو ما صار مهمةً للصياد والمحارب إلا أنه لم يضف شيئًا إلى تألق اليد الإنسانية. ومن أجل وصولها للكمال كانت قد حققت إنجازًا على نحوٍ آخر، تحديدًا في كل مجال تنازلت فيه عن القوة وعن الفريسة. فصارت عظمة اليد الحقيقية في مثابرتها. ولقد خلقت أعمال اليد البطيئة الهادئة العالم الذي نعيش فيه. فكان (الفخراني) صانع الفخار الذي أتقنت يداه تشكيل الصلصال، قد ذُكِر كخالق في بداية الإنجيل. فكيف اكتسبت الأيدي الصبر؟ وكيف اكتسبت أصابعها حساسية الأنامل؟ لقد كان أقدم الممارسات التي عرفها (المرء) الإنسان، هو حك جلد الرفاق، الأمر الذي أحبته القردة كثيرًا.

وقد رأى البعض أنها تفتش عن شيء ما. ولأنها كانت أحيانًا تعثر على شيء فقد نسب زورًا إلى هذا النشاط غرضٌ عملي قاصر للغاية. ولكنها كانت تفعل ذلك في الواقع بحثًا عن هذا الشعور اللطيف الذي أحست به الأصابع، كلٌ على حدة، وهو إحساس ارتبط بشعر الفرو. هكذا كانت ممارسات الأصابع هذه هي أول ما عرفه (المرء) الإنسان. ومن خلالها صارت الأصابع أداة دقيقة تدهشنا حتى اليوم.

عن ممارسات أصابع القردة

كان التفتيش المتبادل الدقيق للفرو هو ما لفت انتباه كل متابعي القردة. فكان الفحص الدقيق والتأمل لكل شعرةٍ بحد ذاتها قد أعطى الانطباع بأن القردة تبحث عن حشرات. ويُذكِّر مسلك الحيوانات بهولاء البشر الذين كانوا يقتفون أثر البراغيث. وغالبًا ما كانت تمضى بيدها إلى فمها، ما يعنى عثورها على شىء. ولما كان هذا يحدث غالبًا وبكثرة بدت البرهنة على مثل هذا التفتيش أمرًا ضروريًا. لقد كان هذا أيضا هو المفهوم العام. ولم يُفسَّر الحدث على نحوٍ دقيق من علماء الحيوان إلا فى العصر الحديث. وقد ورد فى كتاب تسوكرمان عن "الحياة الاجتماعية للقردة وإنسان الغابة "[73] استعراضٌ ودراسة ذات صلةٍ عن عادة القردة هذه. وهى دراسةٌ غنية بالدلالات، لذا أقدم ترجمتها كالتالى:

"إن التقاط البراغيث، بصرف النظر عما يقوله علماء الاجتماع، لهو الشكل الأصلى الأول والخاص للتعامل الاجتماعى المألوف بين النسانيس. فالقردة تقضى جزءًا كبيرًا من النهار فى عناية بعضها ببعض، وهو ما يفعله إنسان الغابة بقدرٍ أقل. فيقوم حيوانٌ بفحص فرو رفيقه بحرصٍ بأصابعه ليلتهم كثيرًا مما يجده من المواد الصغيرة المختلطة. فهو يدفع بما عثر عليه إلى فمه بيده تارةً، وتارةً أخرى من خلال القرض مباشرةً، بعد أن يكون قد لعق خصلة الشعر من خلال القرض المباشر بالأسنان. ويتطلب الحدث حركاتٍ متسقة تمامًا، مرتبطًا بالقدرة على التكيف والتقارب. وقد أُسيءَ تفسير هذا السلوك عادةً، على أنه محاولة لاستبعاد القمل. فالواقع يدل على أنه من النادر وجود حشراتٍ بالحيوانات الحبيسة، مثلها مثل التى تعيش حرةً. أما ثمار التفتيش فتكون - كما اتضح عادةً - قشورًا صغيرة انفصلت عن الجلد، وأجزاءً صغيرة من البشرة وإفرازاتٍ وأشواكًا وغير ذلك من الأجسام الغريبة. فإن لم تنشغل القردة بشىءٍ آخر فإنها تتجه على الفور إلى التفتيش فى الفرو، فما إن يولَد قردٌ ما حتى ينشغل بإغراء الشعر، ويستمر هذا الإغراء مؤثرًا وقويًا فى كل مراحل نموه. وفى حالة افتقاده لرفيقٍ فإن قردًا صحيح البدن يبدأ فى تفتيش جلده بنفسه. وقد يقوم اثنان أو ثلاثة من القردة بفحصٍ جماعى لفرو رفيقٍ لها. أما الأخير فإنه عادةً ما يستسلم لذلك، فيما عدا إبداء بعض الحركات التى تيسر الفحص للآخرين. إلا أنه أحيانًا ما ينشغل هو أيضًا فى نفس الوقت بفحص جلد واحدٍ ممن

يقومـون بفحـص جلـده. ولا تقـصر القـردة عنايتهـا هـذه عـلى النـوع الـذى تنتمـى إليـه. فـكل مـا لـه شـعرٌ، سـواء كان كائنًـا حيًـا أو جـمادًا، يمكـن أن يغريهـا بالفحـص. فتقـوم عـلى الفـور بفحـص شـعر إنسـانٍ صديـقٍ لهـا. ويبـدو أن لهـذا الحـدث معنـى جنسـيًا، ليـس فقـط بسـب التدليـك الخفيـف المثير لأعصـاب الجلـد، بـل أيضًـا لأنـه يكـون أحيانًـا مصحوبًـا بفعـلٍ جنـسى مبـاشر. ولهـذا السـبب، وبسـبب تكـرار ذلـك، قـد يكـون مسـموحًا لنـا باعتبـار رد فعـل الفحـص وإغـراء الشـعر كعنـاصر تخـدم التماسـك الاجتماعـى لمجموعـةٍ بدائيـة".

بعـد قـراءة هـذا الاسـتعراض الـذى قدمـه تسـوكرمان نفسـه لـن تكـون هنـاك مفاجئـةٌ أكـثر مـن التفسـير الجنـسى لهـذا الحـدث[74]. وهـو يذكـر أن العديـد مـن القـردة تهتـم بجلـد أحدهـا فى وقـتٍ واحـدٍ. ويشـدد عـلى أهميـة فـرو كل نـوعٍ بالنسـبة لهـا. وفى فقـرات لاحقـة بكتابـه يختلـق اختلافًـا بـين فحـص الجلـد وبـين الحـدث الجنـسى. وهنـا يذكـر هـو أن الحيوانـات فى وقـت الراحـة مـن الجنـس، أى عندمـا تبـدى اهتمامًـا أقـل نحـو ذلـك، فإنهـا تتجـه إلى القضبـان لـكى تحـك شـعرها بهـا. وهـو لديـه الكثير ممـا يقـال عـن أهميـة الجلـد المبكـرة بالنسـبة لطفـل القـردة. فالتجربـة الأولى للحواس التـى يمـر بهـا القـرد هـى تجربتـه مـع الشـعر. فبعـد المولـد مبـاشرةً تقـوم الأم بضـم طفلهـا إلى صدرهـا لتتحسسـه أصابعـه وتمسـك بشـعر جلدهـا. ويبحـث هـذا الحيـوان طويـلاً عـن حلمـة الـضرع حتـى يجدهـا، ولا تسـاعده الأم فى ذلـك.

"فى الشـهر الأول يعيـش هـذا عـلى اللـبن فقـط، وتحملـه الأم معهـا إلى كل مـكانٍ، فـإذا جلسـت الأم فـإن الطفـل يـصر عـلى تشـبثه بهـا، فتتعلـق أقدامـه بشـعر بطنهـا وقـد دفـن يديـه فى جلـد صدرهـا. وإذا مـا تجولـت فـإن طفلهـا يظـل متعلقًـا بهـا هكـذا، عـلى نحـوٍ مـا مـن التعلـق عـلى شـكل أنشـوطة. وعـادةً مـا يتعلـق بهـا مـن دون مسـاعدةٍ مـا، لكـن أحيانًـا مـا تحيطـه الأم بذراعهـا وهـى تسـعى عـلى ثلاثـة أرجـل، فـإذا جلسـت احتضنتـه أحيانًـا بذراعيهـا. والصغـير يبـدى اهتمامًـا بالفـرو. وهـو يحـك جلـد الأم. وقـد تابعـتُ قـردًا صغـيرًا، بلـغ شـهرًا واحـدًا مـن عمـره، وهـو يفتـش بيديـه بحـركاتٍ غريبـة فى جلـد أبيـه الـذى كان يجلـس بجـوار أمـه مبـاشرةً. وأحيانًـا مـا كان الاضطـراب يبـدو عـلى الأم مـن جـراء الطريقـة التـى يمسـك بهـا الطفـل بجلدهـا، فتقـوم بإبعـاد يديـه وقدميـه عنهـا. ومسـلك الأم المرضعـة لا يتغـير عندمـا يمـوت صغيرهـا، فهـى تظـل محتضـةً إيـاه فى صدرهـا حاملـةً إيـاه معهـا فى كل مـكان. ففـى

البداية لا تبعده عنها مواصلةً التفتيش فى جلده كما كانت تفعل فى أثناء حياته. وتقوم بفحص العينين والفم والأذنين. وخلال بضعة أيامٍ نلاحظ تغيراً فى سلوكها، فالجسد الذى بدأ فى تحللٍ بسيط صار متدليًا من ذراعها. ولا تضمه إلى صدرها مرةً أخرى إلا عند تجوالها. ورغم مواصلتها للعناية به وقرض جلده فإنها غالبًا ما تضع الجسد حينذاك على الأرض ليقطع التحلل شوطًا إلى الأمام ويبدأ جفاف الجثة، إلا أن فحصها للجلد والفرو يستمر. ويبدأ تساقط أوصال الجسد الجاف. لنرى غياب ساقٍ أو ذراعٍ، وسرعان ما يصير هذا إلى قطعةٍ من الجلد الجاف، لتقوم الأم بنزع بعض أوصال جسده، ولم نعرف إن كانت تبتلعها. ثم يبدو أنها تنازلت من تلقاء نفسها عما تبقى من أشلاءٍ جافة".

وتؤثر القردة الاحتفاظ بكثيرٍ من الجلد والريش. فأنثى صغيرةٌ من قردة البابون بلغت عامًا واحدًا من عمرها، خضعت لمتابعة تسوكرمان، كانت تقبض على قطٍ صغير وقتلته وظلت محتفظةً بالجسد طوال النهار بين ذراعيها وهى تمشط جلده، ودافعت عن نفسها بعنفٍ عندما انتزع منها مساءً. وفى حديقة حيوان لندن يمكن متابعة القردة وهى تقوم بفحص ريش العصافير التى قتلتها. وقد ورد أيضًا فى أعمالٍ أدبية حالة فأرٍ مقتول وكيف قامت أنثى قردٍ على رعايته على نفس النحو من الاهتمام مثل القردة الصغيرة التى ذُكرَت سابقًا.

وقد استنتج تسوكرمان من كل ما استعرضه أن هناك ثلاثة عناصرٍ فى مسلك الانفعال الأمومى لا بد من الفصل بينها. ففى العنصرين الأولين تكمن أهميةٌ اجتماعية، أى فى الانجذاب القوى نحو جلد الأم الذى يشعر به صغيرها. أما العنصر الثالث فهو رد فعل الرضيع الذى تخفف حركته توتر أعصاب صدر الأم. إن رد الفعل نحو الجلد هو عنصرٌ أساسى فى السلوك الاجتماعى على إطلاقه. وأهميته يمكن استنتاجها من خلال مواصلة قردٍ صغير التشبث بفرو أمه بعد موتها. والأمر لديه لا يتعلق بهذا الجسد تحديدًا وإنما بجثة كل قردٍ ميت آخر، الذى يتبين فيها أنها تهدئ من روعه إلى حدٍّ كبير.

"إن الطبيعة الأصيلة للإحساس بالجلد يمكن استنباطها بصعوبة من إمكانية تحديد شخصيتها ومن خلال تنوع حالاتها التى يمكن أن تكون عليها. فالريش والفئران والقطط الصغيرة يمكن أن تكون عامل جذب بنفس القدر. ويرجح أن حدث العناية الاجتماعى الخاص بفحص الجلد يمكن إرجاعه إلى رد فعل طبيعى

نحـو الجلـد، وأن رد الفعـل يظـل أحـد الروابـط الأساسـية التـى تسـاعد عـلى التماسـك بـين القـردة".

بعـد هـذه الاقتباسـات الكثـيرة مـن كتابـه، فإنـه لـن يكـون هنـاك مـن شـكٍ فى أن المؤلـف نفسـه لـن ينظـر بعـين الجديـة إلى التفسـير الجنسـى المتخصـص عـن عنايـة القـردة بالجلـد وغيرهـا. فقـد اتضـح لـه أن الفـرو يمثـل للقـردة جاذبيـة خاصـة فى مختلـف ظـروف حياتهـا. فالمتعـة التـى يوفرهـا لهـا الانشـغال بالجلـد لا بـد مـن أن تكـون مـن نـوعٍ فريـد تمامًـا، فهـى تحصـل عليهـا مـن المـوتى والأحيـاء ومـن فصيلتهـا ومـن الأغـراب بنفـس القـدر. وهـذا الأمـر لا علاقـة لـه بحجـم الحيـوان الـذى تتـم العنايـة بـه. فأهميـة الصغـير لـلأم تكـون بنفـس قـدر أهميـة الأم للصغـير. فالمحبـون والأصدقـاء لديهـم نفـس الحـرص تجـاه بعضهـم البعـض. ويمكـن أن تهتـم عـدة حيوانـات بالعنايـة بفـرو واحـد مفـرد. إن هـذه المتعـة هـى إحـدى متـع الأصابـع. وهـى لا يمكـن أن تشـبع مـن الشـعر. فيمكنهـا قضـاء سـاعاتٍ وسـاعات فى تمشـيط الشـعر بأصابعهـا. إنهـا الحيوانـات نفسـها التـى صـارت حيويتهـا وقدرتهـا عـلى القفـز مـضرب الأمثـال.

وطبقًـا لنـص صينـى قديـم فـإن القـردة لا تملـك معـدة، فهـى تهضـم غذاءهـا مـن خـلال قفزهـا هنـا وهنـاك. وهنـا يبـدو النقيـض لصبرهـا عـلى هـذه العنايـة هـو الأكـثر لفتًـا للنظـر. ففـى أثنـاء ذلـك تصبـح الأصابـع أكـثر حساسـية، وتنمّـى أطـراف الشـعر الكثـيرة إحسـاس لمـسٍ خاصًـا، حتـى إنـه يختلـف فى جوهـره اختلافًـا تامًـا عـن الحـس الفـظ للقبـض والإمسـاك. وليـس بوسـعنا تصـور وظائـف الإنسـان المتأخـرة الناتجـة عن حساسـية ومثابـرة أصابعـه. وكان أجـداد الإنسـان المجهولـون، وكذلـك القـردة، قـد قاموا بمثـل هـذه الممارسـات لفـترات طويلـة، فمـن دونهـا لم تكـن أصابعنـا لتحقـق هـذا الإنجـاز. فمنـذ بدايـة هـذه العنايـة كانـت قـد تعلمـت الكثـير مـن الممارسـات، سـواء كان ذلـك فى البدايـة بحثًـا عـن حـشرات أو تجـارب طفـل القـردة المبكـرة مـع شـعر ثـدى أمـه. وكان لمثـل هـذا الحـدث وحدتـه ومعنـاه، وهـو مـا نـراه اليـوم مكتمـلاً فى كل القـردة، فمـن دونـه لم يكـن لنـا أن نتعلـم التشـكيل، أو الحياكـة، أو نربـت عـلى كتـف أحـد. فمعـه بـدأت الحيـاة الشـخصية لليـد. ومـن دون التوافـق الـذى كونتـه الأصابـع فى أثنـاء ذلـك والـذى ترسـخ مـن خـلال تفتيـش الفـرو، مـا عرفنـا علامـات الأشـياء، ولا اللغـة أيضـا.

الأيدى وميلاد الأشياء

كانت اليد التى نهلت من الماء هى الوعاء الأول. فأصابع كلتا اليدين التى تتداخل فى بعضها البعض هى التى كونت السلة الأولى. ولعل التطور الحافل لكل ألوان أشغال التضفير، بدءا من فتل الخيوط وحتى أعمال النسج، كانت بدايته من هذا المنطلق. فقد تولد الشعور بأن الأيدى هى التى قادت تحولات حياتها. وليس كافيًا أن هذا الشكل أو ذاك كان موجودا بالفعل فى محيط الحياة. فقبل محاولة الإنسان المبكرة لتشكيلها كانت يداه هى التى أدت بالفعل هذا الدور فى البداية. فقشور الثمار الفارغة، كقشور جوز الهند كانت موجودة منذ زمنٍ بعيد، وكان يتم الإلقاء بها جانبًا بلا مبالاة. وكانت الأصابع أولا بما لديها من قدرة على تشكيل حيز فارغ من أجل النهل من الماء، هى التى صنعت الصحن الأجوف. ولعلنا نتخيل أن وجود الأشياء فى مفهومنا لها كأدوات ذات قيمة فى حياتنا لأننا صنعناها بأنفسنا، يبرهن على آيات رمزية صنعتها الأيدى. ولا بد من لفت الانتباه إلى نقطة محورية بالغة الأهمية، وهى أن نشأة لغة الإشارة إلى الأشياء تعانق مضمونها مع تلك الرغبة فى تكوين شكل لتلك الأدوات ذاتها، وكان هذا قبل أن يشرع الإنسان فى تجريب ذلك على أرض الواقع بزمن بعيد. فما كان يؤديه المرء بيديه صار له شكل بالفعل بعد أن أداه بيديه بدرجة كافية من التمثيل لها. فالكلمات والأدوات صارت إفرازًا لذلك ونتيجةً لتجربة حياتية واحدة، أى تمثيل اليد لها. فكل ما اكتسبه الإنسان فى وجوده وقدراته، وكل ما صنع حضارته لم يكن له وجود إلا بعد أن استوعبته وامتصته حواسه من خلال عمليات تحول. كما لعب الوجه واليدان دور الوسيط الحقيقى لهذا الامتصاص. وقد استمر ازدياد أهمية كل منهما مقارنةً ببقية أعضاء الجسد. أما حياة الأيدى الخاصة بها وفقا لباكورة أصل هذا المعنى فقد استمرت بوضوح فى لغة الإشارة.

نزعة التدمير لدى القردة والإنسان

نستطيع اعتبار نزعة التدمير لدى القردة والإنسان من ممارسات الصلابة لليد والأصابع. فاستخدام الفروع جعلت القرد المتسلق ويديه على علاقةٍ وثيقة مع المادة التى كانت أكثر صلابة منها. وللتغلب على الفروع كان على القرد أن

يمسك بها، لكنه كان عليه أيضًا أن يعرف كسرها. كما كان اختباره للتربة مثل اختباره للفروع والأغصان، فما كان ينكسر بسهولة، كان أرضًا غير صالحة لحركته.

كان اختبار عالم الفروع هذا مواجهةً دائمة مع صلابتها، وظل اختبارها ضرورة، حتى بعد اكتساب خبرة كبيرة فى ذلك. أما العصا التى صارت أول سلاح للإنسان فقد مثلت بداية سلسلة أدوات صلبة، بعد أن قارنها الإنسان بيديه، وهو ما فعله مع الأحجار فيما بعد. أما الثمار ولحم الحيوان فكانت رخوةً، وكان الفرو أكثر رخاوة. ففى حك ولمس الجلد مارس الإنسان حساسية الأصابع، كما وظفت الصلابة فى كسر كل شىء. وهكذا وجدت نزعة اليد لتدمير أشياء جديدة لا تتوجه مباشرةً للفريسة والقتل. فقد كان ذلك إسلوبًا آليًا خالصًا، وهو ما استمر فى اختراعات الآلات. وقد كمن خطرها الكبير فى مسالمتها. فتجردها من نية القتل أفسح المجال أمامها لممارسة كل الأفعال. فما تمارسه يبدو كأن الأيدى اختصت وحدها بالدقة وقدرة الإنجاز لمنفعتها السلمية. ورغم ارتباط نزعة الأيدى للتدمير بنية القتل الحقيقية، تلك النزعة التى تطورت إلى نظام تدمير آلىٍّ معقد، فإن البعض يتذرع بالجزء الآلى لفعل التدمير، وهو ما نعتبره أمرًا بلا معنى وغريبًا، فلم يكن هناك فى الواقع من قال بأن كل هذا حدث من تلقاء نفسه. ففى الشأن الخاص والمحدود يعايش كل منا الحدث بنفسه، إذا ما استخدمنا الأصابع بشكل عفوى فى كسر أعواد ثقاب أو طى الأوراق. إن التفرع المتنوع الذى يدلل على هذا الدافع الآلى للتدمير لدى الإنسان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتطور تقنية أدواته. ورغم أنه تعلم السيطرة بالحديد على الحديد، إلا أن اليد ظلت المرجعية الأخيرة لكل شىء. فقد نتجت عن سماتها الخاصة تبعاتٌ هائلة. فقد كانت هى التى حددت مصيرنا فى مجالات عديدة.

القتلة يظلون الأقوياء دائمًا

لم يكن لليد بإجمالها فقط هذا الأثر النموذجى والفعال، بل كان ذلك للأصابع أيضا، كلٌّ منها على حدة، خاصةً السبابة المنبسطة، التى كانت قد اكتسبت هذه الأهمية. فالإصبع كان قد تدبب وتسلح بالظفر (فهو الذى) ما أعطى فى البداية شعورًا بالوخز المؤثر. فالخنجر الذى تطور عن الإصبع صار أكثر صلابةً وحِدةً. وجاء السهم مزيجًا من الإصبع والطائر، وكان لا بد من أن يكون خفيفًا وطويلاً

ينفـذ إلى مـدى أعمـق، ويسـتطيع الطـيران عـلى نحـوٍ أفضـل. أمـا المنقـار والشـوكة فقـد اتخـذا هيئـة الإصبـع، فصـار المنقـار خاصًـا بالداجنـة بينـما صـارت العصـا المدببـة رمحًـا، فهـى الـذراع التـى انتهـت بإصبـعٍ وحيـد. والتركيـز هـو الـذى جمـع بـين كل أسـلحة هـذا النـوع فى (عـلى) نقطـة واحـدة. فبعـد أن وخـز الشـوك الصلـب الكبـير الإنسـان قـام هـذا بسـحبه مـن جسـده بأصابعـه، فصـار الإصبـع المـؤدى لـدور الشـوكة ناقـلاً للوخـز، هـو الأصـل السـيكولوجى لهـذا النـوع مـن الأسـلحة. فمـن كان يوخَـز صـار يخِـز بإصبعـه أو بالأصابـع الاصطناعيـة التـى تعلـم صناعتهـا شـيئًا فشـيئًا. وأدوات الأصابـع لا تمنـح السـلطة قـوةً متسـاوية، كـما تختلـف قيمـة هـذه القـوة اختلافًـا شـديدًا. فبعضهـا يمثـل قيمـةً ثمينـةً فى إطـار الحيـاة الواقعيـة لجماعـة مـن البـشر. أمـا المكانـة الأسـمى فقـد احتلتهـا دائمًـا تلـك التـى تسـتهدف القتـل. فـما يمكـن اسـتخدامه فى القتـل هـو مـا يُخـشَى منـه، وأمـا مـا لا يُسـتخدَم فى القتـل مبـاشرةً فيكـون مفيـدًا فقـط. وكل أدوات اليـد المثابـرة لم تُفـضِ بهـذه، التـى هـى مقتـصرة عليهـا، إلا إلى الخضـوع. أمـا الأخـرى التـى تخـدم القتـل فإنهـا تسـتحوذ عـلى السـلطة.

عن سيكولوجية تناول الطعام

يُعتبَر كل ما يؤكَل مادةً للسُلطة. فالجائع يشعر بفراغٍ داخله. وحتى يقضى على الشعور بالضيق الذى يسببه له هذا الفراغ الداخلى فإنه يملأه بالطعام، وكلما امتلأ كان شعوره أفضل، ليرقد ممتلئًا ثقيلاً مرتاحًا للغاية من كان لديه القدرة الأكبر على التهام الطعام، إنه هو هذا الملتهم الأكبر. وهناك جماعاتٌ بشرية ترى فى مثل هذا الملتهم الأعظم زعيمًا لها. هؤلاء يوقنون أن شهيته التى تم إرضاؤها بمثابة ضمان لهم ضد المعاناة من الجوع، وهم يعتمدون على بطنه الممتلئ، كأنه جعلهم جميعًا مشاركين فى امتلائه. وهنا تبرز بوضوح الصلة بين الهضم والسُلطة.

ففى أشكال أخرى للحكم تتراجع قليلاً مكانة الملتهم الجسمانية الأكبر، فلم يعد ضروريًا أن يصير هذا أكثر بدانةً من الآخرين ليصل إلى حجم البرميل. لكنه يأكل وينادم النخبة المختارة من محيطه وما يقدمه إليهم هو ملكٌ له. فإن لم يكن هو الملتهم الأقوى فلا بد من أن يكون ما يختزنه هو الأكبر، فهو يملك معظم الماشية ومعظم الغلال. فهو بوسعه دائمًا – عندما يشاء - أن يكون الملتهم الأعظم لكنه ينقل هذا الرضا بالامتلاء إلى بلاطه وإلى من يشاركونه مائدته، ويحتفظ فقط بحقه فى أن يكون أول من يتناول أى شيءٍ من الطعام. فهيئة الملك

كملتهم أعظم لم تتلاش تمامًا. فمن حينٍ لآخر كان واحدًا من هؤلاء الملوك: يخادع بهذه الهيئة أتباعه الفرحين. أما الجماعات صاحبة النفوذ فكانت تنغمس فى هذا كجماعات كاملة، ويضرب المثل بالرومان فى هذا المجال. فكل سلطة عائلية وطيدة كانت تقوم باستعراض ذلك فى الغالب. وفيما بعد حاكاها من تسلموا السلطة بعدهم وتفوقوا عليها. وقد تفاقمت إمكانية الإسراف والمقدرة على ذلك فى بعض المجتمعات إلى حد أنها رسخت كمجونٍ رسمى لتدميرٍ له طقوسه، وأشهرها كان ما يطلق عليه هنود شمال غرب أمريكا "حفل البولتاتش". فهو يتكون من مجلس احتفالى كبير للجماعة كلها معًا يصل ذروته فى سباق التدمير بين الزعماء. فقد كان كل زعيم يتباهى بمقدرته بما يستطيع تدميره من ممتلكاته. فمن دمر القدر الأكبر كان هو الفائز ليحرز المجد الأعظم من بين الجميع. لكن الالتهام الأعظم كان سابقًا على تدمير حياة الحيوان المملوكة لأولئك. فتولد الانطباع بأن هذا التدمير – فى أثناء حفل البولتاتش - قد نُقل إلى جزءٍ من الممتلكات التى لا تؤكل. فالزعيم بوسعه أن يتباهى على نحوٍ أعظم عندما يكون لديه ما يأكله ليوفر على نفسه المتاعب الجسدية. وقد يكون من المفيد أن نلقى نظرة على متناولى الطعام بشكلٍ عام ومدى سمو أو تواضع مكانتهم. وهو ما يتبدى فى اقتسامهم للطعام. فالطعام الموجود فى صحنٍ جماعى هو من نصيبهم جميعًا، فكلٌ منهم يأخذ لنفسه شيئًا من هذا الطعام على أن يتناول الآخرون حظهم من ذلك أيضًا. فالإنسان يحرص على توخى العدل بألا يجور على حق غيره. وأقوى الصلات هى تلك الصلة الناشئة بين الآكلين، عندما يأكلون من حيوانٍ ما، من جسدٍ كانوا يعرفونه كذلك فى أثناء حياته، أو من رغيفٍ خبزٍ واحدٍ. إلا أن الاحتفاء البسيط البادى فى مسلكهم لا يمكن تفسيره من خلال ذلك فقط، فحرصهم يعنى كذلك أنهم لن يأكلوا بعضهم البعض. ورغم أن هناك ضمانًا لذلك بين البشر الذين يعيشون معًا دائمًا فى جماعةٍ فإن ذلك لا يتأكد إلا فى لحظة تناول الطعام. فالناس يجلسون معًا ويكشرون عن أسنانهم ليأكلوا. وفى هذه اللحظة الحرجة بالذات لا تظهر شهوة أكل الآخر. فالإنسان يحرص على ذاته من أجل ذلك، ويحترم فى الآخرين كذلك مسلكهم المتحفظ الذى يلتزم هو به أيضًا. وبالنسبة للأسرة فإن الرجل يساهم بنصيبه فى مسألة الغذاء، بينما تقوم الزوجة بإعداد الطعام له. وينشأ الرباط الأقوى بينهما لتناول الرجل بانتظام الطعام الذى أعدته زوجته. وأكثر العلاقات الأسرية حميميةً تتبدى فى أثناء تناول أفرادها

طعامهـم معًـا. إن الذكـرى التـى تحتفـظ بهـا الـعين هـى صـورة اجتـماع الوالديـن والأبنـاء حـول مائـدة الطعـام. فـكل شيءٍ يبـدو كأنـه تمهيـدٌ لهـذه اللحظـة. وكلـما تكرر ذلـك وانتظـم زاد شـعور الآكلـين - معًـا - بـالأسرة. والانضـمام إلى هـذه المائـدة يماثـل عمليًـا الانضـمام إلى الأسرة. وربمـا تكـون هنـا الفرصـة الأفضـل لقـول شيءٍ عـن أسـاس وقلـب هـذه المؤسسـة، أى الأم.

فـالأم هـى مـن تمنـح جسـدها نفسـه كغـذاء، فهـى مـن قامـت بتغذيـة الطفـل داخلهـا، ثـم قدمـت لـه اللـبن فيـما بعـد، وهـذا التوجـه يسـتمر عـلى نحـو أقـل وطـأةً لأعـوامٍ كثـيرة. وتظـل أفكارهـا، مـا دامـت أمًـا، تـدور حـول التغذيـة التـى يحتاجهـا الطفـل النامـى. وليـس مـن الـضرورة أن يكـون ابنهـا، فقـد يُنسَـب إليهـا ابـنٌ غريـب عنهـا، فبوسـعها تبنـى أحـد الأطفـال. وهـى شـغوفة بمنـح الطفـل الطعـام ورؤيـة أنـه يـأكل وأن يمثـل الطعـام شـيئًا بالنسـبة لـه. فنمـوه وزيـادة وزنـه هـما هدفهـا الثابـت. ويبـدو سـلوكها إيثـارًا، وهـو أيضًـا يكـون هكـذا حتـى لـو اعتبرهـا المـرء وحـدةً منفصلـة، إنسـانًا بحـد ذاتهـا. لكنهـا فى الواقـع تكـون قـد صـارت لهـا معدتـان وسـيطرت عـلى كليهـما. فهـى تهتـم بالمعـدة الجديـدة، مثـل المعـدة الناميـة، أكـثر مـن اهتمامهـا بمعدتهـا هـى، وهـو مـا يحـدث فى أثنـاء فـترة الحمـل. وفى إطـار مفهـوم الهضـم كحـدثٍ مركـزى للسُـلطة، كـما يتبـدى هنـا فعلينـا إثبـات ذلـك بالنسـبة لـلأم، إلا أن الأم تـوزع هـذا الحـدث عـلى أكـثر مـن جسـد. ومـا يجعـل هـذا الحـدث فى مجملـه أكـثر وضوحًـا وأكـثر وعيًـا هـو حقيقـة أن الجسـد الجديـد، الـذى تمـده بالغـذاء، منفصـلٌ عـن جسـدها. وتكـون سـلطة الأم عـلى الابـن فى مراحلـه المبكرة سـلطةً مطلقـة، ليـس فقـط لأن حياتـه متعلقـة بهـا، لكـن لأنهـا هـى نفسـها تشـعر بالضغـط القـوى لممارسـة هـذه السـلطة. وتركيـز نشـوة السـلطة هـذه عـلى مخلـوق صغـير يعطيهـا شـعورا بالتفـوق تصعـب رؤيتـه فى علاقـة أخـرى عاديـة بـين البـشر. إن اسـتمرار هـذه السـلطة التـى انشـغلت بهـا الأم ليـل نهـار، وعـدد التفاصيـل الرهيـب التـى تكونـت منهـا، منحتهـا كـمالاً وإحكامًـا لا يتوافـران لأى نـوعٍ آخـر مـن السـلطة. فهـى لا تقتـصر فقـط عـلى إصـدار الأوامـر التـى لا يمكـن فهمهـا عـلى الإطـلاق. إنهـا تعنـى أن المـرء يسـتطيع الاحتفـاظ بكائـنٍ مـا أسـيرًا، حتـى وإن كان فى هـذه الحـال يعمـل لمصلحتـه، فهـو، مـن دون أن يـدرى، ينقـل إلى غـيره مـا كان قـد تلقـاه هـو نفسـه قبـل عـشرات السـنين قـسرًا، واحتفـظ بـه كغصـة غـير قابلـة للتدمـير، وذلـك مـن أجـل نمـو شـخص مـا، وهـو مـا لا ينجـح فيـه الحاكـم إلا مـن خـلال عمليـة الترقيـة المصطنعـة. ويعتـبر

الابـن بالنسـبة لـلأم تجسـيدًا موحـدًا لسـمات النبـات والحيـوان. فهـو يمنحهـا التمتـع بحقـوقٍ سـامية يمارسـها المـرء عـادةً كلاً عـلى حـدة، فهـو يمارسـها نحـو النبـات حينـما يدعـه ينمـو كـما يشـاء لـه، أو يمارسـها نحـو الحيـوان الـذى أسره وسـيطر عـلى حركتـه. فينمـو الطفـل تحـت رعايـة أمـه مثـل بـذرة النبـات، ويتحـرك وهـو مثـل حيـوان مسـتأنس يقـوم بتنفيـذ الحركـة التـى تسـمح لـه هـى بهـا، وهـو يخلصهـا مـن بعـض غصـات الأوامـر القديمـة التـى ينـوء بحملهـا كل مخلـوقٍ متحـضر، فيصـير بخـلاف ذلـك إنسـانًا، إنسـانًا جديـدًا وكامـلاً، يقـر دائمًـا بالعرفـان للجماعـة التـى غذتـه بذلـك. وليـس هنـاك شـكل مـن أشـكال السـلطة يتمتـع بمثـل هـذه القـوة.

وهنـاك سـببٌ مـزدوج يجعلنـا لا نـرى دور الأم هـذا، فـكل إنسـان يحتفـظ فى ذاكرتـه بتراجـع هـذه السُـلطة وتقـدم حقـوق الأب السـامية، هـذه الحقـوق الملفتـة، وإن لم تكـن عـلى هـذا النحـو مـن الأهميـة. وتسـتقر الأسرة عـلى نحـوٍ راسـخ متـين حينـما تحـرم آخريـن مـن طعامهـا، ويكـون مبررهـا الطبيعـى لاسـتبعاد الآخريـن هـم هـؤلاء الذيـن تقـوم الأسرة عـلى رعايتهـم. وسـمو هـذا المـبرر يتضـح لـدى الأسر التـى مـن دون أبنـاء ولا تملـك أدنى اسـتعداد لتقاسـم طعامهـا مـع آخريـن. فـالأسرة المكونـة مـن فرديـن هـى أكـثر الأشـكال ازدراءً أنتجتهـا البشريـة، لكـن حتـى الأسر التـى لديهـا أبنـاء، فإنهـا تجعلنـا نشـعر غالبًـا بأنهـا تسـتغل الأبنـاء كمجـرد وسـيلة دعايـة للأنانيـة الأكـثر تجـردًا. فالإنسـان يدخـر مـن أجـل أبنائـه ويـدع الآخريـن يجوعـون. وفى الواقـع فـإن مـا يفعلـه (المـرء) الإنسـان طـوال حياتـه إنمـا يفعلـه مـن أجـل نفسـه. وإنسـان العـصر الحديـث يميـل إلى تنـاول طعامـه بالمطاعـم، مسـتقلاً بمائدتـه فى إطـار صحبتـه الصغـيرة التـى يدفـع هـو الحسـاب لهـا. ولمـا كان الآخـرون بالمطعـم يفعلـون الـشىء نفسـه فـإن المـرء يرتـاح فى أثنـاء تنـاول الطعـام إلى وهـم أن الجميـع لديهـم مـا يأكلونـه. وهـذا الشـعور الرهيـف لا يسـتمر طويـلاً، فالشـبعان يسـتطيع العثـور عـلى جوعـى فى أى مـكان. والمتنـاول للطعـام يـزداد وزنًـا ويشـعر بأنـه صـار أكـثر ثقـلاً. وفى هـذا يكمـن الفخـر. وهـو لا يسـتطيع النمـو أكـثر مـن ذلـك، إلا أن بوسـعه أن يـزداد وزنًـا فى الحـال وأمـام أعـين الآخريـن. ولهـذا السـبب يحـب هـو تنـاول الطعـام معهـم ليكـون هـذا بمثابـة سـباق الرهـان فى الامتـلاء. والرضـا عـن الامتـلاء، تكـون التخمـة هـى النقطـة الأخـيرة التـى يسـعى المـرء للوصـول إليهـا. وحقيقـة الأمـر أن هنـاك مـن يخجـل مـن ذلـك، فالغنيمـة الكبـيرة كان يجـب اسـتهلاكها بسرعـة، فـكأن المـرء يـأكل قـدر مـا يسـتطيع ليحمـل مخزونـه داخـل نفسـه. أمـا مـن يـأكل وحـده فيكـون قـد

استغنى عن المكانة التى يحققها بذلك فى أعين الآخرين. فشحذ الأسنان من أجل تناول الطعام، عندما يكون الإنسان بلا صحبة، وحيدا، لا يترك انطباعًا لدى أحد. أما فى إطار جماعة فالمرء يرى كيف يفتح كل فردٍ فمه، فبينما يستخدم المرء أسنانه يكون قد سمح بذلك للآخرين.

ولا يستحب أن يكون الإنسان بلا صحبة، ففى هذا يكمن شىءٌ من الزهد لا يريد إظهاره. فالتناول الجماعى للطعام هو ما يوفر الفرصة الطبيعية للتباهى بذلك. وقد جرت العادة فى عصرنا الحديث على أن يأكل الإنسان بفمٍ مغلق، وبذلك يكون التهديد الضئيل الكامن فى فتح الفم المعتاد، قد اختزل فى أوهن صوره، إلا أن مسلكنا المسالم هذا ليس قديمًا، بعد أن صار الإنسان يأكل بالشوكة والسكين، أى بأداتين يستطيع استخدامهما بسهولة. ولكلٍ احتياجاته الشخصية أمامه، وفى حالاتٍ ما يحملها معه.

وما تعرف بالقضمة فى اللغات الحديثة هى ما يقطعها المرء ويضعها بفمه متحفظًا. أما الضحك فيُعتبَر سلوكًا فجًا لأن الإنسان يفتح فمه فتظهر أسنانه فى أثناء ذلك. ويقينًا كان الضحك ينطوى قديما على فرحة الإنسان بالفريسة أو الطعام الذى بدا له مضمونًا. أما الإنسان الذى يسقط فهو يذكر بالحيوان الذى كان يستهدفه وأسقطه بنفسه. فكل سقوطٍ يثير ضحكًا يذكر بعجز من سقط، فبوسع الإنسان إن شاء أن يعامل من سقط كغنيمة. لكن المرء لن يضحك إذا ما انتهت الأحداث السابقة إلى التهامه لغنيمته بالفعل. فهو يضحك عوضًا عن أكله. فالطعام الفالت هو الذى يثير الضحك، وهو الشعور المفاجئ بالتفوق على حد قول هوبز، إلا أنه لم يُضِف أن هذا الشعور لا يتصاعد إلى ضحك إلا إذا غابت تبعة هذا التفوق. فمفهوم هوبز لا يصل إلا إلى نصف الحقيقة، فهو لم يتعمق إلى أصلها الحيوانى القديم، ربما لأن الحيوانات لا تضحك، لكن الحيوانات لا تدع أى طعامٍ يفلت منها إذا وصلت إليه وكان لديها رغبة حقيقية فى ذلك. فالإنسان وحده هو الذى تعلم تعويض عملية الالتهام بكاملها من خلال عمل رمزى. فيبدو أن الحركة المنطلقة من الحجاب الحاجز التى يعبر الضحك عنها، التى هى سلسلة من حركات البلع الداخلية للجسد، ليست سوى تعويضٍ مختزل عنها. والضباع هى الوحيدة بين الحيوانات التى تصدر صوتًا يحاكى ضحكنا فى الواقع، وهو ما يمكن أن نصطنعه إذا ما وضعنا أمام الضباع شيئًا من طعام ثم سحبناه

بسرعـة قبـل أن تتمكـن مـن التقاطـه. وليـس هنـاك حاجـة للتذكـير بـأن طعـام الضبـاع فى الخـلاء يتكـون مـن جيفـة، وبوسـعنا تصـور كيـف اختُطـف كثـيرٌ مـما تشـتهيه أمـام أعينهـا.

الباقي على قيد الحياة

الباقى على قيد الحياة

إن لحظة البقاء على قيد الحياة هى لحظة القوة، ففيها يحل الرضا محل الفزع من الموت، لأن شخصًا بعينه لم يكن هو من مات، فبينما يظل هذا موجودا فى الحياة يكون شخصٌ آخر قد سقط. ويبدو الأمر كأنه صراعٌ انتهى، وكأن هذا هو من قضى على الميت بنفسه. ففى صراع البقاء على قيد الحياة يكون كلٌ عدوًا للآخر، فتتضاءل كل الآلام قياسًا على هذا النصر الجوهرى. لكن من المهم أن الباقى على قيد الحياة يواجه بمفرده واحدًا أو العديد من الموتى، فهو يرى نفسه وحيدًا وهو يشعر بنفسه وحيدًا، فإذا ذُكِرت القوة التى منحته هذه اللحظة فإنه لا ينسى أبدًا أنها نتجت عن تفرده وحده. إن كل هدفٍ للإنسان فى الخلود ينطوى على شىءٍ ما من حب البقاء على قيد الحياة، فهو لا يبغى فقط الوجود هنا، بل إنه يبغى الوجود هنا عندما لا يكون الآخرون موجودين هنا. فكلٌ ينشد العمر الأطول وأن يعرف ذلك، فإذا لم يعد موجودًا هنا فلا بد من أن يعرفه الآخرون باسمه. إن القتل هو أدنى أشكال البقاء على قيد الحياة، فمثلما قتل الإنسان الحيوان الذى اقترب هو منه فرقد هذا أمامه عاجزًا فيستطيع تمزيق أوصاله وتقسيمه كغنيمةٍ يلتهمها هو وذووه، فعلى نفس النحو يبغى الإنسان قتل إنسانٍ يقف فى طريقه ويواجهه ويصمد أمامه كعدوٍ، فهو يريد إسقاطه ليشعر أنه ما زال موجودًا هنا، أما الآخر فلم يعد هنا، إلا أن

هـذا الآخـر لا ينبغـى أن يختفـى تمامًـا، فحضـوره الجسـدى كجثـةٍ أمـرٌ ضرورى لهـذا الشـعور بالنـصر، فحينئـذٍ يسـتطيع المـرء أن يفعـل بـه مـا شـاء، بينـما الآخـر يكـون عاجـزًا عـن أى رد فعـل، فهـو راقـدٌ وسـيظل راقـدًا للأبـد، فلـن ينهـض أبـدًا ثانيـةً، فيسـتطيع المـرء نـزع سـلاحه عنـه، ويسـتطيع انتـزاع قطعـةٍ مـن جسـده والاحتفـاظ بهـا دائمًـا كرمـزٍ للنـصر. إن لحظـة المواجهـة هـذه مـع المقتـول تمـد "الباقـى عـلى قيـد الحيـاة" بنـوعٍ فريـد مـن القـوة لا تُقـارن بأيـة قـوة أخـرى، ولـن تتكـرر هـذه اللحظـة التـى تسـتدعى حـدوث ذلـك ثانيـةً. لأن "الباقـى عـلى قيـد الحيـاة" يـرى الكثيريـن مـن القتـلى. فـإن كان فى معركـة فإنـه سـيكون قـد رأى كيـف سـقط حولـه آخـرون قتـلى، وهـو مـن خـاض المعركـة عـن عمـدٍ ووعـيٍ تامّـين مـن أجـل الانتصـار عـلى الأعـداء، وكان هدفـه المعلـن هـو قتـل الكثـير منهـم قـدر الإمـكان وأنـه لـن ينتـصر إذا لم ينجـح فى ذلـك. فهـو يـرى النـصر والبقـاء عـلى قيـد الحيـاة عـلى قـدم المسـاواة. لكـن لا بـد مـن أن يدفـع المنتـصرون أيضًـا ثمـن ذلـك، فمـن بـين المـوتى يوجـد كثـيرون مـن ذويهـم، فسـاحة المعركـة هـى التـى تجمـع الصديـق بالعـدو، وكـوم المـوتى هـو كـومٌ مشـترك، وأحيانًـا مـا يتطـور الأمـر عـلى نحـوٍ يصعـب معـه التمييـز بـين مـوتى كلا الطرفـين، فقـد تجمـع أشـلاءهم مقـبرةٌ جماعيـة ليقـف "الباقـى عـلى قيـد الحيـاة" سـعيدًا محظوظًـا فى مواجهـة هـذا (الكـوم) الجمـع مـن المـوتى المحيـط بـه. أمـا الحقيقـة الهائلـة فهـى أنـه مـا زال محتفظًـا بحياتـه بينـما فقدهـا كثـيرٌ مـن الآخريـن الذيـن كانـوا معـه، فهـا هـم المـوتى يرقـدون عاجزيـن وهـو يقـف بينهـم عـلى اسـتقامة عـوده، كأن لسـان حالـه يقـول إن المعركـة نشـبت حتـى يبقـى هـو عـلى قيـد الحيـاة، وقـد أخطـأه المـوت ليصيـب غـيره. ولم يحـدث ذلـك لأنـه تجنـب الخطـر، فقـد واجـه المـوت وهـو وسـط رفاقـه، أمـا هـم فقـد سـقطوا، وأمـا هـو فقـد عـاش وتباهـى بذلـك. إن هـذا الشـعور بالتسـامى عـلى المـوتى يعرفـه كل مـن شـارك فى حـروبٍ مـا. وقـد يتـوارى ذلـك خلـف الحـزن عـلى الرفـاق، فهـؤلاء قليلـون، أمـا المـوتى فهـم كثـيرون. فالشـعور بالقـوة فى مواجهـة هـؤلاء حيًـا هـو فى جوهـره أقـوى مـن أى حـزنٍ، وهـو شـعورٌ بالانتقـاء مـن بـين كثيريـن كان مصيرهـم قـدرًا محتومًـا. وعـلى نحـوٍ مـا يشـعر هـذا بأنـه الأفضـل، لا لـشيء إلا لأنـه مـا زال هنـا. فهـو الـذى أثبـت جدراتـه بذلـك ولـذا بقـى حيًـا، فـإذا مـا وفِّـق فى البقـاء عـلى قيـد الحيـاة يكـون فى الغالـب بطـلاً. إنـه أقـوى، فهـو مـا زال يحمـل بداخلـه حيـاةً أطـول بعـد أن اصطفتـه القـوى العليـا.

الباقى على قيد الحياة
والحصانة

إن جسد الإنسان مجردٌ وقابلٌ للإصابة، وهو معرضٌ لأى هجومٍ بسبب رقة بنيانه، فما يبعده هو عن جسده بشتى السبل يمكن أن يصيبه عن بعدٍ، فيمكن لسيفٍ أو رمح أو سهم أن يخترق جسده، ورغم أنه اخترع الدرع والسلاح وشيد حول نفسه جدرانًا وقلاعًا، إلا أن ما يفضله من كل إجراءات الأمان هو شعوره بالحصانة. وقد حاول الحصول على ذلك بسبيلين مختلفين، وهما على طرفى نقيض تمامًا، ولذلك جاءت نتائجهما مختلفة. وقد حاول أولاً إبعاد الخطر عن نفسه فوضع بينه وبين الخطر مساحةً شاسعة لا يدركها البصر ليحمى نفسه من خلالها، فبذا يكون على نحوٍ ما قد وقى نفسه المخاطر ومنع الخطر، أما السبيل الآخر، وكان بمثابة فخره الدائم وهو ما تذخر به كل مراجع التراث القديم وتمجده، فهو بحثه عن الخطر ومواجهته، وجعله يدنو منه قدر الإمكان وراهن بكل شيءٍ على الحسم. ومن كل المواقف المتاحة انتقى حالة احتمال التعرض للموت ودفع بها إلى أقصى حدٍّ، واتخذ من شخصٍ ما عدوًا وتحداه، وربما كان هذا عدوًا له بالفعل، وربما كان هو الذى اختاره لذلك. ومهما كانت نتيجة ذلك فإن نيته قد اتجهت إلى أقصى حدود الخطر والمبادرة بالحسم. إنه

سبيل الأبطال، فما الذى يريده البطل؟ وإلى ماذا يهدف حقًا؟ إن المجد الذى كللت به كل الشعوب أبطالها هو مجدٌ متين لا يطويه النسيان ما دامت أعمالهم أدت إلى تغيير أو تعاقبت بسرعةٍ كافية. هو مجدٌ يغطى على دوافع هذه الأعمال الخفية والأكثر عمقًا. والبعض يفترض أن هدف هؤلاء كان المجد فقط، لكننى أعتقد أنهم قد اهتموا أساسًا بشىءٍ آخر، أى شعورهم بالحصانة الذى يكتسبونه بسرعةً مطردة. فالحالة الجلية التى يعيشها البطل بعد تجاوزه المخاطر هى حالة "الباقى على قيد الحياة"، فالعدو كان يستهدفه مثلما كان هو يستهدف العدو. وبهذا الهدف المعلن المباشر واجه كل منهما الآخر. فأما العدو فقتل، وأما البطل فلم يصبه شىءٌ فى أثناء النزال، ليلقى بنفسه فى خضم القتال التالى وهو مترعٌ بالحقيقة الهائلة فى بقائه على قيد الحياة. ولأنه لم يصب بشىءٍ من قبل فإنه لن يصيبه شىءٌ، فمن نصرٍ إلى نصر ومن عدوٍ قتيل إلى آخر يشعر هو بأمانٍ أعظم، فتتنامى حصانته، فهى دائمًا أفضل تسليحًا والشعور بها لا يعادله شعورٌ آخر، فإنّ منع الخطر الذى كمن بعيدًا عنه يكون هو الذى أرجأ الحسم. أما من يواجه الحسم فهو من يبقى بالفعل على قيد الحياة. ومن يواجه ذلك مرةً أخرى، أى من يكدس لحظات البقاء على قيد الحياة، هو هذا الذى يحصل على الشعور بالحصانة، فلا يكون بطلاً إلا إذا حصل عليها، وهو الآن يُقدِم على كل شىءٍ بعدما لم يعد هناك ما يخشاه. وقد نميل إلى أن إعجابنا به يزداد ما دام لديه ما يخشاه، لكن هذا هو مفهوم المتأمل الواقف خارج إطار الحدث، فالشعب يريد بطله محصنًا، لكننا أمام حالةٍ لا ينضب فيها معين أعمال البطل على الإطلاق. فهو قد ينشغل بالصراع مع حزمةٍ كاملة من الأعداء فيهاجمهم رغمًا عن ذلك، على ألا يفلت منهم فحسب بل إنه يقتلهم جميعًا، وبذا يكون قد رسخ كذلك شعوره بالحصانة فى آن واحد. وكان واحدٌ من أقدم رفاق جنكيز خان وأكثرهم إخلاصًا قد سأله: " أنت الحاكم، والناس يدعونك بطلاً، فما هى بشائر الفتح والنصر التى تفتح الطريق أمامك؟" فأجابه جنكيز خان: "قبل أن أرتقى عرش المملكة كنت أركض بجوادى على طريقٍ ما، وهناك صادفت ستة رجالٍ كانوا قد نصبوا لى كمينًا بقصد قتلى فى أثناء عبور أحد الجسور. وعندما اقتربت أشهرت سيفى وهاجمتهم فأمطرونى بوابلٍ من النبال، إلا أن السهام كافةً أخطأت هدفها ولم يمسنى أىٌ منها. أما أنا فقتلتهم جميعًا بسيفى وواصلت سيْرى سالمًا، وفى طريق العودة مررت بالموضع الذى قتلت فيه الرجال الستة، فإذا بجيادهم

الستة تُرِكت ضالةً بلا صاحب فأخذتها جميعًا إلى دارى".[75] إن هذه الحصانة فى النزال ضد ستةٍ من الأعداء فى آنٍ واحد رآها جنكير خان بشارةً أكيدة بالفتح والنصر.

الشغف بالبقاء على قيد الحياة

إن الرضا عن البقاء على قيد الحياة، الذى هو نوعٌ من اللذة، يمكن أن يستحيل ولعًا خطرًا لا يمكن إشباعه. وهو ينمو فى أحوالٍ خاصة به. فكلما زاد حجم كوم الموتى، بينما وقف أحدهم حيًا بين هؤلاء، وكلما تكررت معايشة هذا لمثل ذلك الكوم، صار الاحتياج للبقاء على قيد الحياة أشد قوةً وإلحاحًا. ومسار حياة الأبطال والمرتزقة يرمز إلى نشوء نوعٍ من الإدمان لا يمكن النجاة منه، والتفسير المعتاد لذلك يقول: إن مثل هؤلاء الناس لا يستطيعون التنفس إلا فى المخاطر. فالوجود بغير خطرٍ يعتبرونه وجودًا خاملاً تافهًا، فهم لا يستطيعون تذوق حياةٍ سلمية، فلا ينبغى الاستهانة بإغراء الخطر، إلا أننا ننسى أن هؤلاء لا يخوضون المغامرات وحدهم وأن هناك آخرين معهم صرعهم الخطر، فما يحتاجه هؤلاء حقًا ولا يمكنهم الاستغناء عنه هو تجدد الرغبة مرارًا فى البقاء على قيد الحياة. إلا أنهم فى سبيل تلبية رغبة الخطر لا يواجهون الخطر دائمًا بأنفسهم، فليس هناك من يستطيع وحده قتل أناسٍ بما يكفيه، ففى ساحات القتال يجتمع عددٌ بلا حصرٍ ممن ينشد الهدف نفسه، وعندما يكون هذا قائدهم المسيطر على تحركاتهم، وعندما تكون المعركة هى نتيجة لقرار شخصٍ بمفرده فإنه يستطيع أن ينسب كذلك النتيجة لنفسه، تلك النتيجة التى تحمّل

مسئوليتها عن كل القتلى، فقائد الميدان لا يحمل اسمه الفخرى بلا مقابل، فهو من يصدر الأمر مرسلاً رجاله إلى الموت فى مواجهة العدو، فإن انتصر كانت ساحة الموتى كلها من نصيبه، فهؤلاء سقطوا من أجله وأولئك سقطوا لأنهم كانوا ضده، ومن نصرٍ لنصر يبقى هو من بينهم جميعًا على قيد الحياة. أما الانتصارات التى يحتفل بها فهى أدق تعبير عما كان يقصده، وقيمتها تُقاس بعدد القتلى. ويكون النصر هزليًا إذا ما استسلم العدو من دون قتالٍ حقيقى وإذا كان عدد القتلى مجتمعين قليلاً. ويكون الانتصار مجيدًا إذا استبسل العدو فى الدفاع عن نفسه وكان انتزاع النصر شاقًا وكان ثمنه عددًا كبيرًا من الضحايا.

"كل أبطال الحروب وقادة الميدان تفوق عليهم يوليوس قيصر[76] بأنه حقق العدد الأكبر من المعارك وقتل العدد الأكبر من الأعداء. ففى أقل من عشر سنواتٍ خاض خلالها الحرب ضد شعوب الغال، واكتسح ثمانمئة مدينةٍ وأخضع لسلطانه ثلاثمئة من أجناس الشعوب، وهزم فى حروبٍ عديدة ثلاثة ملايين من البشر، فقتل من هؤلاء فى أثناء الحرب مليونًا وأسر العدد نفسه". ترجع هذه الشهادة إلى بلوتارخ الذى لا يمكن أن ننسب له غرامه بالحروب أو تعطشه للدماء، وهو واحدٌ من أكثر المفكرين إنسانيةً على مر العصور، لذا اكتسبت هذه الشهادة قيمتها، فهى على نحوٍ بالغ من الاتزان. فقد حارب قيصر ضد ثلاثة ملايين من الأعداء فقتل مليونًا وأسر مليونًا. وقد تفوق عليه فيما بعد قادة المغول وغير المغول. لكن هذه الشهادة من العصر القديم تدل على السذاجة، إذ تنسب كل ما جرى للقائد وحده، فالمدن التى اكتُسِحت والشعوب التى أُخضِعت وملايين الأعداء الذين هُزِموا وقُتلوا وأُسِروا، كل هذا يُنسَب لقيصر، وهذه ليست سذاجةً من بلوتارخ الذى عبر عنها على هذا النحو، إنما هى سذاجة التاريخ، فقد اعتدنا ذلك منذ تقارير حروب ملوك مصر القديمة. وحتى يومنا هذا لا يكاد شىءٌ يكون قد تغير من ذلك. هكذا بقى قيصر المحظوظ على قيد الحياة من بين أعداء كثيرين. ولا يُعتبَر ذكر إحصاء الخسائر الشخصية أمرًا فظًا فى هذه الأحوال، فالناس تعرفها لكن الرجل الكبير لا يهتم بها، وهى لم تكن جسيمةً فى حروب قيصر مقارنةً بقتلى الأعداء، لكنه على أية حال بقى هو على قيد الحياة من بين بضعة آلاف من الرومان وحلفائهم، فهو لم يخرج من ذلك خالى الوفاض وكانت هذه التوازنات المتباهية تنتقل من جيلٍ لجيل. ففى كلٍ منها كان أبطال الحروب الأشداء راضين عن أنفسهم. أما بقاؤهم على قيد الحياة من

بـين الجمـوع الغفـيرة فـكان ولعًـا دفعـوا بـه إلى حـد النـزق. وقـد بـدا حكـم التاريـخ هـو هدفهـم حتـى قبـل أن ينجحـوا فى تحقيـق ذلـك. ومـن اسـتوعب هـذا النـوع مـن البقـاء عـلى قيـد الحيـاة عـلى نحـوٍ أفضـل فقـد احتـل المكانـة الأسـمى والأكـثر أمانًـا. إن هـذا النـوع مـن المجـد فى نهايـة المطـاف لا يرتبـط بالأحـرى بالنـصر أو الهزيمـة بـل بالعـدد الهائـل مـن الضحايـا. وهنـا قـد نتسـاءل عـن شـعور نابليـون الحقيقـى فى أثنـاء حملتـه عـلى روسـيا.

صاحب السُلطة
كباقٍ على قيد الحياة

إن من يُبعِد الخطر عن جلده بكل السبل يمكن اعتباره نموذجًا لصاحب السُلطة المصاب بجنون العظمة، فبدلاً من تحديه للخطر ومواجهته، وبدلاً من اضطراره إلى حسم ذلك في معركةٍ ما، وهو حسمٌ قد لا يكون في صالحه، فإنه يبحث عن وسيلةٍ لإبعاد الخطر عنه، وذلك بالحيلة والحكمة. فهو سوف يخلق مساحةً شاغرةً حول نفسه يستطيع من خلالها رؤية وملاحظة دنو الخطر ليتدبر الأمر، وهو يفعل ذلك في محيطه كله، فهو يعى أنه يتعامل مع كثيرين يستطيعون كلهم التوجه ضده في آنٍ واحد، فيظل الخوف من الحصار متيقظًا داخله، فالخطر يحيط به وليس أمامه فقط، بل أعظم الخطر هو ما يأتيه من خلفٍ حيث لا يستطيع الانتباه إليه بالسرعة الكافية، ولهذا كان له عيونٌ في كل مكانٍ حتى لا يفوته أدنى صوت لحركةٍ قد تنطوى على نوايا عدائية. إن الموت هو ما يشمل كل المخاطر بالطبع. لكن المهم هو معرفة السبيل الصحيح لمواجهته. إن السمة الأولى والحاسمة لصاحب السلطة هو حقه في الحكم بالحياة أو الموت. وهو لا يسمح لأحدٍ بالوصول إليه، فمن يحمل إليه رسالةً أو من يدنو منه فإنه يتم تفتيشه بحثًا عن أسلحةٍ. وهكذا يُبعِد الموت عن نفسه بأسلوبٍ منظم، أما

هـو نفسـه فبوسـعه إصـدار الحكـم بالمـوت ويمكنـه إصـداره متـى وكيفـما تـراءى لـه. وحكمـه بالإعـدام يتـم تنفيـذه دائمًـا، إنـه العلامـة المميـزة لسـلطته، وهـو أمـرٌ مطلـق مـا بقـى حقـه فى الحكـم بالمـوت حقًـا خالصًـا لـه. ففـى الواقـع لا يخضـع لـه سـوى مـن يقـر لـه بالحـق فى قتلـه. أمـا التجربـة الأخـيرة فى الطاعـة، التـى تحسـم الأمـر، فإنها تبقـى كـما هـى دائمًـا. وهـو يقـوم بتربيـة جنـوده عـلى نـوعٍ مـن الاسـتعداد المـزدوج، فهـم يُرسَـلون مـن أجـل قتـل أعدائـه وهـم مسـتعدون لتلقـى المـوت مـن أجلـه هـو، لكـن كذلـك كل رعايـاه الآخريـن مـن غـير الجنـود يعرفـون أنـه بوسـعه قتلهـم فى أى وقـت. فالفـزع الـذى ينـشره حولـه هـو حـقٌ لـه، وبهـذا الحـق يتـم تمجيـده إلى أقـصى حـدٍ حتـى يصـل ذلـك حـد عبادتـه فى حـالاتٍ متطرفـة. فاللـه نفسـه قـد أصـدر حكمـة بالمـوت عـلى جميـع البـشر وعـلى كل مـن سـيولدون بعدهـم، وموعـد تنفيـذ ذلـك يخضـع لمشـيئته، ولا يخطـر ببـال أحـدٍ الاعـتراض عليـه، فهـذا أمـرٌ محـال. إلا أن أصحـاب السـلطة فى الدنيـا لا يتمتعـون بمثـل هـذا السـلطان الإلهـى، فهـم لا يعيشـون للأبـد ويعـرف رعاياهـم أن لحيـاة هـؤلاء نهايـةً، بـل إن هـذه النهايـة يمكـن التعجيـل بهـا. فالسـلطة كذلـك تفـضى إلى مثـل هـذ النهايـة، ومـن يشـق عصـا الطاعـة يكـون قـد أعلـن تصديـه للسـلطة، كـما أنـه ليـس هنـاك حاكـمٌ يشـعر باطمئنـانٍ دائـم لطاعة شـعبه لـه. فـما دام هـؤلاء مسـلّمين لـه بحقـه فى قتلهـم فـإن بوسـعه النـوم بأمـان، أمـا إذا اعـترض أحدهـم عـلى حكمـه فإنـه يكـون بذلـك قـد عـرض الحاكـم للخطـر، وحركـة هـذا الشـعور بالخطـر لا تهـدأ داخـل صاحـب السـلطة. وفيـما بعـد، عندمـا يتطـرق الحديـث عـن طبيعـة "الأمـر"، سـوف يتضـح اطـراد مخاوفـه كلـما ازداد تنفيـذ أوامـره، ولا يمكـن أن تسـكن شـكوكه إلا إذا ضرب لهـا مثـلاً فى الواقـع، فمـن أجـل تهدئـة هـذه الشـكوك يقـوم بعمليـة إعـدامٍ مـن دون أن يكـون للضحيـة علاقـةٌ كبـيرة بذلـك. وهـو يحتـاج مـن حـينٍ لآخـر لعمليـات إعـدامٍ تتزايـد كلـما اطـردت وتـيرة شـكوكه. أمـا أكـثر مـن يأمـن جانبهـم مـن رعيتـه، أى الأكـثر كـمالاً، فهـم مـن ماتـوا فى سـبيله. فـكل عمليـة إعـدامٍ، يكـون هـو مسـئولاً عنهـا، تمنحـه مزيـدًا مـن القـوة، فعـلى هـذا النحـو يكتسـب هـو قـوة بقائـه عـلى قيـد الحيـاة. وليـس بالـضرورة أن يكـون ضحايـاه قـد تمـردوا عليـه فى الواقـع، لكـن كان بوسـعهم التمـرد عليـه، ويتحـول خوفـه - ربمـا بأثـر رجعـى فيـما بعـد - نحـو أعـداءٍ حاربـوا ضـده فأدانهـم، فتـم قتلهـم وبقـى هـو عـلى قيـد الحيـاة. فأمـا حقـه فى إصـدار حكـمٍ بالمـوت فيصـير سـلاحًا بيـده مثـل أى سـلاح، بـل إنـه أكـثر تأثـيراً. وغالبًـا مـا رأى حـكامٌ برابـرة وشرقيـون أهميـةً كبـيرة فى تكديـس

مثل هؤلاء الضحايا فى أقرب مكانٍ حتى يكونوا أمام أعينهم دائمًا. وحتى إذا ما تعارضت التقاليد مع مثل هذا التكديس كان أصحاب السلطة يحافظون على هذه الفكرة. وقد روى عن الإمبراطور الرومانى دوميتيان روايةٌ غريبة من هذا النوع. فكانت الوليمة التى ابتدعها ولم تتكرر مرةً أخرى على هذا النحو قد كشفت، على أوسع نطاق، الطبيعة المتجذرة لسلطانٍ مصاب بجنون العظمة[77]:

"فى مناسبةٍ أخرى كان دوميتيان قد جهز سمرًا لأعرق الشيوخ وأنبل الفرسان على النحو التالى: أعد مكانًا طلى كل شىء فيه باللون الأسود القاتم، السقف والجدران والأرض. وأعد مخيمًا قفرًا باللون نفسه أقيم على أرضٍ عارية. ثم دعا ضيوفه ليلاً دون أتباعهم. وبجوار كل واحدٍ منهم وضع لوحًا على هيئة شاهد قبرٍ حمل اسم الضيف، وأضيف إلى ذلك قنديلٌ صغير كالذى يُعلَّق بالمقابر. ثم دخل المكان صبيةٌ أقوياء البنية، عرايا، تم طلاؤهم أيضًا باللون الأسود مثل الأشباح، فقاموا بأداء رقصةٍ عند أقدام الضيوف. ثم قُدِّم بعد ذلك للضيوف الطعام الذى يُقدَّم عادةً كأضحياتٍ من أجل أرواح الموتى، وكان كل شىء أسود فى صحافٍ من اللون نفسه، فأخذ كل ضيفٍ يرتعد، واستبد به الخوف متوقعًا أن رأسه سوف يُجتَّز فى أية لحظةٍ. وفيما عدا دوميتيان كان الجميع قد أصابهم الخرس، فساد صمتٌ مميت كأن الناس انتقلوا إلى عالم الموتى بالفعل. أما القيصر فصار يتحدث بصوتٍ عالٍ عن الموت والمذابح وفى النهاية أطلق سراحهم. لكنه قبل ذلك كان قد أبعد عبيدهم الذين كانوا بانتظار هؤلاء فى البهو، ثم أمر لضيوفه بعبيدٍ آخرين لا يعرفونهم، ودعاهم للرحيل فى عرباتٍ أو محفات. وهكذا كان قد شحنهم بأكبر قدرٍ من الخوف. فما إن وصل كل ضيفٍ داره ليتنفس الصعداء، حتى كان وصله رسولٌ من القيصر، وبينما كان كلٌ منهم قد أيقن أن ساعته حانت كان قد أُدخِلَ إليه ذلك اللوح من الفضة، كما حمل آخرون أشياء مختلفة، من بينها تلك الصحاف من المعدن الثمين التى قُدِّمت لهم فى أثناء الوليمة. وفى نهاية المطاف ظهر لدى كل ضيفٍ ذاك الصبى الذى كان قد انتظره كشبح روحه إلا أنه بدا حينئذٍ نظيفًا مزدانًا بالحلى. وهكذا صاروا يتسلمون هدايا بعد أن قضوا ليلتهم فى خوف قاتل".

كانت هذه هى "وليمة الجثث" كما أسماها الشعب. فقد كان الرعب المقيم الذى أسر به القيصر ضيوفه قد أدى بهم إلى فقدان النطق فلم يتحدث سواه، وكان حديثه عن الموت والقتل، فبدا الأمر كأنهم موتى وهو الوحيد الباقى على

قيد الحياة. وبهذه الوليمة كان قد وحد كل ضحاياه، الذين كان عليهم أن يعتبروا أنفسهم كذلك. وقد بدا هو متنكرًا فى هيئة مضيف إلا أنه فى الحقيقة كان "هو الباقى على قيد الحياة" وقد تحدث إلى ضحاياه المتنكرين فى هيئة ضيوف، لكن حالة الباقى على قيد الحياة هذه لم تنتج عن تراكم فحسب بل إنها تنامت على نحوٍ ماكر ماهر. فرغم أنهم كانوا كالموتى فإنه كان بوسعه دائمًا قتلهم. وقد كانت مسألة البقاء على قيد الحياة قد ملكت عليهم كيانهم، فإذا ما أطلق سراحهم يكون قد عفا عنهم، إلا أنه جعلهم يرتعدون ثانيةً عندما أسلمهم لعبيدٍ غرباء، فعندما وصلوا ديارهم بعث إليهم ثانيةً برسل موت، فجاء هؤلاء إليهم بهدايا، بل بأكبر هدية، أى حياتهم، فكان بوسعه على نحوٍ أو آخر أن ينقلهم من الحياة إلى الموت ويعيدهم مرةً أخرى إلى الحياة. فتلذذ بهذه اللعبة عدة مرات، فهى التى تمنحه الشعور الأسمى الذى لا يمكن تصور ما هو أعلى منه.

نجاة فلافيوس يوسيفوس

يذكر تاريخ الحرب بين الرومان واليهود - التى نشبت فى أثناء فترة شباب دوميتيان - حادثًا يكشف بوضوحٍ تام طبيعة الباقى على قيد الحياة. وكانت قيادة الجانب الرومانى بيد فسبسيان والد دوميتيان، وقد حدث فى أثناء هذه الحرب أن عسكر فسبسيان قد وصلوا إلى مرتبة القياصرة. وكان اليهود منذ زمنٍ قد تمردوا ضد حكم الرومان. وعندما انفجر تمردهم ضدهم على نحوٍ خطر تم تعيين بعض اليهود كقادةٍ فى أجزاء مختلفة من البلاد. وكان على هؤلاء جمع الناس للحرب، وإعداد المدن لوضعٍ جيد حتى تكون لها فرصة النجاح فى الدفاع عن نفسها ضد الفرق الرومانية التى ستصل قريبًا على وجه اليقين.

كان يوسيفوس ما زال شابًا لم يكد يتم الثلاثين من عمره حين تسلم قيادة مقاطعة الخليل، فأبدى حماسًا بالغًا فى تنفيذ مهمته. وفى كتابه "تاريخ الحروب اليهودية" وصف العوائق التى كان عليه مجابهتها، أى الفُرقة بين المواطنين، والخصوم الذين دبروا مكائد ضده وجمعوا قواتٍ خاصة بهم، وامتناع مدنٍ عن الاعتراف بقيادته أو استقلال أخرى ثانيةً بعد فترةٍ من الزمن. لكنه بجهدٍ مدهش كوَّن جيشًا وإن كان مسلحًا تسليحًا سيئًا وأعد قلاعًا لملاقاة الرومان الذين قدموا أيضًا بقيادة فسبسيان ومعه ابنه تيتوس الذى كان فى عمر يوسيفوس. وفى روما كان نيرون ما زال قيصرًا. أما فسبسيان فكان قد اكتسب شهرة قائدٍ محنك بعد

تفوقـه في سـاحات معـارك عديـدة. فـكان أن اقتحـم الخليـل وحـاصر يوسـيفوس مـع جيـش اليهـود بقلعـة جوتاباتـا. وقـد دافـع اليهـود ببسـالةٍ متناهيـة وعـرف يوسـيفوس الموهـوب كيـف يـردع كل هجـومٍ، فتكبـد الرومـان خسـائر جسـيمة. وقـد اسـتمرت المقاومـة طيلـة سـبعة وأربعـين يومًـا. وفي النهايـة نجـح الرومـان في الاقتحـام عـن طريـق الحيلـة - فقـد كان الجميـع نائمـين فلـم يلحظوهـم إلا مـع بـزوغ النهـار- فحـل يـأسٌ رهيـب باليهـود فصـاروا ينتحـرون في جماعـات كبـيرة وأفلـت يوسـيفوس. أمـا مصـيره بعـد احتـلال المدينـة فـأودّ عرضـه بكلماتـه هـو، لأنـه لا يوجـد، حسـب معرفتـي بـالآداب العالميـة، مثـل هـذا التقريـر عـن "بـاقٍ عـلى قيـد الحيـاة"، فقـد قـدم يوسـيفوس بـإدراكٍ مذهـل وفهـمٍ لجوهـر "الباقـي عـلى قيـد الحيـاة" وصفًـا لـكل مـا قـام بـه للإفـلات مـن ذلـك، ولم يمثـل صدقـه عبئًـا عليـه لأنـه كتـب هـذه الشـهادة بعـد أن صـار ينعـم بالكـرم الشـديد لـدى الرومـان[78]:

"بعـد سـقوط جوتاباتـا قـام الرومـان بالبحـث عـن عدوهـم اللـدود بـين الأمـوات وفي أركان كل الملاجـئ الخفيـة بالمدينـة، وكان دافعهـم إلى ذلـك هـو شـعورهم بالمـرارة نحـو يوسـيفوس مـن ناحيـةٍ، ومـن ناحيـةٍ أخـرى كان اعتقـال القائـد أملهـم المنشـود الـذي يـكاد يكـون بمثابـة نهايـة الحـرب، إلا أنـه اسـتطاع بعـد سـقوط المدينـة أن يتسـلل مـن بـين صفـوف الأعـداء كأنـه حظـى بتأييـد إلهـى ليقفـز إلى جـب عميـق كان يمتـد إلى جـوار كهـف واسـع لا يمكـن رؤيتـه مـن أعـلى. وفي هـذا المخبـأ صـادف أربعـين رجـلاً مـن عليـة قومـه كانـوا قـد تجهـزوا بمؤونـة تكفيهـم عـدة أيـام. ولمـا كان الأعـداء قـد احتلـوا الموضـع المحيـط كلـه فإنـه كان يختبـئ نهـارًا ليصعـد ليـلاً متوخيًـا سـبيل الفـرار مسـتطلعًا نقـاط الحراسـة. فلـما كانـت الحراسـة مشـددةً بسـببه عـلى المـكان مـن كل جانـب حتـى لا يفكـر في الهـروب سرًا فإنـه كان يعـود ثانيـةً إلى الكهـف. وقـد واصـل اسـتطلاعه عـلى هـذا النحـو ليومـين وفي اليـوم الثالـث أفشـت سره امـرأةٌ تـم أسرهـا بعـد إقامتهـا بالكهـف. وفي الحـال أرسـل فسبسـيان اثنـين مـن المفوضـين بمهمـة وعـد يوسـيفوس بالأمـان حـال مغادرتـه للكهـف. فمـضى إليـه المفوضـان فخاطبـاه وضمنـا لـه حياتـه، إلا أنهـما لم يسـتطيعا إحـراز أى نجـاح لديـه لأنـه كان يعـرف مـا ينتظـره مـن جـراء الخسـائر المختلفـة التـى ألحقهـا بالرومـان. ولم تسـتطع رقـة حاشـية المفاوضـين تغيـير رأيـه عـن المصـير الـذي ينتظـره، ولم يسـتطع هـو الفـكاك مـن مخاوفه بأنهـم يسـعون فقـط لإغرائـه بالخـروج مـن أجـل إعدامـه. وفي النهاية أرسـل فسبسـيان مبعوثًـا ثالثًـا تمثـل في شـخص الرسـول نيكانـور الـذي يعرفـه يوسـيفوس جيـدًا، بـل إنـه

كان صديقًا قديمًا له. وقد جاء هذا وشرح تجارب الرومان المعتدلة مع أعدائهم المدحورين، وأعلمه أيضًا أن قادة الجيش لا يكرهونه بقدر ما هم معجبون ببسالته، وأن القائد العام ليس لديه النية على الإطلاق لإعدامه، فقد كان بوسعه تنفيذ هذه العقوبة ضده من دون الاتصال به، بل إنه قد حزم أمره على منحه الحياة كرجلٍ شجاع. إضافة إلى أنه لا يخطر ببال أحدٍ أن يقوم فسبسيان بإرسال صديق يوسيفوس إليه بنية الخداع مستترًا بقناع الصداقة ليحنث بوعده، وبنفس القدر لم يكن له، أى نيكانور، أن يخدع صديقه، إلا أن فشل نيكانور فى التوصل إلى حلٍ مع يوسيفوس أثار ذلك حنق الجنود فقرروا قذف النيران داخل الكهف، إلا أن قائدهم منعهم من ذلك لأنه كان يريد الحصول على الرجل حيًا. وبينما كان نيكانور قد أثر فيه وأخذت القوة المعادية تطلق سيلاً من التهديدات انتعشت فى ذاكرة يوسيفوس تلك الرؤى العظيمة التى أوحى فيها الله إليه بنكبة اليهود القادمة، وبالمصير الذى سيؤول إليه مستقبل القياصرة الرومان. وكان يوسيفوس يحسن تفسير الأحلام، فهو الكاهن ابن الكاهن الخبير بحكمة الكتب المقدسة، كما كان بوسعه تأويل الإشارات مزدوجة المعنى التى أوحى بها الله. وفى هذه اللحظة تحديدًا حلت به الرحمة الإلهية ليرى بوعيه الباطن تلك الأحلام المفزعة التى داهمته قبل قليل، فتوسل فى صمتٍ إلى الله بالدعاء التالى: "إن كنت قدرت انهزام شعب اليهود وأنت خالقه، وكان كل الفرح من نصيب الرومان، واصطفيتنى بكشف الغيب، فها أنا أمد يدى إلى الروم وأبقى على قيد الحياة، فأدعوك لتكون شاهدى بأنى لم أمضِ إليهم خائنًا وإنما عبدٌ لأمرك". وبعد هذا الدعاء أعطى موافقته لنيكانور، فلما أدرك اليهود الموجودون معه بالمخبأ أنه قرر الاستسلام لوعد الأعداء أحاطوا به فى جمعٍ كثيف، وأمطروه باللوم مذكرين إياه بعدد اليهود الذين ماتوا فى سبيل الحرية مؤمنين بوعوده لهم، أما هو صاحب الشهرة الواسعة بالإقدام فيريد الآن الحفاظ على حياته كعبد، وهو من يعرف الكثيرون فطنته يأمل رحمة هؤلاء الذين استبسل فى النضال ضدهم، فهل نسى نفسه تمامًا؟ فلسوف يبكيه قانون الآباء ولسوف يخذل هو الله إن كان آثر الحياة إلى هذا الحد، بعد أن أصابه فوز الروم بالعمى، أما هم فسيظلون متمسكين بكرامة شعبهم وأعلنوا استعدادهم للفناء معه فيقتل كقائد لجيش اليهود طواعية، فإذا أبى مات قسرًا كخائن، وشهروا سيوفهم فى وجهه مهددين بقتله إن استسلم للروم فخشاهم يوسيفوس، لكنه رأى فى ذلك خيانةً إذا ما مات

قبل إعلان ما كلفه الله به، وتحت وطأة ورطته حاول استخدام مبرراتٍ عاقلة ضدهم، فقد يكون الموت فى الحرب أمرًا جميلاً لكن طبقًا لأعراف الحرب يكون ذلك على يد العدو المنتصر، أما أحط دركات الجبن فهى قتل النفس، فقتل النفس يعارض الجوهر الأعمق لكل ما هو حى، وهو فى الوقت نفسه إثمٌ يُقترف ضد الله البارئ. فالله هو من منح الإنسان الحياة وعلى الإنسان التسليم له بنهايتها، فأما من يقتلون أنفسهم بأيديهم فإن الله يمقتهم وينزل عقابه بنسلهم، فلا يجدر بهم أن ينسبوا إلى الله ما لحق بهم كبشر من مصائب وعليهم ألا يقيموا عثراتٍ فى سبيل النجاة إن أتيحت لهم النجاة. فليس عارًا أن يبقوا على قيد الحياة وهم من أثبتوا بسالتهم بأعمالهم بما فيه الكفاية، فإن لقوا الموت فليكن ذلك على يد المنتصرين، أما هو فلم يخطر بباله المضى إلى أعدائه فلا يكون سوى خائن، لكنه يأمل خيانة الروم له ليهنأ بقتلهم إياه رغم وعودهم، ولسوف يعاقبهم الله لحنثهم بالوعد فيكون ذلك عزاءً له أعظم من النصر. هكذا أفرغ يوسيفوس ما فى جعبته لإقناع رفاقه بالعدول عن الانتحار، إلا أن اليأس كان قد أصابهم بالصمم تجاه كل الاحتمالات بعد أن وهبوا أنفسهم للموت منذ زمنٍ بعيد، فلم يكن لكلامه إلا مضاعفةً لمرارتهم وقد رموه بالتخاذل وأحدقوا به من كل جانبٍ بسيوفٍ مشهرة، وبدا الجميع على أهبة قتله فى الحال. وبدافع الورطة المطردة داخله دعا أحدهم باسمه، مسددًا إلى عينى آخَر نظرة القائد، ممسكًا بيد الثالث، وقد غير وجهة نظر الرابع بالرجاء، وهكذا أفلح فى كل مرةٍ أن يدفع عن نفسه السيف القاتل. فقد كان مثل الحيوان البرى المحاصر الذى يتجه دائمًا نحو هذا الذى يبدى إشارة للهجوم عليه. فلما كانوا هم أنفسهم - فى أثناء هذه الورطة الشديدة - ما زالوا يقدرون مكانة القائد فقد أصيبت أذرعهم بالشلل، فسقطت الخناجر من أيديهم وأغمد كثيرون طواعيةً سيوفهم التى شهروها ضده. ورغم حالة اليأس إلا أن يوسيفوس لم يتخل عن تفوقه بل زاد على ذلك معتمدًا على عناية الله مراهنًا على حياته، فقال لرفاقه ما يلى: "إن كنا قررنا الموت، وتمسكنا بهذا القرار فلنجعل القرعة هى التى تحسم من منا سيقوم بقتل الآخر، فكل من أصابته القرعة قُتل بيد من يعقبه، وهكذا سوف تصيب قرعة الموت الجميع فلا يضطر أحدٌ إلى قتل نفسه لأن ذلك سيكون إثمًا عظيمًا إن نَدِّم الأخير فجأةً لينجو بحياته بعد موت رفاقه". فكان أن أعاد هذا الاقتراح الثقة إليهم مرةً أخرى. وبعد إعلان الجميع رضاهم

عـن ذلـك شـارك هـو نفسـه بالاقـتراع. وهكـذا صـار عـلى مـن تصيبـه القرعـة أن يـدع طواعيـةً أمـر قتلـه لمـن يعقبـه، وقـد أدركـوا أن القائـد سـيموت عـلى هـذا النحـو بعـد أن رأوا أن المـوت مـع يوسـيفوس أفضـل مـن الحيـاة. وفى نهايـة المطـاف لم يتبـق سـوى يوسـيفوس مـن خـلال صدفـةٍ ربانيـة أو رعايـةٍ إلهيـة ومعـه رفيـقٌ آخـر[79]، ولأن القرعة لم تكـن قـد أصابتـه كان هـو آخـر مـن سـيلطخ الـدم يديـه بقتـل رفيقـه، وبذلـك اسـتطاع إقنـاع رفيقـه بالاستسـلام للرومـان، وبذلـك يكـون قـد أنقـذ حياتـه. هكـذا خـرج يوسـيفوس مـن حربـه ضـد الرومـان سـالمًا كـما خـرج مـن المواجهـة مـع رفاقـه ليقـوده بعـد ذلـك نيكانـور إلى فسبسـيان. وقـد تدفـق النـاس جميعًـا ليشـاهدوا قائـد اليهـود فتزاحمـت الجمـوع حولـه وارتفـع صياحهـم، فسـعد البعـض بـأسره بينـما كان بعـضٌ آخـر يـصرخ مهـددًا حينـما شـق آخـرون طريقًـا بالقـوة كى يـروه عـلى نحـوٍ أفضـل مـن أقـرب موضـعٍ، أمـا مـن وقفـوا بعيـدًا فكانـوا يصرخـون: "الإعـدام للعـدو" أمـا الأكـثر قربًـا فكانـوا يتذكـرون أعمالـه متعجبـين مـن تبـدل مصـيره. ولم يكـن مـن بـين الضبـاط مـن لم يتأثـر بمنظـره رغـم كل مـا كانـوا يضمرونـه نحـوه مـن مـرارة. وعلى وجـهٍ خـاص كان النبيـل "تيتـوس"، المكافـئ لـه فى العمـر، قـد غلبـه الإعجـاب بمثابـرة يوسـيفوس عـلى النكبـة كـما تعاطـف مـع حداثـة سـنة، فتقـرب إلى أبيـه بـكل مـا أوتى مـن تأثـيرٍ عليـه، إلا أن فسبسـيان وضعـه تحـت حراسـةٍ مشـددة للغايـة بعدمـا نـوى إرسـاله إلى نـيرون. فلـما سـمع يوسـيفوس بذلـك طلـب لقـاءً مـع فسبسـيان عـلى انفـراد. فأمـر القائـد العـام بخـروج كل الحاضريـن فيـما عـدا ابنـه وصديقـين مقربـين، إلا أن يوسـيفوس تحـدث إليـه عـلى هـذا النحـو: "فسبسـيان! إن كنـت تظـن أننـى لسـت سـوى أسـيرٍ وقـع فى يـدك فأنـت مخطـئٌ، فإننـى أمثـل بـين يديـك رسـولاً أوحـى إليـه بأمـور خطـرةٍ، فعـلىَّ، أنـا يوسـيفوس، إبلاغـك أمـر اللـه. وإن لم يكـن الأمـر كذلـك فقـد كان عـلىَّ، أنـا العـالم بأعـراف اليهـود، أن أُقتـل كقائـدٍ عسـكرى، فهـلا شـئت إرسـالى إلى نـيرون؟ لمـاذا؟ فخلفـاؤه الذيـن سـوف يسـبقونك إلى العـرش لـن يبقـوا طويـلاً، فأنـت نفسـك، فسبسـيان، سـوف تصـير إمبراطـورا قيـصرًا وسـيخلفك ابنـك هـذا! فلتحكـم قيـد أغـلالى عـلى نحـوٍ أشـد واحتفـظ بى لمـا بعـد مـن أجـل نفسـك، لأنـك سـوف تصبـح قيـصرًا ومـولى ليـس عـلىَّ فحسـب وإنمـا عـلى اليابسـة والمـاء وكل فصيـل البـشر. فلتجعـل عـلىَّ أكـثر الحراسـة شـدةً، فـإن كنـتُ جدفـتُ باسـم اللـه افـتراءً فلتعدمنـى عـلى نحـوٍ أسـتحقه!". لم يصـدق فسبسـيان هـذا الـكلام بدايـةً ونـزع إلى اعتبـاره حيلـةً مـن يوسـيفوس يحـاول بهـا إنقـاذ حياتـه، إلا أنـه شـيئًا فشـيئًا أخـذ

يؤمـن بذلـك، فقـد أيقـظ اللـه نفسـه فيـه فكـرة العـرش، ولمّح إليـه كذلـك بإشـاراتٍ عـن توليـه الحكـم فى المسـتقبل كـما أدرك أيضًـا أن أسـيره كان قـد تنبـأ بأمـورٍ أخـرى. وكان أحـد أصدقـاء فسبسـيان الـذى حـضر اللقـاء السـرى قـد عـبر عـن دهشـته مـن أن يوسـيفوس لم يتنبـأ بتدمـير "جوتاباتـا" ولا بوقوعـه فى الأسر: أمـا مـا يزعمـه فقـد يكـون ربمـا ثرثـرة لا معنـى لهـا لا يبغـى مـن ورائهـا سـوى كسـب رضـا عـدوه، فرد يوسـيفوس عـلى ذلـك بمـا قالـه لأهـل جوتاباتـا بـأن المدينـة سـوف تسـقط بعـد سـبعةٍ وأربعـين يومًـا، أمـا هـو فسـيتم أسره حيًـا. فـكان أن أرسـل فسبسـيان سرًا مـن يحصـل عـلى معلومـاتٍ مـن الأسرى فى هـذا الشـأن، فلـما ثبتـت صحـة مـا قالـه يوسـيفوس بـدأ يؤمـن كذلـك بنبوءتـه لشـخصه. ورغـم أنـه أبقـى عـلى يوسـيفوس بالسـجن مصفـدًا بالأغـلال فإنـه خلـع عليـه رداءً فاخـرًا وأشـياء ثمينـة أخـرى، وأعقـب ذلـك بالمعاملـة الحسنة وقد كان الفضل فى كل ذلك يعود إلى تيتوس.

ينقسـم مـا رواه يوسـيفوس إلى ثلاثـة فصـول. ففـى مـرةٍ كان قـد أفلـت مـن مذبحـة قلعـة جوتاباتـا المحتلـة، فمـن لم ينتحـر مـن المدافعـين عـن المدينـة قتلـه الرومـان وأسروا الآخريـن، أمـا يوسـيفوس فقـد نجـا بالكهـف بجـوار الجـب، وهنـاك لقـى أربعـين رجـلاً وصفهـم هـو نفسـه بالنبـلاء الذيـن كانـوا جميعًـا "باقـين عـلى قيـد الحيـاة" مثلـه وقـد تـزودوا بمؤونـةٍ أمـلاً فى الاختبـاء هنـاك بعيـدًا عـن أعـين الرومـان حتـى يجـدوا سـبيلاً للفـرار. إلا أن مـكان يوسـيفوس، الـذى جَـدَّ الرومـان فى أثـره، قـد أفشـت سره امـرأةٌ مـا لهـؤلاء، وبـذا انقلـب الموقـف رأسًـا عـلى عقـب ليبـدأ الفصـل الثـانى وهـو الأكـثر إثـارةً فى التقريـر كافـة. وهـو مـا يمكـن اعتبـاره فريـدًا مـن نوعـه بفضـل صراحـة مـا شـهد بـه البطـل، فقـد وعـده الرومـان بالإبقـاء عـلى حياتـه، فحالمـا صـدق هـو ذلـك سـقط عداؤهـم لـه. وهكـذا يكـون الأمـر هنـا فى مغـزاه الأعمـق هـو التسـليم بصـدق الوعـد، فـكان أن خطـر ببالـه فى لحظـةٍ مواتيـة رؤيـة كانـت حذرتـه مـن اندحـار اليهـود، وقـد اندحـروا عـلى نحـوٍ مـا فقـط بالقلعـة التـى كان يتـولى قيادتهـا وكان الفـوز حليـف الرومـان، أمـا الرؤيـة التـى أعلمتـه بذلـك فكانـت مـن اللـه، وبعـون اللـه أيضًـا عـرف سـبيله إلى الرومـان. فاعتمـد عـلى اللـه ليتوجـه نحـو أعدائـه الجـدد، أى اليهـود ممـن كانـوا معـه بالكهـف، وقـد شـاءوا الإقـدام عـلى الانتحـار حتـى لا يسـقطوا فى أيـدى الرومـان. أمـا هـو قائدهـم الـذى حرضهـم عـلى القتـال فـكان لزامًـا عليـه أن يكـون أول المتقبلـين لهـذا النـوع مـن النهايـة، إلا أنـه حـزم أمـره بالبقـاء عـلى قيـد الحيـاة، فحـاول إقناعهـم وحـاول بعـشرات الحجـج أن

يثنيهم عن رغبتهم فى الموت. لكنه لم يصادف نجاحًا ما، فكل ما كان يقول به ضد الموت كان يزيد إصرارهم على قرارهم الأعمى، وسخطهم عليه، الذى شاء التخلص منه، فلم تبق أمامه فرصةٌ للنجاة إلا بقتل بعضهم البعض ليظل هو الأخير، فاستسلم لهم فى الظاهر وخطرت له فكرة القرعة. وإذا تأملنا فكرة الاقتراع هذه فإنه سيكون من الصعب ألا نصدق أنها لم تكن خديعةً، وكان هذا هو الموضع الوحيد فى رواية يوسيفوس الذى ظل غامضًا، فقد نُسبت إلى الله أو الصدفة تلك النهاية العجيبة لهذا الاقتراع على الموت، لكن ذلك يبدو كأنه تُرِك للقارئ تخمين مسار الأمر الحقيقى، فما عقب ذلك كان أمرًا مذهلاً، فأمام عينيه ذبح رجاله بعضهم البعض، وهو ما لم يقع دفعةً واحدة، إنما بالتتابع، فبين كل موتٍ كانت تُجْرَى القرعة ليُقتَل كلٌ منهم بيد رفيقه، ليُقتَل هذا أيضًا على يد من اختارته القرعة، وكان تأنيب الضمير الذى أحس به يوسيفوس تجاه الانتحار لا يسرى فيما يبدو على القتل، وقد تمنى هو الموت لكل واحدٍ منهم على حدة وكلهم جميعًا، ولم يتمن لنفسه سوى الحياة، أما هم فقد رحبوا بالموت آملين أن قائدهم سيموت معهم، ولم يكن بوسعهم تصور أنه هو الأخير من بين الجميع الذى سوف يبقى، ومن غير المحتمل أن تكون هذه الفكرة قد خطرت لهم قط عندما اقتضى الأمر أن يكون هناك "أخير" كان تحسب هو لذلك، فقال لهم إنه سيكون إثمًا عظيمًا أن يندم آخرهم فجأةً بعد موت رفاقه لينجو بحياته، وكان قد حدد هذا الإثم بدقة، فأقل ما يمكن فعله بعد موت كل الرفاق، سيلتزم هو بفعله. وبحجة انتمائه إليهم فى هذه اللحظة الأخيرة، أى أنه واحدٌ منهم، أرسلهم جميعًا إلى الموت وبذا نجا بحياته. أما هم فلم يعرفوا شعوره وهو يراهم يُقتَلون، بعد أن جمعهم مصيرٌ مشترك معتقدين أنه سيشاركهم إياه، إلا أنه كان خارج الجمع ولم يفكر ألا يكون هذا المصير إلا مصيرهم فقط، فماتوا لينجو هو بنفسه. هكذا كانت الخديعة كاملة. إنها خديعة كل القادة، فهم يتظاهرون أنهم يسبقون رجالهم إلى الموت وهم فى حقيقة الأمر يسوقونهم إلى الموت. فالحيلة دائمًا كانت الحيلة نفسها. فالقائد يريد البقاء على قيد الحياة وهو يتشدد فى ذلك، فإن كان له أعداءٌ بقى بعدهم على قيد الحياة وكان ذلك أمرًا محمودًا، فإن لم يوجد هؤلاء كان هناك رجاله أنفسهم، وفى كل الأحوال يستغل هو كليهما بالتبادل أو فى وقتٍ واحد. وهو يستغل الأعداء صراحةً، فهم أعداءٌ من أجل هذا الغرض. أما رجاله فلا يستطيع استغلالهم إلا على نحوٍ

غير مباشر. وفى كهف يوسيفوس تتجلى هذه الحيلة، ففى الخارج يقف الأعداء، وهم المنتصرون، إلا أنهم كانوا حولوا تهديدهم السابق إلى وعد. وفى الداخل وقف الأصدقاء، وكانوا لا يزالون على إيمانهم السابق بقائدهم، هذا الإيمان الذى شحنهم هو نفسه به، وقد امتنعوا عن قبول الوعد الجديد. وبهذا تحول الكهف الذى رأى فيه القائد النجاة إلى خطرٍ عظيم يتهدده، فاحتال على أصدقائه الذين خُدعوا فيه وفى أنفسهم، ليسوقهم إلى الموت الجماعى. ومنذ البداية كان ذلك ما جال بخاطره ليصير فى النهاية واقعًا. فقد بقى هو فقط مع رفيقٍ له ولأنه كما قال هو لا يريد أن يلطخ يديه بدم قريبه أقنع رفيقه هذا بأن يسلم نفسه إلى الرومان، فهذا هو "وحده" الذى كان يستطيع إقناعه بالبقاء على قيد الحياة، أما أربعون معًا فهو أمرٌ لم يكن ليقدر عليه. فنجا كلاهما بالاستسلام للرومان فخرج بهذا سالمًا من الصراع مع رجاله، وكان هذا الانطباع تحديدًا هو ما وصل إلى الرومان، أى الشعور الأعلى بحياة شخصه الذى تغذى بالقضاء على رجاله. أما نقل هذه السلطة، المكتسبة حديثًا، إلى فسبسيان فكان الفصل الثالث فى قصة نجاة يوسيفوس، وقد تجلى ذلك فى وعد نبوى، فقد كان الرومان على معرفةٍ تامة بإيمان اليهود العميق بالله، فعرفوا أن آخر ما يقدم عليه اليهود هو التجديف باسم الله. وكان يوسيفوس يأمل أن يصير فسبسيان قيصرًا بدلاً من نيرون. فنيرون الذى كان سيُرسَل إليه لم يكن وعده بالإبقاء على حياته، وعلى أية حال كان فسبسيان هو من أعطاه الكلمة، وهو من كان يعرف أن نيرون الذى اعتاد النوم على صوت عروضٍ موسيقية كان يحتقر فسبسيان الأكبر منه سنًا بكثير، وكان غالبًا ما يعامله بقسوةٍ، فلما اتخذ صعود نجم اليهود بعدًا خطيرًا فى هذه الآونة قام باستدعاء القائد العجوز المحنك، وكان لدى فسبسيان كل مبررٍ للشك فى نيرون لذا كان ترحيبه بالوعد بالسلطة مستقبلاً. وقد يكون يوسيفوس قد آمن هو نفسه بهذه البشارة التى نقلها من الله إلى فسبسيان، فهو من جرى التكهن فى عروقه مجرى الدم، وقد كان يعتبر نفسه نبيًا طيبًا، وبذلك يكون قد جاء الرومانَ بأمرٍ لم يكونوا يعرفونه وهو الذى لم يأخذ آلهتهم على محمل الجد، وكان يعتبر ما يصدر عنهم خرافةً لكنه كان يدرك أيضًا أن عليه إقناع فسبسيان الذى كان - مثل كل الرومان- يحتقر اليهود ودينهم، بجدية بشارته، وإذ كان هو وحيدًا بين أعدائه، هؤلاء من ألحق بهم أسوأ ما يمكن، هؤلاء من كانوا يلعنونه قبل قليلٍ، فأبدى ثقةً بنفسه وقوة عبر بها عن نفسه، وإيمانًا بنفسه كان أقوى

من أى إيمانٍ آخر، فكان كل هذا بفضل بقائه على قيد الحياة من بين رجاله، وما نجح به فى الكهف نقله إلى فسبسيان بأنه سيبقى حيًا بعد نيرون الأصغر منه بثلاثين عامًا، بل وبعد خلفائه جميعًا الذين لم يقلوا عن ثلاثة. وقد سقط كلٌ منهم -على نحوٍ ما - على يد الآخر، وقد صار فسبسيان قيصرًا رومانيًا.

نفور أصحب السلطة
من الباقين على قيد الحياة
الحكام وخلفاؤهم

كانت لدى محمد طُغلق سلطان "دلهى" خططٌ عديدة فاقت عظمة خطط الإسكندر أو نابليون، وقد كان من بينها أيضًا احتلال الصين باجتياز جبال الهيمالايا. فأعد جيشًا من 100.000 فارس وتحرك الجيش عام 1337 فقُضىَ عليه تمامًا على نحوٍ مروع فى الجبال الشاهقة الارتفاع، ولم يفلح فى النجاة سوى عشرة رجالٍ، ليس أكثر، فلما عادوا إلى دلهى بنبأ القضاء على الجميع تم إعدام هؤلاء الرجال العشرة بأمر السلطان. إن نفور أصحاب السلطة من الناجين هو حالةٌ عامة. فكل ما هو باقٍ فى الواقع على قيد الحياة يعتبرونه أمرًا خاصًا بهم وحدهم، فهو مملكتهم الخاصة، بل إنه أغلى ما يملكون. فمن يسمح لنفسه بالنجاة على نحوٍ لافت وفى ظروفٍ خطرة، خاصةً إذا كان بين كثيرين آخرين، فهو يكون كمن أفسد أعمالهم فيصبون عليه غضبهم. وحيثما نشأ شكلٌ ما من الحكم المطلق، فى الشرق الإسلامى على سبيل المثال، فإنه يمكن هنا أن يعلن أصحاب السلطة

صراحةً عن غضبهم على الناجين. أما ذرائعهم التى يبررون بها قضاءهم على هؤلاء، فإنها لا تحجب سوى القليل المجرد من الاضطراب المترعين به.

وبسقوط دلهى قامت مملكةٌ إسلامية أخرى فى "دقان". وكان محمد شاه، أحد سلاطين هذه الأسرة الحاكمة الجديدة، قد اشتبك طوال فترة حكمه فى صراعٍ مرير مع جيرانه من ملوك الهندوس. وذات يومٍ نجح الهندوس فى الاستيلاء على مدينة "مودكال" المهمة[80]، فذبحوا كل سكانها رجالاً ونساءً وأطفالاً ولم يفلت سوى رجلٍ واحد حمل النبأ إلى عاصمة السلطان. وقد روى أحد المؤرخين عن ذلك فقال: "عندما سمع هذا بذلك غلبه الألم والغضب فأعدم الرسول البائس فى الحال. فمن المحال أن يقوى هو على تحمل وجود شقىٍّ فى حضرته، كان قد رأى مذبحة رفاقه الكثيرين، وبقى هو على قيد الحياة"[81].

هنا، وإلى حدٍّ ما نستطيع الحديث عن ذريعةٍ، فقد يكون من المحتمل أن هذا السلطان لم يعرف حقًا سر عدم احتماله لرؤية الناجى الوحيد. أما الخليفة المصرى "الحاكم بأمر الله"[82] الذى حكم قرب العام 1000 فكان واعيًا بألاعيب السُلطة على نحوٍ أكثر وضوحًا، وتمتع بها على نحوٍ يذكرنا بالقيصر دوميتيان. فقد كان "الحاكم" يحب أن يعس ليلاً متنكرًا بكل الأشكال فوق جبلٍ بالقرب من القاهرة. وفى أثناء إحدى جولاته الليلية صادف عشرة رجالٍ مسلحين، عرفوه، فطلبوا منه مالاً فقال لهم: "فلتنقسموا إلى فريقين ينازل كلٌّ منهما الآخر ومن يخرج من ذلك فائزًا سوف أهبه المال". فأطاعوه وقاتلوا بشراسة إلى أن قُتِل منهم تسعةٌ، أما العاشر الذى تبقى منهم فقد ألقى إليه الحاكم من كمه بكميةٍ كبيرة من قطع النقود، إلا أنه عندما انحنى ليلتقطها أمر الحاكم خدامه بتمزيقه إربًا، وبذلك يكون قد أثبت رؤيةً واضحة فى مسألة البقاء على قيد الحياة. وكان قد تمتع بهذا كنوعٍ من العرض المسرحى، الذى أخرجه هو بنفسه، كما استمتع فى النهاية بالقضاء على من بقى على قيد الحياة. أما العلاقة بين صاحب السلطة وخليفته فهى الأكثر خصوصيةً، فإذا دار الأمر حول أسرةٍ حاكمة، يكون ولى العهد فيها هو ابن السلطان، تكون صعوبة علاقته بابنه صعوبةً مضاعفة. فمن طبائع الأمور أن يبقى الابن حيًا بعده، مثل كل ابنٍ، ومن الطبيعى أن يزداد الشغف مبكرًا فى صدر الابن، فهو نفسه سوف يصبح صاحب السُلطة، وكلاهما لديه ما يكفى من أسبابٍ لكراهية الآخر. أما خصومتهما فتنطلق من إرهاصاتٍ غير

متكافئة. ويتنامى عدم التكافؤ هذا إلى حالةٍ خاصة من الحدة، فأحدهما، من بيده السلطة، يدرك أنه سيموت قبل الآخر، بينما الآخر الذى لم يصل للسلطة بعد، فيشعر بالاطمئنان إلى أنه سيظل (بعد أبيه) على قيد الحياة. فأما الأكبر سنًا وهو آخر الناس كافةً من يتمنى الموت، وإلا ما كان حاكمًا، فإن الاشتياق لموته يكون متأججًا. وعلى الجانب الآخر فإنه يتم إرجاء تسلم الأصغر سنًا للسلطة بشتى السبل. إنه صراعٌ لا ينتهي حقًا. والتاريخ عامر بتمرد مثل هؤلاء الأبناء على آبائهم، وبعضهم يفلح فى الإطاحة بأبيه والبعض الآخر ينهزم أمامه، فيعفو عنهم أو يقتلهم. وفى إطار أسرةٍ حاكمة يتوقع الحاكم المطلق أن يصير تمرد الأبناء ضده نوعًا من التقليد، وهو ما يتضح من خلال إلقاء الضوء على تاريخ ملوك المغول بالهند[83]. فالأمير "سالم" أكبر أبناء الملك "أكبر" كان يتحرق شوقًا لتسلم مقاليد الحكم، وقد حنق على حياة والده المديدة، فقرر اغتصاب ذلك، فابتدع لنفسه اسم أحد الملوك وانتزع حقوق هذا لنفسه. هكذا جاء بتقرير أحد اليسوعيين[84] المعاصرين ممن كانوا على علاقةٍ وثيقة بالأب والابن، فكانوا يراهنون على كليهما. فكان أن كوَّن الأمير سالم بلاطه الشخصى واكترى قتلةً هاجموا أقرب أصدقاء أبيه ومستشاره من الخلف فأردوه قتيلاً. واستمر تمرد الابن طيلة سنواتٍ ثلاث، وفى أثناء هذه الفترة تم التوصل إلى سلامٍ هش. وفى النهاية وُجِّه تهديدٌ إلى سالم باستبدال ولى عهدٍ آخر به. وتحت وطأة هذا الضغط قبل الدعوة إلى بلاط أبيه فاستُقبِل هناك استقبالاً حارًا. ثم كان أن سحب الأب ابنه إلى خدرٍ داخلى وقام بلطمه ثم حبسه بالحمام، وأسلمه إلى طبيبٍ وخادمين على أنه مريضٌ نفسيًا، كما منع عنه النبيذ الذى كان مولعًا به. فى هذا الوقت كان الأمير قد بلغ العام السادس والثلاثين من عمره. وبعد بضعة أيام أطلق "أكبر" سراحه ورد إليه اعتباره كوليٍ للعهد. وفى العام التالى مات "أكبر" بالدوسنتاريا، فأشيع أن ابنه قد دس له السم، إلا أن هذا الظن لم يعد اليوم مؤكدًا.

"بعد وفاة أبيه التى تحرق إليها كثيراً" صار الأمير سالم أخيراً ملكًا وأطلق على نفسه لقب "جهانجير" وكان "أكبر" قد حكم لخمسةٍ وأربعين عامًا. أما مدة حكم جهانجير فكانت اثنتى وعشرين سنةً. وفى مدة حكمه التى تماثل نصف فترة حكم أبيه تقريبًا، مر هو بالتجربة نفسها التى مر بها أبوه. فكان ابنه المقرب لديه شاه جهان، الذى قلده بنفسه منصب ولاية عهده، قد تمرد على

أبيـه وشـن حربًـا ضـده لثـلاث سـنوات. إلا أن شـاه جهـان انهـزم والتمـس السـلام لـدى أبيـه، فعفـا عنـه بـشروطٍ قاسـية، فقـد أرغمـه عـلى إرسـال ولديـه رهينتـين إلى البـلاط الملـكى. أمـا هـو نفسـه فقـد حـرص عـلى ألا تقـع عليـه عينـا أبيـه، منتظـرًا موتـه. وبعـد عامـين مـن إبـرام الصلـح تـوفى جهانجـير ليصـير شـاه جهـان ملـكًا ويحكـم ثلاثـين عامًـا. ومـا فعلـه بأبيـه فُعِـل بـه، إلا أن حـظ ابنـه كان أوفـر. فـكان أورانجسـيب، أصغـر ولديـه اللذيـن كانـا رهينتـين ذات يـوم ببـلاط جديهـما، هـو مـن ثـار عـلى أبيـه وأخيـه الأكـبر. وكانـت "حـرب الخلافـة" الشـهيرة التـى نشـبت حينـذاك ووصفهـا شـهود عيـان أوروبيـون قـد انتهـت بانتصـار أورانجسـيب، فأعـدم أخـاه واحتفـظ بأبيـه أسـيرًا لثمانيـة أعـوام حتـى مـات، وبعـد انتصـاره نصـب أورانجسـيب نفسـه ملـكًا وحكـم لمـدة نصـف قـرن. أمـا ابنـه المقـرب فـكان صبره قـد نفـد قبـل ذلـك بكثـير، فتمـرد عـلى الأب. إلا أن الأب كان أوسـع حيلـةً مـن الابـن، فأشـعل الخـلاف بـين خلفائـه، مـا اضطـر الابـن إلى الفـرار إلى بـلاد فـارس، فـمات قبـل أبيـه فى المنفـى.

وإذا مـا تأملنـا تاريـخ الأسرات الحاكمـة فى إمبراطوريـة المغـول سـنرى أمامنـا صـورةً نمطيـة مدهشـة. وقـد اسـتمر عـصر ازدهارهـا مئـة وخمسـين عامًـا، وفى أثنـاء هـذه الفـترة لم يحكـم سـوى أربعـة ملـوك، الابـن بعـد أبيـه، كان كل منهـم صلبًـا طويـل العمـر، وتعلـق بـكل نيـاط قلبـه بالسـلطة، فجـاءت فـترات حكمهـم طويلـة عـلى نحـوٍ لافـت للانتبـاه. فقـد حكـم "أكـبر" 45 سـنة وابنـه 22 عامًـا وحفيـده 30 سـنة وابـن حفيـده 50 عامًـا. ومنـذ حكـم أكـبر فـإن أيًـا مـن الأبنـاء لم يحتمـل فـترة الانتظـار، وكل مـن صـار منهـم فيـما بعـد ملـكًا كان قـد تمـرد كأمـير ضـد أبيـه. ولقـد لقيـت حـركات العصيـان هـذه نهايـاتٍ مختلفـة، فقـد انهـزم كلٌ مـن جهانجـير وشـاه جهـان وعفـا عنهـما والداهـما. أمـا أورانجسـيب فقـد أخـذ أبـاه أسـيرًا وعزلـه. فأمـا ابنـه نفسـه، فيـما بعـد، فقـد مـات فى المنفـى بعـد فشـله. وبمـوت أورانجسـيب انتهـى حكـم مملكـة المغـول. وفى أثنـاء فـترة حكـم هـذه الأسرة كان كل ابـن قـد تمـرد عـلى أبيـه وخـاض كل أبٍ حربًـا ضـد ابنـه. إن الشـعور بالسـلطة الأكـثر تطرفًـا ينشـأ حينـما يريـد الحاكـم ألا يكـون لـه أى ابـن. وأفضـل شـهادة عـلى ذلـك هـى حالـة "شـاكا" الـذى حكـم وأسـس أمـة الـ"زولـو" بجنـوب إفريقيـا فى الثلـث الأول مـن القـرن التاسـع عـشر[85]. وقـد كان قائـدًا حربيًـا عظيـمًا حتـى إنـه قـورن بنابليـون وهـو يـكاد يكـون صاحـب السـلطة الوحيـد الأكـثر تجـردًا عـلى مـر الزمـان. فقـد رفـض الـزواج حتـى لا يكـون لـه وريـثٌ شرعـى، حتـى أمـه التـى كانـت تلقـى منـه معاملـةً عـلى أفضـل وجـه، فـإن رجاءهـا

المُلِّح لم يستطع إثناءه عن رأيه. وكان كل أملها أن يكون لها حفيدٌ إلا أنه تمسك برأيه. وكان حريمه يتكون من مئات النساء اللائى بلغ عددهن فى نهاية الأمر 1200 امرأة. أما لقبهن الرسمى فكان: "الأخوات". وكان قد حظر عليهن الحمل أو أن يلدن طفلاً، كما وُضعن تحت رقابةٍ صارمة. وكانت من تُضبَط منهن حاملاً تُعاقب بالموت. وقد قتل شاكا بيده ابن إحدى هؤلاء النساء، كان طفلاً أُخفى أمره عنه. وكان يُتقن فنون المعاشرة حتى يبقى الأمر تحت سيطرته مؤقتًا بألا تحمل منه امرأة. وعلى هذا النحو تخلص من حالة الخوف من أن يكون له ابنٌ يشتد عوده - وقد قُتِل وهو فى الحادية والأربعين من عمره على يد اثنين من إخوته. فإن جاز لنا الانتقال من أصحاب السلطة فى الدنيا إلى أصحاب السلطة الإلهية فإننا نذكر هنا رب "محمد" الذى له الحكم وحده لا يشاركه فيه أى رب. فهو منذ الأزل وحيدٌ فى عليائه، ولم يضطر إلى منازعة أرباب ثانويين ذوى شأن، كما حدث بدايةً لرب العهد القديم. والقرآن يُشدد مرارًا على أنه لم يولد ولم يلد أيضًا.

أما جدل المقارنة بالمسيحية والتى تتجلى فى ذلك إنما تنبثق من الشعور بوحدانية سلطانه وعدم قابليته للشرك. وعلى النقيض من ذلك هناك حُكامٌ شرقيون لهم مئاتٌ من الأبناء الذين يكون عليهم أولاً التنازع فيما بينهم عمن يصير بالفعل وليًا للعهد. وقد نفترض أن الوعى بالعداء فيما بينهم يقلل إلى حدٍّ ما من شعور الأب بالمرارة نحو خلافة أى منهم. وسوف نعرج بالحديث عن المعنى الأعمق للخلافة وهدفها وفائدتها فى سياقٍ آخر. أما ما ينبغى علينا ملاحظته هنا أن أصحاب السلطة وخلفاءهم يقفون على طرفى نقيضٍ، فى علاقة عداءٍ من نوعٍ خاص، وهو عداءٌ لا مناص من اطراده مع ازدياد حتمى لقوة هذا الشغف بالسلطة والشغف بالبقاء على قيد الحياة.

صور البقاء على قيد الحياة

إن تأمُل صور البقاء على قيد الحياة هو أمرٌ لا غنى عنه. فهناك الكثير من هذه الصور التى لا ينبغى أن ندع إحداها خارج نطاق اهتمامنا. فالحدث السابق لكل حدثٍ غيره فى حياة الإنسان، ويفوقه أهميةً، أى حدث التلقيح، هو حدثٌ لم يُنظَر إليه بعد كعنصرٍ من عناصر "البقاء على قيد الحياة". فنحن نعرف الكثير أو تقريبًا "كل شيءٍ" منذ لحظة اختراق خلية الحيوان المنوى لخلية البويضة، لكننا لا نكاد نتذكر أن هناك عددًا من الخلايا لا تصل غالبًا إلى هدفها عند التلقيح، رغم أنها شاركت بكثافةٍ فى الحدث عمومًا. وهى ليست خلايا منوية تشق طريقها منفردةً إلى البويضة، بل هى نحو مئتى مليون، وهى تنطلق فى دفقةٍ واحدة معًا وتتحرك فى تزاحمٍ مكثف نحو الهدف، إن عددها إذن لهائل. ولأنها جميعًا تنشأ عن الانقسام فإنها تتساوى فيما بينها. فأما كثافتها فلا يمكن بالكاد أن تزداد، وكلها لها الهدف الواحد نفسه, وعلينا أن نتذكر أن هذه الملامح الأربعة هى أيضًا التى تميز السمات الجوهرية للكتل. ولا يبقى سوى أن نؤكد أن كتلةً ما، تتكون من خلايا منويةٍ لا يمكن أن تماثل كتلةً من بشر، ولكن كان هناك تطابقٌ أو أكثر من مجرد تطابقٍ بين كلتا الظاهرتين بلا شك. أما كل الخلايا المنوية هذه فتتعرض للدمار سواء فى أثناء طريقها إلى الهدف، أو أنها صارت فيما

بعد على مقربةٍ منه. فخليةٌ واحدة فقط هى التى تنفذ إلى البويضة، وهى ما يمكن اعتبارها بالفعل الوحيدة الباقية، فيمكن القول بأنها القائد، وقد وفقت إلى ما يأمله كل قائدٍ على نحوٍ صريح أو خفى، فقد نجحت فى النجاة من بين تلك التى قادتها. ومن خلال هذه الناجية من بين مئتى مليون ينشأ الإنسان.

ومن هذه الصورة الأساسية، حتى وإن لم تكن قط جديرةً بالاعتبار، ننتقل إلى صورةٍ أخرى أكثر قربًا. ففى الفصول السابقة تناولنا على نحوٍ خاص مسألة القتل، فالمرء يقف ضد عدوٍ، ضد عدوٍ مفرد، متعرضًا للقتل أو للسطو المفاجئ أو الصراع المزدوج وضد حشد يشعر المرء بحصاره له، أو فى النهاية ضد كتلةٍ جماهيرية كاملة. وهنا لا يكون المرء وحده فهو يلقى بنفسه إلى المعركة مع رفاقه، إلا أنه (المرء) يشعر بالبقاء على قيد الحياة على نحوٍ أعظم من رفيقه بالجماعة ما دام أعلى منه منزلةً. أما القائد فهو الذى يفوز، فإذا ما سقط كثيرٌ من رجال هذا القائد فإن الكوم يكون مزيجًا من صديق وعدوٍ لتنتقل المعركة إلى حالةٍ "محايدة" من الوباء، وهنا يقترب القتل من "الموت"، تحديدًا فى الحالة الأكثر ترويعًا أى فى حالات الوباء والكوارث الطبيعية. فهنا ينجو المرء بحياته من بين كل هؤلاء المهددين بالموت، أصدقاءً وأعداءً فى آنٍ واحد، وتتلاشى العلاقات كافةً، فحالة موتٍ عامة يمكن أن تفضى إلى عدم معرفة شخص من يتم دفنه. أما الذى يميز ذلك على نحوٍ كبير فهو القصص المكرر دائمًا عن بشرٍ عادوا للحياة ثانيةً من بين الأموات، أى من وسط جموع هؤلاء، فهم يستيقظون من بين الموتى، ومثل هؤلاء الناس ينزعون إلى الحفاظ على سلامتهم أو يكونون على نحو ما "أبطال الطاعون".

أما الرضا الأكثر اعتدالاً وقبولاً فينتج عن حالات الموت الفردية للبشر. والأمر هنا يدور حول الأقارب والأصدقاء فليس هناك قاتلٌ أو من يشعر أنه سيُهاجَم، ولا يمكن للمرء أن يضيف إلى ذلك شيئًا إلا أنه يتوقع الموت للآخرين، فالأحدث سنًا يظلون على قيد الحياة بعد موت الأكبر منهم سنًا كما فى حالة الابن والأب. فالابن يرى فى موت أبيه أمرًا طبيعيًا ويقتضى الواجب به إلى الإسراع إلى فراش احتضار أبيه ليغمض عينيه ثم يحمله إلى القبر. وفى أثناء هذه الشعائر التى قد تمتد لأيامٍ يكون الأب راقدًا أمامه هناك ميتًا. فها هو من كان يصدر أوامره إليه وكاد يكون الوحيد الذى خُوِّلَ له هذا الشأن، ها هو الآن لا ينطق، بل إنه

مستسلمٌ لما يجرى من عبثٍ بجسده. ومن يأمر بذلك هو هذا الابن الذى كان تحت رحمة سلطانه. وهنا يتجلى الرضا عن البقاء على قيد الحياة، وهو ناتجٌ عن علاقة الاثنين، كلٍ بالآخر، فكان أحدهما لسنين طويلةٍ ضعيفًا وعاجزًا وواقعًا تحت سيطرة الآخر تمامًا، وها هو الآخر المهيمن فى الماضى قد سقط وتلاشى أثره وصارت أوصاله الميتة رهن إرادة ذاك الآخر. وكل ما خلّفه الأب يقوى الابن، فالميراث هو غنيمته وبوسعه أن يفعل بذلك كل ما لم يفعله الآب. فإن كان الأب حريصًا مدبرًا فيمكن لابنه أن يكون مبذرًا، وإن كان هذا ذكيًا فيمكن للابن أن يكون أحمق، كأنه قانونٌ جديد أُعْلِن سريانه فى تلك اللحظة. إنها فجوةٌ هائلة، لا يمكن تجاوزها ويعود الفضل فى ظهورها إلى "البقاء على قيد الحياة"، وهى أكثر سمات الشخصية أصالةً وألفة وهى المعبرة عن البقاء على قيد الحياة.

أما الصراع حول البقاء على قيد الحياة بين من هم فى مرحلةٍ عمرية واحدة، أى أبناء جيلٍ واحد، فهو أمرٌ مختلف تمامًا، فالتوجه إلى البقاء على قيد الحياة هنا يكون مستترًا خلف صور خصومةٍ أقل وطأةً لأنها تدور فى إطار جماعة أقران. وتختزل مجموعة أفرادٍ من أعمارٍ متقاربة فى فئةٍ عمرية. وفى إطار قواعد محددةٍ منظمة فى الغالب لاختبارات قاسية مروعة يصعد صغار السن من فئةٍ إلى فئةٍ تالية أعلى، وفى أثناء مثل هذه الاختبارات يمكن أن يُقْضَى على المنافس قضاءً مبرمًا، إلا أن هذا لا يكون سوى استثناء. أما الكبار الباقون على قيد الحياة بعد انقضاء عددٍ محدد من السنين فإنهم يتمتعون بمكانةٍ سامية للغاية بين ما يعرف بـ"شعوب الطبيعة"، وهى تلك التى يموت أبناؤها عادةً فى سنٍ صغيرة. فالمخاطر تتهددهم والأمراض تصيبهم على نحوٍ أعظم مما نتعرض له نحن. وبلوغ عمرٍ بعينه يراه هؤلاء إنجازًا يعتبر فى حد ذاته مكافأة. وهذا لا يرجع إلى أنهم صاروا كبارًا اكتسبوا معرفةً وخبرة من تجارب مروا بها بل هو يرجع إلى أنهم أثبتوا جدارةً فى استمرارهم فى الوجود. فلا بد من أن الحظ حالفهم حتى فازوا بالنجاة من عمليات الصيد والحروب والنكبات. وهذه المخاطر هى التى ترتقى بمكانتهم. أما انتصاراتهم على الأعداء فإنهم يثبتونها من خلال رموز النصر. وأما استمرار وجودهم كعضوٍ فى الجماعة - التى لم يكن المنتمون لها قط عددًا كبيرًا - فهو أمرٌ يقدره هؤلاء على نحو خاص. فرغم أنهم عايشوا مناسباتٍ عديدة للنواح فإنهم ما زالوا هنا، فموت أقرانهم من نفس جيلهم يساهم فى سمو مكانتهم. وقد لا يكون هذا التقييم واضحًا فى أذهان أعضاء هذه الجماعة

كوضوح قيمة الانتصار على العدو، إلا أن هناك أمرًا لا يتطرق إليهم الشك فيه، فالإنجاز الأكثر أهميةً والأعظم وضوحًا كان هو البقاء على قيد الحياة. فلا يحسب للكبار أنهم هنا بل يحسب لهم أنهم "ما زالوا" هنا، ويكون بوسعهم كما يشاءون اتخاذ الفتيات الصغيرات بينما يضطر الصغار أحيانًا إلى الرضا بنسوةٍ متقدماتٍ في العمر، ويُخوَّل للكبار أمر اختيار مقصد الترحال وخوض الحرب ضد من أو التحالف مع من. فإذا ما تطرق الحديث في إطار هذه العلاقات الحياتية إلى "الحكم" فإن "هؤلاء الكبار" هم من يناط بهم "الحكم" معًا. إن تمنِّي "العمر الطويل" - وهو ما يلعب دورًا كبيرًا في أغلب الحضارات - يعني في حقيقة الأمر أن المرء يتمنى البقاء حيًا بعد وفاة أقران جيله، وهو يعرف أن كثيرين يموتون مبكرين، لكنه يتمنى لنفسه مصيرًا آخر. وهو يستثني نفسه دون رفاقه بتضرعه للآلهة من أجل طول العمر، رغم أنه لا يذكر ذلك في صلاته، لكنه يتصور أنه سيكون أطول عمرًا من الآخرين. أما ظاهرة طول العمر "السليمة" فيجسدها الجد الأعلى الذي يستطيع أن يطالع الكثير من نسل أبنائه. والمرء لا يتصور أبًا أعلى آخر بجواره كأن جيلاً جديدًا من نسله قد بدأ معه. وما دام أحفاده وأبناؤهم على قيد الحياة فإنه لا يضيره إذا سبقه إلى الموت بعض أبنائه، بل إن ذلك يساهم في رفعة مكانته، فحياته كانت أكثر صلابةً من حياتهم، وفي دائرة من هم الأكبر سنًا فإنه لا يبقى في النهاية إلا واحد منهم فقط يكون بطبيعة الحال من هو أكبرهم سنًا. ويتحدد القرن من الزمان حسب مدة سنين حياته. والأمر هنا يستحق أن نتوقف عنده قليلاً. فمدة "القرن" لدى الـ"أرتوريين"[86] تتغير أحيانًا وتطول أحيانًا، ويجب تحديد مدته كل مرة. ففي كل جيلٍ يكون هناك من هو أكبر سنًا من الآخرين، فإذا مات هذا الأكبر سنًا بعد أن عاش بعد الجميع فإن الآلهة تعطي إشارة بعينها لتحدد مدة القرن من لحظة موته. فإذا مات الباقي على قيد الحياة عن مئةٍ وعشرة أعوام تكون مدن القرن مئةً وعشرة أعوام، وإذا مات عن مئةٍ وخمسة أعوام فإن مدته تُحْسَب على الزمن الدنيوي أقصر، أي على مئةٍ وخمسة أعوام. فالباقي على قيد الحياة يكون هو القرن، فسنوات حياته هي التي تحدد مدة القرن. ولكل مدينةٍ وكل شعبٍ مدةٌ زمنية محددة مسبقًا، وقد حدد الشعب عشرةً من هذه القرون، فإذا ما استمر الباقي على قيد الحياة من كل جيلٍ لفترةٍ أطول فإن الأمة كلها تصير أطول عمرًا.

إن هـذه العلاقـة لافتـةٌ للانتبـاه، فهـى فريـدةٌ مـن نوعهـا كمؤسسـةٍ دينيـة، فالبقاء عـلى قيـد الحيـاة لمدةٍ زمنيـة هـو الصـورة الوحيـدة التـى يبقـى فيهـا الشـخص مرئيًـا، فأمـا النـاس الذيـن ظلـوا هنـا لفـترةٍ طويلـة سـابقة عـلى شـخصٍ مـا فإنـه لا يعرفهـم، ولا يمكـن أن يكـون قـد قتلهـم أو تمنـى موتهـم أو انتظـره. فهـو يعـرف أنهـم كانـوا هنـاك عندمـا لم يعـد لهـم وجـود هنـاك. ومـن خـلال إدراك المـرء حـال هـؤلاء فـإن إعادتـه إياهـم إلى الحيـاة (عـلى نحـوٍ) أمـر بسـيط للغايـة، وغالبًـا يكـون فى شـكل بـلا معنـى. وربمـا كان مـا يعـود عليهـم هنـا مـن فائـدةٍ أعظـم مـما يعـود عليـه هـو. إلا أنـه مـن الواضـح أن هـؤلاء سـاهموا فى الشـعور الشـخصى للباقـى عـلى قيـد الحيـاة. وهكـذا بقـى عـلى قيـد الحيـاة هـؤلاء الأجـداد الذيـن لم نتعـرف عليهـم بأنفسـنا، بـل بقـى كذلـك عـلى قيـد الحيـاة كل البـشر السـابقين.

إن تجربـة الحالـة الأخيرة كانـت فى المدافـن. وهـى حالـةٌ تتماهـى مـع حالـة البقاء عـلى قيـد الحيـاة فى أثنـاء انتشـار الوبـاء، فبـدلا مـن الطاعـون كان وبـاء المـوت هـذا عـلى إطلاقـه، ليشـمل مـوتى مـن أزمنـة مختلفـة فى مـكانٍ واحـد. ويمكـن أن ينهـض الاعـتراض بـأن هـذه الدراسـة لم تعالـج شـيئًا آخـر مختلفًـا عـن المفهـوم القديـم لدافـع الحفـاظ عـلى النفـس الـذى كان معروفـا دائمًـا. لكـن هـل يتسـاوى هـذا مـع ذاك حقًـا؟ هـل هـما الـشىء نفسـه؟ ومـا هـو تصورنـا عـن الأثـر الفعـال لغريـزة الحفـاظ عـلى النفـس؟ ولذلـك فـإن هـذا المفهـوم يبـدو لى غـير مناسـبٍ لأنـه يجعـل الإنسـان الفـرد وحيـدًا. فقـد يكـون التشـديد مـرةً عـلى "النفـس"، لكـن الأهـم تكـون الكلمـة الأخـرى، وهـى "الحفـاظ"، وهنـا يبـدو المعنـى مزدوجًـا، فتـارةً يعنـى اضطـرار الـكل "إلى تنـاول الطعـام" ليبقـى عـلى قيـد الحيـاة، وتـارةً يعنـى "دفاعـه عـن نفسـه" ضـد أى هجـومٍ مهـما كان نوعـه، وعـلى نحـوٍ مـا كان ينظـر إلى المخلـوق عـلى أنـه تمثـالٌ ضخـم ينظـر أمامـه فى جمـود، فهـو يتنـاول طعامـه بيـدٍ ويدفـع العـدو عـن نفسـه باليـد الأخـرى. وهـو فى الأسـاس مخلـوقٌ مسـالم فـإذا مـا تُـرِكَ وشـأنه فإنـه سـيلتهم حفنـةً مـن الأعشـاب ولـن يـؤذى أحـدًا قيـد أنملـة. فهـل هنـاك تصـورٌ لا يوافـق الانسـان أخطـر مـن هـذا وأكـثر منـه تضليـلاً وسـخفًا؟ فالإنسـان يـأكل حقًـا لكنـه لا يـأكل نفـس مـا تأكلـه بقـرة، وهـو لا يُسـاق كذلـك إلى المراعـى، وأسـلوبه فى الحصـول عـلى فريسـةٍ هـو أسـلوبٌ خبيـثٌ ودمـوى وعنيـد، وهـو هنـا لا يعـرف السـلبية وهـو لا يدفـع الأعـداء عـن نفسـه بهـوادة بـل هـو يهاجمهـم عـن بعـد. أمـا السـلاح الـذى يسـتخدمه فى الهجـوم فهـو أكـثر تطـورًا مـن السـلاح الـذى يسـتخدمه فى الدفـاع. فالإنسـان يريـد أن

يحفظ نفسه مع وجود أشياء أخرى يسعى للحصول عليها فى آنٍ واحد. فالإنسان يسعى للقتل حتى يبقى حيًا بعد الآخرين وهو لا يريد أن يموت حتى لا يعيش الآخرون بعده. فإذا ما استطاع المرء جمع هذا بذاك لـ"الحفاظ على النفس" فإنه يكون قد حقق معنى هذا التعبير. لكن ما لا يمكن فهمه هو سر تمسك أحدهم على هذا النحو بمفاهيم تقريبية بينما يفهم الآخر شيئًا أكثر. إن كل صور البقاء على قيد الحياة التى تم إحصاؤها قديمةٌ للغاية، وهو ما سوف نراه لدى الشعوب المعروفة بشعوب الطبيعة، كالتالى.

الباقى على قيد الحياة
فى عقيدة شعوب الطبيعة

يفسَّر مفهوم الـ"مانا" فى "بحر الجنوب" بأنه نوعٌ من قوةٍ فوق الطبيعة وغير شخصية، أى هى التى يمكن أن تنتقل من إنسانٍ لآخر، وهو أمرٌ يدعو للطموح، فهى يُمكن أن تمنح كل فردٍ ثراءً أعظم، فالمقاتل الشجاع يمكن أن يكتسبها وهو فى ذلك لا يدين بالفضل لخبرته القتالية أو قوته البدنية وإنما هى الـ"مانا" التى انتقلت إليه من عدوه المقهور، وهذا هو ما حدث فى جزر الـ"ماركيوزا"[87] فإن أحد أفراد القبيلة استطاع أن يصير القائد العسكرى من خلال بسالته الشخصية. فمن المفترض أن المقاتل يحمل فى داخله "مانا" كل من قتلهم. وبقدر استبساله تنمو الـ"مانا" الخاصة به. لكن فى تصور أهل البلاد كانت بسالته ناتجةً عن الـ"مانا" وليست هى المسببة لها. فمع كل قتلٍ ينجح فيه تنمو أيضًا "مانا" رمحه. فبعد نزالٍ بين رجلين كان المنتصر يتخذ اسم عدوه المقهور، وكان هذا إشارةً إلى أن قوة العدو قد صارت ملكًا له. ومن أجل التهام "مانا" الخصم مباشرةً فإنه كان يأكل من لحمه، ومن أجل أن يؤمِّن لنفسه هذا التفوق فى القوة فى معركةٍ ما وأن يضمن لنفسه شهادةً شخصية من خلال المانا المغتصبة، فإنه يحمل من

ضمـن عتـاده الحـربى أى جـزء متبـقٍ مـن جسـد العـدو المقهـور، كإحـدى عظامـه أو يـد جافـة وأحيانًـا مـا يصـل ذلـك إلى حـد جمجمـةٍ كاملـة.

إن أثـر النـصر فى "الباقـى عـلى قيـد الحيـاة" لا يمكـن فهمـه عـلى نحـوٍ أوضـح مـن ذلـك، فهـو مـن قتـل الآخـر فصـار أقـوى، وتنامـى الـ"مانـا" يمـده بالقـدرة عـلى تحقيـق نـصرٍ جديـد. إنهـا نـوعٌ مـن البركـة انتزعهـا مـن العـدو ولا يمكنـه الحصـول عليهـا إلا إذا مـات هـذا. فالوجـود الفيزيقـى للعـدو حيًـا أو ميتًـا أمـرٌ لا مفـر منـه فـلا بـد مـن القتـال ولا بـد مـن القتـل، فـكل شىءٍ يتوقـف عـلى الأداء الشـخصى للقتـل. إن إجـزاء الجثـة، سـهلة الاسـتعمال التـى اسـتولى عليهـا المنتـصر لنفسـه والتـى التهمهـا والتـى يعلقهـا عـلى جسـده، تذكّـره دائمًـا بتنامـى قوتـه، فبهـا يصـير أقـوى، وبهـا يثـير الفـزع. فـإذا تحـداه عـدوٌ جديـد ارتجـف أمامـه ورأى مصـيره الرهيـب أمـام عينيـه. وهنـاك علاقـةٌ بـين القاتـل والمقهـور أكـثر شـخصانيةً، بـل ومفيـدة، تتبـدى فى عقيـدة قبائـل "مورنجـين" فى بـلاد "أرنابـم" الأسـترالية[88]. فـروح القتيـل تحـل بجسـد القاتـل وتمنحـه قـوةً مضاعفـة ليصـير بالفعـل أكـبر حجـمًا، ومـما يسـترعى النظـر أن هـذا المكسـب يغـرى الشـباب بالمشـاركة فى الحـرب فيبحـث كلٌ عـن عـدوٍ ليسـتولى عـلى قوتـه إلا أن هدفـه لا يتحقـق إلا عندمـا يقتـل ليـلاً، فالنهـار يتيـح للضحيـة رؤيـة قاتلـه، فيتمنـى قتلـه إلى حـدٍّ يمنعـه مـن الحلـول بجسـده، وقـد تـم وصـف هـذا الحلـول بدقـةٍ، فهـى عمليـةٌ عجيبـة تجعلنـا نسـتعرض قسـمًا كبـيراً منهـا هنـا: إذا قَتَـلَ أحدهـم رجـلاً فى أثنـاء الحـرب فإنـه يرجـع إلى بيتـه فـلا يتنـاول طعامًـا مطهيًـا حتـى تغذيـه روح القتيـل ويكـون بوسـعه "سـماع" قدومهـا لأن قنـاة الرمـح مـا زالـت عالقـةً فى نصلهـا الحجـرى الـذى غُـرِز فى القتيـل الـذى يزحـف عـلى الأرض ويتخبـط فى الدغـل والأشـجار ويحـدث ضجيجًـا فى أثنـاء سـيره. فـإذا مـا صـارت الـروح عـلى مسـافةٍ قريبـة للغايـة سـمع القاتـل أصواتًـا صـادرة عـن جـرح القتيـل، فيمسـك بالرمـح لينـزع وينحـى نصلـه ويضـع نهايـة القنـاة هـذه بـين أصبـع قدمـه الكبـير والتـالى لـه، ويسـند نهايـة القنـاة الأخـرى بكتفـه لتدخـل الـروح حينئـذٍ فى الفجـوة التـى نُـزِع منهـا لتشـق طريقهـا إلى داخـل سـاق القاتـل ثـم إلى جسـده بعـد ذلـك. وهـى ماضيـةٌ فى طريقهـا مثـل النملـة لتدخـل المعـدة وتغلقهـا فيشـعر القاتـل بالغثيـان وترتفـع درجـة حـرارة بطنـه فيدلـك معدتـه، ويهتـف عاليًـا باسـم هـذا الرجـل فيشـفيه هـذا ليشـعر باسـترداد عافيتـه، لأن الـروح فارقـت المعـدة ووصلـت القلـب، ومـا إن تصـل القلـب يكـون أثـر ذلـك كأن دم الميـت انتقـل حينئـذٍ إلى القاتـل. وتصـير الحـال كأن الرجـل قبـل أن يمـوت قـد منـح

دمه للآخر الذى سوف يقتله. أما القاتل الذى صار حينئذٍ أكبر حجمًا واكتسب قوةً خاصة فإنه يكتسب قوة الحياة كلها التى كانت للميت ذات يومٍ، فإن حلم قالت له الروح بأن غذاءه لديها، وتحدد له الوجهة ليعثر عليه فتقول: "هناك، تحت، عند النهر سوف تجد الكثير من الكنجرو". أو "فى تلك الشجرة العتيقة على الجانب الآخر هناك عشٌ للنحل". أو "عند كثيب الرمل مباشرةً هناك دروع سلحفاةٍ كبيرة وسوف تجد بيضًا كثيرًا على الشاطئ". فيطيع القاتل، لينسل بعد برهةٍ قصيرة من المخيم ليخرج إلى الدغل حيث يلقى روح الميت فيفزع القاتل ويصيح: "من هذا؟ هل هناك أحدٌ ما؟" ويتوجه ليجد هناك كنجرو، وهو حيوانٌ صغير غير مألوف فيتأمله ويفهم مغزى ذلك: إنه موجودٌ هناك فى هذا الموضع، تحديدًا حيث سمع تحركات الروح، فيأخذ عرقًا من إبطه ويمسح به ذراعه ويرفع رمحه ويهتف عاليًا باسم الميت ويصيب الحيوان فيموت فى الحال، إلا أنه - فى أثناء موته - يزداد حجمه للغاية، فيحاول أن يرفعه إلا أنه يجد ذلك مستحيلاً لأنه صار ضخمًا للغاية، فيترك الفريسة راقدةً ليعود إلى المخيم ليخبر أصدقائه بذلك ويقول: "لقد قتلت للتو روح الرجل الميت، فلا تخبروا أحدًا بذلك حتى لا يغضب مرةً أخرى". ويعود معه أقرب أصدقائه وأقاربه ليساعدوه فى سلخ الحيوان ويجهزونه للطعام، فلما شقوا بدنه وجدوا فى كل مكانٍ دهنًا وهو ما يعتبر الأطيب مذاقًا. وفى البداية يضعون قطعًا صغيرة للغاية على النار ويتذوق المرء منها بحرص فدائمًا ما يكون مذاق اللحم غير طيب، ثم يُطهى الحيوان كله وتؤكل أجزاؤه التى تعتبر أكثر قيمةً ثم يُحْمَل الباقى إلى المخيم الرئيس فينظر إليه الرجال الكبار: إنه حيوان هائل الحجم. ويقفون محيطين به ليسأل أحدهم: "أين قتلته؟"، "هنا فوق عند النهر". فالكبار يعرفون جيدًا أنه ليس فريسةً عادية لأن بها دهنًا فى كل مكان. وبعد برهةٍ قصيرة يسأل أحد الكبار: "هل رأيت هناك بالدغل روحًا بعينها؟" فيكذب الشاب قائلاً: "كلا". فيتذوق الكبار اللحم فيجدون مذاقه مختلفًا فهو ليس كنجرو مألوفًا، فيهز الكبار رءوسهم مؤكدين وهم يلوكون بألسنتهم: "لقد رأيت أنت بالفعل روح الميت!" وهنا يستدعى الباقى على قيد الحياة قوة العدو ودمه فلا يتضخم هو فحسب، وإنما كذلك الحيوان، غنيمته، فيسمن ويتضخم على نحوٍ أعظم. إنه مكسبٌ شخصى ومباشر للغاية استولى عليه من العدو. وهكذا يتجه فكر الشاب مبكرًا نحو الحرب. لكن لما كانت هذا العمل يتم سرًا وليلاً فإن ذلك

ارتبط بتصوراتٍ عن البطل كما وصلت إلينا على نحوٍ نادر، فالبطل، كما نعرفه، الذى يمضى وحده تمامًا من دون خوفٍ ليلقى بنفسه وسط أعدائه نصادفه فى جزر "فيجى"[89].

وهناك أسطورةٌ تُرْوى عن صبيٍ كان قد كبر لدى أمه من دون أن يعرف أبوه بأمره، فلما هددها أُرغِمت على البوح باسم أبيه، وما إن عرف أنه ملك السماء حتى شق طريقه إليه، فكان أن صُدِم الأب برؤيته لأنه كان صغيرًا للغاية فقد كان بحاجةٍ إلى رجالٍ وليس صبية، ففى هذه الأثناء كان يخوض حربًا. وكان أن ضحك الرجال حول الملك من الصبى، وهنا شق الصبى بمقمعته رأس أحد الساخرين منه فغمرت السعادة الملك وطلب منه البقاء.

فى صباح اليوم التالى، فى وقتٍ باكر للغاية، صعد الأعداء بصيحات الحرب إلى المدينة هاتفين: "اخرج إلينا يا ملك السماء، إننا جوعى، فاخرج إلينا حتى نأكل". هنا نهض الصبى وقال: "لا يتبعنى أحدٌ، فلتبقوا جميعًا بالمدينة!" وأخذ بيده مقمعته التى صنعها بنفسه وألقى بنفسه وسط الأعداء وهو يطيح ذات اليمين وذات اليسار، وبكل ضربةٍ كان يقتل واحدًا حتى فروا فى النهاية من أمامه، أما هو فجلس فوق كومٍ من الجثث وصاح بأهله بالمدينة: "اخرجوا وجروا القتلى." فخرجوا وهم ينشدون أغنية الموت وجروا الاثنين وأربعين جثةً بينما كانت الطبول تدوى فى المدينة. وكان أن ضرب الصبى أعداء أبيه أربع مراتٍ أخرى حتى دب اليأس فى قلوبهم فجاءوا ملك السماء طالبين السلام: "فلترحمنا أيها السيد ولتُبق على حياتنا". هكذا صار هذا بلا أعداءٍ، وقد فرض سيادته على السماء كافةً.

هنا يأخذ الصبى الأمر على كاهله وحده فى حرب الأعداء ولم تذهب أىٌ من ضرباته سدى. وفى نهاية المطاف يُرى جالسًا فوق كومٍ من الجثث، وكل ممن جلس فوقهم كان قد قتله بنفسه، ولكن علينا ألا نعتقد أن الأمر قد انتهى على هذا النحو فى الأسطورة، فهناك أربعة أسماء مختلفة لبطل "فيجى"، فمن قتل واحدًا كان يدعى "كوروى"، و"كوالى" كان من قتل عشرةً، وقتل "فيسا" عشرين، وكان "وانجكا" هو الذى قتل ثلاثين، فكان الزعيم الشهير الذى كان إنجازه أعظم يدعى "كولى - فيسا- وانجكا" فكان هو من قتل "30+20+10" أى ستين إنسانًا. وقد تكون إنجازات مثل هؤلاء الأبطال تثير إعجابًا أعظم من إنجازات أبطالنا.

فبعد أن قتلوا أعداءهم قاموا بالتهامهم أيضًا. وإذا ما كان هناك زعيمٌ كان يضمر كراهيةً شديدة نحو شخصٍ ما فإنه يحتفظ لنفسه به ليأكله كله وحده، ولا يعطى بالفعل أحدًا أية قطعة منه. لكن قد يحتج البعض بأن البطل لا يحارب الأعداء فحسب، بل إن أعداءه الرئيسيين فى الأسطورة هم الأشباح الذين يحرر شعبه منهم. فالشبح يلتهم شيئًا فشيئًا شعبًا كاملاً فلا يقوى أحدٌ على درء خطره عن نفسه. وفى أفضل الأحوال ينتهى الأمر إلى وضع نظامٍ للرعب، فهؤلاء وأولئك من الناس يقدمون إليه سنويًا ليلتهمهم، وهنا يرحم البطل شعبه ويخرج وحيدًا ليقتل الشبح المتوحش بيديه، فيحمد الشعب له ذلك ويظل وفيًا لذكراه. وهو يظهر كقوامٍ نورانى من خلال حصانته التى أنقذ بها الآخرين جميعًا. إلا أنه توجد أساطير تقر بوضوحٍ بعلاقة هذا القوام النورانى بكوم الجثث التى لا تكون من الأعداء فقط. وأكثر هذه الأساطير تركيزًا تُنْسَب إلى شعب "أويتوتو" بجنوب أمريكا[90]. وقد وردت هذه الأساطير بمجموعة "K.th. Preuss" المهمة والتى لم تلق الاهتمام الواجب. ونحن نعرضها كالتالى فى صيغةٍ موجزة ما دامت تتسق مع مادة موضوعنا:

على ضفة نهر ما كانت فتاتان تعيشان مع أبيهما، وذات يوم شاهدتا فى الماء ثعبانًا صغيرًا جميلاً للغاية فحاولتا الإمساك به، إلا أنه أفلت منهما عدة مرات. حتى قام أبوهما بجدل مصفاة دقيقة بناءً على طلبهما، وبها اصطادتا الثعبان الصغير وعادتا به إلى البيت وقامتا بوضعه فى إناءٍ به ماء، وقدمتا له كل أنواع الغذاء إلا أنه رفض كل شىء، اللهم إلا عندما واتت الأب فكرةٌ فى منامه بأن يطعم الثعبان نوعًا خاصًا من النشاء، فبدأ يلتهمها بنهم. فصار الثعبان فى حجم خيط، ثم مثل حجم أنملة، لتضعه الفتاتان فى إناءٍ أكبر. واستمر الثعبان فى التهام النشاء ليصير فى سُمك الذراع، فوضعتاه حينئذٍ فى بحيرةٍ صغيرة فظل يلتهم النشاء بنهمٍ أعظم، وكان فى أثناء تقديم الغذاء قد شعر بالجوع، حتى إنه قبض بفمه على يد وذراع الفتاة التى تقدم له الطعام. وسرعان ما نما فصار فى حجم شجرةٍ سقطت فى الماء، وبدأ يقترب من البر ليلتهم الذرة البيضاء وحيواناتٍ أخرى، إلا أنه كان دائمًا ما يعود ملبيًا نداء الإغراء ليزدرد كمياتٍ هائلة من النشاء التى كانت الأختان تقدمانها له. وقد حفر لنفسه كهفًا أسفل القرى وجذوع الأشجار وبدأ فى التهام أجداد البشر، أى أول أناسٍ على وجه الأرض. "أيها الحبيب تعال لتأكل!" هكذا هتفت الفتاتان ليتقرب الثعبان وأمسك وعاء النشاء الذى

حملته إحدى الأختين فوق ذراعها وحتى رأسها فابتلع الفتاة ومضى بها بعيدًا، فركضت الأخت الأخرى لتروى ذلك لأبيها الذى قرر الثأر، فلعق تبغًا، كعادة هؤلاء الناس، عندما يقررون قتل كائنٍ ما، ووافته فى منامه فكرة وسيلة تمكنه من الانتقام فجهز نشاء ليقدمها كغذاءٍ للثعبان وناداه هذا الذى ازدرد ابنته وقال له: "ابتلعنى". وقد كان على استعداد لتحمل كل شيء، وشرب من إناء التبغ المعلق برقبته، ولبى الثعبان نداءه وأمسك هو بصحيفة النشاء التى كان يرفعها عاليًا، وهنا وثب إلى داخل حلقومه وقبع هناك. "قد قتلته" هكذا فكر الثعبان وجر الأب ومضى به بعيدًا. وبعد ذلك التهم قبيلةً كاملة. وتعفن الناس فوق جسد الأب، ثم مضى الثعبان ليزدرد قبيلةً أخرى، ويتعفن الناس فوق جسد الأب، فبينما كان هو يقف هناك كان الناس يتحللون فوقه، وكان عليه تحمل الرائحة الكريهة. وقد ازدرد الثعبان كل القبائل على النهر فأجهز عليهم إلى حد أنه لم يبق منهم أحد. وكان الرجل قد أخذ معه محارةً من البيت ليشق بها بطن الثعبان إلا أنه لم يكن يقطع ويشق إلا بالقدر القليل ليشعر الثعبان بالألم من جراء ذلك. ثم التهم الثعبان قبائل على نهرٍ آخر فخاف الناس فلم يخرجوا إلى المزارع بل بقوا فى ديارهم دائمًا. أما التجوال فلم يكن ممكنًا على الإطلاق لأن فى وسط الطريق كان كهف الثعبان، فإذا ما رجع أحدهم من الحقل أمسك به وجره بعيدًا، فكان أن بكى الناس وخافوا أن يلتهم الثعبان أحدهم ولم يعودوا يخطون خطوةً واحدة إلى الخارج. وعندما كانوا ينزلون من محفاتهم المعلقة كانوا يخشون وجود كهف الثعبان هناك فيمسك بهم ويجرهم بعيدًا. وعلى جسد الرجل كان الناس يتعفنون ويتحللون فصار يشرب عصير التبغ من الإناء ويقوم بقطع مواضع داخل جسد الثعبان حتى صار هذا يتألم ألمًا عظيمًا "ماذا جرى لى؟ لقد ابتلعت دايوهما المقطِّع وأشعر بآلام!". هكذا قال الثعبان وهو يصرخ. ثم كان أن مضى إلى قبيلةٍ أخرى فخرج من الأرض وانقض على الناس جميعًا فلم يستطيعوا الذهاب إلى أى مكانٍ آخر ولم يوجدوا على النهر، فإذا ما جلبوا ماء من الميناء أمسك بهم الثعبان وجرهم بعيدًا، وإذا ما مست أقدامهم الأرض صباحًا كان يمسك بهم ويأخذهم معه. أما الرجل فقد مزق بطن الثعبان بالمحارة ليصرخ هذا: "ماذا جرى؟ إننى أعانى من الآلام وقد ابتلعت دايوهما (الممزق)". وهنا حذرته أرواحه الحامية: "دايوهما، إن هذا ليس الميناء على النهر حيث تقيم، فلتأخذ حذرك وأنت تمزق، فميناؤك ما زال بعيدًا للغاية". وبعد

هـذه الكلـمات توقـف عـن تمزيـق بطـن الثعبـان. أمـا الثعبـان فمـضى لِيلتهـم بقيـة النـاس الذيـن التَهـم بعضًـا منهـم قبـل ذلـك وأمسـك بهـم فى الحـال. "إنـه لم يتوقـف بعـد؟ لقـد اسـتأصل أهلنـا" هكـذ تكلـم أهـل القـرى وكانـوا قـد ذبلـوا. فلـم يكـن لديهـم مـا يأكلونـه. وكان النـاس يُقْـضَى عليهـم ويتحللـون فـوق جسـده، وفى أثنـاء ذلـك كان هـو يـشرب مـن علبـة التبـغ ويقطـع فى جسـد الثعبـان. هكـذا قبـع دايهومـا دائمًـا هنـاك فى داخلـه ومنـذ زمـنٍ لم يعـرف قـدره كان الشـقى لم يـأكل شـيئًا ولم يـشرب سـوى عصـير التبـغ، فـماذا كان سـيأكل؟ فـشرب عصـيراً وبقـى هادئًـا رغـم كل روائـح التحلـل الكريهـة. أمـا القبائـل فقـد قُـضى عليهـا بعـد أن التهـم الثعبـان أجسـاد الجميع مـن النهـر حتـى سـفح السـماء، فلـم يعـد هنـاك وجـودٌ للبشر. فـكان أن قالـت لـه أرواحـه المعاونـة: "دايهومـا هـذا ليـس ميناؤك عـلى النهـر حيـث تسـكن، فاسـتأنف الآن القطـع بقـوةٍ، فبعـد منعطفـين للنهـر سـتكون بـدارك". فلـما قطـع دايهومـا، قالـت لـه: "مـزق دايهومـا، مـزق بقـوةٍ". وهنـا مـزق دايهومـا فشـق وبقـر فـروة البطـن فى الميناء، وقفـز مـن خـلال فتحـةٍ إلى الخـارج. ومـا إن صـار بالخـارج حتـى جلـس وهنـاك حلـق رأسـه تمامًـا حتـى صـار أصلـع. وصـار الثعبـان يتقلـب هنـا وهنـاك. هكـذا رجـع الرجـل فى حالـةٍ بائسـة بعـد مـا قـضى داخـل الثعبـان زمنًـا لا يقـدَّر، فـكان أن اغتسـل جيـدًا ووصـل إلى كوخـه فـرأى ثانيـةً ابنتـه التـى فرحـت بأبيهـا.

طبقًـا للنـص الكامـل لهـذه الأسـطورة الـذى قدمنـا لـه ملخصًـا موجـزًا للغايـة، فـإن هنـاك مـا لا يقـل عـن خمسـة عـشر موضعًـا مسـتقلاً وصفـت كيـف تعفـن النـاس فـوق البطـل داخـل الثعبـان، فكانـت هـذه الصـورة الملحـة للغايـة المنطويـة عـلى شىء قاهـر هـى التـى تتكـرر غالبًـا فى الأسـطورة، إلى جانـب صـورة الالتهـام. وبفضـل احتسـاء عصـير التبـغ كان دايهومـا يحفـظ حياتـه. ومـا ميـز البطـل كان هـذا الهـدوء والثبـات وسـط عفـنٍ شـامل. فقـد تحلـل فوقـه كل البـشر إلا أنـه كان دائمًـا هنـاك، وحـده فى قلـب العفـن الشـامل، صلـب العـود لا يحيـد عـن هدفـه. فـإذا شـئنا قلنـا إنـه البطـل الـبرىء فـلا ذنـب لـه فيـما أصـاب الآخريـن مـن عفـنٍ، لكنـه تحمـل العفـن وهـو فى قلـب العفـن فلـم يكسره ذلـك، بـل كان هـذا - إن جـاز لنـا قـول ذلـك - هـو مـا أبقـى عليـه. إن تكثيـف أحـداث هـذه الأسـطورة، حيـث جـرت كل أحداثهـا المهمـة داخـل الثعبـان بالفعـل، هـو أمـرٌ غـير قابـل للجـدل، فهـو الحقيقـة ذاتهـا، فالبطـل هـو مـن يبقـى عـلى قيـد الحيـاة دائمًـا وأبـدًا وسـط ظـروف خطـرة، ولكـن ليـس البطـل وحـده هـو مـن يبقـى حيًـا، فهنـاك حـدثٌ بنفـس القيمـة يجـرى عـلى كتلـة ذويـه، أى

تحديدًا عندما يُقضى عليهم جميعًا، فكيف يتسنى لأحدهم إنقاذ نفسه فى حربٍ ما إذا مات كل ذويه؟ وكيف يكون شعوره؟

هذا ما يفسره لنا موضعٌ بأسطورةٍ خاصة بالهنود الحمر سجلها "Koch-Gruenberg" عن قبائل الـ"تاوليبانج" بجنوب أمريكا.[91]:

لقد وصل الأعداء وهاجموهم. جاءوا إلى القرية المكونة من خمسة بيوتٍ فأحرقوا منها موضعين ليلاً حتى تضاء فلا يتسنى لأهل القرية الفرار فى جنح الظلام، فقتلوا الكثيرين بالمقامع فى أثناء فرارهم من ديارهم. وكان هناك رجلٌ يدعى "ميتشاول" قد رقد سالمًا بين كومٍ من الأموات، ولطخ وجهه وجسده بالدماء كى يخادع الأعداء الذين ظنوا أن الجميع قد ماتوا، فمضوا إلى حال سبيلهم ليبقى الرجل وحيدًا. ثم مضى فاغتسل وذهب إلى دارٍ أخرى لم تكن بعيدةً معتقدًا بوجود أناسٍ هناك، لكنه لم يجد أحدًا بعد أن هرب الجميع، ولم يعثر إلا على أرغفة نبات المنيهوت وقديدٍ قديم، فأكل، ثم خطر بباله مغادرة الدار ليذهب إلى مكانٍ بعيد فجلس وأخذ يتدبر الأمر، فتذكر أباه وأمه اللذين قتلا على يد الأعداء فلم يعد له أحدٌ. ثم قال: "أريد أن أرقد إلى جوار رفاقى الموتى"، فعاد إلى القرية المحترقة تتملكه الرهبة. وهناك كان الكثير من الصقور، وكان ميتشاول طبيبًا ساحرًا، وكان قد حلم بفتاةٍ جميلة، فطرد الصقور ورقد بجوار رفاقه الموتى ولطخ نفسه ثانيةً بالدم ووضع يديه على رأسه حتى يتسنى له المبادأة فى الحال. ثم جاءت الصقور مرةً أخرى لتتنازع الجثث، وهنا جاءت ابنة ملك الصقور، فماذا فعلت ابنة ملك الصقور؟ لقد وقفت فوق صدر ميتشاول، فلما شاءت شق بطنه أمسك هو بها ففرت الصقور، فقال لابنة ملك الصقور: "فلتتحولى امرأةً، فأنا هنا وحيدٌ للغاية، وليس عندى من يساعدنى". ثم أخذها معه إلى الدار المهجورة وهناك احتفظ بها طائرًا أليفًا. وكان أن قال لها: "سوف أمضى الآن لصيد السمك فلما أعود أجدك قد صرتِ امرأةً!".

هكذا نجده فى مبدأ الأمر قد رقد بين الأموات حتى ينجو بنفسه، فتظاهر بأنه واحدٌ منهم حتى لا يعثر الأعداء عليه، ثم اكتشف أنه الوحيد الباقى، فشعر بالحزن والخوف، فقرر أن يرقد ثانيةً بين رفاقه الموتى، وربما خطر بباله فى البداية أن يشاطرهم مصيرهم، لكنه لم يأخذ الفكرة بكثيرٍ من الجدية بعد أن حلم بفتاةٍ جميلة، فلما لم ير حوله سوى الصقور، فأمسك بإحداها ليتخذها

زوجـةً. وقـد نضيـف إلى ذلـك أن الطائـر قـد تحـول حسـب رغبتـه إلى امـرأة. ومـن المثير للانتباه هـذا العـدد الكبـير مـن القبائـل - عـلى وجـه الأرض كافـةً – التـى نشـأت مـن زوجـين بقيـا وحدهـما عـلى قيـد الحيـاة. وهـى الحالـة الشـهيرة للغايـة المعروفـة بالطوفـان الـواردة بالإنجيـل، وقـد خفـت وطـأة حكمهـا بمنـح نـوح الحـق فى اصطحـاب أسرتـه كلهـا، فقـد سُـمِح لـه باصطحـاب قبيلتـه فى السـفينة وزوجًـا مـن كل كائـنٍ حـى، لكنـه كان هـو فقـط مـن نظـر إليـه الـرب بعـين الرحمـة، أى ميـزة البقـاء عـلى قيـد الحيـاة، وهـى هنـا حالـةٌ دينيـة، فمـن أجلـه فقـط سُـمِح للآخريـن بالصعـود إلى السـفينة.

وهنـاك مثـالٌ أكـثر تجريـدًا مـن الأسـطورة ذاتهـا، وهـى حكايـاتٌ يُقْـضَى فيهـا على كل البـشر الآخريـن فيـما عـدا الزوجـين والـدى القبيلـة. وهـذه الحكايـات لا ترتبـط دائمًـا بفكـرة الطوفـان. فهـى فى الغالـب حـالات وبـاءٍ، يمـوت فيهـا الجميـع فيـما عـدا رجـلاً واحـدًا فقـط، يظـل يبحـث فى كل مـكانٍ حتـى يلقـى امـرأةً واحـدةً فقـط أو ربمـا اثنتـين فيتزوجهـما ليغـرس بـذرة نسـلٍ جديـد. ومـا يُضـاف إلى قـوة ومجـد هـذا الجـد هـو أنـه كان ذات مـرةٍ الوحيـد الباقـى. فهـذا نـوعٌ مـن الفضـل يُنسَـب إليـه وإن لم يُذكَـر ذلـك صراحـةً، فهـو لم يُقْـضَ عليـه مـع الآخريـن مـن أقرانـه. وإضافـةً إلى مكانتـه التـى يتمتـع بهـا كجـدٍ لـكل نسـله يكـون الاحـترام للقـوة الطيبـة التـى سـاعدته عـلى البقـاء حيًـا. وقـد لا يكـون هنـاك مـا ميـزه عـن كثيريـن مـن رفاقـه فى أثنـاء حياتـه بينهـم، فقـد كان إنسـانًا كالآخريـن جميعًـا، إلا أنـه يصـير فجـأةً وحيـدًا تمامًـا. لِيَـلى ذلـك اسـتعراضٌ لتفاصيـل رحلتـه، ويحتـل القسـم الأكـبر مـن ذلـك بحثـه عـن الأحيـاء الذيـن يجـد بـدلاً منهـم جثثًـا فى كل مـكان. لكـن يقينـه المتنامـى بعـدم وجـود أحـدٍ غـيره بالفعـل يغمـره بالقنـوط. وهنـاك ملاحظـةٌ أخـرى أيضًـا لا يمكـن تجاهلهـا وهـى أن البشريـة التـى تبـدأ بـه ثانيـةً، والتـى تديـن لـه وحـده بالفضـل، والتـى مـن دونـه ومـن دون شـجاعته مـا كانـت لتبـدأ مـرةً أخـرى ولم تكـن لتوجـد عـلى الإطـلاق. ومـن بـين أبسـط مـا وصلنـا مـن تـراثٍ مـن هـذا النـوع واحـدةٌ عـن أصـل الـ"كوتنـاى"، ونصهـا كالتـالى[92]:

عـاش النـاس هنـاك. وفجـأةً ظهـر وبـاءٌ فماتـوا. مـات الجميـع وكانـوا قـد طافـوا بـكل مـكانٍ يخـبر بعضهـم البعـض بالنبـأ. وقـد تفـشى المـرض بـين جميـع أفـراد الـ"كوتنـاى"، فمضـوا إلى موضـعٍ مـا، وروى ذلـك بعضهـم لبعـض، وهـو مـا حـدث فى

كل مكانٍ. وفى موضعٍ ما لم يجدوا أحدًا، فقد مات الجميع، فقط كان هناك شخصٌ قد تبقى. وذات يوم شفى "هذا الباقى"، وقد كان رجلاً، وكان وحيدًا، ففكر: "سوف أطوف أرجاء العالم وأرى إن كان هناك أحدٌ بمكانٍ ما، فإذا لم يكن هناك أحدٌ فإننى لن أعود لأنه لا يوجد أحدٌ هنا، ولن يأتى أحدٌ أبدًا لزيارتى". فكان أن رحل فى زورقه ليصل إلى آخر مخيم للـ"كوتناى". وعندما جاء إلى حيث كان عادةً ما يوجد بشر على الضفة، لم يجد هناك أحدًا. وعندما طاف بأرجاء المكان لم ير سوى موتى، ولم يوجد بأى مكانٍ ما يشير إلى وجود أحياءٍ، وهنا أدرك أنه لم يبق أحد بالمكان، فواصل ترحاله فى زورقه. فلما وصل موضعًا آخر نزل، ومرةً أخرى لم يجد سوى موتى. وفى المكان كله لم يجد أحدًا. فشق طريق العودة ووصل المستوطنة الأخيرة حيث كان يعيش أفراد الـ"كوتناى". وكان أن دخل المكان ولم يكن بالخيام سوى جثثٍ مكدسة. وهكذا صار يطوف فى كل مكانٍ ليرى أن الجميع قد ذهبوا. وكان فى أثناء سيره يبكى وهو يقول لنفسه: "إننى الوحيد الذى تبقى، حتى الكلاب نفقت". وعندما وصل القرية الأخيرة رأى آثار أقدامٍ بشرية، وهناك كانت خيمةٌ، ولم يكن بها جثثٌ، وكانت القرية على الجانب الآخر فأدرك حينئذٍ أن هناك اثنين أو ثلاثةً من البشر ما زالوا أحياءً بعد أن رأى آثارًا كبيرة وأخرى صغيرةً، ولكنه لم يستطع الجزم بأنها لثلاثتهم، لكن كان هناك شخصٌ قد نجا، فواصل الترحال وهو يفكر: "سوف أجدف فى هذا الاتجاه، فمن كانوا يعيشون هناك سابقًا كانوا يجدفون فى هذا الاتجاه. فإن كان هناك رجلٌ فربما كان قد ارتحل". وفى أثناء جلوسه على هذه الحال بزورقه رأى على مسافةٍ ما دببين أسودين، ورأى كيف يأكل الدببان ففكر: "سوف أمضى لأقتلهما، فإن قتلتهما فإنى سوف آكلهما وسوف أجفف اللحم ثم أبحث عما إذا كان هناك أحد الناجين، فلقد رأيت آثار بشرٍ، وقد يكونون رجالاً أو نساءً جائعين فيجب أن أوفر لهم أيضًا ما يأكلونه". فمضى فى اتجاه الدببين حتى وصل إلى مقربةٍ منهما ورأى أنهما لم يكونا دببين بل امرأتين، كانت إحداهما أكبر سنًا وكانت الأخرى فتاةً شابة، ففكر: "إنى فرحٌ لرؤيتى بشرًا وسوف أتخذ هذه المرأة زوجةً". فمضى إلى هناك وأمسك بالفتاة، فقالت الفتاة لأمها: "أمى إنى أرى رجلاً". فتطلعت الأم ورأت أن ابنتها تقول الحق، ورأت كيف أخذ الرجل ابنتها. هنا بكت المرأة والفتاة والشاب، فقد كان كل أفراد الـ"كوتناى" قد ماتوا، فلما نظر كلٌ منهم إلى الآخر بكوا جميعًا معًا. أما المرأة فقالت: "لا تأخذ ابنتى فهى ما زالت صغيرة

ولتأخذنى أنا فتصير زوجى وفيما بعد عندما تكبر ابنتى سوف تصبح لك زوجةً، ثم يصير لك أبناءً". فتزوج الشاب المرأة الأكبر سنًا ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى قالت المرأة: "الآن قد كبرت ابنتى، الآن يمكنها أن تصير زوجتك. فمن الخير أن يكون لكما أبناء فجسدها صار الآن قويًا". وهنا اتخذ الشاب الفتاة زوجةً له. ومنذ تلك اللحظة تكاثرت الـ"كوتناى".

أما النوع الثالث من الكوارث فيكون أحيانًا بمثابة إحدى تبعات وباءٍ أو حربٍ، وهو الانتحار الجماعى وهو ما يتخلف عنه كذلك "باقون على قيد الحياة". وهنا تحل إحدى الأساطير بمكانها المناسب وهى أسطورة الـ"با - إيلا"، وهو أحد شعوب الـ"بانتو" فى روديسيا[93]. فقد كانت هناك أسرتان من الـ"با إيلا" اتخذت إحداهما اسمها من الأغنام والأخرى من الدبابير، وقد نشب بينهما نزاعٌ كان يدور حول من مِن الأسرتين لها الحق فى الحصول على شرف الزعامة. فأما أسرة الأغنام والتى كان لها السبق فى ذلك، فكانت قد خسرت هذا المنصب، فقرر أفراد الأسرة بدافع كرامتهم المجروحة أن يغرقوا أنفسهم جميعًا فى البحيرة. فكان أن جدلوا حبلاً طويلاً للغاية رجالاً ونساءً وأطفالاً. ثم تجمعوا عند ضفة النهر وربطوا الحبل حول أعناقهم الواحد تلو الآخر وألقوا بأنفسهم فى الماء. وكان رجلٌ من أسرةٍ ثالثة تدعى عائلة الأسد متزوجًا بامرأةٍ من أسرة الأغنام، فحاول منعها من الانتحار، فلما لم يفلح فى ذلك قرر الموت مع زوجته. وقد شاءت الصدفة أن يكون هذان هما آخر من ربطا نفسهما بالحبل، فخاضا الماء مع الآخرين وأوشكا على الغرق، فلما أحس الرجل بألمٍ ما قطع الحبل وخلص نفسه وزوجته، فحاولت هى الإفلات منه وصاحت: "دعنى وشأنى! دعنى وشأنى!" إلا أنه لم يتراجع وحملها إلى البر. ولذلك يقول أفراد الأغنام: "كنا من أنقذكم من الانقراض. لقد كنا نحن أولئك!".

وفى نهاية المطاف كانت هناك فكرةٌ لاستخدام واعٍ للبقاء على قيد الحياة وهى تنتسب للعصور التاريخية، كما أنها موثقة. ففى صراع تطهيرٍ عرقى بين اثنتين من قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبية كان رجلٌ وحيد من جانب الأعداء المدحورين قد تُرِك على قيد الحياة ليُرسَل إلى قبيلته. وكان عليه إبلاغهم بما رآه، فكان عليه أن يثبط أية عزيمةٍ لديهم فى استمرار القتال. ولنقرأ ما دوّنه "Humboldt" فى تقريره حول رسول الفزع هذا[94]:

كانـت المقاومـة العنيـدة التـى أبدتهـا قبيلـة الـ"كابـرى" المتوحـدة بقيـادة زعيـمٍ باسـل ضـد قبائـل الـ"كارايـبن" كفيلـةً بالقضـاء عـلى هـؤلاء بعـد عـام 1720، فقـد دحـروا أعداءهـم عنـد مصـب النهـر وقُتِـلَ جمـعٌ غفير مـن الـ"كاريـبن" فى أثنـاء فرارهم بـين شـلالات المـاء وإحـدى الجـزر. أمـا الأسرى فقـد تـم أكلهـم عـلى أقـصى نحـوٍ مـن القسـوة والوحشـية، وهـو أمـرٌ اعتادتـه شـعوب جنـوب وشـمال أمريـكا. وهكـذا تركـوا أحـد أفـراد الـ"كرايـبن" ليكـون شـاهدًا عـلى الفعـل الوحـشى، فجعلـوه يصعـد شـجرةً ليبلـغ عـلى الفـور المدحوريـن بمـا جـرى. إلا أن نشـوة زعيـم الـ"كابـرى" بالنـصر لم تـدم طويـلاً، فقـد هجـم الـ"كارايـبن" بكتـلٍ غفـيرة حتـى أنـه لم يتبـق مـن الـ"كابـرى"، آكلى لحـوم البـشر، إلا عـددًا بائسًـا.

وقـد كان هـذا الـذى تركـوه حيًـا بغـرض الإهانـة، قـد رأى مـن موقعـه عـلى الشـجرة كيـف يـؤكل أهلـه، فـكل المحاربـين الذيـن خـرج معهـم سـقطوا فى أثنـاء القتـال أو انتقلـوا إلى معـدة الأعـداء، وهـو مـن أُرغِـم عـلى البقـاء حيًـا وتـم إرسـاله إلى أهلـه، وكانـت مشـاهد الفـزع مـا زالـت ماثلـةً أمـام عينيـه. وكان مغـزى الرسـالة كـما ظـن الأعـداء هـو: "واحـدٌ منكـم تبقـى، هكـذا نحـن أقويـاء فـلا تجـرؤوا ثانيـةً عـلى قتالنـا". لكـن هـول مـا رآه وبقـاءه وحيـدًا، وهـو مـا أُرغِـم عليـه، كان لـه أثـرٌ كبـير جعلـه يـأتى بالنقيـض فيحـرض أهلـه عـلى الثـأر ليتدفـق الـ"كارايـبن" مـن كل مـكانٍ بجمـوعٍ غفـيرة ليضعـوا للأبـد نهايـة للـ"كابـرى".

هـذه الوثيقـة، وهـى ليسـت فريـدةً مـن نوعهـا، تظهـر مـدى الوضـوح الـذى يـرى بـه شـعوب الطبيعـة هـذا الباقـى عـلى قيـد الحيـاة. وهـم يدركـون حقيقـةً موقفـه الخـاص تمامًـا. وهـم يعتمـدون عـلى ذلـك ويحاولـون اسـتخدامه لخدمـة أغراضهـم الخاصـة. ويعتـبر الطرفـان، الأصدقـاء والأعـداء، أن هـذا الكاريبـى الـذى كان عـلى الشـجرة قـد أدى دوره عـلى خـير وجـه. فـإذا تأملنـا هـذا الـدور المـزدوج بـشىءٍ مـن الجـرأة فإننـا سـنتعلم منـه الكثـير.

الأمـــوات كالأحيـــــاء

ما من أحد اهتم بوثائق أصليةٍ عن الحياة الدينية إلا وأصابته سلطة الموتى بالدهشة. فوجود قبائل كثيرة اعتمد أساسًا على شعائر مرتبطةٍ بالموتى. أما أول ما يلفت الانتباه، وهو منتشرٌ بكل مكان، فهو خشية الموتى، غير الراضين والمترعين بحسد أقاربهم الذين تركوهم ومضوا، وأحيانًا ما يسعون للانتقام منهم من جراء إهاناتٍ لحقت بهم في أثناء حياتهم، وغالبًا ما يسعون لذلك فقط لأنهم لم يصبحوا على قيد الحياة. وحسد الموتى هو أكثر ما يخشاه الأحياء الذين يحاولون تهدئة روع هؤلاء بتملقهم مقدمين لهم الغذاء، فيعطونهم كل ما يحتاجونه زادًا لطريقهم إلى أرض الموتى فقط حتى يظلوا بعيدًا ولا يعودوا ثانيةً ليُلحقوا بهم أذى ويعذبوا الباقين على قيد الحياة. وأرواح الموتى يرسلون الأمراض أو يجيئون هم بها، كما أن لهم تأثيرًا على نمو الحيوانات البرية والمحاصيل، وهم يتدخلون في شئون الأحياء بمئة طريقة. أما شغفهم الحقيقي الذي يتبدى من حينٍ لآخر، فهو استدعاء الأحياء إليهم. ولما كانوا يحسدون كل أدواتٍ تُستخدَم في الحياة اليومية، وهي ما اضطروا لتركها، فقد جرت العادة في البداية ألا يُحْتفَظ بأيٍ من هذه الأدوات أو أقل ما يمكن منها. فكان كل شيء مهم يُحْمَل معهم إلى القبر أو يتم حرقه معهم، والناس يغادرون الكوخ الذي سكنه هؤلاء ولا يعودون إليه أبدًا، وغالبًا ما كانوا يُدْفَنون في ديارهم مع كل ما يملكونه ليبرهنوا على أن أحدًا لم

يحتفظ بشىءٍ من هذا لنفسه. إلا أن ذلك أيضًا لم يكن كافيًا للخلاص التام من سخطهم، فحسد الموتى الأعظم لم يكن موجهًا لأدواتٍ كانوا يأمرون بإعادة صنعها أو الحصول عليها إنما كان حسدهم موجهًا للحياة نفسها. وقد صار الآن يقينًا لافتًا للانتباه أن هذا الشعور نفسه يُنْسَب للموتى فى كل مكانٍ وفى كل الظروف، مهما كان اختلافها. والإحساس نفسه - كما يبدو- يسود موتى كل الشعوب، فدائمًا ما كانوا يتمنون البقاء على قيد الحياة. أما الذين ما زالوا هنا فهم يرون أن كل من لم يعد هنا قد لقى هزيمةً ما، تأسيسًا على أن غيره بقى على قيد الحياة، لذا لا يرتضى أولئك ذلك، فكان من طبائع الأمور أن يذيقوا الآخرين هذا الألم الأعظم الذى قاسَوا منه. هكذا يكون كل ميتٍ هو من ترك خلفه أحياءً، إلا فى تلك الكوارث الكبيرة النادرة نسبيًا التى يموت فيها الجميع معًا، فهنا تكون العلاقة مختلفةً. أما الموت الفردى، وهو ما يهمنا هنا، فهو أمرٌ يتعلق بإنسانٍ ما قد انتُزِع من أسرته، من أهله فتكون هناك جماعةٌ كاملة من الباقين على قيد الحياة ما زالت موجودةً. والجميع من أهل الميت يشكلون حزمة مناحةٍ تبكيه، فيضاف إلى الشعور بالانكسار، الناشئ عن موته، شعورٌ بالحب الذى يضمره هؤلاء له. وغالبًا ما يصعب فصل هذا الشعور عن ذاك، والمناحة عليه تكون على النحو الأكثر حرقةً، وهى يقينًا شعورٌ حقيقى فى جوهرها. فإذا جنح غرباء لإثارة الشك فى هذه المناحة فإن هذا يرجع إلى الطبيعة المعقدة لتأويل هذه الحالة، متعددة الوجوه، كحالة مناحةٍ، فهؤلاء أنفسهم المشاركون فى المناحة هم أيضًا من الباقين على قيد الحياة، فهم ينوحون لأن المُصاب مصابهم وهم يشعرون بنوعٍ من الرضا لأنهم باقون على قيد الحياة، وهم عادةً لا يقرون بهذا الشعور الغريب غير اللائق، لكنهم يكونون دائمًا على معرفةٍ دقيقة بمدى شعور الميت بذلك، فهو لا بد له من أن يمقتهم لأن الحياة التى فقدها ما زالوا هم يحتفظون بها. وهم يستدعون روحه لإقناعه بأنهم لم يبغوا موته، فيذكرونه بمشاعرهم الطيبة نحوه عندما كان يعيش بينهم ويعددون براهين عمليةً على أنهم سيفعلون كل ما يشاء وأنهم سوف يخلصون فى تحقيق آخر ما أعرب عنه من أمنيات. وإرادته الأخيرة لها قوة القانون بكل مجال وكل ما يفعلونه ينطوى على دافعٍ راسخ، هو سخطه على حقيقة أنهم ما زالوا على قيد الحياة.

وقد كان أحد أطفال الهنود الحمر فى "ديمريرا"[95] قد اعتاد أكل الرمال فمات من جراء ذلك. وها هو يرقد فى تابوتٍ مفتوح اقتناه أبوه من نجار مجاور له.

قبـل الجنـازة كانـت جدتـه قـد وقفـت حيـال التابـوت وقالـت وهـى تنـوح: "بنـى قـد قُلـت دائمًـا لا ينبغـى أن تـأكل الرمـل. إنى لم أعطـك رمـلاً قـط، فقـد كنـتُ أعـرف أن ليـس فيـه خـير لـك، فكنـتَ تبحـث عنـه دائمًـا بنفسـك. وقـد قلـتُ لـك إنـه ضـارٌ بـك. والآن هـا أنـت تـرى أنـه قتلـك فـلا تفعـل بى شـيئًا، فقـد آذيـت نفسـك بنفسـك. أمـا مـا أَوحـى إليـك بـأكل الرمـال فهـو شىء شريـر. انظـر هـا أنـا أضـع بجـوارك سـهمًا وقوسًـا لتسـتمتع بهـما. قـد كنـت دائمًـا طيبـةً نحـوك، فلتكـن أنـت طيبًـا نحـوى ولا تفعـل بى شـيئًا". ثـم تقدمـت الأم إلى هنـاك باكيـةً وحادثتـه بأسـلوب مـا مـن الغنـاء: "بنـى، أنـا مـن جئـت بـك إلى الدنيـا حتـى تـرى كل الأشـياء الطيبـة وتفـرح بهـا، وهـذا الثـدى كان غـذاءك متـى طلبتـه. وقـد صنعـت لـك أشـياء وقمصانـًا جميلـة، وقمـت عـلى رعايتـك وطعامـك ولعبـت معـك ولم أضربـك قـط، فينبغـى أن تكـون طيبًـا ولا تلحـق بى أى شر". واقـترب كذلـك والـد الطفـل الميـت وقـال: "بنـى عندمـا قلـت لـك إن الرمـل سـيقتلك لم تشـأ الإنصـات إلى، والآن هـا أنـت تـرى، لقـد مـت. ولقـد مضيـتُ واشـتريت لـك تابوتـًا جميـلاً ولسـوف أُضطـر إلى العمـل حتـى أسـد ثمنـه. ولقـد شـيدت لـك قـبرًا بموضـعٍ جميـل حيـث كنـت تفضـل اللعـب. وإننـى سـوف أضعـك بالمقـام الصحيـح وأضـع معـك رمـلاً لتأكلـه، فهـو لا يسـتطيع الآن إلحـاق الـضرر بـك. فـلا ينبغـى أن تصيبنـى بالشـقاء. فمـن الأفضـل أن تبحـث عمـن جعلـك تـأكل الرمـل".

لقـد أحـب كلٌ مـن الجـدة والأم والأب هـذا الطفـل. ورغـم أنـه كان صغـيرًا للغايـة إلا أنهـم خشـوا سـخطه لأنهـم ظلـوا عـلى قيـد الحيـاة. وقـد شـددوا عـلى أنهـم لا يـد لهـم فى موتـه. وقـد أعطتـه جدتـه سـهمًا وقوسًـا، واشـترى لـه الأب تابوتـًا غـالى الثمـن ووضـع لـه رمـلاً بالقـبر ليأكلـه لأنـه يعـرف مبلـغ حبـه لـه. إن الحنـان البسـيط الـذى أظهـروه نحـو الطفـل كان ملموسًـا إلا أنـه انطـوى عـلى شىء غريـب لأنـه كان مرتبطًـا بالخشـية.

وقـد نشـأ لـدى بعـض الشـعوب مـا يعـرف بعقيـدة الأسـلاف الناشـئة عـن الإيمـان باسـتمرار المـوتى أحيـاءً. ومهـما كانـت الأشـكال الثابتـة التـى اتخذتهـا هـذه العقيـدة فـإن أثرهـا يتبـدى فى ترويـض الأحيـاء لموتاهـم مـن خـلال تلبيـة أمـانى هـؤلاء، بـأن يمنحوهـم مـا يتمنونـه بانتظـام، فيحافظـون عـلى رضاهـم بالتكريـم والغـذاء. فكـما كانـوا فى هـذه الحيـاة، فإنهـم يظلـون كذلـك فيـما بعـد فيحتلـون موقعهـم السـابق. فمـن كان زعيـمًا قويًـا عـلى ظهـر الأرض فإنـه يكـون كذلـك فى باطنهـا. وعنـد التضحيـة

والدعاء يُذْكَر اسمه بالمقام الأول فيتم إرضاء حساسيته عن وعى، فإذا ما أوذيت فإن خطرًا داهمًا قد يتبع ذلك. فالمتوفى يحرص على نمو نسله، كما أنه يتحكم فى من الأمور، ولذا فلا بد من العمل على إرضاء مزاجه. وهو يحب الإقامة على مقربةٍ من نسله فلا يجوز إتيان ما يطرده من هناك. وهذه الحياة المشتركة مع السلف تتخذ شكلاً حميمًا خاصًا لدى الـ"زولو" بجنوب إفريقيا وكانت تقارير الإرسالى الإنجليزى "Callaway" التى جمعها ونشرها هناك هى أكثر الوثائق مصداقيةً التى توافرت عن عقيدة السلف[96]. فقد ترك الرجال المكلفين بحراسته يتحدثون بأنفسهم ليدوّن هو ذلك بلغتهم. وكتابه "النظام الدينى للأمازولو" هو كتابٌ غير متوافر تقريبًا، لهذا لم يحظ بالشهرة المناسبة، فهو يُعَد من الوثائق الأساسية للبشرية. وأسلاف الـ"زولو" يصيرون ثعابين ويمضون إلى باطن الأرض إلا أنهم ليسوا، كما نظن، ثعابين أسطورية، فهى من النوع المألوف تمامًا وهى تجوس بالقرب من الأكواخ التى كانوا هم أيضًا غالبًا ما يدخلونها. وبعضٌ من هذه الثعابين تُذكِّر من خلال سماتها الجسدية، بأسلافٍ بعينهم يتعرف عليها الأحياء كأجدادهم. لكنها لا تكون ثعابين فحسب فهى تظهر فى الأحلام للأحياء بهيئتها الإنسانية وتتحدث إليهم. وينتظر الناس هذه الأحلام، فمن دونها تكون الحياة غير مريحةٍ، فهم يريدون الحديث مع موتاهم الحريصين على الظهور بأحلامهم بوضوح لا لبس فيه. وأحيانًا ما تغيم صورة السلف وتصير معتمةً فيعمل الناس على جلائها ثانيةً من خلال طقوسٍ بعينها. ومن حينٍ لآخر يتم تقديم الأضحيات لهم، خاصةً فى المناسبات المهمة، فتُذْبَح لهم الأغنام والثيران ثم يُدعَون بحفاوةٍ لتناول ذلك، فيناديهم المرء بلقبهم الفخرى الذى يعطونه أهميةً عظيمة، فهم يحبون التكريم للغاية، فإذا نُسيَت هذه الأسماء الفخرية أو لم تُذْكَر، اعتبروا ذلك إهانةً. أما الحيوان الذى يُضحَى به فلا بد من أن يصرخ عاليًا حتى يسمعونه، فالأجداد يحبون هذا الصراخ، أما الأغنام التى تموت فى صمتٍ فلا تُسْتَخدَم كأضحيات لهذا السبب. فالأضحية ليست سوى وجبةٍ يتقاسمها الموتى والأحياء معًا، إنه نوعٌ من "تناول" الأحياء مع الموتى، فهؤلاء يشعرون بالرضا ويطلبون الخير لنسلهم إذا عاش الأحياء على النحو الذى اعتاده الأجداد محافظين على العادات والتقاليد لا يغيرون منها شيئًا مقدمين لهم الأضحيات بانتظام. فإذا ما أصيب فردٌ ما بعلةٍ فإنه يدرك أنه أثار غضب أحد الأجداد، فيفعل كل شىء من أجل معرفة سر هذا الغضب، فالموتى لا يتوخون

العدل أحيانًا فقد كانوا بشرًا يأتون بما يتسق مع شخصيتهم. ومما يستحق الجهد أن نذكر حالةً من تلك التى عالجها "Callaway" بشيءٍ من الإسهاب. وهذه الحالة توضح أن مثل هؤلاء الموتى المكرمين قد لقوا عناية ذويهم الأحياء بسبب أن هؤلاء ظلوا على قيد الحياة. وقصةٌ واحدة من صور هذا السخط، كما نستعرضها الآن، تتسق مع مسار مرضٍ خطير كما نفهمه نحن الآن. فقد مات أخٌ أكبر. فأما ممتلكاته، وعلى نحوٍ خاص للغاية الماشية التى اعتبرت من ممتلكاته، فقد انتقلت إلى أخيه الأصغر. وتبعة هذا الإرث هى أمرٌ مألوف، فالأخ الأصغر الذى انتقل إليه الميراث وقدم كل الأضحيات كما ينبغى لم يعلم بأى خطأ ارتكبه ضد المتوفى. إلا أنه أصيب فجأةً بمرضٍ شديد، ووافاه أخوه الأكبر فى منامه:

(لقد حلمت أنه يضربنى ويقول لى: "كيف يتأتى أنك لم تعد تعرف أنه هو أنا؟"، فأجبت: "فماذا أستطيع فعله حتى ترى أننى أعرفك؟ فأنا أعرف أنك أخى!"، فسألنى: "إن أنت ضحيت بثورٍ فلماذا لا تدعونى؟" فأجبت: "لكننى دعوتك، بل إنى دعوتك باسمك الفخرى. فلتذكر لى هذا الثور الذى ذبحته دون أن أدعوك"، فرد هو: "إنى أريد لحمًا"، فرفضت ذلك وقلت: "لا يا أخى فليس لدى الثور. فهل رأيت ثورًا بحظيرة المواشى؟"، فقال: "لو أنه لم يوجد إلا واحد، فإننى أطلبه". فلما استيقظت شعرت بألمٍ بجانبى فحاولت التنفس ولم أستطع فقد تقطعت أنفاسى).

لقد كان الرجل عنيدًا فلم يشأ التضحية بثورٍ. وقد قال: "إننى حقًا مريض، وإنى أعرف المرض الذى أصابنى". فقال له الناس: "إن كنت تعرفه فلماذا لم تشف منه؟ فهل بوسع رجلٍ أن يتسبب فى إصابة نفسه بالمرض؟ فإذا ما عرف المرض فهل يسعى للموت؟ لأنه إذا غضبت الروح على رجلٍ، فإنه يُقضى عليه". فرد هو: "كلا يا سادتى! لقد أصابنى رجلٌ بالمرض وأنا أراه بمنامى إذا أويت إلى الفراش لأنه يشتهى اللحم فهو يجيئنى مراوغًا ويقول إننى لم أدعه عندما ذبحت الماشية وهو ما يدهشنى للغاية لأننى ذبحت كثيرًا من الماشية ولم أذبح إحداها إلا ودعوته. فإن كان يشتهى اللحم فبوسعه أن يقول لى ببساطة: أخى، إنى أشتهى اللحم. لكنه يقول لى إننى لا أكرمه، إننى حانقٌ عليه. وأظنه لا يريد إلا قتلى". فقال الناس: "أتعتقد أن الروح يمكن أن تفهم الكلام؟ فأين هو، حتى نخبره برأينا؟ لقد كنا دائمًا موجودين عندما ذبحت الماشية ولقد امتدحته ودعوته بألقابه

الفخرية التى نالها لبسالته. ولقد سمعنا ذلك فإن كان ممكنًا أن هذا الأخ أو أى رجلٍ آخر مات وبُعِث فإنه بوسعنا استجوابه ونسأله: لماذا تتفوه بمثل هذه الأمور؟". فأجاب الرجل المريض: "آخ، إن أخى يسلك هذا المسلك المتغطرس لأنه الأكبر. فأنا أصغر منه، وإنى لأعجب عندما يطلب منى أن أقضى على كل الماشية فهل ترك هو أية ماشية عند موته؟". فقال الناس: "لقد مات الرجل إلا أننا ما زلنا نتكلم معك أنت، وما زالت عيناك تنظران إلينا بالفعل، هذا ما نقوله لك، وفيما يخص الآخر فلنتحاور معه بهدوء، وحتى لو لم يكن لديك سوى شاة فقدمها له، وإنه لعارٌ لو جاء هنا وقتلك. فلماذا ترى أخاك دومًا بالمنام وتصير مريضًا؟ فمن المفترض أن الرجل يحلم بأخيه فيستيقظ معافى". فقال: "حسنًا، سادتى، إنى أريد منحه اللحم الذى يشتهيه. إنه يطلب اللحم. إنه سيقتلنى. إنه يظلمنى. فأنا أحلم به كل يوم لأستيقظ بعدها متألمًا. إنه ليس رجلاً. فقد كان دائمًا شخصًا بائسًا ينزع للعنف لأنه كان هكذا دائمًا، يقابل الكلمة باللكمة. فإن حادثه أحدٌ هاجمه فى الحال ليقع شجارٌ ينقلب عراكًا كان هو السبب فيه. إنه لم يفهم قط ولم يعترف فيقول: لقد ارتكبت خطأ كان علىَّ ألا أتشاجر مع هؤلاء الناس. أما روحه فهى مثله. إنه سيئٌ. وهو حانقٌ دائمًا، لكنى أريد منحه اللحم الذى يشتهيه. فإن رأيت أنه تركنى وشأنى وصرت معافى، فإننى سأذبح ماشيةً من أجله غدًا، وعليه أن يدعنى معافى وأستطيع التنفس، إذا كان هو ذلك فلا ينبغى أن تختنق أنفاسى مثل ما يحدث الآن". فوافقه الناس قائلين: "أجل إذا صرت غدًا معافى فلسوف نعلم أنها كانت روح أخيك. لكن إن أصبحت مريضًا فلن نقول إنه هو أخوك ليكون ذلك مرضًا مألوفًا". وعندما غربت الشمس كان لا يزال يشكو من الألم. لكن عندما حان وقت حلب البقر طلب الطعام واشتهى طعامًا مهروسًا واستطاع ابتلاع شىء من هذا، ثم قال: "أعطونى قليلاً من البيرة فإنى عطشان". فأعطته نساؤه بيرة، وشعر باطمئنان قلوبهن، فلقد سعدن لأن الخوف كان تملكهن وسألن أنفسهن: "أيكون المرض سيئًا إلى حد أنه لا يأكل شيئًا؟" وقد سعدن فى صمتٍ ولم يبحن بسعادتهن، لكنهن تبادلن النظرات فقط. أما هو فشرب البيرة وقال: "أعطونى قليلاً من تبغ السعوط، دعونى أتناول منه شيئًا قليلاً للغاية". فأعطينه منه فأخذه واستلقى، ثم غلبه النعاس ثانيةً، وفى الليل جاءه أخوه وقال: "حسنًا هل عينت الماشية من أجلى؟ هل تذبحها غدًا؟". فقال النائم: "سوف أذبح إحدى الماشية من أجلك. لماذا تقول لى يا أخى إنى

لا أدعـوك أبـدًا، وأنـا أكرمـك بألقـاب فخـرك عندمـا أذبـح الماشـية، لأنـك كنـت باسـلاً ومقاتـلاً جيـدًا؟"، فـرد هـو: "إن قـولى ذلـك لـه مـا يـبرره، فأنـا أشـتهى اللحـم ولقـد مـتُ بالفعـل وتركـت لـك قريـةً، فلديـك قريـةٌ كبـيرة".

- "حسـنا، حسـنًا يـا أخـى لقـد تركـت لى قريـةً. لكـن عندمـا تركـت لى القريـة ومـت، كنـتَ ذبحـت هنـا كل ماشـيتك".
- "لا إنى لم أذبحها كلها".
- "حسنًا إذن يا ابن أبى، أتطلب منى أن أقضى على كل شىء؟"
- "كلا، إننـى لا أطلـب منـك أن تدمـر كل شىء، لكنـى أقـول لـك اذبـح كى تصبـح قريتـك كبيرة!"

وكان أن اسـتيقظ وشـعر أنـه بحالـةٍ طيبـة، وقـد بـرئ مـن الألم بجانبـه. فجلـس ولكـز زوجتـه: "اسـتيقظى وأشـعلى نـارًا". فاسـتيقظت زوجتـه ونفخـت فى النـار وسـألته عـن حالـه فقـال: "فلتهـدئى، فعندمـا استقيظت كان لـدى شـعورٌ بسـيط ببـدنى، فلقـد حادثـت أخـى. وعندمـا اسـتيقظت كنـت معـافى". فأخـذ شـيئًا مـن تبـغ السـعوط ونعـس ثانيـةً، فجاءتـه روح أخيـه ثانيـةً وقالـت: "أتـرى أننـى قـد شـفيتك الآن؟ فلتذبـح الماشـية غـدًا!". وفى الصبـاح نهـض ومـضى إلى حظـيرة الماشـية. ولقـد كان لـه إخـوةٌ صغـار فدعاهـم فمضـوا معـه: "إنى أدعوكـم، إننـى الآن معـافى وأخـى يقـول إنـه قـد شـفانى". ثـم دعاهـم أن يُحضِروا ثـورًا، فأحـضروه. "أحـضروا تلـك البقـرة العاقـر"، فأحـضروا الاثنـين. وقـد جـاءوا إلى الطابـق الأعـلى مـن الحظـيرة فدعاهـم بالكلـمات التاليـة: "والآن إذن فلتأكلـوا يـا أهـل بيتنـا. إن روحًـا طيبـة حلـت بيننـا ليكـبر الأطفـال ويبقـى النـاس أصحـاء، وإنى أسـألك يـا مـن هـو أخـى: لمـاذا تأتينـى ثانيـةً ومـرة أخـرى بمنامـى؟ لمـاذا أحلـم بـك ثـم أصـير بعدهـا مريضًـا؟ إن الـروح الطيبـة تجـىء حاملـةً أخبـارًا طيبـة، وإنى لأشـكو المـرض طـوال الوقـت، ومـا هـذه الماشـية التـى يجـب أن يزدردهـا صاحبهـا ليصـير كل مـرةٍ بعدهـا مريضًـا؟ وإنى أقـول لـك توقـف عـن إصابتـى بالمـرض، وإنى أقـول لـك فلتـزرنى بالمنـام وخاطبنـى بهـدوءٍ وقـل لى مـاذا تبغـى، إلا أنـك تأتينـى لتقتلنـى، فمـن الواضـح أنـك كنـت شـخصًا سـيئًا فى أثنـاء حياتـك، فهـل مـا زلـت شـخصًا سـيئًا بباطـن الأرض؟ وإننـى لم أتوقـع حقًـا عـلى الإطـلاق أن تكـون زيارتـك زيـارة ودٍ وأن تحمـل لى أخبـارًا طيبـة. فلـماذا تـأتى إلىَّ بالسـوء يـا أخـى الأكـبر الـذى كان عليـه أن يـأتى بالخـير إلى القريـة فـلا يجـرى عليهـا شىء شريـر؟ فأنـت حقًـا مالـك القريـة". ثـم ألقـى بالكلـمات التاليـة عـلى الماشـية وصـلى شـكرًا: "هـا

هـى الماشـية التـى سـأضحى لـك بهـا. فهـذا ثـورٌ أحمـر، وهـذه بقـرةٌ عاقـر حمـراء وبيضـاء اللـون، فلتذبحهـا! وإنى أقـول: فلتحادثنـى بـودٍ حتـى أسـتيقظ بـلا ألم، وإنى أقـول: فلتـدع كل أرواح بيتنـا لتجتمـع هنـا حولـك يـا مـن تشـتهى اللحـم". ثـم أمـر: "انحروهـا". فأخـذ أحـد إخوتـه رمحًـا وطعـن البقـرة العاقـر فهـوت وطعـن الثـور فتهاوى وعـلا شـخيرهما، فقـد قتلهـما ونفقًـا. فأمرهـم بسـلخهما، فتـم سـلخهما، فنُـزِع الجلـد عنهـما وأكلوهـما فى حظـيرة الماشـية. وقـد اجتمـع كل الرجـال ودعـوا إلى الطعـام وقـد أخـذوا منـه قطعـةً فقطعـة، فأكلـوا وصـاروا راضـين وصلّـوا شـكرًا وقالـوا: "نحـن نشـكرك يـا ابـن فـلان وفـلان. فـإذا مـا أصابتـك روحٌ بمـرض، فلسـوف نعـرف أنـه أخـوك الشـقى، ولم نكـن نعـرف خـلال مرضـك الشـديد أننـا سـنأكل لحـمًا معـك، وهـا نحـن نـرى الآن أن الشـقى يبغـى قتلـك ونحـن فرحـون بأنـك اسـتعدت صحتـك".

"إننـى قـد مـتُّ" كان هـذا هـو مـا قالـه الأخ الأكـبر. وفى هـذه العبـارة نكـون قـد أدركنـا جوهـر نزاعهـما وسـبب المـرض الخطـير وأسـاس هـذا التقريـر، وكيـف كان سـلوك الميـت. ومهـما كان مطلبـه فهـو قـد مـات بالفعـل ولديـه مـا يكفـى مـن أسـباب المـرارة. وقـد قـال: "تركـتُ لـك قريـةً" ثـم يضيـف بعـد ذلـك مبـاشرة "الديـك قريـةٌ كبـيرة". إن حيـاة الآخـر هـى هـذه القريـة، وكان بوسـعه أن يقـول أيضًـا: "إننـى ميـتٌ وأنـت مـا زلـت حيًـا"، إنـه هـذا الاتهـام الـذى يخشـاه الباقـى عـلى قيـد الحيـاة. ولمـا كان يعايـش هـذا الاتهـام فى منامـه فإنـه يعطـى للميـت الحـق، فقـد ظـل بعـده عـلى قيـد الحيـاة. إن عظـم هـذا الظلـم الـذى يتضـاءل كل ظلـمٍ بجـواره هـو مـا يعطـى الميـت سـلطةً لتحويـل الاتهـام والمـرارة إلى مـرضٍ شـديد. "إنـه يبغـى قتـلى" هكـذا يقـول الأخ الأصغـر، لأنـه قـد خطـر ببالـه أنـه قـد مـات بالفعـل. وهكـذا يكـون قـد أدرك تمامًـا سر خوفـه منـه. ولـكى يصالحـه فإنـه يرتـضى فى النهايـة بالتضحيـة. إن البقـاء عـلى قيـد الحيـاة بعـد وفـاة المـوتى، كـما رأينـا، كان يرتبـط بشـعور الأحيـاء بضيـقٍ عظيـم. وحتـى عندمـا تكـون هنـاك صـورةٌ مـا مـن التكريـم المنتظـم فـإن المـرء لا يسـتطيع الاطمئنـان تمامًـا للمـوتى. وكلـما كان أحدهـم أعظـم شـأنًا هنـا، كان سـخطه أعظـم وأخطـر فى العـالم الآخـر. وفى مملكـة أوغنـدا وجـد المـرء سـبيلاً للاحتفاظ بـروح الملـك المتـوفى بـين رعايـاه الخانعـين، فلـم يسـتطيع مفارقتهـم ولم تبتعـد بعـد أن تعـين عليهـا البقـاء فى هـذه الدنيـا[97]. فبعـد وفاتـه كان هنـاك "مانـدوا"، أى وسـيط، اتخـذت منـه روح الملـك مقامًـا لهـا. أمـا الوسـيط الـذى كان كاهنًـا فـكان لا بـد مـن أن يشـبه الملـك ويسـلك سـلوكه نفسـه، فـكان يحـاكى كل خصائـص لغتـه. فـإذا مـا

تعلق الأمر بملكٍ من عصورٍ قديمة فإن الوسيط كان يستخدم اللغة القديمة المستخدمة من قبل ثلاثمئة عامٍ. وهو ما أثبتته إحدى الوثائق لأنه إذا ما مات الوسيط فإن روح الملك تنتقل إلى أحد أفراد أسرته الملكية. وهكذا يتسلم أحد الـ"ماندوا" المنصب من الآخر ليكون لروح الملك سكنٌ دائمًا. وهكذا فقد يحدث أن يستخدم الوسيط كلماتٍ لا يفهمها أحدٌ آخر ولا حتى زملاؤه. فمن حينٍ لآخر يسيطر الملك عليه لينزلق إلى حالةٍ من المس، فيجسد الميت بكل التفاصيل. والأسر التى كانت مسئولةً عن تقديم الوسطاء كانت تقوم بتدوين سمات الملك الشخصية عند وفاته بالكلمة والمحاكاة. وكان الملك "كيجالا" قد مات فى سنٍ متقدمة وكان وسيطه شابًا صغيرًا للغاية. إلا أنه عندما سيطر عليه الملك كان يتحول إلى رجلٍ عجوز، فتغمر وجهه التجاعيد ويسيل اللعاب من فمه ويعرج. وكان يُنظَر إلى هذه الأعراض برهبةٍ. فقد كان ذلك يعتبر شرفًا لمن يشاهد ذلك فهو يكون بحضرة الملك ويتعرف عليه. أما هذا الذى استطاع، طبقًا لما طُلِب منه، أن يظهر فى جسد إنسان، كان هذا هو منصبه، ولم يؤد سوى هذا الدور، فإنه لا يمكنه الشعور بسخط المتوفى بنفس قدر شعور هؤلاء من ماتوا بالفعل. أما الأكثر ثراء بالتبعات فهو عقيدة السلف لدى الصينيين[98]. ولمعرفة مفهوم الجد لديهم فإنه لا بد من إلقاء نظرةٍ على تصوراتهم عن الروح. فقد اعتقدوا أن لكل إنسان روحين إحداهما هى "بو" الناشئة عن السائل المنوى، وهى بذلك قد وُجِدت منذ لحظة التلقيح. أما الروح الأخرى فهى "هون" وتنشأ عن الهواء الذى يتنفسه الإنسان بعد مولده، ثم تتكون بعد ذلك شيئًا فشيئًا متخذةً هيئة الجسد الذى أحيته، إلا أنها تظل غير مرئية. أما الذكاء الذى هو من خصائصها فإنه ينمو معها، فقد كانت هذه هى الروح المتفوقة. وبعد الموت تصعد روح الهواء هذه إلى السماء بينما تبقى روح السائل المنوى مع الجثة فى القبر فقد كانت هذه هى الروح الأدنى التى يخشاها المرء على نحوٍ أعظم فقد كانت شريرةً وحاقدة وتحاول جر الأحياء معها إلى الموت. وفى أثناء تحلل الجسد تأخذ روح السائل المنوى فى التحلل التدريجى كذلك لتفقد فى الختام قدرتها على إلحاق الأذى. وعلى النقيض من ذلك تظل روح النفس الأعلى باقيةً فى الوجود، وهى تحتاج إلى الغذاء، فسبيلها إلى عالم الموتى كان طويلاً فإذا لم يقدم لها الخلف أى غذاء فإنها تعانى معاناة شديدة وتصير تعسةً عندما لا تفلح فى العثور على السبيل لتصبح بعد ذلك خطيرةً مثل روح السائل المنوى. أما طقوس الجنازة

فكان لها هدفٌ مزدوج، فهى تهدف إلى حماية الأحياء من أفعال الموتى، وتؤمِّن فى الوقت نفسه بقاء أرواح الموتى حيةً، فالعلاقة بعالم الموتى تكون خطرةً إذا تركت له المبادرة. وهذه العلاقة تكون طيبةً عندما تتجلى فى عقيدة السلف ملتزمةً بتعاليم التقاليد وتنفيذها فى أوقاتها المحددة. وبقاء الروح حيةً يرتبط بالقوة الجسدية التى اكتسبتها خلال الحياة، وقد اكتسبتها بالغذاء والتعلم. وقد كان هناك فرق بالغ الأهمية، وهو الفرق بين روحٍ لأحد "السادة"، كان "آكلاً للحوم" وتغذى غذاءً جيدًا طوال حياته، وبين "فلاحٍ" كان غذاؤه بسيطًا ورخيصًا ورديئًا. ويقول "Granet" إن الأسياد فقط هم من لهم روحٌ بمعنى الكلمة، حتى طول العمر لا يستهلك هذه الروح إنما يثريها، فالسيد يجهز نفسه للموت بأن يتخم بطعامٍ فاخر ومشروباتٍ مغذية. وعلى مدار حياته يكون قد ضم إليه عددًا لا حصر له من الأرواح. وبذلك يتسع مدى نفوذه ويزداد قوةً، فهو كان قد ضاعف مادة أجداده الغنية الذين كانوا هم أنفسهم قد اتخموا باللحم. فإذا مات لا تتبدد روحه مثل الروح الوضيعة لأنها تفارق الجثة مفعمةً بالقوة. فإذا عاش السيد حياته طبقًا لقواعد مستواه فإن روحه (بعد موته) المكرمة والمطهرة تمتلك قوةً سامية ووضاءة من خلال الطقوس الجنائزية، فهى تملك قوة الروح الحامية الخيرة وتحتفظ فى الوقت نفسه بكل ملامح شخصٍ خالد مقدس، فلقد أصبحت هى روح السلف. وحينئذٍ تُكرَّس عبادتها الخاصة فى هيكلٍ خاص. وهى تشارك فى طقوس فصول السنة وفى حياة الطبيعة وفى حياة البلاد. فإذا كان الصيد وفيرًا حصلت على طعامٍ جيد. وهى تصوم إن كان المحصول سيئًا. وتقترب روح السلف من الغلال ومن اللحم ومن لحم الصيد فى مراعى الأسياد التى تُعتبَر وطنًا لها. لكن بقدر ثراء شخصية روح السلف هذه يكون قدر استمرار قواها المكتسبة، فهناك لحظةٌ تتبعثر فيها هذه القوى وتتلاشى. وبعد أربعة أو خمسة أجيالٍ تفقد مائدة السلف حقها فى هيكلٍ خاص بها، وهو ما ظل مرتبطًا بها بفضل شعائر بعينها، فتوضع فى صندوقٍ حجرى بجوار موائد كل الأسلاف السابقين الذين فقدوا ذكراهم الشخصية. فالجد الذى تصوروه وحملوا اسمه لم يعد مكرمًا كسيدٍ، ويتضاءل تفرده القوى ويتلاشى تدريجيًا حتى ينتهى وجوده ودوره الذى لعبه كسيد. وخلال تكريمه الذى امتد لفترةٍ طويلة يكون قد لقى مصير ميتٍ بسيط فى أثناء السنوات الطوال ليعود حينئذ إلى كتلة جميع الموتى الآخرين ويكتنفه الغموض مثلها. وليس كل السلف يتجاوز

أربعة أو خمسة أجيالٍ، فهذا يرتبط بمكانتهم الخاصة وبمدى الحفاظ على وجود موائدهم واستدعاء الروح ومناشدتها لتناول الغذاء، فقد تُرفَع بعض هذه الموائد بعد جيلٍ واحد فقط، لكن مهما طال بها الأمد فإن الحقيقة التى كانت سبب وجودها تغير أحيانًا شخصية البقاء على قيد الحياة، فلا يكون حينئذٍ فوزًا خفيًا للابن بأنه ما زال حيًا بعد موت أبيه الذى يظل موجودا كسلف، ويدين الابن له بفضل كل ما لديه. ويتحتم عليه الحفاظ على روحه الطيبة، وعليه كذلك أن يقدم الغذاء لأبيه كميت، ويحرص كل الحرص على ألا يظهر تعاليًا عليه. وما دام الابن حيًا تكون روح سلف الأب موجودةً على أية حال. وكما رأينا فإنها تحتفظ بكل ملامح شخصية معينة معروفة، إلا أن اهتمام الأب يكون منصبًا على تغذيته وتكريمه. أما وجوده كسلف فيشترط عنصرًا ذا أهمية أساسية، وهو أن يكون ابنه حيًا، فإن لم يكن له خلف فلن يكون هناك من يحرص على تكريمه، وهو يتمنى بقاء ابنه وأجيال أخرى أحياء بعده ويتمنى أن يكونوا بحالة طيبة، فوجوده الشخصى كسلف يرتبط بازدهار حالتهم، فهو ينشد الحياة للآخرين ما داموا على استعدادٍ لإحياء ذكراه. وهكذا ينشأ ارتباطٌ حميم هانئ بين الصورة المناسبة لاستمرار الحياة التى يكتسبها السلف وبين فخار الخلف الذين ظلوا هنا لكى يفعلوا ذلك من أجل سلفهم. ومن المهم أيضًا أن يبقى الأجداد كفرادى عبر بعض الأجيال، فهم مشهورون فرادى، ولهذا يتم تكريمهم، وهم لا يندمجون فى كتلةٍ إلا بعد ماضٍ بعيد. ويكون نسلهم الذى يكون حيًا حينئذٍ، منفصلاً عن كتلة سلفه، تحديدًا من خلال كلٍ من الأب والأجداد الذين يوجدون بينه وبين الكتلة فرادى منفصلين عن بعضهم البعض. وما دام هناك رضا ببقاء النسل حيًا فإن تكريم النسل للسلف يجعل هذا الرضا أكثر اعتدالاً. إلا أن الرضا لا يستطيع - طبقًا لطبيعة العلاقة - أن يغرى النسل بزيادة عدد الموتى. وعلى هذا النحو يكون البقاء على قيد الحياة قد تجرد من كل ملامحه العديدة. فإذا ما صار ولعًا أصبح أمرًا غير معقول وغير مفهوم وزالت عنه كل ملامح القتلة. فقد تحالفت الأفكار والمشاعر الشخصية وصبغ كلٌ منها الآخر بلونه، إلا أن أفضلها هو الذى سيبقى. ومن يتأمل الصور المثالية لصاحب السلطة كما تكونت فى تاريخ وفكر الصينيين فسوف يدهش لإنسانيتها. وقد نفترض أن عدم وجود ممارساتٍ عنيفة فى هذه الصور يرجع بالفضل إلى هذا النوع من تكريم السلف.

الأوبـــئــة

كان ثيوكيديدس هو أفضل من وصف الطاعون، لأنه أصيب به شخصيًا وشفي منه. فقد انطوى وصفه الموجز الدقيق على كل ملامح هذا المرض الرئيسة، ومن المفيد أن نقتبس هنا أهمها[99]:

الناس يموتون كالذباب، وكل أجساد المحتضرين تُكدَّس فوق بعضها. وقد رأينا بشرًا شبه موتى يتخبطون فى الطرقات أو يتجمعون أفواجًا حول الآبار طلبًا للماء. أما المعابد التى اتخذوها أماكن للإقامة فكانت غاصةً بجثث الناس الذين ماتوا هناك. وفى بعض الأحيان كانت الحالة الكارثية قد غلبت على الناس حتى إنهم تغاضوا عن إقامة المناحات الجنازية. وقد اختلطت كل الشعائر الجنائزية ببعضها البعض، وكان يتم دفن الموتى كيفما اتفق. أما بعض الناس الذين عانت أسرهم من حالات موتٍ كثيرة فعجزوا عن سداد تكاليف الجنازة فقد أتوا أكثر الحيل خزيًا فصاروا أول من يجىء إلى كوم حطبٍ أقامه آخرون، ليضعوا مصابهم فوقه ثم يشعلون النار فى الحطب. فإذا ما كانت النار مشتعلةً بالفعل فإنهم يلقون الجثة التى حملوها فوق الجثث الأخرى ويمضون إلى حال سبيلهم. ولم يكن الخوف من القانون الدنيوى أو الدينى ليمنعهم عن ذلك. فقد كانوا يعتبرون النتيجة واحدةً سواء أبدوا إجلالاً تجاه الأرباب أم لا، بعد أن رأوا أن الخبيث

والطيب يلقى المصير نفسه. وكان عدم خوفهم من المساءلة عن انتهاك القانون الدنيوى يرجع إلى أنهم لم يتوقعوا أن يعيشوا إلى ذاك الحين. فكان كلٌ منهم يشعر أنه عوقب بالفعل بحكمٍ أشد قسوة. وقبل حدوث ذلك كانوا يسعون للحصول على شيءٍ من متع الحياة. وكان الذين أصيبوا بالطاعون وتم شفاؤهم منه هم أكثر الناس تعاطفًا مع المرضى والمحتضرين. وإن لم تكن لهؤلاء خبرةٌ بهذا الأمر إلا أنهم كانوا يشعرون بالأمان لأن من يصاب بالمرض لا يصاب به مرةً أخرى. وإذا أصيب مرةً أخرى فإن ذلك لم يكن ليهدد حياته. وكان الناس يقبلون على مثل أولئك من كل حدبٍ وصوب فيقدمون لهم التهنئة، أما هم أنفسهم فكانوا يشعرون بالتسامى بشفائهم إلى حد أنهم ظنوا أنهم لن يموتوا فى المستقبل جراء مرضٍ ما. ومن بين الحالات الكارثية التى نكبت البشرية منذ القدم، الأوبئة ذات الانتشار الواسع هى تلك التى تركت خلفها أكثر الذكريات حيويةً. وهى تبدأ مثل الكوارث الطبيعية فجأةً. لكن بينما كان الزلزال ينتهى فى الغالب بعد هزاتٍ قليلة قصيرة فإن الوباء يستمر لزمنٍ قد يمتد لشهور أو حتى عام. فأما الزلزال فإنه يسبب أقسى الفظائع دفعةً واحدة، فيقضى على ضحاياه كلهم فى وقتٍ واحد. وعلى النقيض من ذلك يكون لوباء الطاعون أثرٌ جماعى، ففى البداية يصاب به نفرٌ قليل فقط، ثم تتكاثر الحالات فيظهر الموتى فى كل مكان، وسرعان ما يرى المرء جموع موتى أكثر من الأحياء. وقد تكون نتيجة الوباء كمثيلتها الناشئة عن زلزال. لكن الناس يكونون شهودًا على الموت الكبير، وتدور أحداثه المتصاعدة أمام أعينهم فيكونون كمن شارك فى معركةٍ تستمر لفترةٍ أطول من كل المعارك المعروفة، إلا أن العدو يكون مستترًا، فهو لا يُرى فى أى مكان، حيث لا يستطيع الإنسان مواجهته، بل ينتظر فقط أن يصاب به. وهو يضرب حيثما يشاء ويصيب الكثيرين إلى حدٍّ يخشى معه الناس أن يصابوا جميعًا. وما إن يُعترَف بانتشار الوباء فإنه لا يكون هناك تصورٌ إلا بأنه لن ينتهى إلا بالقتل الجماعى للكل. ولما لم تكن هناك وسيلةٌ لمواجهته فإن المصابين به ينتظرون تنفيذ الحكم الصادر ضدهم.

والمصابون بالوباء هم فقط الكتلة. فهم متساوون فى المصير الذى ينتظرهم. ويزداد عددهم لينتهوا إلى الكثافة الكبرى التى يمكن لأجسادٍ بشرية أن تصلها، أى تجمعهم فوق كوم جثث. وجمهور الموتى المتعطلة تكون ميتةً مؤقتًا حسب تصورات بعض الأديان، وهى ستبُعَث فى لحظةٍ واحدة وتلتئم جماعتها معًا أمام

الله يوم الحساب، حتى ولو لم نُعمل تفكيرنا فى مصير الموتى فيما بعد، ونظرا للاختلاف التصور العقائدى عن ذلك من مكانٍ لآخر، فإنه يبقى هناك أمرٌ لا يحتمل الشك، وهو أن الوباء ينتهى إلى من جمهور المحتضرين والموتى. "لتغص بهم الطرق والمعابد." وفى الغالب لا يتسنى دفن الضحايا فرادى كما جرت العادة فيتم وضعهم فوق بعضهم البعض فى مقابر جماعيةٍ ضخمة، أى آلاف منهم فى مقبرةٍ واحدة معًا. وهناك ثلاث ظواهر مهمة اعتادتها البشرية يكون هدفها هو جموع من الجثث، وهى قريبةٌ من بعضها البعض، ولذلك كان من المهم أن توضع حدودٌ بينها. وهذه الثلاث هى المعركة والانتحار الجماعى والوباء. ففى المعركة يكون المستهدف هو جموع جثث الأعداء، فالخصم يريد خفض عدد الأعداء الأحياء ليمكن مقارنة ذلك بالعدد الأكبر لرجاله هو. وموت رجال هذا الطرف فى أثناء ذلك أمرٌ لا يمكن تفاديه، وإن كان غير مرغوب فيه، إلا أن الهدف هو حصد جموع موتى الأعداء التى يسعى الخصم من أجلها، أى من خلال عمله الشخصى، أى الاعتماد على قوته الشخصية. وفى الانتحار الجماعى فإن العمل يكون موجهًا ضد من ينتمى المرء لهم، فيقتل الرجل والمرأة والطفل بعضهم البعض حتى لا يكون هناك شىء آخر سوى كوم موتى منتمين لبعضهم البعض، وحتى لا يسقط أحدهم فى يد العدو فإن الموت يكون شاملاً، وهكذا تظهر النار كعامل مساعد على ذلك. وفى حالة الوباء تكون النتيجة هى نفسها نتيجة الانتحار الجماعى، إلا أنها حالة لا يفرضها أحدٌ على الآخر، بل يبدو أن قوةً مجهولةً فرضته من الخارج، وهى حالةٌ تستمر لفترةٍ أطول حتى تصل لهدفها ليتساوى الناس فى حالة ترقب وفزع لا تدانيها أية علاقةٍ معروفة تربط بين البشر. أما عنصر العدوى الذى يمثل هذه الأهمية فى حالة الوباء فيكون له أثره فى اعتزال الناس لبعضهم البعض. فتوخى الأمان يتطلب ألا يقترب البعض من الآخر لأنه قد يكون حاملاً للعدوى، فيفر البعض من المدينة ويتفرقون فى مزارعهم أو يحبسون أنفسهم بمنازلهم ولا يسمحون لأحدٍ بالدخول فكل منهم يتجنب الآخر فيكون الحفاظ على وجود مسافة هو آخر أمل. فالفرصة فى الحياة تكون هى الحياة التى تتجلى على نحوٍ ما فى الابتعاد عن المرض. فالموبوءون يتحولون تدريجيًا إلى كتلةٍ ميتة، فيبتعد غير المصابين عن كل شخصٍ، وغالبًا كذلك عن أقرب أفراد الأسرة، الوالدين والزوج والأبناء. ومن الغريب هنا أن يحول أمل البقاء حيًا الإنسان إلى فردٍ تقف فى مواجهته كتلةٌ مكونة من كل الضحايا. لكن فى حالة هذه اللعنة العامة

التـى يُعتـبَر كل مصـابٍ بهـا مفقـودًا يحـدث أمـر هـو الأكـثر عجبًـا، أى شـفاء بعـض المعدوديـن مـن الطاعـون. وممـا يدعـو للتأمـل أن يسـعدهم الحـظ مـن بـين الآخريـن فقـد ظلـوا عـلى قيـد الحيـاة ليشـعروا بأنهـم محصنـون. هكـذا يصـير بوسـعهم إظهـار تعاطفهـم مـع المـرضى والمحتضريـن المحيطـين بهـم. ويقـول ثيوكديـس: "مثـل هـؤلاء النـاس يشـعرون بالتسـامى بشـفائهم إلى حـد أنهـم يـرون أنهـم لـن يموتـوا فى المسـتقبل مـن جـراء مـرض مـا".

عن شعور المقابر

للمقابر جاذبيةٌ شديدة، فالإنسان يسعى لزيارتها حتى لو لم يكن يرقد هناك أحدٌ من أقاربه، كما يحرص على تخصيص وقتٍ لها. وهناك يشعر كأنها شُيِّدت من أجله. وليس مستغربًا أن ثمة مقبرة رجلٍ مكرم لها سحرها دائمًا فى نفسه ما يجذب الإنسان. وإن كان مثل هذا الرجل هو هدف الزيارة، فإن الأمر دائمًا ما يتسع لما هو أكثر من ذلك، فسرعان ما يجد المرء نفسه فى أثناء زيارة المقابر فى أجواءٍ خاصة للغاية. ومن العادات الحميدة أننا نُخدع بطبيعة مثل هذه الأجواء. فالجدية التى يشعر بها الزائر للمقابر ويظهرها تنطوى على رضا خفى. فماذا يفعل الزائر حقًا فى أثناء وجوده بالمقابر؟ كيف يتحرك وبماذا ينشغل؟ فهو يمضى بين المقابر رواحًا وغدوًا، متأملاً شاهد قبر هذا أو ذا، قارئًا الأسماء، شاعرًا بالانجذاب نحو بعضها، ثم يبدأ فى الاهتمام بما نُقِش أسفلها. فها هما زوجان عاشا معًا طويلاً وها هما يرقدان بجوار بعضهما كما جرت العادة. وهنا طفلٌ مات صغيرًا للغاية. وهذه فتاةٌ شابة بلغت لتوها عامها الثامن عشر. وأكثر فأكثر تزداد مسارات الزمن التى تأسر الزائر، وشيئًا فشيئًا تبتعد هذه المسارات عن التفاصيل الخاصة المؤثرة لتصير مسارات زمنٍ ليس أكثر. فها هو أحدهم قد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره، وعلى الناحية الأخرى كان أحدهم قد بلغ الخامسة والأربعين. أما الزائر فهو أكبر عمرًا حينئذٍ، بينما خرج أولئك من مضمار السباق

على نحوٍ ما، وهو يجد كثيرين لم يبلغوا مثل عمره، (وحتى لو أنهم) وإن لم يموتوا في عمر الشباب فإن مصيرهم لا يبعث أي إحساسٍ بالأسى على الإطلاق. إلا أن هناك أيضًا كثيرين ممن يتجاوزون عمره، فهناك رجالٌ بلغوا السبعين، ومن حينٍ لآخر يرى من هو تجاوز الثمانين. وهو بوسعه أن يلحق بهؤلاء، فهم يجذبونه إلى أن يفعل مثلهم. فما زالت كل الفرص سانحةً أمامه فامتداد حدود حياته المتوقعة هو فائدةٌ جمة مقارنةً بهم، فبوسعه بشيءٍ من العزيمة أن يتفوق عليهم، ففرصة التنافس معهم كبيرةٌ. فما زال حظه أوفر منهم، فلقد بلغوا هم غايتهم فلم يصبحوا أحياء. ومهما كان هذا الذي سينافسه منهم فإن كل القوة تكون على جانبه هو. وعلى الجانب الآخر لا توجد أية قوةٍ، فهناك الهدف المعلن فحسب بعد أن قُضي على المتفوقين، وها هم الآن لم يعد بوسعهم النظر في عين أحدٍ نظرة رجلٍ لرجل، وهم يمنحون الآخرين القوة ليصيروا أكثر قوةً منهم على نحو دائم. أما البالغ التاسعة والثمانين، الراقد هناك، فيعتبر حافزًا أسمى. فما الذي يحول بين أحدهم وبين بلوغ التسعين؟ لكن هذه ليست الطريقة الوحيدة للحساب التي تخطر على بال أحد في خضم هذا الكم من المقابر. فالإنسان يبدأ في الانتباه إلى المدة التي قضاها بعض الناس راقدين هنا. فالزمن الذي يفصل بين زائرٍ ما وبين وفاتهم ينطوي على ما يبعث على الاطمئنان، فبهذا القدر من الزمن يكون الزائر قد عاش في دنياه هذه فترةً أطول.

وهناك مقابر تحمل سمة الرفعة، فأحجارها ترجع إلى القرن الثامن عشر أو السابع عشر. فالزائر يثابر في الوقوف أمام النقش المتآكل فلا يغادر الموضع حتى يحل شفرته. أما حساب السنين الذي لا يستخدمه الإنسان عادةً إلا في الأغراض العملية فيصبح فجأة منطويًا على حياةٍ ذات مغزى عميقٍ قوي. فكل مئات السنين التي يعرفها (المرء) قد دخلت إلى حساب زائرٍ ما. أما الراقد هنا في باطن الأرض فلا يدري شيئًا عن هذا الذي يقف هناك متأملاً مدة حياته، وقد انتهى حساب السنين بالنسبة له بتاريخ سنة وفاته، لكنه تواصل بالنسبة للمتأمل، حتى وصلت إليه. فكم كان سيدفع من توفي من زمنٍ بعيد حتى يتسنى له الوقوف بجوار المتأمل. فقد مضت مئتا عام على وفاة ذاك، فعلى نحوٍ ما يكون المتأمل قد حصل على مئتي عام أكثر من ذاك. فكثيرٌ من أحداث الزمن، الذي انقضى منذ ذلك التاريخ، يدركها آخر حيٌ بكل ما فيها، من خلال ما وصله من موروث. فهو قد قرأ عن ذلك أو سمع روايةً عن ذلك، بل وعايش بعضها

بنفسه. وهنا يكون عدم الشعور بالتفوق أمرًا صعبًا. فالإنسان البسيط يشعر بذلك فى هذا المكان، فهو لا يشعر فقط أنه يتجول هنا وحيدًا، فتحت أقدامه يرقد كثيرون مجهولون، جميعهم معًا، وعددهم غير محدد لكنه يقينًا كبير، ولسوف يزداد عددهم دائمًا. وهؤلاء لا يستطيعون فراق بعضهم البعض فهم يبقون كأنهم مكدسون فى جموع فوق بعضهم البعض، وهو وحده يروح ويجىء كما يهوَى، وهو وحده، بين الراقدين الذى يقف منتصبًا.



عن الخلود

إذا دار حديثٌ عن الخلود الشخصى أو الأدبى فإنه من الأفضل أن تكون نقطة انطلاقنا من "ستندهال". إذ إن من الصعب العثور على مثل هذا الرجل الذى نأى بنفسه عن تصورات العقائد المألوفة، فهو متحررٌ تمامًا من التزامات ووعود دينٍ ما. فمشاعره وأفكاره موجهةٌ نحو هذه الحياة الدنيا فقط. فقد شعر وتمتع - على أدق وأعمق نحوٍ - بكل ما يمكن أن يمنحه السعادة. ولذلك لم يكن تافهًا لأنه استكان للعزلة. وهو لم يهتم بالوحدات محل الشك، فقد كان شكه يتناول كل ما لم يستطع الإحساس به. ورغم أفكاره الكثيرة فإنه لم يكن بينها فكرةٌ غير حيةٍ، فكل ما دوّنه وكل ما صوّره ظل قريبًا من جذوته المتقدة. وقد أحب الكثير، وآمن بالكثير، إلا أن هذا وذاك ظلا نصب عينيه على نحوٍ مدهش. ومهما كان من أمرٍ فإنه عثر على ذلك فى نفسه على نحوٍ مباشر من دون الحاجة إلى خدع أية منظومة.

هذا الرجل الذى لا يشترط شيئًا، والذى ابتغى إدراك كل شىء بنفسه، والذى كان هو نفسه الحياة ما دام هناك شعورٌ وروح، والذى حضر فى كل المعطيات مما ييسر له تأملها من الخارج، والذى تساوت لديه الكلمة وفحواها على النحو الأكثر طبيعيةً كأنه قرر تطهير اللغة بنفسه، هذا الرجل النادر والحر حقًا لديه بالفعل عقيدةٌ يتحدث عنها بيسرٍ وبداهة كما يتحدث عن محبوبته. لقد اكتفى

- من دون إحساسٍ بمرارة- بالكتابة لقليلين، إلا أنه كان على يقينٍ تام بأنه سيقرأه - خلال مئة عامٍ - الكثيرون للغاية. وهكذا فإنه لا يمكن إدراك الإيمان بالخلود الأدبي في العصور الحديثة على نحوٍ أكثر وضوحًا وتحديدًا من ذلك ومن دون أية غطرسة.

ماذا يعني هذا الإيمان؟ وما فحواه؟ إنه يعني أن الإنسان ينشد الوجود عندما يكون كل الآخرين الذين عاشوا الوقت نفسه غير موجودين هنا. وهذا لا يعني أن هذا كان يقصد بهؤلاء الأحياء شرًا كهذا. فهو لا يزيحهم من طريقه ولا يفعل شيئًا ضدهم، أو حتى ينوي الصراع معهم. وهو يحتقر هؤلاء الذين وصلوا إلى مجدٍ زائف، لكنه يحتقر أيضًا محاربتهم بأسلحتهم، كما أنه غير ساخطٍ عليهم لأنه يعرف مدى ضلالهم. والإنسان يختار مجتمع هؤلاء الذين سينضم إليهم ذات يوم: كل أولئك من عصورٍ ماضية، إن أعمالهم ما زالت تحيا حتى اليوم، وهم يتحدثون إلى من يقترب منهم. والعرفان الذي يشعر به المرء نحوهم هو عرفانٌ للحياة نفسها. أما القتل من أجل البقاء على قيد الحياة فلا يمكن أن يشغل هذه العقلية، حيث إنها لا تهدف إلى البقاء على قيد الحياة الآن. فهؤلاء لا يتجاوزون الحواجز إلا بعد مئة عامٍ عندما لا يكونون أحياءً فلا يستطيعون القتل. فالمنافسة التي يهتم بها هؤلاء تبدأ حينما يكون الخصوم قد ماتوا، بل إنهم لا يستطيعون رؤية الصراع الذي تخوضه أعمالهم. لكن يجب أن يكون هذا العمل موجودًا، وحتى يوجد فعليه أن يحتوي أعظم وأنقى معيار من الحياة. فهؤلاء لا يستنكفون أن يقتلوا فحسب، بل هم يأخذون كل من كانوا معهم إلى ذلك الخلود، حيث يكون كل شيء فعالاً، الأقل والأعظم حجمًا.

إنهم على النقيض التام من أصحاب السلطة، أولئك الذين يموت ما يحيط بهم بموتهم حتى يجدوا في ذلك الوجود الآخر للموتى كل شيء كانوا قد اعتادوه. ولا يمكن لأي شيء أن يصف غيبوبتهم العميقة على نحوٍ أكثر رهبة من ذلك، فهم يقتلون في الحياة ويقتلون في الممات، ويصحبهم أتباعٌ من القتلى إلى العالم الآخر. ومن يطلع على عمل ستندهال سوف يجده هو نفسه، وكل ما كان حوله ثانيةً، أي سوف يجد ذلك هنا في هذه الحياة. وهكذا يقدم الموتى للأحياء أعظم الغذاء نبلاً. فخلودهم يعود بالنفع على الأحياء، ففي عودة هؤلاء الموتى يكمن الخير للجميع. ليفقد الباقون على قيد الحياة غصتهم ولتذهب مملكة العداء إلى الجحيم.

عناصر السُلطة



العنف والسلطة

يرتبط معنى "القوة" بتصورٍ عن شيء قريبٍ وحاضر. وهى أكثر قهرًا ومباشرةً من "السلطة". والمقصود بذلك بالأحرى هو القوة الفيزيقية. فمن الأفضل وصف "القوة" بأنها الدرجة الأدنى من السلطة والأكثر منها حيوانيةً، فقنص الفريسة يكون بالقوة، لتُلْقَى بالقوة إلى الفم، فإذا ما أُتِيح للقوة مزيد من الوقت فإنها تصير سلطةً. إلا أنه فى اللحظة الحاسمة التى لا بد من عودتها ثانيةً، أى لحظة البت والحسم، فإنها تعود قوةً خالصةً مرةً أخرى. فالسلطة أكثر شموليةً واتساعًا من القوة، وهى تنطوى على أكثر منها بكثير، بعد أن تخلت عن هذا النحو من الديناميكية. وهى أكثر تعقيدًا، وتنطوى على قدرٍ بعينه من المثابرة. فالكلمة نفسها مشتقةٌ من الجذر الغوطى القديم "magan" أى يستطيع، "vermögen" أى يقدر. وليس لها أدنى علاقة بالجذر "machen" أى يعمل ويفعل. أما الفارق بين القوة والسلطة فيتجلى فى صورةٍ بسيطةٍ للغاية، وهى تحديدًا صورة العلاقة بين القط والفأر، فإذا قبض القط على الفأر فإنه يكون أسيرًا لقوة القط، إلا أنه حالما يبدأ هذا فى التلاعب به يكون قد أضيف إلى هذا الأمر شيء جديد، فهو يدعه حرًا ويسمح له بالابتعاد لمسافةٍ ما، فيدير القط ظهره ليجرى الفأر منه

وهنا لا يكون أسيراً "للقوة"، إلا أنه يكون من "سلطة" القط استعادة الفأر. فإذا أطلق سراحه تمامًا يكون قد أخرجه من إطار "سلطته".

أما إذا ظل الفأر داخل الحدود الممكنة للوصول إليه، فإنه يبقى تحت سلطة القط. فالمجال الذى يحدده القط، أى لحظات الأمل الذى يمنحه للفأر، يظل تحت الرقابة الشديدة للقط، الذى لا يفقد اهتمامه به وبالقضاء عليه. وكل هذا معًا، أى المجال والأمل والاهتمام هو ما يمكن أن نطلق عليه القوام الشخصى للسلطة أو هو السلطة نفسها. هكذا إذن تكون من سمات السلطة -على النقيض من القوة- المدى المتسع لحدٍّ ما والمجال الأكثر رحابةً، وكذلك فسحة من الوقت أكبر. وقد تم التعبير عن هذه الفكرة بأن السجن قد أُخذ عن فم الحيوان. والمقارنة بين كليهما تعبر عن مقارنة السلطة بالقوة. ففى فم الحيوان لا يكون هناك أى أملٍ ولا فسحة من وقت ولا مجال لهذا الذى أطبق عليه الفم، ففى كل هذه المفاهيم يكون السجن صورةً مكبرة لفم الحيوان، فبوسع المرء قطع بضع خطوات هنا وهناك، مثل الفأر تحت أعين القط، وأحيانًا ما تكون نظرات أعين الحارس ملتصقة بظهر السجين الذى تكون أمامه فسحةٌ من الوقت والأمل فى الإفلات فى أثناء هذا الوقت، كما يشعر دائمًا برغبة المؤسسة فى القضاء عليه بزنزانتها الموجود فيها حتى لو بدت هذه الرغبة مرجئَةً. ويبدو الفرق واضحًا بين السلطة والقوة فى موضعٍ مختلف عن ذلك تمامًا حيث يتنوع التسليم بتعاليم الدين، فكل مؤمنٍ بالله يقع دائمًا تحت سلطة الإله، وقد ارتضى ذلك بطريقته، إلا أن البعض لا يكتفى بذلك، فهم ينتظرون تدخله الحاسم أى العمل المباشر للقوة الإلهية، التى يقرون ويشعرون بها. فهؤلاء يجدون أنفسهم فى حالة "انتظار الأمر"، فالله يمثل لديهم الملامح الأكثر وضوحًا للحاكم، فجوهر الإيمان يتجلى لهم فى إرادة الإله الفعالة وخضوعهم الفعال فى كل حالةٍ على حدة وفى كل تعبير. والأديان التى على هذه الشاكلة تنزع إلى التشديد على حاكمية الإله. وهو ما يتيح الفرصة لأتباعها لأن يشعروا بأن كل ما يحدث لهم هو تعبيرٌ مباشر عن إرادة الإله، فيخضعوا أكثر وللنهاية، ويكون الحال كأنهم يعيشون داخل فم الإله الذى سيصحنهم فى اللحظة التالية. إلا أنه يكون عليهم مواصلة الحياة بلا فزعٍ فى هذا الحاضر الرهيب وأن يؤتوا العمل الصالح. والإسلام ومذهب فلسفة "الكلفينية" لهما النصيب الأعظم من الشهرة فى هذا التوجه. وأنصار هذا التوجه يأملون قوة الإله، فسلطته وحدها لا تكفيهم، فهى تظل مفرطةً فى العمومية

والبعـد، وتـترك لهـم مـا فـوق طاقتهـم لفعلـه. وهـذا الانتظـار الدائـم لأمـر اللـه يكـون أثـره دائمًـا أثـرًا حاسـمًا عـلى البـشر المستسـلمين لـه، ويكـون لـه أقـسى التبعـات عـلى سـلوكهم تجـاه الآخريـن، وهـو مـا يخلـق مـن المؤمـن نمـط الجنـدى الـذى يعتـبر "المعركـة" هـى التعبـير الأدق عـن "حياتـه"، تلـك المعركـة - الحيـاة التـى لا يشـعر برهبـةٍ تجاههـا لأنـه يشـعر دائمًـا أنـه موجـودٌ داخلهـا، وهـو مـا سـنتناوله عـلى نحـو أكـثر إسـهابًا فى سـياق حديثنـا عـن مسـألة "الأمـر".

السلطة والسرعة

إن كل أنواع السرعة، ما دامت فى إطار السلطة، هى بمثابة الملاحقة أو الانقضاض. وقد كانت الحيوانات هى الصورة النموذجية عن الانقضاض والملاحقة. فالملاحقة تعلمها الإنسان من الحيوانات الكاسرة وتحديدًا من الذئب، أما الانقضاض، من خلال وثبةٍ مفاجئة، فكانت القطط قد مارستها أمامه، أما معلموها التى حسدتها وأعجبت بها فكانت الأسود والفهود والنمور. وأما الطيور الجارحة فقد وحدت بين الفعلين، الملاحقة والانقضاض. وتتبدى هذه الأحداث تمامًا فى الطيور الجارحة التى تطير وحيدةً وعلى نحوٍ مرئى ثم تهجم من مسافةٍ بعيدة، وهو ما أوحى للإنسان بفكرة سلاح السهام التى سخر سرعتها القصوى لخدمته لفترةٍ طويلة، فصار الإنسان يقتنص الإنسان - فريسته بسهامه هذه. وقد اتُخِذت هذه الحيوانات فى وقتٍ باكر أيضًا كرموزٍ للسلطة. فكانت تمثل كلاً من الأرباب وأجداد صاحب السلطة. فقد كان الذئب هو جد جنكيز خان[100]، والصقر "حورس" هو رب الملك المصرى القديم. وفى الممالك الإفريقية كانت الأسود والفهود هى الحيوانات المقدسة لدى قبائل الملوك. ومن شُعَل النيران التى كانت روح قيصر روما تحرق فيها، كانت روحه تخرج منها على هيئة نسر لتطير نحو السماء[101]. أما الأسرع فهو الذى كان أسرع دائمًا، أى البرق، فقد انتشر

على مدى واسعٍ هذا الخوف الخرافى من البرق الذى لا يمكن درء خطره، فيقول مبعوث الفرنسيسكان "روبرك" الذى أرسله لويس المقدس إلى المغول بأن المغول يخشون الرعد والبرق بالمقام الأول، فكانوا يطردون كل الأغراب من مخياماتهم ويتدثرون هم فى ملابسهم الصوفية ويختبئون فيها حتى ينتهى كل شيء[102]. وقد أخبرنا المؤرخ الفارسى "رشيد" الذى عمل لديهم بأنهم كانوا يحرصون على عدم تناول لحم حيوانٍ أصابه برق، بل إنهم كانوا لا يجرؤون حتى على الاقتراب منه. وكانت كل المحرمات الممكنة يستخدمها المغول فى تهدئة غضب البرق فكان عليهم تجنب كل ما يمكن أن يثيره. فالبرق هو السلاح الرئيس للإله القوى. وكان لظهوره المفاجئ من الظلام يعتبر وحيًا. فالبرق يلاحق ويكشف. وفى مسلكه الخاص يتوخى الناس مفاتيح إرادة الآلهة. ففى أية هيئةٍ سوف يتبدى؟ وفى أى ناحيةٍ من السماء سوف يظهر؟ ومن أين يأتي؟ وإلى أين يذهب؟ وكان حل لغزه هو مهمة طبقة معينة من الكهنة لدى الأرتوريين[103] أخذها الرومان واستمرت لديهم كطبقة كهان. وقد جاء فى مثل صينى قديم أن "سلطة الحاكم تشبه شعاع البرق والأثر القوى يأتى بعده". ويعتبر عدد أصحاب السلطة الذين أصابهم البرق من الأمور العجيبة، إلا أن الروايات عن ذلك لا تستند دائمًا إلى حقيقةٍ واقعة. إلا أن نسج هذا الارتباط له دلالته. والأخبار عن هذا النوع عديدة لدى الرومان والمغول، فكلا الشعبين يؤمن بربٍ سماوى أعلى، ولدى كليهما فكرةٌ متطورة للغاية عن السلطة. وقد فهموا البرق فى هذا الشأن على أنه أمرٌ خارق للطبيعة، فإذا ما صدر فإنه لا بد من أن يصيب. فإذا ما أصاب قويًا فإن من أرسله يكون هو الأقوى، فهو يُستخدَم كعقابٍ هو الأكثر سرعةً وفجائية[104]. وهو كذلك الأكثر جلاءً. وقد حاكاه البشر فطوروا منه سلاحًا، أى السلاح النارى. وقد أثار بريق ورعد طلقة البندقية، أو المدفع تحديدًا، فزع الشعوب، التى لم تكن امتلكت هذا السلاح، بعد أن اعتقدت أنه البرق. لكن قبل ذلك كان الإنسان قد اجتهد ليجعل من نفسه طائرًا سريعًا. فكان إخضاع الخيل وتكوين جيش من الفرسان على أفضل وجه، هو ما أدى إلى الانطلاقات التاريخية من الشرق. وفى كل الوثائق المعاصرة عن المغول كان يتم التأكيد على مدى السرعة التى تمتعوا بها فى هذا المجال. فكانوا دائمًا ما يظهرون فجأةً، هكذا كما يختفون فجأةً. وحتى سرعة اختفائهم كانوا يستغلونها للهجوم. فما إن يظن المرء أنهم هربوا حتى يجد نفسه محاصرًا بهم. إن السرعة الفيزيقية، كسمة للسلطة، قد تنامت فى هذا الحين على

كل وجـه. ولا يبقـى لنـا إلا أن نلقـى نظـرةً عـلى أثرهـا فى عصرنـا التكنولوجـى. ففـى مجـال الانقضـاض لا بـد مـن أن يتوافـر نـوعٌ مـن السرعـة، أى سرعـة هتـك القنـاع، فـإذا وقـف كائـنٌ بـرىء مستسـلم أمـام أحدهـم، فنُـزِع هـذا القنـاع عنـه، فإنـه سيجد عـدوًا قـد استتر خلفـه. وحتـى يظهـر هـذا الأثـر فـلا بـد مـن إماطـة اللثـام فجـأةً. وهـذا النـوع مـن السرعـة يمكـن وصفـه بالسرعـة الدراميـة. فالملاحقـة هنـا تقتـصر عـلى مـكانٍ ضيـق للغايـة، لـذا تكـون الملاحقـة مكثفـةً. واسـتخدام القنـاع وسـيلةً للتنكـر مسـألةٌ موغلـة فى القـدم. أمـا قطبـه السـالب فهـو إماطـة القنـاع. ومـن قنـاعٍ إلى قنـاع يمكـن الوصـول إلى تغـير فى علاقـات السـلطة. فمكافحـة تنكـر العـدو تكـون بتنكـر الشـخص نفسـه، فحاكـمٌ مـا يسـتدعى الطبقـة العليـا العسـكرية أو المدنيـة إلى وليمـةٍ وفجـأةً يتـم القضـاء عليهـم جميعًـا فى أثنـاء مـا يكـون هـؤلاء لا يتوقعـون أدنى عمـلٍ عـدوانى. فالتبـدل بـين مسـلكٍ وآخـر يتسـق تمامًـا مـع اسـتخدام القنـاع، ويجـب أن تصـل سرعـة الحـدث إلى أوجهـا، فعليهـا يتوقـف تحقيـق النيـة المبيتـة. فصاحـب السـلطة المـدرك لاسـتمرار تنكـره الشـخصى هـو مـن يسـتطيع توقـع الـشيء نفسـه مـن الطـرف الآخـر. وكل سرعـةٍ يسـتطيع مواجهتـه بهـا يراهـا مشروعـةً ومسـموحًا بهـا، ولـن يمسـه إلا القليـل إذا مـا أنقـض خطـأ عـلى بـرىءٍ. ففـى عمـق الأقنعـة المعقـد يمكـن أن يضـل المـرء السـبيل، ولسـوف يتأثـر بشـدة إذا أفلـت منـه عـدوٌ مـا مـن جـراء الافتقـار إلى السرعـة.

سؤالٌ وجواب

تعتبر كل الأسئلة بمثابة اقتحام. فإذا ما اتخذتها السلطة وسيلةً كانت كالسكين الذى يقطع جسد من يُسأل، فيتعرف المرء على ما هو يعرفه بالفعل، إلا أنه يريد العثور عليه وجعله ملموسًا. وبيقين الجرَّاح يشق هذا طريقه إلى أجهزة الجسد الداخلية. والجراح يبقى ضحيته على قيد الحياة كى يعرف ما هو أكثر دقةً عنه. وهناك نوعٌ خاص من الجراحين يتعاملون بوعيٍ مع الإثارة الموضعية للألم. فهو يثير مواضع بعينها من الضحية لكى يعرف ما هو أكثر يقينًا عن مواضع أخرى. والأسئلة تتطلب إجابةً، أما تلك التى لا يعقبها إجابةٌ فتكون كسهامٍ طائشة فى الهواء. أما السؤال البرىء فهو يظل سؤالاً محدودًا ولا يستدعى أسئلةً أخرى. فالمرء يستعلم من شخصٍ آخر غريب عنه عن مبنى ما فيشير الآخر بالإجابة فيكتفى المرء بهذه الإجابة ويمضى إلى حال سبيله. وما حدث هو أن هذا قد استوقف ذاك الغريب للحظةٍ مجبرًا إياه على التفكير وكلما كانت إجابته أكثر وضوحًا ودلالةً كان بوسعه الخلاص ممن سأله على نحوٍ أسرع، فهو أعطى ما كان المرء ينتظره، وبعدها لا يُضْطَر إلى رؤيته مرة أخرى. وقد لا يرتضى السائل ذلك فيطرح أسئلةً أخرى، فإن تراكمت فإنها سرعان ما تثير استياء من سُئِل، وهذا لا يكون قد وضع فى احتجازٍ ظاهرى فحسب، فهو مع كل إجابةٍ

يكشـف جـزءًا أكـثر مـن ذاتـه، وقـد يكـون ذلـك أمـرًا غـير مهـم وسـطحى لكنـه طُولِـب بـه مـن قِبَـل شـخصٍ يجهلـه. ويرتبـط الأمـر هنـا بأمـرٍ آخـر، أى بمـا يكـون كامنًـا عـلى نحـوٍ أعمـق وهـو مـا يكـون عـلى قـدرٍ أعظـم مـن الأهميـة. أمـا الاسـتياء الـذى يشـعر بـه فإنـه سرعـان مـا يتحـول إلى ريبـةٍ، فتأثـير الأسـئلة عـلى السـائل تزيـد مـن شـعوره بالسـلطة فتمنحـه رغبـةً فى مواصلـة طـرح الكثـير منهـا، أمـا المجيـب فيـزداد خضوعًـا كلـما زاد استسـلامه للأسـئلة. فقسـمٌ كبـيرٌ مـن حريـة الشـخص يكمـن فى حمايتـه مـن السـؤال. فالطغيـان الأقـوى هـو هـذا الـذى يسـمح لنفسـه بالأسـئلة الأقـوى. أمـا الإجابـة الذكيـة فهـى التـى تضـع نهايـةً للأسـئلة، ومـن يسـتطيع المواجهـة فإنـه يـرد بأسـئلةٍ مضـادة، وهـذه وسـيلةٌ مجربـة للدفـاع عـن النفـس بـين طرفـين متسـاويين. أمـا مـن لا تسـمح حالتـه بالمواجهـة فعليـه أن يعطـى إجابـةً مضنيـة فيسـتنتج مـا يهـدف إليـه الطـرف الآخـر، أو يكـون عليـه أن يُفْسِـد رغبـة الآخـر فى مواصلـة الاقتحـام مـن خـلال اسـتخدام الحيلـة، فهـو بوسـعه تملـق السـائل بالاعـتراف بتفوقـه فى هـذه اللحظـة حتـى لا يُضْطَـر هـذا إلى اسـتعراض هـذا التفـوق بنفسـه، وبوسـعه المنـاورة بالإيحـاء بسـؤالٍ آخـر يكـون أكـثر أهميـةً أو أعظـم جـدوى. فـإذا مـا كان يتقـن التنكـر فإنـه يسـتطيع التمويـه عـلى هويتـه ليصـير السـؤال موجهًـا لشـخصٍ آخـر أمـا هـو فـلا يكـون لـه شـأن بالإجابـة عـلى أيـة حـال. أمـا السـؤال الـذى ينتهـى بـه المطـاف إلى التفكيـك فهـو الـذى يبـدأ بـ"التّـماس"، فهـو يمـس مواضـع مختلفـةً عـلى نحـوٍ مطـرد، وحيثـما يجـد مقاومـةً أضعـف فإنـه ينفـذ مـن هنـاك، ومـا يحصـل عليـه فإنـه يضعـه جانبًـا ليُسْـتَخدم فيـما بعـد، فالإفـادة منـه غـير آنيـة. وعـلى السـؤال أن يعـثر أولاً عـلى مـا حـدده بالضبـط كهـدفٍ لـه، فـوراء السـؤال يكمـن هـدفٌ محـدد بدقـة، أمـا الأسـئلة غـير المحـددة التـى يطرحهـا أطفـالٌ أو حمقـى فـلا تنطـوى عـلى قـوةٍ مـا فيمكـن الـرد عليهـا بسـهولة. أمـا إذا كان المطلـوب هـو إجابـاتٌ قصـيرة موجـزة كان الموقـف هنـا أكـثر خطـورة. فالتنكـر المقنـع أو "تحـول الفـرار" يكـون أمـرًا صعبًـا إن لم يكـن مسـتحيلاً. أمـا النـوع الأكـثر فجاجـةً للدفـاع عـن النفـس فهـو اصطنـاع الصمـم أو عـدم الفهـم، لكـن هـذا لا يجـدى إلا بـين طرفـين متسـاويين، وفيـما عـدا ذلـك، أى عندمـا يكـون السـؤال موجهًـا مـن الأقـوى للأضعـف، فـإن السـؤال يُطـرَح مكتوبًـا أو مترجـمًا فتكـون الإجابـة هنـا هـى الأكـثر إلزامًـا، فهـى يمكـن إثباتهـا ويسـتطيع الخصـم الرجـوع إليهـا. ومـن يكـون فى ظاهـره أعـزل فإنـه يلجـأ إلى تسـليح نفسـه داخليًـا، وهـذا التسـلح الداخـلى فى مواجهـة السـؤال هـو "السـر". فهـو يسـتتر كجسـد ثـانٍ أكـثر

حمايةً داخل الجسد الأول. ومن يبالغ فى الاقتراب منه فإنه يواجَه بمفاجآتٍ غير سارة. وينفصل السر كشيءٍ مكثفٍ عن محيطه ليغمره الظلام فلا يستطيع سبر غوره إلا القليلون. أما خطر السر فيرتبط دائمًا بما ينطوى عليه بالفعل. والأهم أو بالأحرى "الأكثر كثافة" فى السر هو الدفاع الفعال ضد السؤال. فالامتناع عن إجابة سؤالٍ يكون بمثابة دوى سلاح اصطدم بدرعٍ أو بسلاحٍ آخر. فالتزام الصمت هو صورةٌ متطرفة للدفاع حيث يتساوى النفع مع الضرر. فرغم عدم إفصاح الصامت عن نفسه إلا أنه يبدو أكثر خطرًا مما هو عليه فيُظَن به أكثر مما هو يصمت عنه. فهو يلوذ بالصمت فقط لأنه يكتم الكثير فتزداد أهمية احتجازه. والسكوت العنيد يفضى إلى استجوابٍ مربكٍ ومعذب. لكن دائمًا ما يضع أحدهم الإجابة فى إطار ظروفٍ عادية، فلا يمكن أن تمر مرور الكرام، فهى ترغم المرء على الوجود بموضعٍ محدد، ويبقى هنالك بينما يستطيع السائل استهدافه من كل مكانٍ، فهو يلف ويدور، على نحوٍ ما، ليختار موضعه الشخصى الذى يناسبه فهو يستطيع أن يحوم حول الآخر ويفاجئه ويربكه، فتبدل الموضع يمنحه نوعًا من الحرية لا يستطيع الآخر الحصول عليها، فهو يهاجمه بالأسئلة، فإذا أفلح فى التأثير عليه، أى إرغامه على الإجابة، فإنه يكون قد شد وثاقه إلى موضعٍ ما: "من أنت؟"، "أنا فلان"، فهو ليس بوسعه أن يكون شخصًا آخر وإلا جلب عليه كذبه المشكلات. وهكذا يكون قد حُرِم من فرصة الإفلات من خلال التحول. ويمكن اعتبار هذا الحدث نوعًا من القيد حتى لو تحرك هذا للحظةٍ، فالسؤال الأول يكون عن الهوية والثانى عن محل الإقامة. ولما كان كلا السؤالين يتطلب "لغةً" فإن المرء يسعى لمعرفة الحالة السابقة على السؤال والمتسقة معه، فمحل الإقامة والهوية لا بد من أن يجتمعا فيه، فأحدهما من دون الآخر سيكون بلا معنى. لقد تم العثور على هذه الحالة القديمة: إنها اللمس المرتاب للفريسة، من أنت؟ هل يمكن أن آكلك؟ فالحيوان الدائم البحث عن طعامٍ يلمس ويتشمم كل ما يجده فهو يدس فمه فى كل شيء: هل أستطيع أن آكلك؟ كيف سيكون مذاقك؟ أما الإجابة فتكون رائحةً، أو ضغطًا مضادًا، أو جمودًا لا حياة فيه. فالجسد الغريب هنا هو محل إقامته الشخصى ومن خلال الشم واللمس يصير معروفًا. وترجمة ذلك فى عاداتنا الإنسانية هو ما نطلق عليه: الاسم.

فى أثناء التربية المبكرة للطفل يتبدى حدثان متقاطعان يتصاعدان بلا حدودٍ ويعطيان الانطباع بالتنافر، إلا أنهما ينتميان إلى بعضهما البعض، وتسير الحال

على هذا النحو: الوالدان يطلقان باستمرار أوامر من نوعٍ أقوى وأكثر إصرارًا، أما الابن فيوجه عددًا هائلاً من الأسئلة. وهذه الأسئلة المبكرة للطفل، التى تماثل صراخه طلبًا للطعام، تكون هنا قد دخلت مرحلةً ثانيةً أكثر تقدمًا[105]. وهى بريئةٌ لأنها لا تعد الابن بالمعرفة الكاملة عن الأبوين بأية حالٍ لأن تفوقهما يظل هائلاً. فما هى تلك الأسئلة التى يبدأ بها الطفل؟ من بين الأسئلة المبكرة تكون تلك المتعلقة بالمكان: "أين يكون...؟" ومن الأسئلة المبكرة الأخرى: "ما هذا؟" و"من؟" هكذا نرى الدور الذى يلعبه المكان والهوية، فهما حقًا أول ما يستعلم الطفل عنه. وفيما بعد فى نهاية عامه الثالث تبدأ الأسئلة بـ"لماذا؟" وبعد ذلك بكثيرٍ بـ"متى؟" و"كم يستغرق؟" أى الأسئلة عن الزمن، ويستمر ذلك لفترةٍ طويلة حتى يكوِّن الطفل لنفسه تصورًا عن الزمن. أما السؤال الذى يبدأ بلمسٍ مرتاب فهو يسعى - كما تقدم- للنفاذ إلى مدى أعمق، فهو ينطو على شىء ذى حدٍّ فاصل له أثر السكين، والمرء يدرك ذلك فى المقاومة التى يواجه بها الأطفال الأسئلة المزدوجة: "ماذا تفضل: التفاحة أم الكمثرى؟" فهنا سيلوذ الطفل بالصمت أو أنه سيقول "كمثرى" لأنها كانت الكلمة الأخيرة، أما القرار الحقيقى الفاصل بين التفاحة والكمثرى فيكون صعبًا. وفى حقيقة الأمر أنه كان يريد كلتيهما. ويبلغ الفصل أوجه بالفعل فى حالة تكون فيها إجابة السؤالين البسيطين ممكنةً، أى بنعمٍ أو لا، فلما كان الاثنان متساويين تمامًا دونما فرق بينهما فإن حسم أحدهما يؤدى إلى الالتزام بالنتائج وتحمل التبعات. وقبل طرح السؤال على أحدهم فإن المرء لا يكون فى الغالب على معرفةٍ بما يفكر الآخر، فالسؤال يرغم هذا على الاختيار بين القبول والرفض. وما دام السؤال مهذبًا وغير ملحٍ فإنه يترك للمسئول حرية القرار. وقد تم تتويج سقراط ملكًا للسؤال فى الحوارات الأفلاطونية، لأنه كان ينأى بنفسه عن كل أشكال السلطة ويتفادى كل ما يمكن أن يذكِّر بذلك. أما الحكمة التى كانت تميزه فقد كان بوسع من يشاء أن ينهل منها، وهو لا يفصح عنها غالبًا فى خطبه ذات الصلة وإنما كان يطرح أسئلته. وعلى الجانب الآخر فإنه كان حريصًا فى الحوارات على أن يطرح أغلب أسئلته وأهمها، وعلى هذا النحو كان يحتجز مستمعيه، فيرغمهم على انفصال متعدد. هكذا كان يسيطر عليهم من خلال الأسئلة فقط. أما المهم فكان صيغ التأدب التى تحدد السؤال. وكان لا يجوز أن يُسأل الغريب عن أمورٍ بعينها. فإن فعل أحدهم ذلك فإنه يكون قد التحم به واقتحمه فيعطى الآخر المبرر بالشعور بالاعتداء عليه.

أما إبداء التحفظ نحوه فإنه يقنعه باحترامه البالغ. فتكون معاملة الغريب على أنه الأقوى، وهذا هو إحدى صور التملق الذى يلزمه باتخاذ المسلك نفسه. فما يجعل الناس يشعرون بالأمان وينشدون السلام هو الحفاظ على مسافةٍ محددة بين الطرفين وعدم الإحساس بالخطر من جراء الأسئلة، كأن الطرفين يتمتعان بالقوة، وبالمساواة فى هذه القوة. أما السؤال الغريب فيكون عن المستقبل، وقد نعتبره أعظم الأسئلة، وهو أيضًا أكثرها كثافةً. فأما الآلهة التى يتوجه المرء إليها بمثل هذا السؤال فليسوا ملزمين بالإجابة. إن هذا السؤال الموجه للأقوى هو سؤالٌ يائس، فالآلهة لا يمكن إلزامها ولا يستطيع المرء اقتحامها، وأقوالها تفسر على وجهين ولا يمكن تفكيكها. فكل الأسئلة الموجهة إليهم تظل أسئلةً أولية لا تتطلب سوى الإجابة عليها، وتتكون الإجابة غالبًا من مجرد إشارات، وهذه تُجْمَع فى أنظمةٍ كبيرة بواسطة كهنة بعض الشعوب. وقد وصلنا عن البابليين آلافٌ من هذه الإشارات. وما يلفت الانتباه أن هذه الإشارات تصطف بجوار بعضها البعض، كلٌ منها على حدة، وهى غير متوالية، ولا يجمعها صلةٌ داخلية. إنها ليست سوى قوائم من إشاراتٍ فحسب، وحتى من يعرفها جميعًا فإنه لا يمكنه فى المستقبل إلا الربط بين إحداها منفصلةً وبين شيء مستقل بذاته. أما الاستجواب فهو على النقيض من ذلك تمامًا، فهو يعيد إنتاج الماضى، وتحديدًا فى مساره الكامل. والاستجواب يكون موجهًا إلى الأضعف. لكن قبل أن نتوجه لتفسير الاستجواب فإنه من المفيد أن نتناول بإيجازٍ المنظومة الراسخة اليوم فى معظم البلاد، أى المفهوم البوليسى العام عن البشر. فهناك مجموعةٌ محددةٌ من الأسئلة كانت قد تكونت وانتشرت فى كل مكانٍ، وهى تخدم أساسًا حفظ الأمن والنظام. فالمرء يريد معرفة مدى خطورة شخصٍ ما، فإذا ما بلغ هذا الحد يتم إلقاء القبض عليه فى الحال. أما السؤال الأول الذى يُوجَه رسميًا إلى أى إنسانٍ فيكون عن اسمه والثانى عن محل إقامته، أى عنوانه، وهما السؤالان - كما نعرف الآن - اللذان يعتبران أقدم الأسئلة، أى الأسئلة عن الهوية والمكان. أما السؤال الثالث: عن المهنة. فهو سؤالٌ يوضح النشاط، ومن خلاله وخلال معرفة العمر يمكن استنتاج الأثر والمكانة، أى القدرة على تكوين صورة عنه. أما حالته الاجتماعية فتخبر عن دائرة الناس الأكثر قربًا منه سواء كانوا رجالاً أو نساءً أو أطفالاً. أما المنشأ والجنسية فيعطيان إشارةً عن فكره المحتمل. وفى عهد النازية المتطرفة كان ذلك يشير إلى العقيدة التى فقدت أهميتها اليوم.

بكل ذلك - إضافةً إلى الصورة والتوقيع- يكون قد تم إثبات الكثير. والإجابات على تلك الأسئلة يتم قبولها ولا تكون موضع شبهةٍ مؤقتًا. فالاستجواب الموجه إلى هدفٍ محدد هو فقط الذى ينطوى على أسئلةٍ مفعمة بالريبة. وفى هذا ينشأ نظامٌ من الأسئلة يخدم السيطرة على الإجابات التى يمكن أن يكون كلٌ منها زائفًا. والعلاقة بين المستجوِب والمستجَوب علاقةٌ عدائية وهو، أى المستجَوب، كطرفٍ أضعف بكثير، لا يفلت إلا إذا أقام الدليل على أنه ليس عدوًا. وفى التحقيقات القضائية تكون نتيجة الأسئلة هى المعرفة التامة عن الماضى، وهى التى حصل عليها السائل بوصفه الطرف الأقوى. فالطرق التى مضى المستجَوب بها والأماكن التى حضر فيها والساعات التى عاشها، والتى بدت حينذاك حرةً وغير مراقبة، تصير فجأةً تحت المراقبة، فيكون عليه المضى ثانيةً فى كل الطرق والدخول إلى كل الأماكن وحتى أدنى ما تمتع به من حرية تصرفٍ فى الماضى، فعلى القاضى معرفة الكثير قبل إصدار حكمه. فسلطته تحديدًا قائمةٌ على المعرفة التامة. وفى سبيل الحصول على ذلك يكون له الحق فى أى سؤال: "أين كنت؟ ومتى كنت هناك؟ وماذا فعلت؟". أما الإجابة التى تخدم مبرر التبرئة فإنها تفضى إلى مقارنة المكان بالمكان والهوية بالهوية: "قد كنت فى ذلك الوقت بمكانٍ آخر، وأنا لست من فعل هذا".

وقد رُوى فى أسطورةٍ من غرب سلافيا أنه ذات يومٍ بالقرب من "هسا" رقدت فتاةٌ فلاحة صغيرة فى أثناء الظهيرة على العشب ونامت. وجلس عريسها إلى جوارها وأخذ يفكر فى طريقةٍ تخلصه من عروسه. هنا جاءته سيدة الظهيرة وطرحت عليه أسئلةً، وعلى قدر إجاباته كانت دائمًا تطرح عليه أسئلةً جديدة. وعندما دق الجرس معلنًا تمام الواحدة كان قلبه قد توقف بعد أن قتلته سيدة الظهيرة بالأسئلة[106].

الســـر

يكمـن الـسر فى أعمـق أعـماق قلـب السـلطة. ففعـل التربـص هـو فعـلٌ سرى طبقًا لطبيعتـه. فالمـرء يختبئ فى محيطـه أو يتوائـم معـه، فـلا يصـدر أيـة حركـةٍ تفصح عنه. فالمخلـوق المتربـص يختفـى تمامًـا متدثـرًا بالسريـة كأنهـا جلـده الثـانى، ويثابـر طويـلاً تحـت حمايتـه. إن سـمة ارتبـاط الصـبر بنفـاده هـى مـا يتسـم بهـا مخلـوقٌ فى هـذه الحـال، وكلـما طالـت مـدة بقائـه بهـا زادت قوة أملـه فى النجـاح المفاجئ. وحتـى يوفق فى نهايـة المطـاف إلى شيء مـا، فـإن عليـه مـد حبـال الصـبر إلى مـا لا نهايـة. فـإذا مـا نفـد صـبره فى لحظـةٍ قبـل الأوان راح كل شيء سـدى، وعليـه أن يبـدأ مـن جديـد مُثقَـلاً بخيبـة الأمـل. وهـو يعلـن عـن نفسـه بوضـوحٍ فى أثنـاء الانقضـاض لأنـه يريـد مضاعفـة أثـره مـن خـلال الفـزع، ليـدور كل شيء بعـد ذلـك فى الظـلام بـدءًا مـن الالتهـام. فالفـم مظلـمٌ والمعـدة والأمعـاء مظلمـة، فـلا أحـد يـدرى ولا أحـد يـدرك الحـدث المتواصـل داخلـه. ومنـذ هـذا الحـدث الأول للالتهـام يظـل الجـزء الأعظـم سرًا عـلى أوسـع مـدى، فبالـسر الـذى يخلقـه المـرء بنفسـه يبـدأ الأمـر فعـالاً بحـدث التربـص لينتهـى مجهـولاً وسـلبًا فى ظـلام الجسـد الـسرى. إنهـا لحظـة الانقضـاض وحدهـا هـى التـى تلقـى فى أثنـاء ذلـك ضوءهـا بقـوةٍ، كالـبرق، عـلى لحظتـه الخاصـة الخاطفـة لتكشـف عنـه، فالـسر الأكـثر خصوصيـةً هـو مـا يكمـن داخـل الجسـد. فـ"رجـل الطـب"، الـذى مـارس

عملـه مـن خـلال معرفتـه بأحـوال الجسـد، كان عليـه قبـول إجـراء عمليـاتٍ خاصـة جـدًا عـلى جسـده. فقـد كان هنـاك رجـلٌ مـن قبائـل "أرانـدا" الأسـترالية[107] قـد شـاء أن يكـرس نفسـه رجـلاً للطـب، فمـضى إلى أمـام كهـفٍ تسـكنه الأشـباح وهنـاك بـدء بثقـب لسـانه، وكان وحـده تمامًـا. وكان مـن شروط تكريسـه هـو أن يشـعر برهبـةٍ عظيمـة مـن الأشـباح. فشـجاعته بـأن يكـون وحـده، تحديـدًا بمـكانٍ يكـون فيـه الخطـر عظيـمًا للغايـة، كان يبـدو شرطًـا للتأهـل لهـذه المهنـة. وفيـما بعـد كان يخـترق رأسـه - كـما اعتقـد - رمـحٌ مـن الأذن إلى الأذن ليقتلـه، فينتقـل مـن خـلال ذلـك إلى الأشـباح داخـل كهفهـم حيـث يسـكنون معًـا فى نـوعٍ مـا مـن العـالم الآخـر، وهـو مـا نعتـبره نحـن فقدانًـا للوعـى. وفى العـالم الآخـر تُسْـتَخرج جميـع أحشـائه ليحصـل بـدلاً منهـا عـلى أحشـاء جديـدة. ولا بـد مـن أن يفـترض أن هـذه الأحشـاء أفضـل مـن المألوفـة، فربمـا تكـون محصنـةً أو يكـون تعرضهـا لأعـمال السـحر أقـل وطـأةً. وعـلى هـذا النحـو يكـون قـد مُـدَّ بالقـوة مـن أجـل ممارسـة مهنتـه، وهكـذا تكـون سـلطته الجديـدة قـد بـدأت مـن أحشـائه، لقـد مـات قبـل السـماح لـه ببـدء عملـه. لكـن موتـه كان بغـرض النفـاذ التـام إلى داخـل جسـده. وهكـذا لا يعـرف سره سـواه وسـوى الأشـباح، فـسره يكمـن داخـل جسـده. وهنـاك صـورةٌ غريبـة وهـى تجهيـز السـاحر ببلـورات ذهـبٍ، ففـى أثنـاء كل عمليـة يعالـج بهـا المـرض ينشـأ عـن هـذه الأحجـار دافـعٌ نشـط. وذات مـرة قـام السـاحر بنفسـه بتوزيـع هـذه الأحجـار ليسـتردها مـرةً أخـرى مـن الأعضـاء العليلـة للمريـض، فقـد كانـت هنـاك مـوادٌ غريبـة صلبـة هـى التـى سـببت الألم لجسـد المريـض، إنهـا تشـبه تكاليـف العـلاج الخاصـة التـى لا يعـرف قيمتهـا إلا السـحرة. وبغـض النظـر عـن هـذا العـلاج الحميمـى للغايـة للمـرضى فـإن السـحر لا يتـم إلا عـن بعـدٍ، حيـث يقـوم المـرء سرًا باعـداد كل أنـواع العـصى السـحرية الحـادة، ثـم يوجههـا مـن مسـافةٍ بعيـدة صـوب الضحيـة الـذى يصـاب دون أن يـدرى بأثـر السـحر الرهيـب. وبوسـع كل فـردٍ مـن قبائـل "أرانـدا" ممارسـة الـشر مـن خـلال السـحر فى حـالاتٍ فرديـة، أمـا درء الـشر فـلا يسـتطيع القيـام بـه إلا رجـال الطـب. فمـن خـلال التكريـس والتمريـن يتـم حمايـة هـؤلاء عـلى نحـوٍ مختلـف. وبعـض رجـال الطـب ممـن تقـدم بهـم العمـر يسـتطيعون إنـزال الـشر بجماعـةٍ كاملـة مـن البـشر. وهكـذا فإنـه يوجـد شيء يماثـل الثـلاث درجـات للصعـود فى سـلم السـلطة، فمـن يسـتطيع إصابـة كثيريـن فى وقـتٍ واحـد يكـون هـو الأقـوى. أمـا مـا يخشـاه المـرء عـلى نحـوٍ أعظـم فهـى قـوة سـحر الغربـاء الذيـن يقطنـون مكانًـا بعيـدًا، وربمـا تكـون الخشـية مـن هـؤلاء أعظـم

لأن المرء لا يعرف وسيلةً مضادة لسحرهم على قدر معرفته بسحرة بلاده، إضافةً إلى انعدام المسئولية هنا عما يرتكب من آثامٍ يُعاقَب عليها داخل الجماعة نفسها. وفى درء الشر ومعالجة الأمراض تعتبر قوة رجل الطب قوة خيرٍ، لكنها تتماهى مع ممارسة الشر على المدى البعيد. وليس هناك أذى من دون مسبِّبٍ له، بل إن كل ذلك يصدر عن البشر ذوى النوايا السيئة وعن الأشباح. وكل ما نسميه نحن "سببًا" يعرفونه هم بـ"الذنب"، فكل موتٍ هو قتلٌ. ولما كان ذلك قتلاً فإنه يستوجب القصاص. إن الاقتراب من عالم المصابين بالجنون بالعظمة على أى وجه هو أمرٌ يبعث على الدهشة. وسوف نتعرف على ذلك على نحوٍ أكثر دقةً فى كلا الفصلين عن حالة "شربر" بنهاية هذا الكتاب. فحتى الهجوم على الأحشاء تم سرده هناك بالتفاصيل. فبعد تدميرها تمامًا وبعد آلامٍ طويلة المدى فإنها عادت إلى مكانها من جديد محصنة. أما ماهية السر المزدوجة فتظل ملازمةً له فى كل المظاهر العليا للسلطة. والمسافة الفاصلة بين رجل الطب البدائى وبين المصاب بجنون العظمة هى أقل من خطوةٍ، وكلاهما ليسا بعيدًا عن صاحب السلطة، كما جاء عرض ذلك تاريخيًا فى أمثلةٍ كثيرة شهيرة للغاية. فالسر هنا يجد مجاله النشط، فصاحب السلطة الذى يتقن الاستعانة بذلك يدرك ذلك جيدًا ويعرف قدر السر طبقًا لدرجة أهميته، فهو يعرف بما يتربص إذا ما شاء الوصول إلى شىء، وهو يعرف من هو الذى سيستخدمه من معاونيه من أجل التربص. وهو لديه كثيرٌ من الأسرار لأنه يطمح إلى الكثير، فيخضع أولئك لنظامٍ يراقب فيه كلٌ منهم الآخر، فهو يسلم هذا لذاك ويسلم ذاك لهذا، ويحرص على ألا يكون هناك أبدًا ما يربط بينهما. فكل من يعرف شيئًا يقوم على رقابته آخر من دون أن يعرف ما هو بالفعل هذا الذى يراقبه فى الآخر، فعليه أن يسجل كل كلمةٍ وكل حركةٍ لمن كُلِّفَ برقابته فإذا استمر فى فعل ذلك يكون قد أبلغ الحاكم بصورةٍ عن أفكار المرَاقب. إلا أن المراقِب نفسه يكون تحت الرقابة ويقوم تقريرٌ لمراقِب آخر بتصحيح تقريره، وهكذا يصير صاحب السلطة على درايةٍ متجددة عن إخلاص الأوعية التى آمنها على أسراره وعن ثقته بعملها، فيستطيع تقدير مدى امتلاء أى من تلك الأوعية عن آخرها حتى أنها يمكن الآن تطفح. ويكون بيده وحده النظام المتداخل المعقد للأسرار، فإن سلمه لآخَر شعر بالخطر يتهدده. ومن سمات السلطة أن يكون هناك تقسيمٌ غير متساوٍ لسبر الغور. فالقوى يسبر الغور لكن لا يدع أحدًا يسبر غوره، ويكون عليه هو التحلى

بأقصى درجات الكتمان، فأفكاره وكذلك نواياه لا ينبغى لأحدٍ أن يعرفها. ومن الحالات الكلاسيكية لمثل هذا الكتمان الشديد كانت حالة "فليبو ماريا" آخر الـ"فيسكونتى" فقد كانت إمارته "ميلانو" قوةً عظمى فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر[108]، ولم يكن هناك من يضاهيه فى إخفاء أعمق أعماقه، فهو لم يفصح قط عما يريد بل كان يعبر عن ذلك بعد أن يكون قد غلفه بطريقةٍ خاصة به. فإن فقد وده نحو شخصٍ ما فإنه يواصل مدحه، فإذا ما خلع على شخصٍ بالعطايا بألقاب التشريف فإنه يكون بهذا قد أدانه بالحماقة أو استخدام العنف ويجعله يشعر بأنه غير جديرٍ بما واتاه من حظ. فإذا ما شاء أن يقرِّب أحدًا إلى محيطه فإنه يجذبه إليه لفترةٍ طويلة ويبث فيه الآمال ثم يدعه يهوى، فإذا ما اعتقد المُسْتَهدَف أنه صار نسيًا منسيًا فإنه يستدعيه إليه ثانيةً. فإذا ما أنعم على بعضهم بمكافأةٍ لما قاموا به نحوه فإنه يتساءل على نحوٍ ماكر كأنه لا يعرف شيئًا عن العمل الطيب المضمون. وعادةً ما كان يعطى شيئًا آخر غير المرجو على نحوٍ مخالف لما كان مأمولاً. فإذا شاء منح أحد هدية أو الخلع عليه بتشريفٍ ما، كان اعتاد قبل ذلك بأيامٍ كثيرة أن يسأله عن أمورٍ غير مهمة على الإطلاق حتى لا يكون بوسع الرجل تخمين ما ينوى. أجل، فحتى لا يبوح لأحدٍ بنيته الخفية فإنه كان يشكو من توزيع العطايا التى يكون هو نفسه الذى منحها، أو يشكو من تنفيذ حكم اعدامٍ يكون هو نفسه قد أصدره. وفى هذه الحالة الأخيرة يبدو كأنه يحاول إخفاء أسراره حتى عن نفسه، فهذه تفقد شخصيتها المعروفة والنشطة فتدفع بها إلى صورة السر السلبية الذى يحمله المرء فى ظلام كهف جسده الشخصى، والذى يحتفظ به هناك حيث لا يمكن معرفته أبدًا، حتى إنه هو نفسه يكون قد نسيه. أما الملك الفارسى قورش الثانى المظفر فكان قد ابتكر وسائل خاصةً به تمامًا من أجل اختبار مدى كتمان الأشخاص الذين اختارهم لذلك[109]. فإذا ما عرف أن هناك فى محيطه شخصين ارتبطا بصداقةٍ حميمة فتوافقا على الشىء نفسه أو ضد الشىء، نفسه فكان يضم أحد الاثنين إليه ويأتمنه على سرٍ يخص صديقه، فيبلغه أنه قرر إعدام صديقه ويحظر عليه - مهددًا بالعقاب- إفشاء هذا السر لصديقه. ومن هذا الحين يراقب مسلك هذا المُهْدَد فى غدوه ورواحه بالقصر ولون وجهه ومسلكه إذا وقف بين يدى الملك، فإذا ما تبين له أن مسلكه لم يتغير فى شىء فإنه يقرِّب صديقه ويمنحه ثقةً أعظم ويعامله بامتيازٍ خاص ويرفع من مرتبته ويجعله يتمتع بنعمته، وفيما

بعد عندما يختلى به يقول له: "قد كنت أنوى إعدام هذا الرجل بسبب أخبارٍ محددة وصلتنا عنه لكن اتضح زيف كل شيء طبقًا لمعلوماتٍ أكثر دقةً". لكنه إذا لاحظ أن الشخص المُهْدَد قد اعتراه الفزع وآثر العزلة متحولاً بوجهه عنه فإنه يدرك أن سره تم إفشاؤه وهنا يصب قورش نقمته عليه فيخفض مرتبته ويعامله بقسوةٍ، ويخبر الآخر بأنه لم يشأ إلا وضع صديقه تحت الاختبار بأن ائتمنه على سرٍ ما. على هذا النحو كان لا يثق فى كتمان أحد رجال بلاطه إلا عندما يرغمه على خيانة مميتة لأقرب أصدقائه. أما الكتمان الأعظم فكان لا يأتمن عليه أحدًا سوى نفسه، فكان يقول: "من لا يكون جديرًا بخدمة الملك فإنه لا يمثل قيمةً تجاه ذاته هو، ومن لا يمثل لنفسه قيمةً لا يجنى من* ورائه فائدة".

إن سلطة الكتمان تتمتع بتقديرٍ كبير فهى تعنى أن المرء يستطيع مقاومة كل الإغراءات للإفصاح عن السر، وهى إغراءاتٌ بلا حصر. فلا يعطى إجابةً على أى شيء كأنه لم يُسأل قط. فهو لا تبدو عليه أمارة تثير إعجاب الآخر بهذا أو ذاك، فيخرس المرء من دون أن يكون أصيب بالخرس لكنه يكون قد سمع. وفضيلة المثابرة على رباطة الجأش لا بد من أن تفضى فى حالتها القصوى إلى الكتمان. فالصمت يشترط المعرفة الدقيقة بما يتم السكوت عنه. ولما كان من طبائع الأمور ألا يصمت المرء للأبد فإنه يكون عليه الاختيار بين ما يمكن الإفصاح عنه وبين ما يجب كتمانه. والمسكوت عنه هو الأفضل بين كل ما يمكن معرفته، فهو الأكثر دقةً والأعظم قدرًا. والمسكوت عنه لا يحميه فحسب بل يجعله أكثر تركيزًا، فالرجل الذى يصمت كثيرًا يبدو أكثر تركيزا فى كل الأحوال. فالمرء يظن أن هذا يعرف الكثير للغاية عندما يصمت. ويظن أن هذا يفكر كثيرًا فى أسراره، وهذا ما يحدث له كل مرةٍ عندما يكون لديه ما يخفيه. وهكذا فإنه لا ينبغى إغفال قيمة السر بالنسبة للصامت، فالمرء يحترمه لأنه يتحرق أكثر فأكثر ولأنه يتنامى داخله، ورغم ذلك فإنه لا يبوح به. إن الصمت يفرض العزلة، فمن يصمت يكون أكثر عزلةً من المتحدثين، ولهذا تنسب إليه قوة الانفرادية. إنه حارسٌ لكنزه، وكنزه داخله. والصمت يُعتبر صنوًا للتحول. فمن يتمسك بموقفه الداخلى لا يستطيع الابتعاد عنه. فالصامت يستطيع التنكر لكن على نحوٍ جامد، وبوسعه ارتداء قناعٍ معين لكنه يتمسك به فمرونة التحول تستحيل عليه، فأثرها غير محدد، ولا يمكن إدراك ما يمكن أن ينزلق إليه إذا ترك المرء نفسه لها، أى لهوى النفس. والمرء يصمت فى كل حالةٍ حينما لا يريد التحول. ففى الكتمان

تنتفـى كل دواعـى التحـول. فمـن خـلال الـكلام يتصـل كل شيء بـين النـاس، وهـو مـا يتجمـد فى حالـة الصمـت. ومـن ميـزات الصامـت أن النـاس تنتظـر إفصاحـه مـما يكسـبه أهميـة لـدى هـؤلاء. والإفصـاح موجـزٌ ومحـدد وهـو يقـترب بذلـك مـن " الأمـر". فعلاقـة الاختـلاف النوعـى المصطنـع بـين الآمـر وبـين مـن يطيعـه تعنـى عـدم وجـود لغـةٍ مشـتركة بينهـما، فـلا ينبغـى أن يتحادثـا معًـا كأنهـما لا يسـتطيعان ذلـك. وافـتراض أنـه لا يوجـد تفاهـمٌ بينهـما خـارج "الأمـر" يظـل قائمًـا تحـت كل الظـروف، وعـلى هـذا يصـير "الآمـرون" فى إطـار مهنتهـم "صامتـين"، وعـلى هـذا النحـو ينتظـر المـرء مـن الصامتـين البـوح بمـا يكتمـون، فـإن هـم فعلـوا ذلـك تلقـى مـا يقولونـه كأنـه "أوامـر". أمـا شـك المـرء فى أشـكال الحكـم الحـرة واحتقـاره لعـدم جديـة عملهـا فإنـه يرتبـط بافتقـار هـذه الحكومـات إلى السريـة. ففـى البرلمـان تـدور مناقشـاتٌ بـين مئات النـاس وتكمـن أهميتهـا الخاصـة فى علانيتهـا. فـالآراء المتعارضـة تعلـن عـن نفسـها وتتنافـس، وحتـى الجلسـات السريـة سرعـان مـا ينكشـف أمرهـا، فالفضـول المهنـى للصحافـة والاهتـمام بالمصالـح الماليـة يؤديـان إلى إفشـاء السريـة، فالبعـض يـرى أن الفـرد أو مجموعـةً صغـيرة حولـه هـم مـن يسـتطيعون الحفـاظ عـلى الـسر. وقـد وُضِعَـت عقوبـاتٌ قاسـية للغايـة عـلى إفشـاء الـسر. أمـا القـرار فيفضـل أن يكـون بيـد واحـدٍ مفـرد، وحتـى هـذا لا يسـتطيع معرفتـه قبـل اتخـاذه ، فـإذا مـا مـا اتخـذه فإنـه سرعـان مـا يجـد السـبيل لتنفيـذه. إن قسـمًا كبـيرًا مـن المكانـة التـى يتمتـع بهـا المسـتبدون قائـمٌ عـلى السـماح لهـم بتركيـز قـوة الـسر فى أيديهـم، الـسر الـذى هـو مقسـمٌ ومشـظى بـين كثيريـن فى المجنمعـات الديمقراطيـة. وهـو مـا يتنـدر عليـه البعـض بـأن كل شيءٍ يُقتَـل نقاشًـا فى هـذه الديمقراطيـات. فـكلٌ يثرثـر بـلا معنـى، وكلٌ يتدخـل فى كل شيء، فـلا يحـدث أى شيء، لأن كل شيء يكـون قـد عُـرِف قبلهـا. فيبـدو الأمـر مفتقـرًا إلى الحسـم، وفى الواقـع فـإن خيبـة الأمـل فى الافتقـار إلى الـسر.

فالمـرء عـلى اسـتعداد لتحمـل الكثـير مـا دام ذلـك أمـرًا عظيـمًا وسريًـا. فالحـال يبـدو دغدغـةً عبوديـة مـن نـوعٍ خـاص للغايـة بـأن يكـون المـرء بحـد ذاتـه بـلا قيمـة مسـتقرًا فى وعـاء قـوى فـلا يـدرى مـاذا يحـدث حقًـا، ولا يـدرى متـى يقـدم الآخـرون عـلى الخطـوة الأولى نحـو المجهـول. فينتظـر المـرء مستسـلمًا متحرقًـا أن يصـير الضحيـة المختـارة. ويمكـن للمـرء فى هـذه الحـال أن يـرى الـسر مقدسًـا. ويغطـى بريقـه عـلى أى شيء آخـر. والمـرء لا يتوقـع الكثـير إذا مـا فاجئتـه حمـم الـبركان عـلى نحـوٍ غـير متوقـع ولا يمكـن مقاومتـه. فـإن صـارت كل الأسرار فى ناحيـةٍ واحـدة وبيـدٍ واحـدة فـلا بـد مـن

أن تكون نهاية صاحبها وخيمة العواقب وهو ما لا يعتبر مهمًا بحد ذاته، لكنه يمثل أهميةً هائلة لكل من يستهدفه هذا الأمر. فكل سر ذات طبيعة متفجرة ويتفاقم بفعل حرارته الداخلية. أما القسم الذى يعتبر صمام أمان للسر فيكون هو نقطة انفجاره. ولكننا اليوم نستطيع كشف مدى خطورة السر. ففى أجواء مختلفة تمامًا، تبدو منفصلةً ظاهريا، يكون السر قد شحن نفسه بسلطةٍ أعظم قدرًا. فما إن مات الديكتاتور الحقيقى الذى خاض العالم الحرب ضده متحدًا، حتى ظهر مجسدًا فى القنبلة الذرية، الأكثر خطرًا من كل ما سبقها، بتوابعها المتنامية بسرعة.

إن "تركيز السر" هو المسمى الذى يُطلَق على العلاقة بين عدد هؤلاء من يستهدفهم وعدد هؤلاء الذين يحتفظون به. وطبقًا لهذا التحديد يكون من السهل إدراك أن التقنية الحديثة هى الأكثر تركيزًا والأكثر خطرًا مما سبقها على الإطلاق. وهى تستهدف الكل، لكن عددًا قليلاً هو من يعرفها، ويتوقف استخدامها على خمسة أو عشرة أشخاص.

الحكم والإدانة

قد يكون من المفيد هنا أن ننطلق من ظاهرةٍ يلمسها الجميع، وهى ظاهرة التلذذ بالحكم سلبًا، فعندما يقول أحدهم: "إن هذا كتابٌ سيئ" أو "إن هذه صورةٌ رديئة" فإنه يكون قد اتخذ مظهر من له القدرة على قول شىء موضوعى، وإلى حدٍّ ما تشى ملامحه فى أثناء ذلك بأنه يسعد بقول ذلك. فظاهر القول خادعٌ وهو سرعان ما يتحول إلى حكمٍ شخصى: "إنه شاعرٌ ردىء" أو "إنه رسامٌ ردىء". وهو ما يبدو فى نفس الوقت كأنه قيل "إنه إنسانٌ ردىء". ولذة الحكم سلبًا لا يمكن إخفاؤها إطلاقًا. إنها لذةٌ قاسية ومروعة لا يمكن إنكارها قطعًا. أما "الحكم" فلا يكون حكمًا إلا إذا انطوى على شىء كاليقين الجازم وهو لا يعرف الوسطية كما لا يعرف الحذر ويتوصل إليه بسرعة، وهو يتسق مع جوهره فى الغالب إذا صدر من دون تردد. أما الشغف الذى يفصح عنه فيرتبط بسرعته. والحكم غير المشروط والحكم السريع تظهرهما اللذة المرتسمة على ملامح مصدر الحكم. فأين تنشأ هذه اللذة؟ إن المرء يزيح عن نفسه شيئًا، ليبتعد عن جماعةٍ أقل قدرًا شريطة أن ينتمى هو إلى جماعةٍ أعلى قدرًا. فهو يرفع من قدر نفسه وهو يحط من قدر الآخرين. ووجود ثنائيةٍ تمثل قيمتين متعارضتين يصير أمرًا مقبولاً كشىءٍ طبيعى وضرورى. والمرء يختار "الأمر الطيب"

أينـما كان حتـى يرتفـع بنفسـه عـن "الأمـر السـيئ"، فهـو مـن يحـدد بنفسـه مـا يكـون عـلى هـذا الجانـب ومـا يكـون عـلى الجانـب الآخـر. إنهـا هـى سـلطة القـاضى التـى يقرهـا لنفسـه عـلى هـذا النحـو، لأن القـاضى فقـط فيـما يبـدو هـو مـن يقـف بـين كلا المعسـكرين، عـلى الحـدود الفاصلـة بـين "الطيـب" و"السـيئ"، وهـو ينسـب نفسـه إلى "الخـير" عـلى كل حـالٍ، فشرعيـة منصبـه تتأسـس فى قسـمٍ كبـير منهـا عـلى انتمائـه الراسـخ إلى مملكـة الخـير كأنـه وُلِـدَ هنـاك، وهـو يصـدر حكمـه عـلى نحـوٍ مـا فى النهايـة ويكـون حكمـه مُلْزِمًـا، والأمـور التـى يفصـل فيهـا هـى أمـورٌ محـددة تمامًـا. أمـا إدراكـه للخـير والـشر فيرجـع إلى خبرتـه الطويلـة. أمـا غـير القضـاة، أى مـن لم يكلفهـم أحـدٌ بذلـك، ولم يعينهـم مـن هـو متمتـعٌ بقـوى عقليـة سـليمة، فهـم هـؤلاء مـن يسـتنبطون أحكامًـا فى كل المجـالات ولا يشـترط فى ذلـك تمتعهـم بالمعرفـة المتخصصـة، فمـن يمتنعـون عـن إصـدار أحـكامٍ، لأنهـم يسـتحون مـن ذلـك، يُعَـدون عـلى أصابـع اليـد. فمـرض إصـدار أحـكامٍ يُعَـدُّ واحـدًا مـن أكـثر الأمـراض انتشـارًا التـى عرفهـا البـشر وأصابـت الجميـع عمليًـا. فـإذا مـا حاولنـا الكشـف عـن جـذور ذلـك، رأينـا أن المـرء يشـعر مـن حـينٍ لآخـر بحاجـةٍ عميقـة إلى إعـادة وضـع كل مـن يسـتطيع تصورهـم فى إطـار مجموعـاتٍ. فهـو يقسـم عـدد الموجوديـن المتغـير وغـير المحـدد إلى مجموعتـين ليضعهـما عـلى هـذا النحـو مقابـل بعضهـما البعـض، فيمنحهـما شـيئًا مـن الكثافـة، وهـو يحشـدهما، كأن عليهـما قتـال بعضهـما البعـض، ويشـحنهما إلى حـد الانفجـار ويوغـر صدورهـما بالعـداء. فكـما تصورهـما هـو كـما شـاء، لا يكـون بوسـعهما سـوى أن يصـيرا ضـد بعضهـما البعـض. إن الفصـل بـين الطيـب والخبيـث هـو أقـدم وسـائل التصنيـف الثنـائى، الـذى لم يكـن مجـردًا تمامًـا ولم يكـن قـط مسـالمًا تمامًـا. والأمـر عـلى صلـةٍ وثيقـة بحالـة التوتـر بينهـما. ومصـدر الحكـم يخلـق هـذا التوتـر ويجـدده. إنـه الميـل إلى تكويـن حـزمٍ معاديـة تكـون أساسًـا لهـذا الحـدث. عـلى أن يفـضى ذلـك فى نهايـة المطـاف إلى حـزم حـربٍ. ولمـا كان ذلـك ينسـحب عـلى كل مجـالات الحيـاة وأنشـطتها المحتملـة فإنـه يصبـح أقـل وطـأةً، ولكـن حتـى لـو لعـب دورًا سـلميًا وحتـى لـو تبـدى فى حكـمٍ لفظـى، فـإن النـزوع إلى عـداوةٍ دمويـة، يكمـن فى بذرتـه. وحتـى مـن تشـعبت وتنوعـت علاقاتـه فإنـه ينتمـى عـلى هـذا النحـو إلى مجموعـات "الخـير" التـى بـلا حـصر ليواجـه مجموعـاتٍ عـلى نفـس القـدر مـن الكـثرة، أى مجموعـات "الـشر". والأمـر يرتبـط بحـالاتٍ مجـردة إن كانـت هـذه المجموعـة أو غيرهـا قـد تـم تحريضهـا لتكـون كتلـةً لتهاجـم الكتلـة المعاديـة لهـا قبـل أن تهاجمهـا

هـذه الأخـرى. وعـن أحـكامٍ تبـدو سـلميةً تنشـأ فيـما بعـد أحـكامٌ بالمـوت ضـد العـدو. فحـدود الأخيـار تكـون محـددةً بدقـة، وويـلٌ للشريـر إن تجاوزهـا، فهـو لا علاقـة لـه بالأخيـار، فـلا بـد مـن القضـاء عليـه.

سلطة العفو. الغفران

إن سلطة العفو هى سلطةٌ يحتفظ بها كلٌ لنفسه، والكل يمتلكها. وسوف يكون الأمر مثيرًا للعجب لو أن الحياة تأسست حسب أفعال العفو. فالإنسان المصاب بجنون العظمة هو الذى لا يستطيع العفو إلا بصعوبةٍ بالغة أو أنه لا يفعل ذلك على الإطلاق، وهو الذى يتدبر طويلاً والذى لا ينسى أبدًا شيئًا يمكنه العفو عنه، وهو الذى يخلق أفعالاً عدائية وهميةً حتى لا يغفرها. والمقاومة الأساسية فى حياة أناسٍ – على هذه الشاكلة - تتوجه ضد كل صور الغفران. فإذا ما تعلق ذلك بوصولهم للسلطة ودعم نفوذهم واضطروا إلى إصدار حكم بالعفو فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لذر الرماد فى العيون، فصاحب السلطة لا يغفر أبدًا حقًا، فكل عملٍ عدائى يظل مُسجلاً ليتم حجبه أو يظل محتفَظًا به لوقت حاجةٍ، وأحيانًا ما يتم مبادلة ذلك مقابل خضوعٍ حقيقى. ويتخذ أصحاب السلطة إجراءاتٍ جريئة فى هذا الشأن، فهم يتحرقون كثيرًا إلى إخضاع كل من يعترض طريقهم إلى حد أنهم يبالغون فى دفع ثمنٍ غالٍ لذلك. أما المغلوب على أمره، الذى تبدو له قوة صاحب السلطة بلا حدود، فإنه لا يرى مدى أهمية خضوع الجميع التام بالنسبة لصاحب السلطة. فالمغلوب على أمره لا يستطيع تقدير تنامى السلطة – إن كان يملك شعورًا بذلك على الإطلاق- إلا مقارنةً بثقله هو الحقيقى، وهو

لـن يـدرك أبـدًا أن انحنـاء هـذا الأخـير، أى التابـع المنـسى البائـس، هـو مـا يمنـح للملـك تألقـه. واهتـمام رب الإنجيـل بـكل فـردٍ وإصراره وحرصـه عـلى ألا ينـسى أى إنسـان، هـو بمثابـة القـدوة لـكل صاحـب سـلطة. وهـذا الـرب هـو أيضًـا مـن أسـس لمسـلك الغفـران الملتبـس، فمـن خضـع لـه شـمله مـرةً أخـرى بعفـوه. لكنـه عـلى إثـر ذلـك يراقـب مسـلك مـن اسـتعبده وييـسر لـه إطلاعـه عـلى الخبايـا معرفـة مـدى خـداع عبيـده لـه. وليـس هنـاك شـكٌ عـلى الإطـلاق بـأن المحظـورات الكثـيرة هـى هنـا فقـط مـن أجـل دعـم سـلطة هـؤلاء الذيـن بوسـعهم عقـاب الآخريـن وغفـران أخطائهـم. فالعفـو هـو عمـلٌ سـلطوى علـوى ومركـزٌ للغايـة لأنـه يشـترط الإدانـة التـى مـن دونهـا لا يمكـن أن يوجـد فعـل العفـو. وفى العفـو يكمـن كذلـك الانتقـاء فهـو ليـس تقليـدًا أن يتـم العفـو عـن أكـثر مـن عـددٍ معـين محـدود مـن المدانـين. فالمعاقِـب يكـون عـلى حـذرٍ تـام مـن الإفـراط فى التسـامح، وحتـى لـو تظاهـر بـأن قسـوة الحكـم تخالـف جوهـر الطبيعـة، فإنـه سـوف يـبرر ذلـك بالـضرورة المقدسـة للعقـاب، وبذلـك يجـد مـبررًا لـكل شىء، إلا أنـه دائمًـا مـا يـدع سـبيل العفـو مفتوحًـا سـواء أنـه قـرر ذلـك بنفسـه فى حـالاتٍ مختـارة أو أنـه ينصـح سـلطة عليـا مكلفـة بذلـك بالعفـو. وتبلـغ السـلطة أوجهـا حـين تقـرر العفـو فى آخـر لحظـة ممكنـة. فعندمـا تحـين لحظـة تنفيـذ الحكـم بالإعـدام، الـذى صـدر بـه حكـم بالمقصلـة أو بدفعـة رصـاص مـن فرقـة إعـدام متأهبـة لإطـلاق النـار، فيبـدو هنـا العفـو كأنـه حيـاةٌ جديـدة. إنـه حـدود السـلطة التـى لا تسـتطيع إعـادة المـوتى إلى الحيـاة، لكـن غالبًـا مـا يعتقـد صاحـب السـلطة أنـه اجتـاز تلـك الحـدود بفعـل العفـو، الـذى احتفـظ بـه طويـلاً.

الأمـــر



الأمر: فرارٌ وغصة

الأمر هو الأمر: يلتصق الأمر بطبيعة كل ما يمكن وصفه بالجزم والحسم وعدم النقاش، وهى طبيعة أحدثت آثارًا من المرجح أنها لم تنل حظها من التدبر بدرجة كافية. فنحن نتقبل "الأمر" على أنه شيء دائم الوجود، فهو يبدو طبيعيًا مثل الأمور التى لا غنى عنها. وقد اعتاد المرء على "الأوامر" منذ الصغر، ومن هذه الأوامر تتألف إلى حد كبير ما نطلق عليه "التربية"، كما أن حياة البالغين بأسرها تتشرب من معينها وتتخللها تلك الأوامر، سواء تعلق ذلك بمجالات العمل أو الحرب أو العقيدة. قلما تساءلنا: ما هى حقيقة ماهية "أمر ما"؟ هل هى بالفعل سلسة كما تبدو هكذا؟ هل يترك الأمر - رغم سرعة وسلاسة تلبيته- خلفه آثارًا أخرى أكثر عمقًا، وربما عدوانية (كذلك) داخل الإنسان الذى عليه إطاعة "الأمر"؟

إن الأمر أقدم من اللغة وإلا ما كانت قد فهمته الكلاب، فترويض الحيوانات يتأسس على أنها تتعلم فهم ما يُطلب منها من دون معرفةٍ باللغة. فالأوامر المقتضبة، التى لا تختلف فى شيء عن مثيلاتها لدى الإنسان، تنطوى على إعلان إرادة مروض الحيوانات، فينصاع الحيوان لها مثلما ينصاع للنواهى كذلك. وهنا

يجدر بنا البحث عن جذور "الأمر" العميقة للغاية. فوجوده واضحٌ على الأقل فى شكلٍ ما أيضا خارج إطار المجتمع البشرى.

إنّ" الفرار" هو أقدم صيغة تنفيذية للأمر الصادر إلى حيوانٍ من كائنٍ أقوى منه. فالفرار يحدث -كما يبدو ظاهريا فقط - بشكل تلقائى، ودائمًا ما يتخذ الخطر هيئةً ما، ومن دون تصور ذلك فإن أى حيوانٍ لن يقدم على الفرار. والأمر بالفرار يكون قويًا ومباشرًا مثل النظرة. ومن البدء تتجلى سمات جوهر الفرار فى اختلاف نوع كلا الكائنين اللذين تنشأ بينهما علاقةٌ على هذا النحو. فأحدهما يعلن عن رغبته فى التهام الآخر، وهنا تظهر الخطورة القاتلة للفرار. والأمر يرغم الحيوان الأضعف على التحرك سواء كان قد أطاع ذلك حقًا أم لا. كما يتوقف الأمر على قوة التهديد: قوة النظرة والصوت والهيئة المروعة. وهكذا يشتق الأمر من "الأمر بالفرار"، وهو يظهر فى هيئته الأولى بين حيوانين مختلفى النوع، فتباين القوة الكبير بين كلا هذين، وحقيقة أن أحدهما اعتاد أن يكون فريسةً للآخر، وثبات هذه العلاقة التى تبدو راسخةً منذ القدم، كل ذلك معًا ينطوى على شىءٍ مطلق غير قابل للجدل. إن الهرب هو الفرصة الوحيدة والأخيرة المرجوة ضد الحكم بالموت. فزئير أسدٍ خرج للافتراس هو فى حقيقة أمره حكمٌ بالموت، فهو أحد أصوات لغته الذى يفهمه ضحاياه. وقد يكون هذا التهديد هو الوحيد الذى اجتمع عليه من اختلفوا عن بعضهم البعض. إنه "الأمر" الأقدم وهو الذى صدر فى عصور أقدم سابقة على وجود الإنسان، وهو الذى يرغم الضحية على الفرار. وسيكون من المفيد إذا ما تأملنا الحديث عن "الأمر" بين البشر. فالحكم بالموت ورهبته القاسية يكون واضحًا فى كل "أمر". وقد وُضِعَ نظام الأوامر بين الناس على نحوٍ يجعل الإفلات من الموت أمرًا مألوفًا. لكن الفزع منه، أى خطره، يكمن فيه دائمًا. والحفاظ على أحكام الموت الحقيقية وتنفيذها يحفظان استمرار الفزع من كل أمرٍ، ومن الأوامر على نحوٍ مطلق. فإذا ما غضضنا الطرف للحظةٍ عما توصلنا إليه عن أصل "الأمر"، ونظرنا إليه بحيادٍ كمادةٍ البحث للمرة الأولى، فإننا سوف نجد أن ما يلفت الانتباه إلى "الأمر" هو أنه مسبب فعلٍ، فإصبعٌ ممتد نحو اتجاهٍ ما يمكن أن يكون له أثر الأمر. فكل الأعين التى ترى الإصبع معنيًا بها تتحول إلى الاتجاه نفسه. فيبدو الحال كأن الفعل المنطلق، المحدَّد اتجاهه، لم يكن سوى ما أشار إليه "الأمر". فالامتداد إلى اتجاهٍ ما شىءٌ هام للغاية، والتراجع عنه أو تغييره لا يقابل بأدنى

عقوبـة. ومـن خصائـص الأمـر أنـه لا يخضـع للاعـتراض، فـلا جـدال أو شـك فيـه أو تأويـل لـه. فهـو واضحٌ مباشر ولا بـد مـن فهمـه فى الحـال. والـتردد فى قبولـه يضعـف قوتـه وكل تكـرارٍ لـ"أمـر" لا يتبعـه تنفيـذ يخصـم جـزءًا مـن حيويتـه، فيرقـد بعـد زمـنٍ منهـكًا عـلى الأرض، فاقـد الوعـى. وفى مثـل هـذه الأحـوال يكـون مـن الأفضـل ألا يعـاد إحيـاؤه، فالفعـل المنطلـق عـن أمـرٍ مرتبـطٌ بلحظـة تنفيـذه. وقـد يمكـن إقـرار الفعـل فيـما بعـد، عـلى أن يكـون محكـما، سـواء كان صريحًـا أو ناتجًـا عـن طبيعـة "الأمـر". والفعـل الـذى ينفـذ بنـاءً عـلى أمـرٍ يكـون مختلفًـا عـن كل الأفعـال الأخـرى، فيشـعر بـه المـرء كـشىءٍ غريـب، وتذكـره ينطـوى عـلى شىء عابـر لا ينتمـى إلى المـرء، فيمـر بـه بسرعـةٍ كريـحٍ غريبـة. وسرعـة التنفيـذ التـى يتطلبهـا "الأمـر" قـد تسـاهم فى الغربـة التـى يتذكرهـا بهـا المـرء، إلا أن ذلـك لا يكفـى لتفسـير هـذه المسـألة فمـن المهـم بالنسـبة لـ"الأمـر" أنـه يـأتى مـن الخـارج، فـلا يمكـن أن يتدبـره المـرء وحـده، فهـو أحـد عنـاصر الحيـاة المفروضـة علينـا، فـلا أحـد يحدثهـا فى نفسـه حتـى حينـما يظهـر آحـاد النـاس فجـأةً حاملـين أكداسًـا هائلـة مـن الأوامـر محاولـين تأسـيس عقيـدةٍ جديـدة، أو تجديـد أخـرى قديمـة، فـإن ذلـك يصحبـه ظهـور عـبءٍ غريـب مفـروض. وهـؤلاء لا يتحدثـون بالأصالـة عـن أنفسـهم فقـد كلفهـم آخـرون بمـا يطلبونـه، ومهـما كذبـوا فى أحـوالٍ أخـرى يكونـون فى هـذه الحـال صادقـين دائمًـا، فهـم يؤمنـون بأنهـم مرسـلون. ورغـم أن مصـدر "الأمـر"، يكـون مصـدرًا غريبًـا، إلا أنـه لا بـد مـن الإقـرار أنـه الأقـوى، فعلينـا الطاعـة لأننـا لا نملـك فرصـة للفـوز، فمـن ينتـصر هـو مـن أصـدر الأمـر.

أمـا سـلطة "الأمـر" فيجـب ألا تكـون محـل شـك، وإذا تراجعـت مـرةً يكـون عليهـا الاسـتعداد لإثبـات جدارتهـا ثانيـةً مـن خـلال الـصراع، لتظـل لفـترة طويلـة معترفًـا بهـا. أمـا المدهـش فهـو مـدى نـدرة طلـب قـرارات جديـدة لاسـتمرار فعاليـة القـرارات القديمـة. والمعـارك التـى تنتهـى بالنـصر تسـتمر مـن خـلال الأوامـر. ففـى كل "أمـرٍ" تـم تنفيـذه يتـم تجديـد نـصرٍ قديـم، فيبـدو أن سـلطة "الأمـر" تنمـو بـلا انقطـاع، فأقـل الأوامـر شـأنًا يحمـل إضافـةً جديـدة. والأمـر لا يصـدر عـادةً ليسـتفيد منـه فقـط مـن "أصـدره"، بـل إن هـذا يكمـن فى طبيعـة الأمـر ذاتهـا وفى الإقـرار بـه، وفى المجـال الـذى يسـتهدفه وفى ميعـاده المناسـب القاطـع، ففـى كل هـذا مـا يضمـن للسـلطة أمـان مجالهـا ونمـوه. فالسـلطة ترسـل أوامرهـا كسـحابة سـهامٍ سـحرية، فينصـاع المصابـون بذلـك كضحايـا لصاحـب السـلطة، بعـد أن اقتادتهـم السـهام وأثـرت فيهـم. إلا أن مسـألة بسـاطة ووحـدة الأمـر التـى تبـدو للوهلـة الأولى مطلقـةً وغـير قابلـة للشـك

فهـو أمـرٌ ظاهـرى إن نحـن دققنـا النظـر فى هـذه المسـألة. و"الأمـر" يسـلم نفسـه للتحلـل فمـن الـضرورى أن يتفـكك وإلا مـا تعلـم المـرء اسـتيعابه أبـدًا.

وكل "أمـرٍ" يتكـون مـن دافـعٍ ومـن غصـةٍ. أمـا الدافـع فيرغـم متلقـى الأمـر عـلى تنفيـذه، عـلى أن يكـون ذلـك مطابقًـا لمضمـون الأمـر، وأمـا الغصـة فتظـل كامنـةً داخـل مـن قـام بتنفيـذ الأمـر، فـإن تـم تنفيـذ الأمـر كـما يتوقـع منـه فإنـه لا يمكـن رؤيـة شيء مـن الغصـة لأنهـا خفيـةٌ لا يمكـن سـبر غورهـا. وربمـا تتجـلى ملحوظـةً بالـكاد فى مقاومـةٍ مـترددة قبـل إطاعـة الأمـر. إلا أن الغصـة تنفـذ بعمـقٍ داخـل الإنسـان الـذى نفـذ الأمـر وتظـل كامنـةً هنـاك عـلى حالهـا. ولا يوجـد بـين الأشـكال الحيـة مـا هـو أكـثر رسـوخًا مـن هـذا. فمضمـون "الأمـر" يظـل كامنًـا فى الغصـة، وقوتـه وخطورتـه ومعالمـه الواضحـة، أى أن كل شيءٍ قـد تكـوَّن فى اللحظـة التـى صـدر فيهـا الأمـر. وقـد تسـتمر الحـال لسـنواتٍ أو عـشرات السـنين حتـى يظهـر ثانيـةً هـذا الجـزء الغائـر المخـزون مـن "الأمـر" فى صورتـه المماثلـة الدقيقـة. ولكـن مـن المهـم معرفـة أن أى أمـرٍ لا يذهـب أدراج الريـاح، فهـو لا ينتهـى حقًـا بتنفيـذه بـل يظـل مخزونًـا دائمًـا. أمـا متلقـو الأوامـر الذيـن يتعرضـون لذلـك عـلى نحـوٍ دائـم فهـم الأطفـال. وعـدم انهيارهـم مـن جـراء عـبء الأوامـر يعتـبر مـن المعجـزات، وأنهـم يبقـون عـلى قيـد الحيـاة بعـد ممارسـات القائمـين عـلى تربيتهـم، وأنهـم لـن يكونـوا أقـل ضراوةً عندمـا ينقلـون كل ذلـك إلى أبنائهـم فيـما بعـد، هـو أمـرٌ طبيعـى مثـل قضـم الطعـام والـكلام. ولكـن مـا يثـير الدهشـة هـى تلـك الحصانـة التـى نالتهـا الأوامـر منـذ الطفولـة المبكـرة، فهـى تكـون جاهـزة حالمـا يكـون الجيـل التـالى قـد انتهـى مـن ضحايـاه. فلـم يختلـف جيـلٌ عـن آخـرٍ بسـبب الأوامـر التـى قـد تكـون صـدرت مـن سـاعةٍ واحـدة، إلا أنهـا فى واقـع الحـال كانـت صـادرةً مـن عشريـن أو ثلاثـين عامًـا أو أكـثر مـن ذلـك. فالقـوة التـى يتلقـى بهـا الطفـل الأوامـر والصلابـة والإخـلاص اللذيـن يحافـظ بهـما عـلى هـذه القـوة ليسـت إنجـازًا فرديًـا، فليـس للـذكاء أو الموهبـة الشـخصية أدنى علاقـةٍ بذلـك. وكل، بـل أى طفـل، مهـما كان مسـتواه، لا ينـسى ولا يغفـر أى أمـرٍ أسـاء إليـه، بـل إنـه يتحـول بالأحـرى إلى هـذه الصـورة البشريـة التـى نعرفـه بهـا، فوضـع الـرأس وتعبـيرات الفـم ونـوع النظـرة تتحـول لتماثـل هيئـة غصـة الأمـر الـذى غُـرِس فيـه وظـل مخزونًـا مـن دون تغيـير، فـإن أتيحـت لـه الفرصـة انطلـق دون تغيـير. فالحالـة التـى انطلـق فيهـا لا بـد مـن أن تكـون مماثلـةً لتغـير الحالـة القديمـة عنـد تلقيـه إيـاه. وإعـادة إنتـاج مثـل هـذه الحـالات السـابقة، كارتـدادٍ، تُعْتَـبر واحـدةً مـن أعظـم مصـادر الطاقـة

الروحيـة فى حيـاة الإنسـان. فالحافـز عـلى تحقيـق هـذا أو ذاك عـلى نحـو مـا، هـو الإلحـاح الأعمـق للخـلاص مـن أوامـر كان المـرء تلقاهـا ذات مـرة. فالأمـر المُنَفَّـذ وحـده هـو الـذى يـدع غصتـه ملازمـةً لمـن إطاعـه. أمـا مـن يتفـادى الأوامـر فـلا يضطـر إلى تخزينهـا كذلـك. فالإنسـان "الحـر" هـو وحـده مـن عـرف تجنـب الأوامـر، وليـس هـو هـذا الـذى يتخلـص منهـا فيـما بعـد. أمـا مـن احتـاج وقتًـا أطـول للتخلـص منهـا أو لم يسـتطع التحـرر منهـا مطلقًـا فيكـون هـو الأقـل تحـررًا بـلا شـك. وليـس هنـاك إنسـانٌ نزيـه لا يشـعر بعـدم الحريـة إذا لم يسـتجب لدوافعـه الشـخصية. حتـى وإن بلغـت هـذه الدوافـع أقـصى مداهـا، وأفضـت تلبيتهـا إلى أخطـر العواقـب، فـإن هـذا يشـعر بأنـه يفعـل مـا تمليـه عليـه إرادتـه الداخليـة. أمـا إذا تحـول مـا فى داخلـه ضـد الصـادر إليـه مـن الخـارج، وكان عليـه تنفيـذه، فهنـا يتحـدث الجميـع عـن عـبء الضغـط ويحتفظـون لأنفسـهم بحـق الارتـداد أو التمـرد.

ترويض الأمر

إن أمـر الفـرار الـذى ينطـوى عـلى تهديـدٍ بالمـوت يشـترط اختلافًـا كبـيرًا فى السـلطة بـين الأطـراف ذات الصلـة، فمـن يجـبر الآخـر عـلى الفـرار هـو مـن يسـتطيع قتلـه. وقاعـدة الطبيعـة الأساسـية تنتـج عـن حقيقـة أن كثـيرًا مـن أنـواع الحيوانـات تتغـذى عـلى الحيوانـات. إنهـا هـى الأنـواع الأخـرى تلـك التـى يعيشـون عليهـا. وعـلى هـذا النحـو يشـعر أغلـب الحيوانـات بالتهديـد مـن مثـل هـذه الأنـواع حينـما تتلقـى أمـر الفـرار مـن الغربـاء والأعـداء. أمـا مـا نسـميه فى حياتنـا العاديـة "أمـرًا"، فهـو مـا يحـدث بـين النـاس، فهنـاك السـيد الـذى يأمـر عبـده والأم التـى تأمـر ابنهـا. و"الأمـر" الـذى نعرفـه كان قـد تطـور إلى حـدٍّ كبـير عـن أصلـه البيولوجـى، أى عـن أمـر الفـرار، فقـد تـم ترويضـه، لنسـتخدمه عمومًـا فى العلاقـات الاجتماعيـة وكذلـك الحميميـة فى سـبيل التعايـش الإنسـانى المشـترك. ودوره فى إطـار الدولـة لا يقـل عـن دوره داخـل الأسرة وهـو مختلـفٌ تمامًـا عـما عرضنـاه "كأمـر فـرارٍ" ، فالسـيد ينـادى عبـده فيـأتى رغـم علمـه بأنـه سـيتلقى أمـرًا، والأم تنـادى ابنهـا فـلا يهـرب منهـا دائمًـا، فرغـم أنهـا سـتمطره بأوامـر مـن كل نـوعٍ فإنـه يحتفـظ عـلى أيـة حـالٍ باستئناسـه، فهـو يبقـى بالقـرب منهـا ويجـرى نحوهـا، وهـو الأمـر نفسـه الـذى يـسرى عـلى الكلـب، فهـو يبقـى لـدى صاحبـه ويركـض إليـه فـور سـماعه لصفـيره. فكيـف تطـورت حـال "الأمـر"

إلى هذا الترويض؟ ما الذى حول التهديد بالقتل إلى "أمرٍ" برىء؟ إن تفسير هذا التطور يكمن فى أن رشوة من نوعٍ ما قُدِّمت فى كل واحدةٍ من هذه الحالات. فالسيد يعطى عبده أو كلبه شيئًا من طعام، والأم تغذى ابنها، فالكائن يخضع لتبعية تلقى طعامه من يدٍ وحيدة فقط، فالعبد والكلب يتلقيان الغذاء من سيدهما وحده، فليس هناك غيره من التزم بذلك. بل إنه فى حقيقة الأمر لا يجوز لأحدٍ آخر تقديم الطعام لهما، فعلاقة الملكية تنشأ على نحوٍ أو آخر فى كل ما يقدمه السيد من غذاء. أما الطفل فإنه لا يستطيع القيام بتغذية نفسه بنفسه على الإطلاق، فهو من بدايته الأولى يرتبط بثدى أمه. وقد خُلِقت علاقةٌ وثيقة بين توفير الطعام وبين الأمر. وتتجلى هذه الصفة خالصةً فى تدريبات مروض الحيوانات، فإن أدى الحيوان ما ينبغى عليه أداؤه، فإنه يحصل على الطعام الطيب من يد مروضه. إن ترويض الأمر يجعل منه وعدًا بالغذاء، فبدلاً من التهديد بالموت فإن المرء يعد كل مخلوقٍ بما يعتبره أولى احتياجاته. وهو يحفظ وعده هذا بدقةٍ متناهية، فبدلاً من أن يستخدمه سيده كغذاء، بدلاً من التهامه، فإن المخلوق الصادر إليه مثل هذه الأوامر يحصل هو نفسه على ما يأكله. وهذا الترويض لأمر الفرار البيولوجى يربى البشر والحيوانات على نوعٍ من الأمر التطوعى الذى ينطوى على كل الدرجات والتصنيف الممكنة. إلا أن هذا لا يغير جوهر الأمر تغييراً تامًا. أما التهديد فيظل كامنًا فى كل أمرٍ، ورغم أنه صار أقل وطأةً، فإنه ظل هناك عقابٌ معلن على كل من لا يتبعه، وقد يكون ذلك عقابًا صارمًا تمامًا وهو الأقسى والأقدم، إنه الموت.

ارتداد الأثر ورهبة الأمر

الأمـر يكـون مثـل السـهم فإنـه يُطْلَـق ويصيـب. ومُصـدِر الأمـر يحـدد هدفـه قبـل أن يطلـق الأمـر. وهـو سـيصيب بأمـره هـذا شـخصًا محـددًا تمامًـا. ودائمًـا مـا يكـون للسـهم اتجـاهٌ تـم اختيـاره وهـو يظـل منغرسًـا فى المصـاب حتـى ينتزعـه ليطلقـه مـرةً أخـرى فيتحـرر مـن تهديـده. وفى الواقـع فـإن مسـألة إعـادة إصـدار الأمـر تـدور عـلى نحـوٍ كأن المتلقـى ينزعـه، ويشـده إلى قوسـه ثـم يعيـد إطـلاق السـهم نفسـه. والجـرح بجسـده يتـم الشـفاء منـه إلا أنـه يـترك خلفـه ندبـةً، ولـكل ندبـةٍ قصـة فهـى أثـرٌ لهـذا أو ذاك السـهم بعينـه. إلا أن مصـدر الأمـر، أى الـذى أطلقـه، فيشـعر بارتـداد أثـر ذلـك. فالارتـداد الحقيقـى - وهـو مـا يمكـن اعتبـاره ارتـدادًا نفسـيًا - لا يشـعر بـه المـرء إلا إذا رأى أنـه أصـاب هدفـه. وهنـا يتوقـف التطابـق الفيزيقـى مـع السـهم، إلا أن مـا هـو أكـثر أهميـةً فهـو أن نتعـرف عـلى الآثـار التـى يخلفهـا التسـديد الموفـق. أمـا الرضـا عـن تنفيـذ إيجـابى للأمـر فهـو أمـرٌ خـادع ويـصرف نظرنـا عـن أشـياء أخـرى، فهنـاك دائمًـا شىءٌ كالشـعور بالارتـداد، فـما فعلـه المـرء فإنـه يـترك أثـره فى المـرء نفسـه وليـس الضحيـة. وتتجمـع حـالات ارتـدادٍ كثيرة لتتحـول إلى خـوف. إنـه نـوعٌ خـاص مـن الخـوف الناتـج عـن تكـرار كثـير للأوامـر، لذلـك أصفـه أنـا بـ"خـوف الأمـر" الـذى يتضـاءل عندمـا يقتصـر عـلى تبليـغ الأمـر، لكنـه يتنامـى كلـما كان الأمـر

أكثر قربًا من مصدر الأمر الحقيقى. وليس من الصعب أن نفهم كيفية نشوء أمر الخوف هذا، فالطلقة التى تقتل كائنًا منعزلاً تترك فى أثرها خطرًا، فالقتيل لم يعد بإمكانه إلحاق ضرر بأحد. فأما الأمر المهدد بالموت ولا يقتل فإنه يترك فى أثره الذكرى بالتهديد. وبعض التهديدات تخطىء هدفها وبعضها يصيبه، وهذه هى ما لا يمكن نسيانها أبدًا، فمن هرب من التهديد أو تراجع أمامه فإنه سوف يثأر يقينًا، فهو الذى قد اقتص لنفسه دائمًا عندما سنحت له فرصة ذلك. أما من صدر عنه التهديد فإنه يكون على وعيٍ بذلك، فهو يراهن بكل شىء بأن يكون الارتداد أمرًا مستحيلاً. إن الشعور بالخطر هو أن كل من صدر إليه أمرٌ وكل من هُدِّد بالموت، يظل حيًا ويتذكر - أما الخطر فيكون عندما يتوحد كثيرون مهددون بالموت ضد واحدٍ. إنه شعورٌ عميق الجذور، لكنه رغم ذلك يظل غير محدد لأن صاحب الشأن لن يعرف أبدًا متى سينتقل المهدَدون من مرحلة التذكر إلى مرحلة الفعل. وهذا الشعور المعذِب الدائم وغير المحدود أسميه أنا بـ"خوف الأمر"، وهو يبلغ أقصى مداه ضد صاحب الدرجة الأعلى، أى مُصدِر الأمر، حيث يكون هو من صدر الأمر عن ذاته، أى لم يكن تلقاه من غيره، أى يكون هو منتجه الشخصى على نحوٍ أو آخر. هنا يبلغ تركيز "خوف الأمر" مداه الأعظم وهو ما يمكن أن يبقى داخل صاحب السلطة مقيدًا وكامنًا لفترةٍ طويلة ويمكن أن ينمو فى أثناء حياة حاكمٍ ما، ليظهر فيما يعرف بـ"وهم القياصرة".

الأمر الصادر إلى كثيرين

يجب التفرقة بين أمرٍ صادرٍ إلى فردٍ وبين أمرٍ صادرٍ إلى كثيرين فى آنٍ واحد. وقد ظل هذا الفارق موجودا فى أصل الأمر البيولوجى. فهناك بعض الحيوانات تعيش منفردةً، فتتلقى تهديد أعدائها منفردةً وأخرى تعيش فى قطعان وتتلقى تهديدًا كقطعان. ففى الحالة الأولى يهرب الحيوان أو يختفى وحيدًا وفى الحالة الثانية يهرب القطيع كله. أما الحيوان الذى يعيش فى قطيع ويفاجأ بعدوه صدفةً فإنه يحاول الفرار إلى قطيعه. فالهروب الفردى والهروب الجماعى مختلفان من الأساس. فأما الخوف الجماعى لقطيعٍ هارب فهو الأقدم - وهنا نقول- إنه الحالة الجماعية الأكثر حميميةً التى عرفناها على الإطلاق. ومن المرجح أن التضحية تعود إلى حالة الخوف الجماعى هذه، فالأسد الذى يطارد قطيعًا من الغزلان، فرت معًا خوفًا منه، يتوقف عن المطاردة بعد القبض على أحد هذه الحيوانات ليكون هذا الحيوان ضحيةً له بالمعنى الأشمل للكلمة، وهذا هو ما يمنح حالة أمانٍ لرفاقه الآخرين. فما إن يحصل الأسد على ما شاء ويلحظ القطيع ذلك فإن خوفه يزول. ثم يخرج القطيع من حالة الفرار الجماعى ليعود ثانيةً إلى حالته التى ألفها، فيرعى كل حيوانٍ حرًا، ويفعل ما يهوى. ولو كان للغزلان عقيدةٌ لكان الأسد إلههم، وعلى هذا كان القطيع سيقدم غزالاً من بين صفوفه عن طيب

خاطرٍ من أجل إشباع نهم الأسد، وهذا هو ما يحدث بالضبط بين البشر، فمن فكرة خوفهم الجماعى خرجت فكرة التضحية الدينية فهذا هو ما يوقف مسار وجوع السلطة الخطرة. وفى حالة الخوف تبغى الكتلة البقاء معًا، فهى لا تشعر فى حالة الخطر الجاد بالحماية إلا فى قرب أفرادها من بعضهم البعض. وهى بمثابة الكتلة، خاصةً، خلال توجهها للفرار. فأما الحيوان الذى يخرج عن القطيع، ويشق وجهته الخاصة، فيكون معرضًا للخطر أكثر من الحيوانات الأخرى. إلا أنه، وعلى نحوٍ خاص تمامًا، يشعر أكثر بالخطر لأنه وحيدٌ فيكون خوفه أعظم. فالتوجه الجماعى لفرار الحيوانات الجماعى يمكن أن يوصف بعقيدتها التى تُبقى عليها متماسكةً وتدفعها بقوةٍ إلى الأمام، فلا يصيبها الذعر ما لم تكن منعزلةً وما دام كل حيوان أدى الشىء نفسه بجوار رفيقه، أى أداء الحركة ذاتها، وهذا الفرار الجماعى يماثل ما نعرفه لدى البشر بالكتلة الراقصة، أو الكتلة الإيقاعية، وذلك من خلال الحركة المتوازية للسيقان والرقاب والرأس. فما إن يُضرَب الحصار حول الحيوانات فإن الصورة تختلف فلا يعود التوجه الجماعى للفرار ممكنًا، فيتبدل حينئذٍ الفرار الجماعى إلى حالة ذعرٍ، فكل حيوانٍ يحاول النجاة بنفسه، بينما يعيق كل منها الآخر فى ذلك، ويضيق الخناق حوله. وفى المذبحة التى تبدأ حينئذٍ يصير كل حيوانٍ عدوًا للآخر لأن كل منها يقف عثرةً فى طريق نجاة الآخر. لكن لنعد الآن إلى "الأمر" نفسه. فالأمر الصادر لفردٍ يكون مختلفًا عن الأمر الصادر إلى كثيرين. وقبل أن نفسر هذه العبارة فإننا نشير إلى حالتها الاستثنائية ذات الأهمية القصوى، فأمامنا تجمعٌ مفتعل لكثيرين فى الجيش الذى يلغى الاختلاف النوعى "للأمر"، وهذا هو أساس تكوينه. "فالأمر" هنا لا يعنى إلا الشىء نفسه دائمًا سواء كان موجهًا إلى فردٍ أو أكثر أو كثيرين. فالجيش لا يكون له وجودٌ إلا إذا كان للأمر القيمة نفسها. ويكون له سمة الدوام. وهو يصدر من أعلى ويظل منعزلاً بشدة. وعلى هذا النحو فلا يمكن للجيش أن يصير أبدًا كتلةً. فالآمر ينتشر فى الكتلة أفقيًا بين أعضائها، وقد يستهدف فى البداية فردًا ممن هم أعلى لكن لوجود آخرين متساوين بالقرب منه فإنه يبلغه فى الحال إلى هؤلاء، وبدافع خوفه فإنه يقترب منهم وفى لمح البصر يكون أصاب الآخرين بالعدوى. ففى البداية يشرع البعض فى الحركة ثم يزداد عددهم، ثم يكون الجميع. ومن خلال الانتشار الفورى للأمر نفسه يكونون قد صاروا كتلةً، حينئذٍ يفرون جميعًا معًا. ولما كان الأمر يتشظى فى الحال فإنه لا يكون غصةً فلم يكن قد توافر وقت

لذلك على الإطلاق، ويتلاشى ما تبقى منه على الفور. فالأمر الصادر إلى كتلةٍ لا يترك فى أثره أية غصة. فأما التهديد المفضى إلى الفرار الجماعى فإنه تحلل ثانيةً كذلك، فلم يعد هناك سوى حالة الأمر المنعزلة فقط هى التى تفضى إلى غصة الأمر. والتهديد التالى للأمر ضد الفرد لا يستطيع أن يتحلل كله، فمن قام دائمًا بتنفيذ الأمر وحيدًا فإنه يحتفظ فى داخله بمقاومة ذلك على هيئة غصة، أى بلورة صلبة للاستياء، وهو لا يستطيع الخلاص منه إلا إذا أصدر هو الأمر نفسه، وغصته ليست سوى الصورة المماثلة للأمر الذى تلقاه ولم يستطع إبلاغه على الفور. ففى هذه الصورة المماثلة فقط يمكنه التحرر منها. وهكذا يكون للأمر الصادر إلى كثيرين ماهيةٌ خاصة به تمامًا، فهو يهدف إلى جعل الكثيرين كتلة، وما دام قد وفق فى ذلك فإنه لا يبعث على الخوف. والشعار الحاسم الذى يستخدمه خطيبٌ ما ليفرض به على المجتمعين اتجاهًا ما، يؤدى نفس المهمة بالضبط، وهو ما يعتبره الكثيرون مثل "الأمر". وانطلاقا من موقف الكتلة التى تريد أن تنشأ بسرعة وتريد أن تحفظ نفسها كوحدةٍ يكون مثل هذا الشعور مفيدًا ولا غنى عنه. أما بلاغة الخطيب فتكمن فى بلورته لكل ما يهدف إليه فى شعاراتٍ ليطلقها قويةً فهى التى تساعد فى نشأة الكتلة وبقائها. فالأمر الفوقى هو ما يصنع الكتلة ويبقيها حيةً. فإذا ما انتهى من ذلك فلا يكون هناك أهميةٌ لما يطلبه منها بعد ذلك، فبوسع الخطيب أن يوجه السباب والتهديد إلى تجمعٍ من فرادى، لكنهم سوف يحبونه عندما ينجح من خلال ذلك فى تكوين كتلةٍ منهم.

توقــع الأمــر

لا يتفاعـل جنـدىٌ فى الخدمـة إلا بنـاءً عـلى أمـر. وقـد يشـعر فى هـذا أو ذاك لـذةً مـا. لكـن لكونـه جنديًـا فإنـه ينصـاع لذلـك، فهـو ليـس بوسـعه الاختيـار بـين سـبيلين، وحتـى لـو حـدث ذلـك فلـن يكـون هـو مـن يحسـم أمـر أى السـبيلين. فحياتـه النشـطة محـاصرةٌ مـن كل جانـبٍ فهـو يفعـل مـا يفعلـه كل الجنـود الآخريـن معًـا. وهـو ينفـذ مـا صـدر إليـه مـن أوامـر. أمـا غيـاب كل الأفعـال الأخـرى فيجعلـه متشـوقًا إلى الأفعـال التـى يجـب عليـه تنفيذهـا. وخدمـة الحراسـة التـى تقـف مكانهـا بـلا حـراك طـوال سـاعاتٍ هـى أفضـل تعبـيرٍ عـن الحالـة النفسـية للجنـدى، فهـو ممنـوعٌ مـن مغـادرة المـكان ومـن النـوم وممنـوعٌ مـن الحركـة إلا إذا كانـت بالضبـط حركـةً محـددةً مقـررةً عليـه. أمـا إنجـازه الشـخصى فيتبـدى فى مقاومتـه لـكل إغـراءٍ بمغـادرة موقعـه مهـما كانـت الصـورة التـى تداعـب خيالـه. إن سـلبية الجنـدى، إن جـاز لنـا هـذا الوصـف، تكـون بمثابـة العمـود الفقـرى لـه، فهـو يكبـت داخـل نفسـه فى كل الأحـوال المتسـعة لنشـاطٍ مـا، مثـل الرغبـة والرهبـة والقلـق التـى تمثـل أسـاس حيـاة الإنسـان. أمـا أفضـل سـبل لمقاومتهـا فهـى عـدم اعترافـه بهـا. أمـا أى فعـل يقـوم بـه فـلا بـد لـه مـن عقـابٍ مـن خـلال "الأمـر". ولمـا كان يصعـب عـلى أى إنسـان ألا يفعـل أى شىء فإنـه يتجمـع داخلـه الكثـير مـن التوقـع لمـا يجـوز لـه فعلـه، وتتراكـم

رغبة الفعل وتنمو بلا حدود، لكن لا بد من أن يسبق الفعل "أمرٌ"، لذا يتجه التوقع نحو هذا الأمر. فالجندى الجيد يكون دائمًا فى حالة "توقع أمرٍ واعية" وهو ما يزرع وينمو فيه بكل السبل، وهو ما يتجلى بوضوحٍ فى السلوك والصيغ العسكرية. أما اللحظة الحيوية فى حياة الجندى فهى لحظة "وضع الانتباه" أمام قائده، ففى حالةٍ بالغة من التوتر والتأهب للتقبل يقف هو أمامه هناك. وتعبر الصيغة التى ينطق بها الأمر تعبيرًا دقيقًا للغاية عما سيعقب ذلك. وتبدأ تربية الجندى بمنعه من أمورٍ أكثر مما تحظر على غيره من البشر، فهناك عقابٌ شديد على أقل التجاوزات، وأجواء "ليس مسموحًا" التى اعتادها الجميع منذ طفولتهم تتسع حدودها بالنسبة للجندى لتأخذ بعدًا هائلاً، فتُشيَّد حوله جدرانٌ فوق جدرانٍ أُعدت من أجله، وهو يراها ترتفع أمام عينيه، وارتفاعها وقسوتها يواكبان وضوحها، والحديث يدور عنها دائمًا، وبذا لا يسعه القول بعدم وجودها. فإذا ما تحرك شعر بها حوله دائمًا. فالتكوين الجامد للجندى يماثل رد فعل جسده نحو صلابتها وبرودها، فيحصل على جسدٍ نمطى. إنه الأسير الذى تكيف مع جدرانه. إنه أسيرٌ ارتضى ذلك، وهو من يدافع عن نفسه بالقدر الذى شكلته به الجدران. وبينما لا يخطر ببال الأسرى الآخرين إلا فكرة تسلق الجدران أو اختراقها، يكون هو قد أقر بها كطبيعةٍ جديدة، كمحيطٍ طبيعى يتكيف معه ويتماهى معه. فالندى الحق هو من يتقبل القدر الكامل للمحظور، ومن خلال أداء ممارساتٍ ليوم كامل، ويومًا بعد يوم، يكون بإمكانه تجنب المحظورات. ومثل هذا الجندى يعتبر "الأمر" هو القيمة الأعلى. إنه مثل السقوط من قلعةٍ يكون المرء قد قبع داخلها لفترةٍ تجاوزت كل احتمال، فهو يصيب كالبرق الذى أطاح بأحدهم خارج جدران المحظور، أى مثل البرق الذى يقتل أحيانًا. وفى إطار هذا المحظور المقفر الذى يحاصره من كل جانبٍ يأتيه "الأمر" كخلاص، فتدب الحياة فى الشخص النمطى، فيتحرك طبقًا للأمر. ومن خصائص تربية الجندى أن يتلقى أوامر مزدوجةً وحيدًا أو مع آخرين. وقد عوده التدريب على حركاتٍ ينفذها مع الآخرين، وهى ما يؤديها الجميع بنفس الطريقة بالضبط. والأمر هنا يرتبط بنوعٍ من الدقة يتعلمها المرء من خلال المحاكاة مع الآخرين على نحوٍ أفضل ممن تعلمها وحيدًا. ومن خلال ذلك يصير المرء مثلهم، لتنشأ مساواةٌ يمكن أحيانًا استخدامها فى تحويل فرقة الجيش إلى كتلةٍ، إلا أن العادة جرت على أن يهدف المرء إلى النقيض، وهو أن يتساوى الجنود جميعًا من دون أن تصير منهم

كتلـةً، فـإذا مـا صـاروا معًـا وحـدةً فإنهـم يتفاعلـون معًـا مـع كل الأوامـر الصـادرة إليهـم، عـلى أن تظـل الفُرقـة بينهـم ممكنـةً فى اسـتدعاء بالنـداء: واحـد، اثنـان، ثلاثـة.. ثلاثـة مـن الجنـود أو نصـف عددهـم كـما يشـاء القائـد، وأداؤهـم الجماعـى للخطـوة المعتـادة يبـدو ظاهريًـا لأن انقسـامهم إلى فصائـل هـو مـا يسـهل أداءهـا. ولا بـد مـن أن يكـون بوسـع "الأمـر" اسـتهداف مثـل ذاك العـدد، أى واحـدٍ، أو عشريـن، أو الفرقـة كافـة، فـلا يجـوز أن ترتبـط فعاليتـه بالعـدد الموجـه إليـه. فهـو يكـون الأمـر نفسـه سـواء اسـتقبله فـردٌ واحـد أو الجميـع. إن هـذه الطبيعـة الدائمـة الثابتـة للأمـر لعـلى أكـبر قـدرٍ مـن الأهميـة، فهـى تبعـد الأمـر عـن كل مؤثـرات الكتلـة. فمـن يكـون عليـه إصـدار الأوامـر بالجيـش لا بـد مـن أن يكـون قـادرًا عـلى التحـرر مـن كل كتلـةٍ خارجـه وداخلـه، فقـد تعلـم ذلـك عندمـا تـربى عـلى انتظـار الأمـر.

تطلع حجيج عرفات للأمر

إن أهم لحظةٍ فى الحج إلى مكة والأكثر تألقًا هى لحظة "الوقوف" بين يدى الله على بعد عدة ساعاتٍ من مكة. إنه تجمعٌ هائل من الحجيج يصل أحيانًا إلى 600.000 أو 700.000 نسمةٍ يتكدسون فى حوض وادٍ محاط بمرتفعاتٍ مقفرة، ويتدافعون نحو جبل الرحمة بوسط الوادى ليقف واعظٌ فى أعلى المكان الذى وقف فيه النبى ليلقى موعظةً احتفائية، فيرد عليه الجميع: "لبيك اللهم لبيك! لبيك اللهم لبيك" ويظل هذا الهتاف يتكرر بلا انقطاع طوال اليوم كله ويتصاعد إلى حد الذهول. ثم فى نوعٍ من الخوف الجماعى المفاجئ يفرون جميعًا (الإفاضة)[110] مثل الممسوسين إلى المكان التالى (المزدلفة)، حيث يقضون الليل هناك. وفى اليوم التالى يواصلون السعى من المزدلفة إلى مِنى. والكل يسعى هنا وهناك فيصطدم البعض ويدوس البعض على البعض، وعادةً ما يكلف هذا السعى بعض الحجيج حياتهم. وفى مِنى يتم ذبح أعداد هائلة من الحيوانات لتقدم أضحية ليأكلها الناس معًا على الفور وقد أغرقت الدماء الأرض وانتشرت فيها أشلاء الحيوانات. إن الوقوف على عرفات هو اللحظة التى يحصل فيها انتظار الكتل المؤمنة للأمر إلى ذروة كثافتها. أما العبارة المكررة ألف مرةٍ من هذه الكثافة: "لبيك اللهم لبيك، لبيك اللهم لبيك" فهى تعبر عن ذلك صراحةً.

إن الإسلام يعنى ببساطة التسليم لله، وهو حالةٌ لا يفكر فيها الناس إلا فى أوامر المولى ويستدعونها بكل قوة. وهناك تفسيرٌ لا مناص منه للخوف المفاجئ الذى يشرع فى الحركة بناءً على إشارةٍ تقود إلى فرارٍ جماعى لا مثيل له، وهو الماهية القديمة للأمر، الذى هو أمرٌ بالفرار، "فروا"، لكن من دون أن يتسنى للمؤمنين معرفة سبب ذلك، فقدرة توقعهم ككتلةٍ يدفع بأثر الأمر الإلهى إلى قمته حتى يرتد إلى الأصل لكل أمرٍ، أى أمر الفرار. فأمر الإله يؤدى بالبشر إلى الفرار، أما مواصلة هذا الفرار فى اليوم التالى بعد قضاء الحجيج ليلتهم فى المزدلفة فيبرهن على أن أثر الأمر لم يكن قد تلاشى بعد. إنه، طبقًا للمفهوم الإسلامى، أمر الله المباشر الذى يقضى على البشر بالموت، فيحاولون الإفلات من هذا الموت، فيقومون بنقله إلى الحيوانات التى تُذبَح فى "مِنى"، محطة النهاية لفرارهم، فهنا تموت الحيوانات بدلاً من البشر، إنه التفافٌ اعتدناه من أديانٍ كثيرة وهو ما يذكرنا بأضحية إبراهيم. على هذا النحو يفلت البشر من حمام الدم الذى كان الإله نفسه هو الذى دبره لهم. وقد استسلموا هم لأمره إلى حد أنهم فروا منه، إلا أنهم لم يقصروا فى تقديم الأضحية له، فقد أُغرِقت الأرض بدماء الحيوانات التى ذُبِحَت ذبحًا جماعيًا. وليس هناك شعيرةٌ دينية أخرى تظهر الطبيعة الخاصة بالأمر على هذا النحو الإجبارى مثل الوقوف على عرفات، والفرار الجماعى الذى يليه، المعروف بالإفاضة.

إن الإسلام الذى ينطوى على الوعد الدينى فى كثيرٍ من الأمر المباشر نفسه وانتظار الأمر، والأمر على إطلاقه يتمثل فى الوقوف والإفاضة فى أنقى صوره.

غصة الأمر والنظام

يُعتبَر النظام هو أساس الجيش، لكنه نظامٌ ذو شقين، أحدهما معلنٌ والآخر خفى. فأما النظام المعلن فهو نظام الأمر. وقد أوضحنا كيف أن تضييق مصدر الأمر يؤدى إلى تكوين مخلوقٍ غريب للغاية، بالأحرى قوام نمطى كمخلوق، أى قوام الجندى الذى يميزه أنه يعيش دائمًا فى حالة انتظار الأمر. وهذه الحالة تتبدى فى المسلك والقوام. فالجندى الذى يخرج من هذه الحالة لا يكون فى الخدمة ويرتدى زيه فقط ظاهريًا. ومفهوم الجندى معروفٌ للجميع فلا يمكن أن يكون أكثر وضوحًا من ذلك. إلا أن هذا النظام الظاهر ليس كل شىء، فبجواره يوجد نظام لا يذكره ولا ينبغى أن يذكره على الإطلاق وهو نظام خفى. وهو ما قد يدركه فقط بعض الناس من النماذج الأكثر تبلدًا إلا أنه يكون نشطًا بهيئته الخفية فى أغلب الجنود خاصة جنود عصرنا هذا، إنه نظام الترقى. وقد يجد البعض هذا أمرًا غريبًا أن نطلق صفة الخفاء على شىء معروف عامة مثل الترقى. إلا أن الترقى هو التعبير الظاهر عن شىء أعمق يظل خفيًا لا يفهمه إلا أقل القليل من الناس لأنه يقتصر على الموظفين، فالترقى هو التعبير عن الفعالية الخفية لغصة الأمر. ومن الواضح أن هذه الغصات لا بد من أن تتجمع فى الجندى على نحو يكاد يكون غريبًا. فكل ما يفعله (الجندى) يحدث بالأمر

وهـو لا يفعـل شـيئًا آخـر، ولا ينبغـى عليـه أن يفعـل شـيئًا آخـر، وهـذا هـو بالضبـط الـذى يطلبـه منـه النظـام العلنـى، فـردود فعلـه التلقائيـة يتـم كبتهـا، وهـو يظـل يبتلـع الأوامـر مهـما كانـت مشـاعره نحـو ذلـك فـلا يجـوز لـه أن يتعـب منهـا أبـدًا. ومقابـل كل أمـر ينفـذه -وهـو ينفذهـا كلهـا- تتبقـى داخلـه غصـات، ونموهـا داخلـه هـى عمليـة تتصاعـد بسرعـة. فـإذا أدى خدمتـه كجنـدى بسـيط فى الدرجـة الأدنى مـن النظـام الهرمـى العسـكرى فإنـه يكـون قـد حُـرِم مـن أيـة فرصـة للخـلاص مـن غصاتـه، لأنـه لا يكـون بوسـعه هـو إصـدار الأوامـر. فهـو لا يمكـن لـه أبـدًا إلا أن يفعـل مـا يُطلـب منـه، فهـو يطيـع وتـزداد طاعتـه تشـددًا. أمـا تغيـير هـذا الوضـع الـذى ينطـوى عـلى شىء مـن القسـر فـلا يكـون متاحًـا إلا مـن خـلال الترقـى، فـما إن تتـم ترقيتـه حتـى يصـير مـن حقـه هـو نفسـه إصـدار الأوامـر، وفيـما يفعـل هـو ذلـك يبـدأ فى التخلـص مـن جـزء مـن غصاتـه ويكـون وضعـه قـد تحـول إلى النقيـض، حتـى وإن كان فى إطـارٍ ضيـق للغايـة فعليـه أن يطلـب أشـياء كانـت تطلـب منـه هـو نفسـه فيـما سـبق. إن نمـوذج هـذه الحالـة يظـل كـما هـو ولم يتغـير فقـط إلا وضعـه هـو فى إطـار هـذه الحالـة وتتبـدى حينئـذ غصاتـه فى صـورة أوامـر. فمـن كان اعتـاد فى المـاضى أن يتلقـى أوامـر قائـده المبـاشر يقـوم هـو الآن بإصـدار هـذه الأوامـر. أمـا تخلصـه مـن غصاتـه فـلا يتـم وفـق هـواه فذلـك يوضـع فى حالتـه المناسـبة لذلـك تمامًـا، أى إصـداره للأوامـر، فيظـل كل وضـع عـلى مـا هـو عليـه وتظـل كل كلمـة كـما هـى، فهنـاك مـن يقـف أمامـه فى الوضـع نفسـه الـذى وقـف فيـه هـو نفسـه فيـما سـبق، وهنـاك مـن يسـمع منـه بالضبـط العبـارة نفسـها بالنـبرة نفسـها المشـحونة بالطاقـة نفسـها. وهويـة هـذا الموقـف تنطـوى عـلى شىء عجيـب، إنـه كأن هـذه الهويـة قـد اخترعـت تلبيـة لاحتياجـات غصـات الأوامـر الصـادرة إليـه، ومـا أصابـه هـو فى المـاضى يصيـب هـو بـه آخريـن، لكـن بينـما يكـون قـد بلـغ هـذا المـدى بـأن تصـير غصـات الأوامـر الصـادرة إليـه القديمـة كلامًـا أو عـلى نحـوٍ مـا، يُطلـب منـه أن ينطـق بـه فإنـه يسـتمر هـو فى تلقـى الأوامـر مـن أعـلى فيصـير الحـدث الآن مزدوجًـا: فبينـما يتخلـص هـو مـن الغصـات القديمـة تتجمـع فيـه أخـرى جديـدة. ويصـير تحملـه لهـا حينئـذ أفضـل لحـد مـا عـن ذى قبـل، لأن عمليـة الترقـى التـى بـدأت تمنـح الغصـات أجنحـةً لتصـير أمـلاً فى الخـلاص منهـا. فـإذا مـا لخصنـا هـذا الحـدث فإنـه يُمكننـا أن نقـول بـأن النظـام العلنـى للجيـش يتجـلى فى إصـدار الأوامـر الآنيـة، أمـا النظـام الخفـى فيتأسـس عـلى اسـتهلاك غصـات الأمـر المخزونـة.

الأمر. الخيل. السهم

إن ما يلفت الانتباه فى تاريخ المغول هو هذه الصلة الصارمة بين الأمر والخيل والسهم، ففى هذا الارتباط يمكن معرفة السبب الأساسى لاتساع نفوذهم المفاجئ السريع. وتأمل هذه العلاقة أمرٌ لا بد منه، وهو ما يمكن تناوله هنا بكلمات قليلة. وكما نعرف فإن الأمر يشتق بيولوجيًا من "أمر الفرار". وقد كان الجواد مثل جميع الحيوانات ذات الحوافر الشبيهة به قد خضع لهذا الفرار طوال تاريخه. وقد نقول إن ذلك كله مادته الخاصة به. وقد عاش دائمًا ضمن قطيع وكانت هذه القطعان قد اعتادت على الفرار معًا وكان الأمر بذلك صادرًا إليها من حيواناتٍ مفترسة خطيرة تستهدف حياتها.

إن الهروب الجماعى هو واحدٌ من أكثر التجارب المُعاشة، وقد صار سمةً طبيعية للخيل، وما إن يزول الخطر، أو يُظَن ذلك، فإنها تعود مرةً أخرى إلى الحالة المطمئنة لحياة القطيع حيث يفعل كل حيوانٍ ما يهوى. أما الإنسان الذى سيطر على الحصان وروضه فإنه يكوِّن وحدةً معه. ويكون قد تعلم سلسلةً من الممارسات نستطيع فهمها على أنها أوامر. وهى تتكون فى قسمها الأصغر من أصواتٍ وفى قسمها الأكبر من ضغطٍ محدد تمامًا، أو من حركات قيادة تبلغ الحصان إرادة الخيّال. والحصان يفهم إشارات الخيّال ويطيعها. والشعوب

المستخدمة للخيول تعتبر الجواد ضروريًا وقريبًا من صاحبه إلى حد نشوء علاقةٍ شخصية للغاية بينهما، أى علاقة تبعيةٍ لصيقة لا مثيل لها. أما المسافة الفيزيقية القائمة عادةً بين مصدر الأمر ومتلقيه، القائمة أيضًا بين الكلب وصاحبه على سبيل المثال، فإنها غير متوافرةٍ هنا. فهنا يكون جسد الخيال هو الذى يصدر تعليماته إلى جسد الحصان ليتضاءل مجال الأمر إلى أدنى حدوده. ويختفى البعد والغربة والعلاقة العابرة، التى هى من سمات شخصية "الأمر" الأصيلة، فالأمر هنا يكون قد تم ترويضه لتبدأ مرحلةٌ جديدة فى تاريخ علاقات المخلوقات، أى الحيوان الخادم الذى يحمل سيده فوق ظهره، الخادم المعرض للثقل الفيزيقى لسيدة مُلبيًا أى إشارة ضغطٍ من جسده. فما هو تأثير هذه العلاقة بالجواد على تكوين أمر الخيَّال؟ ففى البداية نثبت هنا أن لدى الخيَّال إمكانية إبلاغ جواده بأوامر تلقاها هو عن رئيسٍ له، فالهدف الذى حُدِّدَ له لا يصل إليه إذا ركض هو نفسه نحوه، فيعطى جواده التعليمات بالوصول إليه. ولما كان ذلك يحدث فى الحال فإن الخيَّال لا يحتفظ بأية غصةٍ من هذا الأمر، فقد تحاشاه بإبلاغه إلى الجواد. أما جزء القيد الشخصى الناتج عن هذا الأمر فيكون قد تخلص منه قبل أن يشعر به بالفعل. فكما كان تنفيذه لمهمته أسرع، وكلما أسرع بامتطاء الجواد وأسرع بالركوض فإن الغصة التى يحتفظ بها تتضاءل. إن فن هؤلاء الخيالة، حالما يتخذون شخصيةً عسكرية، يتأسس على قدرتهم فى ترويض كتلةٍ أكبر من متلقى الأوامر بأن يبلغوا مباشرةً إلى هذه الكتلة ما تلقوه هم من أعلى. وتتسم منظومة الجيش المغولى بالنظام الصارم على نحو خاص. أما الشعوب التى هاجموها واضطرت إلى الخضوع لهم، وكانت لديها الفرصة لمراقبتهم عن قربٍ، فقد رأت هذا النظام هو الأعجب والأكثر صرامةً من كل ما صادفوه على الإطلاق. وسواء كان هؤلاء فُرسًا أو عربًا أو صينيين أو روسًا أو مجريين أو رسل البابا من الرهبان الفرنسيسكان، فإن هؤلاء جميعًا على حدٍّ سواء لم يستوعبوا وجود بشرٍ على هذا النحو من الطاعة اللازمة للمغول. وكان هذا النظام لا يمثل للمغول، أو التتر كما يدعون غالبًا، سوى عبءٍ طفيف لأن العبء الأكبر كان يقع على الخيل. وكان المغول يضعون أطفالاً فى عمر السنتين أو الثلاثة فوق ظهر الخيول ليدربوهم على ركوب الخيل. وقد ذكرنا أن الطفل فى أثناء تربيته المبكرة يكون مترعًا بغصات الأوامر، فالأم الأكثر قربًا من الابن، ثم يأتى الأب على مسافةٍ أبعد، بل وكل من كُلِّف بتربية الطفل، أو أى بالغٍ، أو من هو أكبر منه

سنًا فى محيطه، لا يكفون عن إصدرا الأوامر والتعليمات إلى الطفل، لتتجمع كل أنواع الغصات فى الطفل منذ عمره المبكر، وهى تلك التى تصبح حدوده الضيقة الملزمة لحياته فيما بعد. ثم يكون عليه البحث عن مخلوقاتٍ أخرى ليتخلص من غصاته من خلالهم، فلا تكون حياته سوى مغامرةٍ وحيدة للخلاص منها وضرورة للقضاء عليها، وهو لا يدرى سبب قيامه بهذا الفعل أو ذلك الفعل غير المبرر وسبب إقامته لهذه العلاقة أو تلك التى تبدو بلا معنى. أما الطفل المغولى أو المقاتل الذى يتعلم مبكرًا ركوب الخيل فيتمتع بحريةٍ من نوعٍ خاص للغاية مقارنةً بأطفال حضاراتٍ أخرى أكثر استقرارًا ورقيًا. فما إن يتقن ركوب الخيل فإنه يمكنه نقل ما يؤمر به إليها جميعًا. ومبكرًا جدًا يتخلص هو من الغصات التى تلازم تربيته فى معيارٍ ضئيل للغاية، فالحصان يفعل ما يريده الطفل على نحوٍ أسرع مما يلبى به أى إنسانٍ رغبة الطفل. وهو يعتاد هذه الطاعة فيعيش على نحوٍ أقل وطأةً، إلا أنه فيما بعد يتوقع الشىء نفسه من البشر الخاضعين له خضوعًا جسديًا على نحوٍ مطلق. وإضافة إلى هذه العلاقة المهمة لمضمون "أمر" الإنسان للجواد، يجىء السهم فى المقام التالى من الأهمية بالنسبة للمغول، وهو يمثل النسخة المطابقة لأصل الأمر غير المروض، فالسهم "عدائى" وينبغى أن يقتل، وهو يخترق فى استقامةٍ مسافةً بعيدة، ويكون على المرء تفاديه ومن يفشل فى ذلك يظل السهم منغرسًا داخل جسده، وهو يمكن انتزاعه لكن حتى لو لم ينكسر فإنه يخلف جرحًا (توجد بعض الروايات عن جروح السهم فى التاريخ السرى للمغول). وعدد السهام التى يمكن إطلاقها لا حدود لها، فالسهم هو السلاح الرئيسى للمغول فهم يقتلون عن بعدٍ لكنهم يقتلون أيضًا وهم يتحركون، أى من فوق ظهور خيولهم. وقد لوحظ أن كل "أمرٍ"، انطلاقا من أصله البيولوجى، يقترن بماهية الحكم بالاعدام. فمن لا يهرب يُعاجَل ومن يُعاجَل يتم تمزيقه. وقد احتفظ السهم لدى المغول بشخصية الحكم بالإعدام فى أوسع نطاقٍ، فهم يقتلون البشر مثلما يقتلون الحيوانات فالقتل هو طبيعتهم الثالثة كما كان ركوب الخيل طبيعتهم الثانية. ومذابحهم البشرية تتطابق تمامًا مع مطارداتهم للفريسة فى أثناء الصيد، أى مذابح الحيوانات. فإذا لم يخوضوا حروبًا قاموا بالصيد، ومناوارتهم هى عملية الصيد. ولا بد من أنهم أصيبوا بدهشةٍ عظيمة فى أثناء غزواتهم واسعة المدى عندما التقوا بالبوذيين والمسيحيين الذين ذكر لهم كهنتهم القيمة الخاصة لكل حياةٍ. وهكذا لم يكن هناك تناقضٌ أعظم

من ذلك على الإطلاق، فأرباب "الأمر المجرد"، الذين يجسدونه على نحو غريزى، قد التقوا بأولئك ممن شاءوا إضعاف "الأمر المجرد" من خلال عقيدتهم أو تحويره ليفقد سمته العدوانية القاتلة ويصبح "إنسانيًا".

الإخصاء الدينى
طائفة الخصيان

يـروى عـن بعـض العقائـد الدينيـة، المُحْتَفـى بهـا بكثافةٍ، أنهـا تحض عـلى الإخصاء. كـما اشـتهر بذلـك كهنـة الأم العظيمـة "كيبلـه" فى العصـور القديمـة. فقـد كان هنـاك آلافٌ ممـن أدى هوسـهم بتكريـم إلهتهـم إلى إخصـاء أنفهسـم بأنفسـهم. وكان هنـاك عـشرة آلاف مـن البـشر مـن هـذا النـوع يقومـون عـلى خدمتهـا فى "كومانـا" عـلى ضفـة "بونتـو" حيـث كان معبدهـا الشـهير. ولم يكـن الرجـال فقـط هـم مـن كرسـوا أنفسـهم لهـا عـلى هـذا النحـو، بـل كانـت هنـاك نسـاءٌ شـئن الإعـراب عـن تقديسـها، فقمـن بقطـع أثدائهـن لينضممـن بعـد ذلـك إلى بـلاط الإلهـة. وقـد اسـتعرض "Lukian" فى تقريـره عـن الإلهـة السـورية[111] كيـف اسـتبد الهـوس بالمؤمنـين فى أثنـاء اجتماعهـم ليقـوم واحـدٌ منهـم، كان قـد حـل دوره، بإخصـاء نفسـه. إنهـا تضحيـة تقـدم إلى الإلهـة ليبرهـن لهـا للأبـد عـن مـدى شـغفه بهـا وأنـه لا يوجـد حـبٌ يعنـى شـيئًا فى الحيـاة سـوى حبهـا. ويـروى نفـس الحـدث عـن الفرقـة (المذهبيـة) الروسـية "الأسـكوبز"[112]، أى الحمائـم البيضـاء، الـذى أثـار مؤسسـها "سـليفانوف" الانتبـاه الأعظـم إبـان عهـد الإمبراطـورة كاترينـا الثانيـة مـن خـلال نجاحـات عظاتـه. وبتأثـيرٍ منـه قـام مئـاتٌ وربمـا آلافٌ مـن الرجـال بإخصـاء أنفسـهم، كـما قامـت نسـاء بدافـع إيمانهـن ببـتر

أثدائهـن. ولا يـكاد يقـوم افـتراضٌ بوجـود صلـةٍ تاريخيـة بـين الجماعتـين العقائديتـين، فقـد نشـأت الفرقـة الأخـيرة عـن المسـيحية الروسـية ربمـا بعـد 1500 عـام مـن نهايـة شـطط كهنـة "الفريجيـة" السـورية، ويتميـز هـؤلاء الـ"إسـكوبز" بالتركيـز عـلى عـددٍ من الوعـود والنواهـى وكذلـك عـلى مجموعـاتٍ صغـيرة مـن الأتبـاع الذيـن يعـرف بعضهـم البعـض عـلى نحـوٍ دقيـق. أمـا تركيزهـم الأعظـم فانصـب عـلى نظامهـم والإقـرار بعبـادة مسـيحهم الواحـد الحـى بينهـم، وهـم لا يـكادون يخشـون الفُرقـة مـن خـلال الكتـب والقـراءة، فهـم لا يهتمـون إلا بمواضـع قليلـة للغايـة فى الإنجيـل، والحيـاة بينهـم مكثفـةٌ للغايـة وتتكفـل التعاويـذ المقدسـة بحمايتهـا تمامًـا. فهنـاك دورٌ غـير مألـوفٍ وحاسـم يلعبـه "الـسر" بالنسـبة لهـم. أمـا حياتهـم العباديـة فتـدور أساسًـا بالليـل الـذى يعزلهـم ويسـترهم عـن العـالم الخارجـى. ومركـز حياتهـم الـذى يتحتـم عليهـم الاحتفـاظ بـه سرًا هـو تحديـدًا الإخصـاء الـذى يسـمونه الـ"تبييـض"، فعليهـم أن يصيروا مـن خـلال العمليـة الخاصـة أطهـارًا وبيضًـا، فيصـيرون ملائكـةً، وهـم يعيشـون الآن بالفعـل فى السـماء. والتكريـم المبالـغ فيـه الـذى يظهـره بعضهـم لبعـض وانحناءاتهـم وصلاتهـم ووعودهـم ومدائحهـم تكـون مماثلـةً لمـا يؤديـه الملائكـة نحـو بعضهـم البعـض. أمـا التشـويه الـذى يتحتـم عليهـم إجـراؤه فيتخـذ ماهيـة "الأمـر" الحـادة. إنـه أمرٌ مـن أعـلى، وهـم ينقلـون ذلـك عـن كلام المسـيح بالإنجيـل، ومـن كلمـة اللـه إلى يسـوع. وهـم يتلقـون هـذا الأمـر بقـوةٍ هائلـة، وبالقـوة نفسـها عليهـم إبلاغـه، وعلـم الغصـة ينطبـق عليهـم بالفعـل، فالأمـر يتـم تنفيـذه هنـا عـلى المتلقـى نفسـه، ومهـما أتى المـرء مـن أفعـالٍ فـإن العمـل الحقيقـى الـذى ينبغـى عليـه إنجـازه هـو أن يقـوم بإخصـاء نفسـه. ولتوضيـح ذلـك فـلا بـد مـن فحـص سلسـلةٍ مـن الأوامـر ذات النـوع الخـاص. فلـما كانـت هـذه الحـال تـدور حـول الأوامـر الصـادرة فى نطـاق نظـامٍ صـارم فإنهـا تُقـارَن بالأوامـر العسـكرية. فالجنـدى كذلـك تتـم تنشـئته عـلى التعـرض للمخاطـر، وكل تدريـبٍ يهـدف إلى أن يقـف الجنـدى فى النهايـة أمـام العـدو بنـاءً عـلى الأمـر رغـم أن هـذا يعرضـه للمـوت. أمـا أنـه يحـاول هـو نفسـه قتـل العـدو فليـس أهـم مـن أنـه يقـف فى "الوضـع انتبـاه" فمـن دون ذلـك لـن يكـون قـادرًا مواجهـة العـدو. فالجنـدى مثـل الـ"إسـكوبز" يقدمـان نفسـهما كأضحيـة، ويأمـل كلاهـما البقـاء عـلى قيـد الحيـاة لكنهـما يتوقعـان الإصابـة بجـروحٍ وآلام ودمـاء وتشـويه. ومـن خـلال المعركـة يأمـل الجنـدى فى الفـوز بالنـصر ومـن خـلال الإخصـاء يصـير الـ"إسـكوبز" مـلاكًا ولـه حـق فى السـماء التـى سـوف يحيـا فيهـا بالفعـل. والمسـألة تـدور - داخـل هـذا

النظام- حول أمرٍ سرى، وعلى هذا النحو فقط تكون مقارنة الحالة التى يوجد فيها هذا الواقع تحت إجبار عسكرى والمنوط به وحده تنفيذ أمرٍ سرى، من دون أن يعرف من حوله ذلك. وفى سبيل هذا الغرض فيضطر إلى التنكر حتى يتعرف عليه من خلال زيه. أما زى الـ"إسكوبز" الذى يساوى بينه وبين الآخرين، الذى ينتمى هو إليهم، فهو إخصاؤه. وهذا يبقى طبقًا لطبائع الأمور مخفيًا دائمًا فلا يجوز له البوح به أبدًا. إذن فإنه يمكننا القول بأن الـ"إسكوبز" يتساوى مع عضو تلك الفرقة الرهيبة للحشاشين الذى يُكلفه قائده بمهمة قتلٍ لا ينبغى أن يعرفها أى إنسان[113]. فإذا نجح فى تنفيذها فلا يجوز لأى إنسانٍ معرفة كيف حدث ذلك، فإذا ما سقطت الضحية وتم اعتقال القاتل بعد فعلته فلا يكون على علمٍ بمسار الحدث الحقيقى. إن "الأمر" هنا هو حكمٌ بالإعدام ويكون قريبًا للغاية من أصله البيولوجى، فالمُرسَل يكون قد بُعِثَ إلى موته الأكيد. إلا أن ذلك لا يُذْكَر على الإطلاق، لأن موته الذى أقدم عليه طواعيةً يُسْتَغَل لاستهداف شخص آخر يُطلق عليه "ضحية". ويتسع "الأمر" ليصير حكمًا بالإعدام مزدوجًا، يظل أولهما فى طى الكتمان رغم توقع المرء له، بينما يتم استهداف الآخر بوعيٍ كامل وعلى نحوٍ هو الأكثر وضوحًا. أما الغصة التى سوف تنتهى بنهاية صاحبها فإنه يتم استغلالها قبل انتهائها. ولدى المغول تعبيرٌ واضح للغاية عن هذا القتل العاجل لشخصٍ آخر قبل أن يُقتَل الفاعل نفسه. فالأبطال فى "تاريخهم السرى" يقولون عن العدو الذى يبغون قتله فى آخر لحظات حياتهم: "آخذه معى وسادةً لرأسى". لكننا عندما نقترب من حالة الـ"إسكوبز" مقارنةً بالحشاشين لا نكون قد توقعنا أنها على هذا النحو من الدقة، لأن فرد الـ"إسكوبز" كان عليه إصابة نفسه أو تشويه نفسه، فالأمر الذى كان قد قبله لا يستطيع إنفاذه إلا فى نفسه، فلا يكون عضوًا حقيقيًا فى جيشه السرى إلا بعد أن يكون قد نفذه، ولا ينبغى أن نُخْدَع بمعرفة أن عملية الإخصاء يقوم بها آخرون فى الغالب، لأن معناها أن الشخص نفسه هو الذى تقدم لذلك، فما أن يعلن استعداده لذلك فلا يهم كيف تُجرَى العملية حقًا، وتبقى غصته هنا فى إطارها النمطى، لأنه تلقى الأمر من الخارج وهو ما سوف ينقله إلى غيره فيما بعد على أية حال. وحتى إن كان ذلك كما يبدو، أنه كان هناك أول من أجرى ذلك على نفسه، فإنه يكون قد فعل ذلك بناءً على أمرٍ وهمى من السماء، وكان مؤمنًا بذلك على وجه اليقين. فآيات الإنجيل التى دعا بها الآخرين للإيمان هى نفسها التى جعلته

يؤمـن، فالـذى تلقـاه هـو يقـوم بإبلاغـه للآخريـن. وتتخـذ الغصـة هنـا شـكلاً واضحًـا لندبـةٍ بالجسـد، وهـى أقـل سريـةً مـن غصـة الأمـر عـادةً لكنهـا تظـل سريـةً لـكل غـير المنتمـين للفرقـة.

السلبية وانفصام الشخصية (الشيزوفرينيا)

يستطيع إنسانٌ ما التغاضى عن الأوامر بألا يسمعها، كما يستطيع إغفالها إذا لم ينفذها. أما الغصة - التى لا يمكننا التأكيد على معناها بما فيه الكفاية، فهى لا تنشأ إلا من خلال تنفيذ الأوامر. فالفعل نفسه الناتج عن ضغطٍ غريب خارجى هو الذى يفضى إلى تكوين الغصة. فالأمر الذى يتم دفعه حتى يصير حدثًا، يرسخ بشكله الدقيق فى ذاكرة المنفذ، وتحدد القوة التى دفعته وهيئته المختلفة وسيطرته وفحواه مدى العمق والصلابة التى رسخ بها فيظل دائمًا كشىءٍ منعزل. وعلى ذلك فإنه لا يمكن لأى إنسانٍ فى نهاية الأمر تفادى أن يتراكم داخله الغصات التى تكون أيضًا منعزلة مثلما كانت الأوامر. أما قدرتها على ملازمة الإنسان فهى مدهشة، فلا شىء آخر يمكن أن ينفذ فى داخله إلى هذا العمق ولا شىء لا يمكن إدراكه على مثل هذا النحو. وقد تأتى لحظةٌ يكون فيها واحدة من الغصات قد تحققت إلى حد أنه لا يكون هناك معنى لأى شىء آخر ولا يشعر بشىء غيره، أما رفضه لأوامر جديدة فيصير قضية حياته فيحاول عدم سماعها حتى لا يضطر لقبولها. فإن اضطر إلى سماعها لم يفهمها. وإن اضطر لفهمها فإنه يتهرب منها على نحوٍ عجيب، بأن يأتى بنقيض ما يُطْلَب منه، فإن قيل له تقدم فإنه يتأخر

وإذا قيل له تأخر فإنه يتقدم، وهو رد فعلٍ غير مناسبٍ بل هو بالأحرى رد فعلٍ قوى لأنه هو الذى يحدد فحوى الأمر بطريقته، وهذا هو ما يسميه علم النفس بالسلبية التى تلعب دورًا هامًا للغاية لدى المصابين بانفصام الشخصية. أما ما يلفت الانتباه فى المصابين بانفصام الشخصية على الأغلب فهو الافتقار إلى التواصل، فهؤلاء هم الأكثر انعزالاً بين البشر الآخرين. وهم يبدون غالبًا أنهم تجمدوا داخل أنفسهم كأنه لا توجد صلةٌ بينهم وبين الناس الآخرين، كأنهم لا يفهمون شيئًا، كأنهم لا يريدون فهم أى شىء. أما عنادهم فيكون قاسيًا كأنه قُدَّ من حجر. وليس هناك أى موقفٍ لا يستطيعون اصطناع الجمود حياله. لكن هؤلاء الناس أنفسهم يسلكون فى فترة مرضهم فجأةً مسلكًا على النقيض من ذلك تمامًا، فهم يظهرون استعدادًا للتأثر يتخذ بعدًا خياليًا، فهم يقلدون ما يمثله البعض أمامهم أو ما يطالبهم به شخصٌ آخر على نحوٍ من السرعة والكمال، كأن هذا الآخر قد تلبسهم، ويفعل ذلك لهم. إنها نوباتٌ من المهانة التى تسيطر عليهم فجأة، وهو ما أطلق عليه واحدٌ منهم: عبوديةً وهميةً[114].
فهؤلاء يتحولون من تماثيل إلى عبيدٍ مطيعين وهم يؤدون كل ما يطلب منهم على خير وجهٍ، وعلى نحوٍ يبدو فى الغالب مثيرًا للسخرية. إن التناقض بين هاتين الحالتين كبيرٌ إلى حدٍّ يصعب فهمه. فإذا غضضنا الطرف مؤقتًا عما ترسمه هاتان الحالتان داخلهم وتأملنا ذلك على نحوٍ ما من الخارج فقط، فإنه لا يمكن إنكار أن كلتا الحالتين معروفتان جيدًا فى حياة الناس العادية، إلا أنهما هنا تخدمان غرضًا محددًا، ويبدو أثرهما غير مبالغٍ فيه. فالجندى الذى لا يستجيب لأية إثارةٍ خارجية، والذى يقف جامدًا حيث أُمر بالوقوف، والذى لا يغادر موقعه، والذى لا يستطيع شىءٌ ما إغراءه بإتيان شىء كان عادةً سيسعد بفعله وغالبًا ما فعله، فالجندى المدرب جيدًا يكون وجوده وجودًا اصطناعيًا فى حالة السلبية. والحق أنه يستطيع التفاعل أحيانًا، تحديدًا بناءً على أوامر قائده وليس فيما عدا ذلك أبدًا، وحتى يكون قادرًا على التفاعل بناءً على أوامر محددةٍ فقط فإنه يتم تدريبه على حالة السلبية. إنها السلبية التى يمكن استغلالها، لأن السلطة والأمر يكونان بيد قائده الذى يستطيع وضعه فى حالةٍ مناقضة تمامًا. فما إن يتلقى الجندى أمرًا من الجهة الصحيحة فإنه يسلك مسلكًا متذللاً وحماسيًا للخدمة مثل المصاب بالانفصام فى حالته المناقضة. ولا بد من أن نضيف أن الجندى يعلم سبب تفاعله بطريقته، فهو يطيع لأنه وُضِع تحت تهديدٍ بالقتل. وقد تناولنا فى

فصلٍ سابق سر اعتياده هو تدريجيًا على هذه الحالة واتساقه معها من داخله في نهاية المطاف. إلا أن هناك شيئًا لا بد من إثباته وهو التشابه الخارجي، الذى لا يمكن إنكاره، أى التشابه القائم بين الجندى فى الخدمة وبين المصاب بالفصام. لكن هناك فكرةً أخرى ملحة تبدو لى على نفس القدر من الأهمية، فالمصاب بالفصام فى حالة الإيهام الحادة يسلك سلوك العضو فى الكتلة، فهو مثيرٌ للدهشة بنفس القدر وهو يستجيب بنفس القدر لكل إثارةٍ خارجية. ولكن المرء لا يتبين أنه قد يكون فى هذه الحالة، لأنه وحيد. فإذا لم ير المرء حوله كتلةً فإنه لا ينتبه بسهولة إلى افتراض أنه موجود فى إحداها، أى أنه قطعة مجتزئة من الكتلة، وهذا الزعم لا يمكن إثباته إلا إذا ما سبرنا أغوار التصورات الداخلية للمرض. وهناك أمثلةٌ بلا حصر على ذلك، فقد قالت سيدةٌ إنها "تحمل كل البشر داخلها" وأخرى سمعت "البعوض يتكلم"[115] واستمع رجلٌ إلى 729.000 فتاةٍ وآخر سمع "أصواتٍ هامسةً للبشرية كافةً". ففى ضوء تصورات المصابين بالفصام، فى إطار العديد من صور التنكر، فإنه تظهر كل أنواع الكتل الموجودة، حتى إنه يمكن أن نبدأ من هناك دراسةً عن الكتل. وقد يُطْرَح تساؤلٌ عن سر ضرورة الحالتين -المذكورتين هنا- المتناقضتين بالنسبة لمصاب بالفصام، فمن أجل فهمهما علينا تذكر هذا الذى يحدث للفرد بمجرد انضمامه إلى الكتلة. وكنا قد تناولنا مسألة التحرر من أعباء المسافات الفاصلة واعتبارها فرزًا، ولإتمام ذلك فلا بد من أن نضيف أن غصة الأمر تنتمى إلى المسافات الفاصلة التى تراكمت فى كل فرد. ففى الكتلة يكون كل الأفراد متساويين، فليس لأحدهم الحق فى إصدار أوامر للآخر. وقد نقول أيضًا إن الكل يأمر الكل فلا تنشأ غصاتٌ جديدة فحسب بل إن المرء يكون قد تخلص من كل القديمة مؤقتًا. فالمرء - على نحوٍ ما - يكون قد فر من داره وترك الغصات قابعةً متراكمة هناك، فى قبو الدار. إن خلاص المرء من كل قيوده وحدوده وأعبائه لهو السبب الحقيقى لهذا الشعور العالى الذى يحس به الإنسان فى الكتلة، فهو لا يشعر فى أى مكانٍ بحريةٍ أعظم حتى لو كان يائسًا للغاية، فإنه يجب أن يبقى فى الكتلة لأنه يعرف ما ينتظره، فإذا ما رجع إلى نفسه، إلى "داره"، فإنه سيجد كل شىء هناك مرةً أخرى، حدودًا وأعباءً وغصات. إن المصاب بالفصام والمثقل بالغصات إلى حد أنه كان يتمسك بها أحيانًا أى يثابر على احتمال عذابه وعجزه هذا، فإنه يسقط فى وهم الحال النقيضة، أى حالة الكتلة. وما دام موجودا فى هذه الحال فإنه لا يشعر بالغصات، فهو يرى أنه خرج من

ذاته حتى لو حدث ذلك على نحوٍ غير حقيقى، ليبدو أنه ينعم بارتياحٍ مؤقت على الأقل من عذاب الغصات، فبدا له أن يتعلق بغصات أخرى. فقد كانت قيمة هذا الخلاص فى الحقيقة وهمًا، وتحديدًا هناك حيث يبدأ تحرره يكون بانتظاره قوى قهر أخرى جديدة وأكثر حدة. إن الجوهر الكامل للفصام ليس ما يشغلنا هنا فقد يكفى إثبات أنه ليس هناك من يحتاج الكتلة أكثر من المصاب بالفصام، المترع بغصات الأمر، المختنق بها. إنه من لا يستطيع العثور على كتلةٍ بالخارج فيدعها تنفذ إلى داخله.

الارتـــداد

"إن الطعـام الـذى يأكلـه الإنسـان فى هـذه الدنيـا هـو الـذى سـيأكل الإنسـان فى العـالم الآخـر"، وردت هـذه العبـارة فى "شـاتابا - براهمنـا"، وهـو كتاب "موجـز الضحية" الهنـدى. وقـد تفـوق عـلى هـذه العبـارة فى الغرابـة قصـةٌ مـن الموجـز نفسـه، وهـى قصـة رحلـة الـرائى "بريغـو" فى العـالم الآخـر[116]. أمـا بريغـو المقـدس فـكان ابنًـا للإلـه "فارونـا" وكان اكتسـب معرفـة البراهمنـا معرفـة واسـعة، مـا أصابـه بالغـرور حتـى إنـه ترفـع عـلى أبيـه الإلـه نفسـه. فشـاء هـذا أن يريـه ضحالـة مـا يعرفـه فنصحـه بالارتحال بـين جهـات السـماء الأربـع شرقًـا وجنوبًـا وغربًـا وشـمالاً، وكان عليـه أن يراعـى كل مـا يمكـن هنـاك ليروى لـه مـا رآه بعـد عودتـه. فى البـدء، تحديـدًا فى الـشرق، رأى بريغـو أناسًـا يقومـون بقطـع أعضـاء أُنـاسٍ آخريـن، العضـو تلـو الآخـر، ثـم يوزعـون أجزاءهـا عـلى بعضهـم البعـض، وهـم يقولـون فى أثنـاء ذلـك "هـذا مـن نصيبـك، هـذا نصيبـى". فلـما رأى بريغـو ذلـك أصابـه الذهـول التـام، فـكان أن فـسر لـه هـؤلاء الذيـن يقومـون بقطـع أعضـاء الآخريـن هـذا الأمـر بـأن هـؤلاء قـد فعلـوا معهـم ذلـك فى العـالم الآخـر عـلى نفـس النحـو وهـم لا يفعلـون الآن شـيئًا آخـر غـير مـا فعلـه هـؤلاء بهـم. بعـد ذلـك انتقـل بريغـو برحلتـه إلى الجنـوب فـرأى هنـاك أناسًـا يقومـون باجتـزاء أعضـاء أُنـاسٍ آخريـن عضـوًا تلـو الآخـر ثـم يوزعونهـا بعضهـم البعـض قائلـين: "هـذا نصيبـك،

هـذا نصيبـى" وقـد تلقـى بريغـو عـلى سؤاله الإجابـة نفسـها: "إن هـؤلاء الذيـن تُقْطَّـع أعضاؤهـم الآن قـد فعلـوا الـشىء نفسـه بهـؤلاء الذيـن يقطعـون أعضاءهـم الآن بالعـالم الآخـر". بعـد ذلـك رأى بريغـو فى الغـرب أناسًـا يلتهمـون آخريـن وهـم صامتـون بينـما يلـوذ بالصمـت هـؤلاء الذيـن يتـم التهامهـم كذلـك وهـو بالتحديـد الـذى فعلـه هـؤلاء بهـؤلاء فى العـالم الآخـر. إلا أنـه رأى فى الشـمال إناسًـا يصرخـون عاليًـا وهـم يلتهمـون أناسًـا آخريـن بينـما يـصرخ هـؤلاء كذلـك عاليًـا وهـو مـا فعلـه هـؤلاء بهـؤلاء فى العـالم الآخـر. وبعـد عودتـه طالـب الأب فارونـا الابـن بـأن يلقـى عليـه درسـه مثـل التلميـذ، إلا أن بريغـو قـال: "مـاذا ينبغـى عليـه إعـادة روايتـه فليـس لـدى شىء". فلـما كان قـد رأى بشـاعةً مفرطـة بـدا لـه ذلـك كالعـدم، وهنـا أدرك فارونـا أن بريغـو قـد رأى هـذه الأحـوال فقـال: "إن أنـاس الـشرق الذيـن قامـوا بقـع أعضـاء الآخريـن كانـو هـم الأشـجار، أمـا أنـاس الجنـوب الذيـن قطعـوا أعضـاء الآخريـن فقـد كانـت هـى الأبقـار وأمـا أنـاس الغـرب الذيـن التهمـوا صامتـين أناسًـا آخريـن فقـد كانـت هـى الأعشـاب. وأمـا أنـاس الشـمال الذيـن صرخـوا عاليًـا وهـم يلتهمـون أناسًـا آخريـن يصرخـون عاليًـا فقـد كانـت هـى الميـاه، وقـد عـرف لـكل هـذه الأحـوال مـا يقابلهـا. ومـن خـلال ضحايـا بعينهـم ذكرهـا لابنـه اسـتطاع معرفـة تبعـات أفعـال المـرء فى العـالم الآخـر. وفى "موجـز ضحايـا" آخـر خـاص بالــ "جايمنيـا - براهمنـا" رويـت قصـة بريغـو عـلى نحـو آخـر فهـو لم ينتقـل بـين جهـات السـماء المختلفـة وإنمـا انتقـل مـن عـالم لآخـر، وبـدلاً مـن الصـور الأربـع التـى عرفهـا صـارت هـذه الآن ثلاثـًا فقـط. فى البدايـة رأى بريغـو هـؤلاء الذيـن اتخـذوا فى العـالم الآخـر هيئـة البـشر وصـاروا يقطعـون الآن أناسًـا إربًـا ويلتهمونهـم. وكانـت الصـورة الثانيـة مـما رآه بريغـو إنسـانًا يلتهـم إنسـانًا يـصرخ وقـد علـم أن ذلـك هـو ماشـيةٌ تـم ذبحهـا فى الدنيـا والتهامهـا وقـد اتخـذت هيئـةً إنسـانية وتفعـل الآن بالإنسـان مـا فعلـه هـو بهـا. وكان ثالـث مـا رآه رجـلاً يـأكل آخـر لا يقـول شـيئًا كان ذلـك أُرزًا وشـعيرًا اتخـذا هيئـةً بشريـة لينتقـما لمـا عانيـا منـه. وهنـا كذلـك تـم ذكـر ضحايـا بعينهـا، فمـن يسـلك السـلوك القويـم فإنـه يأمـن فى العـالم الآخـر مصـير مـن يتـم التهامهـم مـن خـلال الأشـجار والماشـية أو الأرز أو الشـعير، إلا أن مـا يهمنـا هنـا فليـس وسـيلة تـلافى هـذا المصـير، وإنمـا الأمـر الأكـثر أهميـةً هـو التصـور الشـعبى الـذى يكمـن تحـت ملابـس الكهنـة التنكريـة فمـن فعـل هنـا شـيئًا سـوف يُفْعَـل بـه الأمـر نفسـه هنـاك، فإنـه لـن يتـم تعيينهـم خدامًـا للعدالـة لينفـذوا هـذه العقوبـة إنمـا يقـوم كلٌ بمعاقبـة عـدوه. والأمـر لا يتعلـق بسـلوكٍ مـا وإنمـا يتعلـق بمـا

التهمـه المـرء نفسـه. وهـو يحـدث عـلى نفـس النهـج، فكـما التهـم النـاس الحيوانـات فى هـذه الدنيـا وأكلوهـا، فإنـه عـلى نفـس النحـو تلتهـم الحيوانـات البـشر وتأكلهـم فى العـالم الآخـر. إن هـذه العبـارة مـن (كتـاب) براهمنـا آخـر والتـى تشـبه تلـك العبـارة التـى وضعناهـا نصـب أعيننـا فى البدايـة تتفـق مـع شـهادةٍ غريبـة فى كتـاب قانـون "مانـو" حيـث يقـرر أن أكل اللحـم ليـس ذنبًـا لأن ذلـك هـو طبيعـة المخلـوق. لكـن من يمتنـع عـن اللحـم فإنـه يُوعَـد بمكافـأةٍ خاصـة. وكلمـة اللحـم فى اللغـة السنسـكريتية هـى "مامسـا" تفسر مـن خـلال فصـل مقاطعهـا بـ"مامـا" وتعنـى "أنـا"[1] و"سـا"[2] وتعنى "هـو" وتبعًـا لذلـك تكـون "مامسـا": "أنـا هـو" أى أن مـا سـيأكلنى فى العـالم الأخـر "هـو" الـذى أكلـت لحمـه هنـا. وهنـا تنشـأ الطبيعـة "اللحميـة" للحـم وهـو المعنـى الحقيقـى لكلمـة "لحـم"، وهنـا يكـون الارتـداد قـد وُضِـعَ فى أقـصر الصيـغ إيجـازًا وفهـمًا فى صـورة اللحـم. أنـا آكلـه: هـو أنـا، فالمقطـع الثـانى هـو تبعـة مـا أنـا فعلتـه، وهـو قريـبٌ مـن معنـى الكلمـة التـى تعنـى اللحـم. فالحيـوان الـذى تـم التهامـه يلاحـظ مـن فعـل بـه ذلـك. لكـن الأمـر لم ينتـه بمـوت هـذا الحيـوان فروحـه تواصـل الحيـاة وسـوف يتحـول إلى إنسـانٍ فى العـالم الآخـر. وهـو ينتظـر صابـرًا مـوت مـن أكلـه، فحالمـا يمـوت ويصـل إلى العـالم الأخـر تتحـول الحـال الأولى إلى نقيضهـا. فالضحيـة تلقـى آكلهـا، فتقبـض عليـه، فتقطـع أوصالـه وتأكلـه. إن الصلـة بمفهومنـا عـن "الأمـر" والغصـة التـى يتركهـا خلفـه يمكـن لمسـها هنـا بأيدينـا، إلا أن كل شىء هنـا تـم المغـالاة فيـه حتـى حـده الأقـصى، فصـار واضحًـا عـلى نحـوٍ يصيبنـا بالفـزع. فالارتـداد يحـدث فى العـالم الأخـر بـدلاً مـن حدوثـه فى حياتنـا هـذه. فبـدلاً مـن الأمـر الـذى يهـدد بمجـرد المـوت، فينتـزع بذلـك كل الإنجـازات، فـإن المسـألة تـدور بالفعـل حـول المـوت فى شـكله الأقـصى تطرفًـا، وهـو أن يتـم التهـام الميـت المقتـول. فحسـب رؤيتنـا التـى لا تسـتطيع إدراك الوجـود الأخـروى تظـل الغصـة الناتجـة عـن التهديـد بالمـوت موجـودةً مـا بقيـت الضحيـة عـلى قيـد الحيـاة، أمـا نجاحهـا فى الارتـداد فهـو أمـرٌ مشـكوكٌ فيـه، لكـن الأمـل فى ذلـك يظـل قائمًـا دائمًـا عـلى كل حـال. ففـى نهايـة الأمـر تكـون الغصـات هـى المتحكمـة فيـه تمامًـا محـددةً لملامحـه الداخلية.وتظـل هـى مصيره سـواء نتـج عـن ذلـك خـلاصٌ أم لا. وطبقًـا للمفهـوم الهنـدى الموقـن بحقيقـة العـالم الآخـر فـإن الغصـة تبقـى قائمـةً كبـذرةٍ للـروح صلبـةً كذلـك بعـد المـوت، ليـلِى ذلـك ارتـدادٌ عـلى

---

1 فى حال المفعول به

2 فى حالة الفاعل (المترجم)

كل حالٍ، وتصير المسألة هى الفعل الحقيقى للوجود الأخروى ليفعل كلُّ ما فُعِلَ به، ويقوم بأداء ذلك بنفسه. وفيما إذا كان تغير هيئة الارتداد لا يمكن إعاقته فإن ذلك يبدو هنا ذا دلالةٍ خاصة، فلم تعد الأبقار التى اُلتُهِمَت هى تلك التى أُمْسِكَ بها وقُطِّعَت فى العالم الأخر، إنه الإنسان بروح تلك الأبقار، فقد غير المخلوق هيئته تمامًا وظلت الغصة هى نفسها من دون تغيير. وفى الصورة المروعة التى رآها بريغو فى أثناء رحلته تبدو الغصة كهدفٍ رئيس للروح، وقد نقول إنها نشأت منه هو فقط. إن الجوهر الحقيقى للغصة - التى تحدثنا عنها كثيرًا فى إطار دراسة "الأمر" - وعدم تغيرها ودقة ارتداد ها، يتبدى فى اكتساب الغصة لطبيعة التصور الهندى عن المأكول الذى لا بد من أن يعود ليأكل.

تفكك الغصة

تنشأ الغصة فى أثناء تنفيذ الأمر. وهى تنفك منه لتترسخ فى المُنفِّذ متخذةً الهيئة الدقيقة للأمر. والغصة صغيرةٌ وخفية ومجهولة. وسمتها الجوهرية، التى تحدثنا عنها الآن، تكون غالبًا هى عدم تغيرها المطلق. وهى تبقى منعزلةً عن بقية الإنسان، جسدًا غريبًا فى لحمه. وبقدر نفاذها إلى عمق الإنسان يكون قدر اختزال كيانها الذى يقودها بعد ذلك، وتظل دائمًا مزعجةً لصاحبها وتعلق داخله على نحوٍ غامض كأنها أسيرٌ لغريب. فهى نفسها تريد الفكاك إلا أنها تتحرر بصعوبة. فالقوة التى تحرر نفسها من خلالها لا بد من أن تكون مساوية لتلك التى استُقبلت بها عند دخولها، ومن "أمر" مختزل يصير عليها أن تتحول إلى أمرٍ كامل مرةً أخرى. وللوصول إلى هذه القوة فإنها تحتاج إلى ارتداد الحالة مثلما كانت فى البداية. فلا مناص من إعادة إنتاجها بدقة وهو ما يبدو كأن الغصة تحمل ذاكرتها الشخصية داخلها، وكأن ذاكرتها تتكون من حدثٍ واحد وحيد، وكأن الغصة تربصت شهورًا، سنواتٍ، عشرات السنين حتى توجد الحالة القديمة وحتى يستطيع التعرف عليها، وفجأةً يكون كل شىء كما كان آنذاك على نحوٍ دقيق. إلا أن الأدوار تكون قد تبدلت تمامًا. وفى هذه اللحظة تنتهز الغصة الفرصة وتسرع بالهجوم على ضحيتها، لتحدث حالات الارتداد أخيرًا. إن هذه الحالة، التى

قد نعتبرها حالةً خاصة، ليست هى الوحيدة الممكنة، فالأمر يمكن تكراره كثيراً صادرًا عن صاحبه نفسه إلى الضحية نفسها على نحو يسمح بتكوين غصات من النوع نفسه من جديد. وهذه الغصات واضحة المعالم لا تبقى منعزلة، فعليها أن ترتبط ببعضها البعض. وهذا المكون الجديد ينمو بوضوح ولا يمكن أن ينساه صاحبه أبدًا. وهو لافت للانتباه دائمًا، شاقًا دائمًا، ويطفو على نحوٍ ما فوق السطح. وقد يصدر الأمر نفسه ويتكرر عن مصادر مختلفة. فإذا ما حدث ذلك غالبًا فى تتابعٍ ملحّ فإن الغصة تفقد هيئتها الخالصة وتتطور إلى مسخ خطرٍ على الحياة. وهو يتخذ نسبًا هائلة ويصير مكونًا أساسيًا لصاحبه، يحمله معه أينما كان، محاولاً الخلاص منه فى أية فرصة. ثم تتبدى له حالات بلا عددٍ كتلك الحالات الأصلية، وتبدو له متوحدةً مع الارتداد، إلا أنها لا تكون هى نفسها لأنه من خلال التكرار والتقاطع يفقد كل شيء الدقة، فهو قد فقد مفتاح الحال الأصلية بعد أن تراكمت ذاكرةٌ فوق الأخرى وكذلك غصةٌ فوق الأخرى. ولا يمكن تفكيك عبئه إلى أجزاء. ومهما حاول فإن كل شيء يبقى على حاله السابقة، فهو لا يستطيع وحده التحرر من عبئه. والتشديد هنا واقع على "وحده". فهناك فرصة التحرر من كل الغصات، حتى أشكالها الأكثر تشوهًا، وهذا التحرر لا يحدث إلا فى إطار الكتلة. ليتكرر الحديث عن ارتداد الكتلة التى لم يكن توضيح جوهرها الخاص ممكنًا قبل توضيح نوع أثر الأمر. فكتلة الارتداد تتكون من كثيرين سعوا لتحرر مشترك من غصات الأمر وهم من كانوا فريسة لليأس فرادى، فعددٌ كبير من الناس يتكتلون لمواجهة مجموعة من أناس آخرين يرون فيهم صناع الأوامر التى كان على أولئك تنفيذها لزمنٍ طويل. فإن كان أولئك - مثلاً- جنودًا فإنهم يواجهون كل الضباط الذين خضعوا بالفعل لأوامرهم، وإن كانوا عمالاً فإنهم يواجهون أرباب العمل الذين عملوا لديهم بالفعل. وتكون الطبقات والفئات فى هذه اللحظات حقيقة، وهى تسلك المسلك التى تظهر به كأنها متساوية. فالطبقة الأدنى التى ارتقت بنفسها تتشكل فى كل مكان كتلةً متضافرة، أما الطبقة الأعلى المهدَدة والمحاصَرة بعددٍ أكبر فتشكل جماعةً من حزمٍ خائفة تسعى للفرار. وكل غصة على حدة تجد فى من انضموا للكتلة كجماعةٍ اتفقت على أهدافٍ كثيرة مختلفة وكجماعة من أصول مختلفة فى آنٍ واحد. ويقف المهاجَمون أمامهم فرادى أو متلاحمين، ويبدو أنهم يعرفون جيدًا سبب إحساسهم بهذه الرهبة، وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء صانعى هذه الغصة أو تلك، لكن إذا كانوا

هـم كذلـك أم لا، فإنهـم مسـئولون عـن ذلـك ويُعامَلـون صراحـةً عـلى أنهـم هـؤلاء. إن الارتـداد الـذى يتوجـه ضـد كثيريـن فى آنٍ واحـد يفـكك أكـثر الغصـات صلابـةً. أمـا أكـثر تلـك الحـالات تركيـزًا فهـى تلـك التـى تتجـه ضـد رئيـسٍ وحيـد - ملـك مثـلاً - فيكـون مـا أدركتـه الكتلـة واضحًـا للغايـة. فالمصـدر الأخـير لـكل الأوامـر كان الملـك ومـن كان حولـه مـن الأشراف والنبـلاء كانـوا مشـاركين فى إبـلاغ الأوامـر وتنفيذهـا. أمـا الفـرادى الذيـن تتكـون منهـم الكتلـة المتمـردة فكانـوا لسـنوات طويلـة مسـتبعدين مـن خـلال التهديـد وأبقـى عليهـم محاصريـن مطيعـين مـن خـلال النواهـى. وفى نـوع مـن الحركـة العكسـية يتـم إلغـاء المسـافات فينـدفـع هـؤلاء إلى داخـل القـصر الـذى كان ممنوعًـا عليهـم ويتأملـون مـن أقـرب موضـع مـا يحتويـه مـن غـرف وممتلـكات وأثـاث. أمـا الفـرار الـذى أضطرهـم إليـه أمـر الملـك فى المـاضى فقـد ارتـد ليكـون اطمئنانًـا حميـمًا. فـإذا مـا سـبب ذلـك حـدوث هـذا التقـارب مـن خـلال الرهبـة فإنـه قـد تكـون حالـةً مؤقتـة لا تسـتمر لوقـت طويـل. ومـا إن تبـدأ العمليـة العامـة للتحـرر مـن الغصـات، فإنهـا تسـتمر بـلا توقـف. ولا بـد مـن أن نأخـذ فى اعتبارنـا مـا جـرى مـن أحـداث لحمـل النـاس عـلى الطاعـة وكـم الغصـات التـى تجمعـت داخلهـم.

إن التهديـد الحقيقـى للرعايـا، الـذى لاحقهـم دائمًـا، كان هـو التهديـد بالمـوت، وكان يجـدد مـن حـينٍ لآخـر مـن خـلال عمليـات إعـدام وأثبـت فاعليتـه بوضـوح، وكان هـذا التهديـد يلقـى نجاحًـا بأسـلوب وحيـد: الملـك الـذى كان يقطـع الـرءوس يتـم قطـع رأسـه هـو نفسـه، وبذلـك تكـون الغصـة الأشـمل التـى تبـدو منطويـةً عـلى مفهـوم كل الغصـات الأخـرى يكـون قـد اسـتبعد مـن هـؤلاء الذيـن كانـوا عليهـم حملـه، وإدراك معنـى الارتـداد لا يكـون دائمًـا عـلى هـذا النحـو مـن الوضـوح، كـما لا يسـلك الارتـداد طريقـه دائمًـا إلى القمـة عـلى هـذا النحـو مـن الكـمال. أمـا إذا فشـل التمـرد ولم يتخلـص النـاس مـن غصاتهـم فإنهـم يحتفظـون بذكـرى الزمـن الـذى كانـوا فيـه كتلـة. ففـى هـذه الحـال كانـوا قـد صـاروا متحرريـن مـن الغصـات ويتذكرونهـا بلهفـة.

الأمر والإعدام
الجلاد المسرور

لقد أرجأت عمدًا تناول هذه الحالة فى بحثنا هذا. وكنا قد فسرنا "الأمر" على أنه تهديدٌ بالقتل، فقلنا إنه اشتق من أمر الفرار. أما الأمر المروَّض، كما تعرفنا عليه، فإنه يربط التهديد بالمكافأة، فتقديم الغذاء يدعم أثر التهديد إلا أنه لا يغير شيئًا من ماهيته. فالتهديد لا يُنسى أبدًا، فهو يظل باقيًا فى شكله الأول دائمًا حتى تسنح الفرصة للخلاص منه عندما ينقله المرء إلى آخرين. ويمكن للأمر أن يكون تكليفًا بالقتل ليفضى بعدئذ للإعدام، وهنا يحدث بالفعل ما هو كان تهديدًا. إلا أن الحدث يكون مقسمًا على رجلين فأحدهما يتلقى الأمر والآخر يتم إعدامه. ويظل التهديد بالموت ملاحقًا للجلاد، مثله مثل كل من يخضع للأمر، لكنه يتحرر من هذا التهديد بأن يقوم هو نفسه بالقتل، فهو ينفذ فى الآخرين ما كان سيحدث له، ويتخلص على هذا النحو من العقوبة القصوى، الذى كان هو نفسه خاضعًا لها، فقد قيل له: "عليك أن تقتل". فقتل، فلم يكن بوسعه مقاومة مثل هذا الأمر الصادر إليه ممن يعترف لهم بتفوق سلطتهم. ولا بد من أن يحدث ذلك بسرعة وهو عادةً ما يحدث فى الحال فلا يكون هناك وقت لتكوين غصة. لكن حتى مع توافر وقت فإنه لن يكون هناك

مناسبة لتكوين الغصة، فالجلاد ينقل بدقة ما كان قد تلقاه فليس هناك شيء يخشاه، فلا يبقى هناك فى داخله شيءٌ. وفى هذه الحالة، فى هذه فقط، يتم تسوية حساب "الأمر" بسلاسة. فتتطابق طبيعته العميقة مع الفعل الذى يحدثه. وقد تم اتخاذ ما يلزم لتنفيذه ولا يمكن لشيء أن يعيق ذلك، وليس هناك احتمال أن تفلت الضحية. أما الجلاد فهو على وعيٍ بكل هذه الظروف منذ البداية فيكون بوسعه استقبال "الأمر" بهدوء، فهو يثق فيه وهو يدرك أنه لن يغير فيه شيئًا من خلال تنفيذه له، فهو يمر به على نحوٍ ما بسلام ليظل هو آمنًا تمامًا. فالجلاد هو الأكثر رضا بأنه هو الإنسان الخالى تمامًا من الغصة. إنها حالةٌ غريبة لم ننظر إليها قط بعين الجدية ولا يمكن إدراكها إلا إذا تأملنا الطبيعة الحقيقية "للأمر"، فمع التهديد ينهض "الأمر" ويسقط، فهو يستمد منه قوته كلها، ففائض هذه القوة التى لا يمكن تفاديها هو ما يفسر تكوين الغصة. لكن تلك الأوامر التى تعنى الموت حقًا والتى كانت تستهدفه والتى تفضى إليه بالفعل، هى التى لا تترك فى المتلقى أى أثر. فالجلاد هو إنسانٌ يتم تهديده بالموت حتى يقتل وهو لا يُسمح له بقتل إلا من يجب عليه قتلهم فقط. فإذا ما التزم بدقة بالأوامر الصادرة إليه فإنه لا يحدث له مكروه. وتنفيذه للأوامر ينطوى يقينًا على شيء يكون بمثابة التهديد له فى حالات تالية. ومن المحتمل أنه يعلق على تنفيذه للإعدام شيئًا ما يبقى على غصات ذات جذور مختلفة تمامًا فى داخله. لكن ما يبقى أساسيًا هو آلية مهمته الخاصة، فإن قام بالقتل فإنه يحرر نفسه من الموت، فهو يعتبر ذلك عملاً خالصًا وغير غريب. أما الفزع الذى يبثه فى الآخرين فهو لا أثر له عنده. ومن المهم أن نوضح التالى، وهو أن القتلة الرسميين هم الأكثر رضا فى داخلهم كلما أفضت أوامرهم مباشرة إلى الموت، فحتى السّجان يلاقى مشقةً أعظم من الجلاد. والحق أن المجتمع يقابل رضاه عن وظيفته بازدراءٍ ما، كنوعٍ من الانتقام، إلا أن ذلك أيضًا لا يعود عليه بالضرر، فهو، من دون أن يكون له يد فى ذلك، يبقى حيًا بعد كل ضحية من ضحاياه، لينال شيئًا من قيمة البقاء على قيد الحياة، وهو الذى لم يكن سوى أداةٍ ومثار الاحتقار التام. فهو يتزوج وينجب ويعيش حياة أسرية.

الأمر والمسئولية

من المعروف أن البشر الذين يعملون طبقًا "للأمر" هم القادرون على الإتيان بالأفعال الأكثر ترويعًا. فإذا ما نضب مصدر الأمر وأُرغم هؤلاء على النظر خلفهم، إلى أفعالهم، فإنهم لا يتعرفون على أنفسهم فيقولون "نحن لم نفعل هذا"، وهم لا يدركون على أية حال بأنهم كاذبون. فإذا ما عرضوا على شهود فاضطرب أمرهم أضافوا إلى ذلك: "لسنا هكذا،لا يمكن أن نكون من فعل هذا"، ويبحثون عن أثرٍ لأفعالهم داخلهم فلا يجدونه. وتنتاب المرء الدهشة من قدرتهم على بقائهم غير متأثرين بها. أما حياتهم فيما بعد فهي في الواقع حياةٌ أخرى لم تتأثر بالفعل على أي نحو. ولأنهم لا يشعرون بأنهم مذنبون فإنهم لا يندمون على شيء. فالفعل لم ينفذ إلى داخلهم. وهم عادةً أناسٌ قادرون للغاية على تقدير أفعالهم. أما تبعة أفعالهم فيكون لها الأثر المتوقع. وهم سوف يخجلون إن قتلوا مخلوقًا أعزل لا يعرفونه ولم يستفزهم. وقد يشعرون بالتقزز من تعذيب شخصٍ ما، وهم ليس الأفضل، لكنهم أيضًا ليسوا أسوأ من آخرين يعيشون بينهم. وبعض من يعرفونهم، من خلال معايشةٍ يومية حميمة، قد يبدون استعدادًا للقسم بأن إدانتهم باطلة. فإذا ما استعرض صف الشهود الطويل، أي الضحايا الذين يعرفوا جيدًا ما يقولون، وإذا ما تعرف كل منهم الواحد تلو الآخر على الجاني وأعاد تذكيره بكل تفاصيل ما فعله، يصير هنا كل شكٍ أمرًا غير مقبول، ليواجه المرء

لغـزًا يسـتعصى عـلى الحـل. لكـن هـذا لم يعـد يمثـل لنـا لغـزًا لأننـا نعـرف طبيعـة "الأمـر". فـكل أمـرٍ قـام الجـانى بتنفيـذه تـرك غصـةً داخلـه، لكـن هـذه تكـون غريبـةً بقـدر غرابـة "الأمـر" نفسـه عنـد صـدوره. ومهـما طالـت ملازمـة الغصـة للإنسـان فإنهـا لا تندمـج معـه أبـدًا وتظـل جسـمًا غريبًـا.

ورغـم إمكانيـة توحـد غصـاتٍ عديـدة فى شـكلٍ جديد لتواصـل النمو فى المسـتهدف فإنهـا تبقـى منفصلـةً عـن محيطهـا بوضـوح. فالغصـة هـى مقتحـمٌ دخيـل لا يمكنهـا الاسـتقرار. وهـى كيـان غـير مرغـوبٍ فيـه يسـعى المـرء للتحـرر منـه. إنهـا هـو مـا اقترفـه المـرء، وهـى تتخـذ، كـما هـو معـروف، هيئـة الأمـر. وهـى تواصـل العيـش كمرجعيـةٍ غريبـة داخـل المتلقـى وتنـزع عنـه كل شـعورٍ بالذنـب. فالجـانى لا يتهـم نفسـه بنفسـه، وإنمـا يتهـم الغصـة، أى المرجعيـة الغريبـة، فهـى الفاعـل الحقيقـى الـذى يحملـه داخلـه دومًـا.

فكلـما كان "الأمـر" غريبًـا عـلى شـخصٍ مـا، كان شـعور هـذا بالذنـب تجاهـه أقـل، وكان انعـزال "الأمـر" كغصـةٍ أكـثر وضوحًـا، فهـى الشـاهد الدائـم بـأن هـذا الشـخص لم يكـن هـو الـذى أتى هـذا الفعـل أو ذاك. فيشـعر المـرء بأنـه ضحيتهـا، ولذلـك لا يملـك نحـو ضحيتـه الحقيقيـة أدنى شـعور عـلى الإطـلاق. وفى الواقـع فـإن مـن ينفـذون الأمـر يعتـبرون أنفسـهم أبريـاء تمامًـا. فـإن اسـتطاعوا رؤيـة حالتهـم فقـد يشـعرون بالدهشـة مـن أنهـم كانـوا ذات يـوم تحـت سـطوة الأوامـر عـلى هـذا النحـو التـام. لكـن حتـى هـذا الإحسـاس الواعـى يصبـح بـلا قيمـةٍ لأنـه ظهـر بعـد فـوات الأوان. فـما حـدث، يمكـن أن يحـدث ثانيـةً، فالحمايـة ضـد الموقـف الجديـد، الـذى يشـبه القديـم تمامًـا، لا تنمـو داخلهـم. فهـم يظلـون تحـت سـطوة الأمـر بـلا حمايـة ولا يـرون مـن خطورتـه إلا شـعاعًا خافتًـا للغايـة. وفى أوضـح الحـالات، وهـو أمـرٌ نـادر لحسـن الحـظ، فإنهـم يجعلـون مـن "الأمـر" قـدرًا مكتوبًـا، ويتفاخـرون بـأن مـا سـاقهم إلى ذلـك كان هـو قـدر أعمـى، كأنهـم أسـلموا قيادهـم إلى هـذا العمـى. ومهـما كان المنظـور الـذى نتأمـل مـن خلالـه "الأمـر" فى شـكله المجـرد النهـائى، الـذى هـو عليـه اليـوم بعـد تاريـخ طويـل، فسـوف نـراه قـد صـار أخطـر عنـاصر التعايـش الإنسـانى المشـترك. فـلا بـد مـن أن يمتلـك المـرء الشـجاعة للتصـدى لـه ولزعزعـة سـيادته. ولا بـد مـن وجـود وسـائل وسـبل لتحريـر الجـزء الأكـبر مـن البـشر منـه. فـلا يجـوز أن نسـمح لـه بأكـثر مـن خـدش الجلـد. ولا بـد مـن جعـل غصاتـه سلاسـل يمكـن التحـرر منهـا بحركـة بسـيطة.

الــتحــول

الحدس والتحول لدى رجال الأدغال

إن قدرة الإنسان على "التحول" التى منحته سلطانًا كبيرًا على المخلوقات كافةً لم يمكننا فهمها أو تحديدها على نحوٍ ما، فهى إحدى الألغاز الكبرى، فكلٌ يمتلكها وكلٌ يعتبرها أمرًا طبيعيًا تمامًا، لكن قليلين هم من يضعون فى اعتبارهم أن لهذه القدرة الفضل فى أفضل ما صاروا إليه. ولما كان من الصعوبة البالغة وضع قواعد لأسس التحول كان علينا الاقتراب منه من عدة جوانب مختلفة. فهناك كتابٌ عن "رجل الأدغال" اعتبره أثمن وثيقةً عن البشرية المبكرة ولم ينضب معينه بعد - رغم أن "بليك" دونه قبل مئة عامٍ[117] وصدر مطبوعًا من خمسين عامًا تقريبًا - ويوجد به فصلٌ عن "الحدس" لدى رجال الأدغال. ومن هذا الفصل يمكن اكتساب دلالات مهمة. والأمر يدور - كما سيتضح- فى إطار هذا الحدس حول مبادئ التحول على نحو بسيط للغاية. فرجال الأدغال يشعرون عن بعد بقدوم بشر لا يستطيعون رؤيتهم أو سماعهم. كما أن لديهم إحساسًا بدنو الوحوش، ويقومون بوضع علامات على أجسادهم يدركون من خلالها اقتراب هذه الوحوش. ولنضرب أمثلة عن ذلك ننقلها عن نصها الأصلى حرفيًا:

"رجـلٌ يقـول لأبنائـه بـأن عليهـم ترقـب وصـول جدهـم: انظـروا حولكـم فإنـه يبـدو لى أن جدكـم يقـترب لأنى أشـعر بموضـع الجـرح القديـم بجسـده. فترقـب الأطفال، فـرأوا رجـلاً مـن بعيـد فقالـوا لوالدهـم: هنـاك رجـلٌ قـادم. فقـال الأب لهـم: إنـه جدكـم القـادم هنـاك فلقـد عرفـت أنـه يـأتى وقـد شـعرت بقدومـه بموضـع جرحـه القديـم وأردت أن تـروا ذلـك بأنفسـكم، إنـه يـأتى حقًـا، أنتـم لا تصدقـون حـدسى، إلا أنـه يخـبر بالحقيقـة".

إن مـا جـرى هنـا هـو أمـر عـلى نحـوٍ مـن البسـاطة الرائعـة، فالرجـل العجـوز، جـد هـؤلاء الأبنـاء، كان فيـما يبـدو بعيـدًا عنهـم وقـد عـانى مـن جـرحٍ قديـم بموضـعٍ بعينـه بجسـده، وهـذا الموضـع معـروفٌ جيـدًا لـدى ابنـه البالـغ، والـد الأطفـال، وهـو نـوعٌ مـن تلـك الجـروح التـى يتجـدد ذكرهـا مـن حـينٍ لآخـر، وهـو مـا نسـميه نحـن مميـزًا لشـخصه. فـإذا مـا فكـر الابـن فى أبيـه فكـر فى هـذا الجـرح. إلا أن ذلـك أعمـق مـن كونـه تفكـيرًا مجـردًا، فالابـن لا يتصـور فقـط الجـرح أو موضـع الجـرح بدقـة الـذى أصيـب فيـه، بـل إنـه يحـس الجـرح فى المـكان المقابـل عـلى بدنـه هـو نفسـه. فـما إن شـعر بـه حتـى افـترض اقـتراب الأب الـذى لم يـره مـن فـترة. إنـه يشـعر باقترابـه لأنـه يشـعر بجرحـه. وهـو مـا يخـبر بـه أبنائـه ويبـدو أنهـم لم يصدقـوه تمامًـا، فقـد يكونـون لم يختـبروا بعـد الإيمـان بصـدق مثـل هـذا الحـدس، فلـما حثهـم عـلى الترقـب صـح عندهـم أن هنـاك رجـلاً يقـترب فقـد كان الأب محقًـا فلـم يخدعـه شـعوره بجسـده.

امـرأةٌ تغـادر البيـت حاملـةً ابنهـا معهـا فى نطـاقٍ وضعتـه عـلى كتفهـا. أمـا زوجهـا الـذى بقـى بالبيـت فـكان يجلـس هنـاك هادئـًا بعـد أن ذهبـت المـرأة لإحضـار شىء مـا، وبقيـت لفـترةٍ طويلـة بالخـارج. فجـأة يشـعر الرجـل بنطاقهـا فـوق كتفـه "فقـد تولـد لديـه شـعور فى هـذا الموضـع"، وكأنـه هـو الـذى يحمـل ابنـه بنفسـه. ومـا إن يشـعر بالنطـاق حتـى يـدرك أن المـرأة تعـود بالطفـل. وهـذا الحـدس نفسـه ينسـحب عـلى الحيوانـات، وهـى الحيوانـات التـى يعتبرهـا رجـل الأدغـال مهمـةً كأقـرب أهلـه، أى أقـرب حيواناتـه عـلى نحـوٍ مـا، تلـك التـى يقتنصهـا ويتغـذى عليهـا.

طـاووسٌ يمـضى متنزهًـا فى الشـمس الدافئـة فتعضـه حـشرةٌ سـوداء يسـميها رجـال الأدغـال "قملـة الطـاووس" فيحـك الطـاووس برجلـه أسـفل قفـاه فيشـعر رجـل الأدغال بـشىءٍ أسـفل قفـاه وهـو بالموضـع نفسـه حيـث يهـرش الطـاووس. وهـو شـعورٌ يشـبه الخفقـان، فيخـبر هـذا الشـعور رجـل الأدغـال بـأن هنـاك طاووسًـا عـلى مقربـةٍ منـه.

وهنـاك حيـوانٌ يهـم رجـل الأدغـال عـلى نحـوٍ خـاص وهـو الوعـل. وهنـا نـرى الكثـير مـن مشـاعر الحـدس. وهـى تنسحب عـلى كل الحـركات والسـمات الممكنـة للوعـل.

"لدينـا شـعورٌ بالأقـدام فنحـن نشـعر بدبيـب أقدامهـا فى الدغـل". إن هذا الشـعور بالأقـدام يعنـى أن الوعـول قادمـة. وهـذه حالـةٌ مختلفـة عـن سـماع دبيبهـا، لأن أقـدام رجـال الأدغـال هـى التـى تـدب، فأقـدام الوعـول تـدب عـن بعـد. إلا أن الأمـر لا ينتهـى عنـد هـذا الحـد، فهنـاك مـا هـو أكـثر مـن حركـة الأقـدام وهـو مـا ينتقـل مـن الوعـول إلى رجـل الأدغـال. "لدينـا إحسـاسٌ بالوجـه بسـبب الشريـط الأسـود عـلى وجـه الوعـل". هـذا الشريـط الأسـود يبـدأ مـن منتصـف الجبهـة ليمتـد إلى نهايـة الأنـف، فيتولـد الإحسـاس لـدى رجـل الأدغـال كأن الشريـط الأسـود عـلى وجهـه هـو نفسـه. "لدينـا إحسـاسٌ عـلى العيـون بسـبب العلامـة السـوداء عـلى عـين الوعـل". يشـعر أحدهـم بخفقـان بـين ضلوعـه فيقـول لأبنائـه "يبـدو أن الوعـل قـادمٌ فأنـا أشـعر بالشـعر الأسـود، فامضـوا إلى التـل بالناحيـة الأخـرى وانظـروا حولكـم فى كل الاتجاهـات، فأنـا لـدى شـعور - الوعـل". وهـذا الشـعر الأسود هـو لـدى الوعـل بـين جانبيـه، أمـا خفقـان ضلوعـه فهـو يعنـى لرجـل الأدغـال الشـعر الأسـود عـلى جانبـى الحيـوان. وكان هنـاك آخَـر حـاضرًا عندمـا ذُكِـرَت هـذه الظاهـرة فوافقـه عـلى ذلـك، وكان لديـه شـعورٌ حـدسى يرتبـط بالوعـول، إلا أنـه لم يكـن هـذا الشـعور نفسـه فهـو يشـعر بـدم الحيـوان الذبيـح "لـدىّ إحسـاس بباطـن سـاقىّ عندمـا يسـيل دم الوعـل، فـإن جلسـت كان لـدى شـعورٌ بظهـرى حيـث يسـيل الـدم عندمـا أحمـل الوعـل، وأحـس أن شـعر الوعـل يكـون عـلى ظهـرى". وقـد روى ذات مـرةٍ: "نحـن نشـعر بـه فى رءوسـنا فى أثنـاء قيامنـا بنـزع قـرون الوعـل". وفى مـرةٍ أخـرى: "إن الإشـياء العديـدة تعتـاد الظهـور بدايـةً عندمـا نكـون راقديـن فى ظـل أكواخنـا وهـى تظـن أننـا نرتـاح فى أثنـاء القيلولـة، لكننـا لا ننـام القيلولـة عندمـا تـأتى الأشـياء وتحـرك أقدامهـا فنشـعر بشـئٍ مـا أسـفل ركبتنـا حيـث يسـيل الـدم عندمـا نحمـل الحيـوان".

مـن خـلال عبـارات رجـال الأدغـال هـذه نـرى مـدى الأهميـة التـى يعلقونهـا عـلى مثـل هـذه المشـاعر الحدسـية والحسـية. فهـم يشـعرون بهـا فى أبدانهـم عندمـا تطـرأ أحـداثٌ بعينهـا، كنـوع مـن الخفقـان فى جسـدهم يخاطبهـم ويخبرهـم عـن ذلـك. فحـروف كلماتهـم، عـلى حـد قولهـم، تكـون فى جسـدهم، هـذه الحـروف تنطـق وتتحـرك وتسـبب حركتهـا هـى نفسـها. ويأمـر الرجـل الآخريـن بالتـزام الصمـت التـام

عندما يلحظ الخفقان فى جسده فحدسه ينطق بالحقيقة. أما الحمقى فهم من لا يفهمون الإشارات وينزلقون إلى الشقاء فيقتلهم أسدٌ أو يقع لهم مكروهٌ، فإشارات الخفقان تشير لهؤلاء الذين يفهمونها بعدم شق طريقٍ ما، وأية سهامٍ لا ينبغى عليهم استعمالها، وهى تحذرهم عندما يقترب من البيت أناسٌ كثيرون على عربة. وعندما يمضى أحدهم للبحث عن شخصٍ ما فإن إشارات الخفقان تدله على الطريق التى عليه البحث فيها ليجده.

وليس لنا أن نختبر هنا مصداقية حدس رجال الأدغال أو خداعها فقد يكونون قد نمّوا قدراتٍ ومارسوها فى حياتهم اليومية وهو ما افتقدناه نحن. وقد يكون لديهم مبررٌ لمواصلة إيمانهم بحدسهم حتى لو خدعهم أحيانًا. ومهما كان أمر ذلك فإن تعبيرهم عن كيفية ظهور الحدس لديهم يعتبر ضمن أثمن الوثائق عن جوهر التحول ولا يوجد هناك ما يجعلهم ينحون ذلك جانبًا، فهناك دائمًا اعتراضٌ ينهض ضد كل ما يُسْنَد إلى الأساطير والقصص الخرافية بأنه شىء مخترع، لكننا ندرك هنا مدى شعور رجل الأدغال بحياته الحقيقية عندما يفكر فى طاووسٍ أو وعل عن بعدٍ، وفيما يحدث له فى أثناء ذلك وماذا يعنى هذا فى كل الأحوال أن يفكر فى مخلوقٍ لا يكون هو نفسه. إن الإشارات التى يدركون من خلالها اقتراب حيوانٍ أو إنسانٍ آخر هى إشاراتٌ فى جسدهم ذاته، ومشاعر الحدس هذه تُعْتَبَر على نحوٍ ما بوادر التحولات. فإذا ما شئنا الابقاء على قيمة الإشارات فإنه يجب توخى الحذر من إضافة شىء دخيل على عالم رجل الأدغال، فعلينا ترك هذه الإشارات ببساطةٍ ووضوح على ما هى فى حقيقة أمرها، ولكننا ننزعها من سياق التعبيرات المقتبسة ونعددها بالترتيب:

ابنٌ يشعر بجرح أبيه القديم على الموضع نفسه بدقةٍ الذى جُرح فيه الأب.

رجلٌ يشعر بالنطاق الذى تحمل به الأم طفلها على كتفه هو شخصيًا.

طاووسٌ يهرش قفاه برجليه حيث عضته قملةٌ، فيشعر رجل الأدغال بالموضع نفسه فى قفاه هو حيث هرش الطاووس.

رجلٌ يشعر فى قدميه هو بدبيب الوعول. والشريط الأسود للوعل الذى ينحدر من جبهته حتى أنفه يشعر به على وجهه. وهو يشعر على عينيه بالعلامات السوداء على عينى الوعل. والشعر الأسود على جانبى الحيوان يشعر به بين ضلوعه.

رجل أدغالٍ يشعر بالدم فى باطن ساقه وظهره، وهو دم الوعل الذبيح الذى سيحمله فوق ظهره وهو هنا يشعر كذلك بشعر الحيوان، ويشعر أحدهم فى رأسه بمكان انتزاع قرون الوعل، ويشعر أحدهم بالدم أسفل ركبته حيث اعتاد أن يسيل دم الحيوان الذبيح.

إن كل شىء تم إدراجه فى إطار البند الخامس يرتبط بالحيوان الميت. أما الرغبة فى دمه فهى التى ماهية التحول، وهى أقل بساطةً من الحالات الأربع السابقة، ولذلك نرى أنه من الأفضل أولاً أن نتأمل هذه الحالات. فالعنصر الغالب فى هذه الحالات هو أن جسدًا يماثل جسدًا آخر، فجسد الابن هو جسد الأب، وهكذا يوجد الجرح القديم فى الموضع نفسه. وجسد الرجل هو جسد زوجته، فالنطاق الذى تحمل به الطفل يضغط على الموضع نفسه من كتفه. وجسد رجل الأدغال هو جسد الطاووس، فالقملة تعضه فى الموضع نفسه من القفا وهو يهرش هناك.

فى هذه الحالات الثلاث يتبدى ملمحٌ منفردٌ لكلٍ منها، وهو الذى يظهر مساواة الأجساد، وهى ملامح من أنواع مختلفة، ففى حالة الجرح تبدو سمةٌ خاصة قديمة بالجسد، وهى تظهر من حينٍ لآخر. وفى حالة النطاق يطرأ ضغطٌ محدد مستمر عليه. أما حالة الهرش فهى حالةٌ منعزلة. أما الأكثر إثارةً فهى حالة الوعل، فهنا تجتمع أربعة أو خمسة ملامح لتمنح مساواة الجسد بجسدٍ آخر شيئًا كاملاً للغاية، فها هنا الحركة فى الأقدام والشعر الأسود على الجانبين والشريط الأسود المنحدر من الجبهة إلى الأنف والعلامات السوداء على الأعين، وفى النهاية موضع الرأس حيث كانت القرون، كأن الرجل نفسه يحمل القرون. ومن أجل الحركة كانت القدم قد حلت محل الهرش، فيتبدى هنا شىء يماثل القناع تمامًا. أما ما كان أكثر إثارةً للانتباه فى رأس الحيوان فكانت القرون، ثم كل ما هو أسود للغاية، أى الشريط والعلامات على الأعين، فإنها اجتمعت لتصير قناعًا مختزلاً على أبسط وجه. أما الشعر الأسود على الجانبين فقد جعل الرجل كأنه تدثر بجلد الحيوان إلا أنه كان جلده هو نفسه. فأما الجسد وهو جسد رجل الأدغال ذاته فيصير جسد أبيه وزوجته والطاووس والوعل، ولما كان بوسعه أن يصير كل هؤلاء فى أحايين مختلفة، ويكون هو نفسه من حينٍ لآخر كان لذلك أهميةٌ هائلة. وأما التحولات التى تتوالى فتتغير حسب الدواعى، كلٌ على حدة.

إنها حالات تحولٍ خالصة، فكل مخلوقٍ يشعر بمقدمه، يبقى على حالته. ويظل الفارق بينهما قائمًا وإلا ما كان للتحولات أهمية، فالأب بجرحه ليس هو المرأة بالنطاق، والطاووس ليس الوعل. إن الهوية الشخصية التى يستطيع رجل الأدغال التخلى عنها تظل محفوظةً فى التحول، فبوسعه أن يصير هذا أو ذاك، إلا أن هذا أو ذاك يظل منفصلاً عن الآخر، وهو فى أثناء ذلك يعود ثانيةً هو نفسه. والسمات المنفردة، أى الملامح البسيطة للغاية التى تحدد التحول، قد نعتبرها نقاط االتقاء، فجرح الأب القديم ونطاق كتف المرأة والشريط الأسود للوعل تمثل نقاط التقاء، فالملامح البارزة لمخلوقٍ آخر هى ما تذكر به غالبًا أو يحتفظ بها المرء دائمًا، وهى الملامح التى ينتبه المرء إليها عندما يتوقع اقتراب هذا المخلوق. أما الحيوان الذى يقتنصه المرء فلا يكون إلا حالةً خاصة، وما سعى إليه هو بالفعل كان لحم هذا ودمه. وأما الحالة التى يكون عليها المرء بعد قتله فى أثناء حمله إلى البيت فتكون حالةً من السعادة على نحوٍ خاص. فجسد الحيوان الذبيح المتدلى كغنيمةٍ على ظهر أحدهم يكون أكثر أهميةً من جسده الحى، فيشعر هذا بدمه السائل إلى باطن ساقيه ويشعر به أسفل ركبته ويشعر بدمه على ظهره حيث أحس كذلك بشعره. إن الجسد الذى يحمله الرجل ليس جسده هو ولا يمكن أن يكون جسده لأنه يريد التهامه. أما مشاعر حدس رجل الأدغال المرتبطة بالوعل فإنها تنطوى على مراحل مختلفةٍ، فهو على الصورة التى رأيناها، يشعر بالحيوان حيًا ويصبح جسده هو جسد الحيوان الذى يتحرك ويجرى، لكنه يشعر أيضًا بالحيوان ميتًا كجسدٍ لغيره، جسد غريبٍ متلاحمًا مع جسده هو فى حالةٍ لم يعد بوسعه الانفصال عنها. وتبادل هاتين المرحلتين هو أمرٌ ممكن، فالرجل يمكنه الاعتقاد أولاً بوجوده فى المرحلة الأولى والآخر فى المرحلة الثانية اللاحقة، ويمكن أن تتعاقبا الواحدة تلو الأخرى، وظهورهما يكون متلاحقًا على نحوٍ مباشر، وهما تشملان علاقة الرجل الكاملة بالحيوان وتحملان عملية القنص الكاملة من الدبيب حتى الدم.

تحولات الفرار
الهستيريا والهوس والملانخوليا

إن محاولات التحول سعيًا للفرار من أجل الإفلات من عدوٍ هى محاولاتٌ عامة ترويها الأساطير والقصص الخرافية المنتشرة بجميع أرجاء الأرض، وسوف نتناول فيما يلى أربعًا منها بالحديث، وهى التى تتضح فيها تمامًا تلك الأشكال المختلفة التى تتخدها تحولات الفرار. وأنا هنا أفرق بين الشكل المستقيم والشكل الدائرى كشكلين رئيسيين من تحولات الفرار. فأما الشكل المستقيم فهو المعتاد للغاية فى القنص، فهناك مخلوقٌ يلاحق الآخر وتضيق بينهما المسافة وفى اللحظة التى يُقبَض فيها على الأخير يتحول هذا إلى شىء آخر، ويفلت ويتواصل القنص، أو أنه فى الحقيقة يبدأ من جديد. وترتفع حدة الخطر ثانيةً فالمهاجِم يواصل الاقتراب وقد يفلح كذلك فى القبض على فريسته، وهنا تتحول هى إلى شىء آخر وتهرب ثانيةً فى اللحظة الأخيرة. ويمكن أن يتكرر الحدث ثانيةً مرات عديدة لا حصر لها. فالأمر يرتبط دائمًا بتجدد التحولات التى لا بد من أن تكون غير متوقَّعة حتى تفاجئ المُطارِد. وهذا يستهدف فريسةً محددة تمامًا يعرفها جيدًا ويعرف أسلوب فرارها وكيف ومتى يستطيع القبض عليها. أما لحظة التحول فتوقعه فى حيرة، مما يضطره إلى التفكير فى طريقة أخرى جديدة للقنص.

فالفريسة المتحولة تتطلب قنصًا متحولاً، فيكون على الصياد أن يتحول هو نفسه. ونظريًا فإنه لا يمكن استشراف نهاية لمثل هذه السلسلة من التحولات. والقصص الخرافية تفضل مد أمد هذه التحولات التى يؤدى فيها الملاحَق الدور الأكبر، لتكون النهاية السعيدة أيضًا من نصيبه، إما بهزيمة الملاحِق وإما بالقضاء عليه. وأمامنا حالةٌ، تبدو بسيطةً، من حالات تحولات الفرار المستقيمة فى الأسطورة الأسترالية لدى الـ"لوريتيا" فالـ"توكوليتاس"، أسلاف الطوطمات غير المخلوقة[118]، تصعد من الأرض فى هيئةٍ إنسانية وتظل فى هيئتها البشرية حتى يظهر ذات يوم كلب هائل بلونيه الأبيض والأسود، وقد كان يترقبها فأخذ يلاحقها لتفر الطوطمات إلا أنها تخشى بطء حركتها، فمن أجل الفرار على نحو أفضل، فإنها تتحول إلى كل الحيوانات الممكنة مثل الكنجرو وحيوانات الـ"أمو" والنسور. والجدير بالملاحظة أن كلاً منها يتحول إلى حيوانٍ بعينه ويحتفظ بهيئته ما دام فى حالة الفرار. وفى هذه الحالة يظهر اثنان من الأسلاف يشبهان الطوطمات، لكنهما، فيما يبدو، أكثر قوةً وشجاعة، وهما يرغمان الكلب على الفرار ويقتلانه. وهنا يتخذ أغلب الـ"توكوليتاس" هيئتها البشرية ثانيةً بعد القضاء على الخطر، فلم يعد لديها ما تخشاه. إلا أنها تحتفظ بالقدرة على التحول حسب هواها إلى الحيوانات التى تحمل اسمها، وهى الحيوانات نفسها التى تحولت إليها فى أثناء فرارها. والاقتصار على تحول حيوانى وحيد هو ما يشكل جوهر طوطم الأسلاف هذا. وسوف نتحدث بإسهابٍ فى سياقٍ آخر عن هذه الأشكال المزدوجة، أما هنا فنكتفى بالتأكيد على أن التحول الذى جربه أولئك ومارسوه وظل ممكنًا دائمًا بعد أن نشأ من خلال الفرار.

وهناك حالةٌ مستقيمة ثرية، هى روايةٌ "جورجية" عن معلمٍ وتلميذه[119]. فالمعلم الشرير، وهو الشيطان نفسه، استقبل الصبى لتعليمه، فعلمه كل فنون السحر، إلا أنه لم يشأ قط إطلاق سراحه ليجعله فى خدمته دائمًا. وكان أن أفلت الصبى، إلا أنه قُبِض عليه ثانيةً، فحبسه المعلم فى إسطبلٍ معتم، وهناك أخذ الصبى يفكر فى تحرير نفسه، إلا أنه لم يفلح فى ذلك. وبمرور الوقت كان يزداد حزنه. وكان أن لاحظ ذات يومٍ شعاع شمسٍ ينفذ إلى الإسطبل فتحول بسرعة إلى فأر وتسلل من الشق إلى الخارج. فلما انتبه المعلم لهروبه تحول إلى قطٍ ليطارد الفأر. وهنا تبدأ سلسلةٌ من التحولات، فقد فغر القط فمه ليقتل الفأر ليتحول هذا إلى سمكة ويقفز فى الماء، وفى لحظةٍ يتحول المعلم إلى شبكة ويسبح خلف

السمكة وما كاد يمسك بها حتى تحولت السمكة إلى ديكٍ برى ليحاول المعلم اقتناصه كصقر، وما إن شعر الديك البرى بمخالب عدوه حتى سقط كتفاحة حمراء فى حجر الملك ذاته، فيصير المعلم مديةً أمسك بها الملك بيده فى الحال، فلما شاء الإمساك بالتفاحة وقطعها إذا بالتفاحة تختفى من المكان لتحل محلها حفنةٌ من الذرة البيضاء لتقف حيالها دجاجة وصغارها من كتاكيت - أى المعلم- وصارت تلتقط الحبوب الواحدة تلو الأخرى حتى لم يتبق فى النهاية سوى حبةٍ صغيرة تحولت فى اللحظة الأخيرة إلى إبرة، لتتحول الدجاجة وكتاكيتها إلى خيطٍ فى سم الإبرة، وهنا اشتعلت الإبرة ليحترق الخيط ويموت المعلم، وتتحول الإبرة مرةً أخرى إلى صبيٍ ليعود إلى بيت أبيه.

كانت هنا سلسلةٌ من التحولات هي: فأرٌ وقط وسمكة وشبكة وديك برى وصقر وتفاحة ومدية وذرة ودجاجة وكتاكيت وإبرة وخيط. وقد كان كلٌ من الطرفين مترقبًا للآخر سواء كان حيوانًا أم مادةً من المواد، ودائمًا ما كان الأول الذى يمثل المعلم ساعيًا وراء الآخر الذى هو الصبى ودائمًا ما ينقذ الأخير نفسه من خلال التحول فى اللحظة الأخيرة. وهذه عملية قنصٍ رائعة وهى كذلك عبثيةٌ من خلال أساليب التحول، كما تتبدل الأماكن نفسها بتغير الأشكال. فإذا توجهنا إلى الشكل الدائرى فلسوف يخطر ببالنا الرواية الكلاسيكية عن "بروتيوس"[120] عجوز البحر الحكيم، وهو سيد كلاب البحر، وقد صعد مثلها ذات يومٍ إلى البر، وكان أن قام بحصر عدد قطيعه بدقة، ثم رقد وسطها لينام. أما "منيلاوس" فقد أطاحت به الريح الرديئة فى أثناء عودته من طروادة إلى الساحل المصرى، حيث يقيم بروتيوس ولم يغادر مكانه مع رفاقه. ولما مرت أعوامٌ استبد اليأس بمنيلاوس فكان أن توسل إلى ابنة بروتيوس، فقالت له ما يجب عليه فعله من أجل القبض على أبيها الذى ينطق بالحكمة فيرغمه على الحديث. وجهزت منيلاوس واثنين من رفاقه بفراء كلاب البحر، وحفر هو على الشاطئ مواضع ليرقد فيها الثلاثة متدثرين بفراء كلاب البحر. ورغم الرائحة الكريهة انتظروا هناك صابرين حتى يأتى قطيع كلاب البحر ليرقدوا بينهم ببراءة وهم متنكرون. وكان أن صعد بروتيوس من البحر وحصر عدد قطيعه، ثم رقد لينام بينها مطمئنًا. وجاءت اللحظة المواتية لمنيلاوس ورفاقه فقبضوا على العجوز فى أثناء نومه ولم يطلقوا سراحه. أما هو فحاول الفرار منهم بأن تحول إلى كل شىء ممكن بدايةً من أسدٍ بلبدة هائلة ثم إلى ثعبان لكنهم أحكموا قبضتهم عليه، وتحول إلى فهدٍ وإلى ذكر

خنزيرٍ عملاق لكنهم أحكموا قبضتهم عليه، وتحول إلى ماءٍ ثم إلى شجرةٍ غزيرة الأوراق إلا أن قبضتهم لم تتراخ. فكل التحولات التى جربها كانت تحت سيطرتهم، وفى النهاية أرهقه ذلك فاتخذ ثانيةً الهيئة التى هى لعجوز البحر بروتيوس، وسألهم عما يريدون واستسلم لما طلبوه. هكذا نفهم سر تسمية تحولات الفرار هذه بالدائرية، فكل شىء يحدث فى بقعةٍ واحدة وكل تحولٍ هو محاولةٌ للفرار فى هيئةٍ أخرى وفى اتجاهٍ مغاير على نحوٍ ما. لكنها كلها باءت بالفشل وحدثت تحت سيطرة منيلاوس وأصدقائه. فلم يعد الحديث عن الصيد ممكنًا فقد انتهى أمره بعد أن تم القبض على الفريسة وباءت بالفشل سلسلة محاولات تحول الأسير للفرار، ولذا كان عليه فى النهاية الرضا بمصيره وتنفيذ ما يطلب منه. وفى النهاية فإنى أود هنا أن أسوق قصة بليوس وتيتس اللذين لم يحصلا على أية شهرة إلا فيما بعد كوالدين لأخيل. أما بليوس فكان مخلوقًا فانيًا، وأما تيتس فكانت إلهة وكانت تأبى أن ترتبط به لأنه لم يَبدُ جديرًا بها، وقد فاجأها وهى نائمةٌ بكهفٍ، فقبض عليها ولم يطلق سراحها، فحاولت الفرار، مثل بروتيوس، من خلال كل التحولات الممكنة، فقد تحولت إلى نارٍ وإلى ماءٍ وإلى أسدٍ وإلى ثعبان إلا أنه لم يتركها، وتحولت إلى أخطبوطٍ لزج أغرقه بالحبر إلا أن شيئًا من هذا لم يعد عليها بالنفع، فصار عليها الاستسلام له. وبعد عدة محاولاتٍ فيما بعد، كانت قد تخلصت من نسله، لتصير أمًا لأخيل. كان نوع المحاولات هنا مماثلاً تمامًا لمحاولات بروتيوس وكانت حالتها كأسيرةٍ مثل حالته، فالمهاجِم يحتفظ بها تحت سيطرته ولا يدعها. وكانت كلٌ من تحولاتها عبارةً عن محاولةٍ للفرار فى اتجاهٍ جديد، فأخذت على نحوٍ ما تدور فى دائرةٍ مفرغة لكى تعثر على مكانٍ يمكن أن تتحرر فيه من الأسر، إلا أنها لم تفلح فى أى مكان فى تجاوز الدائرة فبقيت فى الأسر. وفى النهاية استسلمت فى مركز كل المحاولات مثل "تيتس" نفسها. وفى الواقع فإن قصة تيتس لم تضف جديدًا لقصة بروتيوس وقد عرضناها من أجل صبغتها بالإثارة الأنثوية، وهى تذكر بنوبات أعراض مرضٍ معروف فى الغالب، أى: الهستيريا[121]. ونوبات هذا المرض العميقة ليست سوى سلسلةٍ من التحولات العنيفة للفرار. فالمصابة تشعر بوقوعها فى أسر قوةٍ متفوقة عليها ولا تتركها، ويمكن أن يكون هذا رجلاً تريد الفرار منه، رجلاً أحبها وتملكها، أو رجلاً مثل بليوس الذى يريد امتلاكها أولاً، ويمكن أن يكون كاهنًا احتفظ بها أسيرةً باسم الله، ويمكن أن يكون روحًا أو الإله نفسه. وفى كل هذه الحالات تظهر أهمية شعور الضحية بالقرب

الفسيولوجى للقوة المتفوقة وبقبضتها المباشرة عليها. وكل ما تقدم عليه الضحية من تحولٍ، يكون بهدف الحد من إحكام القبضة. إن ثراء التحولات، التى تحدث فى أثناء ذلك ومنها الكثير الذى لا تظهر سوى بوادر منه فقط، هو أمرٌ مثير للدهشة. ومن أغلب حالات التحول هذه هو التظاهر بالموت، وهو ما أثبت فعاليته، وهى ظاهرةٌ معروفة عن كثير من الحيوانات. فالمتظاهر بالموت يأمل أن يترك وشأنه، فهو يبقى راقدًا ليمضى العدو إلى حال سبيله. وهذا التحول هو الأكثر مركزيةً من الجميع. فالكائن يصير "مركزًا" إلى حد أنه لا تصدر عنه أية حركةٍ كأنه ميتٌ فيبتعد الآخر عنه. ومن السهولة معرفة مدى الفائدة التى كانت ستعود تحديدًا على تيتس وبروتيوس لو أنهما افتعلا الموت، ولولا أن المرء كان يعرف أنهما إلاهان لما اضطرت تيتس إلى أن تصير عشيقةً ولم يكن بروتيوس ليضطر إلى أن يصبح عرافًا، لكن كلاً منهما كان إلهًا فكانا إذن خالدين، وقد كان بوسعهما أن يتنكرا بشكلٍ جيد إلا أنه لم يكن هناك من سيصدقهما.

فأما الشكل الدائرى لتحول الفرار فهو إذن ذلك الذى يعطى الهستيريا لونها المحدد لماهيتها وهو (الشكل) المفسر لثراء انتقال الأحداث ذات الطبيعة الجنسية إلى تلك ذات الطبيعة الدينية. وهو أمرٌ لافت للغاية فى هذا المرض. وكل نوعٍ من حالات الوقوع فى الأسر يمكن أن يغرى بالفرار. ومن المحتمل دومًا أن تفشل محاولة الفرار فى الحال إذا كان قبضة الأسر محكمةً بقوة. وقد رأينا الصورة المناقضة لتحول الفرار فى نوبات الأطباء السحرة[122]، وهم كذلك يقيمون بموضعٍ ما فى أثناء المشهد كله، محاطين بحلقةٍ من الناس ليشاهدوهم. ومهما جرى داخل خيالهم فإن جسدهم المرئى يبقى هناك حيثما كان. وأحيانًا يقيدون أنفسهم خوفًا أن ينتقل جسدهم مع روحهم. أما دائرية المشهد فإنها تبرز بوضوحٍ سواء من خلال اضطرارهم إلى التشبث بمركزهم الأرضى حيث يتفاعلون، أو من خلال وجود حلقة من الأنصار. أما التحولات فإنها تتابع بسرعةٍ الواحد تلو الآخر وتحصل على كثافة وتراكمٍ كبيرين على ألا يؤدى ذلك إلى الفرار، وهو الفارق الجوهرى عن الإصابة بالهستيريا المألوفة. فمن خلال التحول يستدعى الطبيب الساحر أرواحًا معاونةً لتكون تحت إمرته، فهو نفسه يقبض عليها ويرغمها على معاونته فى أعماله. والكاهن نشط وتحولاته تخدم تنامى سلطته فلا يفر من الآخرين الذين هم أكثر منه قوةً. وفى أثناء الرحلات التى تقوم بها روحه ويبقى جسده هناك فاقدًا الوعى ظاهريًا، فإنه ينفذ إلى عوالم السماء

والعـالم السـفلى فهـو يطـير ويصعـد للعلـو الـذى يبتغيـه وهـو يـضرب كالطائـر بجناحيـه، وهـو يغـوص وينفـذ إلى العمـق الـذى يشـاء حتـى قـاع البحـر، ويُرغـم نفسـه عـلى الدخـول إلى بيـت إلهـة حامـلاً مطلبًـا مهـمًا، ودائمًـا مـا يعـود إلى المركـز حيـث ينتظـر أنصـاره بشـارته جَزِعـين. ومـن الـوارد أيضًـا أن يفشـل بموضـعٍ مـا فى الفـرار، أو يُرغَـم عـلى الإفـلات مـن خـلال تحـول مـا. وفى الغالـب مـا يكـون اتجـاه فعلـه خطـوةً واثقـة واسـعة. أمـا صلتـه بحالتـى بورتيـوس وتيتـس فهـى تتأسـس فقـط عـلى الطبيعـة الدائريـة لتحولاتـه المتراكمـة. ويجـدر بنـا أن نعـود مـن هنـا إلى الشـكل المسـتقيم كـما تعرفنـا عليـه فى الروايـة الجورجيـة عـن المعلـم وتلميـذه الـذى أفلـت منـه فى هيئـة فـأرٍ، وفيـما بعـد صـار المعلـم شـبكة صيـدٍ وصـار صقـرًا ومديـة ودجاجـة مـع صغارهـا، وكان كل نـوعٍ مـن تحولاتـه يخـدم نوعًـا جديـدًا مـن القنـص. ومـن منظـور المعلـم دار الأمـر حـول سلسـلةٍ سريعـة مـن تحـولاتٍ عدائيـة لم تكـن تغيـيرًا للنـوع فحسـب وإنمـا لتوسـيع مجـال القنـص، فالسرعـة الخاطفـة والانتشـار عـلى مـدى واسـع للأحـداث المرتبطـة بالنيـة الخطـرة التـى نشـأت عنهـا لهـى عـلى صلـةٍ واضحـة بأحـداث مـرض نفـسى آخـر هـو الهـوس[123]. فتحـولات المصـاب بالهـوس تتمتـع بمرونـةٍ هائلـة، فهـى تملـك اسـتقامة وخفـة حركـة الصيـاد والسرعـة الخاطفـة لتغـير أهدافـه فى حالـة عـدم تحقيقهـا، لكنـه لا يتوقـف عـن الملاحقـة. والهـوس يمتلـك كبريـاء الصيـاد وعزيمتـه القويـة مـا دام يسـعى خلـف هدفـه. فالتلميـذ فى الأسـطورة يماثـل الفريسـة المتغـيرة التـى بوسـعها أن تكـون كل شيء والتـى تظـل هـى نفسـها دائمًـا، أى تظـل فى جوهرهـا مجـرد فريسـة. فالهـوس هـو ذروة صنـع الفريسـة. ومـا يهـم الهـوس هـو الرؤيـة والاقتنـاص والانقضـاض، أمـا الالتهـام فـلا يمثـل لـه أهميـةً كبـيرة. فقنـص المعلـم لم يكتسـب ماهيتـه الكاملـة إلا بعـد فـرار التلميـذ مـن الإسـطبل المعتـم، وهـو مـا قـد ينتهـى وتنتهـى معـه حالـة الهـوس عندمـا يضعـه المعلـم ثانيـةً تحـت سـيطرته. ففـى البدايـة يفكـر الأسـير فى تحريـر نفسـه ولكنـه لم يصـل لـشيء، وبمـرور الوقـت صـار حزنـه أعظـم. وهنـا نعايـش بـدء الحالـة المناقضـة للهـوس، أى الملانخوليـا، وقـد يكـون مـن المناسـب بعـد تناولنـا للهـوس أن نذكـر شـيئًا عـن الملانخوليـا، فهـى حالـةٌ تبـدأ بعـد انتهـاء تحـولات الهـرب ليشـعر المـرء بعـدم جـدوى أى منهـا. ففـى حالـة الملانخوليـا يكـون المـرء قـد عوجـل وتـم الانقضـاض عليـه بالفعـل فلـم يعـد بوسـعه الفـرار ولم يعـد يتحـول، فـكأن كل محاولاتـه بـلا جـدوى فيستسـلم لمصـيره وينظـر إلى نفسـه كفريسـةٍ، فيصبـح فى حالـةٍ متردية: فريسـة، طعـام ردىء، جيفـة، روث. إن

عمليات خفض القيمة، التى تجعل من الشخص نفسه دائمًا أقل قيمةً، تتبدى فى شكلٍ مجازى كالشعور بالذنب، والذنب يعنى أصلاً أن المرء كان تحت سيطرة آخر، فسواء شعر المرء أنه مذنبٌ أو فريسة فإن ذلك يؤدى فى حقيقة الأمر إلى النتيجة نفسها. فالمصاب بالملانخوليا يرفض الطعام وقد يسوق سبب اقتناعه عن ذلك بأنه لا يستحق ذلك. وفى حقيقة الأمر أنه يرفض الأكل لأنه يرى أنه هو نفسه قد تم أكله. فإذا ما أرغمه أحدهم على الأكل يكون قد ذكره بأن فمه يتجه نحوه. فيكون ذلك كأنه وُضِع أمام مرآةٍ وهو فى ذلك يرى فمًا، ليرى هناك ما سوف يؤكل، إلا أن هذا الذى سيؤكل فيكون هو نفسه. فالعقاب الرهيب هنا يظهر فجأةً ولا يمكن تفاديه، وهو عقابٌ على أن المرء كان يأكل دائمًا، وفى الواقع إن الأمر يدور هنا حول التحول النهائى الذى يوجد فى نهاية كل محاولات الفرار، فيتحول إلى المأكول، ولتفادى هذا التحول فإن كل ما هو حى يلوذ بالفرار.

التكاثر الذاتى وأكل الذات
الهيئة المزدوجة للطوطم

من بين الأساطير التى سجلها "Streblow" الصغير عن الـ"أراندا" الشماليين بوسط أستراليا[124] هناك قصتان حازتا اهتمامنا على نحوٍ خاص، الأولى هى أسطورة (الحيوان الخارق)[125] وهو الحيوان المعروف باسم الـ"أبوسوم"، وترجمة نصها كالتالى:

فى البداية كان كل شىء راقدًا فى الظلام وكان الليل ينوء على الأرض بثقله الوخيم. كان اسم الجد "كارورا"، وكان يرقد نائمًا بالليل السرمدى أسفل حضيض أرض بركة الـ"بالتنيتا" الصغيرة التى لم يكن بها ماءٌ، فقد كان كل شىء أرضًا جافة. أما الأرض أعلاه فكانت حمراء من أثر الزهور وقد نمت فوقها أنواعٌ عديدة من العشب، وكان يلوح فوقه عمود خشبى كبير. وكان هذا العمود قد انبثق وسط حوض زهور ارجوانية كانت تنمو فى بركة الـ"البالينتيا". وكان رأس كارورا نفسه يرقد أسفلها. من هنا صعد العمود إلى السماء كأنه سيصطدم بقبتها، لقد كان مخلوقًا حيًا مغطى ببشرةٍ ناعمة كبشرة الرجل، وكان رأس كارورا قد رقد عند جذر العمود الكبير. هكذا كان قد رقد منذ البدء. وقد فكر كارورا ودارت برأسه الآمال، وفجأةً خرجت حيوانات الـ"أوبسوم" من سُرته ومن تحت إبطيه،

وخرجـت مـن خـلال القـشرة فوقـه وقفـزت إلى الحيـاة. حينئـذٍ بـدأت السـماء ترعـد، ومـن كل صـوبٍ وحـدب رأى النـاس بـدء ظهـور نـورٍ جديـد، فالشـمس نفسـها بـدأت فى الارتفـاع وغمـرت كل شيء بنورهـا. فـكان أن خطـر ببـال الجـد أن ينهـض بعـد أن صـارت الشـمس أكـثر علـوًا، وخـرج مـن قـشرة الأرض التـى كانـت تغطيـه، فصـار الثقـب الـذى خلَّفـه ورائـه بركـة "البالينتيـا" وقـد امتـلأ بالعصـير الحلـو لبراعـم شـجيرة "صريمـة الجـدى" ذى اللـون الداكـن، فنهـض الجـد وشـعر بالجـوع بعدمـا سـالت القـوة السـحرية خـارج جسـده، إلا أنـه أحـس أنـه فاقـد الوعـى، وشـئيًا فشـيئًا بـدأت رمـوش عينيـه ترتعـش فـكان أن فتحهـا قليـلاً وأخـذ يتحسـس مـا حولـه وهـو فى حالـة المغـشى عليـه. وشـعر حولـه فى كل مـكانٍ بكتلـةٍ مـن الـ"أوبسـوم" تتحـرك، وحينئـذ وقـف عـلى قدميـه عـلى نحـوٍ أكـثر ثباتًـا، وتذكـر أنـه يشـعر بالنهـم، فدفعـه جوعـه العظيـم إلى أن يمسـك باثنـين مـن صغـار الـ"أوبسـوم"، فقـام بطهيهـما قليـلاً عـلى بعـدٍ مـا قريبًـا مـن الموضـع الـذى سـطعت فوقـه الشـمس فـوق الأرض الملتهبـة، بعـد أن رفعـت الشـمس درجـة حرارتهـا، فكانـت أصابـع الشـمس هـى التـى أمدتـه بالنـار والرمـاد السـاخن. ومـا إن شـبع حتـى اتجهـت أفـكاره نحـو رفيـقٍ يسـتطيع مسـاعدته. إلا أن المسـاء صـار يقـترب واختفـى وجـه الشـمس خلـف حجـابٍ مـن فتائـل مـن شـعرٍ وغطـت جسـدها بحجـابٍ مـن فتائـل مـن شـعرٍ وغابـت عـن أعـين البـشر. وكان أن غـرق كارورا فى النـوم وبسـط ذراعيـه عـلى كلا جانبيـه. وفى أثنـاء نومـه بـرز تحـت إبطيـه قـوامٌ مـن الخشـب الرنـان واتخـذ هيئـة إنسـانٍ ونمـا فى أثنـاء الليـل فصـار شـابًا. كان هـذا هـو ابنـه البكـر. فى تلـك الليلـة اسـتيقظ كارورا بعـد أن شـعر أن شـيئًا ثقيـلاً ينـوء فـوق ذراعـه لينظـر ابنـه البكـر بجـواره وقـد أراح رأسـه عـلى كتـف الأب. فأرعـدت السـماء لينهـض كارورا ويطلـق صيحـة نـداءٍ عاليـة مدويـة، ومـن خـلال ذلـك دبـت الحيـاة فى الابـن، فنهـض وأخـذ يرقـص رقصًـا شـعائريًا حـول أبيـه الجالـس هنـاك متحليًـا بـكل الأوسـمة مـن دمٍ وريـش. أمـا الابـن فصـار يهتـز ويترنـح فقـد كان شـبه مسـتيقظٍ، فهـز الأب جذعـه وصـدره هـزةً عنيفـة ثـم وضـع الابـن يديـه عليـه لينتهـى الطقـس الأول. وكان أن أرسـل الأب ابنـه ليقتـل بعـض حيوانـات الـ"أوبسـوم" التـى كانـت تلعـب آمنـةً بالقـرب منـه فى الظـل. وعـاد الابـن بهـا إلى الأب الـذى قـام بطهيهـا فـوق الأرض الملتهبـة كـما فعـل مـن قبـل واقتسـم اللحـم المطهـى مـع ابنـه. ومـا إن حـل المسـاء حتـى نـام كلاهـما. وكان أن وُلِـد لـلأب فى هـذه الليلـة ابنـان مـن تحـت إبطيـه، فبـث هـذا فيهـما الحيـاة فى اليـوم التـالى مـن خـلال صـوت النـداء المـدوى مثلـما فعـل مـن

قبل. ثم تكرر هذا الحدث لأيامٍ وليالٍ، وكان الأبناء يحضرون ما قاموا باقتناصه، وكان الأب ينجب عددًا مطردًا من الأبناء بلغ عددهم الخمسين في بعض الليالي. لكن النهاية لم تنتظر طويلاً فسرعان ما كان الأب والابناء قد التهموا كل حيوانات الـ"أوبسوم" تلك التي خرجت في الأصل من جسد كارورا. وبدافع الجوع أرسل الأب أبنائه إلى حملة صيدٍ لثلاثة أيامٍ، فاخترقوا السهل الكبير وظلوا لساعاتٍ طويلة يبحثون في العشب العالي الأبيض بالغابة شبه المعتمة والتي بدت بلا نهاية. لكن الدغل الشاسع لم يكن يحتوى على أية أوبسوم فصار عليهم العودة. وكان هذا هو اليوم الثالث حينما شق الأبناء طريقهم للعودة خلال السكون المخيم وهم جائعون متعبون. وفجأة تنامى إلى أسماعهم صوت قرقعة الخشب الرنان فأصاخوا السمع وبدأوا البحث عن الرجل الذى بدا أنه يترنح، وصاروا يبحثون ويبحثون ويبحثون وغرزوا بعيدانهم في كل أعشاش الـ"أوبسوم" وأماكن راحتها. فجأة قفز شيء داكن اللون ذو شعرٍ كثيف وولى مبتعدًا ليرتفع هتاف: "هنا يركض والابى" من كثبان الرمل، فأطلقوا عيدانهم في هذا الاتجاه فكسروا أحد ساقيه. ثم سمعوا كلمات أغنيةٍ صادرةً عن الحيوان الجريح: "أنا تينتراما قد صرتُ الآن مشلولاً، أجل مشلولاً، والتصق بي زهر الأرجوان على نحوٍ دائم. إننى رجلٌ مثلكم ولست أوبسوم". وبهذه الكلمات هرب تينتراما المشلول وهو يعرج. وكان أن واصل الإخوة المتعجبون طريقهم إلى أبيهم وسرعان ما رأوه يدنو، ليعود بهم إلى البركة ليجلسوا على حافتها في حلقاتٍ، حلقةً حول الأخرى مثل أمواج الماء التى أخذت في الحركة. ثم جاء الطوفان الكبير من العصير الحلو لشجيرة "صريمة الجدى" من الشرق وأغرقهم وحملهم إلى بركة الـ"بالينتينا". وكان أن بقى كارورا العجوز هناك. أما الأبناء فقد حملهم الطوفان إلى باطن الأرض، إلى مكانٍ في الدغل. وهناك التقوا تينتراما الكبير الذى كانوا كسروا ساقه بعيدانهم عن غير علمٍ، وقد صار زعيمًا كبيرًا. إلا أن كارورا كان قد استعرض في نومه الأبدى أسفل بركة الـ"بالينتيا".

أما القصة الثانية فهى أسطورة "لوكارا"[126]:

في لوكارا ذات الشهرة الواسعة، وعلى حافة ثقب الماء الكبير كان هناك رجلٌ عجوز يرقد في نومٍ عميق أسفل شجيرة تتغذى عليها اليرقات. وكان قد مضى عليه زمنٌ كالأبد. كان قد رقد هناك في سكينةٍ كأنه راعٍ في حالة تشبه النوم الدائم.

فى البداية لم يكن يحرك ساكنًا ولم يؤت حركةً ما. وكان متوسدًا ذراعه الأيمن وقد مضى عليه زمنٌ كالأبد فى نومه المتصل. وفى أثناء ما كان يغط فى نعاسه الأبدى كانت اليرقات البيضاء تدب فوقه. وقد كانت دائمًا على جسده. ولكن الرجل العجوز لم يتحرك ولم يستيقظ كذلك، فكان غارقًا فى حلمه العميق. أما اليرقات فكانت تتحرك فوق جسده مثل سرب النمل. وكان العجوز يزيح بعضها من حينٍ لآخر من فوق جسده من دون أن يصحو من نومه، إلا أنها كانت تعود لتمضى فوق جسده وقد حفرت لنفسها فى جسده رغم أنه لم يستيقظ ليمضى زمن أبدى. ثم حدث ذات ليلةٍ، بينما كان الرجل قد نام راقدًا فوق ذراعه اليمنى، أن سقط من تحت إبطه الأيمن شىء اتخذ هيئة تشبه "اليرقة آكلة الخشب" وسقطت على الأرض وقد أخذت هيئةً إنسانية نمت بسرعة، وعندما حل الصباح فتح الرجل العجوز عينيه ناظرًا بدهشة تامة إلى ابنه البكر".

وتواصل الأسطورة رواية كيف أن جماعةً كبيرة من الرجال قد وُلِدوا على المنوال نفسه. إلا أن أباهم لم يحرك ساكنًا، ولم تكن هناك إشارةٌ تدل على حياته إلا تلك التى أعطاها بأن فتح عينيه، حتى إنه رفض أى غذاءٍ قدمه أبناؤه له. إلا أن الأبناء قد أبدوا حماسًا بأن يخرجوا "اليرقات آكلة الخشب" من جذور شجيرة كانت على مقربةٍ منهم. فصاروا يشوونها ويأكلونها. وأحيانًا كانوا يشعرون بالرغبة فى أن يعودوا ليكونوا يرقات. ثم ألقوا بتعويذةٍ سحرية وتحولوا إلى يرقاتٍ ومضوا ثانيةً إلى داخل جذور الشجيرة. ومن هناك عادوا مرةً أخرى إلى السطح ليتخذوا ثانيةً هيئتهم الإنسانية.

"والآن جاء غريبٌ، كان رجلاً مثلهم، لكن من مبورنيجكا البعيدة. ورأى اليرقات السمينة الخاصة بالإخوة لوكارا. فكان أن اشتهاها فقدم لهم يرقاتٍ خاصة به كانت طويلةً وهزيلةً وبائسة، ليبادلها معهم إلا أن الإخوة لوكارا نحّوا حزمته الحقيرة بعصيهم جانبًا ولم ينبسوا بكلمةٍ، ما أثار غضب الغريب، فجرؤ أن يمسك بصرّة الإخوة لوكارا وفر هاربًا قبل أن يتمكنوا من منعه عن ذلك. وعادوا جزعين إلى أبيهم الذى كان صبره قد نفد قبل مجيئهم. فعندما قام اللص باختطاف اليرقات شعر هو بألمٍ حاد بجسده، فنهض ببطءٍ ومضى بخطى متربصة متعقبًا اللص. إلا أنه لم يحصل على الصرة، فكان اللص قد مضى بها

إلى مبورينحكا البعيدة، فتهاوى الأب وتحول جسده إلى تيورونجا (شاهد حجرى مقدس) كما صار كل الأبناء أحجار تيورونجا".

تدور الروايتان حول جَدين مختلفين تمامًا، أحدهما هو والد الحيوان الخارق أو الأوبسوم والآخر هو أبٌ لليرقات وحتى يوم تدوين هاتين الأسطورتين كان هذان الطوطمان موجودين ويقام لهما احتفالٌ شعائرى خاص بهما. وهنا أود التأكيد على بعض الملامح الملفتة المشتركة بين الأسطورتين. فقد كان كارورا والد الـ"أوبسوم" وحيدًا لزمنٍ طويل. وكان ينام فى عتمةٍ أبدية راقدًا تحت قشرة أرض بركة. ولم يكن يتمالك نفسه ولم يكن يفعل شيئًا. وفجأة نشأت فى جسده مجموعةٌ من حيوانات الـ"أوبسوم" وخرجت من سرته ومن تحت إبطيه وأشرقت الشمس فأخرجه نورها من تحت القشرة. وكان جائعًا لكنه كان يشعر أنه خائر القوة فصار يتحسس حوله فى هذه الحالة المغيبة. فكان أول ما شعر به هو كتلة حية من الـ"أوبسوم" وقد أحاطت به من كل جانب. وفى الأسطورة الأخرى كان والد اليرقات، الذى لم يُذكَر اسمه، راقدًا أسفل شجيرة مستغرقًا فى نومٍ أبدى، فصارت يرقاتٌ بيضاء تدب فوق جسده وصارت فى كل مكان مثل سرب النمل، ومن حينٍ لآخر كان يزيح بعضها برفقٍ إلا أنها كانت تعود لتدب فوقه وتحفر لنفسها فى جسده، ليواصل هو نومه فى الكوم المكتظ. وقد بدأت الأسطورتان بالنوم وفى كلتيهما بدت العلاقة الأولى بالمخلوقات الأخرى كشعور بالكتلة. إنه هو شعور الكتلة الأكثر كثافةً ومباشرة، أى الإحساس بالجلد نفسه، فقد شعر أحدهما بالفئران حينما تحسس ما حوله أول مرةٍ فى حالة تشبه الاستيقاظ. أما الآخر فقد أحس باليرقات على جلده وهو ما زال نائمًا فأزاحها عنه من دون أن يتخلص منها، وقد عادت وحفرت لنفسها فى جلده. إن هذا الشعور بأن جسد المرء يغطيه أسرابٌ هائلة من حشراتٍ صغيرة، وهو ما يشعر به المرء على جسده كله، فهو شعورٌ طبيعى معروف على نحوٍ عام. إنه شعورٌ غير محبب وهو يظهر فى حالات الهلوسة، على سبيل المثال. فإن لم تكن هذه حشراتٍ فإنها تكون فئرانًا أو ابن عرس. إن القشعريرة على البشرة أو القرض فيها أمرٌ يعود إلى نشاط الحشرات أو حيواناتٍ قارضة صغيرة وسوف نتحدث عن ذلك بإسهاب فى الفصل التالى. أما تعبير "شعور كتلة الجلد" فسوف نتناوله هناك ونفسره. لكن الفارق المهم بين هذه الأحوال وتلك يظل ملحوظًا. وفى أساطير "أراندا" يبدو هذا الشعور لطيفًا، فما يشعر به الجد يكون شيئًا نشأ عنه هو نفسه

وليس شيئًا معاديًا مهاجمًا من الخارج. ففى الأسطورة الأولى يُروى كيف جاءت حيوانات الـ"أوبسوم" من سرة أو من تحت إبطى الجد. فهو نفسه الذى كان احتواها فى جسده، فكان هذا الأب كائنًا أعلى فريدًا. وهو ما يمكن أن نطلق عليه: أم الكتلة. فأعدادٌ بلا حصر تنبثق مباشرة من جسده من مواضع غير مواضع الولادة المألوفة. فهو يبدو لنا كملكة النمل الأبيض ولكنها مثل تلك التى تخرج بيضها من أجزاء مختلفة تمامًا من جسدها. وفى الأسطورة الثانية يُروى أن يرقاتٍ كانت دائمًا موجودةً هناك، إلا أنه لا يُذكر إلا عرضًا أنها خرجت من جسد الجد، فهى فوقه أو تحفر لنفسها فيه. لكن فى الفصل الثانى من الأسطورة تظهر ملامح تجعلنا نظن أن اليرقات نشأت فى الأصل منه. بل إنه لا يتكون إلا منها. فالميلاد المذكور هنا ليس غريبًا فقط لوجود والد للوالدين، أو لأن الأمر يرتبط بكتلٍ كثيرة، لكن لأن هذه تتطور ليُولَد شىء آخر مختلف تمامًا. فبعد أن شبع كارورا، والد الـ"أوبسوم"، يحل الليل ليواصل هو نعاسه ومن تحت إبطيه يخرج خشبٌ رنان متخذًا هيئة إنسان لينمو فى ليلةٍ واحدة ويصير صبيًا، ويشعر كارورا بشىءٍ ثقيل فوق ذراعه فيصحو وقد رقد بجواره ابنه البكر. وفى الليلة التالية يُولَد له ابنان آخران من تحت إبطيه. واستمرت الحال على هذا المنوال ليالٍ كثيرة. وفى كل مرة يزداد عدد هؤلاء. فذات ليلةٍ أنجب الأب خمسين ابنًا. وهذا الحدث كله نستطيع - فى أضيق حدود الكلمة- أن نطلق عليه تناسل كارورا الذاتى. كما يحدث شىء مماثل فى الأسطورة الثانية. فكان الرجل العجوز لا يزال نائمًا متوسدًا ذراعه اليمنى، وذات ليلةٍ يسقط فجأةً شىء من تحت إبطه الأيمن كان له هيئة اليرقات، وقد سقط على الأرض واتخذ هيئةً إنسانية ونما بسرعةٍ، وعندما حل الصباح فتح الرجل العجوز عينيه ليدهش لرؤية ابنه البكر. وتكرر الحدث نفسه ليُولَد كذلك عددٌ كبير من رجال اليرقات. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الرجال يتحولون حسب هواهم إلى نوعٍ بعينه من اليرقات، ثم يستطيعون العودة إلى هيئتهم البشرية مرةً أخرى.

هكذا يدور الأمر إذن فى كلتا الأسطورتين حول التناسل الذاتى. وفى كلتيهما يرتبط الأمر بمولدٍ مزدوج فينشأ نوعان مختلفان من المخلوقات من جدٍ واحد، فوالد الـ"أوبسوم" ينجب فى البداية عددًا كبيرًا من الـ"أوبسوم"، ثم عددًا كبيراً من البشر، وهم ينشأون بطريقةٍ واحدة، ويكون عليهم أن يعتبروا بعضهم البعض أقرب الأقرباء، لأنهم من أبٍ واحد، وهم يطلقون على أنفسهم الاسم نفسه:

الخـوارق، وهـو يعنـى - مثـل اسـم الطوطـم - أن كل إنسـانٍ ينتمـى لهـؤلاء هـو أخٌ أصغـر لحيوانـات الـ"أوبسـوم" التـى وُلِـدت أولاً. والأمـر نفسـه يـسرى بدقـة عـلى جـد اليرقـات الـذى يعتـبر عـلى كل حـالٍ والـد هـذه اليرقـات وكذلـك أبًـا للبـشر. والبـشر هـم الأخـوة الأصغـر لليرقـات. وكلهـم مجتمعـون، هـم التجسـيد المـرئى للخصوبـة. إن "شـترلو" الـذى يجـب أن نمـتن لـه كثـيراً عـلى تدوينـه هـذه الأسـاطير كان قـد عـثر عـلى تعبـيرٍ موفـق. فقـال إن "الجـد"، يمثـل مجمـوع الـروح الحيـة[127] ليرقـات آكلـة الخشـب، الحيـوانى منهـا والإنسـانى عـلى حـدٍّ سـواء، باعتبارهـا كيانًـا واحـدًا. وإن جـاز التعبـير، فـإن كل خليـةٍ فى جسـد الجـد الأول تكـون حيوانًـا حيًـا أو كائنًـا إنسـانيًا حيًـا. فـإذا كان جـد اليرقـات رجـلاً، كانـت كل خليـةٍ فى جسـده يمكـن أن تصـير يرقـةً حيـة قائمـة بذاتهـا أو إنسـانًا حيًـا قائمـا بذاتـه منتميًـا لطوطـم اليرقـات.

إن عنـصر الطوطـم المـزدوج هـذا يتبـدى واضحًـا عـلى نحـوٍ خـاص، حتـى إن الابنـاء البشريـين يشـعرون أحيانًـا بالرغبـة فى العـودة مـرةً أخـرى إلى يرقـاتٍ فيلقـون تعويـذةً سـحرية ويتحولـون إلى يرقـات، ومـن هنـاك يسـتطيعون العـودة للظهـور ثانيةً ليتخـذوا حسـب رغبتهـم هيئـة البـشر. وتبقـى الهيئـات المسـتقلة واضحـةً تمامًـا فهـى أمـا يرقـات أو بـشر. إلا أن كلاً منهـما يسـتطيع أن يتحـول إلى الآخـر. وطبيعـة الطوطـم هـى التـى جعلـت هـذا التحـول المعـين فى إطارهـا المحـدود حتـى لا يوجـد غيرهـا فى النهايـة. فالجـد الـذى أنتجهـم ليـس لـه علاقـةٌ إلا بهذيـن النوعـين مـن المخلوقـات وليـس بغيرهـا، فهـو يمثـل صلـة قرابتهـم الموغلـة فى القـدم مسـتبعدًا كل مـا غيرهـا مـما يمكـن أن يكـون موجـودًا فى الدنيـا. ويشـعر أبنـاؤه برغبتهـم فى اتخـاذ هـذه الهيئـة تـارةً أو تلـك الهيئـة تـارةً أخـرى. ومـن خـلال تعويـذةٍ سـحرية يكـون بوسـعهم تلبيـة هـذه الرغبـة، ويمارسـون هـذا التحـول الـذى ولـدوا بـه. وليـس بوسـعنا التأكيـد عـلى أهميـة معنـى هـذه الهيئـة المزدوجـة للطوطـم بمـا يكفـى. أمـا التحـول نفسـه، أى هـذا التحـول بعينـه تحديـدًا فقـد ترسـخ فى هيئـة الطوطـم ليُـورَّث إلى الجيـل التـالى، ويُقـدَّم الطوطـم فى إطـارٍ درامـى فى أثنـاء أداء الشـعائر المهمـة التـى تخـدم تكاثـر الطوطـم. وهـذا يعنـى أيضًـا دوام تمثيـل التحـول، الـذى هـو يجسـد الطوطـم. أمـا رغبـة اليرقـات فى التحـول إلى بـشرٍ ورغبـة البـشر فى التحـول إلى يرقـاتٍ فهـى رغبـةٌ ورَّثهـا الأجـداد لأبنـاء عائلـة الطوطـم الذيـن يعتـبرون أن مهمتهـم المقدسـة قـد أذعنـت لهـذه الرغبـة فى طقوسـهم الدراميـة. ونجـاح طقـس التكاثـر يتطلـب الالتـزام بعـرض هـذا التحـول المحـدد بصـورةٍ صحيحـة وعـلى المنـوال نفسـه دائمًـا. وكل مشـاركٍ يعـرف زميلـه أو

مـن يقـوم بتمثيلـه عنـد تقديـم أحـداثٍ مـن حيـاة اليرقـات وهـو يتخـذ أسـماءهم كـما يكـون بوسـعه التحـول إلى واحـدٍ منهـا. ومـا دام اتخـذ أسـماءهم فإنـه سـيمارس التحـول الأقـدم. فهـؤلاء يمثلـون لـه أهميـةً هائلـة فتكاثـر اليرقـات يتوقـف عـلى ذلـك وكذلـك تكاثـره هـو أيضًـا لأنـه لا يمكـن فصـل هـذا عـن ذاك. والتمسـك بهـذا التحـول هـو الـذى يحـدد مناحـى حيـاة عائلتـه كافـة. وتنطـوى هـذه الأسـاطير على عنـصرٍ آخر مهـم للغايـة يرتبـط بذلـك، وهـو مـا أسـميه "التهـام الـذات" فنجـد والـد الـ"أوبسـوم" وأبنـاءه يتغـذون عـلى الـ"أوبسـوم"، وأبنـاء جـد اليرقـات يتغـذون عـلى اليرقـات، وهكذا يبـدو الأمـر كأنــه لا يوجـد غـذاءٌ آخـر أو عـلى الأقـل أنـه ليـس هنـاك مـا يجـذب اهتمامهـم غـير ذلـك. وعمليـة تنـاول الغـذاء يحددهـا التحـول مسـبقًا، ومسـار كليهـما واحـدٌ، فهـما ينهـاران تمامًـا. فمـن منظـور الجـد يكـون الأمـر كأنـه يتغـذى عـلى نفسـه. ولنتأمـل هـذه العمليـة عـلى نحـوٍ أكـثر دقـة، فبعـد أن أنجـب كارورا الجد الـ"أوبسـوم" وأشرقـت الشـمس خـرج مـن القـشرة أعـلاه ونهـض، وشـعر بالجـوع ودفعـه الجـوع ليتحسـس مـا حولـه وهـو شـبه غائـبٍ عـن الوعـى، ولقـد كانـت هـذه هـى اللحظـة التـى شـعر فيهـا بكتلـة الـ"أوبسـوم" الحيـة حولـه فى كل مـكانٍ، ليقـف حينئـذٍ عـلى قدميـه عـلى نحـوٍ أكـثر ثباتًـا، فيفكـر أنـه يشـعر بالنهـم ليدفعـه جوعـه العظيـم إلى الإمسـاك باثنـين مـن صغـار الـ"أوبسـوم" ويقـوم بطهيهـما عـلى مسـافةٍ بعيـدةٍ بعـض الـشيء، حيـث تسـطع الشـمس عـلى الأرض التـى رفعـت الشـمس حرارتهـا إلى حـد التوهـج. ثـم بعـد أن شـبع، وليـس قبـل ذلـك، تتجـه أفـكاره نحـو رفيـقٍ يمكـن أن يسـاعده. أمـا حيوانـات الـ"أوبسـوم" التـى شـعر بهـا ككتلـةٍ حولـه فقـد خرجـت منـه، أجـزاء مـن جسـده، لحـمًا مـن لحمـه، فيدفعـه جوعـه إلى أن يشـعر بهـا كغـذاءٍ لـه، فيمسـك باثنـين صغيريـن منهـا، ويقـوم بطهيهـما ليكـون الأمـر كأنـه تغـذى عـلى اثنـين مـن صغـار أبنائـه. فى الليلـة التاليـة ينجـب ابنـه (البـشري) البكـر. وفى الصبـاح ينفحـه الحيـاة مـن خـلال ذاك الهتـاف العـالى المـدوى لينهضـه عـلى قدميـه، ويؤديـان معًـا إحـدى الشـعائر التـى ترسـخ علاقتهـما كأبٍ وابـن. وبعـد ذلـك مبـاشرةً يرسـله الأب ليقتـل مزيـدًا مـن حيوانـات الـ"أوبسـوم"، وهـى ليسـت سـوى أبنائـه الذيـن يلعبـون فى أمـانٍ فى الظـل عـلى مقربـة منـه. ليعيـد الابـن مـا قتلـه إلى الأب ليقـوم هـذا بطهيهـا فى الشـمس كـما فعـل فى اليـوم السـابق ويقتسـم اللحـم مـع ابنـه. ويكـون مـا يأكلـه الابـن حينـذاك هـو لحـم إخوتـه الـذى هـو فى الواقـع لحـم أبيـه. وكان الأب هـو نفسـه الـذى مرنـه عـلى قتلهـا وعلمـه كيفيـة طهيهـا. إنـه الغـذاء الأول للابـن كـما كان أول

غـذاءٍ لـلأب كذلـك. كـما لم يُذكَـر فى الأسـطورة كلهـا أى غـذاءٍ آخـر. وفى الليـل يُـرزق كارورا بولديـن بشريـين جديديـن. وفى الصبـاح يُمْتَحـان الحيـاة ليُرْسَـل الثلاثـة جميعًـا لصيـد الـ"أوبسـوم"، ليعـودوا بالغنيمـة ويقـوم الأب بطهـى اللحـم ويقتسـمه معهـم. ويـزداد عـدد الأبنـاء فيولـد كل ليلـةٍ عـددٌ أكـبر مـن الأبنـاء البـشر وفى ليلـةٍ واحـدة وُلِـد خمسـون دفعـةً واحـدة ليُرسَـلوا جميعًـا إلى الصيـد. إلا أنـه فى أثنـاء ازديـاد عـدد الأبنـاء البشريـين باسـتمرار كان كارورا قـد توقـف عـن إنجـابِ أى "أوبسـوم". وكانـت هـذه قـد نشـأت فجـأةً فى البدايـة وفى النهايـة كان قـد تـم التهامهـا جميعًـا، فقـد أكلهـا جميعًـا الأب وأبنـاؤه معًـا، فصـاروا بعـد ذلـك جوعـى، ليرسـل الأب الأبنـاء إلى حملـة صيـدٍ لثلاثـة أيـامٍ فى مـكانٍ بعيـد، ويثابـر هـؤلاء فى البحـث عـن الـ"أوبسـوم" إلا أنهـم لم يجـدوا أيًـا منهـا. وفى طريـق عودتهـم يصيبـون كائنًـا مـا بجـرحٍ فى سـاقه اعتقـدوا أنـه حيـوانٌ، وفجـأةً يسـمعونه ينشـد: "إنى إنسـانٌ مثلكـم، إنى لسـت أوبسـوم"، ثـم ابتعـد وهـو يعـرج. أمـا الإخـوة الذيـن ازداد عددهـم حينـذاك فيعـودون إلى أبيهـم لتنتهـى مهمـة الصيـد. هكـذا كان لـلأب إذن فى البدايـة غـذاءٌ محـدد لنفسـه ولأبنائـه الذيـن ولـدوا فيـما بعـد، أى الـ"أوبسـوم". وقـد كان ذلـك فصـلاً وحيـدًا لم يتكـرر فى الأسـطورة. ثـم وُلِـد شـيئًا فشـيئًا كل الأبنـاء البشريـين ليلتهمـوا مـع أبيهـم هـذا الغـذاء حتـى لم يتبـق منـه شىء، وهـو لم يعلمهـم شـيئًا آخـر ولم يدلهـم عـلى شىء آخـر، ليتولـد الانطبـاع أنـه شـاء أن يتغـذوا عـلى جسـده هـو، أى تلـك الحيوانـات الخارقـة التـى انبثقـت منـه. وعـلى النحـو الـذى تـم بـه التغـاضى عـن كل شىءٍ عـزل نفسـه وأبنـاءه، وهـو أمـر بـدا كالشـعور بالغـيرة. فلـم يظهـر أى كائـنٍ آخـر فى الأسـطورة، إلا هـذا المخلـوق الـذى جُرِحـت سـاقه، الـذى ظهـر فى النهايـة فقـط، وهـو إنسـانٌ مثلهـم لم يكـن سـوى جـدٍ أكـبر، وهـو مـن اتجهـوا إليـه كذلـك فى نهايـة الأسـطورة.

فى الأسـطورة الأخـرى التـى تـدور حـول والـد اليرقـات كانـت العلاقـة بـين الأبنـاء والغـذاء متماثلـةً إلا أنهـا لم تكـن هـى نفسـها. فالابـن البكـر سـقط كيرقـةٍ مـن تجويـف إبـط الأب، ومـا إن لمـس الأرض حتـى اتخـذ هيئـةً بشريـة ولم يحـرك الأب سـاكنًا فقـد رقـد بـلا حـراكٍ ولم يطلـب شـيئًا مـن الابـن ولم يعلمـه شـيئًا. وقـد وُلِـد كثـيرًا مـن الأبنـاء عـلى المنـوال نفسـه وكان كل مـا فعلـه (الأب) هـو أن فتـح عينيـه ليتأمـل أبنـاءه وقـد امتنـع عـن قبـول أى غـذاءٍ منهـم، إلا أنهـم انشـغلوا بحـماسٍ بالبحـث عـن يرقـاتٍ فى الجـذور بجـوار الدغـل، ثـم قامـوا بشـيِّها ليأكلـوا منهـا. لكـن العجيـب أنهـم كانـوا أحيانًـا يشـعرون بالرغبـة فى التحـول إلى النـوع نفسـه مـن اليرقـات،

وعندما حدث ذلك مضوا هم أنفسهم عائدين إلى الجذور بالأدغال ليعيشوا هناك كيرقات. وسرعان ما صاروا بشرًا لا يأكلون سوى اليرقات وليس أى غذاءٍ آخر. وهنا كان التهام الذات من جانب واحد فقط، أى من جانب من الأبناء، فقد امتنع الرجل العجوز عن أكل اليرقات فقد شعر أبوهم أنهم ليسوا سوى لحمه هو نفسه، إلا أن الأمر، أى أكل الذات، كان أكثر يسرًا للأبناء، فتولد لدينا الانطباع بأن التحول والغذاء يتلازمان على نحوٍ وثيق. فبدا كأن رغبتهم تدفعهم إلى أن يصيروا يرقات ليقبلوا على التهامها، فمضوا ينقبون عنها ويقومون بشيها ويلتهمونها ثم يصيرون هم أنفسهم يرقات. وبعد قليل من الوقت يدبون على السطح ليتخذوا ثانيةً هيئةً بشرية، فإذا ما قاموا الآن بالتهام يرقاتٍ، يكون ذلك كأنهم يلتهمون أنفسهم، وإضافة إلى حالتى التهام الفئران وأبناء اليرقات، تنضم حالةٌ ثالثة تظهر فى أسطورةٍ ثالثة قام "شترلو" بتلخيصها تلخيصًا مقتضبًا للغاية، وهى قصة جدٍ آخر لليرقات وهو من "مبورينجكا"[128] الذى كان يخرج بانتظامٍ لقتل رجال اليرقات الذين هم أبناؤه هو. وقد ذُكِروا -حرفيًا- بأنهم على هيئةٍ إنسانية. وكان يقوم بشيهم ليأكلهم بشهيةٍ، وكان يجد للحمهم مذاقًا طيبًا. وذات يومٍ تحول لحمهم فى أحشائه إلى يرقاتٍ، فصار هؤلاء يأكلون أباهم من الداخل، وهكذا يتم التهامه فى النهاية من قبل أبنائه الذين ذبحهم هو بنفسه. إن هذه حالةٌ من التهام الذات تفضى على هذا النحو إلى تصاعدٍ عجيب، فالمأكول يعود ليأكل، فالأب يأكل أبناءه وهؤلاء الأبناء يأكلونه فى أثناء ما يقوم هو بهضمهم. إنه "أكل لحوم البشر" مزدوجٌ ومتبادل. إلا أن العجيب أن يأتى الرد من الداخل، من أحشاء الأب. وبذلك يكون ممكنًا أن يصبح تحول الأبناء المأكولين ضروريًا فهو يأكلهم كبشر وهم يأكلونه كيرقات أو ديدان. وهذه حالةٌ متطرفة وكاملة خاصة. وقد دخل أكل لحوم البشر مع التحول فى وحدةٍ وثيقة، ويظل الغذاء حيًا حتى النهاية ويسعد بأكل نفسه. إن تحول الأبناء إلى يرقاتٍ فى معدة الأب هو نوعٌ من إعادة الحياة، إلا أن ذلك يخدم اشتهاء لحم الأب. إن التحولات التى تربط الإنسان مع الحيوان التى تأكلها تمثل سلسلة حلقة قوية فمن دون أن يتحول هو إلى حيوانٍ لم يكن ليتعلم أبدًا أكلها. إن كلاً من هذه الأساطير تنطوى على تجربةٍ أساسية، هى: الحصول على نوعٍ محدد من الحيوانات التى تستخدم كغذاء، لتؤكل، وما يتبقى منها يصير إلى حياة جديدة من خلال التحول.

فذكرى كيفية حصول المرء على غذائه، أى تحديدًا من خلال التحول، احتفظ بها "التناول المقدس" فيما بعد. فاللحم الذى نأكله معًا ليس هذا الذى نتصوره، فهو موجودٌ من أجل لحمٍ آخر ويتحول إلى هذا اللحم ليتم التهامه. ومن المهم أن نلاحظ أن التهام الذات الذى نتحدث عنه هنا هو أمرٌ معتاد فى أساطير الأولين وليس فى حياتهم اليومية. أما علاقة أعضاء أسرة الطوطم الحقيقية فهى علاقةٌ مختلفة تمامًا، فأعضاء الأسرة تحديدًا لا يتغذون على طوطمهم، فقد حُرِّم عليهم قتل أو أكل هذا الحيوان، ويكون عليهم اعتباره أخًا أكبر لهم. فقط فى أثناء الشعائر التى تخدم تكاثر الطوطم ويظهر خلالها أفراد العائلة فى هيئة الأجداد فإنه يوزع عليهم على نحوٍ احتفالى القليل جدًا من لحم الطوطم، ويقال لهم إنه لا يجوز لهم تناول سوى القليل من ذلك. وهم يتناولون ذلك كغذاءٍ ثابت لكن إذا وقع بين أيديهم فإنه لا يجوز لهم سفح دمه، فيسلمونه إلى أعضاء أسرةٍ أو جماعةٍ ينتمون إلى طوطمٍ آخر. أما هم فلا يجوز لهم أكله. وفى عصر لاحق على عصر أسطورية الأجداد، اتخذت الـ"أرانـدا" موقفًا، يعتبرونه قائمًا حتى اليوم، فقد استُبدل بـ"أكل الذات" مبدأ آخر وهو "إيثار السلامة"، صار الناس لا يأكلون من حيواناتهم المقربة إلا القليل بقدر ما يأكلونه من بشر: انقضاء مرحلة أكل لحم الطوطم. أما المنتمون لأسرةٍ أخرى فإن المرء يسمح لهم بأكل حيواناته المقربة. على أن يسمح هؤلاء كذلك بأكل أقرب حيواناتهم. وهذا الأمر يتجاوز مسألة السماح، فالمرء يقوم من خلال ذلك بتوفير المدد عندما يحرص على تكاثر حيوانات طوطمه. وهو قد ورث طقوس التكاثر هذه وأؤتمن عليها فصار واجبًا عليه أن يمارسها. أما تلك الحيوانات التى تجاوز قنصها الحد المعقول فكانت تميل إلى الهجرة أو تنقرض.

وإذا ما تأملنا تلك اللحظة فى الأسطورة الأولى عندما اختفت الحيوانات الخارقة من كل مكانٍ، وكان عددٌ لا حصر له من أبناء كارورا يجدّون فى أثرها، وتحمسوا لاصطيادها فى مهمةٍ استغرقت ثلاثة أيامٍ لكنهم لم يعثروا على أى أوبسوم، وفى لحظة الجوع تلك نجد أنه كان ضروريًا إنجاب أوبسوم جدد، إلا أن التهام الذات كان قد تجاوز الحد بعد التهام كل الإخوة الأكبر الأبناء البكر لكارورا. وكان من المهم حينذاك أن ينقلب التهام الذات إلى تكاثرٍ ذاتى مرةً أخرى، وهو ما بدأ به كل شىء.

إن هـذا الانقـلاب تحديـدًا هـو مـا يـراه المـرء فى الطقـوس الحاليـة عـلى أنـه تكاثـر حيوانـات الطوطـم. فهنـاك علاقـة قـربى وثيقـةٌ للمـرء بحيـوان الطوطـم الخـاص بـه حتـى إنـه لا يمكـن بالفعـل الفصـل بـين تكاثـر الحيـوان وتناسـله الشـخصى. وهنـاك جـزءٌ أسـاسى يتكـرر دائمًـا فى الطقـوس، هـو تمثيـل الأجـداد، الذيـن كانـوا كليهـما، أى إنسـانًا مـرةً، ومـرةً أخـرى هـذا الحيـوان المحـدد، فهـم يتحولـون كـما يشـاءون مـن أحدهـم إلى الآخـر ولا يمكـن المـرء تمثيلهـم إلا إذا كان يتقـن هـذا التحـول، فيظهـر الأجـداد كشـخوصٍ مزودجـة كـما ذُكِـر سـابقًا. فالتحـول هـو الجـزء الأسـاسى لهـذا العـرض الـذى مـا دام قُـدِّم عـلى نحـوٍ سـليم فـإن صلـة القرابـة تظـل قائمـةً، فيسـتطيع المـرء إرغـام الحيـوان، الـذى هـو الشـخص نفسـه، عـلى التكاثـر بهـذا الأسـلوب.

الكتلة والتحول فى موسيقى المعادن لفرقة ديليريوم تريمنس

إن إمكانية دراسة الكتلة توفرها لنا هلاوس مدمنى الشراب كما تتبدى فى التصورات الفردية. ومن المؤكد أن الأمر هنا سيدور حول أعراض التسمم المعرض له الجميع. فالسمات العامة المميزة لهذه الأعراض لا يمكن إنكارها، فمهما اختلفت أعراق الناس وطبائعهم فإنهم يشتركون فى أثناء حالات الهلوسة فى ملامح أساسيةٍ ومحددة، تصل فى حالة الهلوسة الارتعاشية إلى أعلى درجات التراكم والكثافة. وتأمل هذه الحالة يكون مثمرًا فى اتجاه من شقين، ففى حالة المهلوس تتداخل أحداث الكتلة و"التحول" على نحوٍ خاصٍ بها، وصعوبة الفصل بينهما فى هذه الحالة تفوق صعوبة أية حالةٍ أخرى. فمن خلال المهلوس نستطيع التعرف على كلٍ من التحول والكتلة بنفس القدر. ويظل المرء، بعد محاولات تفكيرٍ عديدة، على اقتناعه بأنه كان من الأفضل ألا يفصل بينهما على الإطلاق أو بأقل قدرٍ ممكن. ومن أجل إعطاء مفهومٍ عن طبيعة هذه الهلاوس فإنه ينبغى أولاً استعراض وصف "كرابلين" ثم وصف "بلويلر"[129]. فأسلوبهما فى الاستقراء ليس واحدًا، لكن ما يتفق الاثنان عليه يمنح هدفنا قوة استدلالٍ أكبر. فأما كرابلين فيقول: "من بين ألوان خداع الهلاوس تكون الهلاوس البصرية هى

الغالبـة عـادةً. فصـور الخـداع تكـون غالبًـا عـلى جانـبٍ كبـير مـن الوضـوح الحـيّ، ونـادرًا مـا يشـوب فحواهـا الغمـوض وعـدم التحديـد والتشـويش المتعـدد وغـير المريـح. وينظـر إليهـا المـرضى تـارةً عـلى أنهـا حقيقـةٌ وتـارةً عـلى أنهـا مصبـاحٌ سـحرى تُـسرِّى عنهـم أو تفزعهـم. فهـم يـرون فى مـراتٍ عديـدة عـددًا كبـيراً مـن مـواد صغـيرةٍ وكبـيرة وغبـارًا وشرائـط جليـدٍ وقطـع نقـودٍ وكـؤوس عرقـى وزجاجـاتٍ وعيدانًـا. وغالبًـا مـا تُظهِـر الصـور البصريـة حـركاتٍ حيويـة إلى حـدٍّ مـا... وقـد لوحـظ فى ذلـك "الرؤيـة - المزدوجـة". وقـد يتضـح مـن صـور الخـداع هـذه التكـرار الغالـب لرؤيـة حيوانـاتٍ متسـللة تمـرق بسرعـة، وهـى تنفـذ مـا بـين السـاقين وتئـز فى الهـواء، وتغطـى الطعـام، ويزدحـم كل شىء بعناكـب "بأجنحـةٍ ذهبيـة"، وصراصـير وبـق وثعابـين وديـدان بأذنـاب طويلـة وفـئران كبـيرة وكلاب وحيوانـات مفترسـة... ويهاجـم المـرضى جماعـاتٌ كبـيرةٌ مـن البـشر، ومـن الفرسـان المعاديـن، أو رجـال شرطـة متغطرسـين، أو تمـر بهـم قوافـل طويلـةٌ مغامـرة، أو أفـرادٌ مـن مخلوقـاتٍ سـحرية تنـذر بالخطـر، وأجنّـةٍ مشـوهة، ورجـالٍ صغـار وشـياطين ومشـاغبين وأشـباح تـدس وجههـا بـين الأبـواب وتتسـلل بـين قطـع الأثـاث وتصعـد فـوق السـلالم المتنقلـة، أمـا الأكـثر نـدرةً فهـو الفتيـات المزدانـات الضاحـكات، أو الأحـداث الخليعـة، ونـوادر ليـالى الصـوم، والعـروض المسرحيـة...".

ومـن خـلال أحاسـيس غريبـةٍ مختلفـة بالبـشرة تنشـأ لـدى المريـض فكـرة أن هنـاك نمـلاً وسـلاحف وعناكـب تـدب فـوق البـشرة كلهـا، ويشـعر المريـض أنـه قُيِّـدَ بخيـوطٍ دقيقـة، وأن مـاءً يُصَـبّ فوقـه، ويشـعر بالعـض والوخـز... وأنـه يُرمـى بالرصـاص. ويقـوم بجمـع أمـوالٍ يراهـا أحاطـت بـه بكميـاتٍ وفـيرة، ويشـعر بهـا بوضـوح فى يـده إلا أنهـا تتـسرب كالزئبـق. فـما يلمسـه يتـلاشى أو ينكمـش، أو ينمـو عـلى نحـوٍ هائـل، ليتفتـت ثانيـةً أو يتدحـرج بعيـدًا، أو يتـسرب... أمـا عقـد النسـيج الصغـيرة غـير المنتظمـة فتتبـدى كبراغيـث فى فـراش السريـر، كـما تبـدو خـدوش سـطح المائـدة مثـل الإبـر، وتنفتـح فى الجـدران أبـوابٌ سريـة. ويفقـد المريـض السـيطرة عـلى نفسـه، فـلا يقـوم بنشـاطٍ منتظـم، بعـد أن سـيطرت الصـور الخادعـة عليـه سـيطرةً تامـة مطـردة. ونـادرًا مـا يـدع مثـل هـذا يمـر مـن دون أكـتراث، فغالبًـا مـا يدفعـه ذلـك إلى تعليقـاتٍ سـاخنة, وهـو لا يمكـث فى الفـراش فيقتحـم البـاب ليخـرج لأن موعـد إعدامـه قـد حـان والجميـع ينتظرونـه بالفعـل. كـما يجفـل مـن الحيوانـات العجيبـة، مـن الطيـور الـتى تئـز، محـاولاً إبعـاد الديـدان وسـحق الصراصـير حتـى المـوت ويبحـث بأصابـع منفرجـة

عن البراغيث ويجمع الأموال المتناثرة حوله فى كل مكان، محاولاً تمزيق الخيوط التى نُسجت حوله، ويقفز بجهد جهيد إلى موضع آخر.

يقول كرابلين فى إيجاز: "من الجدير بالملاحظة على حالة المصاب بهذيان الشراب هو كثافة الرؤى الخادعة وحركتها الحيوية، وظهورها وتلاشيها وتسربها".

واستعراض بلويلر للهذيان لا يقل إثارةً: "فى المقام الأول تتخذ الهلاوس صبغةً شخصية مميزة تمامًا، وهى تتبدى فى المقام الأول لحاستى البصر واللمس. والرؤى تكون متنوعةً ومتحركةً وغالبًا بلا لون وهى تنزع كلها إلى الحجم الصغير. ولكلٍ من هلاوس اللمس والبصر غالبًا هيئة الأسلاك والخيوط وأشعة الماء وأشياء أخرى تتميز بامتداد الطول. أما الرؤى الأساسية مثل الومضات والظلال فكثيرة. وأما الموسيقى التى يسمعها المريض فتكون ذات إيقاعٍ يغلب عليه الحدة، وهو ما يحدث نادرًا جدًا للمرضى النفسيين الآخرين. وفى أثناء مسار المرض كله يستطيع المصابون بالهذيان إقامة علاقةٍ مع مئاتٍ من المهلوسين، المصابين جميعًا بالبكم...".

"أما الأشياء الصغيرة المتحركة والمتضاعفة فيمثلها فى الواقع عادةً حيواناتٌ صغيرة مثل الفئران والحشرات. ومثل هذه تظهر فى أغلب نوبات هلاوس مدمنى الشراب، لكن عادةً ما تكون رؤى الحيوانات المختلفة أمرًا غير نادر. فالخنازير والخيول والأسود والجمال يمكن أن تظهر مصغرةً أو بحجمها الطبيعى، وأحيانًا ما تظهر حيواناتٌ لا وجود لها مطلقًا، بل تظهر فى مزيج خيالى. وما لفت انتباهى غالبًا كان وصفًا لموكب حيواناتٍ مختلفة على شاشةٍ وهمية مثبتةٍ على الجدار، ومنها حيوانات بحجمها المعتاد، كما سمعت وصفًا لحيواناتٍ مصغرة فى حجم القطط تقريبًا، وهو ما يسرّى عن المرضى تسريةً عظيمة للغاية. كما كان البشر يبدون بأحجامٍ مصغرة جدًا ويمكن أن يظهروا أيضًا فى حجمهم الطبيعى".

"ومن اليسير أن تتداخل هلاوس الحواس المختلفة. فالفئران والحشرات لا يمكن رؤيتها فحسب بل ولمسها أيضًا عندما يمسك بها المريض أو يشعر بها تدب على بشرته. أما المال فيتم جمعه ليودع فى (حقيبة هلاوس). والمريض يرى جنودًا مارين به ويسمع عزف المارش، وهو يرى ويسمع إطلاق النار عليه ويدخل فى عراكٍ عنيف بالأيدى مع مهاجمى الهلوسة، فيسمعهم وهم يتحدثون - ونادرًا - ما يلمسهم".

فـإذا مـا هـدأ المصـاب بالهذيـان خفتـت الهـلاوس شـيئًا فشـيئًا وتضاءلـت. إلا أنهـا غالبًـا مـا تفقـد أولاً قيمتهـا الواقعيـة، فالطيـور لم تعـد حيـةً بـل محنطـة، وتـدور المناظـر عـلى نحـوٍ منفصـل لتكـون فى النهايـة بصريـةً فقـط كأنهـا تعـرض عـلى الحائـط مـن خـلال فانـوس سـحرى، فالسـينما معروفـةٌ لـدى المصابـين بالهذيـان منـذ القـدم. "أمـا عـن وضعهـم الشـخصى، فهـم جميعًـا، كمصـابى هذيـان مجرديـن، يدركـون مـن هـم ومـا هـو الموقـف الـذى هـم مقبلـون عليـه فى الحيـاة، ويعرفـون أسرهـم التـى ينتمـون إليهـا، وأيـن يسـكنون".

إن اسـتعراض هـذه الحـالات هـو ملخـصٌ لحـالاتٍ كثـيرة لمراقبـين فـرادى. أمـا النقطـة الأولى التـى نـود إبرازهـا فهـى الصلـة بـين الهلوسـة الحركيـة والبصريـة، فحكـة وقشـعريرة البـشرة يشـعر بهـما المريـض كأن مصدرهـما هـو كثـيرٌ مـن المخلوقـات الصغـيرة معًـا. والتفسـير النفسى قـد لا يهمنـا هنـا. فجوهـر الأمـر أن الشـخص الثمـل يفكـر فى الحـشرات، كالنمـل عـلى سـبيل المثـال، ويتصـور أن بشرتـه هوجمـت بـآلاف مـن هـذه الحـشرات الصغـيرة التـى تغطـى بشرتـه بجيـوشٍ ضخمـة. ولمـا كان يشـعر بحركتهـا عـلى جسـده فإنـه يميـل إلى افـتراض وجودهـا فى كل مـكان، فحيثـما مـد يـده تكـون هنـاك، فيشـعر بهـا عـلى الأرض عنـد قدميـه، ويكـون الهـواء حولـه كذلـك مليئًـا بهـا، وهـى تبـدو كثـيرةً مـن خـلال لمسـه لهـا وشـعور كتلـة البـشرة هـذه - كـما نـود تسـميتها - ليـس معروفًـا لدينـا مـن خـلال الهذيـان فقـط، فقـد عايـش كل منـا بنفسـه شـعورًا مرتبطًـا بالحـشرات أو بالدغدغـة. وهـو مـا يعتـبر بمثابـة عقوبـة تقليديـة لأنـواعٍ بعينهـا مـن المجرمـين لـدى بعـض الشـعوب الإفريقيـة. فيتـم دفـن البـشر أحيـاءً عرايـا فى تـلٍ مـن النمـل ويتركـون هنـاك حتـى يموتـوا، وكذلـك فى حالـة الهذيـان يمكـن أن يتصاعـد هـذا الشـعور إلى أحاسـيس قويـةٍ، أقـوى مـن مجـرد القشـعريرة. فـإذا مـا تفاقـم أثـر الهجـوم عـلى البـشرة وامتـد إلى مناطـق متفرقـةٍ أكـثر اتسـاعًا ونفـذ إلى مـدى أعمـق فـإن القشـعريرة تتصاعـد لتسـير شـعورًا بالقـرض. ويبـدو الأمـر كأن أسـنانًا صغـيرة قـد نشـبت فى جلـد أحدهـم بعـد أن صـارت الحـشرات حيوانـاتٍ قارضـة. وليـس مـن نافلـة القـول أن يذكـر مدمنـو الـشراب دائمًـا الفـئران والفـئران البريـة. فسرعـة حركتهـا تتوحـد مـع النـوع والنشـاط المعروفـين عـن أسـنانها، ويضـاف خصوبتهـا إلى ذلـك، فالنـاس يعرفـون أعدادهـا الغفـيرة التـى تظهـر بهـا. أمـا أكـثر مـا يصيـب مهلـوس الكوكايـين فهـى هـلاوس الـحركة التـى تتركـز فى البـشرة والتـى يسـعى المريـض للخـلاص منهـا. أمـا خـداع الرؤيـة فيصـير غالبًـا إلى صـور مجهريـة.

فهناك تفاصيل صغيرة بلا حصر يراها المهلوس كأنها حقيقةٌ، كحيواناتٍ صغيرة وثقوب فى الجدار ونقاط صغيرة. وقد جاء فى تقريرٍ عن مدمن للكوكايين أنه رأى "قططًا وفئران وفئرانًا برية كانت تتقافز فى أنحاء الزنزانة وتقرض ساقيه، حتى إنه صار يقفز هنا وهناك صارخًا بأنه يشعر بأسنانها. لقد كان ذلك حالة روحانية فقد جاء خرجت من خلال الجدار بطريقة مغناطيسية". ويمكننا افتراض أن القطط فى مثل هذه الحالات تشعر بأن الفئران أو الفئران البرية قد جذبتها لتستغلها فى الاسراع بحركتها. هكذا يكون شعور البشرة الجماعى هو ما يحتل المقام الأول، الذى يبدو أنه المثير لبعض الهلاوس البصرية. أما النقطة الثانية، التى ربما ترتبط بالنقطة الأولى، فهى الميل إلى الأحجام المصغرة. فالمرء لا يشعر، أو يدرك فقط ما هو صغير بالفعل، كما يسود فقط كل ما هو معروف بأنه صغير. بل إن الكبير يتصاغر كذلك حتى يجد لنفسه مكانًا فى هذا العالم. فالمرء يرى الرجال أقزامًا والحيوانات الضخمة تتخذ حجم القطط، فيصير الكل "كثيرًا" ويصير الكل "صغيرًا". أما المصاب نفسه فيحتفظ بحجمه الطبيعى فهو يعرف، حتى وهو فى خضم الهذيان، من وما هو على وجه الدقة. فهو نفسه بقى كما هو، ولم يتغير على نحوٍ متطرف سوى العالم المحيط به. وأما الحركة الهائلة التى وجد نفسه فيها فجأةً فهى عبارة عن حركةٌ جماعية مكثفة لكائنات صغيرة تبدو الأغلبية العظمى منها حيةً. فعلى كل وجهٍ يزداد نشاط الحياة حوله، لكنها تلامسه كأنه عملاق. وهذا على وجه الدقة هو أثر التقزم، لكن لم يكن هناك سوى استثناء واحد هو "جليفر"، الذى لم يكبر حجمه، قد وضع فى عالمٍ أكثر كثافةً وأكثر امتلاءً، بل أيضًا أكثر مرونة. وهذه العلاقات المتغيرة ليستً على هذا القدر من العجب كما تبدو لأول وهلة. ولنتذكر هذا الكم الكبير من خلايا صغيرة تكون جسد الإنسان. إنها خلايا كثيرةٌ بينها علاقة متصلة ويهاجمها جراثيم ومخلوقاتٌ أخرى صغيرة تستوطنها بكثافة. وهذه الجراثيم حية نشطة دائمًا على طريقتها. ولا يمكننا إغفال شبهة أن هناك شعورًا غامضًا نحو هذه الصلات البدائية بالجسد التى تتجلى فى هلاوس مدمنى الشراب. وهى تنفصل فى أثناء الهذيان عن محيطها إلى حدٍّ بعيد، مستقلةً بذاتها تمامًا، وتمتلئ بأكثر الحوادث المثيرة الخارقة. والمشاعر الجسدية المستقلة معروفة تمامًا عن أمراض أخرى. والتوجه الملحّ للهذيان نحو ماهو واضح وصغير (الذى يمكن أن يصغر إلى

الحجم المجهرى فى رؤى هذيان الكوكايين)، ينطوى على شىءٍ من تفكك الجسد فى خلاياه. أما الطابع السينمائى للهلاوس فيتم إبرازه كما رأينا.

أما هذه العلاقات، فهى علاقات وأحداث خاصة بجسد المدمن التى انتقل إليها عالم الصور المعتاد، الذى يراه مدمنو الشراب هنا، ويغلب بينها كل هذه التى على علاقة بكثافة بنية جسده. إلا أن أمر هنا لا يتعدى الظن. ولكن يقينًا لا بد من التذكير بأنه هناك تحولات فى مراحل معينة لا يمكن تجاهلها، حيث تكون الحياة الكاملة للإنسان "العملاق" والحاملة لكل صفاته وموروثه فى خلاياه هى التى تظهر على نحوٍ جماعى، أى الحيوانات المنوية الصغيرة. ومهما كانت مصداقية هذا التفسير، فالحالة الأساسية للهذيان، هى حالة الفرد الكبير الذى يرى أمامه عددًا لا حصر له من المهاجمين الصغار، هى حالةٌ زادت حدتها عبر تاريخ الإنسانية على نحو عظيم وهى تبدأ بالشعور الخاص نحو الحشرة، كانت ابتلاءً لكل الحيوانات الثديية. وسواء كان ذلك بعوضًا أو قملاً، أو جرادًا أو نملاً، فإن خيال الإنسان كان منشغلاً بها منذ القدم. وخطورتها تكمن فى حقيقة ظهورها فجأةً بأعدادٍ كثيفة. وقد صارت أنواعٌ عديدة منها رموزًا للكتلة. وأغلب الظن أنها كانت هى وحدها التى ساعدت الإنسان فى تكوين تصورٍ عن الكتل الكبيرة. فربما كانت الحشرات هى أول ما عرفه عن عدد الملايين والالآف. أما سلطة الإنسان وتصوره عن نفسه فقد بلغتا حد العملقة عندما رأى الجراثيم. كما ضاعف هذا الاكتشاف من هوة التناقض على نحوٍ لا مثيل له. إلا أن الإنسان آمن بنفسه على نحوٍ أعظم، فرأى نفسه كفرد، منفصلاً عن المخلوقات التى تعيش معه. وأما الجراثيم، التى كان تكاثرها سريعًا، فكانت أقل حجمًا من الحشرات، ولم يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وإن كان تكاثرها على نحو أسرع. وهناك وجد الإنسان نفسه أكبر حجمًا وأكثر عزلةً فى مواجهة كتلةٍ أخرى من مخلوقاتٍ صغيرة سريعة الحركة. وقد كان من الصعب تقدير أهمية تصوره هذا. وكان تشكيل هذا التصور أحد الأساطير المركزية فى تاريخ الفكر الإنسانى. وقد كان هذا هو النموذج الحقيقى لدينامكية السلطة. فكل ما كان يعترض طريقه آثر الإنسان النظر إليه كحشرة. وهكذا نظر إلى كل الحيوانات وتعامل معها، تلك الحيوانات التى كانت غير مفيدة له. لكن صاحب السلطة، الذى رد البشر إلى درجة الحيوانات التى تعلّم كيف يسيطر عليها، لأنه رآها نوعًا أدنى، فإنه نزل بكل ما لا يخضع لسيادته إلى درجة الحشرة، وقام فى النهاية بالقضاء

عليها بالملايين. أما النقطة الثالثة المهمة فى حالة هلاوس مدمنى الشراب فتتعلق بطبيعة تحولاتها. فهى تدور دائمًا خارج المريض عندما يعايشها فى الحقيقة، لأنها لا تحوله هو نفسه. وهو يؤثر رؤيتها عن بعدٍ ما. فإن لم تهدده ولم يتخذ موقف مواجهتها فإنه يستمتع بمرونتها وخفتها. إلا أنها تصل إلى درجة تقضى على ما تبقى من القدرة على التوجه، فعندما يتأرجح كل شىء حوله ولا يستقر فإنه يشعر بالطبع بالتوتر. والمرء يلحظ نوعين من التحول يحملان ماهيةً مختلفة تمامًا. فالكتل تتحول إلى كتل أخرى، فيستطيع النمل أن يصير صراصير، والصراصير أن تتحول إلى قطع نقود، وعند جمع هذه النقود فإنها تتلاشى كقطرات من الزئبق. وسوف نعرف المزيد فيما بعد عن هذا الحدث الذى يصير عنده التعدد إلى تعدد آخر.

إن هذا النوع من التحول هو الذى يؤدى إلى مكونات مخنثة رهيبة، فيجتمع مخلوقٌ مفرد مع آخر مفرد، لينشأ عن ذلك شىءٌ جديد، كأنهما صُوِّرا فوق بعضهما البعض. ففى مواكب الحيوانات العابرة المذكورة سابقًا تظهر أحيانًا كذلك حيوانات ليس لها وجود على الإطلاق، وهى تظهر فى "مزيج رائع": أجنة مشوهة، ومشاغبين، وهو ما يُذكِّر بتجارب أنطونيوس المقدس فى الغابة الخضراء، أو تذكر بالمخلوقات التى غصت بها لوحات هيرونيموس بوش.

ومن أجل الوصول إلى صورةٍ أكثر دقةً، كان من الضرورى معالجة حالةٍ أو حالتين من حالات الهلوسة ذات الصلة. وهنا سوف يرى المرء حقًا من يتحول إلى ماذا، وربما يمكن تخمين كيفية وسبب حدوث ذلك. وسوف يساعد المسار الكامل لمهلوس كذلك فى الحصول على رؤيةٍ أكثر عمقًا عن طبيعة أحداث الكتلة، خاصةً فى الحالة الثانية. أما الحالة الأولى فهى خاصةٌ بصاحب مطعمٍ، وهى حالةٌ عالجها كرابلين[130]. وفيما يلى نقدم ملخصًا مقتضبًا عن فحوى هلوسته التى استمرت ستة أيام تقريبًا:

"فقد شعر الرجل كأن الشيطان يخالطه. فاتجه برأسه فجأة نحو عمودٍ من المرمر، وقد حاول تجنبه إلا أن عمودًا ضخمًا من المرمر اعترض طريقه، وهو ما حدث أيضًا عندما شاء الارتداد للخلف. فكان أن سقط كلا العمودين نحوه. فقام اثنان من الأشخاص بنقله على عربة إلى غرفة الحفظ، ووضعاه على فراش الموتى. وكان قائد الطقوس يرسل نحو فمه أشعةً حارة متوهجة من خلال مقص متوهج

حتى تلاشت قواه شيئًا فشيئًا. وتلبيةً لرجائه حصل على كأس من النبيذ الأحمر، لكن الشيطان نفسه رفض طلبه لكأس ثانية وهو يبتسم بشمات، ثم قال بكل صيغ التحذير للملتفين حوله: وداعًا. واحتضر. وفى الوقت نفسه قام بوضع جثث بناته الثلاث بجواره. وهو يعاقب الآن فى العالم الآخر على ما اقترفه على الأرض. فصار يشعر دائمًا بعطشٍ شديد، وكلما مد يده نحو إبريقٍ أو كوب كانا يختفى من بين يديه. فى اليوم التالى كان يرقد حيًا مرة أخرى على محفة الموتى، فى غرفة الحفظ وكان الأبناء كذلك فى هيئة أرانب بيضاء. ونُظِّم موكب الكاثوليك الذى كان عليه المشاركة فيه. وفى أثناء الغناء الرتيب بالغرفة الجانبية، المعروفة بالتاج، كان عليه أن يطأ نظارات ملقاة على الأرض، وفى كل مرة كان يسمع طلقًا ناريًا. أما المشاركون فى المواكب فكانوا يتناقشون عما إذا كان يشبع ضربًا أو يضرب حتى الموت. وقد كان مضيف غرفة التاج مع الخيار الأول بشرط أن يسكن لديه دائمًا. إلا أنه شاء الخروج لأنه لم يحصل على بيرة. ثم جاء حارسٌ ليحرره، لكن المضيف أطلق عليه النار ليساق إلى السجن. وذات مساءٍ آخر كانت معمودية البروتستانت قد اجتمعت كلها فى حفل بالكنيسة. وفى المركز كان عضوٌ من جمعية الطلاب، وهو من قدم، قبل الصلاة، نوعًا من عروض السيرك مع خمسين من زملائه على خيولٍ صغيرة. وفيما بعد لاحظ المريض أن زوجته انسحبت مع أحد أقاربها إلى كرسى كنسى، وعقب ذلك اختبأ مع أختٍ رحيمة خلف آلة الأرغن ليراقبا هذين وهما يدنسان حرمة القداس. بعد ذلك رأى نفسه محبوسًا بالكنيسة ليقوم الزجَّاج فى النهاية بنشر ثقب فى نافذة الكنيسة، حتى يمكن إدخال البيرة، على الأقل، إلى هناك. فلما شاء ارتداء ملابسه وجد كل الأكمام والعرى قد رُتقِت، كما نزعت جيوبها. وفى الحمام رأى المريض نفسه محاطًا بسبعة أرانب تحوم حوله تحت الماء وكانت تقوم بقرضه ورشه بالماء".

أما المحيط الجديد الواقعى، الذى لم يعرف شيئًا عنه فى أثناء الهذيان والذى اصطدم فيه برأسه، فكان قد صار من المرمر. وفى عالم المهلوس كان يؤثر الوجود بين كثيرين على أنه ضحيتهم المختارة والمهدَدة. وعلى سرير الموتى فى غرفة الحفظ كانت قوة حياته تسلب منه شيئًا فشيئًا. وقد كان ذلك كأنه عملية إعدام ممتدة كان يستغلها لجمع مشاهدين حوله، وأخذ يوجه إليهم نصائح دينية من أجل المحافظة على تماسكهم. وكان متعطشًا لكل الشهوات الفردية فقد عايش فى العالم الأخر عقاب الحرمان من ذلك. أما بناته الثلاث اللائى وضعن بجواره

كجثث فقد وجدهن فى اليوم التالى وقد عادت إليهن الحياة مثله، لكنهن كن قد اتخذن هيئة أرانب بيضاء. وهو ما يعنى براءتهن، ويعنى كذلك وخز ضميره حيالهن وهو وخز شعر به فى قلبه كمدمن للشراب. وقد كان موكب الكاثوليك هو أول أحداث الكتلة. وقد أرغم على المشاركة فيه، ولكن من دون أن يندمج فى الجمع، بل شاهده من خلال غرفة جانبية كانت توجد على أرضها نظارات ذهبية بلا حصر خصصت للعدد الغفير من المشاركين فى الموكب. وكلما وطئ إحداها سمع طلقًا ناريًا، وقد يكون ذلك كطلقات مدافع صغيرة من أجل زيادة بهجة الاحتفال. لكن فى حالة غضبه العنيدة سعد بإحساسه أنه يقتل الكاثوليك رميًا بالرصاص. أما المشاركون فى الموكب، الذين كشفوا أمره، فقد اتخذوا شكلاً من أشكال الاجتماع الذى يناقش مسألة عقابه. وكان هذا بمثابة تواصل حالة فراش الموتى. ولكن هذه المرة كان عدد أكبر من الناس اجتمعوا حوله ليحاكموه. ومن المفترض أنه كان هناك من يضمر شيئًا نحو الكاثوليك. وهو يكاد يحتقر معمودية البروتستانت التى سرعان ما اجتمعت عقب ذلك من أجل احتفالٍ ما، فقد ربط بينها وبين تصورٍ ما عن السيرك. وهنا يطرأ مثالٌ لافت على انتقال الكتلة إلى كتلةٍ أخرى. فقد تحولت المعمودية إلى سيرك. أما الطالب (عضو الجمعية)، الذى مثل العنصر الثقافى، فإنه شارك ما لا يقل عن خمسين من الزملاء. كما اتخذت الخيول، كما هو متوقع، أحجامًا أصغر، ومن الممكن أن يكون المريض سمع بضرب حوافرها. كما تعد مشاهدته لفاحشة زوجته تعبيرًا واضحًا عن نزوع إلى المهلوس للتحول إلى موقف المشاهد.

وقد بدت علاقته بملابسه أمرًا غريبًا، فقد تحولت هى أيضًا، فقد تم رتق الأكمام والعُرى كافة، كما تم نزع الجيوب، فصارت أشكالاً مشوهة، وهكذا تم تعطيل وظائفها. فصور ثياب متحولة فى حالة الهذيان هو أمر ممكن تمامًا، وهى لا تختلف عن تحولات الحيوانات كثيرًا. وفى النهاية فقد كان للسبع أرنبات معًا أسنانٌ كثيرة جيدة وكانت تعمل على إزعاج بشرته.

أما الحالة الثانية التى أود استعراضها فى سياق أكثر رحابةً: فكانت حالةً قام بلويلر بعلاجها[131]. فقد وصف مريضٌ مصاب بالفصام تجاربه فى أثناء إصابته بنوبة هذيان فى ست وثلاثين صفحة. وقد يعترض البعض على أن مثال هذا المصاب ليس نموذجًا لذلك. لكن النقيض من ذلك هو ما يبدو لى، لأننا نتعرف

هنا على كثير من تحولات الكتل فى حالة الهذيان. فمجال الهلاوس أكثر اتساعًا، وقد صارت التحولات أكثر هدوءًا، وصار لكل هذا سمة التعبير الأكثر تكثيفًا، حتى فى المقتطفات الموجزة التالية يمكننا إدراك شيء من هذا القبيل.

"ما كان علىّ مشاهدته حينذاك جعل شعر رأسى يطال الجبال... فقد كان هناك غاباتٌ وأنهار وبحار اتخذت كل أشكال البشر والحيوانات المريعة التى لم تقع عليها عين إنسان حتى الآن، فقد كانت تئز بلا انقطاع، وكانت تتغير إلى ورشات لكل الحرف التى يعمل بها أشكال أرواح مريعة... أما الجدران على كلتا الناحيتين فلم تكن سوى بحر تمخر فيه آلاف السفن الصغيرة، وكان ركابها جميعًا عرايا، رجالاً ونساءً، يمارسون شهواتهم على إيقاع الموسيقى، وبعد إرضاء شهواتهم كان يقوم شخص كل مرة بطعن كل زوج منهم بسيخ طويل فى ظهريهما، حتى إن البحر صار بلون الدم... إلا أنه كانت تأتى دائمًا جماعات جديدة... وكان هناك قطار ركاب غادره كثير من الناس. ومن بين هؤلاء سمعت أصوات أبى وأختى (K.) اللذين جاءا من أجل تحريرى. وقد سمعت حوارهما بوضوح. ثم سمعت أختى مرةً أخرى وهى تهمس لامرأة عجوز، فهتفتُ بها بكل ما أملك من قوة أن تخلصنى. فصاحت بأنها سوف تفعل ذلك. إلا أن المرأة العجوز لم تدع أختى تمضى محذرةً إياها بأنها سوف تسبب بذلك نكبة للبيت كله، أما أنا فلم يحدث لى شيء هنا... فصرت أنتظر موتى باكيًا. وكان أن ساد هدوءٌ قاتل وحاصرتنى جماعاتٌ فى أشكال أرواح... وفى النهاية جاءت إحدى الأرواح وجعلت أمامى ساعتها على بعد مسافة بعينها بحيث أشارت لى بأن الساعة لم تصل إلى الثالثة بعد، فإنه لا يجوز الكلام لأية روح...".

"ثم دارت مساوماتٌ طويلة بين بين أقارب المريض الذين كانوا يبغون افتداءه، بدأت أولاً بمبالغ ضئيلة، ارتفعت قيمتها فيما بعد. وكانت هناك أصواتٌ أخرى تتشاور حول كيفية قتل المريض. ثم أغرى الأقارب بالصعود فوق سلالم متنقلة ليتم إلقاؤهم فى مقابر القلعة حيث سمع صراخهم وأنفاسهم المحشرجة. وجاءت زوجة حارس السجن وأخذت تمزق جسده إربًا، بدءًا من لحمه حتى صدره، ثم قامت بشيها وأكلها. وقامت بنثر الملح على جراحه. وأخذ بعضهم يجذب المريض على صِقالات ضخمة متأرجحة إلى السموات المختلفة حتى وصل إلى السماء الثامنة، مارًا بجوقة كانت تهتف باسمه. وفى نهاية المطاف نُقِل إلى الأرض

ثانيةً من جراء خطأ ما. وكان هناك أناس جالسون يأكلون ويشربون أشياء ذات نكهة طيبة. ولكن عندما كان يقدم أحدهم له كأسًا كانت تتلاشى، فصار يعانى من عطشٍ شديد. عقب ذلك يضطر هو إلى أن يقوم بالعد والحساب بصوتٍ عالٍ لساعاتٍ طويلة. فيقدم إليه أحدهم مشروبًا سماويًا فى زجاجةٍ صغيرة، فإذا ما شاء تلقّيها إذا بها تتحطم ويتسرب محتواها من بين أصابعه كخيوط غِراء. وفى النهاية تنشب بين معذبيه وبين أقاربه معركةٌ حامية لم ير منها شيئًا لكنه سمع وقع الضربات والأنين".

إن الغابات والأنهار والبحار معروفة لدينا كرموز كتل. إلا أنها عندما بدت قادرةً على التحول إلى رموز فإنها لم تنفصل تمامًا عن الكتل التى تمثلها غالبًا. فقد كانت ممتلئةً بأشكالٍ حيوانية وإنسانية مريعة لم تقع عليها عين إنسانٍ قط. أما نشأة مخلوقات جديدة كمزيجٍ من مخلوقات قديمة بعددٍ كبير فكان ناتجًا عن فعل التحول. وهنا لم يندمج مريض الهذيان مرةً أخرى فى التحول مطلقًا، وفى المقابل صار العالم أكثر نشاطًا فى التغير والامتزاج. إلا أن كل هذه المخلوقات الجديدة تبدت له فى الحال على نحوٍ كثيف. ومن الغريب أن الوحدات المألوفة لديه من الغابة والنهر والبحر التى نشأت فيها هذه الحياة على نحو طبيعى أن تتحول إلى "ورشات لكل الحرف". وهكذا يتساوى الإنتاج مع التحول، وهو مفهوم يتقاسمه بعض البدائيين مع هذا المصاب بالهذيان. فالحرف منفصلة تمامًا مثل المخلوقات المختلفة، لكن الذى ينتجونه يفضى أولاً إلى الوفرة، ليتولد الشعور بأنها موجودة بهدف تحقيق أشياء على نحو سريع. فالأمر يدور حول أفعال (قضايا) العمل كأمر مجرد وحول نتائجها، وهذه يتم تنفيذها من خلال تلك الأشكال المعقدة للأرواح. ثم تأتى الجدران ثانية كبحر وحيد، مُلئ هذه المرة بآلاف السفن الصغيرة بدلاً من الأشكال الحيوانية والإنسانية، وبها رجال ونساء عرايا، أى أنهم متساوون حتى فيما يفرق بين نوعهم الجنسى من خلال عريهم، وهم متساوون كذلك فى تبعيتهم لإيقاع الموسيقى. أما التكثيف الذى يدور الأمر حوله فهو تكثيف الزوج والتزاوج، فكزوجين يتم قتلهما طعنًا وقد سالت دماؤهما إلى البحر وصبغته باللون الأحمر. لكن كان تأتى مجموعات جديدة من الأزواج.

أما "قطار الركاب" الذى غادره كثيرون، فهو يحتاج إلى تفسيرٍ أكثر وضوحًا. ففى القطار يتصور المرء أناسًا كثيرين معًا على سفرٍ لمسافةٍ طويلة فى اتجاهٍ ما، ورغم فصل جدران الدواوين بينهم، فإنهم فى ظروفٍ مغايرة لا يُمنَعون عن التجمع مثلما يحدث فيما بعد فى المحطات. فهناك، حيثما وصلوا، يكونون قد بلغوا هدفهم الذى كان يجمع بينهم وإن كانوا قد جاءوا من مواضع مختلفةٍ تمامًا. وقبل لحظات من وصولهم، عندما شعروا باقتراب المحطة النهائية، فإنهم ينهضون، ويتزاحمون على الممر ويقفون حيال النوافذ. وهنا نلاحظ انفعالهم الجماعى البسيط، فهم يذهبون معًا، على نحوٍ ما خلال الهدف. فالحركة التى أقدموا عليها، عندما يغادرون، ليقطعوا آخر مراحل رحلتهم إلى المحطة المحايدة، تتجلى فى هدوء هذه الكتلة، أى جزء من مارش جماعى على رصيف المحطة. أما تأثر المنتظر على المحطة فيختلف عن تأثر المسافر، فالمنتظر رأى أناسًا كثيرين، لا يعرفهم، يتزاحمون على النوافذ والأبواب. فهو يحاول العثور على واحد أو اثنين من ذويه من بين هذه الوجوه الغريبة، أى هؤلاء الذين كان هو بانتظارهم. فالقطار الذى يغادره كثيرون يناسب تمامًا استقراء حالات الهذيان التى نعالجها هنا. ويضاف إلى ذلك أن تصور المرء لهذا الحدث يكون فى محطة كبيرة تجتمع فيها مسارات كثيرة.

أما كلمة "الموت" فتفضى فيما بعد إلى "هدوء قاتل". لكن بينما نفهم نحن من هذا المعنى هدوءًا عميقًا، فإن المريض يتصور الموتى وقد تخلصوا من الكلمة ليحيطوا به فى جماعاتٍ على هيئة أرواح. وفى طريقه إلى السموات، التى يُرفع إليها، يمر بجوقة تنفخ فى أبواق وتلهج بذكر اسمه. وليس هناك أفضل من ذلك لوصف جوهر المجد. فمن يسع إلى المجد لا يطلب أكثر من هذا: جوقة من مخلوقات، والأفضل أن تكون من بشر، لا تفعل أى شىء سوى ترديد اسمه. وحتى هذا النوع من الكتل تتمتع بشىءٍ من الرضا. فما إن تتكون الجوقة، مهما كان موضعها، ومهما كان مسلكها، فإنها لا تقترب لأحدنا إلى أقصى حد إلا عند ذكر الاسم. وخلال التقرير كله يستمر نزاعٌ بين مجموعتين معاديتين. فعلى ناحيةٍ كان أقاربه الذين يحررونه ويفتدونه، وعلى الناحية الأخرى كان أعداؤه الذين شاءوا قتله. فهو مادة النزاع أو بالأحرى هو "جسده ". وخلال مفاوضاتٍ طويلة، بدأ الأمر بمبالغ صغيرةٍ لتقفز إلى مبالغ أعلى، فقد صارت قيمته تزداد فى أعين أقاربه. وقد تم استدراج حزبه إلى مقبرة القلعة حيث سمعهم يصرخون وتتقطع

أنفاسـهم. وقـد عالجنـا كـوم المـوتى والمحتضريـن بإسـهاب فى الفصـل الخـاص بمسـألة الحـرب. وقـد تـم تعذيـب المريـض، كأسـير، ثـم التهامـه عـلى طريقـة آكلى لحـوم البـشر. وقـد أدى التناقـض بـين أعدائـه وأقاربـه إلى معركـةٍ حاميـة، وقـد سـمعهم، كـما سـمع أنـين الأقـارب مـرةً أخـرى.

يحتـوى هـذا الهذيـان إذن - إضافـةً إلى كل شىء آخـر - عـلى الكتلـة المزدوجـة وفرزهـا فى أثنـاء الحـرب. والمراحـل الواضحـة فى التطـور إلى حـد الحـرب تذكِّـر تفصيـلاً بالأحـداث المماثلـة لمعـارك البدائيـين. ومـا نـود الإشـارة إليـه هنـا هـو توافـر كل ظواهر الكتلـة تقريبًـا. وهـى لا تتوافـر غالبًـا معًـا بمثـل هـذا التركيـز والوضـوح.

المحاكاة والتظاهر

غالبًا ما يتم استخدام مفهوم "المحاكاة" و"التحول" على نحوٍ عشوائى من دون فصلٍ واضح بين هذين الحدثين. إلا أنه من الحكمة أن نفصل بينهما، فهما لا يعنيان الشىء نفسه على الإطلاق. فالفصل الحذر بينهما يمكن أن يساهم بقدرٍ ما فى إلقاء الضوء على حدث التحول الحقيقى. فالمحاكاة شىءٌ ظاهرى، وهى تشترط أن نرى هذا الذى يقوم المرء بنسخ حركاته. فإذا ارتبط الأمر بالصوت فإن المحاكاة لا تعنى سوى إعادة إنتاج الصوت نفسه بدقة. ولا يكون هناك أثرٌ للصيغة الداخلية لدى من يقوم بالمحاكاة، فالقرود والببغاوات تقوم بالتقليد، فمن المفترض أنها لا تتغير على أى نحوٍ فى أثناء هذا الحدث، ويمكن القول إنها لا تدرى بما تقوم هى بتقليده. فهى لم تعايشه من الداخل. وهى تستطيع أن تقفز من شىء لآخر من دون أن يكون لتبعة ما حدث أدنى أهمية بالنسبة لها. والافتقار إلى العمق أمرٌ ييسر المحاكاة، فمن المعتاد أن ترتبط المحاكاة بملمحٍ وحيد فقط، فلما كان ملمحٌ واحدٌ هو اللافت للانتباه، حسب طبائع الأمور، فإن المحاكاة غالبًا ما تخدعنا بقدرتها على التشخيص، التى هى فى الواقع غير موجودة. فيمكن التعرف على شخصٍ ما من خلال صياغاتٍ يستخدمها غالبًا، أما الببغاء الذى يقلد الشخص فإنه يُذكِّر ظاهريًا بهذا الشخص، إلا أن هذه

الصياغات فلا تحدد بالضرورة ماهية هذا الشخص، فمن الممكن أن تكون هناك عباراتٌ بعينها اعتاد الشخص استعمالها مع الببغاء فقط. وفى هذه الحال يقوم الببغاء بتقليد شىءٍ غير مهم تمامًا، ومن يجهل الشخص فإنه لن يتعرف عليه من خلال ذلك. إن المحاكاة أو التقليد لا يكونان، على وجه اليقين، سوى البادرة الأولى للتحول التى يتم العدول عنها على الفور مرةً أخرى. ومثل هذه البوادر تتم فى تتابعٍ سريع، الواحدة تلو الأخرى وعلى وجوهٍ مختلفة للغاية. ويمكننا ملاحظة ذلك بسهولةٍ تامة لدى القرود. وسهولة التقليد تحديدًا هى التى تحول هنا دون تعميقه لأن التحول نفسه هو أشبه بجسدٍ على علاقةٍ بمحاكاةٍ مزدوجة الأبعاد. وهناك شكلٌ انتقالى من المحاكاة إلى التحول ألا وهو التنكر، الذى يظل موجودا عن وعى فى منتصف الطريق. فالتقرب كصديق، بنوايا عدوانية، - وهو ما نفذ إلى كل الأشكال المتأخرة للسلطة - هو نوعٌ مبكر ومهم للتحول. وهو سطحىٌ ولا ينسحب إلا على المظهر الخارجى وحده: على الفرو، على القرون، على الصوت، على أسلوب حركة السير. وخلف ذلك يختبئ الصياد على نحوٍ غير ملموس وغير قابل للمس وبنيةٍ قاتلة لا تتأثر بشىء. إن هذا الفصل الحاد بين الباطن والظاهر، وهو الاختلاف الأعظم، يكون قد وصل فى "القناع" إلى كماله. فالصياد يملك نفسه وسلاحه إلا أنه يمتلك أيضًا هيئة الحيوان الذى يقوم بتمثيله. ففى كل لحظة يمكنه السيطرة على كليهما ويمكن القول بأنه مخلوقان فى آنٍ واحد، وهو يحتفظ بكليهما حتى يحقق هدفه. ويكون نبع التحولات القادر عليها قد نضب. فهو يقف فى موضعين تجمعهما حدودٌ واضحة، الواحد فى الآخر، وقد عزل أحدهما الآخر بوضوح. وحقيقة الأمر فى ذلك هو أنه لا مناص من توارى الباطن خلف الظاهر على نحو صارم. فالودود البرىء يكون ظاهرًا والمعادى القاتل يكون باطنًا، ولا يفصح الباطن القاتل عن نفسه إلا فى الفعل النهائى. وهذه الازدواجية بشكلها المتطرف هو ما نطلق عليه عامةً "تنكرًا". فإن فهمنا التعبير بكامل معناه فإنه لا يمكن أن يكون أكثر وضوحًا مما هو عليه. وأنا أود أن أضعه داخل حدوده الضيقة وأسميه، كتنكُّر، بالشكل الودود يكمن داخله آخَر عدوانىّ.

"كان مغسل يمتلك حمارًا بوسعه نقل أحمال غير عادية. وحتى يطعمه قام المغسل بتغطيته بفرو نمر، وعندما خيم الظلام قاده إلى غلال أناس آخرين، فأطلق الحمار لنفسه العنان بالاستمتاع بطعم غلال الآخرين كما يهوى قلبه، فلم يكن هناك من يجرؤ على الاقتراب منه وطرده بعد أن ظن الجميع أنه

نمـر. لكـن ذات مـرة تربـص بـه أحـد خفـراء الحقـول، فوضـع عـلى جسـده معطفًـا رماديًـا بلـونٍ تـرابي، وأمسـك بقوسـه متأهبًـا، لـكى يقتـل هـذا الحيـوان الـكاسر. وعندمـا رآه الحـمار مـن بعيـد تحـرك الحـب فى قلبـه بعـد أن ظـن أن الرجـل أتانًـا. ولذلـك نهـق وركـض نحـوه. فعـرف الخفـير مـن صوتـه أن الحيـوان ليـس سـوى حـمار وقتلـه" (131).

هـذه القصـة الهنديـة احتـوت فى عبـاراتٍ قليلـة كتـاب إرشـاد صغـيراً فى التنكـر. فلـم يفلـح أحـدٌ أن يعـبر عـن ذلـك بهـذا الزخـم فى هـذه المسـاحة الموجـزة. ولا بـد مـن الإقـرار بـأن الأمـر هنـا يـدور حـول اسـتخدام التنكـر وليـس حـول نشـأته. إلا أن مثـل هـذا الاسـتخدام ليـس بعيـدًا عـن أصـل التنكـر.

أمـا البدايـة فكانـت مـع مهنـة المغسـل الـذى يغسـل الملابـس وهـى الجلـد الثـانى للبـشر. وهـو مغسـلٌ نشـط وقـد عـثر عـلى حـمارٍ يسـتطيع حمـل الكثـير. ومـن المفـترض أن الحـمار كان يحمـل مـا يقـوم صاحبـه بغسـله. ومـن بـين الجلـود التـى يتعامـل معهـا المغسـل كان جلـد نمـر. وهـو مـا تـدور حولـه القصـة. وأمـا الحـمار الـذى يتقـن عملـه فـكان جائعًـا ويحتـاج إلى غـذاءٍ كثـير فألبسـه صاحبـه جلـد النمـر وقـاده إلى غـلال أنـاسٍ آخريـن. وهنـاك اسـتطاع التهـام طعامـه كـما يشـتهى. وقـد خـاف منـه النـاس لظنهـم أنـه نمـر. وكان هـذا المخلـوق الـبرىء قـد لبـس هنـا جلـد حيـوانٍ خطـر للغايـة وهـو لا يـدرى مـا جـرى لـه، كـما لم يـدرك مـدى الفـزع الـذى بثـه. فصـار يـأكل حسـب هـواه مـن دون إزعـاج. أمـا النـاس الذيـن لم يجـرؤوا عـلى الاقـتراب منـه فلـم يكـن لديهـم أدنى معرفـةً بمـا يفعـل هـذا هنـاك. وكانـت خشـيتهم هـى الرهبـة مـن كائـنٍ قـوى، وهـى رهبـةٌ تنطـوى عـلى تقديـسٍ مـا. وقـد حالـت هـذه الرهبـة بينهـم وبـين إدراكهـم أن النمـر ليـس سـوى حـمارٍ، فظلـوا مبتعديـن عنـه. ومـا دام هـو محتفظًـا بصمتـه كان بوسـعه مواصلـة التهـام الأكل. لكـن ظهـر حينـذاك خفـير حقـولٍ لم يكـن رجـلاً عاديًـا، فقـد كان يمتلـك شـجاعة الصيـاد، فتجهـز بقوسـه لـكى يقتـل النمـر. وقـد شـاء أن يغريـه بالاقـتراب منـه كفريسـةٍ فتدثـر بمعطـفٍ رمـادى مـترّبٍ، ربمـا كان جلـد حـمار. وعـلى كل حـالٍ كان قـد شـاء إيهـام الحيـوان بأنـه حـمارٌ وهمـى. وكان تنكـره هـو تنكـر الخطـر الـذى يبـدو كأنـه بـرىء. وهـذه الحيلـة كان الصيـادون يسـتخدمونها فى عصـورٍ باكـرة للاقـتراب مـن فريسـتهم. أمـا نكتـة القصـة فتكمـن فى أن الحـمار الـذى تغـذى جيـدًا قـد شـعر بالوحـدة فـما إن رأى عـن بعـدٍ شـيئًا ذكّـره بحـمارٍ حتـى تمنـى أن يكـون هـذا أتانًـا، فنهـق عاليًـا وجـرى مبـاشرةً نحـو

الأتـان الوهميـة. ومـن خـلال صوتـه كشـف أنـه حـمارٌ ليُقتـل عـلى يـد خفـير الحقـل. وبـدلاً مـن الفريسـة التـى اشـتهى النمـر التهامهـا بـدا الحـارس مـن دون وعـيٍ كأتـان، وبـدلاً مـن اللـذة التـى تمناهـا الحـمار إذا بـه يلقـى حتفـه. وقـد بُنيـت القصـة عـلى سلسـلةٍ مـن الخـداع، فمـن خـلال التنكـر فى هيئـة مخلـوقٍ غـير مـا يكونـه المـرء يحـاول المـرء خـداع مخلوقـاتٍ أخـرى. وينتـج عـن الأحـداث أنهـا سرعـان مـا جـاءت بهـدفٍ غـير المنشـود. والإنسـان هـو وحـده الـذى يسـتخدم التنكـر عـن وعـيٍ وهـو يسـتطيع التنكـر بنفسـه كـما فعـل خفـير الحقـل وبوسـعه أن يضـع قناعًـا لمخلـوقٍ آخـر كـما فعـل المغسـل بالحـمار. أمـا الحيـوان فـلا يسـعه إلا أن يكـون ضحيـةً سـلبية لعمليـة التنكـر. والفصـل بـين الإنسـان والحيـوان فى هـذه القصـة هـو فصـلٌ تـام، فقـد انقضـت العهـود الأسـطورية حينـما لم يكـن هنـاك فصـلٌ بـين الاثنـين، حينـما كان البـشر يسـتطيعون التفاعـل كحيوانـاتٍ حقيقيـة وكانـت الحيوانـات تسـتطيع الحديـث كبـشر. ومـن خـلال تجاربـه الأسـطورية كحيـوانٍ كان الإنسـان قـد تعلـم أن يسـتخدم كل الحيوانـات كـما يناسـبه. وقـد آلـت تحولاتـه إلى تنكـرٍ، وتحـت الأقنعـة والجلـود التـى يسـتخدمها يظـل مـدركًا تمامًـا لأهدافـه ويبقـى هـو نفسـه سـيدًا للحيوانـات. ومـا لم يسـتطع وضعـه تحـت سـيطرته فـكان يقدسـه، كالنمـر مثـلاً، لكـن حتـى هـذا، حـاول الاقـتراب منـه بعـض مـن يتمتعـون بشـجاعةٍ خاصـة مـن خـلال التنكـر. وربمـا أفلـح خفـير الحقـل فى قتـل نمـرٍ حقيقـى مـن خـلال حيلتـه. ومـن المدهـش حقًـا أن تسـتطيع قصـة قصـيرة التعبـير عـن علاقـاتٍ أساسـية كثـيرة للغايـة. والأمـر لا يخلـو مـن أهميـة أن تبـدأ القصـة بالمغسـل، فهـو يتعامـل مـع ملابـس وهـى كـما نقـول البديـل لجلـدٍ بـلا روح، ومـن خـلال مكانتهـا فى الأسـاطير فإنهـا تُسْـتَخدَم غالبًـا فى إجـراء التحـول. أمـا جلـد النمـر الـذى اسـتخدمه فى حيلتـه فإنـه يبـث الحيـاة فى قطعـة الملابـس البريئـة التـى يسـتخدمها عـادة. إن التنكـر، هـذا العنـصر المحـدود للتحـول، هـو أمـرٌ مألـوف لصاحـب السـلطة حتـى يومنـا هـذا. وليـس بوسـع صاحـب السـلطة مواصلـة تحولـه هـو نفسـه عـلى الإطـلاق مـا دام واعيًـا بفكرتـه المعاديـة، فهـو مقتـصرٌ عـلى التحـول الـذى حافـظ عـلى سـلامة هـذه البـذرة الباطنيـة، أى هيئتـه الحقيقيـة عـلى نحـوٍ دائـمٍ وكامـل. وقـد يسـتطيع الانتبـاه، عـلى نحـوٍ يناسـبه أحيانًـا، إلى إخفـاء الفـزع الـذى تنـشره هيئتـه الحقيقيـة. وبوسـعه اسـتخدام أقنعـة مختلفـة مـن أجـل ذلـك. وهـو دائمًـا لا يسـتخدمها إلا لوقـتٍ محـدود، وهـى لا تغـير أقـل قـدر مـن هيئتـه الباطنيـة التـى هـى طبيعتـه.

الشخصية والقناع

إن الهيئة هى الحال النهائية للتحول، ومن سماتها أنها لا تسمح بمواصلة التحول. والهيئة تكون فى كل ملامحها محدودةً وواضحة. وهى ليست طبيعية، فهى مخلوقٌ من صنع الإنسان، وهى بمثابة طوق النجاة من مرونة التحول الدائم. ولا ينبغى أن نخلط بينها وبين ما يسميه العلم الحديث بالنوع أو الشكل. وقد نقترب من جوهرها كثيراً إذا تأملنا أشكال هيئات آلهة الديانات القديمة، ومن المفيد أن نتأمل عقب ذلك بعض آلهة المصريين، فالربة سخمت هى امرأةٌ برأس لبؤةٍ، وأنوبيس رجلٌ برأس ضبعٍ، وتحوت رجلٌ برأس أبى منجل، أما الربة حتحور فلها رأس بقرةٍ، وللرب حورس رأس صقر. وهذه الهيئات فى صورها المحددة الثابتة التى هى شكلٌ مزدوج "إنسانى - حيوانى" كانت قد سادت تصورات المصريين الدينية لآلاف السنين، وفى هذا الشكل تم تصويرها فى كل مكانٍ، وفى هذا الشكل عُبِدت فى كل مكان. أما استمرارها فهو أمرٌ يبعث على الدهشة. إلا أنه قبل تكوين أنظمة إلهية من هذا النوع المترمت بزمنٍ طويل كانت الأشكال المزدوجة، الإنسانية الحيوانية، منتشرةً انتشارًا واسعًا لدى شعوبٍ لا حصر لها على وجه الأرض لم يكن بينها أية علاقةٍ، فأجداد الأستراليين الأسطوريون هم إنسانٌ وحيوان فى آنٍ واحد، وأحيانًا إنسانٌ ونبات. وكانت هذه الهيئات تعرف

بالطوطم. فقد كان هناك طوطم الكنغرو وطوطم الـ"أوبسوم[1] وطوطم الـ"أمو"[2] وكان كلٌ منها يتميز بأنه إنسانٌ وحيوان فى الوقت نفسه. وهى تتعامل كإنسانٍ وكحيوان تمامًا كما تعتبر أيضًا جدًا لكليهما. فكيف يمكن فهم هذه الهيئاتٌ الموغلة فى القدم؟ وماذا تمثل هى حقًا؟ ومن أجل أن نفهمها لا بد من أن نضع نصب أعيننا أنها تُعتبَر كإنسان العصور الأولى الأسطورية، وهو الزمن الذى كان فيه التحول موهبةً عامة لمخلوقاتٍ كانت موجودةً على نحوٍ دائم. وكانت حالة السيولة التى مر بها العالم حينذاك أمرًا مشهورًا، فقد كان بوسع المرء التحول إلى كل ما هو ممكن، بل كان يملك قدرةً على تحويل الآخرين. ومن خلال هذا التيار العام برزت هيئاتٌ منفردة لم تكن سوى تأكيدٍ على تحولاتٍ بعينها. إن الهيئة التى يرتبط بها المرء على نحوٍ ما، والتى صارت تقليدًا مانحًا للحياة، والتى يمثلها المرء من حينٍ لآخر، ليست هى ما نسميها اليوم بالنوع الحيوانى، فهى ليست كنجرو وليست "أمو" إنما هى اثنان فى آنٍ واحد، فهى كنجرو ممتزجٌ بإنسانٍ، وإنسانٌ يصبح -كما شاء- "أمو". وقد صارت عملية التحول على هذا النحو أقدم الهيئات. ومن تعدد التحولات غير المحدودة والمتواصلة لكل شىء ممكن خرجت واحدةٌ محددة تمامًا ورسخت كهيئة. وعملية التحول هذه تم تحديدها وهى تكتسب قيمةً خاصة من خلال ذلك، مقارنةً بكل ما تم استبعاده. وهذه الهيئة المزدوجة التى تنطوى على تحول الإنسان إلى كنجرو والكنجرو إلى إنسانٍ، والتى تظل نفسها دائمًا، هى أول وأقدم هيئة، وتكون - إن شئنا الإضافة - هيئةً حرة، ولعنصريها القيمة ذاتها فلا يسبق أحدهما الآخر ولا يأتى أحدهما بعد الآخر. وهى تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. إلا أن تأثيرها المعقول فيكون فى الحاضر دائمًا. وهناك مدخلٌ لها، أى من خلال تمثيل الأساطير المنتمية إليها، ويشارك المرء فيها. ومن المهم لنا نحن أيضًا أن نصل إلى رؤيةٍ واضحة عن هذا النوع الأقدم للهيئة، ومن المهم أن نعرف أن الهيئة تبدأ بشىءٍ غير بسيطٍ على الإطلاق. وهو ما يبدو لنا معقدًا ويكون على نقيض ما نتصوره اليوم من هيئةٍ، وهو الذى يعبر عن عملية تحولٍ مع نتيجته فى الوقت نفسه. أما القناع فيميزه جموده عن كل التحولات الأخرى. فالتعبير بالملامح، الذى لا يعرف الهدوء والمتحرك دائمًا يحل محله ما هو على النقيض التام منه، أى جمود

---

1 حيوان أسترالى يعرف باسم الكلب الأبيض (المترجم).

2 طائر أميركى ذو عنق وسيقان طويلة ويعرف بقدرته على تحمل الجوع والعطش (المترجم).

واستمرار تامّان، فمن خلال التعبير بالملامح خاصةً يتبدى استعداد التحول المتواصل للإنسان، فهو من بين كل المخلوقات الذى يمتلك التعبير بالملامح، وهو الأكثر ثراءً بكثير كما يمتلك أيضًا حياة التحول الأكثر ثراءً، فلا يمكن إدراك الذى يجرى على وجه الإنسان خلال ساعةٍ واحدة. فإذا ما كان لأحدنا الوقت الكافى للملاحقة الدقيقة لكل الحركات والأحوال التى تجرى على وجه الإنسان فإننا نعجب لبوادر التحولات التى يمكن معرفتها وتمييزها. إن موقف التقاليد تجاه تعبيرات الوجه الحرة مختلفٌ فى بعض المجتمعات، فبعض المجتمعات تحد كثيراً من حرية التعبير بالوجه إلى حدٍّ بعيد، فهى تحظر الإظهار الفورى للألم أو الفرح، بل على المرء أن يضمر ذلك فى نفسه ليظل وجهه هادئًا. أما المبرر الأعمق لهذا الموقف فهو سعى الإنسان إلى استقلالٍ دائم بذاته، فلا يسمح لأحدٍ بالنفاذ إلى داخله، ولا يسمح لنفسه بالنفاذ إلى داخل أحدٍ، فعلى المرء أن يمتلك القوة لأن يكون هو نفسه، وعليه أن تكون لديه القوة لأن يبقى هو نفسه، وهذا يمضى مع ذاك على قدم المساواة، فتأثير إنسانٍ على آخر هو ما يستنفر التحولات المتواصلة العابرة التى تتبدى فى التعبير بالإشارة والتعبير بالملامح، فحظر كليهما يجعل أى تحولٍ صعبًا، لينتهى بذلك إلى الحظر التام. والقليل من الخبرة بالكائن الجامد لهذه الطبيعة المصطنعة العتيقة سرعان ما يُقرب المرء من التعرف على معنى القناع بالفعل. فالقناع هو حالةٌ نهائية من ممارسةٍ مرنة لتحولات غير واضحة وشبه مختمرة، والتى يتمثل تعبيرها الرائع فى كل وجهٍ إنسانيٍ طبيعى تصب فى القناع وتنتهى إليه. فما إن يوجد القناع حتى يختفى كل ما بدا وكل بادرةٍ غير واعيةٍ لم تتشكل بعد. إن القناع واضحٌ فهو يعبر عن شىء محددٍ تمامًا، لا أكثر ولا أقل من ذلك. إن القناع جامدٌ، أى أن هذا التعبير لا يتغير، وهو يمكن فى الحقيقة أن يكون قناعًا آخر خلف هذا القناع، فلا شىء يمنع الممثل من وضع قناعٍ خلف قناعٍ آخر. والمرء يعرف القناع المزدوج لدى شعوبٍ كثيرة. فإذا أماط المرء قناعًا ظهر خلفه آخر، وهذا يكون أيضًا قناعًا، أى هو الحالة النهائية الشخصية، إنه قفزةٌ تفضى من هذا إلى ذاك، أما ما بين هذا وذاك فهو دائمًا ما يكون منتفيًا، فليس هناك مرحلةٌ انتقالية وسطية مثل هذا الذى قد نراه على وجه إنسانٍ ما. أما ما استجد من أمرٍ فهو أن "الآخر" صار هنا "فجأةً"، وهو على نفس القدر من الوضوح ونفس القدر من الجمود مثله مثل سابقه. فمن قناعٍ إلى قناعٍ يكون كل شىء ممكنًا، لكن فى إطار قفزة القناع بنفس الطريقة

المماثلة المركزة. وتأثير القناع يتجه أساسًا إلى الخارج فهو يصطنع الهيئة، فالقناع غير قابلٍ للمس ويضع مسافةً بين المتطلع وبينه، وقد يحدث ذلك فى أثناء أداء رقصةٍ ما حينما يكون المتطلع إليه قريبًا منه، لكن هذا يضطر - بإرادته- إلى البقاء حيث كان، فجمود الشكل يتحول إلى جمود المسافة أيضًا، فما يجعلها لا تتغير مطلقًا هو هذا الخطر الكامن بها، فخلف القناع مباشرةً يبدأ السر. وفى الحالات التى أتمت تكوينها تكوينًا كاملاً وصارمًا، وهى موضوع حديثنا هنا، وحيث يؤخذ القناع على محمل الجد، فإنه لا يُسمح لأحدٍ بمعرفة بما يكمن خلفه، فإن أفصح عن كثيرٍ يكون قد تكتم الأكثر، فهو بمثابة الحد الفاصل مشحونًا بمحتوى خطر لا يجوز لأحدٍ معرفته، ولا تنشأ بينهما علاقة ثقة. فإن تقدم نحو شخصٍ ما فإنه يحافظ على هذه المسافة القريبة منفصلاً تمامًا عن هذا الشخص، وهو يستخدم سره الكامن خلفه فى التهديد، فالاستقراء الحر مثل استقراء وجهٍ ما يجعله القناع محالاً، فلا يسع المرء إلا أن يخمن وهو يخشى المجهول الكامن خلفه. فالتجربة التى اعتادها الجميع عن طريق السمع تماثل التجربة فى مجال الرؤية. فقد يأتى أحدهم بلدًا يجهل لغتها تمامًا، فيحاط هناك بإناسٍ يتحدثون إليه، وكلما كان فهمه أقل زاد تخمينه، فالمجهول يحملنا على الكثير من الظن. فهناك يخشى المرء العداء، لكنه يتحرر من ذلك مستنكرًا ويصاب فى نهاية المطاف بخيبة الأمل إلى حدٍّ ما عندما تترجم كلمات الغريب إلى لغةٍ مألوفة لديه، ليدرك بعدها كانت هذه بريئةً وغير خطيرة. إن كل لغةٍ غريبة تمامًا هى قناعٌ سمعى فما إن تُفهَم حتى تصير وجهًا واضح الملامح، وسرعان ما تصير مألوفةً. هكذا يكون القناع إذن هو تحديدًا ما لا يتحول ولا يمكن الخلط فى أمره، وهو دائمٌ. إنه "البقاء" فى لعبة تبدلٍ مستمر للتحول. ومن بين مؤثراته الخالصة هو إخفاؤه كل شىء خلف ظاهره. ويتأسس كماله على وجوده فى النهاية هنا، وأن كل شىء خلفه يظل غير معروفٍ، وكلما كان هو واضحًا بحد ذاته يكون ما هو خلفه أكثر غموضًا فلا يعرف أى إنسانٍ ما الذى يمكن أن ينطلق من خلف القناع. إن المسافة بين جمود الظاهر وبين السر خلفه تصل إلى بعدٍ هائل، وهذا هو السبب الحقيقى لِمَ يهدد به القناع، فيقول القناع: "إننى هذا ما تراه بالضبط، وكل ما تخشاه هو ما خلف ذلك". وهو يفتن، ويرغم فى الوقت نفسه على وجود مسافةٍ فلا يجرؤ أحدٌ على المساس به، فإذا أماطه أحدٌ فإنه يلقى عقوبة الإعدام، فهو - فى أثناء فترة فعاليته- غير قابلٍ للمس وهو

محصنٌ مقدس، فالمعلوم من القناع ووضوحه يستمدان قوتهما مما هو غير معلوم. فقوته تتأسس على معرفة الناس به معرفةً دقيقة من دون أدنى معرفة بما ينطوى عليه. فالمرء يعرفه من الخارج أو من "الأمام" على نحوٍ ما. إلا أنه إذا ما التزم بسلوكه المعتاد والمتوقع منه - فى أثناء طقوس بعينها - فإنه يعطى انطباعًا بالأمان، فهو قائمٌ بين الخطر الكامن خلفه وبين من يشاهده. وهكذا يمكن له أن يسلك المسلك الصحيح إن هو منه الحظر عن هذا، وهو يستطيع أن يجمع الخطر ويبقى عليه مجمعًا ولا يطلقه إلا مع ما يناسب هيئته. والمرء يستطيع أن يسلك نحوه مسلكًا صحيحًا بمجرد أن يقيم علاقة معه، فهو هيئة يتبع أساليب خاصة فى مسلكه، وما إن يتعلمها المرء ويدركها، وما إن يدرك المرء مدى المسافة التى يطلبها منه، فإن هذا يحميه من الخطر الكامن داخله. وعن هذا الأثر للقناع الذى صار هيئة يمكن أن نقول الكثير، فمعه تبدأ وتتوقف وتسقط الدراما. إلا أن ما يهمنا هنا فهو القناع نفسه، فلا بد لنا من رؤية ما يكون على الجانب الآخر، لأنه ليس له تأثيرٌ على الخارج فقط، على الذين لا يعرفون ما كمن داخله، فهو يوضع على وجه من يريد الاختباء فيه، وهؤلاء يدركون جيدًا من يكونون هم، لكن واجبهم هو أداء دور القناع والبقاء فى أثناء هذا الدور داخل حدود بعينها، أى الحدود التى تناسب القناع، فيوضع القناع ومن الخارج، وهو كشكلٍ مادّى يكون قد عُزِل بوضوح عن هذا الذى يحمله، فهذا يشعر به كجسدٍ غريب تمامًا، فهو يزعجه ويضيق عليه، وما دام يؤدى هذا الدور يظل فى حالةٍ ازدواجية، أى هو نفسه والقناع. وكلما طالت فترة استخدامه له زادت معرفته به على نحوٍ أفضل وازداد -فى أثناء أدائه الدور- تداخله مع هيئة القناع. لكن رغم ذلك يظل جزءٌ من شخصه منفصلاً عن القناع، إنه الجزء الذى يخشى كشفه، الجزء الذى يعرف أنه يبث الرهبة التى لن تصل إليه هو نفسه، فالسر الذى يقوم بتمثيله أمام أطرافٍ خارجية لا بد من أن يؤثر عليه هو أيضًا، وهو ما يشعر به داخله. ويكون الأمر، كما نتصور، ليس له الأثر نفسه، فهؤلاء يخشون ما لا يعرفونه، وهو يخشى الانكشاف. إن هذه الرهبة هى التى لا تسمح له بالاستسلام التام. وبوسع تحوله أن يقطع شوطًا بعيدًا لكنه لا يكون أبدًا كاملاً، فالقناع الذى يمكن إماطته هو الحد المعطل للتحول، فيكون عليه أن يحرص على ألا يفقده، فلا يسمح له بالسقوط ولا يسمح له أن ينفتح، وعلى كل حالٍ يكون مهمومًا تمامًا بمصير القناع، وهكذا

يبقى القناع نفسه خارج إطار تحوله مثل سلاحٍ أو جهازٍ يكون عليه أن يستخدمه. أما شخصيته فى الحياة اليومية فتتفاعل معه، بينما يتحول هو إلى القناع فى نفس الوقت، هكذا يكون هو فى حالة ازدواجية ويتحتم عليه البقاء مزدوجًا فى أثناء فترة أدائه العرض كاملة.

التخلص من التحول

إن صاحب السلطة المدرك لنيته الباطنة العدوانية لا يستطيع خداع الجميع من خلال التنكر، فهناك آخرون مثله هدفهم هو السلطة، وهؤلاء لا يعترفون به ويدركون أنهم خصومه، وهو يأخذ حذره من هؤلاء، فبوسعهم أن يمثلوا خطرًا عليه، فينتظر هو اللحظة المناسبة لينزع القناع عن وجوههم ليكشف بذلك ذلك أفكارهم الحقيقية، وهو الأمر الذى يعرفه جيدًا عن نفسه شخصيًا، فإذا ما كشفهم يكون قد تجنب ضررهم، وقد يتركهم على قيد الحياة أول مرةٍ إن كان ذلك يخدم أغراضه، لكنه يأخذ حذره من نجاح هؤلاء فى التنكر مرةً أخرى، فيحرص على رؤيتهم فى هيئتهم الحقيقية. فالتحولات التى لا يفرضها هو نفسه على الآخرين يعتبرها مزعجةً، فهو يسعى إلى ترقية المفيدين له إلى مناصب أعلى، لكن التحول الاجتماعى الناشئ عن هذا الترقى لا بد من أن يضعه داخل حدود، فلا يتغير ويكون الأمر بيده شخصيًا. فهو من يحدد ذلك من خلال الترقية أو التجريد من الرتبة، فلا يسمح لأحدٍ أن يغامر من تلقاء نفسه بالقفز على مكانةٍ أعلى. ويخوض صاحب السلطة صراعًا بلا نهايةٍ ضد تحولاتٍ تلقائية خارج السيطرة فيكون نزع القناع، أى وسيلته فى أثناء الصراع، هو ما يواجه به عملية التحول بدقةٍ وهو ما يسمى بإبطال التحول، ومثل هذا الحدث تعرف

عليه القارئ فيما فعله مينلاوس مع عجوز البحر بروتيوس فأبطل تحوله عندما تفادى الفزع لفترةٍ طويلة حتى عاد للظهور كـ"بروتيوس". ومن خصائص جوهر إبطال التحول أن يعرف المرء جيدًا ما سوف يلقاه بعدها، فإذا كان المتوقع معروفًا منذ البداية فإن المرء ينطلق نحو ذلك بثقةٍ هائلة محتقرًا كل التحولات التى مر بها على أنها خداعٌ مكابر، ففى حالةٍ وحيدة يمكن للمرء القيام بما فعله منيلاوس الذى صب اهتمامه على حكمة بروتيوس. وبوسع المرء تكرار هذا حتى يمكن أن يمثل له ذلك فى النهاية شغفًا. ويؤدى إبطال التحول المتراكم إلى اختزال للعالم. وتعدد أشكال ظهوره لا يُعتبَر ذا قيمةٍ بالنسبة له، فهو يرتاب فى كل أشكاله المتعددة، فكل الأوراق متساويةٌ وهى جافةٌ ومغبرة، وكل الأشعة تتلاشى فى ليل العداء. والمرض العقلى، الذى على صلة قرابةٍ بالسلطة حتى يمكن اعتباره توأمًا لها، يحول إبطال التحول إلى طغيانٍ، فجنون العظمة يتميز بصفتين، أما إحداهما فيصفها الطب النفسى بأنها "تغاير"، وهى ليست سوى التنكر بالمعنى الدقيق الذى عبر عنه المصطلح، فالمصابون بجنون العظمة يستطيعون التنكر على نحوٍ جيد، حتى إننا لا نستطيع مطلقًا التعرف على كثيرٍ منهم ومدى إصابتهم بجنون العظمة. أما الصفة الأخرى فهى نزع قناع الأعداء على نحوٍ متصل، فهؤلاء يظهرون فى كل مكانٍ بملابس تنكرية هى الأكثر وداعةً وبراءة، إلا أن المصاب بجنون العظمة، الذى يستطيع النفاذ إلى الداخل، فإنه يعرف تمامًا ما يكمن وراء ذلك، فينزع القناع عن وجوههم لينكشف أنهم العدو نفسه. إن المصاب بجنون العظمة مغرمٌ تمامًا بإبطال التحول ولا يضارعه أحدٌ فى هذا الشأن، ويبرهن من خلال ذلك أنه صاحب السلطة الأكثر صلابةً. أما الموقف، الذى يعتقد أنه اتخذه والأهمية التى ظن أنه عليها، فيظهران فى عينى الآخر يقينًا، وهو رغم ذلك سوف يدافع عنهما من خلال الاستخدام الدائم لعملية التنكر المزدوجة. إن فحصًا دقيقًا وصحيحًا لإبطال التحول لن يكون ممكنًا إلا فى إطار حالةٍ فردية واضحة من حالات جنون العظمة، وهو ما سوف نتناوله فى الفصول الأخيرة من هذا الكتاب بعنوان "حالة شريبر".

محظورات التحول

يُعتبَر "التحول المحظور" ظاهرةً اجتماعية ودينية ذات أهميةٍ كبرى. وهو لا يكاد يكون قد طُرِح بجديةٍ، ناهيك بفهمه، حتى محاولة المقاربة التالية ليست سوى أولى محاولات تلمس هذا الطريق على الإطلاق. فطقوس طوطم الـ"أرانـدا" تقصر حق المشاركة فيها على المنتمى للطوطم. فالتحول إلى هيئةٍ مزدوجة لأحد الأجداد من العصور الباكرة الأسطورية هو أولوية من حق أناسٍ بعينهم، فلا يُسمَح لأحدٍ بالتحول المتوارث، كملكيةٍ أصيلة، من دون أن يكون له حق امتلاك ذلك، وهو حقٌ يتمتع بالحماية مثل كلمات وأصوات الأناشيد المقدسة الخاصة به. فالدقة المتناهية لهذه الهيئة المزدوجة وحدود ملامحها الواضحة هو ما يجعل من حمايتها أمرًا ميسورًا، أما حظر امتلاكها فيتم فرضه بصرامةٍ، فهناك عقوبةٌ دينية كاملة على ذلك. وبعد امتحانات تأهل طويلة ومعقدة يتم قبول شابٍ فى المجموعة التى يُسمح لها بهذا التحول فى أحوالٍ بعينها. ويفرض الحظر التام هذا على النساء والأطفال ويكون ملزمًا على نحوٍ دائم. ويتم رفع الحظر أحيانًا عن تابعين لطواطم أخرى كتعبيرٍ عن استثناءٍ شعائرى خاص، إلا أن هذا يكون لحالاتٍ فردية فإذا ما انتهت فإن الحظر القديم الصارم يعاود سريانه كما كان فى السابق. ولقد كان الانتقال من هذا الدين إلى الدين المسيحى يمثل قفزةً

هائلـة، فالمسـيحية تحظـر التحـول إلى هيئـة الشـيطان عـلى الجميـع عـلى حـدٍّ سـواء، وقـد أكـدت عـلى خطورتـه بـكل وجـه، وعـلى مئـة وجـه مـن التحذيـر كان يُعلَـن عـما حـدث لأنـاسٍ اسـتجابوا لـه، وقـد حـذر مـن عـذاب أرواحهـم الأبـدى فى جهنـم الـذى صـور بـكل تفاصيلـه.

وقـوة هـذا الحظـر هائلـة، وهـو مـا يسـترعى الانتبـاه خاصـةً حينـما يشـعر النـاس بالإكـراه عـلى مخالفتـه، فقصـة الممسوسـين الذيـن مارسـوا عمـل الشـيطان أو عـدة شـياطين هـى قصـصٌ معروفـة للغايـة. وهنـاك رواياتٌ شـخصية لهـؤلاء ومـن أشـهرها قصـة الراهبـة "جـين دى أنجيـه" فى ديـر "أورزلـين" عـلى مشـارف "لـودون"، وقصـة الأب "سـورين" الـذى كان عليـه مكافحـة الشـيطان حتـى تلبسـه. وعـلى نحـوٍ أعظـم مـن الدنيويـين البسـطاء كان الشـيطان يتلبـس أناسًـا وهبـوا أنفسـهم لخدمـة الـرب ممـن حظـر عليهـم الاقـتراب مـن الشـيطان والتحـول إليـه، فيسـيطر عليهـم التحـول المحظـور تمامًـا. ولا يجانبنـا الصـواب إذا أرجعنـا قـوة تأثـير التحـول إلى قـوة الحظـر الـذى تخضـع هـى لـه.

أمـا العنـصر الجنـسى لحظـر التحـول، الـذى ينزلـق المـرء هنـا إليـه، فيكـون أكـثر وضوحًـا إذا مـا رجعنـا إلى قصـص "السـاحرات"، فقـد كان الإثـم الحقيقـى للسـاحرات هـو ارتباطهـن بالشـيطان، فمهـما كانـت ممارسـاتهن عـادةً فـإن حياتهـن السريـة كانـت تنتهـى إلى حفـلات المجـون التـى يشـارك فيهـا الشـيطان. وهـن سـاحراتٌ لأنهـن عـلى علاقـةٍ بـه. ويعتـبر استسـلامهن لـه جنسـيًا هـو الركـن الأسـاسى لخصائـص تحولهـن. ويعتـبر تصـور "التحـول" مـن خـلال المضاجعـة تصـورًا موغـلاً فى القـدم. ولمـا كان كل مخلـوق مـا قـد عـاشر عـادةً الجنـس الآخـر مـن نفـس نوعـه، فإنـه مـن المحتمـل أن يعتـبر الانحـراف عـن هـذا المسـلك تحـولاً. وفى هـذه الحـال فإنـه يمكـن اعتبـار أقـدم شرائـع الـزواج نوعًـا مـن أنـواع محظـورات التحـول، وهـذا يعنـى حظـر كل الأشـكال الأخـرى فيـما عـدا تحـولات محـددة وراسـخة. وقـد يمكننـا تتبـع هـذا الشـكل الجنـسى للتحـول بالتفصيـل. ويبـدو لى أن هـذا لا بـد مـن أن يفـضى إلى دلالاتٍ مهمـة للغايـة. وربمـا كانـت أهـم كل محظـورات التحـول هـى المحظـورات الاجتماعيـة. فـكل نظـامٍ هرمـى لا ينهـض إلا عـلى مثـل هـذه المحظـورات التـى لا تسـمح لأفـراد طبقـةٍ بالاقـتراب مـن طبقـةٍ أعـلى أو شـعورهم بالمسـاواة معهـا. ولـدى الفئـات العمريـة لشـعوب الطبيعـة يشـدد عـلى مراعـاة هـذه المحظـورات، فعمليـات التمييـز التـى

تكونـت يومًـا مـا يتـم التأكيـد عـلى الالتـزام بهـا دائمًـا. وقـد وُضعـت حـدودٌ تجعـل الصعـود مـن طبقـةٍ أدنى إلى أخـرى أمـرًا صعبًـا عـلى أيـة حـال، فـلا يمكـن الانتقـال مـن طبقـة لأخـرى صعـودًا إلا بواسـطة اختبـارات قبـول خاصـة. إلا أن هـذه تُعتـبَر "تحـولاتٍ" بمعنـى الكلمـة.

وغالبًـا مـا كان البعـض يتصـور الانتقـال إلى طبقـةٍ أعـلى، بأنـه عليـه أن يمـوت فى الطبقـة الأدنى قبـل أن يبعـث حيًـا فى الطبقـة الأعـلى. فالمـوت نفسـه يحـول بـين طبقـةٍ وطبقـة، أى أنـه حـدٌّ بالـغ الخطـورة، فيصبـح التحـول سـبيلاً طويـلاً خطـيرًا، فعـلى المـرء تجـاوز كل الاختبـارات وحـالات الفـزع الممكنـة، فـلا شىء يمنـح الطامـح إلى هـذا مجانًـا. إلا أن كل مـا عانـاه المـرء صغـيرًا فإنـه يسـتطيع بعـد انضمامـه للطبقـة الأعـلى أن يلحقـه بالمرشـح الـذى يختـبره هـو بعـد ذلـك. وقـد حصلـت فكـرة الطبقـة الأعـلى عـلى شىء مسـتقل صـارم وهـو مـا يعتـبر حيـاةً كاملـة بحـد ذاتهـا وترتبـط بهـا معرفـة الأناشـيد المقدسـة والأسـاطير ولغـة خاصـة بهـا أحيانًـا. أمـا أعضـاء الطبقـة الأدنى، كالنسـاء المنبـوذات مـن كل الطبقـات العليـا، فإنـه يتحتـم عليهـم البقـاء فى حالـة فـزعٍ وطاعـة مـن خـلال أقنعـةٍ رهيبـة وأصـوات غريبـة. أمـا القاعـدة الأكـثر جمـودًا فتتبـدى فى تطبيـق فصـل الطبقـات فى نظـامٍ فئـوى، ففـى إطـاره يحـرم الانتـماء الفئـوى كل تحـول اجتماعـى. فالمـرء يصنـف نفسـه إلى أسـفل وإلى أعـلى، عـلى نحـوٍ أكـثر دقـةً. وكل تمـاسٍ مـع طبقـةٍ أدنى يكـون محظـورًا بصرامـة، فالـزواج لا يتـم إلا بـين أفـراد الفئـة الواحـدة عـلى أن يكـون للمـرء الوظيفـة نفسـها. وهكـذا لا يتمكـن المـرء مـن خـلال نـوع العمـل أن يتحـول إلى كائـنٍ مـن مسـتوى آخـر، وتبعـات هـذا النظـام تثـير الدهشـة، ففحصـه بدقـة هـو وحـده مـا ييسر لنـا معرفـة كل بـوادر التحـولات الاجتماعيـة. فلـما كان مـن الـضرورى تفـادى هـذه التحـولات جميعًـا فإنـه تـم تسـجيلها ووصفهـا وفحصهـا بعنايـة. ومـن خـلال نظـامٍ كامـل للمحظـورات يمكـن معرفـة التوجـه الصحيـح والاسـتنتاج الدقيـق لمـا يعتـبر تحـولاً مـن طبقـةٍ إلى طبقـة أعـلى. ومحاولـة القفـز فـوق الطبقـات مـن منظـور التحـول هـو أمـر لا غنـى عنـه، إلا أن مثـل هـذه المحاولـة لم تسـجل بعـد. وهنـاك شـكل محـدود لمحظـور التحـول ارتبـط بأحـد الأفـراد الـذى تربـع عـلى قمـة المجتمـع، وهـو مـا عـرف فى الأشـكال المبكـرة للنظـم الملكيـة. ومـن الجديـر بالملاحظـة أن كلا الشـكلين مـن خصائـص صاحـب السـلطة، المعروفـة فى التاريـخ الأقـدم للبشريـة، يختلفـان عـن بعضهـما البعـض مـن خـلال موقفهـما المتضاديـن تجـاه التحـول، فمـن جهـةٍ هنـاك خبـير التحـول، الـذى

يستطيع اتخاذ كل شكل متى شاء، سواء اتصل الأمر بحيواناتٍ أو أرواح حيوانات أو بأرواح الموتى. أما صاحب الخدع الذى يخدع الجميع من خلال التحولات فهو شكلٌ محبب فى أساطير الهنود الحمر بأمريكا الشمالية. وتعتمد قوته على الأشكال غير المحصورة التى يستيطع اتخاذها، فهو يظهر فجأةً مثلما يختفى أيضًا، وهو يقبض على نحوٍ غير متوقع ويدع آخرين يقبضون عليه هو نفسه، ليفر مرةً أخرى. وكان التحول هو الوسيلة الأساسية التى يسيطر بها على كل أعماله المدهشة مرارًا وتكرارًا. ويصل خبير التحول إلى القوة الحقيقية ككاهن. فمن خلال وجده الروحى يستدعى الأرواح التى يخضع لها وهو يتكلم لغتها ويصبح مماثلاً لها وبوسعه أن يسخرها على كل وجه، فهو يصير طائرًا إذا انطلق فى رحلة إلى السماء، وكحيوان بحرى ليغوص إلى أعماق البحر، فكل شىء متاح له، فالحالة المحمومة التى يصل إليها تنتج عن التبعة المطردة والسريعة للتحولات التى تهزه حتى يبحث بينها عما يحتاجه بالفعل من أجل أغراضه الخاصة. إن الممارس للتحول هو خبير فى التحول، وهو يُقارَن بشخص الملك المقدس الخاضع لمئات المحاذير والذى عليه البقاء فى المكان نفسه، ويتحتم عليه أن يبقى كما هو، ولا يُسمَح لأحدٍ بالاقتراب منه ولا يمكن رؤيته غالبًا ولا مرةٍ واحدة - فهكذا لا نرى فرقًا بينهما حتى فى أبسط الأمور، فيما عدا موقفهما المتناقض من التحول.

فبينما يتنامى التحول لدى احدهما، أى الكاهن، حتى يبلغ ذروته ويتم استغلاله استغلالاً تامًا، أما الآخر، أى الملك، فيُمنَع من التحول ويُحرَم منه حتى يصير فى حالة تجمدٍ تام. فعلى هذا أن يبقى كما هو حتى إنه لا يُسمَح له بالتقدم فى العمر. فعندما يظل رجلٌ فى سنى العمر نفسه ونضجه وقوته وصحته فإنه سيجتاز ذلك. وإذا ما ظهرت أول آثار تقدم العمر فى هيئة شعرةٍ بيضاء، أو تراجعت قواه الذكورية فإنه فى الغالب ما يُقتَل. إن ثبات هذا النمط، الذى حُرِّم عليه تحوله الخاص، رغم صدور الأوامر عنه على نحوٍ دائم، التى تحول الآخرين باستمرار، هو جوهر السلطة، وهو ما حدد التصور عنها لدى الإنسان المعاصر. فغير المتحول يكون قد وُضِع على ارتفاعٍ بعينه وفى مكانٍ بعينه داخل حدودٍ واضحة وغير متغيرة، ولا يسمح له بالنزول من عليائه، ولا يُسمَح له بلقاء أحد، وهو لا يستحى من شىء، إلا إنه يستطيع الارتقاء بآخرين بأن يوكل إليهم هذا المنصب أو ذاك، وهو يستطيع تحويل آخرين بأن يرتقى بهم أو يذلهم، فما

لا يجوز أن يقع له يفعله هو بالآخرين، فهو غير المتحول يحول الأخير وفق مشيئته.

إن هذا العرض السريع والعابر لبعض أشكال محظورات التحول التى ما زال هناك ما يقال عنها على نحوٍ أكثر دقةً يطرح السؤال عما ينطوى عليه هذا الحظر بالفعل، ولماذا يتم تناوله من حينٍ لآخر، وما هى الضرورة البالغة التى تدفع الإنسان إلى أن يفرض ذلك على نفسه أو على من هم على شاكلته، وليس بوسعنا الاقتراب من هذا السؤال إلا بحرص. ويبدو أن موهبة الإنسان فى التحول وتنامى مرونة طبيعته كان هو ما يزعجه ويدعه يلجأ إلى الحواجز الثابتة وغير المتغيرة، فهو يشعر بكثيرٍ من الأشياء الغريبة على جسده ذاته - وعلينا هنا تذكر حالة الخفقان الخاصة برجل الأدغال - وأن هذا الشعور قد غلبه فاستسلم له ليتحول إليه. فمن دون هذا التحول، ومن دون ذلك لم يكن بوسعه إشباع جوعه، ومع استمرار هذا التحول المفروض عليه فإنه لم يعد يشعر إلا بالحركة حوله. أما حالة سيولة مشاعره وهيئته فقد أيقظت فيه إلحاحًا نحو الدوام والصلابة لا يمكن إشباعه إلا من خلال محظورات التحول.

والمرء يميل فى هذا السياق إلى تذكر الأهمية التى يعلقها سكان أستراليا الأصليون على الأحجار، فكل الأفعال والتجارب وكل التنقلات ومصائر الأجداد امتزجت بالطبيعة وصارت نصبًا راسخة وغير متغيرة، فلا تكاد تكون هناك صخرة لا تعنى مخلوقًا صاحب إنجازٍ عظيم عاش هناك ذات يوم. وإلى الملامح الخارجية والضخمة للطبيعة، التى تظل غير متحركة، تضاف أحجارٌ صغيرة يمتلكها الناس ويحتفظون بها فى الأماكن المقدسة. وكل واحد من هذه الأحجار يسلمها جيلٌ إلى جيلٍ آخر، فهو يعنى شيئًا محددًا تمامًا، فمعناه أو أسطورته قد ارتبطا به، فهو التعبير المرئى لهذه الأسطورة. وما دام الحجر باقيًا على ما هو عليه فإن الأسطورة لا تتغير. وهذا التركيز على استمرار الحجر لا يعتبر أمرًا غريبًا، فأنا أرى فيه تعبيرًا عن نفس الأمنية العميقة ونفس الضرورة، وهو أمر يفضى إلى محظورات التحول.

العبودية

إن العبد هو مملوكٌ مثله مثل ما يُمتلَك من الماشية، وليس مثل الأشياء التى لا روح فيها، فحرية حركته تذكر بحركة هذا الحيوان الذى يرعى ويُسمَح له بتأسيس ما يشبه الأسرة. فماهية "الشيء" الخاصة هى عدم النفاذ إلى داخلها، فهى يمكن دفعها أو تحريكها لكنها لا يمكن أن تخزن أوامر، وعلى هذا يكون الوصف القانونى المُحدِد للعبد بأنه "شيءٌ ومُمتلَك" وصفًا مضللاً، فهو حيوانٌ وممتلك. ونستطيع مقارنة العبد المفرد على الأحرى بالكلب، فالكلب الأسير قد تحرر من ارتباطه بقطيعه وشرد منفردًا، فهو يخضع لأوامر سيده متنازلاً عن فعله الشخصى ما دام متعارضًا مع هذه الأوامر ومقابل ذلك يقوم سيده بتغذيته. وهكذا يكون للغذاء والأمر مصدرٌ واحدٌ هو السيد. وفى إطار هذا السياق لا تتساوى هذه الحالة بحالة الأطفال، فما يميزها عن حالة هؤلاء هو جوهر التحول، فالطفل يتدرب على كل التحولات التى قد يحتاجها فيما بعد. وفى أثناء تدريباته يأخذ والداه بيده ويشجعانه على ذلك دائمًا ويمدانه بما يلزم لتطوير قدراتٍ جديدة ذلك، فينمو الطفل منفتحًا على اتجاهاتٍ عديدة، فإذا ما أتقن تحولاته فإنه يتم الارتقاء به إلى مستوى أعلى. أما العبد فيحدث له النقيض من ذلك، فمثلما لا يسمح السيد لكلبه بصيد ما يبتغيه فيضيق عليه

مجال هذا الصيد بما تقتضيه مصالحه الخاصة، فهكذا أيضًا يمنع العبد أيضًا من التحول، فلا يجوز للعبد أن يفعل هذا أو ذاك، لكن عليه تكرار أداء واجباتٍ بعينها، وكلما ازدادت رتابة هذه الواجبات كانت هى أفضل ما يأمره به سيده. إن أثر تقسيم العمل على تحول الإنسان لا يمثل خطرًا ما دامح سمح له بأداء الكثير من الواجبات. لكن ما إن يقتصر ذلك على واحدٍ فقط إضافة إلى إنجازه الكثير من ذلك قدر الإمكان وفى أقصر وقت ممكن، أى يصير منتجًا، فإنه يصير إلى هذا الذى نعرِّفه حقًا بالعبد. ومنذ البداية كان لا بد من وجود نموذجين مختلفين تمامًا من العبيد أولهما "منفردًا" مثل الكلب الأليف المقيد إلى صاحبه والثانى فى جماعة مثل القطعان فى المراعى، وبالطبع كان ينظر إلى هذه القطعان نفسها على أنها أقدم أنواع العبيد. أما أمنية جعل البشر حيوانات فكانت هى الدافع الأقوى لانتشار العبودية. وليس بوسعنا معرفة قدر هذه الأمنية إلا مقارنةً بنقيضها، أى تحويل الحيوان إلى إنسان. وهذه الأخيرة يدين وجودها بالفضل إلى تكوين عقلى رائع مثل علم التحول والداروينية أو الملاهى الجماهيرية مثل عروض الحيوان المروضة. فما إن أفلح الإنسان فى امتلاك الكثير من جموع العبيد مثل حيوانات القطيع، حتى كان قد وضع أساس الدولة وامتلاك السلطة، ولا يمكن أن نرتاب فى أن أمنية امتلاك شعب كله من العبيد أو الحيوانات قد ازداد قوة داخل الحاكم كلما ازداد عدد الناس الذين يكوِّنون شعبًا.



مظاهر السلطة



عن أوضاع الإنسان
وما تمثله من أشكال السلطة

إن الإنسان الذى يؤثر وضع الوقوف مستقيمًا يستطيع، من دون أن يترك مكانه، أن يجلس أيضًا أو يرقد أو يقبع أو يركع. وكل هذه الأوضاع، وعلى نحوٍ خاص الانتقال من وضعٍ لآخر، تعبر عن شيء بعينه، فقد خلقت المكانة والسلطة أوضاعًا ثابتة تقليدية، ما ييسر التوصل إلى اختلاف مكانة هؤلاء الناس بسهولة من خلال أوضاع بعضهم تجاه البعض الآخر. فنعرف معنى أن يجلس أحدهم منتصب القامة بينما ينظر إليه كل من حوله، وإذا ما ظهر واحدٌ فجأةً فينهض كل الآخرين ويلتفون حوله، وإذا ما خر أحدهم على ركبتيه، وإذا لم يأذن بالجلوس لمن دخل إليه. وتعداد عشوائى مثل الذى قدمناه يوضح توافر الكثير من الأوضاع الصامتة للسلطة. ولسوف يكون من الضرورى أن نلقى الضوء عليها لتحديد أهميتها على نحوٍ أكثر دقة. إن كل وضعٍ جديد يتخذه المرء ينسحب على ما سبقه فإذا ما عرف هذا الوضع يكون تفسير الوضع الآخر أمرًا هينًا، فإذا ما وقف رجل ما فإنه يمكن أن يكون قد قفز للتو من مخيمه أو يكون قد نهض من جلوس، ففى الحالة الأولى قد يكون خشى خطرًا ما، وفى الحالة الأخرى يمكن أن يكون قد قصد تقدير إنسانٍ ما آخر، فكل تغيرٍ للوضع ينطوى على

أمرٍ مفاجئ، وقد يكون معتادًا ومتوقعًا ومتسقًا تمامًا كذلك مع تقاليد جماعةٍ بعينها. لكن هناك دائمًا احتمال تغيير وضعٍ غير متوقع فيكون بذلك أكثر مفاجأةً وأقوى تعبيرًا، ففى أثناء الصلاة بالكنيسة يكثر الركوع وهو أمرٌ مألوف وحتى هؤلاء الذين يؤثرون فعل ذلك لا يعلقون أهميةً كبيرة على ممارسة الركوع الغالبة، لكن إذا ما حدث ذلك فى الطريق على مرأى من رجلٍ كان هو نفسه قد ركع للتو فى الكنيسة فإن أثر ذلك سيكون هائلاً. لكن رغم التأويل المتنوع فإنه لا يمكن تجاهل توجهٍ محدد لتثبيت أوضاع منفردة للإنسان وتوقيتها، فالجالس أو الواقف يعطى انطباعًا بالتحرر من علاقته الزمنية والمكانية مع الآخرين، ومثل هذه الأوضاع للتماثيل صارت بلا معنى وبلا قيمة حتى لا نكاد نلحظها. لكن هذه الأوضاع تكون أكثر تأثيرًا وأكثر أهمية عندما تمس حياتنا اليومية.

الوقوف

يتباهى الإنسان بالوقوف لأنه يكون حرًا غير مرتكز إلى شيء. فسواء كان الوقوف استدعاءً لذكرى المرة الأولى التى وقف فيها الإنسان على قدميه كطفلٍ، أو كانت هى فكرة التفوق على الحيوانات التى لا يكاد يكون من بينها من يستطيع النهوض على قدميه والوقوف حرًا، فدائمًا ما يشعر الواقف بنفسه مستقلاً، فمن ينهض يكون قد بلغ منتهى مستوى معينٍ أى أقصى حدٍّ يستطيع الوصول إليه على الإطلاق، أما من ظل واقفًا لفترةٍ طويلة فإنه يعبر بذلك عن قوة مقاومةٍ بعينها سواء كان لا يدع فرصةً لزعزعته من مكانه أو ابتغى أن يراه الآخرون كاملاً من دون إحساسٍ بالرهبة أو الاختباء. وكلما أبدى هدوءًا فى أثناء وقوفه، وكلما قلت التفاتاته نحو اتجاهاتٍ مختلفة، فإنه يبدو أكثر اطمئنانًا حتى إنه لا يخشى أى هجوم من خلفه حيث تكون نظرته فى اتجاهٍ مخالف. وتزداد أهمية الواقف حين يجعل مسافةً محددة بينه وبين الآخرين المحيطين به، فإذا ما كان أحدهم وحيدًا منفصلاً على مسافةٍ ما وهو واقفٌ فى مواجهة آخرين كثيرين فإنه يبدو ضخمًا على نحوٍ خاص للغاية، كأنه يقف وحيدًا من أجلهم جميعًا، فإذا ما دنا منهم أكثر فإنه سيكون قد حاول الوقوف على نحو أسمى، وإذا ما اختلط بهم تمامًا فإنهم سيرفعونه على أعناقهم على وضعه السابق ويطوفون به فى أرجاء المكان، ويكون هو بذلك قد فقد استقلاليته ويكون على نحوٍ ما قد اعتلاهم

جميعًا. والوقوف يعطى انطباعًا بتوافر طاقة لم تنفد بعد، وهو ما يتضح مع أول حركةٍ للأمام. فالمرء يقف عادةً قبل الإقدام على السير أو الركض، فهو وضعٌ مركزى يتيح للمرء الانطلاق منه من دون تمهيدٍ للتغيير سواء كان ذلك لاتخاذ وضعٍ آخر أو أى صورةٍ من صور الحركة. وهكذا ننزع إلى أن نفترض فى الواقف مدى بعيدًا من الانتباه حتى فى لحظات تكون فيها نواياه شيئًا آخر تمامًا، فربما كان عازمًا فى اللحظة التالية على الذهاب إلى النوم. فدائمًا ما يبالغ المرء فى تقدير الواقف. وهناك احتفاءٌ خاص دائمًا عندما يتعرف رجلٌ بآخر، فهما يتبادلان الأسماء وقوفًا ويمد كلٌ يده للآخر وقوفًا وبذلك يكرم كل منهما الآخر، لكنهما يتنافسان أيضًا. ومهما حدث بعد ذلك فإن اللمسة الأولى "بين رجلٍ ورجل" كانت فى أثناء الوقوف. وفى البلاد التى تبدو فيها أهمية استقلالية الفرد على نحو أن المرء يمارسها بكل السبل ويؤكدها فإن المرء هناك يكثر من الوقوف ويطيله. فالمحالّ التى يتناول فيها البعض مشروبه واقفًا هى مفضلةٌ للغاية فى إنجلترا على سبيل المثال. فالمرء يستطيع فى أى وقتٍ ومن دون تكلفٍ بالغ أن يغادر المحل فى أى وقت، فحركةٌ بسيطة وغير لافتة تسمح له بالتحرر من الآخرين، وهو يشعر من خلال ذلك أنه بحريةٍ أكثر مما هى الحال مع اضطراره إلى النهوض أولاً عن المائدة. فالنهوض يعتبر إفصاحًا عن النية بالابتعاد وهو ما يقيد حريته. حتى فى مجتمعاتهم الخاصة فإن الإنجليز يفضلون الوقوف، فهم يعربون عند وصولهم عن عدم بقائهم لفترةٍ طويلة ويكون بوسعهم التحرك بحريةٍ أو التخلص من أحدهم للالتفات لآخر، ولا يكون فى ذلك لفتٌ للانتباه أو إهانةٌ لأحد. إن المساواة داخل جماعةٍ اجتماعية معينة، وهى واحدة من أهم قواعد الحياة الإنجليزية وأكثرها فائدة يتم التأكيد عليها بمنح الجميع حق الوقوف، فعلى هذا النحو لا يكون هناك "من يعلو الآخر"، ومن شاء منهم محادثة الآخر استطاع مواجهته.

عن الجلوس

يستعير المرء من أجل الجلوس سيقان غيره بدلاً من ساقيه اللتين تنازل عنهما من أجل الوقوف مستقيمًا. وقد نُقِل شكل المقعد الذى نعرفه به اليوم عن العرش. إلا أن هذا كان يتطلب حيواناتٍ أو بشرًا خاضعين يكون عليهم حمل الحاكم. والأربعة سيقان للمقعد هى بديلٌ عن سيقان الحيوان، حصانًا كان أو

بقرةً أو فيلاً. على أننا نفرق بين الجلوس أرضًا وبين هذا النوع من الجلوس على المقاعد العالية، فهذا النوع له معنى آخر تمامًا. فقد اعتبر الجلوس على مقعدٍ امتيازًا، فمن جلس يكون قد احتل مكانًا أعلى من الآخرين الذين كانوا رعيته أو عبيده. فإذا ما جلس وجب عليهم هم الوقوف ولا يكون لتعبهم قيمةٌ ما دام هو مستريحًا. فقد كان هو الشيء الأهم، وبذلك كان توفير قواه المقدسة هى التى تحدد الخير لكل الآخرين. وكل جالسٍ يضغط على شيء ما مستسلم، ولا يكون بوسعه ممارسة ضغطٍ مضاد، وهذه هى سمات ركوب الخيل التى انتقلت إلى الجلوس. إلا أن حركة الخيال دائمًا ما تعطى الانطباع بأن الهدف من ذلك فى حد ذاته أن المرء يريد الوصول للهدف راكبًا وأسرع مما هو ممكن. فعلاقة جمود امتطاء الخيل بالجلوس تجعل من علاقة الأعلى بالأدنى شيئًا مجردًا كأن الأمر ارتبط بالتعبير عن هذه العلاقة تحديدًا. فالأدنى الخالى من الحياة كان قد تم تحديده على هذا النحو للأبد، فهو لم يعد له إرادةٌ على الإطلاق وهو أقل قيمةً من العبد. إنها عبودية بأقصى تبعاتها. أما الأعلى فبوسعه التصرف بكل حريةٍ واعتساف، فهو يستطيع أن يجيء ويجلس ويبقى طويلاً كيفما شاء ويستطيع أن يمضى لحال سبيله من دون أن يلقى بالاً لما تركه خلفه. وهناك نزعةٌ واضحة للتمسك بهذه الرمزية. فالإنسان يتمسك بالمقعد ذى الأربع سيقان، أما الأشكال الحديثة فتجد صعوبةً فى منافسة ذلك. ومن المفترض أن ركوب الخيل سيختفى على نحوٍ أسرع من هذا الشكل من المقاعد الذى تجلى معناه بوضوح تام. إن شرف الجلوس ينطوى على مدى بقاء الجالس على نحوٍ خاص للغاية. فبينما نتوقع الكثير من الشخص الواقف، كما تسهم إمكاناته العديدة فى احترامه وحركته وحيويته بالكثير، فإن المرء يتوقع من الجالس أنه سيبقى جالسًا، فالضغط الذى يمارسه يؤكد مكانته وكلما طالت فترة ممارسته له بدا من خلال ذلك أكثر ثقةً، ولا تكاد توجد مؤسسة إنسانية لا تستفيد من كيفية الجلوس فتستخدمها من أجل حمايتها وتوطيد أركانها. إنه الثقل الجسدى للإنسان الذى يعبر عنه الجلوس وهو ما يتطلب المقعد الأعلى ليجعل من نفسه ذا حيثية، فمعًا مع السيقان الدقيقة يبدو الجالس بالفعل أكثر ثقلاً. أما الجلوس مباشرةً على الأرض فيظهر الإنسان مختلفًا، فالأرض أكثر ثقلاً وكثافةً من أى مخلوقٍ، أما الضغط عليها فلا يشكل أدنى أهمية، فليس هناك شكلٌ أساسى للسلطة أعظم من هذا الذى يمارسه جسد الإنسان، فهو بوسعه من خلال طول قامته أن يفوق الآخرين،

لكـن ذلـك يتطلـب منـه أن ينهـض واقفًـا، وبوسـعه أن يكـون مؤثـرًا مـن خـلال ثقلـه وفى سـبيل ذلـك يتحتـم عليـه ممارسـة ضغطًـا مرئيًـا، ومـن خـلال نهوضـه يضـاف الوضـع الأول إلى الثـانى، فالقـاضى الـذى يكـون جالسًـا فى أثنـاء نظـر قضيـةٍ مـا يكـون ملتزمًـا بعـدم الحركـة قـدر إمكانـه، ثـم بعـد ذلـك، عندمـا يقـدم عـلى إصـدار الحكـم فإنـه ينهـض واقفًـا فجـأةً فيعـبر بذلـك عـن هـذه العلاقـة فى أكـثر وجوههـا نقـاءً. إن المظاهـر المتنوعـة للجلـوس هـى فى جوهرهـا مظاهـر متنوعـةٌ للضغـط، فالمقاعـد المبطنـة ليسـت مرنـةً فحسـب، فهـى تمنـح الجالـس شـعورًا خفيًـا بأنـه ينـوء بثقلـه عـلى شىء حـى، فارتخـاء البطانـة ومقاومتهـا المرنـة يشـبهان مقاومـة وارتخـاء اللحـم الحـى. وقـد يكـون عـزوف بعـض النـاس عـن المقاعـد المرنـة للغايـة مرتبطًـا بمعرفـة هـذا الأمـر. ومـن المدهـش أن نـرى إلى أى مـدى ذهبـت راحـة الجلـوس حتـى لـدى الجماعـات الإنسـانية غـير المرفهـة عـادةً، إلا أن الأمـر هنـا يرتبـط بأنـاسٍ صـار الحكـم طبيعـةً ثانيـة لهـم وهـم يؤثـرون إبـراز ذلـك فى شـكل رمـزٍ مبسـط.

عن الرقود

إن الرقـود يعنـى نـزع أسـلحة الإنسـان، فالعديـد مـن التصرفـات والسـلوكيات التى تحـدد وضـع المـرء فى وضـع الاسـتقامة يتـم التخـلى عنهـا، كمـن تحـرر مـن ملابسـه، كأنهـا لا تنتمـى إليـه إطلاقًـا رغـم اجتهـاده كثـيرًا فى سـبيلها. وهـذه العمليـة الظاهريـة تسـير متوازيـةً مـع العمليـة الداخليـة للنعـاس حيـث يتـم التخـلى عـن الكثـير ليطـرح جانبًـا، مـا كان يبـدو أنـه لا غنـى عنـه عـادةً مـن سـدود وموانـع بعينهـا حاميـة للفكـر، أى ملابـس الـروح. فالراقـد ينـزع أسـلحته إلى حـد أنـه لا يمكـن فهـم كيـف اسـتطاعت البشريـة إنجـاز البقـاء عـلى قيـد الحيـاة بعـد النـوم، ففـى الحالـة الأكـثر بدائيـة التـى عاشـها البـشر فإنهـم لم يسـكنوا دائمًـا الكهـوف، لأن حتـى هـذه لم تكـن آمنـة. أمـا الأبـواب المصنوعـة مـن الأغصـان والأوراق التـى كانـت تحمـى مـن الوحـوش فى أثنـاء الليـل فكانـت لا تمثـل حمايـةً عـلى الإطـلاق. فمـن المعجـزات أنـه ظـل هنـاك بـشرٌ، فمـن المفـترض أنهـم قـد انقرضـوا مـن زمـنٍ بعيـد عندمـا كان عددهـم ضئيـلاً قبـل أمـدٍ بعيـد مـن انتظامهـم صفوفًـا مكثفـة للقضـاء عـلى بعضهـم البعـض. أمـا حقيقـة النـوم واتسـامه بالعجـز وتكـراره واسـتمراره فقـد اتضـح ضحالـة كل نظريـات التكيـف التـى لم تسـتطع تفسـير كثـير مـن الأمـور وصـارت تبحـث مـرارًا وتكـرارًا عـن تفسـيراتٍ

وهميـة، لكـن الأمـر هنـا لا يـدور حـول هـذه المسـألة الأعمـق والتـى يصعـب تفسـيرها تفسـيرًا عميقًـا، أى سر قـدرة البشريـة بإجمالهـا عـلى أن تبقـى عـلى قيـد الحيـاة بعـد النـوم، لأن الأمـر هنـا يرتبـط بالرقـود ومقـدار سـلطته مقارنـةً بأوضـاع أخـرى للإنسـان. فمـن ناحيـةٍ، وكـما رأينـا، يكـون الواقـف معـبرًا عـن طـول القامـة والاسـتقلالية والجالـس يعـبر عـن الثقـل والفـترة الزمنيـة، وعـلى الناحيـة الأخـرى فـإن الراقـد يعـبر عـن استسـلامٍ خاصـةً عنـد النـوم فيكـون ذلـك كامـلاً، إلا أن ذلـك ليـس استسـلامًا إيجابيًـا فهـو غـير مـرئى ولا يبـدو لـه أى أثـر، فالراقـد يتحـرر أكـثر فأكـثر مـن محيطـه، فهـو يريـد بـل السـبل أن يختفـى داخـل نفسـه ويكـون فى حالـةٍ خاليـة مـن الحـدث، فعـدم الانتبـاه قـد يمثـل لـه قـدرًا مـن الأمـان، قـدرًا معينًـا وإن كان ضئيـلاً، وبقـدر إمكانـه فقـط فإنـه يحمـل نفسـه عـلى لمـس جسـدٍ آخـر فهـو يرقـد عـلى امتـداده كامـلاً وفى كل مـكان قـدر المسـتطاع يلمـس هـو شـيئًا مـا لا يكـون سـوى نفسـه. فأمـا الواقـف فهـو حـرٌ، ولا يرتكـز عـلى شىء، بينـما يمـارس الجالـس ضغطًـا مـا، وأمـا الراقـد فهـو ليـس حـرًا فى أى شىء، فهـو يرتكـز عـلى كل شىء يكـون متاحًـا كـما يـوزع ضغطـه عـلى نحـوٍ لا يـكاد يحـس بـه. أمـا إمكانيـة أن ينهـض فجـأةً مـن رقـادٍ عميـق ليقفـز عاليًـا فإنهـا سـوف تكـون حالـةً مدعـاة للإعجـاب والإثـارة، فهـى توضـح قـدرة الإنسـان الكبـيرة عـلى الحيـاة، وقدرتـه عـلى الإفاقـة مـن النـوم ومـدى قدرتـه عـلى ملاحظـة كل شىء وسـماعه حتـى إنـه لا يفاجـأ بـه فى الواقـع. وقـد أكـد كثـيرون مـن أصحـاب السـلطة عـلى هـذا الانتقـال مـن الرقـاد إلى وضـع الانتصـاب. وقـد نـشروا روايـاتٍ عـن ذلـك وكيـف حـدث لهـم ذلـك التحـول فى سرعـة الـبرق. ومـن المؤكـد أن أمنيـة مواصلـة نمـو الجسـد تلعـب دورًا هنـا، فالنمـو يتوقـف لدينـا عنـد سـنٍ معينـة، أمـا كل أصحـاب السـلطة فيبتغـون أساسًـا أن ينمـو جسـدهم عـلى نحـوٍ أكـبر، بـل إنهـم يؤثـرون أن يجعلـوا القـدرة عـلى ذلـك تحـت سـيطرتهم ليسـتخدموها حسـب احتياجهـم. فالنمـو المفاجـئ غـير المتوقـع يبعـث الفـزع فى الآخريـن الذيـن لا يملكـون الـشىء نفسـه، وهـم يتفوقـون عليهـم بذلـك، وبعـد ذلـك عندمـا لا يراهـم أحـد يعـودون ثانيـةً إلى حجمهـم الصغـير، ليكـبر حجمهـم فى أول فرصـة فى العلـن. والإنسـان الـذى يسـتيقظ ويقفـز مـن الفـراش، وقـد كان قبـل لحظـات قـد نـام متكـورًا كالجنـين فى رحـم أمـه، يسـتعيد هـذه الحركـة المفاجئـة ثانيـةً لنمـوه كلـه، وحتـى لـو أنـه، رغـم إحساسـه بالمـرارة، لم يسـتطع أن ينمـو لحجـمٍ أكـبر عـما هـو عليـه فإنـه سـيكون عـلى الأقـل فى حجمـه الـذى هـو عليـه. إلا أنـه هنـاك بجانـب هـؤلاء ممـن ينشـدون الراحـة آخـرون يرقـدون رغـمًا

عنهم من أصيبوا بجروح أو من لا يستطيعون الوقوف، رغم رغبتهم الشديدة فى ذلك. أما الراقدون رغمًا عنهم فإن نكبتهم تذكر بالحيوانات المصابة المقتنصة. ويعتبرون ما أصابهم وخضعوا له بمثابة دفعة قوية إلى منحدر الموت. فالمصاب يصبح مقضيًا عليه تمامًا، فإن كان قبل ذلك خطرًا للغاية فإن موته يجعله مادةً للكراهية فيُدهَس بالأقدام لأنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ويلقى به جانبًا، ولسوف يلام على أنه ميت ويعترض الطريق أيضًا فلا ينبغى أن يصبح أى شىء حتى لو كان جثةً هامدة.

إن سقوط الإنسان الذى يهوى إلى الأعماق يبدو مدعاةً لاحتقارٍ ونفورٍ أعظم من سقوط الحيوان. ويمكن القول بأن مشهد المصاب بالنسبة للمنتصب يوحدهما معًا، فهو انتصار طبيعى مألوف على المصاب وانطباع عن سقوط مخزٍ للإنسان، والمقصود هنا هو ما يعتمل داخل المنتصب فى "الواقع" وليس "المفترض" أن يدور داخله. وفى بعض الحالات يمكن أن يزداد هذا التوجه قوةً. وقد كان لكثيرين ممن سقطوا تأثيرٌ رهيب على من عايش ذلك، فقد بدا أنه وحده الذى أسقطهم فينمو شعوره بالسلطة بسرعة وفى طفرات، وهو ما لا يستطيع أحدٌ منعه من النمو، فهو يمتلك كوم الموتى أو المحتضرين كافةً، وهو الوحيد من بقى حيًا وكل شىء آخر صار غنيمةً له، ولا يوجد شعورٌ بالنصر أخطر من ذلك، فمن سمح لنفسه بذلك مرةً سيشعر بذلك عند تكراره فى المستقبل. وتُعلق على تباين العدد بين الراقدين والمنتصبين أهميةٌ كبيرة، كما تلعب الظروف أيضًا دورًا مهمًا، فللحرب والمعركة طقوسهما الخاصة وينظر إليهما كحدث "كتلى" منفصل. لذا كانت الممارسات حرةً تمامًا فى مواجهة العدو الذى لا يُعاقَب أحدٌ على سقوطه، فبوسع المرء أن يشعر تجاهه كما لو كان هذا من طبائع الأمور. أما فى حالة السلم بالمدينة الكبيرة فإنه يكون للشخص المفرد الذى يسقط ولا يستطيع النهوض أثرٌ مختلف على كثيرين ممن رآوه ولسوف يضع كل من هؤلاء نفسه مكانه طبقًا لظروفه ومسلكه وطريقته بأبعادٍ مختلفة فيواصل أحدهم سيره بضميرٍ مؤنب، أو أنه سيبذل جهدًا فى مساعدته. فإذا ما استطاع النهوض على قدميه ثانيةً فإن كل من رأوه سوف يشعرون بالرضا لعودة هذا الإنسان للحياة الذى هو ليس سواهم أنفسهم. فإن لم يستطع ذلك فإنه يُسلَّم إلى المؤسسة المعنية. ويتولد هناك دائمًا لدى البشر الأسوياء شعورٌ هش بالاحتقار نحو من صار على هذه الحال، فيمدون له يد المساعدة التى يحتاجها، لكنهم

بذلك يكونون قد طردوه من جماعة المنتصبين ولا يقبلونه بينهم ولو للحظةٍ واحدة.

الجلوس أرضًا

يعبر الجلوس أرضًا عن عدم الاحتياج، أى الانكفاء على الذات. فالمرء يكور نفسه قدر الإمكان ولا ينتظر شيئًا من الآخرين، متنازلاً عن أى فعل قد يفضى إلى رد فعل. ويبدو الجالس أرضًا هادئًا راضيًا ولا يتوقع المرء هجومًا منه، فهو راضٍ سواء كان لديه كل ما يحتاجه أو أنه لم يعد يطلب لنفسه شيئًا. فالشحاذ الجالس أرضًا يعبر عن أنه راضٍ وقانع بأى شىء يمنحه المرء له. أما الشكل الشرقى للجلوس أرضًا الذى اعتاده الأغنياء مع زائريهم فينطوى على شىء من موقفهم الشخصى نحو ما يمتلكونه، فيبدون كأنهم يحملون ما يملكون داخلهم مطمئنين إلى ذلك تمامًا. وما داموا جالسين أرضًا فإنهم لا يظهرون أية مخاوف أو هموم من أن يسرق ذلك منهم أو يفقدوه على نحوٍ أو آخر. وهم يستعينون بالخدم على أنهم خدم لممتلكاتهم، فيتجنبون بذلك الجفاء الطبيعى لهذه العلاقة. فالمرء هنا لا يستعرض جلوسه على شىءٍ كما يفعل الجميع الجاثمون على المقاعد، فهو هنا يكون مثل وعاء اتخذ هيئةً حسنة وقد احتوى داخله كل ما يجب احتواؤه. ويأتى الخدم ليعتنوا بالوعاء. لكن الرضا بما يمكن حدوثه هى من خصائص هذا النوع من الجلوس أرضًا، والرجل نفسه كان سيجلس هكذا كشحاذ وسوف يعبر ذلك عن أنه ليس شخصًا آخر. فالجلوس أرضًا يمكن أن ينطوى على كليهما أى الثروة والفقر. وهو مشهدٌ مألوف لدى كل من يعرف الشرق، فالجالس أرضًا يكون راضيًا متحررًا من الناس ولم يجثم على أحد.

الركوع

بجوار شكل الرقود العاجز، الذى تعرفنا عليه، يوجد وضعٌ إيجابى يؤثر مباشرةً على صاحب القرار الذى يشعر تجاه هذا العجز بتعاظم سلطته، فيعتبر مسلك "الركوع" تفسيرًا لتوسل العفو.

فالمحكوم عليه بالإعدام ينكس رأسه ليستسلم لاجتزازه، فهو لا يفعل شيئًا ضد ذلك. فمن خلال وضع جسده ييسر تنفيذ إرادة الآخر، لكنه فى اللحظة الأخيرة يعقد يديه متوسلاً العفو من صاحب القدرة. والركوع هو دائمًا خدعة اللحظة الأخيرة، وإن كانت فى حقيقتها تدور حول شىء آخر تمامًا فهى تملقٌ مبالغ فيه ينطوى على لفت الانتباه، فهذا الذى بدا مستسلمًا للموت ينسب إلى من ركع أمامه السلطة العظمى، أى سلطته على الحياة والموت. ولا بد من أن يتوافر لهذا القوى ضمان كل شىء آخر. فرحمته ينبغى أن تتساوى مع عجز الراكع، الذى يبالغ فى اتساع الهوة بينهما ليعتقد القادر أنه وحده الذى يستطيع اجتيازها، فإن لم يفعل شعر بضآلة قدره فى اللحظة التى يركع فيها الآخر أمامه.

المايسترو

ليس هناك ما يعبر عن السلطة أكثر من عمل المايسترو، فكل تفاصيل مسلكه العلنى له دلالةٌ، وكل ما يقوم به يلقى ضوءًا على طبيعة السلطة، ومن لا يدرى عنها شيئًا يستطيع بعد مشاهدةٍ منتبهة للمايسترو أن يستنتج صفاتها الواحدة تلو الأخرى. ولما كان ذلك لم يحدث قط فإن لذلك مبررٌ كاشف، فالموسيقى التى يستدعيها المايسترو تبدو للناس هى الأمر الرئيسى، ويعتبر كأنه أمرٌ متفق عليه بأن يذهب المرء إلى حفلٍ موسيقى ليستمع إلى سيمفونيات، ويكون المايسترو نفسه هو الأكثر اقتناعًا بذلك، فدافعه - كما يعتقد- هو خدمة الموسيقى، وهو ما عليه نقله وليس شيئًا آخر. فالمايسترو يعتبر نفسه الخادم الأول للموسيقى وهو مشبعٌ بها إلى حد أنه لا ينشعل بأية فكرةٍ أخرى غير المعنى الموسيقى لعمله. وقد لا يُدهَش أحدٌ غيره بالتفسير التالى. إن المايسترو واقفٌ. فما زال انتصاب الإنسان، كذكرى قديمة، يمثل أهميةً فى كثيرٍ من صور السلطة. فهو يقف وحيدًا بينما يجلس حوله أفراد فرقة الموسيقى ويجلس خلفه المستمعون. ومما يسترعى الانتباه أنه الوحيد الواقف. وهو يقف مرتفع الهامة ويُرَى من الأمام والخلف، فمن الأمام تؤثر حركته على الفرقة الموسيقية وعلى المستمعين من خلفه. أما نظامه الحقيقى فإنه يقوده بيده أو بالعصا،

وهـو يبعـث الحيـاة فى هـذا الصـوت أو ذاك مـن خـلال حركـةٍ بسـيطة تمامًـا، ويخـرس كل مـا يشـاء دائمًـا. وهكـذا تكـون لـه السـلطة عـلى حيـاة ومـوت الأصـوات، فالصـوت الـذى يكـون قـد مـات مـن زمـنٍ بعيـد يسـتطيع العـودة للحيـاة بأمـره هـو. واختـلاف الآلات الموسـيقية يماثـل اختـلاف البـشر، فالفرقـة الموسـيقية تكـون بمثابـة جمـعٍ لـكل نماذجهـم المهمـة. أمـا اسـتعدادهم لطاعتـه فيتيـح للمايسـترو تحويلهـم إلى وحـدة يكـون هـو رمـزًا علنيًـا لهـا بوجـهٍ عـام. فأمـا العمـل الـذى يؤديـه، وهـو فى كل الأحـوال ذو طبيعـةٍ معقـدة، فيتطلـب منـه الانتبـاه الشـديد. فالحضـور الذهنـى والسرعـة يعتـبران مـن صفاتـه الأساسـية، فعليـه أن ينقـض بسرعـة الـبرق عـلى مـن يخـترق القانـون، والقوانـين توضـع بـين يديـه كنوتـة موسـيقية، وهـى متوافـرة للآخريـن كذلـك فيمكنهـم مراقبـة تنفيـذه لهـا، لكنـه هـو وحـده الـذى يحكـم ذلـك وهـو وحـده الـذى يحكـم فـورًا عـلى الأخطـاء، ولمـا كان ذلـك يحـدث علنًـا، وهـو مـا يـراه الجميـع، فـإن ذلـك يعطـى المايسـترو شـعورًا مـن نـوعٍ خـاص، فهـو قـد اعتـاد أن يكـون دائمًـا مرئيًـا ولا يسـتطيع الاسـتغناء عـن ذلـك إلا بصعوبـة. وجلـوس المسـتمعين فى سـكونٍ يخضـع لأمـر المايسـترو بقـدر طاعـة الفرقـة لـه، فهنـاك ممارسـة إذعـانٍ عـلى المسـتمعين بـأن يلزمـوا عـدم الحركـة، فحركاتهـم تتداخـل قبـل أن يظهـر هـو أمـام الفرقـة، أمـا وجـود الموسـيقيين فهـو أمـرٌ لا يزعـج أحـدًا ولا يـكاد يلتفـت إليهـم. فـإذا مـا ظهـر المايسـترو نهـض واقفًـا وهـو يتنحنـح ويرفـع عصـاه فيصمـت الجميـع ويتجمـدون بمكانهـم فـلا يجـوز لهـم الحركـة مـا دام هـو يقـود الفرقـة، فـإذا انتهـى كان عليهـم أن يصفقـوا، بعد أن اضطـروا إلى تخزيـن كل رغبتهـم فى الحركـة التـى أيقظتهـا الموسـيقى فيهـم حتـى النهايـة لتنطلـق بعـد ذلـك. وأمـام الأيـدى المصفقـة ينحنـى هـو ومـن أجلهـا يعـود ثانيـةً مـا دامـت الأيـادى تريـد ذلـك فلهـا هـى فقـط يستسـلم هـو، ومـن أجلهـا هـى يعيـش هـو حقًـا، فهـى التراكـم القديـم للمنتـصر الـذى صـار مـن حقـه. أمـا حجـم النـصر فيعـبر عنـه حجـم التصفيـق. فالنـصر والهزيمـة يتخـذان الشـكل الـذى يتسـق مـع كيانـه الروحـى ولا يعتـد بـشىءٍ سـوى ذلـك. فـكل مـا يوجـد مـن أمـورٍ أخـرى فى الحيـاة يتحـول هنـا إلى نـصرٍ وهزيمـة. وفى أثنـاء العـزف يكـون المايسـترو بمثابـة القائـد للجمـع بالقاعـة، فهـو يقـف فى مقدمتهـم وقـد أدار لهـم ظهـره. إنـه هـو الـذى يتبعـه المـرء، فهـو مـن يقـدم عـلى الخطـوة الأولى، وبـدلاً مـن القـدم يـؤدى هـو ذلـك باليـد. أمـا المسـار الموسـيقى الـذى تحـدده اليـد فيكـون رمـزًا للطريـق الـذى كان يطرقـه بخطـاه. وهـو يختطـف الكـوم بالقاعـة، وفى أثنـاء العمـل كلـه لا يـرى أولئـك وجهـه

أبدًا، فهو صلبٌ لا يسمح لنفسه بالراحة، وهو يقف بظهره دائمًا أمامهم كأنه هو الهدف، فإذا ما استدار لمرةٍ واحدة انكسر المسار فيختفى الطريق الذى شقوه، فيجلسون مصدومين بلا حراكٍ بالقاعة. لكن بوسع المرء الاعتماد على أنه لن يستدير، فبينما هم يتابعونه يكون عليه هو قيادة جيش من العازفين المحترفين من خلال يده التى لا تشير إلى الطريق فحسب بل بل تصدر الأوامر كذلك. وأما نظرته المركزة قدر الإمكان فهى تشمل الفرقة كافةً، وكل فردٍ فيها يشعر أنه يراه، بل بالأحرى أنه يسمعه، فأصوات الآلات هى آراءٌ ومعتقدات يمنحها هو أقصى انتباه، فهو العليم بكل شىء، فبينما يقدم الموسيقيون نغماتهم علنًا يكون لديه هو نوتة موسيقية كاملة برأسه أو على الحامل. فهو يعرف بدقةٍ بما هو مسموح لكل فردٍ فى كل لحظة. ولما كان ينتبه للجميع معًا فإن ذلك يمنحه منزلة الهيمنة. فهو موجودٌ برأس كل فردٍ على نحوٍ ما. وهو يعرف ما على كل فردٍ فعله، فهو مجمع القوانين الحى القابض على طرفى العالم الأخلاقى، فهو يعلن عما يحدث من خلال أمرٍ بيده، كما يمنع ما لا يصح أن يحدث، وأذنه تلاحق فى الأثير ما هو محظور. وبذلك يكون المايسترو هو من يجسد عمل الفرقة كله. ولما كان العالم فى أثناء العرض لا يتكون من شىءٍ آخر غير هذا العمل، إضافةً إلى توافقه وتتابعه، فإن المايسترو يكون فى أثناء ذلك كله هو حاكم العالم.

الـمـجـد

إن الساعى إلى التمجيد الحقيقى لا يهتم بلسان من يلهجون باسمه، فهو لا يعتبر بالفرق بين هذا وذاك، فجوهر الأمر أن يُذكَر الاسم. وعدم مبالاة الساعى إلى المجد بالمرددين لاسمه، أو المساواة بينهم، هو ما يشى بأن نزوعه للشهرة قد نشأ عن أحداث الكتلة. فاسمه هو ما يجمع الكتلة. والاسم يعيش حياته الخاصة النهمة غير مرتبطٍ إلا بالقليل من شأن الإنسان فى الواقع. أما كتلة الساعى إلى المجد فتتكون من ظلال، وكائنات لا يكون لهم وجود فى الحياة ما استطاعوا ذكر اسمه ولو لمرة واحدة وحيدة، وما ينتظر منهم أن يرددوه غالبًا بين الكثيرين أى فى إطار جماعة حتى يتعلمه كثيرون ويدعموه بنطقهم له.

إلا أن ما تهتم به هذه الظلال، فيما عدا ذلك من ناحية الحجم والمظهر والغذاء، فهو أمرٌ لا يهم صاحب الصيت على الإطلاق. فإذا ما كان أحدهم لا يزال يهتم بهذه الأفواه المرددة للاسم، ويراهن على هؤلاء أو يجندهم فإنه يكون ما زال لم يحظ بالشهرة بعد، بل إنه يكون حينذاك فى مرحلة تدريب قيادات جيشه الذى سيكونه من الظلال. وهو لا يكتسب المجد إلا عندما يكون بوسعه السماح بسقوط هؤلاء من دون أن يخسر هو شيئًا م نجراء ذلك. أما الفروق بين الثرى وصاحب السلطة والمشهور فيمكن تحديدها كالتالى: فالثرى يجمع أكوامًا وقطعانًا. أو المال الذى يستخدمه لاشتراء ذلك، وهو لا يهتم بالبشر.

أما صاحب السلطة فيقوم بجمع البشر، فالأكوام والقطعان لا تعني له شيئًا إلا عندما يحتاجها في اكتساب الناس، فهو يريد أناسًا أحياء ليرسلهم إلى الموت أو ليأخذهم معه إليه، أما الموتى السابقون والنسل الجديد فلا يهمه أمرهم إلا على نحوٍ غير مباشر. وأما المشهور فيجمع أصوات جماعية وهو لا يريد سوى سماع اسمه ترردده أفواههم، وإن كان هؤلاء موتى أو أحياءً، أم لم يولدوا بعد فإنه لا ينشغل بذلك، فما يهمه فقط أنهم كبار وتدربوا على النطق باسمه.

نظام الزمن

يعتبر النظام أمرًا جوهريًا لكل الأنماط السياسية الأكبر حجمًا. فنظام الوقت ينظم كل أنشطة البشر المشتركة. فبوسعنا القول بأن نظام الوقت هو أرفع سمات كل أنواع الحكم. فالسلطة الناشئة حديثًا الساعية إلى ترسيخ وجودها لا بد من أن تتجه إلى نظامٍ جديد للزمن، فيكون الحال كأن الزمن بدأ معها، والأهم من ذلك لكل سلطةٍ جديدة ألا ينقضى الوقت. فمن حقوقها الزمنية هذه يُنتزَع تصور تضخم السلطة. وهو ما لم يستطع هتلر فعله مع إمبراطورية يمتد تاريخها لألف سنة. ولقد استمر تقويم يوليوس قيصر لزمنٍ أطول، فقد استمر الشهر الذى يحمل اسمه بعده بكثير. ومن بين الشخصيات التاريخية كان أغسطس وحده هو الذى حقق اسم شهر مستمر، بينما كان هناك آخرون أطلقوا أسماءهم على الشهور على نحوٍ عابر إلا أن أسماءهم سقطت مثلما سقطت تماثيلهم التذكارية. أما التأثير الأعظم على نظام الزمن فكان للمسيح، فقد تفوق فى هذا الشأن على الإله نفسه، هذا الإله الذى خلق العالم ما مكن اليهود من وضع بداية حساب الزمن. أما الرومان فقد حسبوا الزمن بدايةً من تأسيس مدينتهم وهى طريقة استعاروها من الـ"أرتوريين"، وهو ما حقق الكثير لمصير روما العظيم فى أعين العالم. كما اكتفى بعض الفاتحين بتسجيل أسمائهم فى

موضعٍ ما بالتقويم. وقد تكون آمال نابليون قد علقت على يوم الخامس عشر من أغسطس، فربط اسمٍ ما بتكرارٍ منتظم للزمن يولد جاذبية لا تقاوم. ولما كانت أغلبية البشر العظمى ليست على دراية بأصل التدوين الزمنى فإن ذلك لم يثبط عزيمة أصحاب السلطة لتخليد أسمائهم بهذه الطريقة، إلا أن أحدًا لم يستطع إطلاق اسمه على فصلٍ كامل من السنة، رغم تسجيل حلقاتٍ كاملة من القرون باسم أسرةٍ حاكمة واحدة. فالتاريخ الصينى تم وضعه حسب عهود حكم هذه الأسرات، فهم يذكرون عصر "الهان" أو عصر "التانج". وقد استفادت من مجدهم أسراتٌ أخرى صغيرة بائسة، وقد صار ذلك وسيلةً لحساب السنين فى مجمله لدى الصينيين، أى تمجيد للأسرات أكثر منه للأفراد، إلا أن ربط تسجيل أصحاب السلطة بالزمن لم ينته عند إعجابهم بأسمائهم، فقد ارتبط الأمر لديهم بتنظيم حساب الزمن بحد ذاته وليس تغيير أسماء وحداتٍ زمنية كانت موجودةً بالفعل. وتاريخ الصينيين يبدأ بمثل هذه النظام فقد تأسست مكانة الحكام الأسطوريين فى جانبها الأعظم على تقسيم الزمن الفعال الذى نسب إلى هؤلاء، وقد عُيّن موظفون خصوصًا للقيام على رعاية ذلك، وكان يتم عقابهم إن هم أهملوا ذلك. ولم يتوحد الصينيون إلا بعد وضعهم لزمنٍ مشترك، بل إن المدنيات لم تعرف حدودها إلا من خلال وضع نظام الزمن، وهو ما أثبت جدارةً فى استمرار موروثهم المنتظم، وقد انهارت عندما توقفت عن الاستمرار فى ذلك وانتهت عندما لم يعد يؤخذ تقويمها الزمنى على محمل الجدية. وفى هذه النقطة كان التطابق مع حياة الإنسان الفرد أمرًا ممكنًا، فالإنسان الذى لا يريد معرفة كم بلغ من العمر يكون قد طوى صفحة حياته وهو لا يستمر فى الحياة إذا لم يستطع معرفة ذلك. وتعتبر حقب فقدان التوجه الزمنى سواء على مستوى الفرد أو حضارات كاملة حقب خزى يحاول المرء استئصالها على أسرع وجه ممكن. أما الأسباب العملية لهذه الأهمية الغالبة التى اكتسبها تقسيم الزمن فهى واضحة جلية، فهو يضم وحدات كبيرة من البشر معًا عاشوا متفرقين عن بعضهم البعض ولم يروا بعضهم البعض، أما فى جماعة صغيرة تتكون من خمسين فردًا فإنه دائمًا ما يعرف كل منهم بما يفعله الآخر وهم يلتقون بسهولة لأداء ممارساتهم الجماعية، فإيقاعهم يدور فى إطار حالات حزم بعينها، وهم يرقصونها دائمًا كما يرقصون أشياءً أخرى كثيرة، فلم يعد الأمر لديهم يتوقف على تداول زمن حزمة إلى حزمة أخرى، فإن كان الأمر يتوقف على الزمن فإنه يمكن إبلاغه بسهولة لأنهم يعيشون بالقرب من بعضهم

البعـض، ومـع ذلـك التوسـع فى العلاقـة فـإن الاهتـمام بالوقـت الصحيـح يصـير أكـثر إلحاحًـا وهنـا تسـتخدم الطبـول وإشـارات النـار لإبـلاغ المعلومـات إلى مـدى واسـع. ومـن المعـروف أن موجـز الأزمنـة الأولى للمجموعـات الأكـبر قـد خـدم حيـاة الفـرد، فالملـوك الذيـن امتـدت حياتهـم لمرحلـة زمنيـة بعيـدة كانـوا جسـدوا هـذا الزمـن للجميـع. أمـا موتهـم سـواء كانـت نتيجـة لتدهـور قواهـم الكاملـة أو جـاء فيـما بعـد متسـقًا مـع مـدة حياتهـم الطبيعيـة فإنـه كان يمثـل فصـلاً مـن الزمـن، فقـد كانـوا هـم الزمـن، وبـين أحدهـم والآخـر كان يتوقـف الزمـن. ومثـل هـذه الحقـب الزمنيـة البينيـة يحـاول المـرء قصرهـا عـلى فـترةٍ زمنيـة قليلـة قـدر الإمـكان.

البلاط

تقوم فكرة البلاط بالمقام الأول على أنه مركز، أى نقطة التقاءٍ يتوجه الناس إليها. فالنزوع إلى الحركة نحو نقطة مركزية هو أمرٌ قديم للغاية، وقد لوحظ ذلك لدى الشمبانزى. إلا أن النقطة المركزية هذه كانت قديمًا متحركةً، فقد تنشأ هنا أو هناك، وهى تنتقل مع هؤلاء الذين يتحركون حولها. ولا تترسخ النقطة المركزية إلا على نحوٍ تدريجى. وكانت الأحجار الكبيرة والأشجار هى المثل لكل ما هو ثابت بمكانه، فشيدت من الأحجار والاشجار فيما بعد أكثر مراكز الإقامة ثباتًا، وما تبقى منها كان يتكرر الإشادة به. فمشقة تشييد أحد هذه المراكز وجلب الأحجار من مسافاتٍ بعيدة وعدد البشر المشاركين فى هذا العمل وكذلك الفترة الزمنية ذاتها التى يتطلبها تشييد هذا المركز، كل هذا ساهم فى الارتقاء بمكانته كمركزٍ باقٍ. إلا أن هذه النقطة المركزية الدائمة لعالمٍ صغير والتى صارت بمثابة النظام به لم تكن قد صارت "بلاطًا" بعد. فالبلاط يتطلب انتقاء واعٍ لمجموعةً أساسية من رجال بعدد مناسب ليكونوا جزءًا لا يتجزأ من المبنى. وينتظمون كانتظام الأروقة نفسها فى درجاتٍ ومراتب مختلفة. وتُحدَّد مهماتهم على نحوٍ دقيق ومرهق. ولا يسمح لهم إلا بالعمل على نفس القدر من الدقة وألا يتجاوزوا ذلك. وفى أوقاتٍ محددة يتجمعون، من دون التنازل

عـما هـم عليـه أو نسـيان مكانهـم وهـم مدركـون تمامًـا لحدودهـم، للإعـراب عـن ولائهـم الحاكـم، ويتبـدى إعـلان ولائهـم لـه فى وجودهـم وفى توجههـم إليـه والتفافهـم حولـه عـلى ألا يفرطـوا فى الاقـتراب منـه، وهـم ينبهـرون بـه كـما يرهبـون جانبـه وينتظـرون منـه كل شىء. وفى هـذا المنـاخ المتميـز بالبريـق والفـزع والإنعـام بنفـس القـدر يقـضى هـؤلاء حياتهـم. ولا يـكاد يوجـد مـا يشـغلهم عـن ذلـك، فقـد اسـتوطنوا هـم الشـمس ويبرهنـون للآخريـن بذلـك عـن أنهـا صالحـةٌ للسـكنى. إن المسـلك الباهر لرجـال البـلاط الـذى تحتفـظ بـه عينـا الحاكـم لهـو الأمـر الوحيـد المشـترك بـين هـؤلاء، فهـم فى ذلـك متسـاوون مـن البدايـة إلى النهايـة، ومـن وجهـة النظـر الثابتـة هـذه يكـون قـد صـار لديهـم شىءٌ مـن كيـان الكتلـة، لكنـه شىءٌ مـن مبـادئ الكتلـة فقـط وليـس غـير ذلـك، لأن هـذه النظـرة تحديـدًا هـى التـى تذِّكـر كلاً منهـم بواجبـه الـذى يختلـف عـن واجبـات كل رجـال البـلاط الآخريـن. ومسـلك رجـال البـلاط ينبغـى أن يصيـب بقيـة الرعيـة بالعـدوى، فـما يفعلـه أولئـك دائمًـا ينبغـى عـلى هـؤلاء القيـام بـه أحيانًـا. وفى أثنـاء بعـض المناسـبات، عندمـا يذهـب الملـك إلى المدينـة عـلى سـبيل المثـال، يكـون عـلى جميـع سـكانها انتظـاره مثلـما يفعـل رجـال البـلاط بالقـصر عـادةً. أمـا المبايعـة التـى كانـت فى رقابهـم لزمـن طويـل فيقدمونهـا دفعـةً واحـدة بحـماس. والاقـتراب مـن البـلاط قـد يغـرى كل الرعايـا بالذهـاب إلى العاصمـة حيـث يتجمعـون فى دوائـر كبـيرة مكثفـة حـول دائـرة رجـال البـلاط. فالعاصمـة تنمـو حـول البـلاط وتديـن بيوتهـا لـه بمبايعـة مسـتمرة. أمـا الملـك الكريـم، كـما هـو المنتظـر منـه، فإنـه يقابـل ذلـك ببنـاء المبـانى الفخمـة. إن البـلاط يعتـبر مثـالاً جيـدًا عـلى بلـورة الكتلـة، فالنـاس الذيـن يشـكلونها لديهـم وظائـف مختلفـة ويبـدون مختلفـين بـين بعضهـم البعـض، وفى مواجهـة الآخريـن فإنهـم، كحاشـية، يكونـون وحـدةً واحـدة تشـع منهـا روح الـولاء نفسـها.

العرش المتنامى لقيصر بيزنطة

كان للنمو المفاجئ دائمًا أثره الكبير على الإنسان. أما الدهشة الأعظم فتكون لتحول قوامٍ صغير أمام أعين المشاهدين إلى حجم عملاق، وهى دهشةٌ أكبر من رؤية حجمٍ كبير باقٍ على حاله أو القفز من وضع الجلوس. ومثل هذه الشخوص معروفة جيدًا من خلال الأساطير والقصص الخرافية لكثير من الشعوب. وقد وصلنا من بيزنطة من القرن العاشر استخدامٌ متعمد لتحول هذه الأشكال من أجل خدمة أغراض السلطة، فقد خلّف لنا ليوبارد فون سيريمونا مبعوث أوتو الأول التقرير التالى عن استقبال الإمبراطور البيزنطى له[133]: "أمام عرش الإمبراطور كانت هناك شجرة من المعدن، لكنها كانت مذهبة وقد ملئت أغصانها بأنواع مختلفة من الطيور كانت كذلك من الفولاذ ومذهبة، وقد صدر عنها جميعًا غناء الطيور المختلفة كلٌ حسب نوعه. أما عرش الإمبراطور فقد شيد على نحو مصطنع ليبدو للناس فى لحظة منخفضًا ليظهر بعد ذلك مباشرة وقد ارتفع لأعلى. وكانت هناك سباع بأحجام هائلة لم أعرف إن كانت من معدن أو خشب لكنها كانت مصفحة بالذهب، وقد وقفت كأنها حراس للعرش وصارت تدب بذيولها على الأرض ويرتفع زئيرها عن فم مفتوح ولسان متحرك. وقد تم اقتيادى إلى هذه القاعة فى حراسة اثنين من الخصيان أمام وجه الإمبراطور.

وعند دخولى زأرت الأسود وزقزقت العصافير كل على طريقته، إلا أننى لم أصب بخوف أو رهبة لأنى كنت قد استعلمت عن كل هذا من أناس كانوا يعرفون ذلك جيدًا. وبعد أن هويت على الأرض ثلاث مرات ونهضت رأيته هذا الذى كان للتو جالسًا على ارتفاع متوسط وقد ارتفع إلى سقف القاعة تقريبًا، وقد ارتدى ملابس أخرى غير التى كانت عليه، أما كيف حدث ذلك فلست أدرى وهو ما حدث أيضًا على نفس المنوال فقد ارتفعت شجرة العنب. وفى أثناء هذا الحدث لم ينبس الإمبراطور بكلمة واحدة، فلو أنه شاء ذلك ما كان هذا لائقًا بسبب بعد المسافة، ومن خلال وسيط من مستشاريه استعلم عن حياة وصحة سيدى، وبعد إجابتى عن ذلك بكلمات لائقة تراجعت وفق إشارة المترجم مقتادًا إلى المقام المخصص لى".

فى أثناء ما كان المبعوث يهوى ليضع رأسه على الأرض كان عرش الإمبراطور قد نما مرتفعًا، فقد استغل إذلال أحدهم من أجل الارتقاء بالآخر، أما المسافة بين الاثنين والتى تضاءلت إلى حد الإفراط فقد تم تحويلها إلى مسافة عمودية، وأما زقزقة العصافير وزئير السباع المصطنع فقد فاقهما العرش المتنامى. إن هذا النمو يعطى صورة معبرة عن نمو السلطة، فتهديدها لمبعوث سلطة أجنبية لا يمكن إنكاره.

أفكار المصاب بالشلل

ماذا يفهم الإنسان حقًا من مدلول كلمة تضخم الحجم، فهذه الكلمة تُستخدَم على نحوٍ يحمل معانٍ كثيرة حتى أن المرء يتشكك إن كان قد اختار المعنى الصحيح من تلك المعانى، فأى شىء لا نصفه بأنه "متضخم الحجم". أما الأكثر تناقضًا وإثارةً للسخرية فهو اقتران ذلك بالإنجازات التى من دونها لا يمكن تصور وجود حياة إنسانية كريمة، وتحديدًا فى هذا الاضطراب التى تسببه، فإن كلمة تضخم الحجم تعبر عن شىء لا يستطيع الإنسان مواصلة حياته من دونه، وعلى المرء محاولة فهمها بمعانيها الكثيرة، وربما يكون من المفيد أن نقترب من مفهومه "ضخامة الحجم" لدى الإنسان البسيط حيث يظهر فى أكثر أشكاله فهمًا وتجليًا، فهناك مرض منتشر تمت دراسته جيدًا تظهر لنا هنا من تلقاء نفسه وهو مرض الشلل الذى يتميز بتوليد أفكار "التضخم" الكثيرة المتنوعة وبالذات فى حالته التقليدية، وهذه الأفكار تتبدل فى تتابعٍ هو الأكثر تنوعًا، ويمكن إثارته من الخارج بسهولة، وهى أعراضٌ لا تظهر فى كل حالات مرض الشلل، فهناك أعراض إحباطٍ لهذا المرض تتميز بأفكارها عن ضآلة الحجم. وفى بعض الحالات تتزامن هذه الأعراض مع أعراض التضخم، لكن الأمر هنا لا يدور حول تأمل هذا المرض على أنه مرضٌ، فما يهمنا هو التجمع الواضح لأفكار التضخم فى

حـالاتٍ بعينهـا معروفـة وموصوفـة بدقـة. فتراكـم هـذه الأفـكار وبسـاطتها وسـهولة استـثارتها، وهـو مـا لا يمثـل شـيئا للشـخص غـير المصـاب بمـرض الشـلل، فهـذه الأفـكار تعطـى دلالاتٍ مدهشـة عـن التضخـم. ولا بـد مـن المثابـرة قليـلاً إزاء كثافـة عـدد الأمثلـة التاليـة، فالمريضـان اللـذان يـدوران عنهـما الحديـث التـالى ينتميـان إلى عهـد "فيلهلـم" حاكـم ألمانيـا، وهـى حالـة يعتـبر البعـض تتبعهـا أمـرًا مهـمًا. فـكان هنـاك تاجـر، فى منتصـف العمـر، قـد التحـق بـ"مصحـة كرابلـين"[134]، كتـب عـن نفسـه التـالى: "كان سـيصاب بالجنـون مـن خـلال الإجهـاد والملاحقـة، وهـو يتمتـع الآن بكامـل قـواه العقليـة ولم يعـد يعـانى سـوى قليـلٍ مـن العصبيـة، وقـد نمـت كثـيرًا قوتـه فى العمـل بفضـل العنايـة الطبيـة بالمصحـة حتـى صـار بوسـعه إنجـاز الكثـير، وبذلـك أتيحـت أمامـه فـرص رائعـة، فخطـط لـدن خروجـه المتـاح قريبًـا أن يؤسـس مصنـع ورقٍ كبـيرًا. وكان صديـقٌ لـه يمتلـك المـال الـضرورى لذلـك، إضافـة إلى أن كـروب، أحـد معـارف هـذا الصديـق المقربـين، قـد وضـع تحـت تصرفـه قطعـة أرض عـلى مشـارف منطقـة متـس أراد إنشـاء مشـتل عليهـا، وكانـت المنطقـة مناسـبة لزراعـة عنـب، إضافـة إلى أنـه سيشـترى أربعـة عـشر حصانًـا مـن أجـل المنشـأة الزراعيـة، وكذلـك تأسـيس تجـارة أخشـاب مربحـة كانـت سـتدر دخـلاً جيـدًا. فـإذا مـا اعـترض أحدهـم بـأن كل هـذه الأعـمال لـن تنجـح بسـهولة وأنهـا تتطلـب مبالـغ باهظـة كان يـرد بثقـةٍ بأنـه سـوف يتغلـب عـلى ذلـك بقدرتـه الفائقـة عـلى العمـل، وأنـه لـن يفتقـر إلى المـال بسـبب فـرص الربـح الممتـازة. وفى الوقـت نفسـه يوحـى بـأن القيـصر يهتـم بأمـره وأنه سـوف يسـمح لـه باسـتعادة لقبـه الشريـف الـذى فقـده جـده مـن جـراء فقـره، وهـو يسـتطيع الآن بالفعـل اسـتعادته. وقـد عـبر المريـض عـن كل هـذه الأخبـار بصـوت هـادئ وعمـلى، وكان سـلوكه فى أثنـاء ذلـك طبيعيًـا، وقـد كان مـن السـهل دفعـه للتوسـع فى مشـاريعه. فـإذا مـا أشـار عليـه أحدهـم بـأن تربيـة الدواجـن يمكـن أن تكـون مفيـدة فإنـه كان يؤكـد فى الحـال أنـه مـن البديهـى أن يقـوم بتربيـة الطيـور الغينيـة والديـوك الرومـى والطواويـس والحـمام، وسـيقوم بتسـمين الإوز وينشـئ مزرعـة ديـوك بريـة. وقـد لفـت مرضـه الانتبـاه فى البدايـة مـن خـلال مشـترياته ومشـاريعه الكبـيرة، وعندمـا التحـق بالمصحـة شـعر باسـتثارة قريحتـه للإبـداع ذهنيًـا وجسـديًا كـما لم يحـدث قـط، فشـاء اختيـار مجـال يعجـب بـه بأعظـم قـدر، أى أن يقـرض الشـعر وهـو مـا يجيـده أفضـل مـن جوتـه وشـيلر وهاينـه. كـما شـاء اخـتراع عـدد لا يحـصى مـن الماكينـات وإعـادة بنـاء المصحـة وبنـاء كاتدرائيـة أعظـم ارتفاعًـا مـن كاتدرائيـة مدينـة كولونيـا، وإحاطـة

المؤسسة بزجاج مدرع. وهو عبقرى فهو يتكلم كل لغات العالم ويستطيع تشييد كنيسة من الصلب الصب، ويحصل من القيصر على أرفع الأوسمة ويخترع وسيلة لتقييد الحمقى، ويهدى مكتبة المؤسسة 1000 مجلد معظمها كتب فلسفية، كما أن لديه أفكارًا إلهية كثيرة. إن هذه الأفكار عن تضخم الحجم تتبدل دائمًا، فما إن تنشأ فى لحظة حتى تحل محلها بسرعة أفكار أخرى جديدة، فالمريض يتكلم ويكتب ويرسم بلا انقطاع، ويطلب بلا تردد كل ما يُعرض بإعلانات الجرائد من مواد غذائية، فيلات، ملابس، أثاث منزلى وسرعان ما يصير دوقًا، وسرعان ما يصبح "جنرالاً" وسرعان ما يهدى القيصر كتيبة مدافع ميدانية كاملة، كما عرض نقل المصحة إلى أعلى الجبل".

فإن حاولنا وضع سياق مؤقت لهذا الخليط المتعدد الألوان وجدنا أن هناك شيئًا مهمًا، وهو ما يمكن وصفه بالاتجاه إلى الارتفاع، فهو يريد تشييد كاتدرائية يفوق ارتفاعها ارتفاع كاتدرائية كولونيا، ويريد نقل المصحة إلى أعلى الجبل. إن هذا الارتفاع الذى يصنعه بنفسه ينعكس على ذاته.

فإذا ما انتقل إلى علاقته بالوضع الاجتماعى تباهى بأصل جده النبيل، وهو يريد أن يصبح "دوقًا". وفى النظام الهرمى العسكرى يريد أن يصير "جنرالاً"، والقيصر يهتم به وهو يستطيع دفعه لمنح الأوسمة كما يهديه كتيبة كاملة، وهو ما ينطوى على رغبته فى تجاوز مرتبة القيصر. والإلحاح نفسه يمتد كذلك إلى المجال الذهنى، فهو عبقرىٌ يتكلم كل لغات العالم، كأن اللغات صارت مثل رعايا العبقرى. أما الشعراء الأشهر الذين يعرفهم مثل جوته وشيلر وهاينه فهو يريد أن يفوقهم. وهنا يتولد لدينا الشعور بأن هذا التوجه للارتفاع لا يدور حول البقاء أعلى بل الوصول إلى أعلى بسرعة، فمرارًا وتكرارًا يكون على المرء تسلق الارتفاع فجأةً بسرعة وكل الفرص لذلك متاحة، ويتضح هنا أن ما يُعتبر حتى الآن هو الأعلى فإنه يمكن التفوق عليه بسهولة بعد وضع معدلات ارتفاع جديدة، ولا يمكننا رفض احتمال أن معدلات الارتفاع هنا تدور حول "النمو" أما التوجه الثانى الذى لا يقل إثارة للاهتمام فهو التوجه للاكتساب فالحديث يدور حول مصنع ورق وتجارة أخشاب ومزرعة كبيرة ومزرعة عنب وخيول أما الحالة التى تلقى بها الحث على تربية الدواجن فإنها تشى بأن الاكتساب ينطوى أيضًا على ملامح عتيقة. إن الأمر يرتبط بالتكاثر فى كل شىء ممكن خاصة كل شىء حى

يسعى للتكاثر من ديوك رومى ودجاج وطواويس وحمام وإوز وديوك برية تم حصرها كل على حدة كأنواع، ولدى كل من هذا النوع يكون تصور بأنه من خلال تربيتها فإنها ستتكاثر بلا حد، والاكتساب هنا أيضًا كما كان فى البدء وهو الدفع بالكتل الطبيعية إلى التكاثر لتعود على طرف ما بالنفع. أما التوجه الثالث فهو نحو التبذير فهو يطلب كل ما تعرضه إعلانات الجرائد من مواد غذائية وملابس وأثاث منزلى، فلو كان حرًا طليقًا وامتلك مالاً فلسوف يشترى كل هذه الأشياء، ولكننا لا نستطيع القول بأنه سوف يكدسها، فمن المؤكد تمامًا بأنه لو كان حرًا فى التعامل معها كتعامله مع المال فإنه سوف يهديها إلى كل الناس أيًا كانوا، فالاحتفاظ بالشىء لا يمثل له الكثير مثله مثل التملك، فهو يرى بالفعل الأشياء التى يود اشتراءها مكدسةً أمامه، لكنه يفعل ذلك ما دام لا يمتلكها، فالحيازة السائلة أهم من التملك فى حد ذاته. أما إشارته التى تبدو ثنائية فهى فى جوهرها واحدةٌ، فالاستحواذ والتخلص بكلتا يديه ليسا سوى إشارة إلى تضخم الحجم، وهى فى حالة تاجر آخر فى المرحلة العمرية نفسها كانت حالة مرضه بالشلل أكثر استثارة، وقد بدأ كل شىء لديه كذلك بالمشاريع الكبيرة، فقد اشترى فجأة من دون مال حمّامًا مقابل 35 ألف مارك، وطلب شامبانيا بأربعة عشر ألف مارك ونبيذًا أبيض بستة عشر ألف مارك من أجل تأسيس معطم. وفى المصحة كان يثرثر بلا انقطاع فهو يريد أن يزداد حجمه حتى يزن أربعة أعشار، فوضع قضبانًا من الصلب حول ذراعية وصنع لنفسه خمسين امرأة زنجية بماكينة من الحديد. وقد ظل دائمًا فى سن الثانية والأربعين وتزوج دوقة عمرها ستة عشر عامًا وامتلك ثروة قدرها ستمئة مليون حصل عليها من البابا "وردة الفضيلة". وهو يملك خيولاً لا تأكل الشوفان إضافة إلى مئة قصر من الذهب بها البجع وسمك القرش من المادة التى يصنع منها مدرعات ضد الرصاص. وقد أنجز مئة اختراع ضخم وشيد للقيصر قصرًا بمئة مليون. وقد رفع كلفة التخاطب بينهما فصار يناديه بـ"أنت" وحصل من الأرشيدوق على 124 وسامًا ومنح كل فقير شقى نصف مليون، إضافة إلى ذلك كان الرجل مصابًا بوساوس الملاحقة، فقد أراد أحدهم قتله خمس مرات ومص من دبره كل ليلة دلوين كاملين من الدم، ولذلك فإنه سوف يجتز رءوس الحراس ويدع الكلاب تمزقهم، كما شيد لنفسه مقصلةً بخارية.[135] هنا كان كل شىء أكثر فجاجة ووضوحًا فالأمر يتعلق بتجرد النمو بحد ذاته ويمكن قياس ذلك بوزن الأربعة أعشار للمتنامى كما

ارتبط الأمر بالقوة، فقد ثبت فى ذراعيه أربعة قضبان من الفولاذ، كما دار الأمر كذلك حول تقلد الأوسمة وهو الأكثر ثقلاً وخلودًا أوسمة حديدية تزن اثنين من الأعشار وهو يتمتع بقوة تكفى لحملها كما دار الأمر حول القوة الجنسية وعدم تقدم العمر، فمن أجل خليلاته الزنجيات الخمسين ظل فى الثانية والأربعين من عمره، أما العروس الأعظم فضيلة وثراء، أى أصغرهن، فكانت تكفيه تمامًا. أما خيوله فكانت تجد الشوفان أقل قيمة. أما البجعات بقصوره المئة المذهبة فكانت أيضًا نساءً كن على أية حال النقيض من نسائه الزنجيات، كما امتلك سمك القرش كذلك كأكبر المخلوقات حجمًا. كما فكر أيضًا فى مناعته ضد الجروح وهو ما ارتبط بسمك القرش - والدروع المضادة للرصاص. كما دار الحديث كثيرًا حول المعادن، وقد كلفه بناء قصر من أجل القيصر مئة مليون كان يمتلكها وقد رفعت كلفة الخطاب بينهما عبر هذه الملايين فصار يخاطب القيصر بـ"أنت". كما كان هناك فقراء أشقياء بالملايين، وكان كل منهم نصفًا، وقد يكون هذا ما دفعه إلى منح كل منهم نصف مليون. وفى حالة هوسه تعرض بالطبع للملاحقة، ومحاولة اغتيال واحدة لم تكن تكفى مثل هذه الشخصية المهمة فكان من حقه أن يجتز رءوس الحراس الذين يمصون دمه من دبره (تعبيرًا عن وضاعة مكانتهم) وذلك عقابًا على أفعالهم، ويدع الكلاب تمزقهم، ولكن كان هناك ما هو أسرع من حزمة الكلاب وهى آلة من عصر قديم، كانت مقصلة تدور بالبخار شيدها لنفسه من أجل الإعدام الجماعى. وكلما كان شيء ما غاليًا وكلما كان سعره المطروح مرتفعًا كان حديثه عن ذلك فى إطار الآلاف، وهو ما كان يمثل إثارة أعظم، فقد استرد المال شخصيته الجماهيرية القديمة وقد تنامى بأقصى سرعة فى طفرات، ففى الحال كان قد بلغ الرجل المليون وقد وصل إليه لتلعب الملايين الدور الحاسم، ولأهمية هذه الكلمة شيء من البريق وهى تنسحب بنفس القدر على الناس وعلى المال. فالصفة الأهم للكتلة، أى إلحاحها فى النمو، قد تقاسمتها مع المال، فالكبير يأمر أو يتحكم فى الملايين. أما التكسب والتبذير، كما كانا فى الماضى، فهما عنصرٌ مزدوج لحركةٍ واحدة، أى الاشتراء والإهداء، مثل كل شيء آخر فهو وسيلة للتوسع وهو ما يمكن وصفه على خلاف التوجه للارتفاع بالنمو العرضى. وهو لا يرى فرقًا بين الاشتراء والإهداء، فبماله الوفير يحتوى المواد، حتى يشملها داخله، وبالمال والأشياء يحتوى الناس حتى يكسبهم إلى صفه. وعلى هذا النحو البسيط والمقنع تتبدى مرة أخرى صفات الملوك التقليدية التى نعرفها

على نحوٍ جيد من خلال الأساطير وكذلك من خلال التاريخ، أى صفة السخاء. فقد روى عن أحد الملوك الزنوج من غرب إفريقيا من القرن الرابع عشر أنه فى أثناء رحلته للحج إلى مكة كان قد اشترى كل ما كان بمدينة القاهرة وهو إنجاز لم ينس له قط. والتباهى بالاشتراء ما زال منتشرًا على نحوٍ واسع حتى اليوم، ولا يقل عنه التباهى بالإسراف. أما ملوك مال عصرنا المرتاب فيهم فإنهم لا يُغبَطون على شىء من كل مظاهر ضخامة حجمهم إلا على الحجم الهائل لهداياهم العلنية. أما مريضنا فكان يسرف على بناء القصور بالملايين وقد وجد متلقيًا لائقًا فى شخص القيصر. أما أفكاره عن تضخم الحجم فهى يقينًا ذات بعد متغير للغاية ولكنه لا يعطينا الانطباع أنه يتحول من خلالها، فهو يبقى دائمًا هو نفسه، حتى وإن صار وزنه أربعة أعشار أو تزوج الدوقة الفاضلة ابنة الستة عشر عامًا، أو خاطب القيصر بـ"أنت". لكن، على النقيض من كل ذلك، فإن ما كان يأتيه من الخارج كان يستخدمه من أجل نفسه فهو النقطة الراسخة والمركزية فى الكون، وهو يحتلها بأن يأكل وينمو لكنه لا يصير إلى شىء آخر. وما تتسم به أفكاره من طفرات هو ما يجلب إليه الغذاء، الذى يكون تبدله وتنوعه مهمًا له، لأنه يريد أن ينمو على النحو الأقصى، لكن لا يوجد أكثر من اختلاف الغذاء فألوانه خادعة، إنه تلون الشهية لا أكثر. أما كثرة أفكاره عن التضخم فهى ممكنة، فليس هناك ما يحول بينه وبينها، فما إن تتبدى إحداها حتى يتم تحقيقها. ومن الطبيعى أن يغير أهدافه إذا كان يحققها بهذه السرعة. ولكن كيف يتأتى ألا يشعر المريض بأية مقاومة ضد أفكاره؟ فمهما تضمنت الكلمة من وعدٍ بسلطةٍ وثراء وتضخم، فإنه كان يصدق كل ما تنطوى عليه بل ويحققه. إن هذه السهولة تبدو مرتبطة بالشعور بأن الكتلة إلى جانبه. وفى كل صور تنكرها تكون الكتلة بين يديه، سواء كانت 600 مليون هدية زواج أو مئة قصر مذهب أو الزنجيات الخمسين التى صنعها بماكينةٍ من حديد. حتى عندما سخط على أحد، كسخطه على الحراس مثلاً، صار تحت أمره فى الحال حزمةٌ من الكلاب تهجم على هؤلاء لتمزقهم بناءً على أمره. إلا أنه عندما فكر فى جز الرءوس فإنه اخترع مقصلة بخارية تؤدى هذه المهمة على نحو جماعى. إن الكتلة دائمًا خلفه وليست ضده، فإذا صارت لمرةٍ واحدة ضده، على سبيل الاستثناء، فإنها كانت من رءوس تم قطعها. وعن الحالة الأسبق نتذكر كيف كانت كل مجالات النشاط على استعداد للازدهار من أجل المريض، خاصةً النشاط الاقتصادى، فكل أنواع الدواجن كانت لا تنتظر إلا

التكاثر من أجله. فإذا ما استشعر رغبةً فى عمل شيء من أجل مكتبة المصحة كان يتوافر فى الحال ألف مجلد بين يديه، ومن أجل الاشتراء والإهداء كان يتوافر من أجل الاثنين كل ما يخطر ببال بملايين وآلاف. ومن المهم أن نشير إلى هذا الموقف الإيجابى للكتلة فى حالة المصاب بالشلل صاحب أفكار التضخم، وإلى روح الكتلة الملائمة، فهى لا تعترض طريقه، فهى المادة الخاصة المطيعة لمشاريعه وتحقق له كل ما يخطر بباله. وقد لا يستطيع أبدًا الإفراط فى مطالبه لأن نموها بلا حدود مثل نموه وولاءها له بلا شروط، وهو ما لم يعهده حاكمٌ ما من رعاياه قط. ولسوف نرى الكتلة فى المصاب بجنون العظمة، وهى تتطرق إلى أساليب مختلفة، تحديدًا أساليب عدائية، فأفكار تضخم الحجم لدى المصاب بجنون العظمة موضع خلاف كبير وهى تظهر النزوع إلى أن تصير أكثر صلابةً باستمرار فإن كان للكتلة المائلة للعدوان اليد العليا فإن هذه الأفكار تنقلب إلى أفكار ملاحقة. فإذا قمنا فى النهاية بتلخيص مبسط لما يمكن تعلمه من أفكار تضخم الذات لدى المصاب بالبارانويا، فيكون بوسعنا القول إن ذلك يمضى فى اتجاه ثنائى من أجل نمو مطرد ومتكرر دائمًا، التوجه الأول هو الشخص نفسه، فهو يريد أن يصبح أكبر حجمًا وأثقف وزنًا ولا يقنع فلكل نوع من القوة شُحن بها كجوهر منفرد أن تكبر معه. أما التوجه الثانى فهو اتجاه الملايين والتى يمكن أن تحتوى كل شيء له توجه، فإن عليها أن تتكاثر مثل الكتلة نفسها فى طفرات. وهذه الملايين تطفح تلبية لأمانية من بين يديه فى كل اتجاه ولا تطيع سواه. وفى تضخم الحجم الذى تحلم به البشرية فإن الشعور الفردى البيولوجى بالنمو يتحالف مع الشعور بالزيادة فى طفرات، وهو ما يميز الكتلة، وتكون الكتلة فى أثناء ذلك تابعًا مطيعًا، فالأمر لا يتوقف على نوعها فكل بدائلها يمكن أن تفى بالغرض نفسه.

الحكم وجنون العظمة



ملوكٌ أفارقة

إن تأمل أحوال بعض ملوك إفريقيا سوف يظهر الصلة بين عناصر وأسس السلطة التى تمت دراسة كل منها على حدة. ولقد تبدى كل ما هو غريب وغير مألوف فى مسلك هؤلاء الملوك[136]. حتى إن المرء قد يشعر فى البداية بأنها من النوادر العجيبة. وسوف يكون من اليسير للغاية أن يستبد بأوروبى ما شعورٌ بالتعالى إذا ما طالع هذه التقارير التالية. إلا أننا ننصح بالتحلى بالصبر والتواضع حتى نتعرف على المزيد من هذه الأحوال. فإنه لا يليق بأوروبى القرن العشرين أن يتصور أنه متسامٍ على البربرية، فقد تكون وسائط حكامه أفضل أثرًا، أما نواياهم فهى لا تختلف غالبًا عن نوايا هؤلاء الملوك الأفارقة. وقد استعرض "Du Chaillu" وفاة أحد الملوك ومبايعة آخر جديد فى الجابون فى أثناء إقامته بالجابون[137].

كان الملك "جلاس" قد مات بعد أن أرهق قبيلته، فقد كان يعتبر ساحرًا قويًا وشريرًا إلا أن أحدًا لم يذكر ذلك صراحةً. لكن نفرًا قليلاً كان قد جرؤ على الاقتراب من قصره ليلاً. ولكنه عندما مرض فى نهاية المطاف بدا كل فرد مهمومًا، إلا أن أصدقاء عديدين أخبرونى سرًا بأن المدينة كلها تتمنى موته. فكان أن مات أيضًا. فذات صباح صحوت على نواحٍ وعويلٍ صاخب وقد بدت المدينة كأنها انخرطت فى البكاء. واستمر الحداد والنواح ستة أيام. وفى اليوم الثانى كان قد تم

دفـن الملـك سرًا. فقـد مـضى بـه بعـض رجـال قبيلتـه المخلصـين إلى موضـع لا يعرفـه سـواهم. وظـل مجهـولاً للآخريـن كافـةً. وفى أثنـاء أيـام الحـداد كان كبـار رجـال القريـة منشـغلين باختيـار ملـكٍ جديـد. وقـد تـم ذلـك الأمـر سرًا أيضًـا فلـم يخـبروا الشـعب إلا فى اليـوم السـابع بموعـد تتويـج الملـك الجديـد، الـذى لم يكـن هـو نفسـه يعلـم مـن الأمـر شـيئًا حتـى النهايـة. وكانـت الصدفـة هـى التـى شـاءت أن يقـع الاختيـار عـلى "نيـو جـونى"، أحـد أصدقـائى، وهـو ينتمـى لعائلـةٍ طيبـة وكان الشـعب يحبـه حتـى إنـه حصـل عـلى أغلـب الأصـوات. وأنـا اعتقـد أن نيـو جـونى لم يكـن لديـه أدنى علـم باختيـاره للمنصـب الرفيـع. وعندمـا كان يتنـزه عـلى الشـاطئ فى اليـوم السـابع إذا بالشـعب كلـه يهاجمـه ليـمارس ضـده طقوسًـا تسـبق التتويـج، يشـارك الجميـع فيهـا بالـضرورة فيـما عـدا ذلـك الرجـل صاحـب الطمـوح الشـديد فى اعتـلاء العـرش. فأحاطـوا بـه فى كتلـةٍ كثيفـة ليمطـروه بالشـتائم التـى يمكـن أن يتلفـظ بهـا أكـثر العامـة غضبًا. فبصـق بعضهـم فى وجهـه وسـدد البعـض إليـه اللكـمات وركلـه البعـض بالأقـدام ورمـاه آخـرون بأكـثر الأشـياء قـذارة. بينـما كان أكثرهـم أسـفًا قـد وقفـوا عـلى مسـافةٍ بعيـدة ولم يصلـوا إلى الشـاب الشـقى إلا بأصواتهـم، فوجهـوا السـباب إلى أبيـه وأمـه وإخوتـه وأخواتـه وأجـداده حتـى آخـر نسـلهم. ولم يكـن لأى أجنبـى أن يراهـن بمليـم واحـد عـلى نجـاة الرجـل الـذى تـوج ملـكًا قبـل قليـل. ووسـط كل هـذا الصخـب تلقفـت أذنـاى بعـض كلـمات سـاعدتنى عـلى فهـم مـا يجـرى، فـكل بضـع دقائـق كان يسـدد أحدهـم إليـه لكمـةً أو ركلـة وهـو يصيـح: "لم تصبـح بعـد ملكنـا، فـالآن بوسـعنا فعـل كل مـا نهـوى معـك، ليكـون علينـا بعـد ذلـك طاعتـك" أمـا نيـو جـونى فقـد سـلك مسـلك الرجـل والملـك القـادم، فقـد ظـل هادئًـا محتمِـلاً كل سـباب بوجهـه الباسـم. وبعـد نصـف سـاعة تقريبًـا مـضى بـه البعـض إلى منـزل الملـك السـابق. فقـد كان عليـه البقـاء هنـاك بعـض الوقـت ليسـتقبل سـباب الشـعب. ثـم خيـم السـكون فنهـض الكبـار وتحدثـوا بحفـاوةٍ لـيردد الشـعب كلماتهـم: "نختـارك الآن ملـكًا علينـا ونعاهـدك بـأن نسـتمع إليـك وأن نطيعـك، ليعقـب ذلـك الصمـت. وقـد جـيء بقبعـةٍ مسـتديرة صلبـة تعتـبر هنـا إشـارة إلى شرف الملكيـة لتوضـع عـلى رأس نيـو جـونى الـذى خُلـع عليـه رداءٌ أحمـر اللـون، وصـار فى تلـك اللحظـة يتلقـى أعظـم آيـات التبجيـل مـن هـؤلاء الذيـن كانـوا يوجهـون إليـه السـباب قبـل قليـل. ثـم تـلى ذلـك حفلٌ اسـتمر لسـتة أيـامٍ ليقـوم الملـك الـذى تـولى منصبـه باسـم الملـك السـابق باسـتقبال رعايـاه بمنزلـه، وكان عليـه ألا يغـادره، فكانـت سـتة أيـام لا مثيـل لهـا مُـدَّت فى أثنائهـا الولائـم

والـشراب إلى حـد الإفـراط فكانـت معمعـة احتفاليـة صاخبـة، فقـد جـاء عـددٌ غفـير مـن الغربـاء مـن القـرى المجـاورة ليبـدوا احترامهـم، وقـدم الجميـع الكثـير مـن العرقـى ونبيـذ النخيـل والطعـام وأُنفِـق كل مـا سـاهم فى الارتقـاء بجـو الاحتفـال. وكان يتـم الترحيـب بـكل ضيـف. فأمـا الملـك السـابق فقـد نسـيه الجميـع، وأمـا الملـك الجديـد "جـلاس المسـكين" فقـد أصابـه المـرض مـن جـراء الإعيـاء، فقـد كان عليـه اسـتقبال النـاس ليـلَ نهـار وكان يتحـلى بـالأدب تجـاه كل مـن جـاءه. وأخـيراً كان قـد انتهـى شراب الـروم كلـه، كـما انقضـت المهلـة المحـددة ليحـل الهـدوء ثانيـةً ليصـير مـن حـق صاحـب الجلالـة الجديـد أن يخـرج لـيرى مملكتـه. إن تبعـات الأحـداث التـى جـرت فى إطـار كتلـةٍ هـى أحـداثٌ مهمـة للغايـة. فقـد بـدأ كل شىء بحزمـة مناحـةٍ عـلى الملـك المتـوفى واسـتمر ذلـك سـتة أيـامٍ ثـم عـلى نحـوٍ مفاجـئ تمامًـا، فى اليـوم السـابع، يبـدأ الهجـوم عـلى الملـك المنتخـب. فـإذا بـكل مشـاعر العـداء تجـاه المتـوفى تُصـب عـلى خليفتـه. أمـا كتلـة التحريـض التـى تكونـت حولـه والتـى هـى فى حقيقتهـا كتلـة ارتـداد فلـم تكـن موجهـة نحـوه بـل نحـو المتـوفى. فقـد تحـرر النـاس مـن كراهيتهـم للمتـوفى الـذى تجـاوز الحـد فى مـدة حكمـه، والـذى كان مرهـوب الجانـب حتـى النهايـة. وقـد واجهـت الحكومـة فى بدايتهـا الموقـف الـذى هـو أكـثر مـا يخشـاه كل صاحـب سـلطة، أى الحصـار مـن خـلال الرعايـا الجامحـين الذيـن هاجمـوا الملـك عـلى نحـوٍ خطـير. إلا أنـه حافـظ عـلى هـدوء أعصابـه لأنـه كان يعـرف أن هـذا العـداء كان مرجـأً ولم يكـن حقيقيًـا أو موجهًـا ضـد شـخصه. لكـن رغـم ذلـك كان لا بـد مـن أن يظـل كل ذلـك ماثـلاً فى ذهنـه كبدايـةٍ حرجـة لحكمـة، أى أن هـذا التهديـد يمكـن أن يصـير حقيقـةً فى أى وقـتٍ، فـكل ملـكٍ يتـولى منصبـه هنـا وسـط ثـورة، وهـى الثـورة المرئيـة ضـد ملـكٍ مـات بالفعـل، وهـى تسـتهدف ظاهريًـا الملـك الجديـد كممثـل مسـتقبَلىّ للمتـوفى. أمـا الموقـف الجوهـرى الثالـث فـكان الحفـل الـذى دام سـتة أيـامٍ مثـل مـا سـبقه مـن حـداد. فـكان تقديـم الطعـام والـشراب والاسـتمتاع بهـما بـلا حـرج ليـس سـوى التعبـير عـن التكاثـر الـذى ينتظـره الشـعب مـن صاحـب السـلطة الجديـد. وعـلى مثـل هـذا النحـو الـذى تـولى بـه منصبـه كان عليـه أن يغمـر مملكتـه فيـما بعـد بـشراب الـروم ونبيـذ النخيـل، فيحصـل الجميـع عـلى طعـامٍ أكـثر مـما يحتاجونـه، فاختيـار الملـك كان مـن أجـل مثـل هـذا التكاثـر. فجـاءت كتلـة الاحتفـال كبدايـةٍ حقيقيـة لحكمـه لتكـون ضامنـةً للتكاثـر فى المسـتقبل. أمـا شـهادة Du chaillu فقـد دُوِّنـت من مئـة عـامٍ وهـى تتميـز برؤيـة الأحـداث مـن ظاهرهـا فقـط فلـم تغـرق فى التفاصيـل،

فنحـن اليـوم نعـرف مـا هـو أكـثر مـن ذلـك عـن الملـوك الأفارقـة. ومـن المفيـد هنـا أن نطالـع أحـد التقاريـر الحديثـة. فقـد كان ملـك الجوكـون بنيجيريـا[138] كائنًـا مؤلَّهًـا تـدور حياتـه فى إطـار حـدودٍ مـن الرقابـة الصريحـة. أمـا أسـمى واجباتـه فلـم يكـن قيـادة شـعبه فى الحـروب أو رفـع شـأن بـلاده مـن خـلال حكمـه الرشـيد، كـما لم يرتبـط الأمـر بشـخصه العظيـم، بـل إنـه كان يُعتَـبر الوعـاء الحـى الـذى تنبثـق منـه القـوى الضامنـة لخصوبـة الأرض ونمـو الـزرع، وبذلـك يمنـح الشـعب الحيـاة والرخـاء. أمـا مـا يحفـظ هـذه القـوى فهـى الشـعائر المحـددة لمسـار حياتـه يوميًـا وسـنويًا. وكان مـن النـادر أن يظهـر الملـك فى العلـن ولا تمـس قدمـه الحافيـة الأرض لأن تبعـة ذلك سـتكون ذبـول ثمـار الحقـول، كـما لا يُسـمَح لـه برفـع شىء عـن الأرض. وفى العصـور السـابقة كان إذا وقـع عـن جـواده كان يُقتَـل. ولم يكـن مسـموحًا لأحـد أن يذكـر أنـه مريـضٌ. فـإذا أصابـه مـرضٌ خطـير كان يتـم خنقـه بهـدوء تـام. فسـماع أنـين ملـك مريـض -كـما قـال أحدهـم- قـد يسـبب اضطـراب الشـعب إلا أنـه كان يجـوز لـه أن يعطـس فـإذا عطـس ملـك الجونكـن كان الرجـال الحـاضرون يضربـون أفخاذهـم وهـو يتمتمـون مستحسـنين. ولم يكـن مـن اللائـق الحديـث عـن "جسـده" أو إعطـاء انطبـاع بـأن لـه جسـدًا إنسـانيًا عاديًـا، وبـدلاً مـن ذلـك كانـت تُسـتخدم كلمـة بعينهـا تخـص شـخصه، وكانـت هـذه الكلمـة تعبر عـن كل أفعالـه وكذلـك أيضًـا الأوامـر الـذى يفـوه بهـا فمه. فـإذا مـا كان عـلى الملـك تنـاول طعامـه كان موظفـون مختصـون يطلقـون صيحـاتٍ مدويـة بينـما يـضرب آخـرون أفخاذهـم عـشرات المـرات ليحـل السـكون عـلى القـصر والمدينـة كافـةً، ويمسـك الجميـع عـن الـكلام ويتوقفـوا عـن العمـل. فطعـام الملـك كان يُعتـبر مقدسًـا وكان يتـم تقديمـه إليـه بطقـس احتفـالى كإلـه. فـإذا انتهـى مـن طعامـه اسـتؤنفت صيحـات وضربـات موظفـى البـلاط الخارجـى معلنـةً الإذن بالعمـل والـكلام مـرةً أخـرى. فـإذا مـا شـعر الملـك بغضـبٍ مـا كان يشـير بإصبعـه نحـو شـخص مـا ويركلـه بقدمـه سـاخطًا لتعـم البلـد كلـه مـن جـراء ذلـك تبعـات هـى الأكـثر ترويعًـا. فـكان لا بـد مـن تهدئـة روعـه فى الحـال بشـتى السـبل. فأمـا لعابـه فـكان مقدسًـا، وأمـا مـا كان يُقـص مـن شـعره أو يُقلَّـم مـن أظفـاره فـكان يحفظـه بنفسـه بجـوال يُدفـن معـه عنـد وفاتـه. وفى الخطـب الاحتفاليـة كان يتـم التلميـح إلى قـوى خصوبتـه فيقـال: "أنـت لنـا بـذور غينيـا أنـت فولنـا وبقولنـا". كـما كان يُنسـب إليـه الهيمنـة عـلى المطـر والريـح. أمـا تبعـات الجـدب وسـوء المحصـول فـكان يُنسـب إلى تراجـع قوتـه ليتـم خنقـه سرًا بالليـل. وكان عـلى الملـك المنتخـب الجديـد أن يركـض حـول تـل

ويلاحقه الكبار بالصياح وهم يضربون بقبضات أيديهم. وفى مناسبةٍ أخرى يقوم هو بقتل عبد ما أو يصيبه فقط بجرحٍ ليقتله آخر برمح ومدية الملك. وفى أثناء التتويج يقول له زعيم قبيلة الملك: "قد أعطيناك اليوم دار أبيك، فالعالم كله ملك لك. إنك بذرتنا وبقولنا وأرواحنا وآلهتنا، فلم يعد لك من الآن أبٌ ولا أم، فقد صرت أب الجميع وأمهم، فعليك اقتفاء أثر سلفك فلا تسبب الأذى لأحد حتى يظل شعبك معك وتصل معافى إلى نهاية حكمك".

وكان الجميع يخرون أرضًا أمام الملك الجديد وهو يعفرون رأسهم بالتراب ويقولون: "يا غيثنا، يا حصاد محصولنا، يا ثراءنا، يا عافيتنا". فأما سلطة الملك فهى مطلقة على أن تظل فى إطار الاحتمال. وكان يترأس مجلس النبلاء "آبو"، أو رئيس الوزراء المشارك فى المسئولية. فإذا ما هدد مزاج الملك بإلحاق ضرر ما بالبلاد أو الخراب أو أى نكبة قومية أخرى فإن المرء يلفت نظره إلى خطأ ما فى التزاماته السحرية العديدة، فيهدئ بذلك من روعه. وكان يسمح للـ"آبو" بلقاء الملك دائمًا، كما كان يحق له تحذيره، بل ويصيبه بالحيرة إذا طال غيابه عن البلاط. وعادةً ما كان الملك لا يشارك فى الحملات الحربية إلا أن الغنائم كافةً كانت تعتبر ملكًا له، لكنه كان يعيد ثلث أو نصف الغنيمة للمحارب الذى اقتنصها كإشارة إلى الاعتراف به، وتعبيرًا عن انتصاره أن يبرهن هذا على بسالته فى المرة التالية. فإذا أثبت الملك جدارةً، فإنه يُقتَل فى وقتٍ لاحق أثناء عيد الحصاد، بعد مرور سبع سنوات من حكمه.

فى كتابه "تاريخ إفريقيا"[139] الذى يُعد أول محاولةٍ جادة فى هذا المجال يذكر "وسترمان" الانتظام المدهش فى التطور والمؤسسات الخالصة بهذه الممالك. وقد رأى بنفسه عددًا من الشواهد التى تجمع بين هذه الممالك كافة. وهنا يجب علينا بذل الجهد لذكر أقل عددٍ منها وأن نحاول تفسير كلٍ منها فى سياق رؤى اكتسبناها هنا: "فالملك يمتلك قوى تمنح الخصوبة للأرض ويتوقف عليه نماء ثمار الحقول وينسب إليه فى الغالب انهمار المطر"، فالملك يبدو هنا مسببًا للتكاثر وهى صفته العليا. وما نود قوله هو أن الأمر هنا يدور حقًا حول صفة التكاثر هذه التى كان لها الفضل فى منظومة الملكية، فكل أنواع الأوامر تصدر عنه هو، إلا أن أكثر الأوامر أصالةً التى تتوافر لديه فهى ضرورة الحث على النمو.

"أنـت أب الجميـع وأمهـم" هكـذا جـاء بالتقريـر عـن الجوكـون، وهـو مـا لا يعنـى توفـير الغـذاء للجميـع فحسـب بـل هـو أيضًـا سـبب تكاثـر الجميـع ونمـو كل شىء. فسـلطته فى هـذه الحـال هـى حزمـة التكاثـر وكل مـا ينتـج عنهـا، أى مادتهـا التامـة التـى يكـون قـد حملهـا هـو وحـده عـلى كاهلـه. فمـن خـلال مسـلكه يسـتطيع ضـمان الاسـتمرار الـذى لا يتوافـر لحزمـة التكاثـر التـى تتكـون مـن الكثيريـن الذيـن يتفرقـون مـرارًا، أمـا هـو فيكـون الوعـاء بحـدوده الخارجيـة الواضحـة الـذى يضـم كل قـوى التكاثـر داخلـه. وواجبـه المقـدس أن يحفظهـا مـن التـسرب.

"ومـن أجـل الحفـاظ عـلى قـوة النمـو الخاصـة بـه، ومـن أجـل درء الأذى فإنـه يتـم إحاطـة شـخصه بعـددٍ كبـير مـن التعليـمات والمحظـورات التـى تجعلـه غالبًـا قـادرًا عـلى الفعـل".

إن قيمـة الملـك النفيسـة، أى القيمـة النفيسـة لمـا يحتويـه هـو بالفعـل، هـى مـا تفـضى إلى صلابتـه فهـو الوعـاء الممتلـئ عـن آخـره فـلا يسـمح أن يطفـح منـه شىء، وهـو لا يبـدو للعيـان إلا فيـما نـدر أو فى موعـد بعينـه. ولا يجـوز لـه مغـادرة قـصره عـلى الإطـلاق إلا ليـلاً أو فى مناسـباتٍ خاصـة، فـلا يُسـمح لأحـد أن يـراه وهـو يـأكل أو يـشرب، فعزلتـه تحميـه مـن أى شىء قـد يلحـق بـه الأذى. أمـا نـدرة ظهـوره فتعنـى أنـه يحيـا فقـط لتحقيـق أغـراضٍ خاصـة تمامًـا. فالطعـام والـشراب، كعامـل تدهـور، لا يليـق بـه كمصـدر للتكاثـر. فوجـوده يعـود فقـط إلى القـوى التـى يمتلـئ بهـا. فاكتفـاؤه بذاتـه هـو سـمة الملـك الحاسـمة. فـإن كان للشـعب أربـابٌ عديـدة فإنـه ليـس لـه سـوى ملـك واحـد. لذلـك كان مهـمًا أن يحيـا منعـزلاً فيكـون بينـه وبـين شـعبه مسـافة افتراضيـة يتـم الحفـاظ عليهـا بشـتى السـبل، فـلا يظهـر إلا نـادرًا، أو لا يظهـر مطلقًـا، أو بلثـام يخفـى بـه ملامحـه أو قسـمًا كبـيراً منهـا. ويُشـدد بـكل وسـيلة عـلى قيمتـه النفيسـة فيتلقـد مثـلاً أشـياء نفيسـة أو يحـاط بهـا إضافـة إلى نـدرة ظهـوره. وتتـم حمايتـه بحراسـة شـخصية تطيعـه طاعـةً عميـاء. والقاعـات التـى تتسـع عـلى نحـو دائـم وتوسـيع بلاطـه والبنـاء المسـتمر لقاعـات أكـثر اتسـاعًا ببلاطـه يخـدم كذلـك اتسـاع المسـافة الفاصلـة والحراسـة. فالاكتفـاء بالـذات والانعـزال والمسـافة والقيمـة النفيسـة هـى إذن مجموعـة مـن الملامـح تتبـدى للعيـان مـن الوهلـة الأولى. أمـا التعبـيرات الجسـدية للملـك مثـل السـعال والعطـس والتمخـط فإنهـا تتـم محاكاتهـا او استحسـانها. فـإذا مـا ظهـر عـلى ملـك "مونوموتابـا" أعـراض سـمات جيـدة أو سـيئة، أى

ضعف جسدى أو خطأ ما، أو رذيلة أو فضيلة فإن رفاقه وخدمه يبذلون جهدهم لمحاكاته فى ذلك[140]. فإذا أصيب الملك بالشلل صار رفاقه كلهم يعرجون. وقد أخبرنا سترابون وديودور عن العصر القديم بأن ملك الحبشة قد كان يعانى من تشوه ما بجزءٍ من جسده فصار على رجال بلاطه أن يعانون من التشوه نفسه. وكان رحالة عربى قد زار فى بداية القرن التاسع عشر بلاط دارفور، فروى عن واجبات رجال البلاط: إذا ما تنحنح السلطان كأنه مقبل على الكلام كان الجميع يطلقون الصوت "تس، تس" فإذا عطس قام الجمع بمحاكاة نداء "الخيّال" ليُسمَع صوت كأن شخصًا يقود جواده. وإذا سقط السلطان عن حصانه سقط كل رجال بلاطه عن جيادهم. فإذا ما فات أحدهم ذلك طُرح أرضًا ليضرب مهما كانت رتبته. وإذا ما ضحك ملك أوغندا ضحك الجميع وإذا عطس عطس الجميع، وإذا ما قص شعره قام كل واحد من هؤلاء بقص شعره. وعمومًا فإن محاكاة الملوك لا تقتصر فقط على إفريقيا ففى بلاط "بونى" بجزر "celebes" جرت العادة أن يفعل كل رجال البلاط ما يفعله الملك، فإذا نهض هو نهضوا كذلك فإذا جلس جلسوا أيضًا وإذا سقط عن حصانه سقطوا عن جيادهم، فإذا رغب فى الاغتسال كانوا يغتسلون معه، وكان على المارة أن يلقوا بأنفسهم كما هم فى الماء، سواء كان ما يرتدونه جيدًا أو رديئًا.

كما روى مبعوثٌ فرنسى إلى الصين فقال: إذا ضحك إمبراطور الصين ضحك أيضًا مستشاروه وما أن يمسك عن الضحك أمسكوا هم كذلك. فإذا ما كان الملك مهمومًا أُحبطت ملامحهم. وقد نذهب إلى الاعتقاد بأن أرواحهم شدت إلى زنبرك ليكون بوسع الإمبراطور لمس هذا الزنبرك فيحركهم. إن اتخاذ صورة الملك نموذجًا هو أمرٌ عام وأحيانًا ما يكتفى المرء بالإعجاب والتقديس فلا شىء يصدر عنه يكون بلا قيمة. وأحيانًا ما يذهب الناس إلى ما هو أبعد من ذلك فيعتبرون أى تعبير صادر عنه بمثابة الأمر. فإذا ما تثاءب كان ذلك يعنى: "تثاءبوا!" وإن سقط عن جواده، يعنى "اسقطوا" فهو مترعٌ بقوة الأمر فلا يصدر عنه شىء يفهم على أنه "تقريبى".

فى هذه الأحوال يكون الأمر قد انبثق من كلمة ليتخذ مظهر سلوك النموذج المحتذى. ويضاف إلى ذلك أن كامل وجوده يتأسس على التضاعف، أى التكاثر وعلى نحوُ ما يكون ذلك سبب وجوده وعلى هذا تكون لكل حركة ولكل تعبير

صادر عنه هدف استدعاء التضاعف منه. ويمكننا القول بأنه في هذه الأحوال يصير بلاطه إلى نوعٍ من حزمة التكاثر، وإن لم يكن ذلك محاكاةً لما يدور بداخله، فإنه يتبدى في سلوكه الخارجي. فالكل يأتي الفعل نفسه إلا أن الملك يكون هو البادئ بذلك. فالبلاط الذي صار بللورة كتلة يعود إلى أصله، أي حزمة تكاثر. كما يمكن اعتبار الاستحسان والتصفيق تعبيرًا عن إرادة التكاثر، فهناك حركات وتعبيرات محددة تعتبر نموذجًا يحتذى، إذا دُعمت بالاستحسان تولد عنها التكرار. فالإرغام، الناتج عن تصفيق ألف يد، لا يقدر سوى القليلين على التنصل من ذلك، وهنا يتضاعف إنتاج المشجِّع. فإذا ظهرت بوادر تقدم عمر الملك صارت قوته السحرية مهددةً، فيمكن أن تتلاشى أو تضعف ويمكن أن تنقلب إلى نقيضها بفعل القوى الشريرة، ولذلك تنشأ ضرورة إنهاء حياة الملك العجوز ونقل قوته السحرية إلى خليفته. فأهمية شخص الملك تكمن في سلامته، فهو كوعاء سليم يكون بوسعه الحفاظ على قوى التكاثر. فإن أبدى عيبًا ما ارتاب رعاياه في أمره، فربما يكون قد فقد بعضًا من المادة التي أوكلت إليه، فيهدد سلامة شعبه. أما دستور هذه الممالك فهو الدستور الجسدي للملك نفسه فهو على نحوٍ ما مرتبطٌ بقوته وعافيته. فالملك الذي يشيب شعره وتتدهور قوة نظره ويفقد أسنانه، أي الملك العاجز، فإنه يتم قتله أو ينتحر أو يُخنَق. ويفضل أسلوب القتل هذا لأنه لا يجوز سفح دمه. وأحيانًا تحدد مسبقًا مدة حكمه بعدد معين من السنين، فملك الجوكون، كما مر بنا، لم يحكم إلا سبع سنوات. وطبقًا لتقاليد الـ"بامبارا" فإن الملك نفسه هو من يحدد فترة حكمه[141] فيُلف حول عنقه شريطٌ من القطن ليقوم رجلان بشد طرفيه كلٍ في الاتجاه المضاد بينما يقوم هو في أثناء ذلك، وقدر إمكانه، بالتقاط حبات حصى من قصعةٍ ليشير ذلك إلى عدد سنوات حكمه ليخنق بعد انقضائها. إلا أن الأمر لا يقتصر على انقاذ مادة تكاثره النفيسة من خلال التحديد المصطنع لحياته فشغفه بالبقاء على قيد الحياة الذي يمكن أن يتخذ أبعادًا خطيرة في أثناء حكمه يتم تحجيمه ومنعه من البداية، فهو يعرف موعد موته قبل كثيرٍ من رعاياه ويضع دائمًا لحظة موته نصب عينيه. وهنا يكون هو - مقارنة بمن يحكمهم - قد أبدى خضوعًا تامًا، فما أن يتسلم السلطة يكون قد تنازل عن البقاء حيًا تحت كل الظروف. إنه نوعٌ من العهد يبرمه معهم، فالشرف الذي ناله يكون بمثابة عبء، فهو يعلن استعداده للتضحية بحياته بعد انقضاء مدةٍ محددة. أما السباب والضرب الذي يخضع

لهـما قبـل توليـه منصبـه فهـما بمثابـة إعـلانٍ مسـبق بمـا ينتظـره فى نهايـة المطـاف. وكـما ارتـضى كل شىء فى تلـك اللحظـة فـلا بـد مـن أن يقنـع بمصيره فيـما بعـد. فنهايـة الملـك تكـون قـد حُـددت مسـبقًا. وسـواء هـدده النـاس بإمكانيـة مثـل هـذه النهايـة، أو تـم اعتبـار ذلـك نوعًـا مـن الاحتفـاء، فـإن كتلـة التحريـض التـى تكونـت قبـل توليـه المنصـب، ترغمـه قسـرًا عـلى الإقـرار بأنـه لم يتقلـد المنصـب بإرادتـه الشـخصية. ويـروى عـن ملـك الـ"يوروبـا"[142] أنـه يُـضرب فى البدايـة ضربًـا مبرحًـا فـإن لم يتحمـل الألم بنفـسٍ راضيـة فيتـم اسـتبعاده ليقـع الاختيـار عـلى أقـل الأمـراء حظًـا، فيقبـل مهمتـه فى صمـت فهـو لم يكـن لديـه أدنى نيـةٍ فى ارتقـاء العـرش، ومثـل هـذا الرجـل يتـم اسـتدعاؤه لتُسـاء معاملتـه رغـم دهشـته لذلـك. ففـى سـيراليون كان يتـم فى المـاضى احضـار الرجـل مُثقـلاً بالأغـلال قبـل إعـلان توليـه ليتـم دهسـه. ولنـا أن نتأمـل اسـتعراضDu chaillu لاختيـار ملـك الجابـون فبـين مـوت ملـك وتوليـة آخـر جديـد تسـود حالـةٌ مـن انفـلات القانـون[143] فيتجـلى سـوء المعاملـة للملـك المختـار بـكل معنـى الكلمـة كـما مـر بنـا سـابقًا، وقـد ينـال سـوء المعاملـة مـن الضعفـاء وممـن بـلا حمايـة. أمـا الـ"موسـيى" فى "واجـاد دوجـو" فيقومـون بإطـلاق سراح كل المجرمـين مـن السـجون بعـد وفـاة الملـك ليكـون القتـل والنهـب أمـرًا مباحًـا، فيـأتى كلٌ مـا شـاء مـن أفعـال. وكان أفـراد العائلـة ملـك قبائـل الأشـانتى هـم مـن يسـتفيدون مـن فـترة الفـوضى هـذه، فـكان يبـاح لهـم قتـل أى مواطـن أو نهبـه. وفى أوغنـدا يحـاول النـاس هنـاك فى البدايـة الحفـاظ عـلى سريـة مـوت الملـك. ثـم، ربمـا بعـد يومـين، يتـم إخـماد النـار المقدسـة الموقـدة عـلى مدخـل البوابـة الملكيـة ليبـدأ نـواح عظيـم وتُقـرع الطبـول بإيقـاع المـوت فيعـرف أهـل البـلاد حينـذاك مـا حـدث، إلا أنـه لا يسـمح لأحـد بذكـر المـوت فيقـال فقـط: "أُخمـدت النـار المقدسـة" لتتبـع ذلـك حالـةٌ عنيفـة مـن الفـوضى، فيحـاول النـاس نهـب بعضهـم البعـض ولا يشـعر بالأمـان سـوى الزعـماء ممـن لهـم أتبـاع أشـداء. أمـا الزعـماء الأضعـف فيواجهـون خطـر المـوت عـلى يـد الزعـاء الأقـوى الذيـن يفعلـون مـا يشـاءون فى أثنـاء فـترة الفـوضى القصـيرة. وهكـذا يتضـح أن مـن يعانـون فى مثـل هـذه الظـروف هـم الضعفـاء والعاجـزون. ويعـود النظـام مـع الملـك الجديـد وهـو يتصـور كامنًـا فى شـخصه عـن حـق. أمـا مسـألة الخلافـة فلـم تكـن منظمـة دومًـا بوضـوح عـلى الإطـلاق، وحتـى لـو كانـت هكـذا فلـم يكـن أحـد يلتـزم بذلـك إلا مُرغـمًا. وهنـاك مفهـومٌ عجيـب عـن الخلافـة لـدم ولايـات "هيـما"[144] وقـد كان لـ"أوبـرج" رؤيـةٌ خاصـة فى تفسـير ذلـك فى دراسـته الممتازة عن مملكـة "أنكوله"[145]

فهناك أيضًا كان على الملك تجرع السم حالما لاحظ نساؤه والزعماء بوادر ضعف طرأت عليه. فعلى قوته كان الناس يعلقون الأهمية العظمى وهى ما كانت أيضًا عاملاً حاسمًا فى اختيار الخليفة. وكان حاكم "هيما" يهتم بأن يتولى خلافته واحدٌ من أقوى أبناء الملك الكثيرين ولم يكن حسم ذلك ليتم إلا من خلال القتال. وفى أثناء حرب الخلافة هذه، التى لا يمكن تفاديها، لم تكن "أنكوله" تستطيع أن تبقى من دون ملكٍ بشكل رسمى. فبعد انتهاء شعائر الحداد على الملك الراحل كان ينشب فى قريته قتالٌ بين رعاةٍ بسطاء ليستدعى المنتصر للولاية ليكون ملكًا هزليًا. أما الإخوة، أبناء الملك الشرعيون، فكانوا يشاهدون هذا الصراع، وبعد حسمه يقوم كل منهم بجمع أنصاره ليمضى فى طريق البحث عن "طبول الملك" فإذا التقى بعضهم البعض بالطريق تنشب حربٌ بينهم فيُقتَل الأمير صاحب العدد الأقل من الأنصار أو يفر إلى بلدٍ آخر. وكان مسموحًا باستخدام كل خدع القتال. فالأخ يحاول التجسس لمعرفة مكان أخيه ليتسلل إليه فى جنح الظلام ويهاجمه من حيث لا يحتسب، فيطعنه فى أثناء نومه أو يدس له السم فى طعامه، كما يُسخِّر لهذ الغرض وسائل السحر أو يستعين بمساعدةٍ خارجية. وكانت الأم والأخت يقومان بحماية كل ابن باستخدام السحر ضد خصومه فى محاولة لحمايته من أرواح القتلى. أما الابن ذو الخطوة، الذى وقع اختيار الملك السابق عليه، فيظل مختبئًا فى أثناء هذا الصراع. وقد تستمر حرب الخلافة لشهور، وفى أثناء هذه الفترة تسود البلاد حالةٌ من الفوضى، ويعتمد كل متنافس على حماية أهله له. فى أثناء ذلك يُسرَق الكثير من الماشية. وكان كل من يحمل ضغينة ضد آخر يستغل اضطراب أحوال البلاد لينتقم من عدوه اللهم إلا الزعماء الكبار الذين يقومون على حراسة حدود "أنكوله" فلا يشاركون فى هذه الحرب ويحاولون فى أثناء ذلك حماية البلاد من تسلل الأجانب إليها. وهكذا يُقتَل الأمير تلو الاخر أو يتم نفيه حتى لا يبقى سوى واحد فقط من بين المتحاربين. وهنا فقط يظهر الابن المقرب للملك السابق من مخبئه لينافس المنتصر من بين إخوته. أما الهدف الحقيقى للصراع فكان الحصول على طبول الملك وهى التى لا تكون دائمًا من نصيب الابن المقرب، لكنه عادة ما يكون لديه أقوى السحرة ويقف أتباع كثيرون إلى جانبه، فإذا مات كل إخوته فإن الباقى على قيد الحياة ينسحب عائدًا إلى البلاط ومعه طبول الملك وأمه وأخته. أما الملك الهزلى فيُقتل ليتم إعلان المنتصر ملكًا. هكذا تكون شأفة المنافسين قد

استأصلت، أما الباقى على قيد الحياة، المنتصر، فيعتبر الأقوى، ليتوجه كل شىء نحوه. وفى ولايات "هيما" الأخرى يُفترض ألا يختلف الأمر عن ذلك، حيث تدور حروب الخلافة، ويسود المبدأ نفسه كقاعدة. فالناس لا يريدون سوى الباقى على قيد الحياة ملكًا، وكان قتله لعددٍ كبير من الأعداء هو ما منحه القوى التى ينشدها الناس فيه. لكن الحرب لم تكن الوسيلة الوحيدة لشحن الملك بهذه القوى. فكانت هناك سبلٌ أخرى لدعم قوة الحاكم الجديد من خلال البقاء على قيد الحياة. ففى مملكة "كيتارا" الواقعة شمالى حدود "أنكوله" كانت الحرب، بعد حسمها، تخلص إلى شعيرةٍ مدهشة فى أثناء تتويج الملك الجديد، وهو ما عايشه البعض آخر مرة لدن تولى الملك "كارباجا" فى العام 1871 فكتبوا تقريرًا عن ذلك[146]. فمن بين الأمراء كان هناك من لم يشارك فى الصراع لحداثة سنهم. وقد كانوا أحياء حينما استأصل إخوتهم الكبار شأفة بعضهم البعض فلم يبق سوى المنتصر. وقد قام الزعيم الأكبر الذى مارس دورًا يشبه الوصى بإقناع أحد هؤلاء الأخوة الصغار بأنه هو الملك المختار وصدق على هذا كل الزعماء الحاضرين. لكن الصبى كان يعرف بما رُسم له فقال: "لا تخدعونى، فأنا لست الملك وأنتم لا تبغون إلا قتلِى". إلا أنه لم يكن أمامه سوى الطاعة ليوضع على العرش. وجاءه الزعماء بالهدايا مظهرين نحوه كل آيات الإجلال وجاء معهم "كارباجا" المنتصر صاحب التتويج الحقيقى مرتديًا ثوب أميرٍ بسيط مصطحبًا بقرةً كعطية. وكان أن سأله الوصى: "أين بقرتى؟" فرد كارباجا: "لقد جئت بها لمن يستحقها، أى الملك". فاعتبر الوصى هذا الرد إهانةً له فضرب كارباجا بطرة على ذراعه ليخرج كارباجا مغاضبًا ويعود بمقاتليه فلما رآهم الوصى قادمين قال للصبى: "أتى كارباجا، فلنحاربه" أما الصبى فشاء الفرار ليقبض عليه الوصى ويقوده إلى القسم الخلفى من قاعة العرش ليخنقه هناك ويدفنه بالمكان نفسه. فقد كان النزاع بين الوصى وبين الحاكم الجديد خدعة. وكان مصير الملك الصبى محددًا سلفًا، فهو من يتم اختياره وقتله دائمًا فى أثناء طقس يسمونه "خدعة الموت". فالحرب كانت قد حُسِمت ومات جميع الخصوم. لكن كان على الملك فى أثناء التتويج أن يبقى على قيد الحياة بعد الصبى الذى لم يكن سوى أخيه، لتدفن الضحية فى آخر قاعة هناك حيث كان العرش وطبول الملك الجديدة. كما كان للقوس أهميةٌ رمزية بمملكة كيتارا. وكان لا بد للقوس من أوتار جديدة فكان يتم اختيار رجل يرى أنه شرف له أن تؤخذ أوتار القوس من جسده

نفسـه، وهـو مـن يـشرف عـلى عمليـة اسـتخراج الأوتـار مـن جانبـه الأيمـن. وسرعـان مـا يمـوت متأثـرًا بتبعـات ذلـك ويذهـب القـوس مـع أربعـة سـهام إلى الملـك ليطلـق كل منهـا فى اتجـاه الجهـات الأربعـة الأصليـة، وهـو يقـول فى أثنـاء ذلـك: "إنى أرمـى الأمـم بنبـالى كى أقهرهـا"[147]. ولـدى كل رميـة يذكـر اسـم إحـدى الأمـم التـى تسـكن جبهـةً مـن الأربعـة. ثـم يُبحـث عـن السـهام لتعـاد ويُحتفـظ بهـا. ويتكـرر إطـلاق السـهام عـلى الأمـم مـن خـلال الملـك. أمـا المملكـة الجـارة الأقـوى لكيتـارا والتـى كانـت فى حـرب متواصلـة معهـا فكانـت أوغنـدا. فـإذا مـا اعتـلى الملـك العـرش كان يقـال إنـه: "أكل أوغنـدا" أو "إنـه أكل الطبـول"[148]. وكان امتـلاك الطبـول رمـزًا للسـلطة والمنصـب. وكان هنـاك طبـولٌ للملـك وطبـولٌ للزعـماء وكل منصـب كان معروفًـا بإيقـاع طبـول خـاص بـه. وفى أثنـاء طقـوس التتويـج كان الملـك يقـول: "أنـا ملـك أوغنـدا ولسـوف أحيـا عمـرًا أطـول مـن أجـدادى لـكى أحكـم الأمـم وأقـضى عـلى حـركات العصيـان"[149]. أمـا أول واجبـات الملـك فكانـت تتمثـل فى إقامـة الحـداد عـلى الملـك الراحـل. وفى نهايـة فـترة الحـداد يأمـر الملـك بقـرع الطبـول. وفى يـومٍ لاحـق كان يمـارس الصيـد فيجـىء إليـه بغـزال ثـم يطلـق سراحـه ويكـون عـلى الملـك اصطيـاده، ثـم يلقـى القبـض عـلى رجلـين كانـا يعـبران الطريـق صدفـةً ليُخنـق الأول ويُمنـح الآخـر الحيـاة. وفى المسـاء نفسـه يعتـلى الملـك عـرش الملـك السـابق ويحلـف اليمـين بـين يـدى أحـد الأشراف ليحملـه رجـلان قويـان عـلى الأكتـاف ويطوفـان بـه المخيـم لـكى يبايعـه الشـعب ثـم يمثـل أمـام الملـك رجـلان شُـدت عصابـة عـلى أعينهـما فيحـدث الملـك بأحدهـما جرحًـا بسـيطًا بسـهمه ويرسـله كبـش فـداء إلى البـلاد المعاديـة لكيتـارا، أمـا الثـانى فيطلـق سراحـه[150] ليعـين مشرفًـا عـلى شـئون البـلاط الداخليـة للملـك وحاجبًـا لنسـائه، ويقـاد هـذا المـشرف الجديـد مـع ثمانيـة مـن الأسرى إلى موضـع الأضاحـى. وهنـاك تُعصـب عينـاه ليُقتَـل فى وجـوده سـبعةٌ مـن الأسرى بالمقامـع ويسـمح لـه برؤيـة مـوت الأسـير الثامـن. ويقـال إن عمليـات القتـل هـذه تمـد الملـك بالقـوة وتمنـح المـشرف القـوة والإخـلاص. وبعـد مـرور سـنتين أو ثـلاث عـلى حكـم الملـك يُعـرض عليـه شـخصان مـرةً أخـرى فيجـرح الأول ويوهـب الثـانى الحيـاة. أمـا الأول فيُقتَـل خـارج القفـص عنـد المدخـل الرئيـسى. وأمـا الآخـر فيعـين مسـاعدًا للمـشرف لتكـون أول مهامـه هـى حمـل جثـة القتيـل وإلقائهـا بالنهـر. وهـؤلاء أيضًـا يُقتَلـون فى سـبيل قـوة الملـك الـذى يقتـل ليبـين أنـه تـولى الحكـم. وهـو يقتـل مـن حـين لآخـر ليبقـى عـلى قيـد الحيـاة، فهـو يكتسـب قـوة مـن خـلال بقائـه عـلى قيـد الحيـاة. وهنـاك عـادةٌ لافتـة، قـد تكـون

خاصةً بأوغندا، تتمثل فى عرض الضحايا زوجًا زوجًا فيموت الأول ويُعفى عن الثانى فيكون الملك هنا قد مارس حقًا مزدوجًا فى آنٍ واحد، وهو حقٌ خالص له فهو يستخلص القوة من أحدهما، إلا أن العفو عن الآخر فكان يعود عليه بالنفع أيضًا، فالأخير يكون قد رأى المصير الذى آل إليه الأول ليستمد هو نفسه القوة ببقائه على قيد الحياة. ولهذا يصير من عفى عنه خادمًا أكثر إخلاصًا للملك. ومما يثير الدهشة أن يموت ملكٌ فى أوغندا بعد كل هذه الممارسات وهو من ضحى البعض بحياته فى سبيله فى مناسبات أخرى. أما اكتسابه للقوة ببقائه على قيد الحياة فقد صار منظومةً وطيدة من أجل التضحية بحياة البشر. إلا أنها منظومةٌ دينية تظل على حالها هذه مستقلة عن النزوات الشخصية لهذا الملك أو ذاك. وإضافةً إلى ذلك كانت هناك أهواء الملك الشخصية التلقائية التى يكون هو المسئول عن خطورتها. أما الهيمنة المطلقة على الحياة والموت فكانت من سمات الملك الأفريقى الرئيسة وهو ما كان يسبب ترويعًا هائلاً: "ها أنت (أتا)[151]، بين يديك سلطة الهيمنة على الحياة والموت فاقتل من يقول إنه لا يخشاك"، هذا هو نص صيغة توليه ملك "إيجارا" فهو يقتل من شاء من دون الإفصاح عن مبرر ذلك، فتكفى رغبته وهو ليس مسئولاً عن ذلك أمام أحدٍ ما، لكنه لا يسمح له فى حالاتٍ كثيرة سفح الدم بنفسه. إلا أن الجلاد الذى ينفذ أمره فى ذلك، فكان منصبًا لا غنى عنه فى البلاط. وسواء كان الرجل المكلف بمهمة الجلاد قد صار رئيسًا للوزراء، كما حدث فى داهومى، وسواء كان الملك قد عين مئات جلادين على أنهم فئة من الموظفين، كما حدث لدى الأشانتى أو قصر عملية الإعدام على حالات عشوائية، فإن إصدار أحكام بالموت ظل دائمًا حقًا للملك لا ينازعه فيه أحد، فإن لم يمارس هذا الحق لفترةٍ طويلة أو لم يمارسه قط كان ذلك بمثابة التهديد للفزع الأساسى من سلطته فلا يخشاه أحد بعد ذلك، وينظر إليه الجميع باستهانة فقد كان يُنظر إلى الملك باعتباره أسدًا أو فهدًا، سواء اعتبر هو أحد هذه الحيوانات جدًا له أو شاركه صفاته من دون أن يكون من نسله المباشر. وطبيعته كأسد أو فهد كانت تعنى أن يمارس القتل مثل هذه الحيوانات، فممارسته للقتل كانت أمرًا صحيحًا ومناسبًا لأنه وُلد بإرادة القتل هذه وعليه أن يثير الفزع الذى تثيره هذه الحيوانات. وكان ملك أوغندا يأكل وحده فلم يسمح لأحد بأن يراه فى أثناء تناوله لطعامه وكان منوطًا بإحدى زوجاته إحضار الطعام له، وكان عليها أن تولى وجهها عنه فى أثناء تناوله الطعام "فالأسد يأكل

وحيـدًا"[152] هكـذا قـال الشـعب. فـإذا لم يستسـغ الطعـام أو أنـه لم يحـضر إليـه بالسرعـة الكافيـة كان يـؤتى بالمخطـئ ليمزقـه برمحـه، وإذا مـا سـعلت الخادمـة فإنهـا كانـت تعاقـب بالمـوت. وهـو يحتفـظ بجـواره دائمًـا برمحـين فـإن دخـل أحدهـم مفاجئًـا الملـك فى أثنـاء تنـاول الطعـام، فإنـه يُقتـل فى الحـال ليقـول الشـعب بعدهـا: "إن الأسـد قتـل هـذا أو ذاك فى أثنـاء تناولـه الطعـام". أمـا بقايـا طعامـه فـلا يسـمح لأحـد بمسـها فقـد كانـت تقـدم لكلابـه المدللـة. وكان ملـك كيتـارا يـأكل من يـد الطاهى الخـاص بـه[153]، فـكان هـذا يـأتى بالطعـام ليضـع الشـوكة فى اللحـم ويخـرج بقطعـة منـه ليضعهـا فى فـم الملـك، ويكـرر الطاهـى ذلـك أربـع مـرات، فـإذا مسـت الشـوكة ذات مـرة أسـنان الملـك صدفـةً فإنـه يعاقـب بالمـوت. وكان ملـك كـيرا كل صبـاح بعـد حلـب البقـر يجلـس عـلى العـرش ليعقـد مجلـس القضـاء، وهـو يطلـب السـكون ويغضـب إذا تكلـم أحـد، وكان يقـف بجـواره خـصى واضعًـا عـلى كتفـه الأيمـن فـراء أسـد يتـدلى منـه رأس الأسـد ليخفـى سـيف الملـك ذا النصلـين الـذى غُمـد فى الفـراء. فـإن شـاء الملـك تنـاول سـيفه مـد يـده فيضعـه الخـصى بكفـه ثـم يـردى الملـك بهـذا أحـد رجـال البـلاط. وفيـما عـدا ذلـك كان يطبـق العدالـة أمـام بـاب قـصره[154]. فيمضى بأرجـاء المـكان بصحبـة خـصى فـإذا لم يناسـبه شيء مـا مـد يـده ليوقـع العقوبـة بأحدهـم. وإطاعـة كل أوامـره كان مـن الـضرورة. والمـوت كان عقـاب مـن لا يراعـى ذلـك. وهنـا يتجـلى الأمـر فى أكـثر صوره نقـاءً وقدمًـا مثلـه مثـل حكـم الأسـد بالمـوت عـلى كل الحيوانـات الضعيفـة التـى تعيـش فى ظـل تهديـده الدائـم. فأمـا الأعـداء فـلا سـبيل أمامهـم سـوى توخـى طريـق الفـرار مـن وجهـه فى الحـال. كـما أنـه يرسـل رجالـه إلى أى مـكان يريـده ومـا دامـوا عـلى طاعتـه وهبهـم هـو الحيـاة. وفى حقيقـة الأمر كان يظل دائمًا أسدًا، فإذا ما واتته الفرصة أو الرغبة ضرب ضربته.

سلطان دلهى محمد طغلق

لقد عثرنا، لحسن الحظ، على وصفٍ واضح المعالم لشخصية سلطان دلهى هذا، وهو وصفٌ أكثر دقةً مما اعتدنا عليه عن وصف لحكام الشرق، فقد عمل ببلاطه الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة طيلة سبع سنوات، وهو من زار في عصره العالم الإسلامى كله من المغرب إلى الصين[155]. وقد خلَّف وصفًا حيًا عن السلطان وعن شخصيته وعن بلاطه وأعمال حكومته. وقد تمتع ابن بطوطة طويلاً بكرم السلطان، لكنه داهمه فزع قاتل حينما حلت به نقمته. فكان أن قام فى البداية، كما جرى العرف، بمداهنته محاولاً النجاة من سخطه بسلوك مسلك الزاهد. "من بين الناس كافة كان أحب عمل لهذا الملك هو منح العطايا، وأحب عمل له هو سفح الدماء". وقد كان ابن بطوطة من القليلين الذين أدركوا بوضوح هذا الوجه المزدوج للسلطة، حسبما عايشه فى هذا البلاط. ومن أجل إثبات دقة تقريره ظهر برهانٌ لا يمكن نقضه، فهناك تقرير آخر يمكن مقارنته به، وكان تدوينه لا علاقه به. فقد عاش موظفٌ كبير سبعة عشر عامًا ببلاط محمد، هو ضياء الدين برانى، وبعد فترة ليست طويلة بعد وفاة الحاكم قدم تأريخًا لعهده باللغة الفارسية، فاعتُبر ذلك من أفضل الأعمال فى هذا المجال[156]. ومن بين الكثير وصلنا عن ذلك الأمر ثلاثة حوارات كان المؤرخ - فيما بعد- قد

أجراها مع السلطان نفسه. وهى تعبر على نحو دقيق للغاية عن رؤية هذا الحاكم تجاه راعاياه ونظام حكمه، والاستعراض التالى يرتكز على هذين المصدرين وقد أفاد من كليهما إفادةً عظيمة. وقد بلغ محمد طغلق أرفع مستويات الثقافة فى عصره واعتُبرت رسائله بالفارسية والعربية نموذجًا لأناقة الأسلوب، وظلت موضع إعجاب لفترة طويلة بعد موته. ولم تكن بلاغته وأسلوبه يقلان عن أشهر أساتذة هذا الفن فقد كان يمتلك الخيال ويتقن استخدام الرمز، وكان على معرفة واسعة بالشعر الفارسى وامتلك ذاكرة استثنائية، وحفظ عن ظهر قلب كثيراً من الأشعار كان غالبًا ما يقتبس منها متذوقًا إياها كما كان مطلعًا جيدًا على باقى فنون الأدب الفارسى التى أسرته على نفس قدر علوم الإغريق من رياضة وفيزياء ومنطق وفلسفة. "وقد كان لتعصب الفلاسفة وعدم المبالاة وقسوة القلب تأثير بالغ عليه". إلا أنه كان يتمتع أيضًا بنهم الطبيب إلى المعرفة، فقد كان يعالج بنفسه المرض إذا لفت نظره أعراض مرض غير مألوف، ولم يكن أى عالم أو أديب أو شاعر أو طبيب يستطيع الصمود أمامه فى جدل ما فى مجال تخصصه، كما كان يتسم بالورع فكان يتمسك بصرامة بتعاليم دينه فلم يذق طعم النبيذ وكان يلزم رجال بلاطه باحترام مواقيت الصلاة، فإن أغفل أحدهم ذلك أنزل به أقسى العقاب. وكان يهتم كثيراً بالعدالة ولم يكن يهتم بالعبادات فحسب بل أيضًا بتعاليم الأخلاق الإسلامية وينتظر الشىء نفسه من الآخرين. وقد امتاز فى الحروب بالبسالة والمبادأة. وقد ذُكِرت على نحوٍ عام إنجازاته العسكرية فى أثناء حكم أبيه والسابقين على حكم أبيه. وقد كان أمرًا مهمًا أن نشير إلى طبيعته المتنوعة هذه، لأن كل ملامحه وأعماله التى وجدها معاصروه غريبة وغير مفهومة كانت على نقيض حاد من تلك السمات البراقة التى احتفظ بها دومًا، وكانت موضع الإعجاب الشديد. فكيف كان يبدو بلاط هذا الأمير العادل صاحب الثقافة الرفيعة؟ فمن أجل الوصول إلى داخل القصر كان على المرء اجتياز ثلاث بوابات، فأمام الأولى كان يقف الحراس بجوار ضاربى الدفوف وعازفى الناى، وعند وصول أميرٍ أو شخصية مرموقة يقوم هؤلاء بالعزف على آلاتهم صائحين: "وصل فلان بن فلان، وصل فلان بن فلان". كما كانت هناك خارج البوابة الأولى أيضًا منصات يجلس عليها الكتاب. فإذا ما أصدر السلطان قرارًا بإعدام رجلٍ ما فإنه كان يتم تنفيذ الحكم أمام بوابة القصر لتظل الجثث راقدة هناك ثلاثة أيامٍ فإذا دنا أحدهم من القصر لقى دائمًا جثثًا أكوامًا جبالاً راقدة

هنــاك. وكان عــمال نظافــة الطــرق والجــلادون المنــوط بهــم جــر الضحايــا وقتلهــم ينــوءون بعملهــم الشــاق المتصــل. وبــين البوابــة الثانيــة والثالثــة كان هنــاك بهــو لاســتقبال عامــة الشــعب. وأمــام البوابــة الثالثــة كان يجلــس كتــاب هــذه البوابــة ليحولــوا دون مــرور أحــد لا يحمــل إذنًــا خاصًــا مــن الســلطان. فــإذا مــا ظهــر شــخصٌ مــا عنــد هــذه البوابــة يسـجل الكاتــب: "فــلان بــن فــلان جــاء فى الســاعة الأولى" أو "فى الســاعة الثانيــة" حســبما اتُّفــق. وبعــد صــلاة العشــاء يتــم تقديــم تقريــر للســلطان عــن ذلــك. أمــا مــن كان يتغيــب عــن القــصر لثلاثــة أيــام أو أكــثر بعــذرٍ أو مــن دون عــذر فــكان يحــرم مــن الدخــول مــن دون إذن مســبق مــن الســلطان. فــإن كان مريضًــا أو تغيــب لعــذرٍ آخــر جــاء إلى الســلطان بهديــة تناســب مكانتــه. وخلــف هــذه البوابــة كانــت "قاعــة النظــارة" الخاصــة بالملــك أى "قاعــة الألــف ســهم" وهــى قاعــةٌ رحبــة يعلوهــا ســقف رائــع مــن الخشــب المحفــور الملــون. أمــا النظــارة فكانــت تقــام عــصرًا وأحيانًــا فى الصبــاح الباكــر، فــكان الســلطان يجلــس فــوق عرشــه أســفل مظلــة مزينــة فــاردًا ســاقيه واضعًــا إحداهــا عــلى الأخــرى، وخلفــه وســادة كبــيرة واثنتــان أخريــان يرتكــز عليهــما بذراعيــه عــلى الجانبــين، وأمامــه يقــف الوزيــر وخلفــه الحُجــاب ثــم الحاشــية طبقًــا لرتبتهــم بالبــلاط. وفى أثنــاء جلــوس الســلطان يصيــح الحُجاب والحاشــية عاليًــا: "بســم اللــه!" ليقــف مئــة رجــلٍ يمينًــا ويســارًا مســلحين بــدروعٍ وســيوف وأقواس. أمــا باقــى العاملــين والأشراف فكانــوا يصطفــون عــلى جانبــى القاعــة. ثــم يجــىء بســتين جــوادًا بزينتهــا الملكيــة لتصطــف يمينًــا ويســارًا حتــى يتســنى للســلطان رؤيتهــا، ثــم يلى ذلــك دخــول خمســين فيــلاً مزدانــة بغطــاء حريــرى وقــد اكتســت أنيابهــا بالحديــد، وهــو مــا يكــون ذا أثــرٍ قــوى عنــد قتــل المجرمــين، ويجلــس عــلى عنــق كل فيــل قائــدٌ حامــلاً شــيئًا كالبلطــة الحديديــة لــردع الحيــوان وقيادتــه. ويحمــل كل فيــل فــوق ظهــره هودجًــا كبــيرًا يتســع -حســب حجــم الفيــل- لعشريــن أو أكــثر مــن الجنــود. وقــد تــم ترويــض هــذه الأفيــال عــلى تحيــة الســلطان والركــوع أمامــه. وكل مــرة تركــع فيهــا الأفيــال تصيــح الحاشــية بصــوتٍ عــالٍ: "بســم اللــه!" وهــم يصطفــون فى مجموعتــين يســارًا ويمينًــا خلــف الأشــخاص الواقفــين، وقــد حُــدد مــكانٌ بعينــه لــكل مــن يدخــل، فــما إن يصــل إلى الحاشــية وينحنــى حتــى يصيــح هــؤلاء: "بســم اللــه!" ويرفعــون قــوة هتافهــم حســب مكانــة الشــخص المقصــود الــذى يعــود إلى مكانــه فــلا يتجــاوزه أبــدًا. فــإذا جــاء أحــد الهنــدوس الكفــار مــن أجــل المباركــة فــإن الحاشــية كانــوا يقولــون لــه: "غفــر اللــه لــك". وقــد اســتعرض رحالــةٌ عــربى عــلى نحــوٍ واضــح للغايــة مشــهد دخــول

السلطان إلى عاصمته "فإذا ما عاد السلطان من إحدى رحلاته كانت الأفيال تتزين، وقد وضعت مظلات فوق ستة عشر منها وقد زُيِّن بعضها بالديباج وبعضها بالجواهر وأُعدت سرادقات من الخشب ترتفع لعدة طوابق وعُلق بها الحرير، وفى كل طابق حُشدت مغنيات وراقصات وقد ارتدين ثيابًا رائعة مزدانة بالحلى. ووُضِع بوسط كل سرادق وعاءٌ كبير من الجلد مليئًا بالعصائر. وكان يسمح لكل الأجانب وأهل البلاد باحتساء ذلك ويستقبلون فى الوقت نفسه بسعف وأغصان النخيل. أما الأرض بين السراقات فكانت مغطاة بالحرير لتمر فوقها خيول السلطان. أما جدران الطرق فكانت مغطاة بقماشٍ من الحرير من بوابة المدينة حتى بوابة القصر. وكان يمضى أمامه الخدم والآفٌ كثيرة من العبيد الذين يليهم العامة والجنود. وفى أثناء عودته ذات مرة إلى المدينة شاهدت فوق الأفيال مقاليع صغيرة تنثر قطع نقود من الذهب والفضة بين الناس منذ لحظة دخوله المدينة وحتى وصوله القصر. وكان محمد كريمًا على نحو خاص مع الأجانب. وكانت عيناه تخبرانه على الفور بكل من يصل حدود مدن مملكته. أما رسله فكانوا مُدربين على نحوٍ مثالى، فالطريق الذى يجتازه المسافرون فى خمسين يومًا كان رسله يقطعونه فى خمسة أيام. وكانوا يتبدلون كل ثلث ميل. ولم تكن رسائله فقط هى التى تنقل هكذا فكانت فواكه نادرة تصل طازجة من خراسان إلى مائدة طعامه. أما مجرمو الولايات فكانوا يوضعون مقيدين على محفات يحملها الرسل على رءوسهم ليصلوا بنفس القدر من السرعة التى يصل بها إليه البريد والفاكهة. أما التقارير عن الأجانب على الحدود فكانت دقيقةً للغاية. فكانت تسجل بعناية وتفصيلاً مظهرهم وملبسهم وعدد المرافقين والعبيد والخدم والحيوانات ومسلكهم فى أثناء الوقوف أو السير أو الجلوس وكل ما يفعلون. وكان السلطان يعتنى بهذه التقارير على نحو دقيق. إلا أنه يكون على الأجنبى الانتظار طويلاً على الحدود حتى يصل أمر السلطان بما إذا كان سيواصل السفر ومدى التشريف الذى سوف يلقاه. وفى النهاية فإن كل من هؤلاء يخضع للحكم عليه من خلال مسلكه الشخصى. فقد كان من الصعوبة بمكان معرفة شيء عن أصله أو عن أسرته فى بلاد الهند البعيدة. وقد كان محمد مهتمًا بالأجانب على نحوٍ خاص للغاية فجعلهم حكامًا للولايات وأشرافًا. وكان أغلب رجاله عاملين ووزراء وقضاة من الأجانب. وكانوا جميعًا يحصلون على لقب "شريف" بقرار منه. وكان يدفع لهم مبالغ ضخمة لمعيشتهم ويكافئهم بمكافآتٍ متعددة. ومن خلالهم ذاع

صيت كرمه فى سائر أنحاء العالم. إلا أن صرامته كانت أكثر شهرةً، فكان يعاقب على كل فعلٍ صغير وكبير بغض النظر عن مكانة الشخص سواء كانت علميةً أو دينية أو رتبةً عالية. فكان يؤتى إليه كل يوم بمئات الناس وقد قيدت أيديهم وأرجلهم فى الأغلال فيعدم بعضهم ويعذب الآخر ويضرب البعض الثالث. وكانت من عاداته الخاصة أن يُعرض عليه نزلاء السجن كلهم كل يوم فيما عدا يوم الجمعة فقد كان يوم راحتهم حيث اعتادوا الاغتسال والتمتع بالهدوء. وكانت أقسى شكوى ضد السلطان هى إرغامه سكان دلهى على مغادرة مدينتهم. فكان لديه، كما ظن هو، مبرٌ لعقابهم فقد اعتاد هؤلاء كتابة رسائل إليه بعنوان: "إلى سيد العالم" لا يقرأها سواه شخصيًا ثم يلقون بها ليلاً فى قاعة النظارة. وعندما يكسر السلطان خاتم الرسائل لا يجد بها سوى سباب وإهانات. فقرر أن يجعل دلهى أطلالاً وبعد أن ابتاع كل مساكنهم ومنازلهم ودفع مقابل ذلك الثمن كاملاً أمرهم بالرحيل إلى "دولتاباد" التى قرر تأسيسها عاصمةً له، فلما امتنعوا أعلن من خلال المنادى الخاص به بأنه لا يجوز لأى إنسان الوجود بالمدينة بعد انقضاء ثلاثة أيام، فانصاع أغلب الناس للأمر إلا أن البعض اختبأوا بمنازلهم فأمر السلطان بالبحث فى المدينة عمن بقى فيها، فعثر عبيده على رجلين بالطريق أحدهما صاحب عاهة والآخر أعمى، فقادوهما إليه، فأمر بإلقاء العاجز من خلال مقلاع، أما الأعمى فأمر بسحله حتى "دولتاباد" وكان ذلك رحلة تستغرق أربعين يومًا، وفى الطريق كانت أشلاؤه قد تناثرت ولم يصل منه إلى دولتاباد سوى ساق واحدة. وعقب ذلك غادر الجميع المدينة تاركين خلفهم الأثاث وما يملكون لتصير المدينة مهجورة تمامًا. هكذا كان الدمار شاملاً حتى إنه لم يبق قِطٌ أو كلب بمبانى المدينة، فى قصورها وضواحيها. وقد روى لى أحد الأشخاص الذين أثق بهم أن السلطان صعد ذات ليلةٍ أعلى سطح قصره ونظر عبر دلهى فلم ير هناك أثرًا لنار أو دخان أو ضوء فقال: "الآن اطمأن قلبى وسكن غضبى". وبعد ذلك كتب إلى أهل المدن الأخرى وأمرهم بالنزوح إلى دلهى ليعمروها ثانيةً. فكانت النتيجة هى دمار مدنهم، إلا أن دلهى نفسها ظلت خاوية بسبب حجمها الهائل فهى واحدةٌ من أكبر مدن العالم، وعلى هذه الحال وجدنا دلهى لدى وصولنا إليها خاويةً لا يسكنها إلا نفرٌ قليل. وكان إحساس السلطان بالمرارة تجاه راعاياه لم ينشأ مبدئيًا نتيجة طول فترة حكمه. فمنذ بداية حكمه ساد بينه وبين رعيته توترٌ ظل يتنامى على مر السنين، كما جاء قراره بإخلاء دلهى فى السنة الثانية من حكمه.

أما عن الرسائل التى كانت تُلقى إلى قاعة النظارة فلا يبقى أمامنا سوى تخمين فحواها. إلا أن هناك ما يرجح أنها كانت تتعلق بأسلوب توليه الحكم. فقد لقى والد محمد طغلق شاه حتفه فى حادثة بعد أربع سنوات فقط من حكمه. ولم يعرف إلا بعض الثقات سر ما حدث فى الواقع. فقد كان السلطان السابق قد عاد من حملةٍ فطلب من ابنه إعداد سرادق لاستقباله. وخلال ثلاثة أيام كان قد تم إنجاز ذلك -كالعادة- من الخشب إلا أنه شُيد على نحو يجعله ينهار إثر اصطدامٍ بموضع بعينه. وعندما مضى السلطان مع ابنه الأصغر فى سرادق استأذنه محمد فى استعراض الأفيال فأذن له، فاقتيدت الأفيال بأسلوب جعلها تصطدم بالموضع الأكثر هشاشة فى المبنى الخشبى، فانهار السرادق ليدفن تحته السلطان وابنه المقرب. وقد أرجأ محمد أعمال النجدة لفترةٍ طويلة حتى تجاوز الوقت المناسب. وفى النهاية عُثِر على كليهما ميتين. وقد زعم البعض أن السلطان الذى انحنى على ابنه كان ما زال يتنفس وعلى نحوٍ ما فإنه قُتل للمرة الثانية. فارتقى محمد العرش من دون أدنى مقاومة. إلا أنه لم يكن له سلطان على ألسنة الخبثاء فصار يُنظر إليه منذ البداية بعين الريبة على أنه قاتل أبيه. وقد بلغت سلطنة دلهى فى عهد محمد طغلق أقصى مدى لها فظلت لما يربو على مئتى عام حتى تم توحيد أجزاء كبيرة من الهند تحت حكم سلطان واحد فى عهد "أكبر". إلا أن محمد لم يقنع قط بالولايات التى كانت تحت يده وقد تجاوزت العشرين، فقد شاء وضع العالم المسكون كله تحت حكمه ودبر خططًا رائعة لخدمة أغراضه. ولم يأتمن أيًا من مستشاريه أو أصدقائه على هذه المشاريع بل إنه احتفظ بها لنفسه كما ابتدعها هو بنفسه. وكان يرى فى كل ما يخطر بباله أمرًا حسنًا فلم يكن يشك فى قدراته. وكانت أهدافه تبدو له أمرًا بديهيًا والوسائط التى يستخدمها فى تحقيق ذلك كانت هى الوحيدة الصحيحة. وكانت أكثر مشاريع فتوحاته طموحًا هى الهجوم على خراسان والعراق والصين كذلك. ومن أجل الأولى كوّن جيشًا من 370.000 فارس وقام برشوة المدن المهددة بمبالغ ضخمة، إلا أن الهجوم لم ينفذ ومات فى مهده بعد أن تفرق الجيش وتبددت الأموال هباءً، تلك التى كانت بمعايير محمد هائلةً. أما الخطة الأخرى، أى فتح الصين، فكان ينبغى تنفيذها بعبور جبال الهيمالايا. فأرسل 100.000 فارس إلى أعلى الجبال فى سبيل إخضاع تلك الكتلة (الجماهير) الكثيفة مع شعبها العنيف، ولتأمين معابر إلى الصين. وقد قُضى على هذا الجيش فلم يبق منه سوى عشرة رجال عادوا إلى

دلهى فأمر السلطان الذى خاب رجاؤه بإعدامهم. وقد كان فتح العالم يحتاج إلى جيوش جرارة ويتطلب أموالاً أعظم، وقد كانت موارد محمد هائلة فكان يرد إليه من جميع الأنحاء خراج ملوك الهندوس الخاضعين له كما ورث عن أبيه من بين ما ورث مخزونًا من كتلة مصمتة من الذهب. إلا أنه سرعان ما وقع فى ورطة مالية فبحث -على طريقته- عن وسيلةٍ ناجحة للخروج منها دفعةً واحدة. وكان قد سمع عن أوراق الصين المالية فوضع خطةً تسمح له بشىء شبيه بذلك من النحاس. فأمر بسك كمية كبيرة من النقد النحاسى وحدد قيمتها بالفضة قسرًا. وأمر باستخدامها بدلاً من الذهب والفضة. فصار الناس يبيعون ويشترون حينئذٍ بالنحاس وكان نتيجة هذا القرار أن تحول بيت كل هندوسى إلى قطعة نقد. فقد قام هندوس الولايات المختلفة بأنفسهم بسك ملايين من قطع النقد النحاسية وبها صاروا يدفعون خراجهم وبها اشتروا خيولاً وشتى الأنواع من الأشياء الجميلة. فكان أن أثرى أمراءٌ وعمد قرى وإقطاعيون من خلال هذه النقود النحاسية. وسرعان ما انخفضت قيمة النقد الجديد على نحوٍ حاد بينما ارتفعت قيمة النقد القديم إلى أربعة أو خمسة أضعاف قيمته السابقة. وهكذا لم يعد النحاس فى نهاية المطاف سوى حبات حصى وصار كلٌ يحتفظ ببضاعته حتى ركدت التجارة بكل مكان. فلما رأى السلطان أثر قراره قام بإلغائه وهو ساخط سخطًا عظيمًا. وأعلن أن على كل من يحتفظ بنقود نحاسية أن يأتى بها ليستبدل بها العملة القديمة، فأخرج الناس نحاسهم من كل ركن كانوا ألقوه به بكل احتقار وجاءو بالآلاف إلى الخزانة حيث حصلوا مقابل ذلك على ذهب وفضة. وكان أن تراكمت جبال من نقود النحاس فى طغلق آباد لتفقد الخزانة مبالغ ضخمة ليشتد الاحتياج إلى المال. فلما رأى السلطان ما فقده من ثروته من جراء سك النقود النحاسية زاد من اعتماده على ما فى يد رعيته، فكانت الوسيلة الأخرى للحصول على المال هى فرض الضرائب التى كانت ارتفعت للغاية بسبب أفعاله، فصار تحصيلها يتم بقسوة بلا اكتراث لأى اعتبار، فتحول الفلاحون إلى شحاذين، وصار من يملك شيئًا من بين الهندوس يغادر بلده ليشق طريقه إلى الأدغال لينضم إلى المتمردين الذين كانت قواتهم، كبيرةً وصغيرةً، منتشرةً فى كل مكان. كما صارت الأرض قفرًا وصار المحصول يتراجع باطراد ما أدى إلى مجاعة بالبلدان المنتجة للحبوب. فلما انقطع المطر لفترة طويلة عمت المجاعة البلاد واستمرت لعدة سنوات فتشتت شمل العائلات ولم يعد لدى مدن كاملة ما

تأكله وقُضى على آلاف البشر. وقد كانت هذه المجاعة هى التى حسمت الوجهة الحقيقية لمصير المملكة فازدادت حركات التمرد لتنفصل الولاية تلو الأخرى عن دلهى. وصار محمد ينتقل من مكانٍ إلى آخر ليخمد حركات العصيان. وازداد طغيانه فجرَّف الارض تمامًا وقام بمحاصرة الأدغال التى هرب إليها المتمردون، وأخذ يقتل كل من يقبض عليه رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً. واتخذت الرهبة منه منحنى متطرفًا إلى حد أن خضع له كل إنسان كان يراه فى أى مكان، إن لم يكن قد هرب قبل ذلك. لكنه لا يكاد يحقق الأمن فى مكان حتى ينفجر التمرد بطرف آخر من أطراف البلاد. أما الحكام الذين كانوا ينفصلون عنه فإنه كان يأمر بسلخ جلودهم وحشوهم بالتبن ويرسل بهذه الدُمى المريعة إلى أرجاء البلاد لينشر الفزع فيها. ولم يشعر محمد بتأنيب الضمير على ما ارتكبه فقد كان مؤمنًا بصحة ما يفعله. وكانت الحوارات التى أجراها مع ضياء الدين البرانى عن ذلك مسهبةً إلى حد يؤدى بنا إلى اقتباس بعض الشىء منها. فقد قال السلطان لبرانى: ها أنت ترى كم الثورات التى تنشب وإنى غير راضٍ عن ذلك رغم أن الناس سيقولون إن كل هذه ترجع إلى صرامتى المفرطة، لكننى لن أتراجع عن أحكام الإعدام بسبب هذه الادعاءات أو تلك الثورات، ولقد قرأت أنت الكثير من المراجع التاريخية، فهل رأيت ملوكًا يصدرون أحكامًا بالإعدام بالشبهة؟

وقد توصل برانى إلى فتوى إسلامية عليا ترى عقوبة الموت واجبة فى سبع حالات، أما يتجاوز ذلك فيؤدى إلى قلاقل وعصيان ويلحق الضرر بالبلاد. والسبع حالات هى: -1 الارتداد عن الدين -2 قتل النفس -3 زنا رجلٍ محصن بزوجة آخر -4 التآمر على الحاكم -5 قيادة ثورة -6 التحالف مع أعداء الحاكم ونقل الأخبار إليهم -7 شق عصا الطاعة بما يلحق الضرر بالدولة. وهى أحكامٌ لا تسرى على غيرها من حالات عدم الطاعة. وكان الرسول قد ذكر بنفسه ثلاثًا من هذه الجرائم وهى: الارتداد عن الدين وقتل المسلم والزنا بامرأة متزوجة، أما عقوبة الأربع الأخرى فكانت بالأحرى أمرًا سياسيًا. إلا أن الفتوى كما يرى برانى قد أكدت أيضًا على أن يقوم الملك بتعيين الوزراء الذين يرتقون بعدها مرتبة "الأشراف" العليا وتسلم إليهم مقاليد حكم المملكة، وتكون مهمة هؤلاء الوزراء هى مراعاة سلامة القوانين والحفاظ على البلاد فى إطار نظام قويم، حتى ينأى الملك بنفسه عن أن تلطخ يداه بدماء أى إنسان. وكان أن عقب على ذلك فقال: إن العقوبات المتقترحة آنذاك كانت تساير أحوال الدنيا فى الماضى. أما

اليوم فيوجد بشرٌ أكثر سوءًا وعنادًا وأنا أعاقبهم بمجرد الشبهة أو الظن بنياتهم فى التمرد أو الخيانة وإنى أعاقب أدنى أفعال العصيان بالموت ولسوف أواصل ذلك حتى يفرغ أجلى أو يسلك الناس مسلك الأدب ويدعون التمرد والعصيان ولست أملك مثل هذا الوزير الذى يضع قواعد تحول بينى وبين سفح الدماء. وإنى لأعاقب الناس لأنهم صاروا فجأة أعدائى وخصومى ورغم أنى وزعت عليهم ثرواتٍ عريضة لم يبدوا ودًا نحوى أو دانوا لى بالولاء، وإنى عليمٌ بتوجهاتهم وأرى أنهم غير راضين ويناصبوننى العداء.

وفى حوار تالٍ لذلك يأسف السلطان أنه لم يقتل الجميع قبل ذلك، هؤلاء الذين تمردوا فأثاروا المتاعب. وذات مرةٍ أخرى، كان قد فقد للتو واحدة من أهم مدنه، التى كان قد هدد سكان دلهى بإرغامهم على الانتقال إليها، كان قد استدعى برانى وسأله عن العلاج الناجع الذى عالج به الملوك السابقون مثل هذه الأحوال، فمملكته عليلة ولم يجد معها أية وسيلة، فأجابه برانى بأن الملوك الذين أدركوا أنهم فقدوا ثقة شعوبهم وصاروا موضعًا للنفور العام، أقدموا على التنحى وتركوا الحكم لأحد أبنائهم الأكثر جدارةً، واتجه آخرون إلى الصيد والمتعة وتركوا إدارة شؤون البلاد للوزراء والعاملين. فإذا ارتضى الشعب ذلك ولم يكن الملك مريضًا بالانتقام صار فى الإمكان أن تتعافى الدولة من مرضها على هذا النحو. أما أعظم شرور السياسة وأعظمها وأكثرها خشية هى الشعور العام بالنفور وافتقاد الثقة بين طبقات الشعب. إلا أن السلطان لم يدع بالكاد فرصةً لبرانى ليغير وجهته بنصائحه الشجاعة التى تكاد تكون سافرة. فإذا ما أفلح فى تنظيم أمور دولته على النحو الذى يتمناه فى هذه الحالة فقط سوف يعهد بالحكم إلى ثلاثة رجالٍ بعينهم ليمضى إلى الحج بمكة: "لكننى الآن حانقٌ على رعيتى وهم غاضبون على، وهم يعرفون مشاعرى كما أعرف أنا مشاعرهم، وكل سبيل أحاول أن أسلكه يظل من دون أثر. أما دوائى للمتمردين والعصاة والغاضبين فهو السيف. فأنا أقرر عقوبة الإعدام وأستخدام السيف كى أداوى بالداء. فكلما اشتدت مقاومة الناس اشتد عقابى لهم".

وكانت كثرة حركات التمرد والقلاقل التى هزت مملكته قد أثرت على مشاعر السلطان فبدأ يؤنب نفسه، ليس لأكوام الجثث أمام قصره والمنتشرة فى كل الولايات والمدن التى زارها، وإنما بالأحرى لشرعية حكمه، فقد كان، كما اتضح

بشكل كافٍ، رجلاً ورعًا محبًا للعدالة وقد شاء الوصول بمنصبه الملكى إلى أقصى درجات العقاب الدينية التى يسمح بها الإسلام. ففى القرون الماضية كان خلفاء بنى العباس، حكام بغداد، يُعتبرون المرجعية المختصة. إلا أن دولتهم دالت. ففى العام 1258 كان المغول قد استولوا على بغداد وقُتل آخر الخلفاء.

أما محمد طغلق الذى اعتلى العرش عام 1325 واستيقظ ضميره نحو العام 1340 عندما بدأت ولاياته تنفصل عنه الواحدة تلو الأخرى فقد صعبت عليه معرفة من هو صاحب الحق فى تقلد الحكم. فتوخى البحث مخلصًا، فصار يسأل بدقة كل الرحالة القادمين إلى بلاطه من بلاد المسلمين الغربية حتى خلص فى النهاية إلى نتيجة أن الخليفة المصرى هو "البابا" الذى ينشده. فبدأ مشاورات معه. فراح مبعثون وجاءوا. وفى رسائله إلى الخليفة سمح لنفسه بإطلاق مداهنات كانت متطرفة إلى حد لم يجرؤ معه المؤرخ برانى أن يكررها، وهو الذى كان مضطرًا إلى اعتياد بعض مثل هذه الأمور. أما رسول الخليفة الذى كان يأتى إليه فكان محمد يخرج للقياه عند بوابة المدينة بصحبة كبار الأشراف وعلماء الدين، ليصحبه بعد ذلك لمسافةٍ ما حافى القدمين. وقد قام بمحو اسمه من النقود ليضع مكانه اسم الخليفة، وفى أيام الجمعة وصلواتها كان يذكر اسم الخليفة. إلا أن محمد لم يكن راضيًا عن ذلك فكل الملوك السابقين الذين لم يعترف بهم الخليفة كان يمنع ذكر أسمائهم من الصلاة ويعلن أن حكمهم باطل بأثر رجعى. وقد كتب هو اسم الخليفة فوق مبنى عالٍ ولم يسمح بوجود اسم آخر بجواره. وفى شهادة احتفائية وبعد توافد عدة بعثات من مصر لسنوات عديدة تم تعيين محمد نائبًا للخليفة على الهند. وقد سبب هذا المرسوم لمحمد سعادةً جعلته يأمر شعراء بلاطه أن يسجلوا ذلك شعرًا، لكنه ظل على حالةٍ تزداد حدة مع ازدياد إخفاقاته ولم يستطع الخلاص من شخصية القاتل. وبعد مرور ستة وعشرين عامًا على حكمه مات بحمى أصابته فى أثناء حملة تأديبية. هكذا يعتبر محمد الصورة الأكثر نقاء لصاحب سلطة مصاب بجنون العظمة، وقد صارت حياته الغريبة بمثابة مادة دراسة خاصة للأوروبيين. فقد كان كل شىء فيه لافتًا للانتباه. فالمرء يراه على نحوٍ أفضل لوضوح سياق طبيعته الصارم. وهو الذى تأثر وجدانه بكتل عديدة: جيشه وأمواله وجثثه والبلاط الذى ارتبطت عاصمته به. وقد تعامل معها بلا انقطاع. فكانت إحداها تكبر على حساب الأخرى. وبانهيار جيشه الضخم نضب معين ثروته وقد أرسل مدينةً كاملة إلى

المنفى وبقى هو فى هذه المدينة العالمية فجأة وحيدًا قانعًا. ومن أعلى سطح قصره شاهد المدينة الكبيرة خاويةً، ليستمتع تمامًا بحظ الباقى على قيد الحياة. ومهما كانت أعماله إلا أنه عرف كيف يحتفظ بكتلةٍ خاصة به، فلقد تمسك فى كل الأحوال بالقتل وكان هناك مشهد من كوم الجثث ماثلة أمام قصره. أما استعراضه اليومى للسجناء بوصفهم مرشحين للإعدام فكان يرى فى ذلك ثروته النفيسة التى تفوق قيمتها أى ثروة أخرى. وعبر ستة وعشرين عامًا من حكمه كانت أكوام الجثث قد انتشرت فى كل ولايات مملكته. كما جاءه المدد من خلال الأوبئة والمجاعات. لكنه سخط لعجزه عن تفادى انقطاع الخراج، إلا أن اطراد عدد ضحايا المستمر كان يوطد رباطة جأشه. ومن أجل تأمين قوة أوامره فى حالة من التركيز المطلق المتمثلة فى أحكام الإعدام بحث لنفسه عن أعلى مرجعية. وقد دافع مؤرخون هنود محدثون عن محمد طغلق، فالسلطة لم تفتقر قط إلى مداحين، فالمؤرخون المهووسون مهنيًا بالسلطة اعتادوا كل شىء مع مرور الزمن الذى يستطيعون كخبراء الاختباء خلفه بسهولة، أو يتذرعون بـ"الضرورة" التى يشكلونها بأيديهم كيفما شاءوا[157]. إن مثل هذه المعالجات نراها فى حالات هى أقرب لنا من حالة محمد طغلق. وقد يفيدنا فى اتقاء ذلك أن ننسب أفعال السلطة إلى شخصٍ واحد فقط، لا يحمل هذه الأفعال نحو العالم، إلا فى أوهامه، لحسن الحظ.

حالة شريبر
الجزء الأول

تعتبر "خواطر "شريبر" - رئيس مجلس شيوخ "درسدن" السابق- وثيقةً لم نكن نطمح إلى أكثر منها ثراءً وعطاءً، فقد كان الرجل مثقفًا وعقلانيًا، كما علمته مهنته الصياغة الواضحة. وهو من أمضى سبع سنواتٍ بالمصحة كمريضٍ بجنون العظمة حين قرر تدوين كافة تفاصيل ما بدا للعالم نظامًا مجنونًا. فصارت "خواطر مريض أعصاب" كتابًا كاملاً[158]. وقد آمن شريبر بصحة وأهمية دينه الذى أبدعه بنفسه حتى أنه أصدر كتابًا عنه بعد رفع الحجر عنه. أما الوسائط اللغوية التى استخدمها فكأنها خُلِقَت من أجل عرض أنماطٍ فكرية على هذا النحو الخاص للغاية. وقد عبر من خلال ذلك عن الكثير، إلى حد كشف كل العناصر الأساسية، فهو يحسن الحديث، ولأنه لم يكن، لحسن الحظ، شاعرًا فقد تسنى لنا متابعة كل معالجاته من دون الوقوع فى أسره. وقد شئت إبراز بعض الفقرات اللافتة فى طريقته ما دام ذلك متيسرًا. وقد بدا لى أن هذه المعالجة تحملنا إلى أقرب موضعٍ من طبيعة جنون العظمة. فإذا ما تناول آخرون الأمر نفسه بالبحث فتوصلوا إلى نتائج أخرى كان هذا برهانًا على ثراء هذه "الخواطر". أما بيانه الذى يطالعنا به شريبر فيتجلى على نحوٍ أكثر وضوحًا حين يقصره على

مـا تبـدى لـه فقـط، فعنـد البدايـة تقريبًـا قـال: "إننـى لسـت سـوى إنسـانٍ وبذلـك أكـون قـد التزمـت حـدود المعرفـة الإنسـانية". ولم يتطـرق إليـه شـك فى أنـه قـد اقـترب للغايـة مـن الحقيقـة أكـثر مـن البـشر الآخريـن كافـة. ثـم ينتقـل عـلى الفـور إلى الأبديـة. وفكـرة الأبديـة تصبـغ كتابـه كلـه، فهـى تعنـى لـه أكـثر مـما تعنـى للإنسـان العـادى. فهـو خبـيرٌ بهـا ولا يعتبرهـا شـيئًا مُنِـح لـه بـل شـيئًا يمتلكـه. أمـا حسـاباته الزمنيـة فيضعهـا فى إطـار حقـبٍ مديـدة. فتجاربـه التـى مـر بهـا تمتـد عـبر قـرونٍ مـن الزمـن، وهـى تبـدو لـه كأن كل ليلـةٍ واحـدة امتـدت إلى مئـات السـنين إلى حـدٍّ يُمكِّـن هـذا الإطـار الزمنـى مـن احتـواء أكـثر التطـورات عمقًـا فى التجربـة البشريـة كلهـا والأرض والنظـام. أمـا معرفتـه بالفضـاء الخارجـى فلـم تكـن أقـل مـن معرفتـه بالأبديـة. وقـد تأثـر عـلى نحـوٍ خـاص ببعـض الكواكـب والنجـوم مثـل كاسـيوبيا وفيجـا وكابيـلا والثريـا، وهـو يذكرهـا كأنهـا محطـات تـرامٍ عـلى الناصيـة التاليـة، بينـما كان يعـرف تمامًـا بعدهـا الحقيقـى عـن الأرض، فهـو مطلـعٌ عـلى علـم الفلـك، فهـو لم يشـأ رؤيـة العـالم مصغـرًا لكنـه، عـلى النقيـض مـن ذلـك، كان لقـد انجـذب إلى أجـرام الفضـاء لأنهـا بعيـدةٌ إلى هـذا الحـد. ولقـد أغـراه حجـم الفضـاء الهائـل فشـاء أن يتخـذ لنفسـه هـذا البعـد، وأن يمتـد هـو فوقـه كلـه. إلا أنـه لم يتولـد لدينـا الانطبـاع بـأن الأمـر هنـا يرتبـط بعمليـة النمـو بـل هـو تمـددٌ أكـثر منـه نمـو. فهـو يسـعى إلى البعـد لـكى يحقـق فيـه نفسـه ويثبـت جدراتـه. فالمهـم هنـا هـو وضعـه هـذا الـذى لا يكتفـى بحجـمٍ أو أبديـة. أمـا نظـام الكـون فهـو يعتـبره المبـدأ الأسـمى، فهـو يرفعـه فـوق الإلـه، فـإذا حـاول الإلـه معارضـة هـذا النظـام فإنـه سـيواجه صعابًـا. وغالبًـا مـا يتحـدث شريـبر عـن جسـده الإنسـانى كأنـه جسـد العـالم. وهـو ينشـغل بنظـام الكواكـب كـما ينشـغل الآخـرون بأفـراد أسرتهـم. وهـو يتمنـى أن يحتويـه هـذا النظـام، وأن يسـتقر فيـه. أمـا ثبـات واسـتمرار أوضـاع النجـوم عـلى حالهـا التـى عرفناهـا بهـا مـن آلاف السـنين فقـد يكـون هـو مـا جذبـه إليهـا عـلى نحـوٍ خـاص، وأن موضعًـا بينهـا سـيكون كأنـه موقـعٌ للأبديـة. وهـذا الشـعور بالموقـع يمثـل لـه أهميـةً جوهريـة. فالأمـر يـدور دائمًـا حـول الدفـاع عـن موقـعٍ مصطنـع وتأمينـه. وهـو الحـال نفسـه لـدى صاحـب السـلطة، وهـو مـا تفرضـه عليـه طبيعـة السـلطة. فالشـعور الـذاتى الـذى يحـس بـه نحـو موقعـه لا يختلـف عـن موقـع المصـاب بالجنـون بالعظمـة. فمـن يكـون بوسـعه ذلـك فإنـه يحيـط نفسـه بالجنـود ويغلـق عـلى نفسـه القـلاع. أمـا شريـبر الـذى شـعر بتهديـدٍ متعـدد فإنـه تشـبث بالنجـوم لأن الأحـداث فى كل الأحـوال تجـرى فى الكـون، كـما

سنرى. ومن أجل إدراك هذه المخاطر فلا بد من أن نذكر بعض أحوال ساكنى عالمه، فشربر يرى أن الروح الإنسانية تسيطر عليها أعصاب الجسد، وما دام الإنسان عاش يكون جسدًا وروحًا فى آنٍ واحد، إلا أنه إذا مات فإن الأعصاب تبقى كروح، فالإله هو دائمًا عصبٌ وليس جسدًا، فهو إذن على صلة قربى بالروح الإنسانية لكنه يفوقها إلى ما لا نهاية لأن أعصاب الإله أبدية وغير محدودة العدد. وتتمتع أعصاب الإله بخاصية التحول إلى أشعة، أى أشعة الشمس والنجوم على سبيل المثال. والإله سعيدٌ بالعالم الذى خلقه إلا أنه لا يتدخل فى مصيره على نحوٍ مباشر، فبعد الخَلق تراجع عنه، وظل بعد ذلك فى الغالب بعيدًا، فإنه لا يجوز للإله على الإطلاق أن يفرط فى الاقتراب من البشر لأن لأعصاب الأحياء قوة جذبٍ على نحوٍ لا يكون بوسعه الخلاص منها، فيصير مُهدَدًا فى وجوده ذاته، لذا يأخذ حذره دائمًا من الأحياء. فإذا ما حدث ذات مرةٍ أن سمح لنفسه بالاقتراب بفعل صلاة متبتلة أو من خلال شاعرٍ ما فإنه ينسحب على أسرع وجه قبل فوات الأوان. إن علاقةً منتظمة بين الإله وأرواح البشر لا توجد إلا بعد الموت، فالإله يستطيع الدنو من الجثث من دون مخاطرة، وذلك من أجل جذب أعصابهم من أجسادهم إليه وبعثهم فى حياةٍ سماوية جديدة. ومن أجل هذا الغرض فلا بد من تطهير أعصاب البشر أولاً، فالإله لا يحتاج إلا لأعصابٍ بشرية نقية لأن مصيرها أن تنضم إليه بذاته لتصير فى النهاية أجزاءً من ذاته كـ"أفنية سماوية أمامية". وقد كان لا بد من تفسيرٍ لذلك، وهو ما لم يستطع شريبر كذلك وصفه تفصيلاً. فإذا ما نفذت الأرواح من خلال هذه العملية لترتفع إلى السماء فإنها تنسى تدريجيًا كيف كانت هى على الأرض. وإن كانت لا تصل جميعها إلى ذلك بنفس القدر من السرعة، فأناسٌ ذوو شأن، مثل جوته وبيسمارك، يحتفظون بوعيهم الذاتى ربما لمئات السنين لكن لا أحدًا، حتى الأعظم من بينهم، يستطيع ذلك للأبد لأن مصير جميع الأرواح فى النهاية أن تندمج مع أرواح أخرى لتصعد فى وحداتٍ أرقى وأن تشعر بأنها ليست سوى أجزاءٍ من الإله أى "أفنية أمامية للسماء". إن اندماج الأرواح فى كتلةٍ يعتبر هنا أعظم النعم كافةً. ولنا أن نتأمل بعض ملامح الفكر المسيحى، فالملائكة والقديسون كلهم متلاحمون معًا مثل السحب، التى تكون أحيانًا سحبًا حقيقية نتعرف فيها على رءوس بجوار بعضها البعض إذا ما دققنا النظر. إن هذا التصور مألوفٌ إلى حد أنه لا أحد ينكر معناه على الإطلاق، وهو يعبر عن أن النعمة لا توجد بالقرب من الإله فحسب، إنما فى

تلاحـم وجـودٍ جمعـى لأنـداد. ومـع الوصـف: "أفنيـة السـماء الأماميـة"، يكـون قـد جـرت المحاولـة لتكويـن تماسـك كتلـة الأرواح البـارة هـذه عـلى نحـوٍ أكـثر تلاحـمًا، فهـى قـد صعـدت حقًـا فى وحـداتٍ أكـثر سـموًا، فالإلـه لا يـدرك الكثـير عـن البـشر الأحيـاء. ففـى الفصـول اللاحقـة مـن "الخواطـر" يتهـم شريـبر الإلـه مـرارًا بعـدم القـدرة عـلى فهـم البـشر الأحيـاء، وهـذا بمثابـة الحكـم عـلى فعاليتـه الفكريـة عـلى نحـوٍ صحيـح. فهـو يتحـدث عـن العـماء الإلهـى الناتـج عـن عـدم معرفـة الإلـه بطبيعـة البـشر، فهـو قـد اعتـاد عـلى التعامـل مـع الجثـث، ويحـذر الأقـتراب مـن الأحيـاء. إن الحـب الإلهـى الأبـدى لا يكـون إلا بمواجهـة الخلـق ككل. فالإلـه ليـس هـو هـذا الكائـن الكامـل المطلـق كـما تصفـه معظـم الأديـان، وإلا مـا كان استسـلم لإغـراء المؤامـرة ضـد البـشر الأبريـاء، وكان هـذا هـو الأسـاس الحقيقـى لمـرض شريـبر لأنـه طـرأ صـدعٌ مفاجـئ فى "البيـان الرائـع" للعـالم، عـلى حـد وصفـه. فقـد واجـه ملكـوت الإلـه أزمـةً عسـيرة ارتبطـت بالمصـير الشـخصى لشريـبر. ولم يكـن الأمـر بأقـل مـن حالـة "قتـل الـروح". وقـد كان شريـبر ذات يـوم مريضًـا ووُضِـع حينـذاك تحـت رعايـة المعالـج النفـسى بروفيسـور "فلكسـيج" مـن ليبـزج. وبعـد عـامٍ كان المعالـج قـد سـمح لـه بالخـروج عـلى أنـه قـد تعـافى فاسـتطاع اسـتئناف ممارسـة عملـه. وكان شريـبر حينـذاك ممتنًـا للغايـة لصنيـع المعالـج النفـسى وممتنًـا عـلى نحـوٍ أعظـم لزوجتـه التـى كانـت تـكاد مغرمـةً بالبروفيسـور فلكسـيج الـذى رد إليهـا زوجهـا ولهـذا ظلـت صورتـه عـلى طاولـة عملهـا لسـنوات. وقـد عـاش شريـبر حينـذاك مـع زوجتـه ثمانيـة أعـوامٍ سـعيدةً وثريـة للغايـة بالعمـل. وقـد كان لديـه الفرصـة طـوال هـذا الوقـت أن يطالـع مـرارًا صـورة فلكسـيج الـذى انشـغل بهـا يقينًـا للغايـة مـن دون سـببٍ واضـح، لأنـه عندمـا أصيـب ثانيـةً بالمـرض وكان أمـرًا طبيعيًـا أن يعـود إلى فلكسـيج، الـذى أثبـت جدارتـه قبـل ذلـك، اتضـح لـه أن شـخصية المعالـج النفـسى قـد نمـت فى ذهـن شريـبر إلى أبعـادٍ خطـرة تمامًـا. وربمـا كان شريـبر، الـذى كان قاضيًـا، قـد امتلـك شـيئًا مـن التسـلط فانتقـل ذلـك سرًا إلى المعالـج حتـى إنـه صـار رهـن سـلطته، فصـار حينـذاك يمقتـه لأنـه أصبـح رهـن سـلطته مـرةً أخـرى، مـا ولـد لديـه عقيـدة أن فلكسـيج مـارس عليـه "عمليـة قتـل الـروح"، أو "سرقـة الـروح". أمـا تصـور إمكانيـة السـيطرة عـلى روح آخـرٍ فهـو تصـورٌ موغـلٌ فى القـدم ومنتـشرٌ فى كل مـكان، فعـلى هـذا النحـو يسـتولى المـرء لنفسـه عـلى القـوة الروحيـة للضحيـة، أو يجعـل لنفسـه حيـاةً أطـول. وبدافـع الطمـوح وحـب السـيطرة قـام فلكسـيج بتدبـير موامـرةٍ مـع الإلـه الـذى حـاول فلكسـيج إقناعـه

بـأن الأمـر لـن يمكـن أن يتوقـف عـلى روح مـن يُدْعَـى شريـبر. وقـد يرجـع هـذا إلى خصومـةٍ قديمـة بـين عائلتـى فلكسـيج وشربـر. فقـد يكـون قـد تولـد فجـأةً لـدى أحـد أفـراد أسرة فلكسـيج شـعورٌ بـأن أحـد أفـراد عائلـة شريـبر قـد سـبقه إلى تقلـد منصـبٍ رفيـع، لذلـك قـام بتدبـير مؤامـرةٍ مـع عنـاصر مـن ملكـوت الإلـه مـن أجـل قطـع الطريـق عـلى تقلـد أفـراد عائلـة شريـبر المنصـب الرفيـع الـذى يفـضى إلى صلـةٍ أقـرب مـع الإلـه. وكان مـن هـذه المهـن مهنـة "طبيـب أعصـاب". فمـن خـلال أهميـة الأعصاب كـمادةٍ خاصـة يتكـون الإلـه منهـا، ككل الأرواح الأخـرى، اتضـح مدى السـلطة التـى يحصـل عليهـا طبيـب الأعصـاب، فكانـت النتيجـة أن لا أحـد مـن عائلـة شريـبر صـار طبيبًـا للأعصـاب، وهـى المهنـة التـى آلـت إلى أفـراد عائلـة فلكسـيج. فصـار السـبيل ممهـدًا أمـام المتآمريـن لسرقـة الأرواح، وصـار شريـبر تحـت سـلطة قاتـل روحـه. وربمـا كان مـن المفيـد هنـا أن نشـير إلى أهميـة المؤامـرات بالنسـبة لمصـابٍ بجنـون العظمـة، فالمكائـد والمؤامـرات عـلى جـدول حياتـه اليوميـة، فيكـون عـلى يقـينٍ مـن اصطدامـه بـكل مـا هـو شـبيه بذلـك ولـو مـن بعيـد. فالمصـاب بجنـون العظمـة يشـعر أنـه "محـاصرٌ" ولـن يكتفـى عـدوه الرئيـسى بمهاجمتـه وحيـدًا، فهـو دائمًـا مـا يثير ضـده حزمـةً بغيضـة ليطلقهـا عليـه فى الوقـت المناسـب، ويظـل أعضـاء الحزمـة فى مبـدأ الأمـر مختبئـين، وهـم بوسـعهم أن يكونـوا بـكل مـكانٍ، وهـم يتظاهـرون بـشىءٍ مـن الـبراءة وحسـن الطويـة، كأنهـم لا يعرفـون بمـن هـم يتربصـون. إلا أن قـوة الأرواح النافـذة للمصـاب بجنـون العظمـة تسـتطيع كشـفهم، فحيثـما يضـع يـده يسـتطيع التقـاط واحـدٍ مـن أولئـك المتآمريـن. فهـذه الحزمـة تكـون هنـاك دائمًـا، حتـى لـو لم تعلـن عـن نيتهـا، فعقيدتهـا لا تتغـير، فـإن هزمهـا العـدو مـرةً فإنهـا تبقـى عـلى حالهـا كلابًـا مستسـلمةً لـه بإخـلاصٍ، فيسـتطيع هـو العبـث بهـا كيفـما شـاء. فهـو يقبـض عـلى أفرادهـا بحيـلٍ خبيثـة عـلى مسـافةٍ بعيـدة فيقودهـم بمـا يوافـق هـواه. وهـو يؤثـر انتقاءهـم بـأن يكونـوا متسـاوين فى كل النواحـى وأن يمتلكـوا قـدرةً فائقـة فى النفـاذ إلى المسـتهدف. فـإذا مـا كانـت هـذه المكائـد ضـد شريـبر قـد تـم تدبيرهـا، فكيـف دارت الحـرب ضـده فى الواقـع؟ ومـا هـى الخطـوات التـى اتخذوهـا لتحقيـق هدفهـم؟ فقـد كان هـو أهـم وأقـرب هـدفٍ، وإن لم يكـن هدفهـم الوحيـد، الـذى تمسـكوا بـه لسـنواتٍ طويلـة، هـو تدمـير عقلـه بـل كان لا بـد مـن جعلـه أحمـق عـلى أن يُدْفَـع بمـرض أعصابـه إلى حـدٍّ يبـدو معـه أنـه لـن يتعـافى أبـدًا. فـما الـذى يمكـن أن يصيـب رجـلاً بهـذه الـروح إصابـةً أكـثر عمقًـا؟ فقـد بـدأ مرضـه بـأرقٍ أليـم وذهـب كل

ما فعله ضد ذلك أدراج الرياح. وقد رأى شريبر أن النية قد توافرت منذ البداية لاعاقته عن النوم والوصول به إلى انهيار وعيه. أما الوسيلة المستخدمة فى ذلك فكانت أن يُسْلَّط عليه عددٌ لا حصر له من الأشعة التى صدرت فى البداية عن بروفيسور فلكسيج. لتبدأ بعدها كذلك أرواح الموتى الذين لم يخضعوا لعملية التنقية، أى أنها كانت "أرواحًا تحت الاختبار" كما دعاها شريبر. فبدأ اهتمامها به يتزايد حتى نفذت كأشعةٍ إلى داخله. كما شارك الإله نفسه فى هذا العمل. وقد أخذت كل هذه الأرواح فى الحديث إليه، لكن على نحوٍ لا يسمعه الآخرون. فقد كان ذلك كصلاةٍ يتلوها المرء داخله صامتًا من دون أن ينطق بكلمات هذه الصلاة. أما الفارق الدقيق الوحيد فكان أن تلاوة مثل هذه الصلاة مرتبطة بالإرادةِ الشخصية، وأما الأشعة المفروضة عليه من الخارج فكانت تنطق بما شاءت. "بوسعى ذكر أسماء مئاتٍ بل آلافٍ من الأسماء التى تعاملت معى. كل هذه الأرواح كانت تحادثنى كأصواتٍ، كلٌ منها على حدة، دون معرفةٍ بوجود الآخرين. أما الاضطراب المزمن الذى نشأ عن ذلك فى رأسى فبوسع الجميع تصوره. وعقب ازدياد توترى ازدادت قوة الجذب، فشعرت بعددٍ كبير من أرواح الموتى تنجذب نحوى حتى تتساقط على رأسى أو داخل جسدى. وقد انتهى الحدث إلى عددٍ كبير من نوبات ظهور تلك الأرواح، وهى على نحوٍ ما رجالٌ صغار، أى شخوصٍ ضئيلة صغيرة لا يتجاوز حجمها بضع مليمترات قضت وقتًا قصيرًا على رأسى لتختفى بعد ذلك تمامًا. وفى حالاتٍ كثيرة للغاية كان يُذْكَر لى نجومٌ أو كواكب كانت قد انطلقت منها أو علقت بينها. وقد كانت هناك ليالٍ تتساقط فيها الأرواح فوق رأسى كرجالٍ صغار بالمئات، إن لم يكونوا بالآلاف. فى أثناء ذلك كنت أحذر دائمًا من الاقتراب لأننى فى كل مرةٍ، بعد الأحداث السابقة، كنت أشعر بقوة جذب أعصابى المتنامية بلا حدٍّ، بينما كانت الأرواح تحتفظ بقوة جذبها الخطرة دائمًا على نحوٍ لا يصدق على الإطلاق. وفى لغة الأرواح كنت أُدْعَى (المطلع على الأرواح) أى إنسان يستطيع رؤية الأرواح والتواصل مع الأرواح أو مع أرواح موتى. وفى الواقع فإنه منذ نشأة العالم لم يكن قد ظهرت بالفعل حالةٌ مثل حالتى بأن إنسانًا ما قد صار على صلةٍ مستمرة ليس فقط مع الأرواح أو أرواح الموتى، كلٍ على حدة، وإنما مع الأرواح كافةً، حتى مع الإله المهيمن".

إن غزارة هذه الأحداث واضحةٌ بالنسبة لشربر، فالفضاء الخارجى مسكونٌ بأرواح موتى حتى أقصى النجوم، وهى لديها جميعًا أماكن خاصة بها، سكنوها

على سطح هذا أو ذاك النجم. وفجأةً يصير هو محورها من خلال مرضه. ورغم تحذيراته كانت تتقدم نحوه بعد أن صارت جاذبيته لا تقاوم. وقد نقول إنه قد جمعها ككتلةٍ حوله. ولما كان الأمر - كما يؤكد هو- يدور حول الأرواح كافةً فقد مثلت هى أكبر كتلةٍ ممكنة على الإطلاق. لكن الأمر لم يكن بسيطًا إلى حد أنها ظلت مجتمعةً حوله ككتلة، مثل "شعبٍ" حول "زعيمه"، بل كان على النقيض من ذلك فقد حدث لها "فى الحال" ما تمر به الشعوب الملتفة حول زعيمها "تدريجيًا" على مدار سنوات. فقد صار حجمها يتضاءل على نحوٍ دائم فما كادت تصل إليه حتى تضاءلت على أسرع وجه، فصار حجمها إلى مليمتراتٍ قليلة. وقد برزت الصلة الحقيقية بينها وبينه فى أكثر وجوهها إقناعًا، فقد نفذت بالمعنى الحرفى هى إليه لتختفى هناك تمامًا. فقد كان أثره عليها مدمرًا. فقد جذبها وجعلها صغيرة ليلتهمها. وكل ما كانت هى عليه كان بمثابة الفائدة لجسده. إلا أنها لم تأت لفعل الخير من أجله، فقد كانت نواياها بالفعل عدوانية، فهى أُرْسِلت مبدئيًا من أجل اضطراب عقله لتقضى عليه بذلك، لكنه كان قادرًا على مجابهة هذا الخطر تحديدًا. والآن بعدما عرف كيف يقيدها لم يكن زهوه بجاذبيته بالقليل. وهو كان سيبدو للوهلة الأولى فى إطار جنونه كشخصيةٍ من عصور غابرة سادها الإيمان بالأرواح حينما كانت أرواح الموتى تئز كالخفافيش حول آذان الأحياء. وقد بدا الأمر كأنه يمارس مهمة المطلع على عوالم الأرواح بدقةٍ متناهية، كما يعرف كيف يتواصل معها ويسخرها لخدمة كل الأغراض الإنسانية الممكنة. وقد آثر تعريف نفسه كذلك بـ"المطلع" على الأرواح. إلا أن سلطة الكاهن لم تصل قط إلى ما وصلت إليه سلطة شريبر، فالكاهن يحمل أحيانًا الروح داخله إلا أنها لا تتحلل هناك، فهى تحتفظ دومًا بوجودها المستقل. وقد تم الاتفاق بأن عليه أن يطلقها ثانيةً يومًا ما، ولكنها فى المقابل تنفذ إلى شريبر تمامًا لتختفى كأنها لم يكن لها وجودٌ بذاتها. أما وهمه المتنكر فى رداءٍ متقادم لمفهوم العالم، والذى يشترط وجود الأرواح، لهو فى الواقع نموذجٌ دقيق للسلطة السياسية التى تقترب من الكتلة لتتكون فيها. وكل محاولةٍ لتحليل مفهومٍ للسلطة ستؤدى إلى خلل فى وضوح نظرية شريبر، التى تضم كل عناصر العلاقات الواقعية، أى الجاذبية القوية والمتحفظة المؤثرة على الأفراد الذين يتجمعون فى شكل كتلةٍ، وعقيدتهم المريبة، وترويضهم باختزال حجمهم ليندمجوا فى صاحب السلطة الذى يمثل السلطة السياسية فى شخصه وجسده، وهو ما

يحتاجـه لتجديـد حجمـه الضخـم عـلى هـذا النحـو بـلا توقـف. وتـأتى فى النهايـة نقطـةٌ أخـيرة ومهمـةٌ للغايـة لم نذكرهـا حتـى الآن وهـى الشـعور بالكارثيـة المرتبـط بخطـر تهديـد نظـام العـالم المسـتمد مـن تلـك الجاذبيـة الشـخصية المطـردة بسرعـةٍ وعـلى نحـوٍ غـير متوقـع. وقـد توافـرت فى "الخواطـر" شـهاداتٌ كافيـة عـن هـذا الشـعور، ففـى رؤى شريـبر عـن زوال العـالم شىء جديـر بالملاحظـة، وهنـا ينبغـى أن نقـدم أولاً موضعًـا ارتبـط عـلى نحـوٍ مبـاشر مـع قـوة جاذبيتـه لـلأرواح. فـالأرواح المتسـاقطة عليـه مـن النجـوم بكثافـةٍ هـى التـى تضـع أجسـاد العـالم الناشـئة عنهـا فى مواجهـة الخطـر. فيبـدو أن النجـوم التـى تنشـأ عـلى وجـهٍ خـاصٍ بكثافـةٍ عـن هـذه الأرواح عندمـا تنجـو هـذه بعـددٍ كبـير لتصـل إلى شريـبر تكـون قـد تحللـت. "فتصـل الأخبـار السـيئة مـن كل الأرجـاء، بـأن حتـى هـذا النجـم أو ذاك أو هـذا الكوكـب أو ذاك يكـون قـد اضطـر إلى الاستسـلام، فقريبًـا سـيعلن عـن غـرق كوكـب الزهـرة بالفيضـان، وقريبًـا لا بـد مـن أن يكـون النظـام الشـمسى كلـه قـد تـم إخضاعـه، وقريبًـا لا بـد مـن أن الكاسـيوبيا – أى النظـام الشـمسى- سـينكمش كلـه إلى شـمس واحـدة، وقريبًـا لـن يكـون هنـاك سـوى الثريـا التـى ربمـا يمكـن إنقاذهـا". لم يكـن قلـق شريـبر حـول بقـاء جسـد العـالم إلا أحـد عنـاصر مزاجـه الـكارثى. أمـا الأمـر الأكـثر أهميـةً فـكان حقيقـةً أخـرى كان مرضـه قـد بـدأ بهـا، وهـى لا ترتبـط بـأرواح المـوتى التـى كان هـو عـلى اتصـال دائـم بهـا -كـما نعـرف الآن- وإنمـا ترتبـط بالبـشر حولـه، فهـؤلاء لم يعـد لهـم وجـودٌ عـلى الإطـلاق، بعـد أن تـم القضـاء عـلى البشريـة كلهـا. وكان شريـبر يعتقـد أنـه الإنسـان الحقيقـى الوحيـد الباقـى، أمـا الأشـكال الإنسـانية التـى كان لا يـزال يراهـا فهـم طبيبـه وحـراس المصحـة أو عـدد مـن المـرضى عـلى سـبيل المثـال، فـكان يعتبرهـم مجـرد هـالاتٍ، فلقـد كانـوا رجـالاً تـم خلقهـم بشـكلٍ عابـر مـن أجـل تضليلـه فحسـب حتـى يصـاب بالاضطـراب، فكانـوا يبـدون لـه ظـلاً أو صـورًا ليتلاشـوا مـرةً أخـرى، فلـم يأخذهـم هـو بالطبـع عـلى محمـل الجـد، فقـد كان قـد قـضى عـلى البـشر الحقيقيـين جميعًـا، أمـا الوحيـد الـذى ظـل حيًـا فـكان هـو، وهـذه الحقيقـة يُوْحَـى بهـا إليـه فى رؤى منفـردة، ولم تحـل محـل أراء مناقضـة، بـل إنـه ظـل لسـنواتٍ طويلـة مؤمنًـا بهـا إيمانًـا راسـخًا وقـد صبـغ عقيدتـه الشـخصية هـذه بـكل رؤاه عـن زوال العـالم. وكان يعتـبر أنـه مـن الممكـن أن مصحـة فلكسـيج كلهـا، وربمـا معهـا مدينـة ليبـزج، قـد تـم رفعهـا مـن الأرض ونُقِلَـت إلى مـكانٍ آخـر بجسـد العـالم، فكانـت الأصـوات التـى تحادثـه تسـأله أحيانًـا إن كانـت ليبـزج لا تـزال موجـودة. وقـد قادتـه إحـدى رؤاه إلى

مصعدٍ على عمقٍ بعيد فى الأرض، فعايش فى أثناء ذلك كل العصور الجيولوجية، حتى وجد نفسه فى غابة فحمٍ حجرى. وبعد مغادرته المصعد لفترةٍ ما، صار يتجول فيما يشبه المدافن، فمر بالمواضع التى رقد بها سكان ليبزج وكذلك قبر زوجته نفسها، ويجب أن نشير هنا إلى أن زوجته كانت لا تزال على قيد الحياة وزارته مرارًا بالمصحة. وقد تخيل شريبر صورًا مختلفة عما آلت إليه نهاية البشرية. فقد اعتقد بانخفاض حرارة الشمس بعد ابتعادها كثيرًا عن الأرض ما سبب ظهور جليدٍ شامل. واعتقد بحدوث زلازل، فقد بلغه أن زلزالاً قويًا فى لشبونة كان ذا صلة بحالة أحد المطلعين على النجوم، كانت حالته مشابهةً لحال شريبر. أما خبر ظهور ساحرٍ فى العالم الحديث، هو البروفيسور فلكسيج، واختفاء شريبر المفاجئ وهو الشخصية الشهيرة فقد أشاع الرعب والفزع بين البشر وقوض قواعد الدين. وقد انتشرت حالةٌ عصبية وساد انحلالٌ أخلاقى عام وانتشرت أوبئةٌ مدمرة للبشرية. وقد ذكر منها الجُذام والطاعون اللذين لم يعد الناس يعرفونهما بالكاد. وقد لحظ ظهور أعراض الطاعون على جسده نفسه وقد اتخذت أشكالاً مختلفة. فكان منها الطاعون الأزرق والبنى والأسود. لكن فى أثناء ما كان قد قضى على البشر من جراء هذه الأوبئة كان شريبر نفسه قد تعافى من خلال أشعةٍ خيرة. وهنا يكون علينا أن نميز بين نوعين مختلفين من الأشعة وهما الضارة والبارة. اما الأولى فقد شُحِنت بسموم الجثث أو شيءٍ آخر من مادة عفنٍ، وهى تحمل بذرة أمراضٍ إلى داخل الجسد. أما الأشعة البارة أو النقية فهى تعالج التلف الذى سببته الأخرى. ولم يتولد لدينا الانطباع بأن هذه الكوارث قد حلت بالبشر على غير إرادة شريبر، بل على النقيض من ذلك، فقد أبدى ارتياحًا لإحساسه بأن الأعمال العدائية التى تعرض لها من قبل بروفيسور فلكسيج قد أدت إلى هذه التبعات الرهيبة، فقد عوقبت البشرية كلها واستؤصلت شأفتها لأنه كان هناك من سمح لنفسه بأن يقف ضده. وهو فقط من سوف تحميه الأشعة البارة ضد آثار الأوبئة. فقد بقى شريبر وحده على قيد الحياة لأنه هو نفسه شاء ذلك، فهو يريد أن يكون الوحيد فى ساحة موتى شاسعة، وساحة الموتى هذه تضم كل البشر الآخرين. وفى هذا لا يثبت أنه مصابٌ بجنون العظمة فحسب بل إن ذلك هو التوجه الأعمق لكل صاحب سلطة (مثالى) فهو آخر من يبقى على قيد الحياة. فصاحب السلطة يرسل الآخرين إلى الموت لينقذ نفسه من الموت، فهو يبعده عن نفسه. وهو لا يبالى بموت الآخرين فقط، بل

إن كل شيءٍ يدفعه إلى القتل الجماعى. وهو يلجأ إلى هذا الأسلوب المتطرف خاصةً إذا ما صارت سيادته على الأحياء محل نزاع. فما إن يشعر بالتهديد فإنه لا يمكن الحد من شغفه برؤية الجميع موتى أمام عينيه من خلال رؤيةٍ ذهنية. لكن ينهض هناك اعتراضٌ على أن مفهوم شريبر السياسى هذا ليس فى محله، فرؤاه المنذرة بالموت هى ذات طبيعةٍ دينية. فهو لا يتطلع إلى حق السيادة على الأحياء، لأن سلطة المطلع على الأحياء مختلفةٌ فى جوهرها. ولما كان وهمه يرتبط بتصور أن كل البشر موتى وقتلى فإنه ليس بوسع أحدٍ أن ينسب إليه اهتمامًا بسلطةٍ دنيوية. لكن سرعان ما يثبت بطلان هذا الاعتراض، فلسوف نعثر لدى شريبر على نظامٍ سياسى يبعث فينا الاعجاب الشديد. لكن قبل استعراض ذلك سيكون من المفيد أن نتناول شيئًا من مفهومه عن السيادة الإلهية. فكما يرى هو كان الإله هو من "حدد قاعدة التوجه كلها للسياسه المتبعة ضدى..."، " لقد كان بمقدور الإله طوال الوقت القضاء على إنسانٍ يزعجه بإرسال مرضٍ قاتلٍ أو صاعقة...". وما إن ينشأ صدامٌ بين مصالح الإله وبين فرادى من البشر، أو مجموعاتٍ بشرية، ربما تصل إلى كل سكان كوكبٍ ما، فلا بد من أن يتحرك دافع الحفاظ على النفس داخل الإله كما يحدث لأى كائنٍ حى، ولنتذكر "سدوم وعمورة..."، فمن المستبعد أن يحرم الإله أى انسانٍ فرد من قدر البركة الذى يستحقه لأن كل تكاثرٍ لـ"أفنية السماء الأمامية" لا يخدم إلا زيادة قوة الإله الخاصة ودعم قوى حمايته ضد الأخطار المتنامية الناشئة عن الاقتراب من البشرية. واصطدام مصالح الإله مع فرادى البشر لا يمكن أن يتحقق مطلقًا من جراء المسلك البشرى المطابق لنظام العالم. فإن كان قد حدث فى حالته توافق مثل هذه المصالح فسيكون ذلك حالةً فريدة فى تاريخ العالم لن تتكرر أبدًا، فهو يتحدث عن إعادة نشر السيادة المطلقة على السماء، عن "الرابطة المتوحدة لروح فلكسيج مع أجزاء الإله" التى ارتدت عليه حدتها العدوانية، والتى أحدثت تغيرًا فى العلاقات بين الأطراف، قد حافظت على وجودها حتى يومنا هذا. وهو يذكر "القوى العملاقة الخاصة بهيمنة الإله" والمقاومة المستحيلة من جانبه هو وعبر عن اعتقاده بأن "صلاحيات سلطة البروفيسور فلكسيج، كمديرٍ لإحدى محافظات الإله، لا بد من أن تكون قد امتدت إلى أمريكا"، ويبدو أنها امتدت إلى إنجلترا كما ذكر طبيب أعصاب بفيينا، كان فيما يبدو المدير المزعوم لمصالح الإله بإحدى محافظات الإله الأخرى،

وتدعى "أجزاء الإقليم السلوفاكى" بالنمسا. وقد نشب صراعٌ بينه وبين البروفيسور فلكسيج حول الهيمنة.

من هذه الاقتباسات المتناثرة التى اقتُطِفت من "الخواطر" تنتج صورةٌ واضحة للغاية عن الإله، فيبدو أنه ليس صاحب سلطةٍ، ومملكته تتكون من محافظاتٍ وأنصار. ومصالح الإله كما وُصِفَت بإيجازٍ وحسمٍ تتعلق بزيادة سلطته. وهذا وليس غيره هو السبب أنه لن يحرم أى إنسانٍ من نصيبه الذى يستحقه من نعمائه. أما البشر المزعجون فهو يقصيهم عن طريقه. ولا يمكن إنكار أن هذا الإله يقبع كعنكبوتٍ فى عش سياسته. ومن هنا لا تكون هناك المسافة بعيدةً عن سياسة شريبر الخاصة، وقد ينبغى علينا أن نتكهن بأن نشأته كانت بمقاطعة ساكسن، حيث ساد التراث البروتستانتى القديم، فصار ينظر إلى كل الممارسات العقائدية الكاثوليكية بعين الريبة. وكانت أولى مقولاته عن الألمان قد ارتبطت بالحرب الظافرة بين عامى 1870 و1871. فقد تلقى إشاراتٍ أكيدة عن أن الشتاء القارس لفصل 1870 و1871 كان أمرًا قرره الإله ليوجه الانتصار الحربى إلى الجانب الألمانى. والإله يشعر بضعفٍ ما نحو لغة الألمان، ففى أثناء مرحلة "التثبيت الإيمانى" تعلمت الأرواح اللغة الأساسية التى يتحدث الإله نفسه بها، وهى شىءٌ من الألمانية القديمة الرصينة. إلا أن هذا لا يعنى أن النعمة كانت مقصورةً على الألمان فقط. لكن، على نحوٍ ما، كان الألمان فى عصرٍ أكثر حداثة، أى عصر الإصلاح أو منذ الهجرة الشعبية، قد صاروا شعب الله المختار الذى آثر الإله أن يستخدم لغتهم. وعبر التاريخ كان شعب الله المختار هى الشعوب البارعة الملتزمة بالأخلاق، وهى حسب ترتيبها، بدايةً من اليهود القدامى ثم الفرس القدامى وفيما بعد اليونان - الرومان، وفى الختام الألمان. وقد تعرض هذا الشعب الألمانى بالطبع للمخاطر.

وكان أولها الأعمال غير المشروعة للكاثوليك، ولنتذكر المئات أو الآلاف، من الأسماء التى استطاع ذكرها، كلها كانت أرواحًا على اتصالٍ به كأشعة، وكانت كلها قد تحدثت إليه. وكان الكثيرون من حاملى هذه الأسماء يضعون المصلحة الدينية فى المقام الأول، فقد حمل كثيرون للغاية أسماء كاثوليكية ممن كانوا يتوقعون تفوقًا للكاثوليك، خاصة كثالكة ساكسن وليبزج، ومن بين هؤلاء القس (St.) من ليبزج ، ورابطة "14 كاثوليك بليبزج" (ربما كانت رابطة كاثوليكية)،

والأب اليسوعى (S.) بمدينة درسدن، وكلٌ من الكاردنيال رامبولا وجاليمبرتى وكاساتى والبابا نفسه، وأخيراً عددٌ غفيرٌ من الرهبان والراهبات. وفى أثناء مناسبةٍ بعينها دخل مئتان وأربعون من الرهبان البنديكيت بقيادة أحد الأباء "كأرواح إلى رأسى ليلقوا نهايتهم هناك". وكان من بين الأرواح كذلك طبيب أعصابٍ من فيينا وقد عُمد كيهودى وسلوفاكى الأصل، وقد شاء أن يحول ألمانيا إلى سلوفاكيا من خلال شريبر، وفى الوقت نفسه يؤسس للسيادة اليهودية. والكاثوليكية، كما نرى هنا، قد تم عرضها على نحوٍ تام للغاية. فلم يكن هناك فقط المؤمنون البسطاء الذين اجتمعوا فى رابطةٍ مريبة، إنما كذلك، كانت كل الرتب الكنسية ممثلة. وقد ذكر أبٌ يسوعى وهو ما أدى إلى كل المخاطر المرتبطة باسم اليسوعيين. وكأصحاب أعلى سلطة بالكنيسة ظهر ثلاثةٌ من الكرادلة بأسماء ذات صبغةٍ إيطالية، والبابا نفسه. كما ظهرت أيضًا أفواجٌ من الرهبان والراهبات. حتى المبنى الذى عاش فيه شريبر كان غاصًا بهم مثل الحشرات. وفى رؤيةٍ، لم أتعرض لها، كان شريبر قد رأى كيف صار جناح النساء بمستشفى الأعصاب الجامعى إلى دير راهباتٍ، ومرةً أخرى كيف تم تأثيثه كمقصورة كاثوليكية. وفى الغرف تحت سقف المصحة جلست أخواتٌ رحيمات. أما الأكثر إثارةً للعجب فكان موكب المئتين والأربعين بقيادة أحد الآباء، وليس هناك شكلٌ للأستعراض يقارن بالموكب الكاثوليكى، فمجموعة الرهبان المغلقة تمثل بلورة الكتلة لجميع الكاثوليك المؤمنين. ومشهد الموكب يثير فى المشاهدين إيمانهم المستتر الخاص فيشعرون فجأةً بالرغبة فى الأنضمام إلى مؤخرة الموكب. وهكذا يكون الموكب قد تكاثر بالجميع الذين مر بهم، فهو يجب ألا ينتهى. وقد قضى شريبر رمزيًا على الكاثوليكية عندما ابتلع هذا الموكب. ومن الفترة المبكرة المثيرة لمرضه التى وصفها شريبر بالفترة المقدسة، برزت على نحوٍ خاص مرحلةٌ من أربعة عشر يومًا ذات أثر عميق، وهى مرحلة المحكمة الإلهية الأولى. ويدور أمر المحكمة الإلهية الأولى حول سلسلةٍ من الرؤى متعاقبةً ليل نهار، قائمةً على "فكرةٍ عامة مشتركة". وقد تأسست هذه الفكرة فى جوهرها على السياسة والوعى بالرسالة التبشيرية، وإن تفاقمت على نحوٍ دعوى. ومن خلال الصراع بين بروفيسور فلكسيج وشربر طرأت أزمةٌ خطيرة هددت وجود ممالك الإله. ولهذا كان لن يسمح للشعب الألمانى، خاصةً ألمانيا الإنجيلية، بالزعامة كشعبٍ مختار. وكانت كواكب أخرى ستهدد لو لم يرتفع شعار "الكفاح" من أجل الشعب الألمانى، والذى أثبت جدارته على الدوام. وشعار "الكفاح" هذا

كان ينبغى أن يجسده شريبر نفسه، أى شخصية أخرى دالةً عليه. وتحت ضغط الأصوات ذكر أسماء بعض الرجال الأفذاذ الذين بدوا مؤهلين بحمل شعار "الكفاح" لقيادة مثل هذه المعركة. وكان توغل الكاثوليكية واليهودية والسلافية أحد الأفكار الأساسية للمحكمة الإلهية الأولى. كما تأثر ببعض التصورات الناتجة عن هجرة الأرواح التى ستخرج منه فى المستقبل. "وقد خُطِّطَ أن يكون لى أدوارٌ متتالية... كدور ربيبٍ يسوعى فى أوسج ودور عمدةٍ فى كلاتاو، ودور فتاةٍ من الإلزاس كان عليها الدفاع عن شرفها ضد ضابط فرنسى منتصر، وفى الختام دور أميرٍ منغولى. وقد اعتقدت أن كل هذه النبوءات ترتبط بمعرفة الصورة الكاملة الناتجة عن بقية الرؤى. أما تقرير أننى سأصير فى المستقبل ربيبًا يسوعيًا وعمدةً لكاتالاو، وفتاةً من الإلزاس على الحالة المذكورة سابقًا، فقد اعتبرته نبوءة بخضوع البروتستانتية والشعب الألمانى للكاثوليكية فى صراعهما مع الجيران الرومان والسلاف. أما الفرصة المتاحة أمامى فى أن أصير أميرًا منغوليًا فقد بدت لى كإشارةٍ إلى حتمية اللجوء إلى الشعوب غير الآرية، بعد أن أثبتت كل الشعوب الآرية عدم جدارتها بأن تكون دعائم لممالك الإله". أما الحقبة المقدسة فقد حددها شريبر بالعام 1894. فقد كان ينزع إلى التحديد الدقيق للزمان والمكان. كما حدد تاريخًا دقيقًا لمرحلة المحكمة الإلهية الأولى. وبعد ست سنواتٍ، أى فى العام 1900، عندما كان هوسه قد اتسم بالحكمة والأتزان، اتجه إلى تأليف "خواطره"، وفى العام 1903 تم نشرها ككتاب. ولن يكون بوسعنا إنكار أن نظامه السياسى قد حقق نجاحًا ما بعد بضع عشراتٍ من السنين، بعد أن تمت صياغته، على نحوٍ أكثر فظاظةً وأقل تحضرًا، ليصبح عقيدة شعبٍ كبير. فقد أدى تحت قيادة أميرٍ منغولى إلى احتلال القارة الأوروبية، وكاد يفرض سيادته على العالم، فقد تم تحقيق مزاعم شريبر على يد تلاميذ جهلاء جاءوا بعده. لكن حقيقة تطابق النظامين الجلية سوف تُسْتَخدَم كمبررٍ لنشأة الكثير من الظواهر المماثلة لحالة جنون عظمةٍ واحدةٍ. فقد كان شريبر سابقًا على القرن الذى عاش فيه فى بعض الأمور، فلم تكن فكرة إحتلال كواكب مأهولةٍ فكرةً قائمةً حينذاك. ولم يكن قد خطر بباله فى أثناء ذلك فكرة الشعب المختار، لكنه أدرك – بطريقته الشخصية - أن الكاثوليك واليهود والسلاف كتلٌ معادية، وهو ما سيظهر فيما بعد، لكنه لم يرفع شعار "الكفاح" ولم يكره أولئك لمجرد وجودهم، فقد كان التوجه الملح للنمو قد ولد معهم ككتل. وليس هناك من يملك رؤيةً حادة لسمات الكتلة أكثر من المصاب

بجنون العظمة أو صاحب السلطة. وهو ما ينتج عنه الشيء نفسه، كما يجب أن نقر بذلك الآن، لأن كلمة "هو" تعبر عن كلا الشخصين، فقد انشغل بالكتلة التى يريد إيجادها أو فرض سيادته عليها. وهاتان لهما فى كل مكان الملامح البسيطة نفسها. ومن الجديد بالملاحظة هو كيفية تحديد شريبر لأشكال وجوده المستقبلى. فمن الخمسة، الذين عددهم، كان الشكل الأول فقط، الذى أُهمل آنفًا، هو الشخصية غير السياسية. أما الثلاثة التالون فقد وضعوه فى قلب المناصب الأكثر نزاعًا، فقد تسلل إلى اليسوعيين كربيب لهم. وصار عمدة مدينة فى بوهيمرفالد حيث دار صراع بين الألمان والسلاف، وكفتاة ألمانية حاول أن ينصر الإلزاس فى مواجهة ضابطٍ فرنسى منتصر، وكان شرف جسدها أقرب إلى الشرف العرقى لمن جاءوا بعده. أما النقطة الكاشفة فكانت تجسيده الخامس كأميرٍ مغولى.

وقد بدا تفسيره لذلك مقتربًا للغاية من كونه اعتذارًا، فهو يخجل على كل حالٍ من الكيانات غير الآرية ويبرر ذلك بأن تلك الكيانات جرمت الشعوب الآرية. ولم يهيم فى الواقع إلا بجنكيز خان كأميرٍ مغولى. بعد أن تأثر بأهرامات الجماجم المغولية. أما حبه لساحات الجثث فلم يعد أمرًا غريبًا على القارئ. فقد كان يستحسن هذا النوع الواضح والمليونى فى القضاء على الأعداء، فإذا اجتثهم جميعًا، فلم يعد يرى أحدًا منهم، تمتع بمشهد كومهم العاجز.

وقد جسد شريبر فى كل حالات هذه الكيانات الأربعة معًا، أو هكذا بدا الأمر. لكن نجاحه الأعظم كان كأمير مغولى. من خلال هذا التأمل الأدق لحالة هوس جنون العظمة يمكن استنتاج شيءٍ واحد مؤكد، هو أن المسألة الدينية تختلط هنا بالشأن السياسى، فهما لا يفترقان، فهما المخلِّصان للعالم وهما يحكمان العالم، إنهما شخصٌ واحد. فشهوة السلطة هى جوهر كل شيء. فجنون العظمة، بالمعنى الحرفى للكلمة هو مرض السلطة. ودراسة هذا المرض فى كافة الجوانب تفضى إلى الكشف عن طبيعة السلطة، كما لا يمكن الوصول إليها فى هذا الكمال والوضوح فى حالةٍ أخرى. ولكننا على يقين بأن مريضًا مثل شريبر لن يصل أبدًا إلى الموقع المهم الذى كان يتحرق إليه. لكن آخرين وصلوا إليه، فقد نجح بعضٌ من هؤلاء فى محو آثار صعودهم ببراعة وحافظوا على نظامهم المحكم مخفيًا إلى النهاية. ولم يكن لبعضٍ آخر حظٌ وافر أو وقتٌ كاف.

فالنجاح هنا مرتبطٌ فى نهاية المطاف بالصدفة ارتباطًا وثيقًا. ويتم إعادته فى إطار تقنين خادع يدعى تاريخًا. فمقابل كل اسم عظيمٍ فى التاريخ كان هناك مئات آخرون يستحقون المكانة نفسها. والموهبة مثل الخبث منتشران انتشارًا واسعًا بين البشرية. فلكلٍ مطامحه، وكلٌ يقف كملكٍ فوق ساحاتٍ بلا نهاية من جثث الحيوانات. وعلى الدراسة الأمينة عن السلطة أن تتجاوز عن النجاح كمعيار. فيجب علينا البحث عن سمات السلطة ومثالبها فى كل مكان وعقد المقارنة بينها. أما المريض النفسى المنبوذ والعاجز والمحتقر والذى يعيش أيامه الباهتة فى مصحةٍ ما، فيمكن من خلال معرفته التى حصلها، أن يكون أكثر أهميةً من هتلر ونابليون، ويكشف للبشرية عن ساداتها واللعنة التى أصابتها.

حالة شريبر
الجزء الثانى

إن المؤامرة التى دُبرت ضد شريبر لم تكن موجهةً فقط إلى قتل روحه وتدمير عقله، فقد انطوت النية ضده على شيءٍ آخر، كانت تقريبًا على نفس القدر من الإهانة، فكان ينبغى الاعتداء عليه كامرأةٍ ثم يُتْرك مكانه ببساطة، أى أنه أعيد إلى حالة التعفن. ولقد انشغل هو دائمًا بتصوره عن تحوله إلى امرأةٍ طيلة سنوات مرضه. فقد شعر بالأعصاب الأنثوية وهى تُبَث كأشعةٍ فى جسده لتسيطر عليه شيئًا فشيئًا. وفى بداية إصابته بالمرض حاول الانتحار بكل السبل الممكنة حتى يتجنب بذلك مثل هذا الخزى المريع. وكانت كل مرةٍ يغتسل فيها قد ارتبطت بتصوره للموت غرقًا. وقد اشتهى السم. لكن الأمر لم يتوقف عند يأس شريبر من حالة تحوله المتعمد إلى امرأة. فشيئًا فشيئًا نشأت لديه عقيدةٌ بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لضمان استمرار وجود البشرية، بعد أن تم القضاء تمامًا على البشر من خلال كوارث رهيبة. أما هو، الوحيد الباقى، فبوسعه كامرأةٍ إنجاب جيلٍ جديد. ولم يتصور سوى الإله والدًا لأبنائه. فكان عليه اكتساب حب الإله، فعدَّ التوحد مع الإله شرفًا عظيمًا، فلم يعد يبدو له مطلقًا عارًا أو إهدار كرامةٍ، وهو الملتحى والرئيس السابق لمجلس الشيوخ، أن يتقرب من الإله فى

هيئةٍ أنثوية، وأن يتزين له من أجل إغرائه، وأن يجذب انتباهه بكل وسائل الأنثى. وعلى هذا النحو استطاع أيضًا مقاومة مؤامرة فلكسيج. فقد اكتسب رضا الإله المهيمن الذى يزداد انجذابه إلى شريبر، المرأة الجميلة، حتى انزلق إلى نوعٍ من التبعية له. ومن خلال مثل هذه الوسائل، التى تبدو صادمةً للآخرين، وُفِّق شريبر بالفعل إلى أن يربط الإله بشخصه. إلا أن هذا الإله لم يستسلم بلا مقاومةٍ لهذا المصير الشائن بعض الشىء. فكان يجفل عن شريبر من حينٍ لآخر. ولقد كانت أمنيته يقينًا أن يتحرر منه تمامًا، إلا أن قوة جذب شريبر كانت قد تجاوزت قدرته. وخلال كتاب "الخواطر والعبر" كله تناثرت العبارات ذات الصلة بهذا الموضوع. وللوهلة الأولى، فقد يحاول البعض رد فكرة تحوله إلى امرأةٍ إلى الجنون القائم على أساسٍ أسطورى. وكانت هذه النقطة تحديدًا بالطبع هى التى حازت معظم الاهتمام. وقد حاول البعض أن يرجع هذه الحالة - بمفردها أو فى إطار جنون العظمة عمومًا - إلى حالةٍ طاغية من الشذوذ الجنسى. وليس هناك خطأٌ أعظم من هذا. "فكل شىءٍ يمكن أن يدفع إلى جنون العظمة"، لكن جوهر الأمر يكمن فى بنية المصابين بالجنون. ولأحداث السلطة دائمًا أهميةٌ حاسمة فى ذلك. حتى فى حالة شريبر، حيثما تتوافق بعض الأمور مع التأويل المذكور، فإن دراسةً أكثر دقةً، لم نخطط لها، قد تؤدى إلى شكوكٍ هينة. لكن مع افتراض ثبوت البرهان على نزوة شريبر الشاذة جنسيًا، فإن الأهم من ذلك يتبدى فى الاستغلال الخاص لذلك فى إطار نظام شريبر. فقد أدرك شريبر دائمًا أن الهجوم على عقله هو نقطة ارتكاز نظامه.

فكان كل ما اعتقده وفعله دائمًا يتمثل فى درء هذا الهجوم. فهو لم يبغ التحول إلى امرأةٍ إلا من أجل نزع سلاح الإله، فكان كيانه الأنثوى بمثابة تملق وتزلف للإله. فمثلما يركع آخرون أمامه عرض هو نفسه للمتعة. فأغراه بالاقتراب منه بخدعٍ زائفة من أجل اكتسابه إلى جانبه ومن أجل السيطرة عليه. ثم احتجزه حينذاك بكل السبل. "فالأمر يدور حول حالة معقدة لم تعرفها التجربة الإنسانية فحسب، بل إنها لم تحدث أيضًا فى نظام الكون قط. فمن هو ذا الذى يود مواجهة مثل هذا المسلك مستقبلاً من خلال ظنٍ واهٍ؟ وما أراه يقينًا هو استحالة أن يفضى الأمر إلى تعمد الإله تدمير عقلى. وكانت هذه النقطة واضحةً لى تمامًا منذ سنوات. وبهذا يكون قد زال الخطر الرئيس الذى هددنى فى العام الأول من مرضى".

هـذه الكلـمات مدونـةٌ فى الفصـل الأخـير مـن "الخواطـر والعـبر" التـى أظهـرت حالـة الهـدوء الكبـير التـى طـرأت عـلى شريـبر. فـكان حفاظـه عـلى حالتـه هـذه إلى النهايـة واطـلاع آخريـن عـلى كتابـه وإعجابهـم بـه هـو مـا أعـاد إليـه ثقتـه بعقلـه بشـكلٍ نهـائى. ولم يبـق أمامـه فى سـبيل اتخـاذ خطـوة الهجـوم المضـاد إلا أن يقـوم بنـشر كتابـه "الخواطـر والعـبر" مـن أجـل تيسـير الاطـلاع العـام عـلى نظامـه، كـما كان يأمـل بـلا ريـب أن تقنـع "خواطـره" النـاس بعقيدتـه. فـأى سـبيلٍ اتبعتـه الحـرب ضـد عقـل شريـبر بالتفصيـل؟ وقـد عرفنـا أنـه هوجـم مـن "أشـعةٍ" لا حـصر لهـا، كانـت جميعهـا تتحـدث إليـه. فـما هـو فحـوى مـا تحدثـوا بـه؟ لقـد كان الغـرض هـو تدمـير قدراتـه الذهنيـة والروحيـة؟ فـماذا قالـت عندمـا كانـت تتحـدث إليـه، ومـا هـو الـذى هاجمتـه بالفعـل؟ إن هـذه المسـألة تسـتحق بـذل بعـض المجهـود. فقـد قـام شريـبر بالدفـاع عـن نفسـه ضـد أعدائـه بصلابـةٍ شـديدة. وكان وصفـه لهـم مسـهبًا إلى الحـد الـذى يمكـن أن نتمنـاه. وهـذا الوهـم، كـما اعتدنـا تسـمية هـذه الظاهـرة، يجـب نزعـه مـن سـياق عالمـه المختلـق لنقلـه إلى لغتنـا الأكـثر يـسرًا. لكننـا سـوف نفقـد شـيئا مـن تفـرده فى أثنـاء ذلـك. وهنـا تجـب الإشـارة إلى قهـره الفكـرى، عـلى حـد وصفـه هـو. فقـد كان يمـر بحالـة هـدوءٍ فقـط عندمـا كان يتحـدث بصـوتٍ مرتفـع. لأن كل شيء حولـه كان صامتًـا صمـت القبـور، فاعتـبر نفسـه يتحـرك بـين جثـثٍ هائمـة فقـط. وقـد بـدا أن جميـع النـاس الآخريـن، المرضـين والمـرضى، قـد فقـددوا قدرتهـم تمامًـا عـلى النطـق بكلمـةٍ واحـدة. فـإذا انتقـل مـن الـكلام إلى السـكوت ظهـرت الأصـوات داخلـه وأرغمتـه عـلى نشـاطٍ فكـرى مضطـرب. وكان هدفهـا مـن وراء ذلـك هـو إعاقتـه عـن النـوم والهـدوء. فكانـت تتحـدث إليـه بـلا انقطـاع، ولمـا كان مـن المحـال تجاهلهـا أو عـدم الإنصـات لهـا، فإنـه كان يستسـلم لـكل مـا تقولـه ويضطـر إلى الانشـغال بـه. وكان للأصـوات وسـائل مختلفـةٌ تسـتخدمها بالتبـادل. وكانـت أكـثر الوسـائل إيثـارًا هـى السـؤال المبـاشر لـه: "فيـم تفكـر الآن؟"، أمـا هـو فلـم تكـن لديـه أيـة رغبـةٍ فى الإجابـة عـلى ذلـك. فـإذا لاذ بالصمـت كانـت هـى تـرد نيابـةً عنـه، فتقـول عـلى سـبيل المثـال "مـن المحتمـل أنـه يفكـر فى نظـام الكـون". أمـا هـو فـكان يعتـبر مثـل هـذه الـردود أفـكارًا زائفـة. فقـد كانـت لا تسـأله بأسـلوب محاكـم التفتيـش فحسـب، بـل كانـت تبغـى إرغامـه عـلى مناهـج فكريـةٍ بعينهـا. حتـى تلـك الأسـئلة التـى كانـت تحـاول بهـا النفـاذ إلى أسراره كانـت تثـير اعتراضـه بنفـس قـدر الإجابـة التـى كانـت تمـلى عـلى أفـكاره. فقـد كان للسـؤال والأمـر أو التعليـمات هـدفٌ واحـد هـو التدخـل فى حياتـه

الشخصية. وهما وسيلتان للسلطة معروفتان تمامًا، وكان هو نفسه استخدمهما كقاضٍ.

وقد سار الأمر في أثناء اختبارات شريبر على نحوٍ ثرى بالتغيير والابتكار. فقد تم استجوابه وفرضت عليه أفكارٌ وصيغ من عباراته كتاب آخر لتعاليم الدين المسيحي وفُرضت الرقابة على كل أفكاره فلم تمر واحدةٌ منها من دون أن يشعر بها، وكانت كل كلمة تخضع عقب ذلك لاختبار أهميتها بالنسبة له. وكانت أسراره مكشوفةٌ تمامًا أمام الأصوات. فكل شيءٍ كان يتم فحصه وإلقاء الضوء عليه. فقد كان أداةً للسلطة التى تعتمد على معرفة كل شيء. ورغم أنه استكان للكثير فإنه في الحقيقة لم يستسلم قط. وكان أحد أشكال دفاعه هو ممارسة معارفه الكاملة الشخصية. وقد أثبت مدى قوة ذاكرته. فقد حفظ أشعارًا عن ظهر قلب وكان يعدد الأرقام بالفرنسية بصوتٍ مرتفع، وعدد كل الحكومات والإدارات الروسية والفرنسية. وبالحفاظ على عقله كان يعبر عن عدم المساس برصيد ذاكرته.

وكان الأهم بالنسبة له هو سلامة الكلمات. فكان كل ما يسمعه هو أصوات: فالعالم يطفح بالكلمات. فالسكك الحديدية والطيور والعبَّارات تتحدث. فإذا لم ينبس هو بكلمة، والتزم الصمت، كان الكلام يصدر عن الآخرين. أما الهدوء الذى يقصده، والذى يشتاق إليه فلم يكن سوى تحرره من الكلمات. وهو ما لم يستطع تحقيقه في أى مكان. فكل ما يحدث له يتم إبلاغه في الوقت نفسه. فالأشعة الضارة والنافعة تمتلكان موهبة اللغة، وهى مرغمةٌ على استخدامها، مثله تمامًا. "لا تنس أن الأشعة مرغمة على الحديث!". وأهمية الكلمات بالنسبة للمصاب بجنون العظمة ليست محل جدل، فهى كالحشرات في كل مكان. وهى تأخذ حذرها دائمًا. وهى تنضم معًا إلى نظامٍ كونى، لا يدع شيئًا خارج إطاره. وربما يتطرف توجه مرض جنون العظمة فيصل حد الانقضاض التام على العالم من خلال الكلمات، وكأن اللغة صارت قبضةً أحكمت على العالم. إنها قبضةٌ لا تنبسط ثانيةً أبدًا، ولكن كيف استطاعت إحكام قبضتها؟ هنا لا بد من الإشارة إلى النزوع إلى السببية التى تجعل من نفسها هدفًا والتى لا يجدها المرء على هذا القدر إلا لدى الفلاسفة. فلأنه لا يحدث شيءٌ من دون سبب، فإن كل مجهولٍ يمكن إحالته إلى معلوم. وكل أمر غريب يتم الكشف عنه. فخلف قناعٍ جديد يختبئ آخرٌ قديم، فعلى المرء أن يسبر غوره من دون خشية، ثم ينتزعه، والتبرير

سيصير إلى ولعٍ يمارسه المرء في كل حال. وكان شريبر على علمٍ تام بهذا التصور لقهره الفكرى. وفى أثناء شكواه المريرة من الأحداث التى تم استعراضها سابقًا، رأى فى هذا النزوع للتبرير "نوعًا من التعويض عن الأذى الذى لحق به". فالعبارات الأولى التى "بُثت" فى أعصابه تنتمى غالبًا إلى أدوات الوصل والعطف، أو كانت تعبيرًا عن ظرف الزمان، والتعبير عن السببية: "لماذا إذن؟"، "لماذا، لأن"، "لأننى"، "قد يكون". فكان عليه إتمام هذه وكل ما عداها. وعلى هذا القدر تفرض هى كذلك القهر عليه. "لكنها تحتاجنى لأعمل فكرى فى أشياءٍ كثيرة، التى اعتاد المرء أن يمر بها مرور الكرام، وقد ساهمت من خلال ذلك فى تعميق فكرى". وقد كان شريبر موافقًا تمامًا على نزوعه إلى التبرير. فهو كان يسبب له سعادةً غامرة وكان يجد أسبابًا معقولة لتبرير ذلك. ولم يدع للإله سوى الفعل الأول للخلق. أما كل ما تبقى فكان يجمعه فى سلسلةٍ من المبررات، صنعها بنفسه وتملكها. إلا أن نزعة التبرير لم تكن على هذا النحو المتعقل دائمًا. فقد قابل شريبر إنسانًا قد رآه غالبًا، فيعرفه من النظرة الأولى على أنه "السيد شنايدر". وهو رجلٌ لم يتنكر وكان يظهر براءة كان معروفًا بها للجميع. وعملية التعرف البسيطة هذه لا تكفى شريبر. فهو يود أن يكون اختفى وراء ذلك أمورٌ أكثر، وكان من الصعب أن يهدئ روعه فى أثناء ذلك بأن وراء السيد شنايدر لا يختفى المزيد. فقد اعتاد شريبر على إماطة القناع، فإذا لم يكن هناك أحد أو شيء يميط قناعه، شعر بالضياع. فعملية إماطة القناع والكشف تمثلان أهميةً أساسية للمصاب بجنون العظمة وغيره. وعن عملية إماطة القناع نشأت حالة النزوع إلى السببية، فكل المبررات يتم البحث عنها أساسًا فى الأشخاص. أما التناول الدقيق لإماطة القناع، المذكورة فى بعض مواضع هذا البحث، فهو هنا بمكانه الصحيح. فالميل إلى اكتشاف شيء ما فجأة بالطريق من بين وجوهٍ كثيرة غريبة، هو ما يبدو معروفًا للبعض، هو أمرٌ مألوف يقينًا لكل الناس. فكم مرة اتضح أنه كان اختلاطًا فى الأمر، فالصديق الوهمى يقترب منا أو نتجه نحن إليه، فيكون شخصًا لم يلقه المرء طوال حياته. وبهذا الخلط لا ينشغل الناس كثيرًا. فقد يكون هناك شيءٌ مشابه، مثل وضع الرأس أو طريقة السير، أو شكل الشعر، وهو ما يكون سبب الخلط والمفسر لذلك. ولكن تطرأ مرحلة يغلب فيها هذا الخلط. فيكون هناك شخص بعينه فقط يقابله المرء فى كل مكان. فهو يقف أمام محال يريد المرء دخولها أو يقف على ناصية طريق تضج بالحياة، وهو يظهر عدة مرات فى اليوم، ويكون طبيعيًا

أن يكون هذا شخصًا ينشغل به المرء أو يحبه، بل ربما، فى أغلب الأحوال، يكون كارهًا له. والمرء يعرف أنه قد انتقل إلى مدينة أخرى بعيدًا على الناحية الأخرى من البحر، ورغم ذلك فإن المرء يعتقد أنه تعرف عليه هنا. ومن الواضح أن المرء يريد العثور على هذا الشخص وراء الوجوه الأخرى، فيعايش المرء هؤلاء الآخرين كخداع يخفى خلفه "الحقيقى". وبوسع الكثيرين أن يتواروا خلف هذا الخداع، الذى يخمن المرء خلفه واحدًا بعينه. وهذ الأمر ينطوى على إلحاحٍ لا يدع لنا فرصة للراحة، فهناك ينكشف مئة وجه بعدد الأقنعة حتى يظهر خلفها هذا الواحد المنشود. فإذا ما حدد المرء الفارق الرئيس بين هذا وبين المئة، يتعين عليه أن يقول: المئة "غرباء" وهذا الواحد هو "القريب"، فتكون الحال كأن المرء لا يعترف إلا بالقريب المختبئ، وعلى المرء أن يبحث عنه فى الغربة. وهذا الحدث يتركز وتتزايد حدته لدى المصاب بجنون العظمة. فالمصاب بجنون العظمة يعانى الافتقار إلى التحول المنطلق من شخصه - وهو آخر من يقبل التحول - ومن هنا يظهر تأثيره على العالم حوله. حتى هذا المختلف بالفعل يبغى أن يراه هو الشىء نفسه. فهو يجد أعداءه فى الأشكال المختلفة للغاية. فحيثما أماط قناعًا كان هناك عدوٌ خلفه. وبسبب السر الذى يخمنه وراء كل هؤلاء وبدافع إماطة القناع فإنه يعتبر كل شىء قناعًا بالنسبة له. وهو لا يستسلم للخداع فهو سابر الأغوار وليس الكثير سوى واحدٍ. فمن خلال جمود نظامه يزداد فقر العالم فى شخوصه المعروفين، فلا يبقى سوى ما هو يدور فى هوسه. ويكون كل شىءٍ على هذا النحو قابلاً للتبرير، ويتم تبريره إلى النهاية. وفى نهاية المطاف لا يكون هناك إلا ما هو يتحكم فيه. ويدور الأمر هنا حول النقيض التام من التحول. فعملية الكشف أو إماطة القناع تعتبر بالفعل عملية الخروج من التحول. وهناك ما هو يرغمه على العودة إلى ذاته، إلى وضع بعينه، بمسلك بعينه، يريده المرء أن يعتبره حقيقيًا وخاصًا به. والمرء يبدأ كمشاهدٍ وينطلق من منظور الآخرين الذين يتحولون إلى بعضهم البعض، وربما شاهد المرء للحظةٍ فى أثناء ممارست أولئك للتنكر خلف القناع، لكنه لا يستحسن ذلك ولا يستمتع به. وفجأة يقول المرء: "قف!" معطلاً الحدث القصير. ثم يهتف المرء: "إماطة القناع!" وهنا يقف كلٌ كأنه هو المقصود بالفعل. وهنا يكون قد وقع حظر الاستمرار فى التحول، ويكون العرض قد انتهى. فقد تم سبر غور الأقنعة. وهذه العملية ذات الأثر الرجعى، أى الخروج من التحول، لا تظهر فى صورتها الحقيقية إلا نادرًا لأنها

تتخذ غالبًا صبغةً عدوانية. فالمصاب بجنون العظمة يفترض أن الأقنعة تريد خداعه. وكان تحولها يثير اهتمامه. أما هى فكانت لاتهتم سوى بالسر. فتبدل أشكالها لم يكن سوى أمر ثانوى. فقد كان كل همها هو إخفاؤها لهويتها الحقيقية. أما رد فعل المهدَد، أى نزعه الأقنعة، فيكون حادًا وبغيضًا، وفى حالة المصاب بجنون العظمة يصل عنفه إلى حد عدم إدراك التحول الذى أثار ذلك. وتقودنا "خواطر" شريبر هنا إلى أقرب نقطة من جوهر الأمر. فهو يتأمل الزمن فى البداية عندما كان كل شىء لديه فى مرحلة سيولة. ففى العام الأول من مرضه، أى "الزمن المقدس" كان يقضى من حين لآخر أسبوعًا أو اثنين بمصحةٍ خاصة صغيرة، عرَّفتها له الأصوات بأنها "مطبخ الشيطان"، ولقد كان ذلك على حد قوله "زمن العجائب الأعظم". وقبل أن يتلاشى هوسه ويسترد عقله، كان ما عايشه هناك من تحولاتٍ واكتشافات هو أفضل تصوير ممكن للأحداث المذكورة آنفًا: "كنت غالبًا ما أقضى طوال النهار بالغرفة المشتركة التى كانت تشهد باستمرار دخول وخروج آخرين من مرضى المصحة المزعومين. وقد بدا أن هناك حارسًا خُصص لحراسته شخصيًا، وهو من عرف فيه ساعى المحكمة العليا المحلية، ربما بسبب شبهٍ عابر بينهما، وهو من كان يأتى إلىَّ بالملفات إلى المنزل فى أثناء عملى بدرسدن. وكان قد اعتاد من حينٍ لآخر على ارتداء بعض ملابسى الشخصية. وكان هناك من يظهر، من حين لآخر، ككبير أطباءٍ مزعوم، فى الغالب فى أوقات المساء - وقد ذكرنى برجلٍ قمت باستشارته، هو الدكتور طبيب (O.)... ولم تطأ قدماى بستان المصحة للتنزه إلا مرة واحدة. فرأيت حينذاك بعض السيدات، من بينهن السيدة الراهبة (W.) من (Fr.)، وأمى نفسها، وكذلك بعض الرجال من بينهم مستشار المحكمة العليا المحلية (K.) من درسدن، الذى كان رأسه متضخمًا غير متناسق. وقد وجدت ظهور هذا الشبه أمرًا معقولاً لحالتين أو ثلاث، لكننى لم أفهم حقيقة أن كل جمهور المصحة، أى بضع عشرات من الناس يحملون السمات الخاصة لشخصيات كانوا قريبين منى فى الحياة...". وهو قد رأى نزلاء خرافيين، من بينهم أشخاص غطاهم الصدأ متدثرين معاطف من الكتان. "وبعد دخولهم الغرفة المشتركة، الواحد تلو الآخر، لم يصدر عنهم أى صوت وعادوا أدراجهم على هذا النحو مرةً أخرى، وقد بدا أن بعضهم لم ينتبه لوجود البعض الآخر، فى أثناء ذلك رأيت مرارًا أن بعضًا منهم، فى أثناء وجودهم بالغرفة المشتركة، قد بدلوا رءوسهم فجأة برءوس أخرى من دون أن يغادروا الغرفة وصاروا يتحركون هنا وهناك فى

أثناء تأملى لهم برءوس أخرى فجأة". وفى (الحظيرة) - هكذا وصف الفناء الذى يذهب إليه لاستنشاق الهواء - كان عدد هؤلاء النزلاء بغرفة المعيشة الذين رأيتهم تارةً معًا، وتارةً متتابعين، لا يتناسب على الإطلاق مع سعة غرف المصحة، فمن المحال، حسب اعتقادى، أنه يمكن أن يتوافر مخدع لأربعين أو خمسين شخصًا دفعوا إلى الحظيرة ليعودوا إلى باب المبنى ثانية بعد تلقى الإشارة. أما الطابق الأرضى فكان غالبًا ما يغص بشخوصٍ آدمية، ومن بين الأشخاص فى الحظيرة تذكَّرَ والد زوجته الذى أطلق النار على نفسه عام 1877، والنائب العام (B.) الذى كان يتخذ دائمًا وضع الخانع المنحنى المماثل لوضع الصلاة، وهو وضع جامد ظل متمسكًا به. وقد تعرف على أناسٍ آخرين يتسمون بالغموض مثل رئيس مجلس الشيوخ ومستشار محكمة عليا محلية آخر، ومحامٍ من ليبزج كان صديق صباه، وابن أخيه فريتس، وصحبة عابرة فى أثناء المصيف فى "فارينموندە". وقد لاحظ وجود صهره من خلال النافذة على الطريق المؤدى إلى المصحة. "وقد حدث مرارًا أن رأيت عددًا كبيرًا من الأشخاص، كان من بينهم ذات مرة بعض النساء، بعد أن عبرن الغرفة المشتركة ليدخلن إلى غرفةٍ جانبية كان عليهن أن يختفين بها. وفى أثناء ذلك سمعت مرارًا كذلك صوت الحشرجة الغريب الذى كان مرتبطًا بتحلل الرجال الذين ظهروا على عجل. ولم يتوقف عجبى على رؤية شخوص آدمية بل أيضًا رأيت موادًا غير حية. فعلى قدر الارتياب الذى أحاول الالتزام به فى اختبار ذكرياتى فإننى بنفس القدرة لا أستطيع أن أمحو انطباعات بعينها من ذاكرتى، مثل تحول الملابس على أجساد من رأيتهم من بشرٍ، وتحول طعام فى صحنى فى أثناء تناولى له، على سبيل المثال تحول لحم خنزير مشوى إلى لحم عجل مشوى أو العكس".

فى هذا الاستعراض بعض ما هو جديرٌ بالملاحظة، فقد رأى شريبر إناسًا أكثر مما يمكن أن يوجدوا هناك، ويتم الدفع بهم جميعًا إلى حظيرةٍ ما. وقد شعر بنفسه معهم، بنص التعبير: "قد هبط إلى منزلة الحيوان" وكان هذا هو أقرب شىء على الإطلاق مر به كتجربة جماعية. لكنه لم يندمج أيضًا مع بقية النزلاء فى الحظيرة. فقد راقب عملية التحول بدقة، بشىءٍ من النقد، لكن بلا عداءٍ شخصى. حتى الملابس والطعام كانت تتحول إلى بعضها البعض. أما ما كان يشغله فى الغالب فهو تعرفه على الآخرين. فكل من ظهر كان شخصًا آخر فى الحقيقة. لذا كان حريصًا على ألا يكون هناك من هو غريبٌ عنه. إلا أن عمليات الكشف

هـذه كانـت لهـا سـماتٌ خـيرة نسـبيًا، ولم يكـن سـوى رئيـس الحـراس الـذى ذكَّـره بروحٍ عدائيـة، وإن لم يُذكَـر فى الفقـرة السـابقة. وقـد تعـرف شريـبر عـلى كثيريـن، وأنـاس مختلفـين، لكـن علاقتـه بهـم لم تكـن قـد توثقـت أو تحـددت. وبـدلاً مـن إماطـة أقنعتهـم فـإن هـؤلاء كانـوا يبدلـون هيئاتهـم إلى أطـرف أشـكال التحـول التـى يمكـن تصورهـا، إلا أن تجـارب شريـبر لم تكـن تمتلـك هـذه الشـخصية العابثـة والمتحـررة. وهنـاك نـوعٌ آخـر مـن الـرؤى التـى كانـت توافيـه كثـيرًا فى أثنـاء "زمنـه المقـدس" فتـؤدى مبـاشرةً إلى الحالـة المبكـرة لجنـون العظمـة، حسـب اعتقـاده. فالشـعور بالحصـار بحزمـةٍ مـن الأعـداء اسـتهدفوا جميعًـا فـردًا واحـدًا، هـو شـعور أسـاسى لجنـون العظمـة الـذى تتجـلى أنقـى صـوره فى رؤى العـين، فالمـرء يـرى فى كل مـكانٍ وكل ناحيـةٍ أعينًـا لا تهتـم إلا بشـخصٍ واحـد، واهتمامهـا هـذا يمثـل خطـرًا شـديدًا. أمـا المخلوقـات صاحبـة هـذه الأعـين فإنهـا تنـوى الانتقـام مـن شخـصٍ مـا بعـد أن جعلهـم يشـعرون لفـترةٍ طويلـة بسـلطته غـير المسـئولة. فـإن كانـت هـذه حيوانـات فإنـه يطاردهـا بـإصرارٍ شـديد، فـإن شـعرت بالتهديـد بالإبـادة، انقلبـت فجـأة ضـده. ويمكـن العثـور عـلى هـذه الحالـة المبكـرة لجنـون العظمـة واضحـةً فى كثـيرٍ مـن أسـاطير الصيـد لـدى شـعوبٍ كثـيرة. وهـذه الحيوانـات لا تتخـذ دائمًا هيئة الفريسـة بالنسـبة للإنسـان، لكنهـا تتخـذ هيئـة مخلوقـات خطـرة كان الإنسـان يخشـاها دومًـا، وكان خوفـه يبلـغ أوجـه باقترابهـا منـه وحتلالهـا لغرفتـه وفراشـه. وقـد وجـد شريـبر نفسـه محـاصرًا بالدببـة البيضـاء ليـلاً. فـكان غالبًـا مـا يغـادر فراشـه ليجلـس بقميصـه بممـر غرفـة نومـه. أمـا الأيـدى التـى ثبتهـا عـلى الأرض خلـف ظهـره فكانـت لشـخوص تشـبه الدببـة - دببـة سـوداء - كان إحساسـه بهـا مـن حـين لآخـر يصـل إلى ذروتـه. وقـد رأى دببـة أخـرى سـوداء، أكـبر وأصغـر حجـمًا، رآهـا بعيـون متقـدة، جلسـت بالقـرب منـه محيطـةً بـه. أمـا فـراش سريـره فقـد "صـار دببـة بيضـاء". وفى المسـاء كان مـا زال متيقظًـا عندمـا ظهـرت قطـط بأعـين متوهجـة فوق أشـجار بسـتان المصحـة. ولم يتوقـف الأمـر عـلى الحِـزَم الحيوانيـة، فقـد كان عـدو شريـبر الرئيـس، المعالـج النفـسى فلكسـيج، يسـتخدم أسـلوبًا خبيثًـا وخطـرًا للغايـة فى تكويـن حـزم سـماوية ضـده. وقـد دار الأمـر حـول ظهـور خـاص وصفـه بـ"تقسـيم الأرواح". فقـد انقسـمت روح فلكسـيج حتـى يحتـل قبـة السـماء كلهـا بأجـزاء الـروح، حتـى تواجـه الأشـعة الإلهيـة بمقاومـة فى كل ناحيـة. وقـد ظهـرت قبـة السـماء فى محيطهـا كلـه مغطـاة بالأعصـاب. التـى كانـت تواجـه الأشـعة الإلهيـة بإعاقـة آليـة. وقـد كان مـن المحـال تجـاوز هـذه الأعصـاب،

فكانـت مثـل قلعـة محـاصرة تحميهـا خنـادق وسـدود ضـد العـدو المقتحـم. وقـد انقسـمت روح فلكسـيج مـن أجـل هـذا الغـرض إلى عـدد كبـير مـن أجـزاء الـروح. وقـد حـضر منهـا لوقـت طويـل أربعـون إلى خمسـين جـزءًا. ومـن بينهـا كثـير كانـت صغـيرة تمامًـا. وقـد بـدا أن هنـاك كذلـك "أرواح مجربـة" أخـرى بـدأت فى الانقسـام، كـما حدث فى حالـة فلكسـيج، وقـد صـار عددهـا يتزايـد دائمًـا وعاشـت كـما تعيـش الحـزم، فقـط مـن أجـل التربـص والسـطو. ولم ينشـغل جـزء كبـير منهـا إلا بحـركات الحصـار، أى بالمنـاورة التـى كان غرضهـا يكمـن فى مهاجمـة الأشـعة الإلهيـة المتسـللة مـن الخلـف وإرغامهـا عـلى الاستسـلام. وقـد صـار العـدد الكبـير مـن "أجـزاء الـروح المجربـة" فى النهايـة مزعجًـا لهيمنـة الإلـه. وبعـد أن تحقـق النجـاح لشربـر فى جـذب قسـم كبـير منهـا، قـام الإلـه المهيمـن ذات يـومٍ بتنظيـم حملـة تفتيـش كبـيرة مـن بينهـم. وقـد داعـب خيالـه تكاثـر الخلايـا مـن خـلال الانقسـام، أى "انقسـام الأرواح"، الـذى كان معروفًـا لـه بالفعـل. فقـد كانـت السـمة الغالبـة لتطـور هوسـه هـو اسـتغلال الأكـوام، الناشـئة عـلى هـذا النحـو، كحـزمٍ سـماوية. أمـا أهميـة الحـزم المعاديـة لبنيـة جنـون العظمـة فـلا يمكـن إدراكهـا عـلى نحـوٍ أوضـح مـن هنـا عـلى الإطـلاق. وأمـا علاقـة شريـبر المركبـة ومتعـددة المعـانى مـع الإلـه، أى "سياسـة الأرواح" الـذى اعتقـد أنـه ضحيـةٌ لهـا، فإنهـا لم تسـتطع منعـه مـن معايشـة الهيمنـة، مـن الخـارج، كوحـدةٍ رائعـة. وفى كل سـنوات مرضـه لم يمـر إلا بهـذه التجربـة الوحيـدة التـى تكـررت خـلال أيـام وليـالٍ قليلـة متتابعـة، فقـد كان عـلى علـمٍ تـام بنـدرة وقيمـة هـذا الحـدث. فلـم يظهـر الإلـه إلا مـرةٍ واحـدة بليلـةٍ واحـدة. ففـى أثنـاء مـا كان شريـبر يرقـد بفراشـه يقظًـا، تبـدت صـورة أشـعته المتألقـة لعينـه الروحيـة. وفى الوقـت نفسـه سـمع حديثـه الـذى لم يكـن همسًـا خافتًـا بـل كان دويًـا قويًـا مبـاشرًا أمـام نوافـذ مخدعـه. وفى اليـوم التـالى رأى الإلـه بعينـه الطبيعيـة، فـكان الشـمس التـى لم تظهـر فى هيئتهـا المعهـودة وإنمـا بـدت سـابحةً فى بحـر أشـعةٍ مـن فضـةٍ براقـة، بحـر كان يغطـى سـدس أو ثمـن أجـزاء السـماء. وكان المشـهد عـلى نحـوٍ مـن الجلالـة الطاغيـة حتـى أن شريـبر خـشى مـن مواصلـة النظـر إليـه، محـاولاً تحويـل نظـره عـن تجليـه. وقـد "تحدثـت" تلـك الشـمس الوامضـة إليـه. وهـو لم يعايـش مثـل هـذا البريـق فى الإلـه وإنمـا فى نفسـه، وهـو أمـر لم يكـن ليثـير العجـب لأهميتـه وعلاقتـه الوثيقـة بالإلـه. "بعـد تدفـقٍ شـديد للأشـعة كان يغمـر رأسى غالبًـا شـعاع الهالـة المقدسـة للمسـيح المرسـوم فى الصـور، إلا أنهـا كانـت أكـثر ثـراءً وبريقًـا عـلى نحـوٍ نـاد، وهـو مـا يسـمى بتـاج الأشـعة" إلا أن

شريبر عرض هذا العنصر "المقدس" للسلطة على نحوٍ أكثر تكثيفًا، ففى مرحلة التزامه بعدم الحركة كانت خبرته به قد بلغت أقصى مدى لها. ففى أثناء هذه المرحلة كانت حياته الظاهرية ذات شكلٍ واحد متطرف. فكان يمضى للنزهة بالبستان مرتين كل يوم. وفيما عدا ذلك كان يجلس طوال اليوم بلا حراك فوق مقعده أمام مكتبه ولم يتحرك حتى إلى النافذة. حتى فى البستان كان يؤثر الجلوس بمكانٍ واحد. وقد اعتبر هذه السلبية المطلقة كأنها فرضٌ دينى. لقد كانت الأصوات التى تتحدث إليه هى التى غرست فيه هذا التصور. فقد كانت تكرر عليه: "لا أدنى حركة!" وقد فسر لنفسه هذا المطلب بأن الإله لا يعرف كيف يتعامل مع البشر الأحياء. فهو قد اعتاد الاتصال بالجثث فقط، ولهذا أمرته الأصوات بهذا الطلب الغريب، أى بأن يتخذ مسلك الجثة. وكان عدم الحركة هذا نوعًا من الحفاظ على النفس وكان فى الوقت نفسه فريضةً تجاه الإله، فهو ما كان سينتشله من الموقف السيئ الذى سببته له "الأرواح المجربة". "وقد أدركت أن فقدان الأشعة يزداد مع ازدياد حركتى، حتى إن نتجت عن اختراق تيار هواء لحجرتى. وفى أثناء ما كنت أشعر بالخشية المقدسة من الأشعة الإلهية، ولشكّى فى وجود أبدية أو أنها ستكون نهايةً مفاجئة للأشعة، فكان علىَّ بذل قصارى جهدى لمنع فقدان الأشعة". وكان من الأسهل هو جذب الأرواح المجربة ليدمجها فى جسده تمامًا، إذا استطاع الحفاظ عليها فى حالة هدوءٍ دائمة. فمن خلال ذلك فقط يمكن إعادة سيادة الإله المطلقة على السماء. وهكذا قررت الضحية غير المعقولة أن يحرم على نفسه أية حركة جسدية طوال أسابيع وشهور عديدة. ولما كان قد توقع أن دمج الأرواح المجربة يتم على الأحرى فى أثناء النوم فإنه لم يجرؤ على تغيير وضعه بالفراش. وهكذا كان جمود حركة شريبر لفترة أسابيع وشهورٍ من أعجب ما سجله. وكان دافعه لذلك مزدوجًا. وكان لسلوكه، كجثةٍ هامدة فى سبيل الله، وقعٌ غريب على آذان الأوربيين المحدثين، والسبب الرئيس فى ذلك هو علاقتنا المتزمتة بالجثة. فتقاليدنا تحرص على إقصاء الجثة بسرعة، بعد أن فقدت أهميتها، كما أن إدراكنا أنها سرعان ما تتعفن يرغمنا على اتخاذ شيىء حيالها. فنحن نعتنى بها قليلاً، ولا نكاد نظهرها، ونسد أى منفذ إليها فيما بعد. ورغم كل الحفاوة التى يمكن أن تحيط بالجثة فإن الجثة نفسها لا تعاود الظهور مطلقًا، فالاحتفاء يهدف إلى إخفائها وإغفال ذكرها. ومن أجل فهم شريبر فإننا لا بد من أن نتذكر مومياوات المصريين الذين يحافظون على شخصية الجثة ويعتنون بها

ويقدرونها. فمن أجل الإله اتخذ شريبر لشهور طويلة هيئة المومياء وليس الجثة. أما تعبيره الشخصى عن ذلك الحال فلم يكن مصيبًا على نحوٍ كبير. أما الدافع الثانى لعدم حركته، فكان خوفه من فقدان الأشعة الإلهية، فهو يتقاسمها مع مجتمعات منتشرة بلا حصر على وجه الأرض كافة، تلك المجتمعات. التى كونت مفهومًا مقدسًا عن السلطة. فهو يشعر بنفسه كوعاءٍ يتجمع فيه تدريجيًا الجوهر الإلهى كله. ويمكن أن ينسكب شيءٌ من هذا من جراء أصغر حركة، ولذلك امتنع عن الحركة. فصاحب السلطة يحفظ نفسه من خلال القوة المشحون بها، سواء شعر بها كمادة غير خاصةٍ به يمكن أن تخرج منه، أو لأن المرجعية الأعلى تتوقع منه هذا السلوك الجامد كعملٍ من أعمال التقديس. وفى مسلكه، الذى اعتبره مناسبًا للحفاظ على مادته المقدسة، فإن حركته كانت تتجمد شيئًا فشيئًا، فكان أى انحراف عن ذلك يمثل خطرًا يتهدده ويصيبه بالقلق. فكان حرصه الشديد على اتقاء الحركة هو ما يضمن له البقاء. وقد صارت بعض هذه السلوكيات مثلاً أعلى لسلوكيات اجتماعية خلال مئات السنين. فقد تأسست بنية كثيرٍ من المجتمعات على مسلك الفرد الجامد والخاضع تمامًا. وكان على شريبر أن يرى شعبًا لم يعتبره ملكًا وإنما "قديسًا قوميًا" فعلى نجم بعيد كانت جرت محاولة لخلق عالم إنسانى من روح شريبر. وكان هؤلاء البشر الجدد من نمطٍ واحد أصغر من ساكنى الأرض من البشر. كما بلغوا درجةً ما من الحضارة، وحافظوا كذلك على حجم أجسادهم الضئيل المتسق مع ذلك، كنوعٍ صغير من ماشية البقر. وكان على شريبر أن يصير مادةً للتقديس الإلهى بوصفه "قديسًا قوميًا"، حتى إن وضع جسده كان يمثل أهمية ما لعقيدتهم. وهنا تبدت بوضوح أهمية وضع جسدى بعينه. فلم يكن هؤلاء البشر المخلوقون من مادة شريبر هم فقط من يرتبطون بوضعه الجسدى، بل ارتبطت به العقيدة كذلك. هكذا كان على عقل شريبر، فى أثناء مرضه، أن يتحمل أكثر المخاطر خبثًا. كما كانت العمليات المستهدفة لجسده بلا نظير، فلم يكد هناك جزء من جسده قد نجا من ذلك. فالأشعة لم تنس شيئًا منه أو غضت الطرف عنه، فقد جاء الدور على كل جزءٍ بمعنى الكلمة. فكان أثرها يطرأ فجأة مما جعله يعتبر ذلك إعجازًا. فى هذا الإطار تبدت ظواهر تحوله المتعمد إلى امرأة. وهو الأمر الذى تقبله من دون أية مقاومة. وبصرف النظر عن ذلك فإنه لا يمكن تخيل ما حدث له. فقد أرسلت إلى رئتيه دودة رئوية. وكانت عظام صدره قد تهشمت إلى حدٍّ ما. وبدلاً من

معدتـه السـليمة كـما قـام طبيـب الأعصـاب مـن فيينـا باسـتبدال معدتـه السـليمة بمعـدة ضعيفـة. فأصبـح مصـير معدتـه معرضًـا للخطـر. فقـد عـاش غالبًـا مـن دون معـدة، فـإذا مـا تنـاول طعامًـا رغـم ذلـك فـإن الطعـام يتدفـق مبـاشرة إلى بطنـه وفخذيـه. إلا أنـه اعتـاد هـذه الحالـة. فواصـل تناولـه للطعـام مـن دون اهتـمام ومـن دون معـدة. أمـا القنـاة الهضميـة والأمعـاء فكانـت غالبًـا مـا تتهتـك أو تختفـى. وقـد أكل أجـزاء مـن حنجرتـه عـدة مـرات. ومـن خـلال "الرجـال الصغـار" الذيـن زُرِعـوا فى قدميـه جـرت محاولـة لاسـتنزاف نخـاع ظهـره حتـى إنـه كان، فى أثنـاء تنزهه بالبسـتان، يتبخـر النخـاع مـن فمـه فى صـورة سـحبٍ صغـيرة. وغالبًـا مـا تولـد لديـه الشـعور بـأن سـطح رأسـه قـد صـار أقـل سـمكًا. وعندمـا كان يكتـب أو يعـزف البيانـو كان هنـاك مـن يحـاول شـل أصابعـه. وقـد اتخـذت بعـض الأرواح هيئـة شـخوص إنسـانية صغـيرة، لم يتجـاوز حجمهـا بضعـة مليمـترات. وصـارت تمـارس حياتهـا عـلى أجـزاء جسـده المختلفـة، سـواء فى الداخـل أو عـلى السـطح. وكان بعضهـا منشـغلاً بفتـح وإغـلاق عينيـه، فاتخـذت مكانهـا فـوق عينيـه، فى حاجبيـه، وأخـذت مـن هنـاك تجـذب الجفون إلى أعـلى وأسـفل كـما تشـاء بخيـوط دقيقـة كخيـوط نسـج العنكبـوت. وكان غالبًـا مـا يتجمـع الرجـال الصغـار فى أعـدادٍ كبـيرة عـلى جسـده. وكانـوا يتنزهـون عـلى رأسـه، يسـتطلعون أى مـكان لحـق بـه أى دمـار جديـد. وقـد وصـل بهـم الحـال إلى مقاسـمته طعامـه بـأن كانـوا يأخـذون مـما يتناولـه أجـزاء صغـيرة لأنفسـهم. ومـن خـلال نخـر أليـم فى عظـام منطقـة الكعبـين والعصعـص حاولـوا جعـل سيره ووقوفـه محـالاً. فلـم يكـن يطيـق أى وضـعٍ أو أيـة حركـة، فـإن شـاء السـير حاولـوا إرغامـه عـلى الرقـود، فـإذا رقـد كانـوا يطاردونـه فى مخدعـه. فـإن اضطـر إلى الوجـود بمـكانٍ مـا "كانـت الأشـعة تبـدى عـدم موافقتهـا عـلى ذلـك". وهنـا يجـب أن نقـف أمـام واحـدة مـن هـذه الظواهـر، وهـى اخـتراق جسـده، مـا يعنـى تعطـل مبـدأ الفيزيقـا الـذى يمنـع اخـتراق الجسـد. فمثلـما كان يريـد هـو التمـدد فى كل مـكان فـإن كل شيء يتمـدد داخلـه أيضًـا، ويفـرض نفسـه فيـه وعليـه. وكان هـو غالبًـا مـا يتحـدث عـن نفسـه عـلى أنـه جسـد العـالم، إلا أنـه لم يكـن عـلى يقـين بأنـه يمتلـك جسـدًا إنسـانيًا محصنًـا. كـما كان زمـن تمـدده الـذى زعمـه، هـو أيضًـا زمـن اختراقـه جسـده هـو. فالتمـدد والملاحقة كانـا مرتبطـين ببعضهـما عـلى أوثـق نحـو، وكل منهـما تجـلى فى جسـده. فلـما واصـل الحيـاة، رغـم كل الهجـمات، تولـد لديـه إيمـانٌ بـأن الأشـعة تشـفيه أيضًـا، فقـد كانـت تمتـص كل المـواد غـير النقيـة مـن جسـده، كـما اسـتطاع مواصلـة تناولـه للطعـام بـدون

معدة. فقد كانت الأشعة تزرع الجراثيم بجسده ثم تقضى عليها. وهكذا يساورنا الظن بأن كل الهجمات على جسده استهدفت الحصانة. فكان على جسده أن يثبت له قدرته على النجاة من ذلك. فكلما لحق به أذى أو وهنٌ كان يخرج فى النهاية أكثر اطمئنانًا وأمانًا. وكان شريبر قد بدأ يشك أنه قابل للفناء.

إن أثر السموم لم يكن أعظم خطرًا من الأضرار التى نجا منها. فإذا ما سقط فى الماء وغرق، فقد يكون ذلك بعثًا، ربما من خلال إعادة تنشيط قلبه والدورة الدموية، وإذا ما أطلق رصاصة على رأسه فإن الأجهزة الداخلية وشظايا العظم يمكن أن تلتئم مرةً أخرى. ففى النهاية كان قد استطاع أن يعيش لفترةٍ طويلة من دون أجهزة جسده الضرورية للحياة. إلا أن كل شىء كان يتكون مرةً أخرى. ولم تعد الأمراض الطبيعية تمثل خطرًا عليه. وبعد ضغوطٍ كثيرة، وحيرةٍ شديدة، أدرك أن الحصانة أمرٌ لا غنى عنه. ففى أثناء هذه المحاولة اتضح أن هذا الإلحاح على الحصانة والنزوع للبقاء حيًا قد امتزجا معًا. والمصاب بجنون العظمة يثبت هنا أيضًا أنه نسخةٌ دقيقة من صاحب السلطة. أما الفارق بينهما فهو فى اختلاف موقعهما بالعالم الخارجى. لكن بنيتهما الداخلية تظل واحدة. وقد نعجب أكثر لمريض جنون العظمة لأنه يكتفى بنفسه. ولم يضعفه فشل خارجى. فهو لا يعى أهميةً للعالم، بعد أن واجه وحده البشرية كافة. فقد قال شريبر: "كل ما يحدث يرتبط بى. فقد صرت، بالنسبة للإله، الإنسان الأوحد، أو أننى صرت الأوحد الذى يدور كل شىء فى فلكه، الذى لا بد من أن يرتبط به كل ما يحدث، وهو أيضًا من إليه تنجذب كل الأشياء".

وكما نعلم، كان قد غلب عليه لسنوات تصور أن كل البشر الآخرين قد قُضى عليهم وأنه صار الإنسان الوحيد. وقد تحول هذا التصور شيئًا فشيئًا إلى ادراكٍ هادئ. فمن كونه الوحيد الباقى حيًا صار إلى الوحيد المعدود. ولا نستطيع إغفال الظن بأن خلف كل مصابٍ بجنون العظمة، مثل كل سلطة، يكمن النزوع العميق نفسه، أى أمنية الخلاص من كل من يعترض طريقه حتى يصير هو الوحيد، أو بشكل أكثر اعتدالاً ومعترفًا به، يكون ذلك هو أمنية استغلال الآخرين حتى يصير هو "الوحيد" من خلال مساعدة أولئك له.

خاتمة الكتاب



تحلل الباقى على قيد الحياة

بعد هذا الاستعراض المسهب لهوس مريض بجنون العظمة، كان المريض هو صاحب الفضل فى نشر تفاصيله، فقد يكون من المناسب أن نتأمل ما عرفناه عن السلطة. فكل حالةٍ بحد ذاتها، مهما كان عمق دلالتها، تترك داخلنا شكًا عميقًا. وكلما زادت معرفتنا بها على نحو أكثر دقةً ازداد إدراكنا لتفردها. فقد نضبط أنفسنا متلبسين فجأةً بأمل أن الحال كانت كذلك هذه المرة، ولكنها ستكون مختلفة فى كل مرةٍ مقبلة. وهذا من سمات المرض العقلى بصورةٍ خاصة. فغطرسة الإنسان المتأصلة (تجعله ينسب فشله لعوامل خارجية) تتشبث بفشلها الخارجى. فإذا ثبت أن كل فكرةٍ منفردة فى رأسٍ ما، مثل رأس شريبر، تطابق ما فى رأس الحاكم الرهيب، فإننا رغم ذلك سوف نحتفظ بأمل أن هذه الأفكار تختلف بقدرٍ ما اختلافًا جذريًا.

فاحترام "كبار" هذا العالم لن يتلاشى بسهولة، فقد كانت الحاجة إلى تقديس البشر بلا حدود. ولحسن الحظ أن بحثنا لم يقتصر على حالة شريبر وحدها. فمهما بدا البحث مسهبًا لكثيرين، فإن بعض الأمور تمت معالجتها على نحوٍ عابر، كما أننا لم نتناول بعض الأمور الأخرى، التى قد تكون مهمةً. لكننا، الآن فى ختام هذا الكتاب، لن نستطيع أن نؤاخذ القارئ بأنه استطاع التوصل إلى ما هو

يقين. ولقد اتضح تمامًا أى من تلك الحزم الأربع ما زالت مؤثرة فى عصرنا. فسلطة ديانات المناحة الكبيرة تشرف على نهايتها، بعد أن غلبتها سلطة ها التكاثر، فصارت تختنق شيئًا فشيئًا. فقد مرت قيم كتلة التكاثر فى الانتاج الحديث بتجربة نموٍ هائلة، تتضاءل بجوارها كل قيم أخرى لحياتنا. فالإنتاج يدور هنا فى حياتنا الدنيا. وسرعته وتنوعه، الذى لا يمكن إدراك مداهما، لا يسمحان بلحظة راحةٍ أو تدبر. كما لم تستطع الحروب الرهيبة قهر الإنتاج. فمهما كان الخلاف بين كل المعسكرات المتعادية، فإن الإنتاج يؤدى دوره فيها على نفس المنوال. وإذا كانت هناك عقيدةٌ استسلمت لها أقوى شعوب الأرض فستكون هذه هى عقيدة الإنتاج، عقيدة الإنجاز الحديث للتكاثر. فقد أدت زيادة الإنتاج إلى أن تكاثر البشر صار هو الهدف المنشود. فكلما زاد الإنتاج باتت زيادة عدد المستهلكين أمرًا ضروريًا. فالرواج فى حد ذاته، إذا ترك له الأمر، فإنه سوف يستهدف يومًا ما الوصول إلى كل الناس كقوةٍ شرائية يمكن الوصول إليها. وفى هذه النقطةٌ يتساوى الإنتاج مع كل الأديان الكونية التى تستهدف كل إنسان، حتى لو كان ذلك على نحوٍ سطحى. وعلى كل الناس أن يصلوا إلى نوعٍ ما من المساواة المثالية، أى كقوة شرائية وكمشترين خانعين. لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فإذا ما تم الوصول إلى القوة الشرائية كافة، فإن الإنتاج ينشد الزيادة، لذا كان توجهه الثانى والأعمق نحو زيادة عدد الناس. فالإنتاج يحتاج مزيدًا من الناس، فتكاثر البضائع يقوده إلى الصورة الأولى لتكاثر الإنسان نفسه. وترجع مسالمة الإنتاج إلى أعماق طبيعته. فخفض العدد من خلال الحرب والدمار يضر به. ولا تختلف الرأسمالية عن الاشتراكية فى ذلك، فهما خصمان توأم متنازعان يؤمنان بالعقيدة نفسها، فكلاهما يعتبر الانتاج حبة قلبه. فقد اكتسب الإنتاج لديهما نفس القدر من الأهمية، وساهمت الخصومة بينهما فى نجاح التكاثر الطاغى. فصار التشابه بينهما إلى اطرادٍ دائم. ولقد لفت الانتباه هذا الاحترام المتنامى تجاه بعضهما البعض. وقد نحاول أن نقول فى نهاية الأمر إنه ينسحب على النجاح فى إنتاجهما. وليس صحيحًا أن كلاً منهما يبغى القضاء على الآخر، فهناك اليوم العديد من أكبر مراكز التكاثر مؤثرةٌ تمامًا، وتنتشر بسرعة، وهى موزعةٌ على كثيرٍ من اللغات والثقافات وليس من بينها من يمتلك القوة الكافية لاحتكار السيطرة، وليس بينها من يجرؤ أن يواجه الآخرين وحيدًا. أما النزوع لتكوين كتل مزدوجة كبيرة فهو أمرٌ واضحٌ للعيان. وهى تنتسب إلى مناطق عالميةٍ بكاملها، شرقًا وغربًا. كما

ابتلعت هذه المراكز الكثير داخلها، حتى أخذ ما بقى خارجها يتضاءل على نحوٍ دائم، وما بقى فى الخارج بدا عاجزًا. إن جمود وضع هذه الكتل المزدوجة، وجاذبيتها لبعضها البعض، وتسليحها المستعر هو ما نشر خوف الفناء فى العالم، فالحرب بينهما قد تؤدى إلى فناء البشرية. إلا أنه اتضح أن التوجه للتكاثر قد صار قويًا إلى حد أنه غطى على نزعة الحرب، بل جعل الحرب تبدو منغصًا مؤرقًا. فقد كانت الحرب، كوسيلة تكاثر سريع، قد انهكت نفسها بعد انفجارها الوحشى على يد ألمانيا النازية، وهو الأمر الذى انتهى للأبد، كما نتمنى. وتبدى كل البلاد اليوم ميلاً نحو حماية إنتاجها أكثر من حماية مواطنيها. وهو الأمر الذى صار مبررًا وأكيدًا ويلقى الاستحسان العام. كما فاق إنتاج البضائع فى عصرنا حاجة الناس. وقد حلت أنظمةٌ كتل مزدوجة محل الحرب. فالتجربة البرلمانية أثبتت أنه من الممكن إقصاء الموت بعيدًا عن الكتلتين، فهناك تداول سلمىٌ ومنتظمٌ للسلطة، وهو المبدأ الذى ترسخ بين الأمم. وكانت الرياضة، كحدثٍ جماعى، قد عوضت فى روما الحرب فى جزءٍ جوهرى منها، وهى فى سبيلها اليوم للوصول إلى نفس الأهمية لكن على مستوى العالم. فالحرب مصيرها يقينًا إلى الانقراض، وباتت نهايتها وشيكة، إلا أننا لم نضع الباقى على قيد الحياة فى حسباننا. فما هو الذى تبقى بعد هذا من ديانات المناحة؟ فبقدر حفاظ أديان المناحة على نفسها كمنظومة فإنها بدت عاجزةً أمام هذا التطرف الأعمى المتهور لكلٍ من التدمير والإنتاج اللذين كانا السمة الغالبة على النصف الأول من القرن العشرين، كما عجزت أمام هذا الغرور المزدوج العنيد الذى يؤثر فى هذا وذاك. فهى تمنح البركة لكل ما يحدث تارةً على مضض وتارةً عن طيب خاطر، وإن استثنت البعض من ذلك. ورغم ذلك فإن ميراثها أكبر مما يعتقد البعض. ووقد رسخت فى الوعى الإنساى صورة هذا "الواحد" الذى ينوح على موته المسيحيون من ألفى عامٍ تقريبًا. فهو المحتضر الذى لا ينبغى أن يموت. ومع غلبة العلمانية تراجعت أهميته. لكنه بقى، شئنا أم أبينا، هذا الإنسان المفرد المُعذَّب المحتضر. أما ألوهيته فيما قبل التاريخ فقد منحته نوعًا من الخلود بين أهل الأرض، فدعموا مكانته، ورأى كلٌ منهم نفسه فيه. فلم يعد هناك مضطَّهَد لم ير جزءًا من روحه على أنه المسيح. فما إن تسوء حال الأعداء الألداء، حتى يشعر كلٌ منهم بالشىء نفسه، حتى لو كانوا يتحاربون فى سبيل أمورٍ خبيثة غير إنسانية. وتنتقل صورة المُعذَّب الفانى، حسب مسار الأحداث، من واحدٍ إلى الآخر،

فيستطيع الضعيف أن يرى نفسه فى النهاية أنه هو الأفضل. كما يشارك فى هذه الصورة الضعيف، الذى لم يصل إلى حالة العداء الحاد. فقد لا يحبذ الموت فى سبيل شىءٍ، لأن الموت نفسه يجعل له قيمةً ما، ليمنحه المسيح حزمة المناحة. ففى خضم هوس التكاثر، الذى هو من صنع الإنسان، لا تتراجع قيمة الإنسان بل تزداد. أما أحداث عصرنا فيبدو أنها تبوح بالنقيض، فهى أيضًا لم تغير من وعى الإنسان. فإيمانه بقيمة الروح ساعدته على ضمان قيمته الدنيوية. فالأمل فى عدم الفناء يكون قد برر لديه. فكلٌ يعتبر نفسه فى المناحة شيئًا كريمًا، فالكل مؤمنٌ إيمانًا لا يتزعزع بأنه لن يموت. فى هذه النقطة يكون الموروث المسيحى غير قابل للفناء، مثله فى ذلك مثل البوذية وإن كانت بشكلٍ آخر. أما ما تغير جذريًا فى هذا الزمن فهو موقف الباقى على قيد الحياة. ويقينًا لم يشعر القليل من القراء بمقتٍ عميق بعد مطالعة الفصل الخاص بالباقى على قيد الحياة، وإن كان الهدف هو سبر أغواره وتقديمه كما هو، وكما كان دائمًا. فقد كان يتم تمجيده كبطل، وكصاحب سلطة كانت تُقدَم له فروض الطاعة، وفى الواقع كان هو واحدًا دائمًا. وقد عايش انتصاراته الهائلة فى زماننا وبين بشر يعلقون أهميةً كبيرة على مفهوم الإنسانية. فهو مفهوم لم ينقرض ولن ينقرض ما لم نمتلك القدرة على رؤيته بوضوح، فى كل أشكال تنكره، التى يحيط بها البريق دائمًا. فالباقى على قيد الحياة هو موروث الإنسانية، هو لغتها، وربما المدمر لها. فهل يمكن الإفلات منه فى اللحظة الأخيرة؟ ولقد تطرفت ممارساته فى عالمنا الحديث حتى صرنا نخشى رؤية ذلك. فالإنسان بمفرده يستطيع من دون مجهودٍ أن يدمر جزءًا كبيرًا من البشرية. فبوسعه أن يستخدم فى سبيل ذلك عمليات تقنيةٍ لا يفهمها هو نفسه. وهو يستطيع فعل ذلك فى أمانٍ تام. فهو غير مضطر أن يعرض نفسه للخطر وهو يفعل ذلك. والتناقض بين فرديته وعدد هؤلاء الذين يدمرهم قد تفاقم إلى حد يصعب معه التعبير عن ذلك. فبوسع أحدهم اليوم أن يبقى حيًا بعد تدمير آخرين دفعةً واحدة، أناسٍ أكثر عددًا من أجيالٍ كاملة سابقة. وقد عُرِفت الخطط القديمة لأصحاب السلطة ولم تعد الاستفادة منها أمرًا صعبًا. كما جاءت نتيجة الاكتشافات الحديثة كافة لصالحهم، كأنها حدثت من أجلهم فقط، ما ضاعف من طاقة أدواتهم، كما ازداد عدد الناس واصبحوا أكثر قربًا من بعضهم البعض. فالوسائل تضاعفت آلاف المرات. وعجز الضحية فى الدفاع عن نفسها، إن لم تكن استسلمت، قد ظل فى جوهره واحدًا. فكل اشكال الفزع من

قـوةٍ فـوق طبيعيـة، يحـل بالبـشر عقابهـا ودمارهـا، تتجـلى فى تصورنـا عـن "القنبلـة". لكـن الفـرد يسـتطيع احتكارهـا بعـد أن صـارت بـين يديـه. فبوسـع صاحـب السـلطة أن يسبب دمـارًا يفـوق كل ابتـلاءات اللـه. فلقـد سـلب الإنسـان إلهـه الخـاص. لقـد قبـض عليـه ووضـع يـده عـلى كل مـا يملكـه الإلـه، أى مـا هـو مثمـر ومهلـك. فصاحـب السـلطة، الـذى صـار البقـاء عـلى قيـد الحيـاة يمثـل لـه شـغفًا وعبئًـا، بـدت أحلامـه المبكـرة المجازفـة اليـوم قليلـة الشـأن. وفجـأةً اكتسـب التاريـخ، الـذى نعرفـه، وجهًـا بريئًـا مريحًـا. فكـم مـن الوقـت اسـتغرق كل هـذا حينـذاك ومـا مـدى ضآلـة مـا تـم تدمـيره عـلى أرضٍ نجهلهـا. أمـا اليـوم فـلا يفصـل القـرار عـن الفعـل سـوى لحظـة. وبالقيـاس عـلى قدرتنـا يبـدو كل مـن جنكيـز خـان وتيمورلنـك وهتلـر الآن تلاميـذ بائسـين وعاجزيـن! أمـا السـؤال الأهـم، بـل الوحيـد، فهـو عـن إمكانيـة مواجهـة الباقـى عـلى قيـد الحيـاة الـذى تكاثـر حتـى بلـغ هـذه النسـب الرهيبـة. إن تفتـت وسـيولة الحيـاة المعـاصرة هـو مـا يعمينـا عـن البسـاطة والـضرورة الملحـة لهـذه القضيـة الأساسـية. لأن الحـل الوحيـد الـذى يلبـى حاجـة البقـاء عـلى قيـد الحيـاة كانـت العزلـة المبدعـة للخلـود، إلا أنـه حـلٌ يناسـب القليلـين فقـط، طبقًـا لطبيعتـه. ومقابـل هـذا الخطـر المتنامـى الـذى يشـعر بـه المـرء فى أعماقـه هنـاك حقيقـةٌ جديـدة ثانيـة تؤخـذ فى الحسـبان، فالباقـى عـلى قيـد الحيـاة يخـاف، بـل يخـاف دائمًـا. لكـن الخـوف قـد نمـا بـلا حـدود متجـاوزًا قـدرة الاحتـمال مقارنـةً بإمكانيـات صاحـب السـلطة. فانتصـاره يمكـن أن يسـتمر لدقائـق أو سـاعاتٍ، إلا أنـه هـو أيضًـا لم يعـد يشـعر بالأمـان بـأى مـكان بالعـالم، فالأسـلحة الحديثـة يصـل مداهـا إلى كل مـكان ويمكنهـا الوصـول إليـه هـو أيضًـا فى أى مـكان. وقـد صـار كلٌ مـن تضخمـه وحصانتـه يمثـلان طـرفى نـزاع. ولقـد تجـاوز تضخمـه الحـد. فقـد اختلـف خـوف أصحـاب السـلطة اليـوم عـن المـاضى بعـد أن تسـاووا مـع كل الآخريـن. أمـا ركيـزة السـلطة العتيقـة، أى الحفـاظ عـلى صاحـب السـلطة عـلى حسـاب جميـع الآخريـن، فقـد فقـدت مبررهـا وانهـارت. فرغـم أن أثـر السـلطة صـار أعظـم مـما سـبق، فإنهـا صـارت محفوفـة بالمخاطـر أيضًـا، وهـو مـا يعنـى أن يبقـى الجميـع عـلى قيـد الحيـاة أو لا يبقـى أحـد. ومـن أجـل مواجهـة صاحـب السـلطة فـلا بـد مـن كشـف ممارسـاته لنظهـر وجهـه الحقيقـى جليًـا، وبـذا يكـون خطـرًا، وخطـره هـذا يكمـن فى سـلطة إصـداره الأوامـر. ولقـد عرفنـا أن " الأمـر" فى شـكله المـروض والمألـوف، لا يمثـل سـوى حكـمٍ بالمـوت مـع وقـف التنفيـذ. وقـد ترسـخت فى كل مـكان هـذه النظـم الفعالـة الصارمـة لمثـل هـذه الأوامـر. فمـن يصـل

بسرعـةٍ مفرطـة إلى القمـة، أو مـن ينجـح عـبر وسـيلةٍ أخـرى فى الوصـول إلى قمـة السـيطرة عـلى هـذا النظـام، فإنـه يكـون مـن خـلال موقعـه مشـحونًا بـ"خـوف الأمـر"، ولا بـد مـن أن يحـاول التحـرر منـه. فالتهديـد المسـتمر الـذى يخـدم أغراضـه، والـذى يمثـل جوهـر هـذا النظـام، يتوجـه فى النهايـة ضـده هـو نفسـه. فسـواء كان مهـددًا مـن الأعـداء بالفعـل أم لا فإنـه سيشـعر دائمًـا بالتهديـد. والتهديـد الأخطـر يأتيـه مـن رجالـه الذيـن يأمرهـم هـو دائمًـا، وهـم فى أقـرب موقـعٍ منـه، وهـم الذيـن يعرفونـه جيـدًا. أمـا الوسـيلة، التـى لا يـتردد فى اللجـوء إليهـا لتحريـر نفسـه، والتـى لا يريـد التنـازل عنهـا بأيـة حـال، فهـى إصـداره لأمـرٍ مفاجـئ بالقتـل الجماعـى. فيبـدأ حربًـا ويرسـل رجالـه إلى هنـاك حيـث ينبغـى أن يمارسـوا القتـل. فـإن قـضى فى أثنـاء ذلـك عـلى كثـيرٍ منهـم، فلـن يأسـف عليهـم. ومهـما كان توجهـه إلى الخـارج، فـإن احتياجًـا عميقًـا خفيًـا يدفعـه للقضـاء أيضًـا عـلى رجالـه. فالتحـرر مـن خـوف الأمـر يشـترط أن يمـوت كذلـك كثـيرٌ مـن هـؤلاء الذيـن يحاربـون مـن أجلـه. فـإذا مـا ازدادت مخاوفـه فإنـه يقـضى عليهـا ليتنفـس الصعـداء. وإذا مـا أفـرط فى الـتردد فـإن رؤيتـه تصـير غـير واضحـةً ويصبـح وجـوده مهـددًا. فخوفـه مـن الأمـر يتخـذ أبعـادًا تفـضى إلى كارثـة. لكـن قبـل أن تلحـق الكارثـة بـه، أى بجسـده، الـذى يظنـه هـو تجسـيدًا للعـالم، فـإن الكارثـة تقـضى عـلى آخريـن لا حـصر لهـم. ونظـام الأوامـر معـترفٌ بـه فى كل مـكانٍ. ويبلـغ أقـصى حـدوده فى الجيـوش. لكـن أثـر الأمـر لحـق بكثـير مـن مجـالات الحيـاة المدنيـة الأخـرى. أمـا التهديـد بالمـوت فهـو عملـة السـلطة. ومـن اليسـير هنـا أن توضـع العملـة فـوق العملـة لجمـع كثـير مـن رءوس أمـوال ضخمـة. ومن يريـد إزاحة السـلطة فعليـه أن يضـع "الأمـر" نصـب عينيـه مـن دون خشـية، وأن يجـد وسـيلة لاختـلاس غصته من (الأمر).

هوامش

(1). استعراض الهاكا

J. S. Polack, New Zealand, A Narrative oJ Travels and Adventure, London, 1838, Vol. I, pp. 8

(2). هناك العديد من المراجع عن الوقوف على عرفات أكثرها إسهابًا هى:

M. Gaudefroy-Demombynes, Le Nlerinage a la Mekke, Paris, 1923, pp.

(3). Bechuana. S. S. Doman, Pygmies qrnl Bushmen of the Kalahari, London, 1925, p. 291.

(4). Boloki Weeks, Among Congo Cannibals, London, 1913, p. 261.

(5). Pygmies in Gaboon.

أغنية عن كهف الموتى مصدرها:

The song about the cave of the dead is given in Trilles, Les Pygmees de fa Foret Equatoriale, Anthropos, Paris, 193 I.

(6). Auxiliary spirits of the Chukchee Shaman.

A. Ohlmarks, Studien zum Problem des Schamanismus, p. 176.

(7). Vision of the Eskimo Shaman. Rasmussen, ThuleJahrt, Frankfurt, 1926, pp. 448-9.

(8). TOTENHEERE DES SCHOTTICHEN HOCHLANDES: CARMICHAEL. FRANKFURT 1926 P. 448 - 449

(9). DAS NORDLICHT BEI DEN LAPPEN: UND TLINIKT - INDIANERN: HOEFLER Kultische Geheimbunde der Germanen, Frankfurt, 1934, pp. 241-2.

(10). "The space between heaven and earth is not empty." M. J. bin Gorion, Die Sagen der Juden, Frankfurt, 1919, Vol. I, p. 348.

(11). The ancient Persians' host of demons. J. Darmesteter, The Zend-Avesta, Oxford, 1883, Vol. II, p. 49.

(12). Caesarius von Heisterbach, The Dialogue of Miracles, trans. Scott and Bland, Routledge, London, 1929, Vol. I, pp. 322-3، p. 3 28, Vol. II, pp. 294-5· 45

(13). God and his court. Ibid, Vol. II, p. 343. 46 Locusts.

(14). Heuschrecken: A. Waley, The Book of Songs, Allen and Unwin, London, 1937, p.173

(15). مـن مـدام يوليـان إلى ابنهـا رسـالة بتاريـخ 2 أغسـطس 1791، ورسـائل عـن الثـورة الفرنسـية

Mme. Jullien to her son. Letter of 2nd August 1791. G. Landauer, Briefe aus der Franzoesischen Revolution,

Frankfurt, 1919, Vol. I, p. 339.

(16). Camille Desmoulins to his father. Ibid., Vol. I, p. 144. 60f

(17). حجيـج البعـث Revivals تقاريـر مفيـدة عـن حجيـج البعـث، خاصـةً في أميركا، مصدرها كتاب Primitive Traits in Religious Revivals, New York, 1 905.

من تأليف Davenport

أحد الوعاظ المشهورين يحكي عن قصة حياته: The Backwoods Preacher.

An Autobiography, by Peter Cartwright, London, 1858.

(18). Meeting at Cane Ridg: Davenport, p. 73 - 77

(19). عقاب الجحيم Hoellenstrafen، Davenport p. 67:

(20). حالات تشنج، نباح، ضحك مقدس

Bellen, heiliges Lachen: Davenport, p.78 – 81،Zuckungen

(21). عرض حفل لدى الـ(بابوا) بكل مراحله، وهو مادة كتاب حى من تأليف:

Andre Dupeyrat, Jour de Fete chez les Papous, Paris, 1954

(22). حفل لدى الـ(توبينامبو)

A feast among the Tupinambu. Jean de Lery, Le Voyage au Bresil, new edition, Payot, Paris, 1927, pp. 223-4- 474

(23). رقص الحرب النسائية لدى "الكافير الهندوس"

War dance of the women among the Kafirs of the Hindu-kush. W. Crooke, Things Indian, London, 1906, p. 124.

(24). رقص النساء للحرب لدى الـ(جيفارو)

War dance of the Jivaro women. R. Karsten, Blood Revenge, War and Victory Feasts among the Jibaro Indians oJEastern Ecuador, Washington, 1922, p. 24. 66

(25). Mirary in Madagascar. R. Decary, Moeurs et Coutumes des Malgaches, Paris, 1951, pp. 178-9. 68

(26). Jeremiah, Ch. 25, v. 33.

(27). عظة محمد فى أعدائه الموتى / ترجمة "سيرة الرسول" لابن إسحق

Mohammed's sermon to his dead enemies. A. Guillaume, The Life oj Muhammad. A Translation of Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah, Oxford, 1955, pp. 305-6. 69

(28). تقرير أونى

Une's report. A. Erman, Aegypten und Aegyptisches Leben im Altertum, Tiibingen, 1885, p. 689.

(29). في مديح رمسيس الثاني

Hynm to Rameses II. A. Erman, Die Literatur der Aegypter, Leipzig, 1923. (Trans. Blackman, The Literature oj the Ancient Egyptians, Methuen, London, 1927, p. 259.)

(30). معركة قادش:

DIE SCHLACHT BEI KADISCH,ERMAN, DIE LITERATUR DER AEGYPTER. P. 333

(31). انتصار مرنبتاح على الليبيين

Merenptah's victory over the Libyans. Erman, Aegypten،Aegyptisches Leben im Altertum, pp. 710-1 1.

(32). رمسيس الثالث والليبيون

Rameses III and the Libyans. Ibid.، p. 711.

(33). إحصاء الرءوس لدى الأشوريين

The counting of heads among the Assyrians. The relief contemporary with King Assurbanipal is schematically reproduced in G. Maspero, Au Temps de Ramses et d'Assourbanipal, Paris, 1927, p. 370. 76

(34). النار في كتاب الفيدا

Fire in the Vedas. H. Oldenberg, Die Religion des Veda, Stuttgart, 1917, p· 43 · 78

(35). رقص النار لدى القبائل

The Fire-dance of the Navajos. W. D. Hambly, Tribal Dancing and Social Development, London, 1926, pp. 3 3 8-9. 79f

(36). مضرمة النار

Incendiarism. E. Krapelin, EinJuhrung in die Psychiatrische Klinik, Leipzig, 1921, Vol. II, Case 62, pp. 23 5-40. 86

(37). آلهة العواصف فى كتاب الفيدا

Storm Gods in the Vedas. A. A. Macdbnnell, Hymns from the Rigveda, Calcutta, pp. 56-7. On Plut:rch.

(38). بلوتارك / حياة بومباى

الفصل 11 / Leben des Pomejus

(39). تقسيم غنائم القنص انظر:

E. Lot-Falck, Les Rites de Chasse chez les Peuples Sibbiens, Paris, Gallimard 1953، pp. 179-83. 99ff

(40). حملة التاوليبانج على البيشاوكو

Expedition of the Taulipang against the Pishauko. T. Koch-Griinberg, Vom Roroima zum Orinoco, Ethnographic, Vol. III, Stuttgart, 1922, pp. 102-5. 103ff

(41). حزمة مناحة الوارامونجا

Lament of the Warramunga. B. Spencer and F. J. Gillen, Northern Tribes oj Central Australia, Macmillan, London, 1904, pp. 5 16-22.

(42). طوطم الأستراليين

Totems of the Australian aborigines.

جزء من الأعمال القديمة لـ:

Spencer and Gillen and of C. Strehlow,

وأهم ما نشر منها:

A. P. Elkin, The Australian Aborigines, 1943، and Studies in Australian Totemism, Oceania Monographs, 1933.

(43). رقص الجاموس لدى الماندا

Buffalo dance of the Mandan. George Catlin, The North American Indians, Edinburgh, 1926, Vol. I, pp. 143-4. II sf

(44). أونجوتينكا والكلاب المتوحشة

Ungutnika and the wild dogs. Spencer and Gillen, TheArunta, Macmillan, London, 1927, p. 1 69. I I9f

(45). حزمة القنص والكنجرو

Hunting pack and kangaroo. Ibid., pp. 170-1. 121ff

(46). الرقود على المرشَح Arunta صفحة 192/193

Lying on top of the candidate. 192-3 ; single file. ibid., p. 160;

(47). Spencer and Gillen،The Arunta.

مـارش الإوزة ص 160 الركـض فى دائـرة، تكـرر غالبًـا عـلى سـبيل المثـال فى ص273. الرقـود فى صـف، ص 280. الهيشـة ص100 الأسـطوانة الراقصـة ص 261 - 262 صفـان متواجهـان ص 189. المربـع؟. كـوم عـلى الأرض ص286 وص290 وص292 تجـارب النـار ص294. الرمـى بأغصـان حارقـة ص279 وص289. الختـان ص219

(48). Mary Douglas, The Lele of Kasai, in African Worlds, edited by C. Daryll Forde, Oxford University Press, 1954, pp. 1-26. 129

(49). مكانة الغابة

Prestige of the forest. Ibid., p. 4. 130ff

M. Douglas in African Worlds, p. 4

(50). القنص الجماعى

The communal hunt. Ibid., pp. 15-16. 1 32ff

(51). R. Karsten, Blood Revenge,War and Victory Feasts among the Jibaro Indians of Eastern Ecuador, Washington: Daryll Forde> Oxford University Press 1954

The two conjurations quoted have been slightly abridged.

ودراسة حديثة لـ:

M. W. Stirling, Historical and Ethnographical Material on the Jivaro Indians, Washington, 193 8. 135ff

(52). Ruth Benedict, Patterns oj Culture, Houghton Miffiin, Boston, 1934, pp· 57-13 0. 139f

الترجمة الألمانية بعنوان Urformen der Kultur، موسوعة Ruwohlt 1955 /ص 104 - 48

(53). استدعاء المطر: الأشكال القديمة للحضارة Urformen der Kultur انظر ص53

(54). Dahomey. A. Dalzel, The History oJDahomey, London, 1793. This old but invaluable book also contains the first full description of the "Annual Custom", pp. xx f. Other books on Dahomey are: R. Burton, A Mission to Gelele, King oj Dahomey, London, 1 864 ; A. B. Ellis, The Ewe-speaking Peoples of the Slave Coast oj West Africa, London, 1890; A. Le Herisse, L'Ancien Royaume du Dahomey, Paris, 1911; M. J. Herskovits, Dahomey, an Ancient West AJrican Kingdom, New York, 193 8. 142

(55). الرحالة الإسبانى ابن جبير

The Travels of Ibn Jubayr. Trans. R. J. C. Broadhurst, Cape, London, 1952. Mecca's faculty of expansion, p. 174.

(56). نبى الجهاد والحرب

The prophet of fighting and of war. I. Goldziher, Vor1esungen uber den Islam, Heidelberg, 1910, pp. 22, 25. 143 "Slay the Idolaters." The Koran, Surah 9, verse 5.

(57). Cybele raving. Lucian, Dialogues oj the Gods. VII.

(58). مناحة إيزيس

Lament of Isis. Erman, Religion der Agypter, Berlin, 1909, p. 39. 146ff

(59). إضافةً إلى محاضرات جولدتسيهر استعنت فى هذا الفصل بالكتب التالية:

Gobineau, Religions et Philosophies dans l'Asie Centrale, new edition, Paris, 1957 ; D. M. Donaldson, The Shiite Religion, Luzac, London, 193 3 ; G; E. von Grunebaum, Muhammadan Festivals, Abelard-Schuman, London, 1958; C. Virolleaud, Le TheJtre Persan, Paris, 1950. 146f

(60). ابتلاء الحسين

The Sufferings of Husain. Donaldson, op. cit., pp. 79-87. 147f

(61). ابتلاء نسل النبى

The Afflictions of the Family of the Prophet. Goldziher, op. cit., pp. 212-13·

(62). رثاء الحسين

To weep for Husain.goldziehr

انظر صفحة 213/ 142.

(63). قبر الحسين فى كربلاء

Husain's grave in Kerbela. Donaldson, op. cit., pp. 88-100.

(64). احتفال الشيعة الكبير

The great festival of the Shiites. Von Grunebaum, op. cit., pp. 85-94.

(65). نوعان من الإخاء

Two kinds of fraternities. Gobineau, op. cit., pp. 334-8.

(66). المسرح مكتظ

"The theatre is brim-full". Gobineau, op. cit., pp. 3 53-6.

(67). "امض وانتقل من النار"

"Go thou and deliver from the flames". Grunebaum, op. cit., p. 94.

(68). اليوم الدامى

The Day of Blood. Titayna, La Caravane des Morts, Paris, 1930 (quoted in P. de Felice, Foules en Dilire, Paris, 1947, pp. 170-1).

(69). A. P. Stanley, Sinai and Palestine, London, 1864, pp. 3 54-8. R.

(70). Curzon, Visits to Monasteries in the Levant, London, 1850, pp. 230-50.

(71). لم أشأ تناول حركات الكتلة (الجماهير) هنا قبل أن يتوصل القارئ إلى استنتاجات معقولة عن السلطة من خلال فصل لاحق من هذا الكتاب. وهكذا يكون محقًا فى الاعتراض بأن عنوان "الكتلة والتاريخ" هو عنوان فضفاض. ولقد احتفظت برؤيتى المكتسبة عن "الكتلة والحزمة فى حقب تاريخية مبكرة" من أجل دراسة تالية.

(72). مصدر التقرير المبسط عن أحداث الـ"أكسوساس":

G. McCall Theal, History of South Africa from 1 795-1 872, Vol. III, Allen and Unwin, London, 1927.

وهناك كذلك مقال قصير مفيد للغاية (يصعب العثور عليه) كتبه الإرسالى الألمانى

A. Kropf: Die Liigenpropheten des Kaffernlandes (Neue Missionsschrifien, 2. Atif/age, Nr. 1 1, Berlin, 1 891).

كما ألمحت Katesa Schlosser إلى ذلك فى كتابها، Propheten in Afrik4, Braun-schweig, 1949, pp. 3 5-41 وقد اقتبست الفقرات المهمة عن Kropf. أما الاستعراض الحديث المسهب فقد تضمنه كتاب لمؤلف جنوب إفريقى، ظل مجهولاً فى أوروبا: A. W. Burton, Sparks from the Border Anvil, King Wil-liams Town, 1950, pp. 1-102. S.

(73). الحياة الاجتماعية للقردة

Zuckerman, The Social Life of Monkeys and Apes, Kegan Paul, London, 1932, pp. 57-58.

(74). Zuckerman

ص -268 269، وص -300 304

(75). حياة جنكيز خان

Genghis Khan. B. Vladimirzov,

The Life of Chingis Khan, Routledge, London, 1930, p. 168.

(76). حياة قيصر

Caesar. Plutarch, op. cit., p. 230.

(77). وليمة جثث القيصر دوميتيان

The Funeral Banquet of Domitian. Dio Cassius, Roman History, VIII, trans. E. Cary, Loeb Classical Library, Epitome of Book LXVIII, ch. 9, pp. 334-9.

(78). حرب اليهود

Josephus, The Jewish War, III, 8.

(79). "وفى نهاية الأمر بقى يوسيفوس وحيدًا مع رفيق له وذلك بفعل صدفة مواتية أو بفضل نعمة إلهية". وفى النسخة السلافية عن حرب اليهود - التى يرى بعض العلماء أنها تستند إلى مرجع يونانى أقدم - تذكر هذه الواقعة على نحو مختلف وصريح: "وبعد أن قال (يوسيفوس) ذلك قام بعد الأرقام بخبث، وبذا خدع الجميع" وعن هذا السياق انظر:

the appendix on the Slavonic additions to the new English translation by G. A. Williamson (Penguin Classics), p. 403· 242

(80). الاستيلاء على مودكال - Sewell, الإمبراطورية المنسية

(81). محمد طغلق / انظر الفصل اللاحق بعنوان سلطان دلهى

Muhammad Tughlak. See also the later chapter on this ruler. 243

(82). الحاكم بأمر الله، الدروز والمبشرون بهم

Hakim. P. Wolff, Die Drusen und ihre Vorliiufer, Leipzig, 1 845, p. 286. 244f

(83). من أجل اكتساب فكرة موجزة عن تاريخ ملوك المغول انظر:

For a concise account of the Mogul Emperors see V. A. Smith, The Oxford History of India, 1923, pp. 321-468.

(84). تقرير اليسوعيين عن الأمير سالم / المصدر:

The Jesuits on Prince salim. Du Jarric, Akbar and the Jesuits, trans. C. H. Payne, Routledge, London, 1926, p. 182. 245f

(85). Shaka

إن أفضل استعراض معاصر لـ(شاكا) هو ما قدمه الرحالة الإنجليزى Henry Francis Fynn. ولقد نشرت مذكراته، بعد أكثر من مئة عام من استخدامها، فى كتاب: the Diary of Henry Francis Fynn, ed. J. Stuart and D. M. Malcolm, Shuter and Shooter, Pietermaritzburg, 1950.

أما السيرة الذاتية القيمة، إضافة إلى كل المصادر المكتوبة والمرتكزة كذلك على الروايات الشفوية فهى:

E. A. Ritter, Shaka Zulu, Longmans Green, London, 1955.

(86). قرن الـ"أرتورين"

The century of the Etruscans. A. Grenier, Les Religions EtTUsque et Romaine, Paris, 1948, p. 26. 251f

(87). الـ(مانا) فى جزر الماركيوز

Mana in the Marquesas. E. S. C. Handy, Polynesian Religion, Honolulu, 1927, p. 31. 252f

(88). قاتل المورنجين

The killer among the Murngin. F. Lloyd Warner, A Black Civilization, Harper and Brothers, New York, 1958, pp. 163-5. This work, first published in 1937, is the most important account there is of an Australian tribe. 254

(89). بطل جزر فيجى

The hero in the Fiji Islands. Lorimer Fison, Tales from Old Fiji, London, 1904, pp. 5 1-53 and p. xx. 255f

(90). الثعبان الرهيب وبطل الـ(أويتوتو)

The hero in the belly of the giant snake. K. T. Preuss, Religion und Mythologie deT Uitoto, Gottingen, 1921, Vol. J, pp. 220-9. 257f

(91). الباقى على قيد الحياة لدى قبائل الـ(تاوليبانج)

A survivor among the Taulipang. T. Koch-GrUnberg, Indianermiirchen aus Sudamerika, Jena, 1921, pp. 109-10. 259f

(92). أصل الـ(كوتناى)

The origin of the Kutenai. F. Boas, Kutenai Tales, No. 74, Washington, 1918, The Great Epidemic, pp. 269-70. 260f

(93). الانتحار الجماعى لدى الـ(با- إيلا)

Mass suicide among the Ba-ila. E. W. Smith and A. M. Dale, The Ilaspeaking Peoples of Northern Rhodesia, Macmillan, London, 1920, Vol. I, p. 20. 261

(94). Cabres and Caraibs. A. von Humboldt, Reise in die Aquinoctial-Gegenden des neuen Continents, Stuttgart, 1 861, Vol. V, p. 63. 263f

(95). موت طفل هندى فى الـ(ديميرارا)

Death of an Indian child in Demerara. W. E. Roth, An Enquiry into the Animism and Folklore of the Guiana Indians, Washington, 1915, p. 155. 264ff

(96). ثقافة الأجداد لدى الـ(زولو)

The ancestor cult of the Zulus: the dead man and his brother. H. Callaway, The Religious System oj the Amazulu, Natal, 1 870, pp. 146-59. 269f

(97). وسيط الملك في أوغندا

The King's medium in Uganda. N. K. Chadwick, Poetry and Prophecy, Cambridge, 1942, pp. 36-8. 478 CROWDS AND POWER 27of

(98). ثقافة الأجداد لدى الصينيين

The ancestor cult o f th e Chinese. M. Granet, La Civilisation Chinoise, Paris, 1929, pp. 300-2 ; Henri Maspero, La Chine Antique, new edition, Paris, 1955, pp. 146-5 5 ; Jeanne Cuisinier, Sumangat. L' ame et son mIte en Indochine et en Indonesie, Gallimard, Paris, 1951, pp. 74-85. 273

(99). الطاعون في أثينا

The plague in Athens. Thucydides, The Peloponnesian War, trans. Rex Warner, Penguin Classics, pp. 123-7. 283

(100). جنكيز خان الجد الأعلى كان ذئبًا رماديًا مختارًا من السماء

Genghis Khan. His descent from a heavenly wolf is proclaimed at the beginning of The Secret History of the Mongols (A. Haenisch, Die Geheime Geschichte der Mongolen, Leipzig, 1948).

(101). روح قيصر روما تطير كنسر إلى السماء / انظر الاستعراض الرائع لتأليه أحد القياصرة الرومان

The soul of the Roman Emperor as an eagle. There is a wonderful account of the apotheosis of Septimius Severus in Herodian, IV. 2.

(102). خوف المغول من الصواعق

The Mongols' fear of lightning. The Journal of Rubruck in Contemporaries oj Marco Polo, edited by M. Komro£[, London, 1928, p. 91.

(103). Fulguratores. A. Grenier, op. cit., pp. 1 8-19.

(104). السلطة وأشعة البرق

Power and lightning. F. Kuhn, Altchinesische Staatsweisheit, Zurich, 1954, p. 105. Disappearance of Romulus in a thunder-storm, Livy, I. 16; Tullus Hostilius killed by lightning, ibid., I. 3 I; Romulus Silvius, an earlier king of Alba Longa, killed by lightning, ibid., I. 3. 287

(105). أسئلة الطفل الأولى

Children's questions. O. Jespersen, Language, its Nature, Development and Origin, Allen and Unwin, London, 1949, p. 137. 289

(106). سيدة الظهيرة تسأل حتى الموت

The noon-woman. Wendische Sagen, edited by F. von Sieber, Jena, 1925, p. 17· 290f

(107). رجل الطب لدى الـ(أرانادا)

The medicine-man among the Aranda. Spencer and Gillen, The Amnta, Vol. II, pp. 391-420. 292f

(108). الفيسكونتى الأخير

The last Visconti. Pier Candido Decembrio, German translation by P. Funk, Leben des Filippo Maria Visconti, Jena, 1913, pp. 29-30. 293f

(109). تجربة قورش السرية

Chosroes II tests the discretion ofhis courtiers. French translation by C. Pellat, Le Livre de la Couronne, attribue a Gahiz, Paris, 1954, pp. U 8-20. 3 1 3f

(110). الوقوف والإفاضة

Wukuf and Ifadha. Gaudefroy-Demombynes, op. cit., pp. 23 5-303. 3 19

(111). عن الإلهات السورية

Lucian, On the Syrian Goddess.

وقـام Wieland بترجمتـه / الجـزء الرابـع مـن ألعـمال الكاملـة / ميونيـخ 1911، ص 377 - 376

(112). الإسكوبز أو الحمائم البيضاء

The Skoptsy. K. Grass, Die Russischen Sekten, Vol. II, Die Weissen Tauben",. odprSkopzen Leipzig 1914

كـما قـام جـراس بترجمـة „كتابـة الإسـكوبز المقدسـة السريـة". 1904 - وهنـاك عمـل جديـد يحتـوى عـلى مـادة مفيـدة هـو:

J. Rapaport's Introduction a la Psychopathologie Collective. La Secte mystique des Skoptzy, Paris, 1948. 321

(113). (113) الحشاشون:

The Assassins. M. G. S. Hodgson's definitive work, The Order of Assassins,Haag 1955.

وهو العمل النقدى الذى تجاوز الأدبيات القديمة عن الحشاشين

(114). العبودية الافتراضية

322 "Suggestion-slavery.

" Krapelin, Psychiatrie, III, p. 723. 323

(115). البعوض المتكلم: كل الاقتباسات مصدرها:

The mosquitoes talking", etc. Ibid., pp. 673-4. 324ff

(116). فى تنـاول مهـم نـشر هرمـان لومـل بعنـوان "رحلـة بريجـو فى العـالم الآخـر" (1950) فى الجـزء الرابـع مـن "بايدومـا" نقـلاً عـن كتـاب "شـاباتا-براهمنا" وهـو مـا اقتبسـته عنـه. وكان قـد جمـع هنـا كل مـا لـه علاقـة بهـذه الحـالات مـن الأدب الهنـدى القديـم، وأتـم ذلـك فى عمـل لاحـق نـشر فى الجـزء الخامـس مـن الـ(بايدومـا) ووضعـه ضمـن تصـورات شـعوب أخـرى عـن "العـالم المقلـوب". وإذ عجـزت عـن متابعـة تفسـيراته للنصـوص الهنديـة والتوصـل فإننـى مديـن بجزيـل الشـكر لـه. ولقـد أهملـت كل مـا ليسـت لـه علاقـة بهـذا السـياق.

Hermann Lommel published his paper Bhrigu im]enseitsin Paideuma, Vol. IV (1950), adding a supplement in Vol. V (1952).

(117). W. H. J. Bleek and L. C. Lloyd, Specimens of Bushman Folklore, Geo. Allen, London, 191 I. Bushman Presentiments, pp. 330-9. 343 The

(118). Loritja Myth. C. Strehlow, Die Aranda- und Loritja-Staemme in Zentral-Australien, Frankfurt, 1910, II, pp. 2-3. See also L. LevyBruhl, La Mythologie Primitive, Paris, 1955.

يتضمن هذا الكتاب الهم كثيراً من عناصر التحول. وهو يقتصر بشكل عام على العالم الأسطورى لدى الأستراليين والـ(بابوا) ويعرض اقتباسات مسهبة من أفضل المراجع عن هذه المنطقة ويترك مساحة لتصور القارئ. ويمكن اعتباره من أقل الأعمال صعوبة للمؤلف: Levy-Bruhl

(119). الأستاذ والتلميذ

The Master and his apprentice. A. Dirr, Kaukasische Miirchen, lena, 1922. 344

(120). Proteus. Odyssey, IV, 440-60. 345f

(121). Hysteria. Krapelin, Psychiatrie, IV, pp. 1 547-1606. E. Bleuler, Lehrbuch der Psychiatrie, pp. 392-40I. (English translation by A. A. Brill, Textbook of Psychiatry, London, 1924.) Kretschmer, Uber Hysterie, Leipzig, 1927. 346

(122). الأطباء السحرة

Shamans. Czaplicka, Aboriginal Siberia, Oxford, 19I4; Ohlmarks, op. cit. ; M. Eliade, Le Chamanisme, Paris, 1951 ; G. V. Ksenofontov, Schamanengeschichten aus Sibirien, Munich, 1955 ; H. Findeisen, Schamanentum, Stuttgart, 1957. 347f

(123). الهوس والملانخوليا

Mania and melancholia. Krapelin, Psychiatrie, III, Das manisch-depres-5ive Irresein, pp. u83-1395. See also Bleuler, op. cit. 348ff

(124). T. G. H. Strehlow, Aranda Traditions, Melbourne University Press, 1947·

(125). Bandicoot myth. Ibid., pp. 7-10. 3 50f

(126). Lukara myth. Ibid., pp. 1 5-16. 353

(127). "الجد"

"The ancestor represents the sum total.... " Ibid., p. 17. 3 56

(128). "جد اليرقات في مبورينجا"

The ancestor from Mboringka. Ibid., p. 12. 358ff

(129). الهلوسة الارتعاشية

Delirium Tremens. Krapelin, Psychiatrie, II, pp. 132ff. Bleuler, op. cit., pp. 227-8 and 23 3. (English edition, pp. 328-30.) 364E

(130). "المضيف"

The innkeeper. Krapelin, Einfuhrung in die Psychiatrische Klinik, II, Case 43، pp. 157-61. 366f

(131). Schizophrenic patient suffering from an attack of Delirium Tremens. Bleuler, op. cit., pp. 234-5 (English edition, pp. 337-8.) 3 71

(132). الحمار في جلد نمر

The donkey in the lion's skin. l. Hertel, Indische Miirchen, lena, 1921, pp. 61-2. 401 Liudprand of Cremona.

(133). The Works ofLiudprand of Cremona, trans. F. A. Wright, Routledge, London,1930.

(134). KLASSISCHE PARALYSE: KRAEPLIN, EINFUERUNG IN DIE PSYCHIATISCHE KLINIK،BD.2.FALL26., 93-97ص انظر.

(The story of the Rising Throne is in Antapodosis, VI, 5, pp. 207-8; 480

(135). General Paralysis. Krapelin, Einfuerung in die Psychiatrische Klinik, II, Case 26, pp. 93-7. 404£ Second case of Paralysis. Ibid., Case 28, pp. IO I-2. 4IIff

(136). D. Westermann, Geschichte Afrikas, Cologne, 1952-a book which draws on a vast quantity of material-was consulted throughout this chapter.

(137). موت ملك الجابون العجوز وانتخاب خليفته

Death of an old king in Gaboon and the election of his successor. P. Du Chaillu, Explorations and Adventures in Equatorial Africa, London, 1 861, pp. 1 8-20. 413ff

(138). ملك الجوكون

The King of Jukun. C. K. Meek, A Sudanese Kingdom, Kegan Paul, London, 1931, pp. 120-77 and 3 32-53. 41sf

(139). سمات ملوك أفارقة

Attributes of African kings. Westermann, op. cit., pp. 34-43. 416f

(140). محاكاة الملوك

The imitation of kings. Monomotapa: Westermann, op. cit., pp. 413-14; Ethiopia: Diodoms Siculus, III. 7 and Strabo, XVII. 2 and 3; Darfur: Travels of an Arab Merchant in Soudan, London, 1854, p. 78; Uganda, Boni, China: J. G. Frazer, The Dying God, London, 1913, pp. 39-40. 418

(141). الملك يقرر بنفسه مدة ولايته

The king himself determines the length of his reign. Monteil, Les Bambara du Segou, Paris, 1924, p. 305.

(142). انتخاب وإهانة الملك لدى الـ(يوروبا)

Beating of the prospective king among the Yoruba. Westermann, ibid., p. 40 ; in Sierra Leone: ibid., p. 41. 419

(143). الفوضى بعد وفاة الملك

Lawlessness after the death of a king. Among the Mosi ofWagadugu: Westermann, op. cit., p. 18S; in Ashanti: ibid., p. 222 ; in Uganda: J. Roscoe, The Baganda, London, 19I1, pp. 103-4.

(144). نشأت دول هيما بعد الاستيلاء على المنطقة فيما يعرف اليوم بأوغندا وفي الجنوب منها، وكان حكام محاربون من أصل حامي، ويسمون أيضًا هيما، قد هاجروا من الشمال وأخضعوا المواطنين الزنوج المزارعين واستعبدوهم. ويعد تاريخ ممالكهم من أهم احداث إفريقيا. وقد تميزت هذه الممالك بالفصل الحاد بين الطبقات فيما بين السادة والموالي.

The Hima states originated through the gradual conquest of what is now Uganda and the territory south of it. Warlike pastoralists of Hamitic origin, called Hima, migrated into the country from the north and made the native Bantu agriculturalists their serfs. These Hima kingdoms are among the most interesting in Africa. They are distinguished by a sharp caste-division between masters and serfs.

(145). الخلافة في أنكوله

Succession in Ankole. K. Oberg, The Kingdom of Ankole in Uganda, in African Political Systems, edited by M. Fortes and E. E. Evans-Pritchard, Oxford University Press1954, p.121- 162.

والمقطع عن الخلافة ص 157 - 161 ، والكتاب الأقدم لـ Roscoe: The Banyankole, Cambridge, 1923. وهو اقل انتشارًا إلا أنه جدير بالقراءة. وعن رواندا دولة هيما الجنوبية يتوافر عمل جديد متميز:

Maquet, The Kingdom of Ruanda, in African Worlds, pp. 1-26. 420£

(146). الأمير الشاب ضحية تتويج ملك كيتارا

Sacrifice of a young prince in Kitara. Roscoe, The Bakitara, Cambridge, 1923, pp. 129-30. 421

(147). قوس ملك كيتارا

The royal bow of Kitara. Ibid., pp. 133-4. "I shoot the nations". Ibid., p. 134. (إني اقتل الأمم)

(148). أوغندا، الطبول

Uganda: drums. Roscoe, The Baganda, London, 19II, p. 188. 422

(149). "سوف أعيش عمرًا أطول من عمر أجدادى"

"I am the king to live longer than my ancestors". Ibid., p. 194. Two passers-by seized. Ibid., p. 197. Scapegoat and overseer. Ibid., p. 200.

(150). الضحية المزدوجة أحدهما يتم إعدامه والآخر يتم العفو عنه

Presentation of victims in pairs. Ibid., p. 210. 423

(151). "أنت الآن أتا"

"You are now Ata". Westermann, op. cit., p. 39.

(152). ملك أوغندا - كالأسد - يأكل وحده

"The Lion eats alone". Roscoe, The Baganda, p. 207.

(153). الطباخ يطعم ملك كيتارا

The king ofKitara fed by his cook. Roscoe, The Bakitara, p. 103.

(154). Summary justice. Roscoe, ibid., pp. 61, 63. 424ff Ibn Batuta.

(155). رحلات ابن بطوطة فى الهند والصين

Travels in Asia and Africa, 1325-1354, translated and selected by H. A. R. Gibb, Routledge, London, 1929, ch. VI, pp. 183-213.

(156). قصة زين الدين برانى منشورة كاملة بالجزء الثالث من

The History of India as told by its own Historians, H. M. Elliot and J. Dowson, 1 867-1 877. It has also been published separately as Later Kings of Delhi, by S. Gupta, calcutta. The account of Muhammad Tughlak's reign is on pp. 159-192. 434

(157). اعتبر المؤرخ الهندى أشوارى برازاد نفسه مدافعًا عصريًا عن السلطان:

A modern defender of the Sultan is the Indian historian Ishwari Prasad (L'Inde dll VIle au XVIe siecle, in the series Histoire du Monde, Paris, 1930, pp. 270-300). He calls him an "unfortunate idealist", "without doubt the most able man of thel Middle Ages". 434ff

(158). Denhwuerdigkeiten eines Nervenkranken: Daniel Paul Schreber, Leipzig, I 903.

المراجع

قد لا يمكننى وضع قائمة وافية بالأعمال التى كان لها أثر على مؤلفى هذا، إلا أن اختيارات هذه القائمة خضعت لثلاثة مبادئ، هى: ذكر كل الأعمال التى أقتبس منها، وذكر الأعمال التى كان لها تأثير حاسم على فكرى ومن دونها لم يكن يتيسر لى التوصل إلى استنتاجات بعينها، والأمر يدور هنا فى الأغلب حول مصادر شديدة التنوع، وهى مصادر تحتوى على وثائق أصلية متنوعة للغاية تدور حول الأسطورة والدين والتاريخ والأنثروبولوجيا، والسيرة الذاتية والطب النفسى. ومنها كذلك مختلف الكتب التى تنتمى إلى المجموعة الأولى. وأخيرا كان هناك بعض الأعمال الحديثة التى تعطى فكرة طيبة عن حضارات غير معروفة، وهى أعمال قد تفيد قرائى كما استفدت أنا منها.

- Albert von Aachen. Geschichte des ersten Kreuzzugs. Ubersetzt von H. Hefele. lena, 1923.
- Ammianus Marcellinus. 3 vols. Loeb Classical Library. London, 1950. Appian. Roman History. 4 vols. Loeb Classical Library. London, 1933.
- Arabshah, Ahmed Ibn. Tamerlane, translated by Sanders. London, 1936.
- Baumann, H., Thumwald, R., and Westermann, D. Volkerkunde von Afrika. Essen, 1940.
- Benedict, Ruth. Patterns oj Culture. Boston, 1934. Bernier, r. Travels in the Moghul Empire 1 656-1 668. London, 1914.
- Bezold, F. v. Zur Geschichte des Hussitentums. Munich, 1 874. Bland, J. O. P., and Back.house, E. China under the Empress Dowager. Boston, 1 914.

- Bleek, W. H. J., and Lloyd, L. C. Bushman Folklore. London, 19II.
- Bleuler, E. Lehrbuch der Psychiatrie. Reprint, Berlin, 1930. (Textbook oJPsychiatry. Translated by A. A. Brill. London, 1924.)
- Boas, F. Kutenai Tales. Washington, 1918. Bouvat, L. L'Empire Mongol (zeme phase). Paris, 1927.
- Brandt, O. H. Die Limburger Chronik. lena, 1922. -- Der grosse Bauernkrieg. lena, 1925.
- Browne, E. G. A Literary History of Persia. Vois. I-IV. Cambridge, 1951.
- BruneI, R. Essai sur la Confrlrie Religieuse des Aissoua au Maroc. Paris, 1926.
- Bryant, A. Olden Times in Zululand and Natal. London, 1929. Biicher, K. Arbeit und Rhythmus. Leipzig, 1909.
- Biihler, G. The Laws of Manu. Oxford, 1 886.
- Burckhardt, Jacob. Griechische Kulturgeschichte, Vols. I-IV. -- The Civilization of the Renaissance in Italy. -- The Age of Constantine the Great. --Refiections on History.
- Burton, A. W. Sparks from the Border Anvil. King William's Town, 1950.
- Burton, Richard. A Mission to Gelele, King of Dahomey. London, 1 864. Bury, J. B. History of the Later Roman Empire. 2 vols. New edition. New York, 1958.
- Cabeza de Vaca. Naufragios Y Comentarios. Buenos Aires, 1945.
- Caesarius of Heister bach. The Dialogue on Miracles. 2 vols. London, 1929.

- Callaway, H. The Religious System of the Amazulu. Natal, 1870.
- Calmeil, L. F. De la Folie. 2 vols. Paris, 1 845. Carcopino, J. Daily Life in Ancient Rome. London, 1941.
- Cartwright, Peter. The Backwoods Preacher. An Autobiography. London, 1858.
- Casalis, E. Les Bassoutos. Paris, 1 860.
- Catlin, George. The North American Indians. London, 1 841 ; reprint, Edinburgh, 1926.
- Chadwick, N. K. Poetry and Prophecy. Cambridge, 1942.
- Chantepie de la Saussaye. Lehrbuch der Religionsgeschichte.
- 4th ed. Tiibingen, 1925· Chamberlain, B. H. Things Japanese. London, 1902.
- Cieza de Leon, Pedro de. The Incas. Translated by Harriet de Onis. Oklahoma, 1959·
- Codrington, R. H. The Melanesians. Oxford, 1 891.
- Cohn, Norman. The Pursuit of the Millennium. London, 1957.
- Commynes, P. de. Memoires. Vols. I-III. Paris, 1925.
- Contenau, G. La Divination chez les Assyriens et les Babyloniens. Paris, 1940.
- Gonstantin VII. Porphyrogenete, Le Livre des Ceremonies. Traduit par A. Vogt. Vols. I et II. Paris, 193 5-9.
- Cortes, Hernando. Five Letters 1519 to 1526. Translated by Morris. London, 1928.
- CoxwelL C F،Siberian and Other Folk – Tales.London 1925
- Crooke, W. Things Indian. London, 19Q6.

- Cuisinier, Jeanne. Sumangat. CAme et son Culte en Indochine et Indonesie. Paris, 1951.
- Cunha, Euclides da. Rebellion in the Backlands. Translated by Putnam. Chicago, 1944·
- Cumont, Franz. The Mysteries oj Mithra. Reprinted, New York, 1956. --Oriental Religions in Roman Paganism. Reprinted, New York, 1956. Curzon, Robert. Visits to Monasteries in the Levant. London, 1 850.
- Czaplicka, M. A. Aboriginal Siberia. Oxford, 1914.
- Dalzel, A. The History oJDahomey. London, 1793.
- Darmesteter, J. The Zend-Avesta. Part II. Oxford, 1883. Davenport, F. N. Primitive Traits in Religious Revivals. New York, 1905.
- R. Moeurs et Coutumes des Malgaches. Paris, 195 1.
- Decembrio, Pier Candido. Leben des Filippo Maria Visconti. Ubersetzt von Funk. Jena, 1913.
- Depont, 0., et Coppolani, X. Les Confrlries Reiigieuses Musulmanes. Alger, 1 897.
- Dhorme, E. Les Religions de Babylonie et d'Assyrie. Paris, 1945.
- Diaz del Castillo, Bernal. The Discovery and Conquest of Mexico. Translated by A. P. Maudsley. Reprinted, New York, 1956.
- Dio Cassius. Roinan History. Loeb Classical Library. 9 vols. London, 1955.
- Dirr, A. Kaukasische Marchen. Jena, 1922.
- Donaldson, D. M. The Shiite Religion. London, 193 3.
- Dornan, S. S. Pygmies and Bushmen of the Kalahari. London, 1925.
- Douglas, Mary. The Lele of Kasai, in African Worlds. Edited by C.

Daryll Forde. Oxford, 1954.

- Dubois, Abbe. Hindu Manners, Customs and Ceremonies. Oxford, 1906.
- Du Chaillu, P. B. Explorations and Adventures in Equatorial Africa. London, 1 861.
- Du Jarric. Akbar and the Jesuits. Translated by Payne. London, 1926.
- Dumezil, Georges. Mitra-Varuna. Paris, 1948. --Mythes et Dieux des Germains. Paris, 1939.
- Dupeyrat, Andre. Jours de Fete chez Ies Papous. Paris, 1954.
- Eisler, R. Man into Wolf. London, 195 1. Eliade, M. Le Chamanisme. Paris, 195 1. -- Traite d'Histoire des Religions. Paris, 1953.
- Elkin, A. P. Studies in Australian Totemism. Oceania Monographs No. 2. Sydney, 1933. -- The Australian Aborigines. Sydney, 1943.
- Elliot H. M., and Dowson, J. The History of India as told by its own Historians. 8 vols. London, 1 867-77.
- Ellis, A. B. The Ewe-speaking Peoples of the Slave Coast of West Africa. London, 1 890•
- Erman, A. Agypten und agyptisches Leben im Altertum. Tiibingen, 1 885. --Die agyptische Religion. Berlin, 1909. --Die Literatur der Agypter. Leipzig, 1923. Translated into English by A. M. Blackman, The Literature of the Ancient Egyptians. London, 1927. Evans-Pritchard, E. E. Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande. Oxford, 1937·
- Felice, Philippe de. Foules en Delire. Extases Collectives. Paris, 1947.
- Findeisen, H. Schamanentum. Stuttgart, 1957.
- Fison, Lorimer. Tales from Old Fiji. London, 1904.

- Florenz, Karl. Geschichte der japanischen Literatur. Leipzig, 1909.
- Forde, C. Daryll. Habitat, Economy and Society. London, 1950. --Editor: African Worlds. London, 1954.
- Fortes, M., and Evans-Pritchard, E. E. African Political Systems. Oxford, 1940.
- Fortune, R. G. Sorcerers of Dobu. London, 1932.
- Fox, George. The Journal. Cambridge, 1952.
- Franke, O. Studien zur Geschichte der konfuzianischen Dogmas lind der chinesischrn Staatsreligion. Hamburg, 1920. --Geschichte des chinesischen Reiches. 5 vols. Berlin, 1930-52.
- Frankfort, Henri. Kingship and the Gods. Chicago, 1948.
- Frazer,]. G. The Golden Bough. Vols. I-XI. London, 1913 ff. -- The Fear of the Dead in Primitive Religion. Vols. I-III. London, 193 3-6. -- The Belief in Immortality and the Worship of the Dead. Vols. I-III. London, 1913-24· Friedlander, L. Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms. Vols. I-IV. Leipzig, 1922.
- Frobenius, Leo. Atlantis, Volksmiirchen und Volksdichtungen Afrikas. Vois. I-XII. lena, 1921-8. --Kulturgeschichte Afrikas. Vienna, 1 933.
- Fung Yu-Lan. A History of Chinese Philosophy. Vols. I-II. Princeton, 1952-3.
- Fynn. The Diary of Henry Francis Fynn. Pietermaritzburg, 1950.
- Garcilasso de la Vega, Comentarios Reales. Buenos Aires, 1942.
- Gaudefroy-Demombynes, M. Le Nlerinage a la Mekke. Paris, 1923. --Les Institutions Musulmanes. Paris, 1921.
- Gesell, A. Wolf Child and Human Child. London, 1 941.

- Gobineau, Religions et Philosophies dans i'Asie Centrale. 1 865. New edition. Paris, 1957.
- Goeje, M.]. de. Memoire sur les CIIrmathes du Bahrein. Leiden, 1 886.
- Goldenweiser, A. Anthropology. New York, 1946. Goldziher,]. Vorlesungen uber den Islam. Heidelberg, 1910.
- Gorion, M.]. bin. Die Sagen der Juden: I Von der Urzeit. Frankfurt, 1919.
- Granet, M. La Civilisation Chinoise. Paris, 1929. --La Pensee Chinoise. Paris, 1934.
- Grass, K. Die TUssischen Sekten. 2 vols. Leipzig, 1907 and 1914. -- Die geheime heilige Schrift der Skopzen. Leipzig, 1 904. Gregory of Tours. History oJthe Franks. Translated by o. M. Dalton, 2 vols. Oxford, 1927.
- Grenier, A. Les Relil!ions Etrusaue et Romaine P:l";
- Grass, K. Die TUssischen Sekten. 2 vols. Leipzig, 1907 and 1914. -
- Die geheime heilige Schrift der Skopzen. Leipzig, 1 904.
- Gregory of Tours. History oJthe Franks. Translated by o. M. Dalton, 2 vols. Oxford, 1927. Grenier, A. Les Relil!ions Etrusaue et Romaine P:l";
- Grube, W. Religion und Kultus der Chinesen. Leipzig, 1910.
- Grunebaum, G. E. vou. Muhammadan Festivals. London, 1958. Guillaume, A. The Life oj Muhammad. A translation oj Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah. Oxford, 1955.
- Guyard, S. Un Grand Ma1tre des Assassins au temps de Saladin. Paris, 1 877.

- Haenisch, Erich. Die Geheime Geschichte der Mongolen. Leipzig, 1948.
- Hambly, W. D. Tribal Dancing and Social Development. London, 1946. Handy, E. S. C. Polynesian Religion. Honolulu, 1927. Harris, Sarah. The Incredible Father Divine. Londou, 1954.
- Hecker, J. C. F. The Epidemics of the Middle Ages. London, 1 859.
- Hepding, Hugo. Attis, seine My then und sein Kult. Giefsen, 1903.
- Herodian. History oj the Roman Empire. Translated by E. C. Echols. Cambridge, 1961.
- Herodotus. The Histories. Translated by Aubrey de Selincourt. Penguin Classics, 1954.
- Herskovits, M. J. Dahomey, an Ancient West African Kingdom. 2 voIs. New York, 193 8.
- Hertel, J. Indische Miirchen. Jena, 1921.
- Histoire Anonyme de la Premiere Croisade. Traduite par L. Brehier. Paris, 1924.
- Historiae Augustae Scriptores. 3 vols. Loeb Classical Library. London, 1930.
- Hitti, P. K. History of the Arabs. London, 195 1.
- Hodgson, M. G. S. The Order oJ'Assassins. The Hague, 1955.
- HOfler, O. Kultische Geheimbiinde der Germanen. Frankfurt, 1939.
- Hofmayr, W. Die Schilluk. Modling, 1925.
- Huizinga, J. The Waning oj the Middle Ages. Penguin, 1955. --Homo Ludens. London, 1949.
- Humboldt, A von. Reise in die Aquinoctial-Gegenden des neuen

Continents. Stuttgart, 1 861.
- Hutton, J. H. Caste in India. Cambridge, 1946.
- Ibn Batuta. Travels in Asia and Africa, 1325-1354. Translated and selected by Gibb. London, 1939.
- Ibn Ishaq. The Lifo of Muhammad. Translated by G. Guillaume. Oxford, 1955.
- Ibn Jubayr. The Travels. Translated by Broadhurst. London, 1952.
- !deler, K. W. Versuch einer Theorie des religiosen Wahnsinns. Halle, 1 848.
- James, William. The Varieties oj Religious Experience. London, 1911.
- Jeanmaire, H. Dionysos. Histoire du Culte de Bacchus. Paris, 195 1.
- Jeanne des Anges, Soeur. Autobiographie d'une Hystfrique Possidee. Paris, 1 886.
- Jensen, A. E. Hainuwele. Volkserziihlungen von der Molukken-Insel Ceram. Frankfurt, 1939. --My thus und Kult bei Naturvolkern. Wiesbaden, 195 1.
- Jespersen, O. Language, its Nature, Development and Origin. London, 1949.
- Jezower, J. Das Buch der Triiume. Berlin, 1928.
- Josephus. The Jewish War. Translated by G. A. Williamson. Penguin Classics. London, 1959.
- Joset, P. E. Les Societes Secretes des HommesUopards en Afrique Noire. Paris, 195 5.
- Junod, H. A. The Lifo of a South African Tribe. 2 vols. London, 1927.
- Juvaini. The History of the World Conqueror. Translated from the

Persian by J. A. Boyle. 2 vols. Manchester, 1958. Kalevala. The Land oJthe Heroes. Translated by W. F. Kirby. 2 vols. Everyman. 1956.

- Karsten, R. Blood Revenge, War, and Victory Feasts among the Jibaro Indians of Eastern Ecuador. Washington, 1922. Kautilya. Arthashastra. Translated by R. Shamasastry. Mysore, 1929.
- Koch-Grunberg, T. Vom Roroima zum Orinoco. Vols. I-V. Stuttgart, 1917-28. --Zwei JahreunteT den Indianem Nordwest-Brasiliens. Stuttgart, 1923. --Indianermarchen aus Sudamerika. Jena, 1921.
- Komroff, M. Contemporaries oJ Marco Polo. London, 1928.
- Krapelin, E. Psychiatrie. 8th ed. Vols. I-IV. Leipzig, 1910-15. --Einfuhrung in die psychiatrische Klinik. Vols. II-III. Leipzig, 1921. Kremer, A. V. Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 vols. Vienna, 1875.
- Kretschmer, E. Ober Hysterie. Leipzig, 1927. --Der sensitive Beziehungswahn. Berlin, 1918.
- Krickeberg, W. Indianermarchen aus Nordamerika. Jena, 1924. --Marchen der Azteken und Inkaperuaner, Maya und Muisca. lena, 1928.
- Kropf, A. Das Volk der Xosa-Kaffem. Berlin, 1 889. -- Die Lugenpropheten des Kqffemlandes. Neue Missionsschriften. 2nd ed. No. II. Berlin, 1 891.
- Kuhn, F. Altchinesische Staatsweisheit. Zurich, 1954. Landa, Fr. D. de. Relacion de las cosas de Yucatan. Paris, 1 864.
- Landauer, Gustav. Brieje aus der Franzosischen Revolution. 2 vols. Frankfurt, 1919.
- Landtman, G. The Origins of the Inequality of the Social Classes.

London, 1938.

- Lane, E. W. Manners and Customs of the Modem Egyptians. London, 1 895.
- Lane-Poole, S. A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- O'Leary, De Lacy. A Short History of the Fatimid Khalifate. London, 1923.
- Leenhardt, M. Gens de la Grande Terre.-Nouvelle Call donie, Paris, 1937.
- Lefebvre, G. La Grande Peur de 1 789. Paris, 1932. --La Revolution Franfaise. Paris, 1957. --Etudes sur fa Revolution Franfaise. Paris, 1954.
- Legge, J. The Sacred Books of China. Part I: The Shu-King. Oxford, 1 899.
- Le Herisse, A. L'Ancien Royaume du Dahomey. Paris, 1911.
- Leiris, Michel. La Possession et ses Aspects TMatraux chez les Ethiopiens de Gondar. Paris, 1958.
- Lery, Jean de. Le voyage au Bresil 1556-1558. Paris, 1927.
- Levy-Bruhl, I. L'Ame Primitive. Paris, 1927. --La Mythologie Primitive, Paris, 193 5
- Lewis, B. The Origins of Ismailism. Cambridge, 1940.
- Lindner, K. Die Jagd der Vorzeit. Berlin, 1937.
- Liudprand of Cremona. The Works of. Translated by F. A. Wright. London, 1930.
- L(vy. The Early History of Rome. Translated by A. de Selincourt. Penguin Classics. 1960.
- Lomer, K. Die WiedertauJer in Munster. Jena, 1923. Lommel, H. Bhrigu

im Jenseits. Paideuma 4. Bamberg, 1950. Paideuma 5. Bamberg, 1952.

- Lot-Falck, E. Les Rites de Chasse chez les Peuples Siblriens. Paris, 1953.
- Lowie, R. H. Primitive Society. London, 1920. --Primitive Religion. London, 1924. Lucian. Works. 8 vols. Loeb Classical Library.
- Ludwig II. von Bayern. Tagebuch-Aufzeichnungen. Liechtenstein, 1925.
- Macdonnell, A. A. Hymns from the Rigveda. The Heritage of India Series. Calcutta.
- Machiavelli, Niccolo. Gesamelte schriften. 5 bde. Muenchen1915
- Macdonell, A,A.hymns from the Rigveda. The Hetitage of India Series. Calkutta
- Malinowski, B. Magic, Science and Religion. New York, 1955. Maquet, J.]. The Kingdom of Ruanda, in African Worlds. Edited by Daryll Forde. London, 1954.
- Marco Polo. The Travels oj. London, 1939. Mason,]. A. The Ancient Civilisations of Peru. London, 1957. Maspero, Georges. Au Temps de Ramses et d'Assourbanipal. Paris, 1927.
- Maspero, Henri. La Chine Antique. Paris, 1955. --Les Religions Chinoises. Paris, 1950.
- Mas'udi. Les Prairies d'Or. Texte et traduction par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille. 9 vols. Paris, 1 861-77. Mathieu, P. F. Histoire des Miracuies et Convulsionnaires de Saint-Medard. Paris, 1 864· Mathiez, A. La Revolution Franfaise. Vols. I-III. Paris, 1922-7. Meek, C. K. A Sudanese Kingdom. London, 193 I. Misson, Maximilien. Le Theatre Sacre des Cevennes. London, 1707. Mooney,]. The Ghost-Dance Religion. Washington, 1 896.

- Morley, S. G. The Ancient Maya. Stanford, 1946.
- Nadel, S. F. A Black Byzantium. The Kingdom ofNupe in Nigeria. London, 1946.
- Nihongi, Chronicles of Japan. Translated by W. G. Aston. London, 1956.
- Nizam AI-Mulk. The Book of Government, or Rules for Kings. Translated from the Persian by H. Drake. London, 1960.
- Oberg, K. The Kingdom oj Ankole in Uganda, in African Political Systems, edited by Fortes and Evans-Pritchard. Oxford, 1940.
- Ohlmarks, A. Studien zum Problem des Schamanismus. Lund, 1939. D'Ohsson, C. Histoire des Mongols. 4 vols. The Hague, 1834-5. Oldenberg, H. Die Religion des Veda. Stuttgart, 1917.
- Olmstead, A. T. History of the Persian Empire. Chicago, 1948.
- Pailottino, M. The Etruscans. London, 1955. Pan-Ku. The History of the Former Han Dynasty. Translated by Homer H. Dubs. Vols. I-III. 193 8-55. Paris, Matthew. Chronicles. 5 vok Londoll, 1851.
- Pellat, C. Le Livre de la Couronne, attribue a Gahiz. Paris, 1954.
- Pelliot, P. Histoire Secrete des Mongols. Paris, 1949. Plutarch. The Parallel Lives. II vols. Loeb Classical Library. --Fall of the Roman Republic. Six Lives. Translated by Rex Warner. Penguin Classics, 1958. Polack,]. S. New Zealand, A Narrative o.f Travels and Adventure. 2 vols. London, 1838•
- Schreber, Daniel Paul. Denkwurdigkeiten eines Nervenkranken. Leipzig, 1903. --Memoirs of My Nervous Illness. Translated and edited, with Introduction, Notes and Discussion, by Ida Macalpine and Richard A. Hunter. London, 1955·

- Seligman, C. G., and B. C. The Veddas. Cambridge, 191 1.
- Senart, E. Caste in India. Translated by E. Denison Ross. London, 1930.
- Sewell. A Forgotten Empire (Vijayanagar). London, 1900.
- Shapera, J. The Khoisan Peoples of South Africa. London, 1930. --Editor: The Bantu-Speaking Tribes of South Africa. London, 1937.
- Sighele, S. La Poule Criminelle. Paris, 1901. Singh, T. A. L., and Zingg, R. M. Wolf Children and Feral Man. Denver, 1943·
- Sjoestedt, M. L. Gods and Heroes of the Celts. Translated by Myles Dillon. London, 1 949.
- Smith, V. A. The Oxford History of India. Oxford, 1923.
- Smith, E. W., and Dale, A. M. The Ila-Speaking Peoples of Northern Rhodesia. 2 vols. London, 1920. Spencer, B., and Gillen, F. J. The Arunta. London, 1927. -- The Northern Tribes of Central Australia. London, 1904.
- Sprenger, Jacob. Malleus Male.ficarum. English Translation by Montague Summers. London, 1928.
- Stahlin, K. Der Briefwechsel Iwans des Schrecklichen mit dem Fursten Kurbsky (1564-1579). Leipzig, 1921.
- Stanley, A. P. Sinai and Palestine. London, 1 864.
- Steinen, K. von den. Unter den Naturviilkem Zentral-Brasiliens. Berlin, 1 894.
- Stirling, M. W. Historical and Ethnographical Material on the Jivaro Indians. Washington, 193 8.
- Stoll, O. Suggestion and Hypnotismus in der Vijlkerpsychologie.

Leipzig, 1904.

- Strehlow, C. Die Aranda- und Loritja-Stamme in Zentral-Australien. Vols. I-ill. Frankfurt, 1 908-IO.
- Strehlow, T. G. H. Aranda Traditions. Melbourne, 1947.
- Suetonius. The Twelve Caesars. Translated by Robert Graves. Penguin Classics. 1957·
- Tabari. ChTonique de Tabari, traduit par H. Zotenberg. 4 vols. Paris, 1 867-79.
- Tacitus. The Annals of Imperial Rome. Translated by Michael Grant. Penguin Classics. 1 956.
- Talbot, P. A. In the Shadow of the Bush. London, 1912.
- Tavernier, J. B. Travels in India. 2 vols. London, 19:>.5.
- Te Rangi Hiroa (Peter H. Buck). The Coming of the Maori. Wellington, 1952.
- Tertullian. De Spectaculis. Loeb Classical Library. London, 193 1.
- Titayna. La Caravane des MOTtS. Paris, 193 0. Theal, G. McCall. History of South AJrica from 1 795-1 872. Vol. ill. London, 1927.
- Thucydides. History ·oJ the Peloponnesian War. Translated by Rex Warner. Penguin Classics. 1954.
- Thurnwald, R. Repriisentative Lebensbilder von Naturviilkern. Berlin, 193 I.
- Tremearne, A. J. N. The Ban oj the Bori. London, 1914.
- Trilles, R. P. Les Pygmies de la Fodt Equatoriale. Paris, 193 1.
- Trotter, W. The Instincts oj the Herd in Peace and War. London, 1919.
- Turi, Johan. The Book of the Lapp. London, 193 I.

- Turner, G. Samoa. London, 1884. Tylor, E. B. Primitive Culture. London, 1924.
- Ungnad, A. Die Rel(ltionen deT Babylonier und Assyrer. Jena, 1921.
- Vaillant, G. C. The Aztecs oj Mexico. London, 1950.
- Vedder, H. Die Bergdama. 2 vols. Hamburg, 1923.
- Vendryes, J., Tonnelat, E., and Unbegaun, B. O. Les Religions des Celtes, des Germains et des Anciens Slaves. Paris, 1 948.
- Virolleaud, C. Le Theatre Persan ou Ie Drame de Kerblla. Paris, 1950.
- Volhardt, E. Kannibalismus. Stuttgart, 1939.
- Waley, Arthur. The Travels oj an Alchemist. London, 193 1. -- The Book oj Songs. London, 1937. -- The Analects oj Confucius. London, 193 8. -- Three Ways oj Thought in Ancient China. London, 1939. -- The Real Tripitaka. London, 1952. Waliszewski, K. Ivan Ie Terrible. Paris, 1904. --Peter the Great. London, 1 898.
- Warneck, J. Die Religion der Batak. Gottingen, 1909.
- Warner, F. L1. A Black Civilisation. New York, 1958.
- Weeks, J. H. Among Congo Cannibals. London, 191 3.
- Weil, Gustav. Geschichte der Chalifen. Vols. I-III. Mannheim, 1 846-5 1. Wendische Sagen, herausgegeben von F. Sieber. Jena, 1925. Wesley, John. The Journal. London, 1 836.
- Westermann, D. The Shilluk People. Berlin, 1912 - die kapelle. Goettingen1921-Geschichte Afrikas. Cologne, 1952.
- Westermarck,eritual and relief in morocco 2volls. London 1926
- Wilhelm, Richard. Li Gi. Das Buch deT Sitte. 1958. --Mong Dsi. Jena, 1921. --Frahling und Herbst des LaBu We. Jena, 1928.

- Williams, F. E. Orokaiva Magic. London, 1928. -- The Vailala Madness and the Destruction oj Ceremonies. Port Moresby, 1923 · -- The Vailala Madness in Retrospect, in: Essays Presented to C. G. Seligman. London, 1934. Winternitz, M. Geschichte deT Indischen Literatur. 3 vols. Leipzig, 1909-22.
- Wirz, Paul. Die Marind-anim von Holliindisch-Sad-Neu-Guinea. Vols. I and II. Hamburg, 1922 and 1925. Wladimirzov, B. The Life of Chingis-Khan. London, 1930.
- Wolff, O. Geschichte der Mongolen oder Tataren, besonders ihres Vordringens nach Europa. Breslau, 1 872.
- Wolff, P. Die Drusen und ihre VorlauJer. Leipzig, 1 845.
- Worsley, P. The Trumpet Shall Sound: A Study of „Cargo“ Cults in Melanesia. London, 1957.
- Zuckerman, S. The Social Life oj Monkeys and Apes. London, 1932.

نبذة عن المؤلف

إلياس كانتى (1905 - 1994)

مفكر وروائى وكاتب مسرحى، ولد بمدينة روستشوك الواقعة حاليًا بجمهورية بلغاريا، وتوفى فى زيورخ، إلا أن أصوله ترجع إلى أسرة إسبانية تعتنق اليهودية. وقد استقر به المقام بمدينة فرانكفورت حيث أتم دراسته بالمرحلة الثانوية، لينتقل بعدها إلى النمسا ليدرس الكيمياء بجامعة فيينا فيما بين عامى 1924 و1929 ويحصل على درجة الدكتوراه عام 1929. وفى عام 1934 يتزوج ويرحل مع زوجته إلى لندن ليستقرا هناك. ثم هاجر إلى زيورخ عام 1938 وظل بها إلى نهاية الثمانينات، وقد ظهرت أولى رواياته بعنوان "الإعدام حرقًا" عام 1935 وتلتها مسرحيات "العرس" و"كوميديا الأباطيل" و"المستفيدون من التأجيل". ثم نشرت روايته "أصوات مراكش" عام 1968، أما دراسته المهمة "الجماهير والسلطة" فقد صدرت عام 1960. ومن أعماله: رواية "غشاوة الأبصار" (1935/ 1936)، وكتابات فلسفية (1960) كما كتب سيرته الذاتية فى ثلاثة أجزاء. وقد حصل كانتى على عدة جوائز توجها بحصوله على جائزة نوبل عام 1981.

نبذة عن المترجم

محمد أبورحمة

حاصل على الإجازة الأكاديمية للترجمة وماجستير الترجمة الفورية من جامعة كارل فرانتس بالنمسا.

صدرت له من أعمال الترجمة: "أسرار وراء الحجاب"، "أثرياء الشرق وقوة العرب الاقتصادية"، "سطوع نجم الشيعة"، "ضمير الرجال"، "حياتى فى مصر"، "اسمعى يا إسرائيل" (إريش فريد)، "الحب والجنس فى مصر القديمة" (ليز مانيكه) "المحاكمة والمسخ" (فرانتس كافكا)، "آل بودنبروك" (توماس مان).

كما صدرت له أعمال مؤلفة، منها: "هارون الرشيد"، "الأمثال الشعبية: صور من الحياة اليومية فى مصر القديمة". "الأساطير المصرية"، "الإسلام والدين المصرى: دراسة مقارنة بين الدين المصرى القديم والأديان السماوية"، "السحر عند المصريين القدماء"، "فتنة الخلافة: تاريخ الصراع على السلطة".

المراجع فى سطور

د. عبدالحميد محمد مرزوق

من مواليد القاهرة عام 1957، مدرس الأدب والترجمة بقسم اللغة الألمانية -كلية الألسن/ جامعة عين شمس.

- له ترجمات تعريفية إلى اللغة الألمانية عن التراث العربى القديم، منها: "كتاب الصناعتين" لأبى هلال العسكرى، وكتاب "شرح نهج البلاغة" لابن أبى الحديد، وكتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه، وكتاب "الزيج الصابئ" للبتانى، و"شروح ابن رشد لأرسطو -ما بعد الطبيعة"، و"رحلة ابن بطوطة"- معرض فرانكفورت/ ماين 2004.

ترجم:

- كتاب هايكو فلوتاو "الشرق الأوسط والنظام العالمى الجديد - من النيل إلى تورا بورا"، مراجعة د. محمد سليمان، صدر فى دار نهضة مصر عام 2006.
- الكتاب التذكارى للمتحف المصرى بالقاهرة وبرلين عن مؤسس علم المصريات بالمانيا - ليبسيوس، وصدر فيهما عام 2007 تحت عنوان "ليبسيوس - البعثة الاستكشافية الألمانية على أرض النيل".
- مقال المستشرق الألمانى فولفديتريش فيشر "فى نشأة التدوين وضبط كتابة اللغة العربية" عام 2008 والمنشور فى الكتاب التذكارى "فى اللغة والأدب والحضارة" تكريما للأستاذ الدكتور عونى عبدالرءوف.
- كتاب "مواطن الاقتصاد - مواطن الدولة - المواطن العالمى. الأخلاق السياسية فى عصر العولمة" تأليف أوتفريد هوفه (2009)، بتكليف من معهد جوته الألمانى بالقاهرة وإصدارات المركز القومى للترجمة.

وهذا النفور من التلامس يلازمنا حتى أثناء وجودنا بين الناس. فقد أملت علينا هذه الرهبة اسلوب حركتنا فى الطريق بين كثيرٍ من الناس، وكذلك فى المطاعم والقطارات والحافلات. حتى إذا اقتربنا كثيراً من آخرين، وكان بوسعنا تأملهم ومعاينتهم بدقة، فإننا نتفادى أى احتكاكٍ بهم قدر الإمكان. فإذا ما فعلنا ذلك يكون هناك شىءٌ ما قد أثار إعجابنا، فنبادر بالاقتراب منهم. أما الاعتذار السريع المعبر عن احتكاكٍ غير متعمد، والقلق انتظاراً لذلك، ورد الفعل الحاد، الذى يكون جسدياً أحياناً -حتى لو لم يحدث ذلك- والنفور والكراهية تجاه من ارتكب ذلك، حتى مع الشك أنه ارتكب ذلك، فإن هذه السلسلة الكاملة من ردود الفعل النفسية تجاه ملامسة الغريب فى حالاتها المتقلبة المتطرفة المستفزة تثبت أن الأمر هنا يدور حول شىءٍ عميقٍ للغاية ومتيقظٍ ومربكٍ دائماً، إنه شىءٌ يلازم المرء أبداً إذا ما أقام حدوداً حول نفسه. وهذا النوع من الرهبة يسبب الشعور بالاضطراب حتى أثناء النوم حينما يكون المرء غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه.


ISBN 978-977-313-725-0

